

أ. د إسرائيل فنْكلْشْتَايْن

فيـل أشـر سـيلبرمـان

التوراة اليهودية
مكشوفة على حقيقتها

THE BIBLE UNEARTHED

رؤية جديدة لإسرائيل القديمة
وأصول نصوصها المقدسة
على ضوء اكتشاف علم الآثار



ترجمة : سعد رُستُم



التَّوْرَاةُ اليهُوديَّة
مَكْشُوفَةٌ عَلَى حَقيقْتَهَا

رُؤية جَديدَة لإسرائيل القديمَة
وأُصُول نُصُوصهَا المُقدَّسَة
على ضوء اكتشافات علْم الآثار

د. إسرائيل فنكلشتاين
Israel Finkelstein
بروفيسور ورئيس قسم علم الآثار
في جامعة تل ابيب

و

نيل إشر سيلبرمان
Neil Asher Silberman
مؤرخ وباحث أمريكي

التوراة اليهودية
مكشوفة على حقيقتها

رؤية جديدة لإسرائيل القديمة وأصول نصوصها المقدسة
على ضوء اكتشافات علم الآثار

THE BIBLE UNEARTHED

ARCHAEOLOGY'S NEW VISION OF ANCIENT ISRAEL AND THE ORIGIN OF ITS SACRED TEXTS

ترجمه عن الإنكليزية ، وقدم له ، وعلق عليه
سعد رستم



مُقدِّمة المُتَرْجِم

بسم الله الرّحمن الرّحيم، نحمدُ اللهَ - تعالى - أنْ هدانا لدينه القويم، وأكرمَنَا بقُرآنه الكريم، كتابٌ لا يَأْتيه البَاطلُ من بَيْن يَدَيْه، وَلا منْ خَلْفه، تَنزيلٌ من حكيمٍ حَميدٍ، تكفَّل اللهُ - تعالى - نفسه بحفْظه من كُلِّ تحريف وتبديل، أو زيادة، أو نُقصان. ونُصلِّي، ونُسلِّم على خاتم النَّبيِّين، وصفوة البشر أجمعين؛ سيِّدنا مُحمَّد بن عبد الله، الصّادق الأمين، وعلى جميع الأنبياء والمُرسَلين، ومَنْ سار على نَهْجهم إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعدُ؛ فيقول الحقُّ عزَّ شأنه:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ البقرة/ 79.

ويقول عن اليهُود:

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ آل عُمران/ 78.

أجل؛ كَتَبَ أحبارُ اليهُود قديماً كُتُباً وأسفاراً أضافوها للتّوراة، ونسبوها للّه، وحرَّفوا الكَلم عن مواضعه.. ثُمَّ جاء مَنْ بعدهم، وبنى على ما سبق، وعدَّ كُلَّ أسفار ما يُسمَّى بالكتاب المُقدَّس العبْريّ The Hebrew Bible إلهاميَّة من الله، وكلمة الله الحقَّة، رغم اعترافهم أنَّ مُؤلِّفي كثير من تلك الأسفار كُتَّابٌ مجهولون، وأنَّ كثيراً من تلك الأسفار أُلِّفَ على مراحل، وجمِّع من عدَّة مصادر، واستند مُؤلِّف كُلِّ مصدر فيه إلى مصادر خارجيَّة مُتعدِّدة!

وكانت الطّامّة أنْ استندت الحَركَة الصّهيونيّة الاستعماريّة في القرنَيْن الأخيرَيْن إلى نُصُوص التّوراة العبْريّة المُحرَّفة لتبرير احتلالها لما اعتبرتْهُ الأرضَ الموعودةَ الممنوحةَ لها من الله، وأخذت تعيث ظُلماً وفَسَاداً وقَتْلاً وهَدْمَاً، مُستندةً لنُصُوص توراتيّة، ما أنزل اللهُ بها من سُلطان، كما أخذت تُهدِّد بناء المسجد الأقصى قبْلَة المُسلمين الأُولى؛ بحُجَّة البحث عن الهيكل السُّلَيْمَاني الكبير المزعوم...

مُنْذُ عصر النّهضة والتّنوير في أورُوبا، وُضِعَتْ الكُتُب المُقدَّسة اليهُوديّة والمسيحيّة على بساط البحث، وصارت تُشْرَح، وتُدْرَس دراسة موضوعيّة علْميّة، تعتمد على العلم اللُّغوي لدراسة النُّصُوص، وعلى مُكتَشَفَات علْم الآثار، وبدأت تظهر نتائج تتَّفق وتنسجم مع تلك الحقيقة التي قالها الإسلام مُنْذُ أكثر من ألف عام؛ من أنَّ الكُتُب المُقدّسة التي بأيدي اليهُود والنّصارى تتضمَّن المُنَزَّل الأصيل والدّخيل المُضاف، وبالتّالي؛ تتضمَّن الحقَّ والخُرافة، والتّاريخ والأُسطُورة.

لكنْ؛ أنْ يأتي مثل هذا الإقرار على لسان مُحقِّقَيْن يهُوديَّيْن: أحدهما إسرائيلي، والآخر أمريكي، صاحبَيْ خبرة طويلة في التّنقيبات الآثاريّة وعلْم الآثار، فإنَّ هذا - بلا شكٍّ - يُعطي لإقرارهما وزناً كبيراً، لا يُعادله شيء؛ لأنَّ شائبة التّحامل والإغراض بريئة منه تماماً.

ومن هُنا؛ تأتي أهميَّة هذا الكتاب الذي قام بتأليفه رائدان من رُوَّاد علْم الآثار والتّحقيق في الكُتُب المُقدَّسة على ضوء المُكتَشَفَات الآثاريّة: الأوّل: اليهُودي الإسرائيلي الدُّكتُور في علْم الآثار إسرائيل فنْكَلْشْتَايْن **Israel Finkelstein** رئيس قسم علْم الآثار في جامعة تلّ أبيب، ومُدير بعثة التّنقيب في موقع "مَجدُّو" **Megiddo** (أرمجدُّون القديمة)، وصاحب خبرة تُقارب الثّلاثين عاماً في الحفريّات الآثاريّة في أرض فلسطين المُحتلّة، والثّاني: اليهُودي الأمريكي "نيل إشر سيلْبرْمَان" **Neil Asher Silberman**، مُؤلِّف سلسلة الكُتُب النّاجحة والمُثيرة عن الأبعاد السّياسيّة والثّقافيّة لعلْم الآثار. قدَّم المُؤلِّفان في كتابهما الذي سمَّياه: "**The Bible Unearthed**" - وترجمناه بعبارة: "التّوراة اليهُوديّة (العبْريّة) مَكْشُوفَةٌ على حقيقَتها" - دراسة نَقْديّة مُفصَّلة للرّوايات والقَصَص التّاريخيّة التّوراتيّة، التي تتحدَّث عن نشأة شعب إسرائيل، وقيام دُوَيلةٍ له في جُزء من أرض فلسطين قبل حوالي ألف عام من ولادة المسيح،

مُسْتَنِدَيْن لنتائج العشرات من أعمال التّنقيب والحفريّات الآثاريّة في أرض فلسطين، ومصر، والأُردُن، ولُبْنَان، ليُقدِّما فَهْمَاً وتصوُّراً جديداً جريئاً عن فترة الحُكْم اليهُودي القصيرة تلك، بالإضافة إلى رُؤية جديدة بشأن القَصَص التّاريخيَّة التّوراتيَّة الأساسيَّة المشهورة.

وكان كتابهما مُثيراً جداً، واستفزازيّاً لليهُود؛ لأنَّه يتحدَّى الفكرة السّائدة لدى عامَّتهم بأنَّ التّوراة (العبْريَّة)، أو الكتاب المُقدَّس العبْري Hebrew Bible، هُو كلمة الله التي دُونها رجال ومؤلِّفون مُلْهَمُون من الله؛ حيثُ أَظْهَرَ الكتابُ ـ بشَكْل واضح ـ أنَّ التّوراة العبْريَّة ـ بشَكْلها الحالي ـ كان قد كَتَبَهَا كَهَنَةُ يهُود في عهد حكْم الملك المُستقيم "يُوشيَّا" ملك يهُوذا في القرن السّابع قبل الميلاد؛ أيْ بعد فترة طويلة من الزّمن، الذي يُفْتَرَض أنَّها أُنْزِلَت فيه، في مُحاولة بُطُوليَّة أخيرة من قبَل بعض كَهَنَة دولة يهُوذا الجنوبيَّة الصّغيرة لإبقاء إيمانهم حيّاً، بعد فناء المَمْلَكَة الأغنى والأكبر لإسرائيل في الشّمال، وأنَّهم أَوْرَدُوا فيها ما يُحقِّق أغراضاً دينيَّة إصلاحيَّة مُعيَّنة، ويخدم الطُّمُوحات الإقليميَّة للملك "يُوشيَّا"، الذي كان يسعى لتوحيد شعب إسرائيل، وضَمّ أراضي مَمْلَكَة إسرائيل الشّماليَّة السّابقة ـ التي فتحها الآشُوريُّون ـ إلى مَمْلَكته الجنوبيَّة.

يُركِّز هذا الكتاب ـ إذنْ ـ على التّحقيق في ما تُخبرنا به نتائج وبيانات علْم الآثار عن التّوراة العبْريَّة ومُحتوياتها، فيبدأ كُلُّ فصلٍ من فُصُوله بعرض الرّواية التّوراتيَّة، ثُمَّ يُعقِّب بذكْر ما تقترحه المُكتَشفَات الآثاريَّة؛ ليقارنَ بَيْنها وبَيْن الرّواية التّوراتيَّة، فَتُفْصَل الأُسطُورةُ عن الحقيقة التّاريخيَّة.

وكانت النّتائج التي توصَّل إليها المُؤلِّفان العلْمانيَّان في هذا الكتاب طعنةً في صميم المُعتقدات اليهُوديَّة التّقليديَّة، وتحطيماً للرُّمُوز الدِّينيَّة التّقليديَّة لليهُود؛ حيثُ استخدم الباحثان نتائج الأبحاث الآثاريَّة الأخيرة لتقديم صُورة جديدة بشَكْل مُثير ومُحطِّم لكُلّ الأفكار المشهورة المعروفة حول إسرائيل القديمة وجيرانها.

لقد استدلاَّ بأنَّ الأدلَّة الحاسمة (أو نَقْص الأدلَّة المُؤيِّدة) الذي تُفيده الحفريَّات والتّنقيبات الآثاريَّة في كُلٍّ من فلسطين، ومصر، والأُردُن، ولُبْنَان، تقترح أنَّ العديد من القَصَص الأكثر شُهرة في التّوراة العبْريَّة ـ رحلات الآباء: إبراهيم، وإسحق، ويعقُوب، الخُرُوج الجماعي من

مصر، غزو بني إسرائيل بقيادة يشُوع (تلميذ مُوسى) لأرض كَنْعَان، الحُكْم المَلَكي المُتَّحد لداود وفُتُوحاته في كَنْعَان، وإمبراطُوريَّة سُلَيْمَان الواسعة - إنَّما تعكس - في الواقع - عالَمَ المؤلِّفِيْن التَّالِيْن للتّوراة بشَكْلها النّهائي، بَدَلاً من عكسها لحقائق تاريخيَّة أصيلة ودقيقة.

ويُمكن تلخيص الاستنتاجات التي ادّعاها المُؤلّفان كالتَّالي:

1 - ليس هُناك دليل علمي على الوُجُود الحقيقي لشخصيَّات مثل إبراهيم، أو أيٍّ من الآباء كإسحق، ويعقُوب، ورحلاتهم من أور، إلى حاران، إلى حبرون (الخليل)، والأمر نفسه بالنّسبة لشخصيَّة مُوسى، وقصَّة الخُرُوج الجماعي من مصر؛ والأمر نفسه بالنّسبة للفترة الكاملة للقُضَاة، والحُكْم المَلَكي المُتَّحد لداود وسُلَيْمَان. في الحقيقة؛ يُحاول المُؤلّفان إثبات أنَّه من غير المُمكن علْمياً إثبات الكثير من كُلِّ ما يتعلَّق بإسرائيل القديمة قبل القرن السّابع قبل الميلاد؛ أيْ حوالي عهد الملك "يُوشيَّا"، الذي كُتِبَتْ في عهده قصَّة التّوراة العبْريَّة بشَكْل يتناسب - بنَحْو فريد - مع هدف تقوية الإصلاح الدِّيني، وتحقيق الطُّمُوحات الإقليميَّة لدولة "يهُوذا" تحت حُكْم "يُوشيَّا".

2 - لا تُؤيِّد الأدلَّة الآثاريَّة رواية الخُرُوج الجماعي من مصر، بالشَّكل والأعداد والطّريقة التي تذكرها الرّواية التّوراتيَّة العبْريَّة، بل حتَّى لا يُوجد دليل علْمي أكيد على وُجُود شخصيَّة مُوسى الموصوفة في التّوراة العبْريَّة، ولا على كُلِّ قصَّة التَّجوُّل في البرِّيَّة، والعجل الذّهبي، والصُّعُود إلى سيناء... بل الأرجح - في نَظَرهما - أنَّه لم تكن هُناك أصلاً فترة عُبُوديَّة في مصر في تاريخ شعب إسرائيل[1].

---

(1) ممَّا يجدر التّنبيه إليه في هذا المقام أنَّ المُؤلّفَيْن إنَّما يردَّان تلك القَصَص التّوراتيَّة نَظَراً لما تحتويه من تفاصيل عَدَديَّة أو تاريخيَّة أو جَغرافيَّة أو تفاصيل في أسماء أعلام أشخاص.. إلخ، لا تتناسب مع الزّمن المُفترض أنَّها أُلِّفت فيه، ولا مع الحقائق التّاريخيَّة التي أثبتها علْم الآثار، لكنَّ هذا لا يُتيح لهم إنكار أصل القَصَص من أساسها جُملة و تفصيلاً؛ إذْ قد تكون من أصل صحيح، ثُمَّ أقحمت فيها - مع الزّمن - تلك التفاصيل. أمَّا القُرآن؛ فإنَّه في روايته لتلك القَصَص لا يذكر أيَّ تفاصيل جَغرافيَّة أو عَدَديَّة أو تاريخيَّة مُحدَّدة أو أسماء أعلام. فليس فيه أيُّ شيء يتناقض مع المُعطيات الآثاريَّة. وقد بَحَثَ الطّبيب الجرَّاح الفرنسي "مُوريس بُوكاي" هذه النُّقطة في كتابه "التّوراة والإنجيل و القُرآن: دراسة الكُتُب المُقدّسة في ضوء المعارف الحديثة"، وتوصَّل إلى وُجُود تحريف وأخطاء في التّوراة و الإنجيل الحاليَّيْن، بعكس القُرآن الذي لم يجد فيه أيَّ خطأ تاريخي أو علْمي واستدلَّ بذلك على نُبُوَّة مُحمَّد وكون القُرآن كتاباً مُنزلاً من عند الله ليس لخُلُوِّه من أيِّ خطأ علْمي أو تاريخي أو جَغرافي فحسب، بل لاحتوائه إشارات لأمور علميَّة لم تُكتَشَف إلاَّ حديثاً.

3 ـ لم يقم "يشُوع بن نُون" بحَمْلَة غزوات مُوحَّدة لفَتْح أرض كَنْعَان، بل العبْرانيُّون (اليهُود)/ الإسرائيليُّون، إمَّا كانوا مُهاجرين انتقلوا من مصر إلى كَنْعَان، أو كانوا مجموعة ثقافيَّة غامضة، أو طبقة من النّاس من أهالي كَنْعَان نفسها، ليس لها أصلٌ، أو جدٌّ واحدٌ تحدَّرَتْ منه، ففكرة وُجُود عرْق خاصٌّ باسم بني إسرائيل فكرة مُخترَعَة في رأي الكاتبَيْن، وأنَّ العبْرانيِّين / الإسرائيليِّين إنَّما ارتفع شأنهم في ظُرُوف مُعيَّنة بشكْل تدريجي، حتَّى وَصَلُوا للهَيْمَنَة على جُزْء من أرض فلسطين لفترة من الزّمن، أمَّا فُتُوحات كَنْعَان المذكورة في أسفار التّوراة، مثل سفْر يشُوع والقُضَاة . . ؛ فهي ليست حقيقيَّة، بل كُتِبَتْ فيما بعد؛ لتبرير فُتُوحات "يُوشيَّا" الشّماليَّة .

4 ـ داود وسُلَيْمَان وُجدَا تاريخيّاً، لكنَّهما كانا أقرب إلى رئيسَيْ عشيرة منهما إلى مَلكَيْن بالمعنى الحقيقي للكلمة، ولم يقوما بأيٍّ من الأعمال العظيمة المرويَّة في التّوراة العبْريَّة، فلا داود فَتَحَ كَنْعَان، ولا ما جاورها، ولم يقمْ بفُتُوحات أصلاً، بل كانت دولته ـ إنْ صحَّ التّعبير ـ مجموعة قُرَى جبليَّة مُنعزلة نائية، لا وزن لها، ولا يُؤبه بها في منطقة التّلال والمُرتفعات الوُسْطَى في أرض كَنْعَان، كما أنَّ سُلَيْمَان لم يبنِ أيَّ هيكل (معبد) هائل، وحتَّى المعبد العادي الذي بناه انهدم كُلّيّاً في الغزوات المُتلاحقة ضدَّ أُورشليم (القُدْس)، وما تبعها من هَدْمٍ وحَرْقٍ مُحَّت آثاره تماماً، لا سيما أنَّها اختلطت بخرائب الأبنية المُتعدِّدة التي بُنِيَتْ ـ فيما بعد ـ في مكانه، وخُرِّبت ـ أيضاً ـ عدَّة مرَّات، وصار الكُلُّ أثراً بعد عَيْن .

فالأوصاف التي نجدها في التّوراة العبْريَّة للملك داود وإمبراطُوريَّة سُلَيْمَان، وفُتُوحاتهما، وقُصُورهما كُلّها مُبالغات لا أساس تاريخي علْمي لها . أمَّا القُصُور التي وُجدت في التّنقيبات الأثريَّة، ونُسبت إلى سُلَيْمَان؛ فهي ـ في الواقع ـ لمُلُوك إسرائيل الفَسَقَة المُرتدُّون إلى الوَثَنيَّة من بيت "عُمْري" .

5 ـ لم يكن هُناك دين يهُوديٌّ مُوحَّد في أغلب تاريخ يهُودا / إسرائيل القديمة، بل كانت هُناك في مناطقهما المُختلفة، خاصَّة الرّيفيَّة منها، آلهةٌ أُخرى عُبِدَت سويَّةً مع يَهْوَه .

وبعد؛

فَغَنيٌّ عن القول، أنّنا كَمُسلمين، لا نشكُّ، ولا نرتاب ذرّةَ رَيْبٍ في حقيقة قَصَص أبي الأنبياء إبراهيم خليل الرّحمن، وابنَيْه إسماعيل وإسحق، وقصّة يعقُوب (إسرائيل)، وأولاده الأسباط الاثنَيْ عشر، وقصّة يُوسُف، وقصّة استعباد بني إسرائيل في مصر، وقَتْل أبنائهم، واستحياء نسائهم، ثُمَّ إنقاذ مُوسى لهم، وخُرُوجه بهم عبْر البحر، وإغراق فرعون وآله بمُعجزات صَنَعَهَا اللهُ القدير، وتكليم الله تعالى لمُوسى على الجبل، وإنزال الوصايا والشّريعة؛ أيْ التّوراة، واختيار الله لبني إسرائيل، وتفضيلهم على الشُّعُوب الوَثَنيَّة المُجاورة، وأمرهم بالدُّخُول للأرض المُقدّسة التي كَتَبَهَا الله لهم، واجتباء الله تعالى لداود، وإنزاله الزّبور عليه، ومنحه سُلَيْمَان قُوَّة ومُلكاً عظيمَيْن. وينطلق إيماننا بهذه الحقائق ممّا أخبرنا به القُرآن الكريم، الذي قامت كُلُّ الدّلائل العلْميَّة والعَقْليَّة والوُجدانيَّة على أنَّه الوثيقة الإلهيَّة النَّقيَّة الوحيدة التي حفظها الله تعالى كما أُنْزلت، وبحفْظها حُفظَ ذلك التُّراث النَّبويّ، الذي لولاه لما كان هُناك سبيل علْمي آخر لإثبات تفاصيل تلك الحقائق:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ القَصَص/ 43 ـ 46.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ يُوسُف/ 102.

وبالتَّالي؛ فمن البديهي أنّنا لا نتّفق مع المُؤلّفَيْن في كثيرٍ من آرائهما واستنباطاتهما التي لا يخفى على القارئ أنَّ فيها الكثير من التَّحكُّم والمزاجيَّة، أو بتعبير أدقّ؛ التَّأثُّر بالخلفيَّة الإيديُولُوجيَّة المادّيَّة التي تنفي ـ جُملة وتفصيلاً ـ عالم الغيب وما وراء الطّبيعة المادّيَّة، بل حتَّى المُؤلّفَيْن نفسَيْهما لا يُخفيان أنَّ كثيراً من اقتراحاتهما هي مُجرَّد تخمينات واحتمالات، لذلك

نجدهما يُكثران جداً من استعمال ألفاظ مثل: "على ما يبدو"، "والظّاهر أنَّه"، "يبدو أنَّه"، "احتمالاً"، "في الغالب"... هذا من جهة، ومن جهة أُخرى؛ فإنَّ عدم العثُور على أثر مادّي على شيء لا يكفي وحده دليلاً على القَطْع بنَفْي وُجُود ذلك الشّيء، وإنَّما أقصى ما يُفيده أنَّه ليس لدينا الدّليل المادّي المرئيّ لإثباته حالياً.

إذنْ؛ فعلى القارئ لهذا الكتاب - كما عليه عند قراءته لأيّ كتاب - أنْ يُحكِّمَ عقْله، ويقرأ بحَذَرٍ وتنبُّه، ويُميِّز - دائماً - بيْن الدّليل العلْمي، والآراء، وَالفَرَضيَّات القابلة للنَّقْض، أو الإثبات..

إنَّ ما يُفيدنا من هذا الكتاب هُو بُطلان الدّعاوي الصّهيونيَّة في أرض فلسطين؛ استناداً لتواجدهم القديم فيها، أو أنَّها أرض الميعاد، على لسان اثنَيْن من كبار عُلمائهم أنفسهم، اللّذَيْن أكَّدا أنَّ فلسطين كانت - وظلَّت دائماً - مسكونة من عدَّة شُعُوب، تتالوا عليها، أو تجاوروا فيها: اليبوسيُّون، الكَنْعَانيُّون، الفلسطينيُّون، العماليق، العَرَب.. وأنَّ الإسرائيليِّين لم يكونوا إلاَّ مجموعة هامشيَّة فوضويَّة نَمَتْ وسيطرت لفترة قصيرة على منطقة محدودة من المُرتفعات والتّلال المركزيَّة في فلسطين، في حين كانت بقيَّة فلسطين مسكونة من الكَنْعَانيِّين والفلسطينيِّين، وغيرهم، وأنْ لا صحَّة لتلك الفُتُوحات الإقليميَّة والتَّوسُّعيَّة المنسوبة لداود وسُلَيْمَان، ولا لبناء ذلك الهيكل الكبير المزعوم.

أمَّا كون الله وَعَدَ بني إسرائيل تلك الأرض؛ فإنَّ هذا الوعد كان مشروطاً باتِّباع أنبيائه، والعمل بوصاياه، ومادام أنَّ اليهُود كذَّبوا أنبياءه، وقتلوا عدداً منهم، وخانوا وصاياه، وحرَّفوا دينه، وكذَّبوا بآخر نبيَّيْن عظيمَيْن كبيرَيْن: عيسى المسيح، ومُحمَّد المُصطفى، عليهما الصّلاة والسّلام، بل حاولوا - أيضاً - قَتْلَهُمَا، فما عادوا مُستحقِّين لهذا الوعد على الإطلاق، بل أصبح الوعد لمَنْ أصغى إلى كلمة الله، واتَّبع كُلَّ أنبيائه؛ وهُم المُسلمون، فالله عادل، وليس عنده مُحاباة أبديَّة لشعب من الشُّعُوب، بل شعبه وأحبَّاؤه هُم المُتَّبعون لوصاياه وأوامره، المُصدِّقون بجميع أنبيائه.. ففلسطين أمانة الله لشعب الله: المُسلمون المُؤمنُون المُوحِّدون المُصدِّقون بجميع أنبيائه ورُسُله؛ لا سيما خاتمهم وأفضلهم سيّدنا مُحمَّد المبعوث رحمة للعالمين، والإسلام - اليوم - هُو الدِّين الوحيد الذي يعترف بجميع الأنبياء، ولا يُكذِّب

بأحد منهم، وهُو الوحيد الذي يستوعب سائر الأديان، ويعترف بوُجُودها، ويأمر باحترام أتباعها، والبرّ بأهلها، والتّسامح معهم، ويُؤمن بحُرّيّة العقيدة، وأنْ لا إكراه في الدِّين، بعكس الأديان المُحرَّفة، التي تَضطهد مُخالفيها، وتسعى لاستئصالهم، وطَرْدهم من الأرض.

بهذا أختتم هذه المُقدِّمة؛ آملاً أنْ يُعيد الله العزَّة والمجد للأُمَّة الوَسَط: أُمَّة الإسلام، ويُعيد الأراضي والحُقُوق المُغتصبة لأصحابها في فلسطين وسائر بُلدان المُسلمين، إنَّه وليّ الإجابة، القويّ، المتين.

سعد رُستُم

ملاحظة: *لتمييز الحواشي التي في أصل الكتاب عن الحواشي التي أضافها راقم السُّطور (المُتَرْجم) تمَّ تذييل الحواشي التي لمُؤلِّفيْ الكتاب بعبارة (المُؤلِّف)، والحواشي التي أضفتُهَا من عندي بعبارة (المُتَرْجم).*

شُكْرٌ وتقدير

وُلِدَتْ فكرة هذا الكتاب قبل ثمانية سنوات تقريباً، أثناء عُطلة نهاية أُسبُوعٍ صيفيَّة هادئة مع عائلاتنا على ساحل "مين" Main [1]. أخذ النّقاش حول الثّقة التّاريخيَّة للكتاب المُقدَّس (العبْري)، يجذب - من جديد - انتباهَ الكثيرين خارج الدّوائر العلْميَّة، وأدركنا أنَّ هُناك حاجة لكتابٍ جديدٍ ومُحَدَّث حول هذا الموضوع، يُقَدِّم للقارئين العُمُوميّين (غير المُتخصّصين)، سنعرض فيه ما نعتقد أنَّه أدلَّةٌ آثاريَّة وتاريخيَّة مُلْزِمَةٌ لفَهْمٍ جديدٍ لبُرُوز ونشأة إسرائيل القديمة، وظُهُور نُصُوصها التّاريخيَّة المُقدَّسة.

في السّنوات البَيْنيَّة، ازدادت حدَّة معركة علْم الآثاريَّة حول التّوراة. وتحوَّلت - في بعض الأزمنة والأمكنة - إلى هجمات شخصيَّة واتّهَامات ذات دوافعَ سياسيَّة خفيَّة. هل حَدَثَ الخُرُوج الجماعيُّ (لبني إسرائيل من مصر)؟ هل كان هُناك غزوٌ لكَنْعَان؟ هل حكَمَ داود وسُلَيْمَان - حقيقةً - إمبراطُوريَّة واسعةً؟ أثارت مثل هذه التّساؤلات انتباه صُحُفيّين ومُعلّقين في جميع أنحاء العالم.

وفي أغلب الأحيان؛ ابتعدت المُناقشة العامَّة لكُلِّ هذه التّساؤلات بعيداً عن حُدُود علْم الآثار الأكاديمي والنَّقْد العلمي التّوراتي، إلى حقل النّزاعات العقائديَّة الدِّينيَّة واللاَّهُوتيَّة المحمومة.

على الرّغم من العواطف التي يُثيرها البحث في مثل هذا الموضوع، فإنَّنا نعتقد أنَّ إعادة تقييم الاكتشافات، النّاجمة عن التّنقيبات الأخيرة، والاكتشافات المُستمرَّة، النّاتجة من أعمال الحفر الجديدة، قد أوضحت للعُلَماء - بشَكْلٍ بَيِّنٍ - أنَّ عليهم أنْ يُقاربوا مسائل أُصُول التّوراة، أو الكتاب المُقدَّس (العبْري)، وأُصُول المُجتمع الإسرائيلي القديم، من منظورٍ جديدٍ تماماً.

---

(1) "مين" Main: ولاية أمريكيَّة تقع في أقصى شمال السّاحل الشّرقي للولايات المُتّحدة على الحُدُود مع "كَنَدا". (المُترجم)

في الفُصُول التّالية ، سنُقدِّم أدلّةً لتعزيز ذلك الزَّعْم ، ولإعادة بناء تاريخٍ مُختلف جداً لإسرائيل القديمة . وعلى القُرَّاء أنْ يحكموا لأنفسهم إذا تلاءمَتْ إعادة بنائنا للتّاريخ ، مع الأدلّة المذكورة .

ولكنْ؛ قبل أنْ نبدأ ، يجب أنْ نُشير إلى بضعة موادّ بخُصُوص المصادر والتّرجمات الصَّوتيَّة . لقد استقينا كُلَّ اقتباساتنا المُباشرة من النَّصّ التّوراتي من نُسخة "التّرجمة القياسيَّة المُراجَعَة للكتاب المُقدَّس العبْري" Revised Standard Version of the Hebrew Bible . وبالرّغم من أنَّنا اتَّبعْنا تلك التّرجمة القياسيَّة المُراجعة ، إلاَّ أننا في إحالاتنا لأسماء إله إسرائيل ، ضمن الاقتباسات ، استخدمنا في نُصُوصنا الاسم "يَهْوَه" المُؤلَّف من أربعة حُرُوف YHWH للإشارة إلى الاسم الواضح للّه : أمَّا في النُّسخة القياسيَّة المُراجَعَة ؛ فإنَّ كلمة يَهْوَه عُبِّر عنها بكلمة "الرَّبّ" Lord ، بَيْنما كلمتا إيلوهيم Elohim ، أو إيلوهي Elohei ؛ فقد تُرْجمَت بكلمة "الله . "

أمَّا بالنّسبة للجدول التّاريخي للأحداث التّوراتيَّة ، بكُلّ شُكُوكه ومطبَّاته (مخاطره) ، فقد قرَّرنا أنَّ الجَمْعَ بَيْن عدَّة أنظمة تأريخ سيُزَوِّدنا بأفضل مُوافقة أو تطابق مع الحقائق الآثاريَّة البارزة : بالنّسبة للفترة من بداية الحُكْم المَلكي لإسرائيل إلى وقت "آخاب" Ahab ، اتَّبَعْنا التّواريخ المذكورة في كتاب "الجدول الزّمني لمُلُوك إسرائيل ويهُوذا" The Chronology of the Kings of Israel and Judah ، طبع ليدن ، 1996) لمُؤلِّفه : "غيرشون غاليل" Gershon Galil . أمَّا بالنّسبة لتواريخ العهُود اللاَّحقة لمُلُوك إسرائيل ويهُودا ؛ فقد اتَّبَعْنا مقالة "مُورْدخَاي كُوجَن" Mordecai Cogan حول "تاريخ الأحداث" في قاموس مُرتَكَز (أو سَنَد) الكتاب المُقدَّس Anchor Bible Dictionary (طبع نيُو يُورك ، 1992) .

لا شكَّ أنَّه قد بقيت العديد من الشُكُوك في تلك الجداول الزّمنيَّة التّاريخيَّة (كالتي تتعلَّق بالتّواريخ الدّقيقة للمُلُوك الأوائل ، أو اشتراك أكثر من وَصيّ على العرش في الحُكْم بنَحْو مُتزامن ، أو التّناقضات ضمن المادّة التّوراتيَّة) ، لكنَّنا نشعر أنَّه ـ بشكْل عامٍّ ، بالنّسبة لأغراض مثل هذا الكتاب العامّ ـ فإنَّ ذلك المُخطَّط الزّمني التّاريخي يُعَدُّ موثوقاً .

قدّمت التّنقيبات المُجدَّدة في تَل "مَجدُّو" Megiddo ـ التي قامت بها جامعة تل أبيب بالمُشاركة مع جامعة "ولاية بنسيلفانيا"[1] ـ فُرصَة فريدةً للتّفكير، والتّأمُّل مليّاً، ومُناقشة المادّة التي يحتويها هذا الكتاب، مع الزُّملاء. لذا؛ نودُّ أنْ نتقدَّم بشُكرنا الخاصّ إلى المُديرين المُشاركين الآخرين في بعثة "مَجدُّو" الآثاريّة: الأساتذة ديفيد أوسّيشكين David Ussishkin، و"باروخ هالبرن" Baruch Halpern، وإلى العديد من أعضاء فريق ومُوظّفي بعثة "مَجدُّو"، الذين لعبوا ـ على مرّ السّنين ـ مثل هذا الدّور المُهمّ في التّنقيب والعمل العلمي الأوسع لعلم الآثار التّوراتي.

قام بالبحث والكتابة الأوّليّة لهذا الكتاب كُلٌّ من "إسرائيل فنْكلشْتَايْن" Israel Finkelstein أثناء سنة تفرُّغه في باريس، و"نيل أشر سيلْبرْمان" Neil Asher Silberman في مدينة "نيو هفن" New Haven [2]. وقد ساعدَ الصّديق الزّميل البرُوفسُور "بيير دي ميروشدجي" Pierre de Miroschedji في جَعْل أوقاتنا في باريس مُثمرةً ومُمتعةً. أثناء كتابة هذا الكتاب، قدّمت لنا كُلٌّ من مكتبة معهد علْم الآثار في جامعة تل أبيب؛ ومكتبة المعهد الكاثُوليكي، ومكتبة مركز علْم الآثار الشّرقي في السُّوربُون، ومكتبة قسم الدّراسات السّاميّة في "معهد فرنسا" في باريس؛ وفي جامعة "ييل" Yale [3]: المكتبة التّذكاريّة المُمتازة، ومكتبة "مدرسة ييل للاّهُوت"، تسهيلات مُمتازة للبحث.

كما نُعرب عن تقديرنا العميق لـ "جُوديث ديكل" Judith Dekel من معهد علْم الآثار في جامعة تل أبيب، الذي هيّأ الخرائط، والمُخطّطات، والرُّسُوم التي تظهر في هذا الكتاب.

---

(1) بنسيلفانيا Pennsylvania: ولاية أمريكيّة شرق الولايات المُتّحدة، تقع ـ مُباشرة ـ غرب ولاية نيُو يُورك، عاصمتها مدينة "فيلادلفيا". (المُترجم).

(2) "نيو هفن" New Haven: ميناءٌ جنوبَ ولاية "كونكْتيكَت" Connecticut الأمريكيّة التي تقع شمال السّاحل الشّرقي للوَلايات المُتّحدة بين ولايَتيْ ماساتشوسيت و نَيُو يُورك. (المُترجم).

(3) إحدى أشهر الجامعات الأمريكيّة العريقة في ولاية "كونكْتيكَت" Connecticut شمال شرق الولايات المُتّحدة، يعود تاريخ تأسيسها لعام 1701 م. وسُمّيت على اسم التّاجر البريطاني المُحسن "إيليهو ييل" Elihu Yale الذي تبرّع بمصروفها. (المُترجم).

أكْرَمَنَـا الأسـاتذة "بـاروخ هـالبرن" Baruch Halpern ، و"نـداف نعمـان" Nadav Naaman ، وجـاك ساسُّـون Jack Sasson ، وديفيـد أوسِّيشـكين David Ussishkin بنصائحهم ومعرفتهم. لقد ساعدتّنا كثيراً تلك الأسئلة ، وإجاباتها التي كُنَّا نقوم بها من خـلال مُكالمات هاتفيَّة في آخر اللّيل مع "نداف نعمان" Nadav Naaman ، و"باروخ هالبرن" Baruch Halpern ، اللّذَيْن ساعدانا على حَلِّ المشاكل المُعقَّدة لتنقيحـات النُّصُوص التّوراتيَّة والتّاريخ التّوراتي. وقد قرأ "باروخ" وناقش معنا - أيضاً - المُسوَّدات الأوَّليَّـة لعديـد مـن فُصُول الكتـاب. إنَّنـا نُعبِّر عـن شُـكرنا لأُولـئـك الأسـاتذة ، ولجميـع الأصدقـاء والزُّمـلاء الآخريـن ، الذيـن استشرناهُم ، على الرّغم من أنَّنا نعترف أنَّ المسؤوليَّة عن النّتيجة النّهائيَّة المطرُوحة فـي الكتـاب تقع بكاملها على عاتقنا فقط.

في نيُـو يُورك ، أَرْشَـدَ وكيلنـا الأدبي "كـارول مـان" Carol Mann المشـروع مـن فكرتـه الابتدائيَّة حتَّى النَّشر. في المطبعة الحُرَّة ، نودُّ أنْ نشكر المُحرِّر المُساعد "دانْيل فريدبرغ" Daniel Freedberg لكفاءته ومُساعدته المُستمرَّة في كُلِّ مراحل العمل. كما كان المُحرِّر الكبير بـروس نيكولز Bruce Nichols مُؤيِّداً مُتحمِّساً لا يعرف الكَلالَ ، لتأليف هـذا الكتـاب ، مُنْذُ البدايـة ، بفَضْل بصيرته النّافذة ومهارته التّحريريَّة ، تحسَّنت مخطوطتُنا النّاشئة بنَحْوٍ لا يُمكن تقديره.

و أخيراً ؛ يستحقُّ أفرادُ أُسْرَتَيْنا - "جوييـل" Joelle و"آدار" Adar وسـارَة فنْكلْشْـتَايْن ، و"إلين" Ellen و"مايا" Maya سيلْبرْمان سهماً عظيماً من التّقديـر والثّنـاء ، لحُبِّهنَّ ، وصـبرهنَّ ، واستعدادهنَّ بكُلِّ رحابة صدرٍ للتَّخلِّي عن العديد من سفرات عُطلة نهاية الأُسبُوع والمُناسـبات العائليَّة أثناء تحرير صفحات هذا الكتاب. لا يسعنا إلاَّ أنْ نتمنَّى أنْ تُبرِّرَ نتيجة جُـهُودنا ، ثقتـهنَّ فينا ، وفي فكرتنا عن كتابٍ حول علْم الآثار والتّوراة ، فكـرةٌ أخـذت شـكلها - لأوَّل مـرَّةٍ - فـي حُضُورهنَّ ، قبل بضع سنوات فقط.

I. F. إسرائيل فنْكلْشْتَايْن

N. A. S. نيل أشر سيلْبرْمان

تمهيد

في أيَّام الملك 'يُوشيًا':

لم يكن العالَم الذي خُلقَت فيه "التّوراة" Bible (أو الكتاب المُقدَّس)[1] عالماً أسطُوريّاً لمُدُن عظيمةٍ وأبطال قدّيسين، وإنَّما كان مَمْلَكَة واقعيَّة صغيرة جداً لأُناس كافحوا من أجل مُستقبلهم ضدَّ جميع المخاوف الإنسانيَّة، من الحرب، والفاقة، والظُّلم، والمرض، والمجاعة، والجفاف. لم تكن تلك القصَّة التّاريخيَّة التي ترويها "التّوراة"، بدءاً من لقاء إبراهيم مع الله، ورحلته إلى كَنْعَان، إلى تخليص مُوسى لبني إسرائيل من العُبُوديَّة، وحتَّى صُعُود وانهيار مَمْلكَتَيْ إسرائيل ويهُوذا، وحياً إعجازيّاً، بل كانت نتاجاً رائعاً للخيال الإنساني الخصب. لقد تمَّ تصورُّها ـ حسبما نستنبطه من الاكتشافات الأثريَّة الأخيرة ـ على مدى جيلَيْن أو ثلاثة أجيال، قبل حوالي ستَّة وعشرين قرناً من الآن.

---

(1) التّرجمة الأدقّ لكلمة ال Bible هي "الكتاب المُقدَّس"، وليس "التّوراة"؛ لأنَّ كلمة Bible أصلها "بيبلوس" اليُونانيَّة، وتعني الكتاب، وهي كلمة أصبحت عَلَماً على "الكتاب المُقدَّس" لدى اليهود والمسيحيِّين، والذي يضمُّ أسفار العهد القديم والعهد الجديد (بالنسبة للمسيحيِّين) أو أسفار العهد القديم ـ فقط ـ بالنسبة لليهُود، لكنَّ بعض المُترجمين يُترجمون كلمة Bible بـ "التّوراة" من باب تسمية الشيء باسم أهمِّ جُزء منه، لأنَّ "التوراة" ـ في الواقع ـ هي الجُزء الأوَّل والأهمّ من كتاب ال Bible الأوسع. وسألجأ لاستخدام اللَّفظتَيْن على نحوٍ تبادلي في ترجمتي لكلمة ال Bible حسبما يقتضيه المقام.

هذا، ومن الجدير بالذِّكْر أنَّ التّوراة هُنا هي غير التّوراة التي ترد في القُرآن الكريم، و التي تُشير ـ فقط ـ إلى "الشّريعة" التي أنزلها الله ـ تعالى ـ على النّبي مُوسى؛ كليم الله عليه السّلام، والتي تتضمَّن الوصايا العشر، وأحكام الشّريعة المُوسويَّة؛ كأحكام العبادات والقرابين والمُحرَّمات والمُعاملات والحُدُود والدّيات . . . إلخ، والتي كانت موجودة بأيدي يهُود المدينة زمن بعثة النّبي عليه الصّلاة والسّلام. ويُؤكِّد هذا أنَّ المعنى اللُّغوي ـ بالعبريَّة ـ للتّوراة: هُو النّاموس أو الشّريعة، ثم صارت علماً للشّريعة المُوسويَّة. أمَّا "التّوراة" الاصطلاحيَّة ـ عند اليهُود والنصارى ـ؛ فلها مفهوم آخر؛ حيثُ دُرج إطلاقها على الأسفار (أيْ الفُصُول) الخمسة الأولى من "الكتاب المُقدَّس" Bible؛ وهي: سفْر التكوين، والخُرُوج، و اللاويِّين (أو الأحبار)، و العَدَد، والتّثنية (أو تثنية الاشتراع). (المُترجم).

كان مسقط رأس تلك القصَّة مَمْلَكَة "يـهُوذا"، التي كانت عبارة عن منطقة حلَّت فيها - بشكْل مُتناثر - مجموعات من الرُّعاة والمُزارعين، يخضعون لحُكْم مدينة مَلَكيَّة خارج الطّريق، توطَّنت - بدُون ثبات - في قلب منطقة التّلال، على الحوافّ الضّيِّقة لوُديان صخريَّة حادَّة.

خلال بضعة عقُود استثنائيَّة من التَّخمُّر الرُّوحي والهَيَجان السّياسي نحو نهاية القرن السّابع قبل الميلاد؛ قام في مَمْلَكَة يهُوذا تحالفٌ، غير مُؤكَّد، من القُضَاة، والكُتَّاب، والكَهَنَة، والفلاّحين، وجاء الأنبياء معهم، ليُنْشئوا حَرَكَة جديدة. كان في لُبِّ تلك الحَرَكَة، ذلك الكتاب المُقدَّس الذي تضمَّن عبقريَّة أدبيَّة ورُوحيَّة فذَّةً. كانت روايته قصَّة مَلْحميَّة نُسجت من مجموعة غنيَّة، بشَكْل مُدهش، من الكتابات التّاريخيَّة، والمُذكّرات، والأساطير، والقَصَص الشّعبيَّة، والحكايات، والدّعايات المَلَكيَّة، والنُّبوءات، والشّعر القديم. خضعت تلك القطعة الأدبيَّة النّادرة - التي تكوَّن جُزء منها من نُصُوص ومصادر أصليَّة حقيقيَّة، والجُزء الآخر كان تأليفاً جديداً - خضعت من جديد لعمليَّات تنقيحٍ وتحريرٍ وتفصيلٍ أُخرى؛ لتُصبح مرتكزاً رُوحيّاً ليس لأحفاد وذُرِّيَّة أهالي يهُوذا فحسب، ولكنَّ لمُجتمعات وجاليات مُتناثرة في جميع أنحاء العالم.

وُلد الجوهر أو اللُّبُّ التّاريخي للكتاب المُقدَّس (التّوراة) في نشاط الشّوارع المُزدحمة لأُورشليم (القُدْس)، في بلاط قَصْر الأُسرة المالكة من آل داود، في هيكل (معبد) إله إسرائيل. وفي تناقض شديد مع المعابد الأُخرى القديمة التي لم تكن تُحْصَى في الشّرق الأدنى، والتي كانت معروفة باستعدادها العالمي لإقامة علاقات دوليَّة مع المعابد المُجاورة، من خلال تعظيم آلهة الحُلفاء ورُمُوزهم الدِّينيَّة، وقف هيكل (معبد) أُورشليم (القُدْس)، بشَكْل مُصرٍّ، وحده. وكَرَدِّ فعْلٍ على سُرعة ووسعة مجال التَّغيُّرات التي كانت ترد إلى مَمْلَكَة "يهُوذا" من الخارج، أعلن زُعماء القرن السّابع ق.م، في أُورشليم (القُدْس)، برئاسة الملك يُوشيَّا (السّليل السّادس عشر للملك داود) أنَّ جميع آثار العبادة الأجنبيَّة تُعتبَر لَعْنَة، وأنَّها - في الحقيقة - السّبب الكامن وراء الشّقاء الذي تُعاني منه مَمْلَكَة يهُوذا الحاليَّة. وانطلقوا في حَرَكَتهم هذه بحَمْلَة تطهيريَّة دينيَّة نشطة في الرّيف، تُنادي بدمار مراكز العبادة الرّيفيَّة، مُعلنةً أنَّها مصدر للشّرِّ. ومُنْذُ ذلك الحين، أصبح هيكل (معبد) أُورشليم (القُدْس)، بحَرَمه

الدّاخلي، ومَذْبَحه، وفناءاته المُحيطة في قمّة المدينة، المكان الشّرْعي الوحيد للعبادة لشعب إسرائيل. وفي ذلك الإبداع، وُلِدَ التّوحيد العصري أو الحديث[1]. وفي الوقت نفسه، ارتفعت طُمُوحات زُعماء يهُوذا السّياسيَّة، الذين طمحوا لجَعْل هيكل (معبد) أُورشليم والقَصْر المَلكي فيها، مركز مَمْلَكة إسرائيليَّة واسعة، كتحقيق لإسرائيل المُتَّحدة الأُسطوريَّة لداود وسُلَيْمان.

كم هُو غريب (على اليهُود) التَّصوُّر بأنَّ أُورشليم (القُدْس) برزت إلى مركز الوعي الإسرائيلي فجأةً وفي زمن مُتأخِّر فقط!. والسّبب في غرابة هذا التَّصوُّر هُو أنّه يصدم ذلك التَّصوُّر الشّائع الذي استطاعت "أسفار الكتاب المُقدّس" (التّوراة)، بقُوَّة تأثيرها القَصَصيَّة الخاصَّة، أنْ تُقنع به العالم من أنَّ أُورشليم مثَّلت - دائماً - مقاماً مركزيّاً لتجربة جميع الإسرائيليّين، وأنَّ ذُرِّيَّة ونسل داود كانوا مُباركين دائماً بقَدَاسَة خاصَّة، بَدَلاً من واقع الأمر، وهُو أنَّهم كانوا مُجرَّد واحدة من العشائر الأرستقراطيَّة التي حاربت لأجل البقاء في الحُكْم، على الرّغم من النّزاعات الدّاخليَّة الأهليَّة، والتّهديدات التي لم يسبق لها مثيل من الخارج.

كم ستبدو مدينتهم المَلكيَّة الواقعيَّة صغيرةً جدّاً في أنظار المُراقبين العَصْريّين! أجل، لقد كانت المنطقة المبنيَّة لأُورشليم (القُدْس) في القرن السّابع قبل الميلاد تمتدُّ على مساحة لا تزيد عن مئة وخمسين هكتاراً فحسب؛ أيْ حوالي نصف حجم المدينة القديمة الحاليَّة لأُورشليم (القُدْس). ولم يُشكّل سُكّانها، الذين كانوا حوالي خمسة عشر ألف نسمة، أكثر من "مدينة سُوق" شرق أوسطيَّة صغيرة تكوَّمت وراء الأسوار والأبواب، ذات أسواق ومنازل تجمَّعت حول غرب وجنوب القَصْر المَلكي البسيط ومُجمَّع الهيكل. الحقيقة هي أنَّ أُورشليم (القُدْس) - فعلاً - لم يسبق لها أنْ كانت أكبر من ذلك. وقد بدأت تلك المدينة تتوسَّع وتنفجر - في القرن السّابع - بتزايد سُكّانها من المسؤولين المَلكيّين، والكَهَنَة، والأنبياء، واللاّجئين، والفلاّحين

---

(1) نقصد بالتّوحيد الإسرائيلي ما دعا إليه "الكتاب المُقدّس" من لُزُوم عبادة الإله الواحد في مكان واحد - هيكل (معبد) أورشليم (القُدْس) - الذي كان مُحاطاً بقداسة خاصَّة. وقد كَشَفَتْ الدّراسات الأكاديميَّة الحديثة عن وُجُود طيف واسع من أنماط العبادة التي يُوجد في مركزها إلهٌ واحدٌ، ولكنَّه ليس فرداً انحصاريّاً (بمعنى أنّه كان مصحوباً بآلهة ثانويَّة وكائنات سماويَّة مُختلفة). ونعترف بأنَّه أثناء الفترة المَلكية المُتأخِّرة، ولُمدَّة طويلة تالية، كانت عبادة الله الإسرائيليَّة مصحوبة - بشكل مُنتظم - بتبجيل مُرافقين قدسيّين وكائنات سماويَّة أخرى. ولكنّنا نقترح بأنَّ التَّحرُّك الحاسم نحو التّوحيد الحديث إنَّما حَصَلَ في عهد الملك "يُوشيّا" Josiah، مُستنداً لأفكار سفر تثنية الاشتراع Deuteronomy. (المُؤلِّف).

المرحَّلين، أو النّازحين. لا يُوجد سوى بضع مُدُن أُخرى، في كُلّ العُصُور التّاريخيَّة، كانت واعية ذاتياً ـ على هذا النّحو الشّديد ـ بتاريخها، وهُويَّتها، وقَدَرها، وعلاقتها المُباشرة مع الله.

تعود هذه التّصوُّرات الحديثة عن أُورشليم القديمة والظُّرُوف التّاريخيَّة التي وُلد فيها "الكتاب المُقدَّس" Bible ـ في جُزء كبير منها ـ إلى الاكتشافات الأخيرة لعلْم الآثار. لقد أحدثت تلك المُكتَشَفَات ثورة في دراسة إسرائيل القديمة، وألقت شُكُوكاً جدّيَّة على الأساس التّاريخي لمثل تلك القَصَص التّوراتيَّة المشهورة؛ كَرَحلات الآباء، والخُرُوج الجماعي من مصر، وغزو كَنْعَان، والإمبراطُوريَّة المجيدة لداود وسُلَيْمَان.

يسعى هذا الكتاب لرواية قصَّة إسرائيل القديمة[1] وولادة كُتُبها المُقدَّسة من منظور آثاري جديد. هدفنا هُو مُحاولة فَصْل التّاريخ الواقعي عن الأُسطُورة، من خلال الأدلَّة التي أثبتَتْهَا الاكتشافات الأخيرة، سنبني تاريخاً جديداً لإسرائيل القديمة، ستلعب فيه بعض أشهر الأحداث والشّخصيَّات المذكورة في مسرحيَّة "الكتاب المُقدَّس العبْري" أدواراً مُختلفةً، بنَحْو يُفاجئ الكثيرين. ورغم ذلك؛ فإنَّ غرضنا ـ في النّهاية ـ ليس مُجرَّد النَّقْد والهَدْم، وإنَّما هُو أنْ نُشْرك القُرَّاء في معرفة أحدث البصائر والرُّؤى التي قدَّمها لنا علْم الآثار ـ والتي ماتزال مجهولة ـ بنَحْو واسع ـ خارج الدّوائر الأكاديميَّة، والتي لا تُوَضّح لنا متى كُتبَت التّوراة فحسب، بل تُوضّح ـ أيضاً ـ لماذا كُتبَتْ، ولماذا بقيت قويَّةً مُؤثّرةً إلى اليوم.

---

(1) في كافَّة أنحاء هذا الكتاب نستعمل الاسم "إسرائيل" في معنيَيْن مُتميّزَيْن وبديلَيْن: الأوَّل هو اسم المملكة الشّماليَّة، والثّاني هُو اسم جماعي لجالية كُلّ الإسرائيليّين. وفي أغلب الحالات؛ نُشير إلى المملكة الشّماليَّة كـ"مملكة إسرائيل" وإلى الجماعة الأوسع كـ"إسرائيل القديمة" أو "شعب إسرائيل." (المُؤلّف).

المُقدِّمة

علْم الآثار والتّوراة:

ترتبط القصَّة التي تشرح كيف ولماذا كُتبَ "الكتاب المُقدَّس (العبْري)" ("التّوراة")، وكيف ينطبق على التّاريخ الاستثنائي لشعب إسرائيل - ارتباطاً وثيقاً بقصَّة مُثيرة وفاتنة من الاكتشافات الحديثة. لقد تركَّز البحث على أرض صغيرة جداً، مُحاطة من جانبَيْن بالصّحراء، ومن جهة أُخرى بالبحر الأبيض المُتوسِّط. أرضٌ أصابَتْهَا - على مَرِّ ألف عامٍ - موجاتٌ مُتكرِّرةٌ من القَحْط والجفاف والحُرُوب، التي لم تتوقَّف تقريباً. كانت مُدُن تلك الأرض وسُكَّانها صغيرة، بالمُقارنة مع الإمبراطُوريَّات المُجاورة في مصر، وبلاد ما بَيْن النَّهرَيْن. وكانت حضارة سُكَّانها - كذلك - سيِّئةً، وحالتهم الماديَّة ضعيفةً، بالمُقارنة مع عَظَمَة وفَخْفَخَة الإمبراطُوريَّات المُجاورة. ورغم ذلك؛ كانت هذه الأرض مسقط رأس قطعةٍ أدبيَّة نادرةٍ، مارست تأثيراً فريداً على الحضارة العالميَّة؛ سواء ككتابٍ مُقدَّس، أو كتاريخٍ مُقدَّس.

لقد مكَّنَتْنَا أكثر من مئتَيْ سنة من الدّراسة المُفصَّلة للنَّصِّ العبْري للكتاب المُقدَّس، والاكتشافات الأثريَّة التي يتَّسع نطاقها بشَكْل مُستمرٍّ، في كُلِّ الأراضي الواقعة بَيْن النّيل ونهرَيْ دجلة والفُرات، من فَهْم: متى، ولماذا، وكيف، ظهر "الكتاب المُقدَّس العبْري" إلى عالم الوُجُود.

لقد قاد التّحليل المُفصَّل للُّغة والأنواع الأدبيَّة المُتميِّزة للكتاب المُقدَّس العُلماءَ إلى تمييز المصادر الشَّفَهيَّة والمكتوبة التي استند إليها النَّصُّ التّوراتي الحالي. وفي الوقت نفسه؛ أنتج علْم الآثار - بنَحْو مُذهل - معرفة موسوعيَّة للظُّرُوف الماديَّة، وللُّغات، والمُجتمعات، والتَّطوُّرات التّاريخيَّة، في القُرُون التي تبلورت - خلالها - تقاليد وسُنَن إسرائيل القديمة بشَكْل تدريجي، وهي قُرُون تمتدُّ على فترة ستُّمئة عام تقريباً، بدءاً من حوالي سنة 1000 ق.م، إلى سنة 400

ق.م، وأهمُّ ما في الأمر، أنَّ التّحليلات النَّصيَّة، جنباً إلى جنب الشّواهد الأثريَّة، مكَّنتَنا من التّمييز بَيْن القُوَّة والشّعر القَصَصي للكتاب المُقدَّس، وبَيْن الأحداث الأكثر واقعيَّة لتاريخ الشّرق الأدنى القديم.

لقد أصبح الوُصُول إلى عالم "الكتاب المُقدَّس العبْري"، واستكشافه كُلّيّاً، مُمكناً وسهلاً اليوم، بنَحْو لم يسبق له مثيل، مُنْذُ قُرُون مُتمادية. فَبفَضْل عمليَّات التّنقيب الآثاريَّة، أصبحنا نعرف - تماماً - ماذا كان يزرع الإسرائيليُّون من حُبُوب وثمارٍ، وماذا كانوا يأكلون، وكيف كانوا يبنُون مُدُنهم، ومع مَنْ كانوا يُتاجرون. ولقد تمَّ اكتشاف عشرات المُدُن والبلدات المذكورة في "الكتاب المُقدَّس العبْري".

واستُخْدمَت طُرُق تنقيب حديثة، وتشكيلة واسعة من الفُحُوص والاختبارات المخْبريَّة، لتحليل تاريخ وحضارة الإسرائيليّين القُدماء، وحضارة جيرانهم الفلسطينيّين، والفينيقيّين، والآراميّين، والعمُّونيّين، والمُوآبيّين، والفدُوميتيّين. وتمَّ - في عدد من الحالات - اكتشاف أختام تواقيع، ونُقُوش، يُمكن أنْ ترتبط بأفراد ذُكروا في النَّصِّ التّوراتي بنَحْو مُباشر. ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ علْم الآثار أثبت صحَّة القصَّة التّوراتيَّة بكُلِّ تفاصيلها، بل على العكس، أصبح واضحاً - الآن - أنَّ العديد من أحداث التّاريخ التّوراتي لم تحدث لا في المكان، ولا بالطّريقة والأوصاف التي رُويت في "الكتاب المُقدَّس العبْري"، بل بعض أشهر الحوادث في الكتاب المُقدَّس العبْريّ لم تحدث مُطلقاً أصلاً.

إذنْ؛ لقد ساعد علْم الآثار على إعادة بناء التّاريخ الحقيقي الكامن خلف نُصُوص التّوراة، سواء على صعيد المُلُوك والممالك العظيمة، أو على صعيد أُسلُوب الحياة اليوميَّة. وكما سنُوضّحه في الفُصُول التّالية، أصبحنا نعرف - اليوم - بأنَّ الأسفار أو الفُصُول المُبكِّرة من "الكتاب المُقدَّس العبْري" وقَصَصه المشهورة حول التّاريخ المُبكِّر لبني إسرائيل، تمَّ تصنيفها أوَّلاً (وأُعدَّت في نواحيها الرّئيسيَّة) في مكان ووقت مُميَّزَيْن: أُورشليم (القُدْس) في القرن السّابع قبل الميلاد.

ما المقصود بالكتاب المُقدَّس The Bible ؟

لنذكر - أوّلاً - بعض التّعريفات الأساسيَّة. عندما نتكلَّم عن "الكتاب المُقدَّس" The Bible فإنَّنا نُحيل - أوّليّاً - إلى مجموعة الكتابات القديمة التي دُوِّنت على مدى مُدَّةٍ طويلةٍ، والتي أصبحت تُعرَف - فيما بعد - باسم أسفار "العهد القديم" The Old Testament، ويُسمِّيها العُلماء الدّارسون - الآن - بـ "الكتاب المُقدَّس العِبْري" The Hebrew Bible، وهُو مجموعة من الأساطير، والقوانين، والأشعار، والنُّبوءات، والفلسفة، والتّاريخ، كُتِبَتْ كُلُّها - تقريباً - باللُّغة العِبْريَّة (باستثناء بعض الفُصُول القليلة التي دُوِّنَتْ ببعض اللّهجات السّاميَّة المُختلفة التي تُدعى الآراميَّة: والتي أصبحت لُغة التّفاهم المُشتركة بَيْن شُعُوب منطقة الشّرق الأوسط بعد 600 ق.م). ويشتمل هذا الكتاب المُقدَّس The Bible على تسعة وثلاثين كتاباً، قُسِّمت - في البداية - حسب موضوعها، أو حسب مُؤلِّفها، أو في حالة الكُتُب الأطول؛ مثل سِفْرَيْ صموئيل الأوَّل والثّاني، وسِفْرَيْ المُلُوك الأوّل والثّاني، وسِفْرَيْ أخبار الأيّام الأوّل والثّاني، قُسِّمَتْ حسب الطُّول القياسي للفّافات ورق البردى، أو رقّ الكتابة. ويُمثِّل "الكتاب المُقدَّس العِبْري" الكتاب الدِّينيَّ المُقدَّس المركزيَّ لليهُوديَّة، والجُزء الأوَّل من الكتاب المُقدَّس القانُونيّ للمسيحيَّة، كما يُمثِّل المصدر الغنيَّ لكثير من التّلميحات، والتّعليمات الأخلاقيَّة في الإسلام، والتي انتقلت إليه عبْر نصِّ القُرآن. أمّا تقليديّاً؛ فقد تمَّ تقسيم "الكتاب المُقدَّس العِبْري" إلى ثلاثة أجزاء رئيسيَّة (انظرْ الشّكل رَقْم (1) في الصّفحة التّالية).

يتضمَّن القسم الأوَّل "التّوراة" Torah - والتي يُطلَق عليها - أيضاً - اسم كُتُب مُوسى الخمسة، أو البينتاتوك Pentateuch (وهي كلمة يُونانيَّة الأصل تعني "خمسة كُتُب") - الأسفار الخمسة الأُولى للكتاب المُقدَّس، وهي: سفْر التّكوين، ثُمَّ سفْر الخُرُوج، ثُمَّ سفْر اللاّويِّين (وبعض التّرجمات تُترجمه بسفْر الأحبار)، ثُمَّ سفْر العدد، وأخيراً؛ سفْر التّثنية (ويُسمَّى كذلك تثنية الاشتراع). وتَرْوي هذه الأسفارُ الخمسة قصَّةَ شعب إسرائيل مُنْذُ خَلْق العالم، وعبْر فترة الطُّوفان والآباء، وحتّى الخُرُوج الجماعي من مصر، ثُمَّ رحلات التّيه في الصّحراء، وإعطاء الشّريعة لمُوسى في سيناء، وتنتهي التّوراة بوداع مُوسى لبني إسرائيل.

التّوراة

(1) التّكوين (2) الخُرُوج

(3) اللاّويُّون (4) العدد

(5) التّثنية

الأنبياء

الأنبياء السّابقون (القُدماء)

القُضَاة يشُوع

صموئيل الثّاني صموئل الأوّل

المُلُوك الثّاني المُلُوك الأوّل

الأنبياء اللاّحقون

إشعيا إرميا حزقيال

هوشع يوئيل عاموس عوبيديا

يونان ميخا نحوم حبقوق

صفنيا حجاي زكريّا ملاخي

الكتابات

الأشعار

المزامير الأمثال أيُّوب

اللُّفافات الخمسة

نشيد سُلَيْمَان راعوت المراثي

الجامعة استير

النُّبُوءة

دانيال

التّاريخ

أخبار الأيّام الأوّل أخبار الأيّام الثّاني

عزرا نحميا

الشّكل 1: أسفار الكتاب المُقدّس العبْري The Hebrew Bible

أمَّا القسم التَّالي، أيْ "الأنبياء"؛ فينقسم إلى مجموعتَيْن رئيسيَّتَيْن من الكُتُب المُقدَّسة: المجموعة الأُولى هي: الأنبياء السَّابقون، وتتضمَّن أسفار: يشُوع، والقُضَاة، وصموئيل 1، و2، والمُلُوك 1 و 2، وتحكي هذه المجموعة من الأسفار قصَّةَ شعب إسرائيل مُنْذُ عُبُورهم نهر الأُردُن وغَزْوهم لأرض كَنْعَان، ومُرُوراً بصعُود وانهيار المَمْلَكتَيْن الإسرائيليَّتَيْن، وحتَّى هزيمة الإسرائيليِّين ونَفْيهم على أيدي الآشُوريِّين والبابليِّين. أمَّا المجموعة الثَّانية، أيْ مجموعة الأنبياء المُتأخِّرين أو اللاَّحقين؛ فتتضمَّن إلهامات الوحي، والتَّعليمات الاجتماعيَّة، والإدانات المُرَّة، والتَّوقُّعات أو التَّنبُّؤات المسيحانيَّة التي كان يُعلنها مجموعة مُتنوِّعة من الأفراد المُلهَمين، يمتدُّ زمنهم عبْر فترة حوالي ثلاثمئة وخمسين سنة، من مُنتصف القرن الثَّامن ق. م، حتَّى نهاية القرن الخامس ق. م.

وأخيراً؛ يتضمَّن قسم "الكتابات" مجموعة من المواعظ، والقصائد، والصَّلوات، والابتهالات، والأمثال، والمزامير، التي تُمثِّل أقوى وأبرز التَّعبيرات الخالدة عن تقوى وَوَرَع الإسرائيلي العادي في أوقات البَهْجَة، أو الأزمات، أو العبادة، والتَّأملات الشَّخصيَّة. ومن الصَّعب جداً - في أكثر الحالات - رَبْط تلك "الكتابات" بأيِّ حَدَثٍ خاصٍّ، أو مُؤلِّف تاريخيٍّ مُعيَّن، بل هي حصيلة عَمَليَّة مُستمرَّة من التَّأليف، امتدَّت على مدى مئات السَّنوات. وبالرَّغم من أنَّ المادَّة الأسبق في هذه المجموعة (المزامير والمراثي) ربَّما يكون قد تمَّ جَمْعُهَا في أواخر العهد المَلَكي، أو بعد دمار أُورشليم (القُدْس) عام 586 ق. م، مُباشرةً، إلاَّ أنَّ أغلب الكتابات أُعدَّت - على ما يبدو - لاحقاً، وبعد مُدَّة طويلة؛ أيْ من القرن الخامس، وحتَّى القرن الثَّاني قبل الميلاد؛ أيْ في الفترات الفارسيَّة والهيلِّينيَّة.

يفحص كتابنا هذا الكتابات "التَّاريخيَّة" الرَّئيسيَّة للكتاب المُقدَّس العبْريّ، فيستعرض - أوَّلاً - التَّوراة وأسفار الأنبياء السَّابقين، التي تروي قصَّة شعب إسرائيل من بداياتها، إلى دمار هيكل (معبد) أُورشليم (القُدْس) عام 586 ق. م.

سنُقارن هذه القصَّة بثروة البيانات الآثاريَّة التي جُمعَت خلال العُقُود القليلة الماضية. وسيظهر للقارئ أنَّ النَّتيجة هي اكتشاف علاقة مُثيرة ومُعقَّدة بَيْن الذي حَدَثَ في الحقيقة

والواقع في أرض الكتاب المُقدَّس العبْري" أثناء الفترة التّوراتيَّة (بأفضل ما يُمكن تحديده)، وبَيْن الرّوايات التّاريخيَّة المُفصَّلة بنَحْو مُتقن، التي يحكيها الكتاب المُقدَّس العبْري.

من عَدَن إلى صهيون:

جوهر الكتاب المُقدَّس العبْري عبارة عن قصَّة مَلحميَّة، تصف بُرُوز شعب إسرائيل، وعلاقتهم المُستمرَّة مع الله. وعلى خلاف أساطير الشّرق الأدنى القديم الأُخرى، مثل حكايات أُوزيريس، وإيزيس، وحُورُوس المصريَّة، أو مَلْحَمَة جلجاميش في بلاد ما بَيْن النَّهرَيْن، فإنَّ حكايات الكتاب المُقدَّس العبْري ذات رصيد أرضي راسخ، وتاريخ دُنيوي فعليّ.

إنَّه دراما إلهيَّة يتمُّ عَرْضُهَا أمام أعين البشريَّة. وأيضاً؛ على خلاف التّواريخ والسِّجلاَّت المَلكيَّة لأُمم الشّرق الأدنى القديمة الأُخرى، لا يحتفي هذا الكتاب بقُوَّة التّقليد والسُّلالات الحاكمة فقط، بل يعرض رُؤية مُعقَّدة وواضحة بالوقت نفسه، تُبيِّن لماذا ارتبط تاريخ شعب إسرائيل - بل تمام العالم في الواقع - بشَكْل مُباشر مع أوامر ووُعُود الله. شعب إسرائيل هُو المُمثِّل المركزي في هذه الدّراما. سلُوكه وتمسُّكه بوصايا الله هُما اللَّذَان يُقرِّران الاتِّجاه الذي يسير فيه تاريخه. وهكذا يعود تقرير مصير العالم لشعب إسرائيل، ومن خلالهم، لكُلِّ قُرَّاء "الكتاب المُقدَّس العبْري".

تبدأ حكاية "الكتاب المُقدَّس العبْري" في جنَّة عَدَن، وتستمرُّ خلال قَصَص قابيل وهابيل، وطُوفان نُوح، ثُمَّ تُركِّز - أخيراً - على مصير عائلة واحدة هي أُسرة إبراهيم. اختار اللهُ إبراهيمَ ليكون أباً لأُمَّة عظيمة، وليتَّبع - بكُلِّ إخلاص - أوامر الله. رحل إبراهيم مع عائلته من موطنه الأصلي في بلاد ما بَيْن النَّهرَيْن إلى أرض كَنْعَان؛ حيثُ تجوَّل - عبْر مسيرة حياتيَّة طويلة - كَغَريب بَيْن السُّكَّان الأصليِّين لتلك المناطق، ثُمَّ أنجب - عبْر زوجته سارة - ابناً هُو إسحاق، سيرث الوُعُود المُقدَّسة التي كانت قد أُعطيت - أوَّلاً - إلى إبراهيم، وأصبح يعقُوب ابن إسحاق - الجيل الثّالث من الآباء الكبار - أباً لاثنَتَيْ عشرة قبيلة مُتميِّزة. وبعد مسيرة حياتيَّة فوضويَّة مُتنوِّعة من التّرحال والتّجوال، وإنشاء عائلة كبيرة، وتأسيس مذابح في جميع أنحاء الأرض، يتصارع يعقُوب مع الملاك، ويتلقَّى اسم "إسرائيل" (و التي معناها بالعبْريَّة: "الذي تصارع مع

الله")، وهُو الاسم الذي صار يُعرَف به كُلُّ أبنائه وذُرِّيَّته من بعده. وتروي التّوراة العبْريَّة كيف تقاتل أبناء يعقُوب الاثنا عشر مع بعضهم البعض، وعملوا مع بعضهم البعض، وفي النّهاية؛ غادروا موطنهم، باحثين عن ملجأ في مصر زمنَ المجاعة والقَحْط الشّديدَيْن. ويُعلن الأب يعقُوب في وصيَّته الأخيرة أنَّ قبيلة ابنه يهُوذا هي التي تحكم بقيَّة القبائل الاثنَتَيْ عشرة جميعاً (التّكوين 49/ 8-10).

ثُمَّ تنتقل القصَّة العظيمة من الدّراما العالميَّة إلى المشهد التّاريخي، حين يكشف إله إسرائيل عن قُوَّته الرّهيبة بعرضٍ قويٍّ ضدَّ فرعون مصر، الحاكم الأقوى على وجه الأرض آنذاك. وكان بنو إسرائيل قد نموا حتَّى أصبحوا أُمَّة عظيمة، ولكنَّهم استُعْبدوا كأقلِّيَّة مُحتَقَرَة، وشُغِّلُوا ببناء النّصب العظيمة للنّظام المصري. وتجلَّت إرادة الله أنْ يُعلن نفسه للعالم عبْر اختياره لُموسى كَوَسيط له في تحقيق إرادته في تحرير بني إسرائيل؛ لكي يُمكنهم من أنْ يبدؤوا قَدَرهم الحقيقي. وربَّما في أكثر سلاسل الأحداث حَيَويَّة في أدب العالم الغربي، تصف أسفار الخُرُوج واللاّويِّين والعَدَد كيف قاد إله إسرائيل - من خلال الآيات والعجائب - بني إسرائيل خارج مصر، نحو البرِّيَّة. ويكشف اللهُ في سيناء هُويَّته الحقيقيَّة كـ "يَهْوَه" (الاسم المُقدَّس التي يتألَّف من أربعة حُرُوف عبْريَّة)، ويُعطيهم قانُوناً يُوجِّه حياتهم كَجَمَاعة وكَأفراد.

و أصبحت البُنُود المُقدَّسة للعهد والميثاق بَيْن بني إسرائيل ويَهْوَه، والتي كُتبَت على ألواحٍ حَجَريَّة، وحُفظَتْ في تابوت العهد، أصبحت معيار معركتهم المُقدَّسة، وهُم يزحفون نحو الأرض الموعودة.

في بعض الثّقافات الأُخرى؛ كان من المُمكن أنْ تتوقَّف الأُسطُورة المكتوبة عند هذه النُّقطة؛ أيْ بيان كيفيَّة ظُهُور شعب بشَكْل استثنائي وإعجازي وحَسْب، لكنَّ التّوراة كان مايزال أمامها مهمَّة سَرْد ورواية تاريخ قُرُون طويلة أُخرى، تاريخ حافل بالعديد من الانتصارات، والمُعجزات، والنّكسات غير المُتوقَّعة، والكثير من المُعاناة الجماعيَّة. وتلا الانتصارات الكبيرة التي حقَّقها الإسرائيليُّون في غزوهم لأرض كَنْعَان، وتأسيس الملك داودَ لإمبراطُوريَّة عظيمة، وبناءُ سُلَيْمَان لهيكل (معبد) أورشليم (القُدْس)، تلاها وُقُوع الانشقاق الدِّيني، والارتداد المُتكرِّر إلى عبادة الأصنام، وفي النّهاية؛ النَّفْي. وهكذا تصف التّوراة

انفصال القبائل الشّماليَّة العشرة، من طرف واحد، عن الحُكْم المَلكي المُتَّحد، بعد موت سُلَيْمَان مُباشرة، لاستيائهم ورَفْضهم الاستمرار في الخُضُوع للمُلُوك من ذُرِّيَّة داود في أُورشليم، ممَّا خَلَقَ بالإجبار مَمْلَكَتَيْن مُتنافستَيْن: مَمْلَكَة إسرائيل، في الشّمال، ومَمْلَكَة يهُوذا، في الجنوب.

عاش الشّعب الإسرائيلي، في السّنوات المئتَيْن التّالية، في مَمْلَكَتَيْن مُنْفَصلتَيْن، مُستسلماً - على ما ترويه التّوراة - مراراً وتكراراً لسحْر الآلهة الأجنبيَّة. تصفُ التّوراة زُعماء المَمْلَكَة الشّماليَّة بأنَّهم كانوا - جميعاً - عُصاةً آثمين بنَحْو لا يقبل التّسامح، وتذكر - كذلك - أنَّ بعض مُلُوك يهُوذا - أيضاً - ابتعدوا عن طريق الطّاعة والولاء الكُلِّيٌّ للَّه. وبمُرُور الوقت؛ يُرسل اللهُ الغُزاة الخارجيِّين والمُحتلِّين والمُضطَّهدين لمُعاقبة شعب إسرائيل؛ لذُنُوبهم. فأوَّلاً؛ يقوم آراميُّو سُوريا بإيذاء ومُضايقة مَمْلَكَة إسرائيل، ثُمَّ تُوقعُ الإمبراطُوريَّة القويَّة والعظيمة للآشُوريِّين خراباً لم يسبق له مثيل في مُدُن المَمْلَكَة الشّماليَّة، وتُنزل بجُزء هامٌ من قبائلها العشرة المصير المُرَّ للدّمار والنَّفْي سنة 720 ق. م، أمَّا مَمْلَكَة يهُوذا في الجنوب؛ فإنَّها تستطيع أنْ تُواصل حياتها لأكثر من قرنٍ آخرٍ، إلاَّ أنَّ شعبها - في النّهاية - لم يستطع أنْ يتفادى حُكْمَ الله الحَتْميّ عليه، عندما قامت الإمبراطُوريَّة البابليَّة الصّاعدة والمُتوحِّشَة، سنة 586 ق. م، بتحطيم أرض إسرائيل، وإحراق وتدمير أُورشليم (القُدْس)، وهيكلها (معبدها) دماراً تامّاً.

برواياتها لتلك المأساة العظيمة، تتميَّز القصَّة التّوراتيَّة، وتبتعد - مرَّةً ثانية - عن النّمط الطّبيعي للملاحم الدِّينيَّة القديمة. ففي الكثير من مثل تلك القَصَص، تُؤدِّي هزيمة إله من قِبَل جيشٍ مُنافسٍ إلى نهاية طائفته أيضاً. أمَّا في "الكتاب المُقدَّس العبْريّ"؛ فإنَّ قُوَّة إله إسرائيل تجلَّت وظهرت بشَكْل أعظمٍ وأقوى بعد سُقُوط يهُوذا ونَفْي الإسرائيليِّين. كان إله إسرائيل أبعد ما يكون عن الذُّلّ بسبب خراب معبده، بل، لقد تجلَّى كإله قويٍّ لا يُقْهَر؛ لأنَّه - في النّهاية - هُو الذي سخَّر الآشُوريِّين والبابليِّين واستعملهم كوُكَلائه - دُون أنْ يشعروا - في مُعاقبته لبني إسرائيل؛ لكُفْرانهم، وخيانتهم.

ومن الآن فصاعداً، ومُنْذُ عودة بعض المَنْفيِّين إلى أُورشليم، وإعادة بنائهم الهيكل (المعبد)، لم تعد - أبداً - مَمْلَكَة إسرائيل إلى الوُجُود، بل أصبح بنو إسرائيل مُجرَّد جالية، أو

جماعة دينيَّة فحسب، تُوجِّهها شريعتها المُقدَّسة، وتُكرِّس نفسها للعمل الدّقيق بالطُّقُوس المُبيَّنة في نُصُوصها المُقدَّسة. الآن - بَدَلاً من سُلُوك مُلُوك شعب إسرائيل أو صُعُود وانهيار الإمبراطُوريَّات العظيمة - أصبح الاختيار الحُرُّ لرجال ونساء بني إسرائيل في احترام واتِّباع الوصايا والأوامر الإلهيَّة، أو عصيانها وانتهاكها، هُو الذي يُقرِّر المصير اللاَّحق لذلك الشّعب، وفُصُول تاريخه.

إنَّ قُوَّة تأثير "الكتاب المُقدَّس العبْريّ" الكبيرة إنَّما تكمن في هذا التّركيز الاستثنائي على المسؤوليَّة الإنسانيَّة. وإذا كانت الملاحم القديمة الأُخرى تَبْهَتُ بمُرُور الوقت، فإنَّ تأثير قصَّة "الكتاب المُقدَّس العبْريّ" على الحضارة الغربيَّة - على العكس من ذلك - زاد ونما باستمرار.

مَنْ كَتَبَ أسفار التّوراة الخمسة؟ ومتى؟

لقُرُون عديدة؛ عَدَّ قُرّاء "الكتاب المُقدَّس العبْريّ" - كأمرٍ مفروغٍ منه - أنَّ الكُتُبَ المُقدَّسة كانت وحياً مُقدَّساً، وتاريخاً دقيقاً بالوقت نفسه، أوحى الله بها - مُباشرةً - إلى عدد كبيرٍ واسعٍ من الحُكَمَاء، والأنبياء، والكَهَنَة من بني إسرائيل. وافترضت المراجع الدِّينيَّة الرَّسْميَّة، سواء اليهُوديَّة، أوالمسيحيَّة - بشكْل طبيعي - بأنَّ كُتُبَ مُوسى الخمسة إنَّما أُنزلت عليه، وأنَّه قام بكتابتها بنفسه، وذلك قُبيل موته مُباشرة، وهُو على جبل نيبو، كما يروي كتاب سفْر التّثنية. أمَّا كُتُبُ (أسفار) يشُوع، والقُضَاة، وصموئيل؛ فَعُدَّتْ - جميعاً - سجلاَّت مُقدَّسة، احتفظ بها النّبي الجليل صموئيل في "شيلوه" Shiloh، وعُدَّ سفْرا المُلُوك (الأوَّل والثّاني) مُدوَّنيْن بقلم النّبي إرميا. وعلى المنوال نفسه؛ ساد الاعتقاد بأنَّ الملك داود هُو مُؤلِّف المزامير، وأنَّ الملك سُلَيْمَان هُو مُؤلِّف سفْر الأمثال، وسفر نشيد سُلَيْمَان. ولكنْ؛ مع بُزُوغ فجر العصر الحديث، في القرن السّابع عشر، وجد العُلماء - الذين كرَّسوا أنفسهم للدّراسة الأدبيَّة واللُّغويَّة المُفصَّلة للكتاب المُقدَّس - أنَّ الأمر ليس بتلك البساطة أبداً. لقد أبرزت الحُجَج القويَّة للعَقْل والمنطق - عند تطبيقها على نُصُوص الكُتُب المُقدَّسة - تساؤلاتٍ مُثيرةً ومُزعجةً جداً حول الثّقة التّاريخيَّة للكتاب المُقدَّس العبْريّ.

كان السُّؤال الأوَّل: هل من المُمكن أنْ يكون مُوسى هُو - حقّاً - مُؤلِّف كُلّ الأسفار الخمسة الأُولى من الكتاب المُقدَّس العبْريّ المعروفة بكُتُب مُوسى؟ كيف ذلك، والسّفْر الأخير

منها ـ أيْ سفْر التّثنية ـ يصف ـ بتفصيل دقيق ـ ظُرُوف موت مُوسى ، ووقت وفاته بالضّبط .
وليس هذا فحسب ، بل سُرعان ما ظهرت تناقضات أُخرى أيضاً : النّصُّ التّوراتي مليء بالتّعليقات الجانبيَّة الأدبيَّة ، التي تُوضّح الأسماء القديمة لبعض الأماكن ، ويُلاحَظ كثيراً بأنَّ أدلَّة الأحداث التّوراتيَّة المشهورة مازالت "مرئيَّة إلى يومنا هذا" . لقد أقنعت هذه العواملُ بعضَ عُلماء القرن السّابع عشر أنَّ أسفار "الكتاب المُقدَّس العبْريّ" الخمسة الأُولى ـ على الأقلّ ـ قد كُتِبَتْ ، ثُمَّ وُسِّعَتْ ، وَزُيِّنَتْ لاحقاً ، من قِبَل مُحرِّرين مجهولين ، ومُراجعين مُتعدِّدين ، على مدى عدَّة قُرُون .

مع نهاية القرن الثّامن عشر ، وبدرجة أكبر في القرن التّاسع عشر ، بدأ العديد من العُلماء النّاقدين المُختصِّين بالكتاب المُقدَّس يشكُّون في أنْ يكون لمُوسى أيُّ يدٍ ـ على الإطلاق ـ في كتابة أسفار التّوراة ؛ واتَّجه عديدٌ منهم إلى الاعتقاد بأنَّ التّوراة كانت ـ حصراً ـ من عمل كُتَّابٍ تالين . وقد أشار هؤلاء العُلماء إلى ما يبدو أنَّه نُسَخٌ مُختلفةٌ لنَفْس القَصَص ضمن الأسفار الخمسة للتّوراة ، فاقترحوا بأنَّ النَّصَّ التّوراتي كان نتاجاً لعدَّة أيدي يسهل التّمييز بَيْنها . فأيُّ قراءةٍ حذرةٍ لسفْر التّكوين ـ على سبيل المثال ـ تكشف عن نُسختَيْن مُتعارضتَيْن لقصَّة الخَلْق (1/ 1ـ 2/ 3 و2/ 4ـ25) ، فهُناك سلسلتا نَسَب مُختلفتان جداً لنَسْل آدم (4/ 17 ـ 26 و5/ 1 ـ 28) ، وهُناك قصَّتا طُوفان مُنْفَصلتان ، ثُمَّ مُرتَّبتان ثانية مع بعضهما (6/ 5ـ 9/ 17) . بالإضافة إلى أنَّ هُناك العشرات من نماذج التّكرار المُضاعف ، وأحياناً المُثلَّث لنَفْس الأحداث في قَصَص رحلات الآباء ، والخُرُوج الجماعي من مصر ، وإنزال الشّريعة .

رغم ذلك ؛ كان هُناك ترتيب واضح في هذا الذي بدا أنَّه تكرار فوضوي . فقد بدأ يُلاحَظ ـ مُنْذُ وقت مُبكّر في القرن التّاسع عشر ، (كما شَرَحَ ذلك ـ بوُضُوح ـ العالمُ التّوراتيُّ الأمريكي ريتشارد إليوت فريدمان **Richard Elliott Friedman** في كتابه *"مَنْ كَتَبَ الكتاب المُقدَّس؟"*) ـ ، بأنَّ التّكرار المُضاعف الذي يظهر لأوَّل وَهْلَةٍ في سفْر التّكوين ، وسفْر الخُرُوج ، وسفْر العدد ، لم يكن مُجرَّد روايات مُختلفة مذكورة بنَحْو اعتباطي ، أو تكرار ثانٍ لنَفْس القَصَص . لقد أبْقَتْ كُلُّ رواية بعض الخصائص ، التي يُمكن تمييزها بسُهُولة ، بواسطة الاصطلاحات **Terminology** ، والتّركيز الجغرافي المُعيَّن ، وخاصَّة ـ وبشَكْل واضح جداً ـ تميُّز الأسماء

المُختلفة المُستعملة عند وَصْف إله إسرائيل. فنجد مجموعة من الرّوايات تَستخدم - أثناء روايتها التّاريخيَّة - الاسم الرُّباعي "يَهْوَه" بشكْل مُستمرٍّ (والذي يَفترضُ أكثرُ العُلماء أنَّه يُلفَظُ بكَسْر الواو؛ أيْ "يَهْوِه" Yahweh)، وتبدو مُهتمَّةً أكثر بكثيرٍ بقبيلة يهُوذا ودولتها الجنوبيَّة في رواياتها المُختلفة، في حين تستخدم المجموعة الأُخرى من القَصَص، الاسم "إيلوهيم" Elohim، أو إيل في حديثها عن الله، وتبدو مُهتمَّة - بشكْل خاصٍّ ورئيس - بالقبائل والأراضي التي تقع في شمال البلاد؛ مثل قبائل أفرايم، ومَنَسَّى Manasseh، وبنيامين. وبمُرُور الوقت؛ أصبح واضحاً أنَّ التّكرار اشتُقَّ من مصدرَيْن مُتميِّزَيْن كُتِبَا في أوقات مُختلفة، وأماكن مُختلفة. وقد أعطى العُلماءُ الاسمَ "جي J" للمصدر اليَهْوِي Yahwist (تُهَجَّى Jahvist في الألمانيَّة)، والاسم "إي E" للمصدر الإيلوهي Elohist، لذينك المصدرَيْن على التّرتيب.

وقد أقنعت الاستعمالات المُتميِّزة للمُصطلحات الجَغرافيَّة والرُّمُوز الدِّينيَّة والأدوار التي كانت القبائل المُختلفة تلعبها في المصدرَيْن العُلماءَ أنَّ النَّصَّ "جي J" كُتِبَ في أُورشليم (القُدْس)، ومثَّل وُجهة نَظَر الحُكْم المَلكي المُتَّحد، أو مَمْلَكَة يهُوذا، وافترضوا أنَّ كتابته تمَّت - مُباشرة - بعد عهد الملك سُلَيْمَان (970 - 930 ق.م). وعلى المنوال نفسه، بدا أنَّ النَّصَّ "إي E" قد كُتِبَ في الشّمال، ومثَّل وُجهة نَظَر مَمْلَكَة إسرائيل، وأنَّه من المُمكن أنْ يكون قد أُعِدَّ أثناء الحياة المُستقلَّة لتلك المَمْلَكَة (930 - 720 ق.م). هذا؛ في حين بدا سفْر التّثنية - في رسالته المُتميِّزة وأُسلُوبه الخاصِّ - وثيقةً مُستقلَّة سُمِّيَت "دي D". ويُوجد بَيْن أقسام التّوراة - التي لا يُمكن أنْ تُنسَب إلى "جي J"، أو "إي E"، أو "دي D"، عدد كبير من الفُصُول التي تتعامل مع الأُمُور الطّقسيَّة. واتَّجه العُلماء - مع الزّمن - لاعتبار هذه الأجزاء اقتباساً من مصدر طويل دُعي "بي P"، "أو المصدر الكَهَنُوتي Priestly، الذي يُركِّز - باهتمام خاصٍّ - على أُمُور الطّهارة، والعبادات والطُّقُوس، وأحكام تقديم القرابين.

وبكلمة أُخرى؛ لقد اتَّجه العُلماء - بشكْل تدريجي - إلى النّتيجة الحَتْميَّة القائلة بأنَّ الكُتُب الخمسة الأُولى "للكتاب المُقدَّس العبْريّ" - كما نعرفها الآن - هي حصيلة عَمَليَّة تحريريَّة مُعقَّدة، تمَّ - خلالها - تجميع الوثائق المصدريَّة الرّئيسة الأربع - "جي J"، و"إي E"، و"بي P"، و"دي D" - ودَمْجها بشكْل ماهر، وتمَّ الرَّبط بَيْنها بشكْل حاذق من قبَل النُّسَّاخ أو المُنقِّحين، الذين ظهرت

آثار تنقيحاتهم الأدبيَّة وجُمَل رَبطهم (دعاها بعض علُماء المقاطع "آر R") بشَكْل جُمـلٍ انتقاليَّـة وتعليقاتٍ جانبيَّة تحريريَّة. وقد حَدَثَتْ آخر هذه التّنقيحات في فترة ما بعد النَّفْي.

تفاوتت آراء العُلمـاء - في العُقُود القليلة الماضيـة - حـول تواريـخ ومُؤلِّفـي هـذه المصـادر الفَرْديَّة اختلافاً بَيِّناً وكبيراً. فبَيْنما رأى بعضهم أنَّ تلك النُّصُوص أُعدَّتْ وحُرِّرت خـلال عـهد الحُكْم المَلكي المُتَّحد ومَمْلَكَتَيْ يـهُوذا وإسرائيل (1000 - 586 ق. م)، أصرَّ آخرون على أنَّها تأليفاتٌ مُتأخِّرةٌ، تمَّ جَمْعُهَا وتحريرها من قبَل الكَهَنَة والكُتَّاب أثناء المَنْفى البابلي، والعـودة منه (في القرنَيْن السّادس والخامس قبل الميلاد)، أو حتَّـى فـي وقـتٍ مُتأخِّر أكثر يصـل إلى الفـترة الهيلِّينيَّة (القُرُون من الرّابع إلى الثّاني ق. م).

وأيّاً كان الأمر؛ فقد أصبح الكُلُّ يُجمع على أنَّ الأسـفار الخمسـة (التّـوراة) ليسـت تأليفـاً فَرْديّاً واحداً (كُتلة واحدة)، بل تجميعٌ وترقيـعٌ لمصـادرَ مُختلفةٍ، كُلٌّ منـها كُتـبَ تحـت ظُرُوف تاريخيَّة مُختلفةٍ؛ لإبداء وُجهات نَظَرٍ دينيَّة، أو سياسيَّة مُختلفةٍ.

روايتـان لتاريـخ إسرائيل التّـالـي:

بدت الأسفار (أيْ الكُتُب أو الفُصُول) الأربعـة الأُولـى مـن الكتـاب المُقـدَّس - التّكويـن، الخُرُوج، اللاَّويِّين، العدد - نتاج دَمْجٍ بارعٍ بَيْن المصادر "جي J"، "إي E"، و"بـي P" (أيْ المصـدر اليَهَويّ، والإيلوهي، والكَهَنُوتي)، فـي حين كـان وَضْـع الكتـاب الخـامس - أيْ سفْر التّثنية - مُختلفاً تماماً؛ لأنَّه حَمَلَ مُصطلحاتٍ مُميَّزةٍ (لا يُشـاركه فيها أيٌّ مـن المصـادر الأُخـرى)، كمـا تضمَّن إدانةً شديدةً لعبادة الآلهة الأُخـرى، وَطَـرَحَ تصـوُّراً جديـداً للّه، كَكَـائنٍ مُتعـالٍ جـداً، ونصَّ على التّحريم المُطلَق لتقديم أيِّ قرابين لإله إسرائيل، فـي أيِّ مكـانٍ سـوى الـهيكل فـي أُورشليم. وقـد اعـترف العُلمـاء - مُنْذُ عـهد بعيـد - بارتبـاطٍ مُحتمَـل بَيْـن هـذا السِّفْر، وكتـابٍ غامضٍ آخـر هُـو: "سـفْر الشّـريعة"، الـذي اكتشـفه الكـاهن الأكـبر "حلقيـاه"، أثنـاء إعـادة بنـاء الهيكل في عهد حكْم الملك "يُوشيَّا" Josiah سنة 622 ق. م. وقد أصبحـت هـذه الوثيقـة - كمـا يروي سفْر المُلُوك الثّـاني 22/ 8 - 23/ 24 - مصـدر إلـهامٍ لإصـلاحٍ دينـيٍّ ذي شـدَّة لا نظـير لـها من قبلُ.

إنَّ تأثير سفر التّثنية على الرّسالة النّهائيَّة للكتاب المُقدَّس العبْري أبعـد بكثير من أحكامه القانُونيَّة الصّارمة. إنَّ القصَّة التّاريخيَّة المُترابطة التي ترويها الأسفار التي تلي أسفار التّوراة الخمسة - أيْ أسفار يشُوع، والقُضَاة، وصموئيل 1 و2، والمُلُوك 1 و2 - ذات صلة وثيقة جداً بسفْر التّثنية لُغويّاً ولاهُوتيّاً، إلى حَدّ أنْ أصبح العُلماء - مُنْذُ مُنتصف أربعينات القرن الماضي - يُطلقون عليها عبارة "التّاريخ التّثنوي Deuteronomistic History". ويُعَدُّ هذا العملُ الأدبيُّ العظيمُ العملَ التّاريخيَّ الثّاني الذي يقصُّ تاريخ إسرائيل في الكتاب المُقدَّس العبْريّ؛ حيثُ تُواصل تلك الأسفار قصَّةَ مصير شعب إسرائيل مُنْذُ غَزْوه للأرض الموعودة، وحتَّى المَنْفى البابلي، وتُعبِّر عن عقيدة حَرَكَة دينيَّة جديدة برزت بَيْن بني إسرائيل في وقت مُتأخِّر نسبيّاً. وقد حُرِّرَ هذا العمل أكثر من مرَّة أيضاً. ويرى بعض العُلماء بأنَّ هذا التّاريخ تمَّ تأليفه أثناء فترة النَّفْي في مُحاولة للمُحافظة على تاريخ، وثقافة، وحضارة، وهُويَّة الأُمَّة المقهورة، بعد كارثة دمار أُورشليم، في حين يقترح عُلماء آخرون بأنَّه - بشَكْل رئيس - تمَّت كتابة "التّاريخ التّثنوي Deuteronomistic History" في أيّام الملك يُوشيَّا، لخدمة عقيدته الدِّينيَّة، وطُمُوحاته الإقليميَّة، وبأنَّه أُنهي وحُرِّر بعد عُقُود قليلة في المَنْفى.

أمَّا كتابا أخبار الأيَّام الأوَّل والثّاني - اللّذان يُشكِّلان التّأليف التّاريخي الكبير الثّالث في الكتاب المُقدَّس العبْريّ، الذي يُعالج تاريخ شعب إسرائيل قُبيل عهد النَّفْي -؛ فقد تمَّ وَضْعُهُمَا في القرن الخامس أو الرّابع ق.م؛ أيْ بعد عدَّة قُرُون من الأحداث التي يصفانها. ويميل المنظور التّاريخي للكتابَيْن - بشدَّة - لمصلحة الادّعاءات التّاريخيَّة والسّياسيَّة لسُلالة داود ولأُورشليم؛ ويُهملان الشّمال كُلّيّاً تقريباً.

يعكس كتابا أخبار الأيَّام - بأساليب عديدة، بشَكْل فردي - عقيدة وحاجات أُورشليم المعبد (أو الهيكل) الثّاني؛ حيثُ يُعيد تشكيل الجُزء الأكبر من القصَّة التّاريخيَّة، التي كانت مُدوَّنة ومكتوبة من قبلُ. لهذه الأسباب لن نرجع في كتابنا هذا - إلاَّ قليلاً - لكتابَيْ أخبار الأيَّام، في حين سيبقى تركيزنا على أسفار التّوراة الخمسة المُبكِّرة، وعلى التّاريخ التّثنوي **Deuteronomistic History**.

وكما سنرى في الفُصُول القادمة؛ لقد زوَّدنا علم الآثار بأدلَّة كافية لدَعْم الاعتقاد الجديد بأنَّ اللُّبَّ والجوهر التَّاريخي للتّوراة والتّاريخ التّثنوي، إنَّما تمَّ تدوينه جوهرياً في القرن السّابع ق.م، لذا؛ سنُلقي الضّوء على مَمْلَكَة يهُوذا في القرنَيْن الثّامن والسّابع ق.م، وهُو الزّمن الذي بدأت فيه هذه العَمَليَّة الأدبيَّة بجدِّيَّة، وسنُثبت - بالأدلَّة - أنَّ الأسفار الخمسة للتّوراة - في مُعظمها - إنَّما هي خَلْقٌ مَلَكيٌّ مُتأخِّر، يهدف إلى الدّعوة إلى عقيدة وحاجات مَمْلَكَة يهُوذا، ولذا؛ فهي وثيقة الصّلة بالتّاريخ التّثنوي. وسنُؤيِّد العُلماء الذين يرون أنَّ التّاريخ التّثنوي جُمع - بشكْل رئيس - في عهد الملك "يُوشيَّا" Josiah، بهدف تقديم تبرير إيديُولُوجي لطُمُوحات سياسيَّة خاصَّة، ولإصلاحاتٍ دينيَّة مُعيَّنة.

تاريخٌ، أو، ليس تاريخاً؟

لعب علم الآثار - دائماً - دوراً حاسماً في النّقاشات المُتعلِّقة بتأليف الكتاب المُقدَّس العبْريّ ووثاقة أخباره التّاريخيَّة. وقد بدا علم الآثار - في بادئ الأمر - داحضاً لزَعْم النُّقَّاد الأكثر راديكاليَّةً، الذين كانوا يرون أنَّ الكتاب المُقدَّس العبْريّ كان تأليفاً مُتأخِّراً، وأنَّ مُعظمه غير موثوق به من النّاحية التّاريخيَّة. فمُنْذُ نهاية القرن التّاسع عشر؛ ومع بدء الاكتشافات الأثريَّة الحديثة لأراضي الكتاب المُقدَّس العبْريّ، أثبتت سلسلة الاكتشافات المُدهشة وعقُود من التّنقيب عن الآثار والتّفسير الأثري المُتواصل الذي قام به كثير من الباحثين، أنَّ روايات الكتاب المُقدَّس العبْريّ جديرة بالثّقة، بشكْل أساسي، من حيثُ ما يتعلَّق منها بالخُطُوط العامَّة الرّئيسيَّة لقصَّة إسرائيل القديمة. وظهر أنَّه حتَّى ولو كان نصُّ الكتاب المُقدَّس قد كُتب بعد فترة طويلة من وُقُوع الأحداث التي يصفها، إلاَّ أنَّه لابُدَّ أنْ تكون كتابته قد استندت في جُزء كبير منها على ذكريات محفوظة بدقَّة. وقد استند هذا الاستنتاج على عدَّة أنواع جديدة من الأدلَّة الآثاريَّة والتّاريخيَّة.

المُطابقات الجغرافيَّة:

بالرّغم من أنَّ الحُجَّاج والمُستكشفين الغربيِّين طالما تجوَّلوا في أرض الكتاب المُقدَّس العبْريّ مُنْذُ العهد البيزنطي، إلاَّ أنَّه - فقط - بعد تقدُّم الدّراسات التّاريخيَّة والجغرافيَّة الحديثة في أواخر القرن الثّامن عشر وأوائل القرن التّاسع عشر، تمكَّن العُلماء المُتبحِّرون في الكتاب

المُقـدَّس العبْريّ، وفـي المصـادر التّاريخيَّة الأُخرى، مـن البَـدْء بإعـادة بنـاء المشــهد الطّبيعـي لإسرائيل القديمة، على أسـاس علْـم الطُّوبُوغرافيـا، والإشـارات التّوراتيَّـة، والبقايا الأثريَّـة، بَدَلاً من الاعتمـاد على التّقـاليد الإكليرُوسيَّة (الكَنَسيَّة) المُتعلّقـة بالأمـاكن المُقدَّسـة المُختلفـة. وكان رائد هذا الميـدان القسّ البرُوتسـتانتي الأمريكـي الجمـاعي[1] "إدوارد رُوبنسن" الـذي قـام بعمليّتَيْ استكشـاف طويلتَيْـن في فلسـطين العُثمانيَّـة عـامَيْ 1838 و1852، فـي مُحاولـة منـه لدَحْض نَظَريَّات نُقّاد الكتاب المُقدَّس العبْريّ بتحديد أماكن المواقع المذكورة في الكتاب المُقدَّس العبْريّ، والتَّحقُّق من الصِّحَّة التّاريخيَّة لوُجُودها.

وإذا كانت بعض المواقع الرّئيسيَّة للتّاريخ التّوراتي لم تُنْسَ أبداً، وبقيت نفسها إلـى يومنـا هذا، مثل أُورشليم (القُدْس)، وحبرون (الخليل)، ويافا، وبيـت شـان، وغـزَّة.. فـإنَّ مئـات الأماكن الأُخرى التي ذُكرت في الكتاب المُقدَّس العـبْريّ بقيـت مجهولـة، ولكـنْ؛ بالاسـتفادة من المعلومات الجغرافيَّة التي يحتويها الكتاب المُقـدَّس العـبْريّ، ومـن الدّراسـة الدّقيقـة والمُتأنّيـة للأسماء العَرَبيَّة الحديثة للمواقع والأمكنة في البلاد، وَجَـدَ "رُوبنسـن" أنّـه مـن المُمكـن التّعـرُّف على عشرات التّلال والخرابات القديمة التي تُمثّل المواقع التّوراتيَّة التي كانت مَنْسيَّة سابقاً.

استطاع رُوبنسن وخُلفاؤه التّعرُّف علـى الآثـار الواسـعة فـي أمـاكن مثـل الجيـب **el-Jib**، وبيتين **Beitin**، وسيلون **Seilun**، وكُلُّـها شـمال أُورشـليم (القُـدْس)، علـى أنّـها هـي المواقـع نفسها المُحتملة لجبعون **Gibeon**، وبيت إيل **Bethel**، وشيلوه **Shiloh** التّوراتيَّة. وكـانت هـذه العَمَليَّة ذات تأثير وفعاليَّة - بشَكْل خَاصٍّ - في المناطق التي كـانت قـد سُكنَت - بشَكْل مُستمرٍّ - على مدار القُرُون؛ وحيثُ تمَّت المُحافظة على اسم الموقع نفسه. وقد أدركت أجيال لاحقة مـن العُلماء بأنَّ في الأماكن الأُخرى؛ حيثُ لا تحمل الأسماء الحديثة أيّ علاقـة أو ارتبـاط بـالمواقع التّوراتيَّة التي كانت تقع على مقربة منها؛ فإنَّه ثمَّة معايير أُخـرى؛ مثـل حجـم وأنـواع البيانـات الفخّاريَّة يُمكن استعمالها للتّعرُّف على المنطقة. وهكـذا أُضيفـت مواقـع "مَجدُّو" **Megiddo**، و"حاصُوْر" **Hazor**، و"لَخيش" **Lachish**، وعشرات المواقع التّوراتيَّة الأُخرى - بشَكْل تدريجي - إلى البناء المُعاد تأسيسه لجَغرافيا "الكتاب المُقدَّس العبْريّ".

---

(1) أيْ الذي ينتمي لطائفة الجماعيِّين Congregationalist و هي إحدى الطوائف البرُوتستانتيَّة. (المُترْجِم).

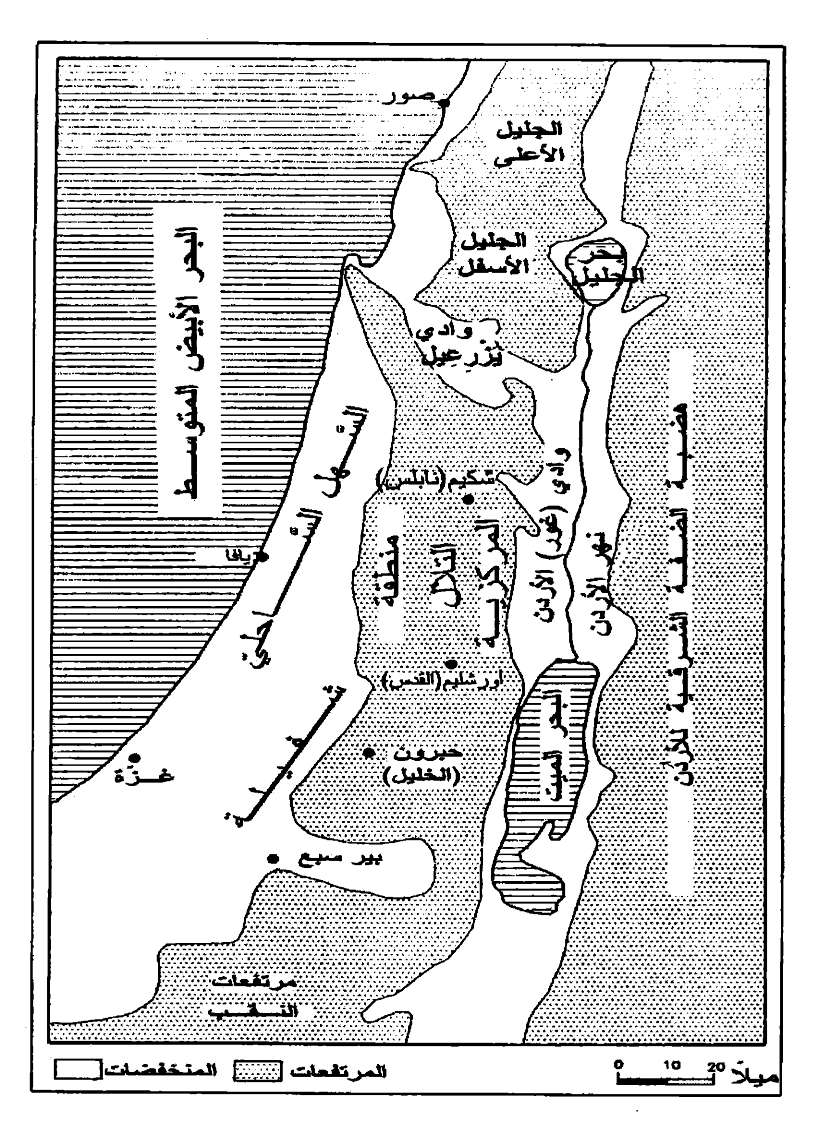
في أواخر القرن التّاسع عشر؛ أخذ مُهندسو الجيش البريطاني العاملون في صُندُوق استكشاف فلسطين على عاتقهم القيام بهذا العمل بطريقة مُنظَّمة جداً، وقاموا برَسْم وتأليف خرائط طُوبُوغرافيَّة دقيقة وكاملة التّفصيل لجميع أنحاء البلاد، من منابع نهر الأُردُن في الشّمال، إلى بئر سبع في النَّقَب في الجنوب.

وكان الأمر الأكثر أهمِّيَّة، حتَّى من التَّعرُّف الخاصّ على بعض المواقع، هُو حُصُول الأُلفة المُتزايدة بالمناطق الجَغرافيَّة الرّئيسيَّة لأرض "الكتاب المُقدَّس العبْري" (انظرْ الشّكل رَقْم 2 في الصّفحة التّالية): السّهل السّاحلي الواسع والخصب للبحر الأبيض المُتوسِّط، تلال "شفيلة" Shephelah التي ترتفع لتصل إلى تلال البلاد المركزيَّة في الجنوب، صحراء النَّقَب القاحلة، منطقة البحر الميِّت ووادي الأُردُن، منطقة التّلال الشّماليَّة؛ والوُديان الواسعة في الشّمال. كانت الأرض التّوراتيَّة لإسرائيل منطقة ذات تناقضات مناخيَّة وبيئيَّة صارخة. كما أنَّها عملت - أيضاً - كَجسرٍ أرضيٍّ طبيعيٍّ بَيْن حضارتَيْن عظيمتَيْن؛ أيْ حضارة مصر، وحضارة بلاد ما بَيْن النَّهرَيْن. وقد أثبتت مناظرها الطّبيعيَّة المُميَّزة وظُرُوفها المناخيَّة تلاؤماً دقيقاً تماماً، مع ما تعكسه القصَّة التّوراتيَّة وتذكره من أوصاف في كُلّ حالة وحادثة.

آثار وسجلاَّت من مصر وبلاد ما بَيْن النَّهرَيْن:

بُذلَت - أثناء العُصُور الوُسْطى وعصر النّهضة - مُحاولاتٌ مُتكرِّرةٌ لتأسيس جدولٍ تاريخيٍ قياسيٍ للأحداث الموصوفة في "الكتاب المُقدَّس العبْري"، لكنَّ أغلب تلك المُحاولات كانت حرَفيَّة بشكْل طيِّع جداً. من هُنا؛ برزت الحاجة إلى مصادر خارجيَّة لتحقيق الجدول التّاريخي لداخل "الكتاب المُقدَّس العبْري"، وقد وُجدَت تلك المصادر - في النّهاية - في العاديات والأوابد الأثريَّة لاثنتَيْن من أكثر الحضارات أهمِّيَّة وأكثرها ثقافة في العالم القديم.

مُنذُ أواخر القرن الثّامن عشر، بدأت مصر تُصبح - بآثارها التّاريخيَّة المهيبة، وكُنُوزها الواسعة من النُّقُوش الهيرُوغليفيَّة - حقلاً خَصْباً لدراسات العُلماء المُستكشفين الأُورُوبيِّين. لكنْ؛ لم تظهر أهمِّيَّة القيمة التّاريخيَّة للآثار المصريَّة في التَّعرُّف على أزمنة الأحداث التّاريخيَّة للكتاب المُقدَّس، وربَّما تحقيقها وتثبيتها، إلاَّ بعد فَكّ رُمُوز اللُّغة الهيرُوغليفيَّة المصريَّة (على



الشكل 2: المناطق الجغرافيَّة لأرض فلسطين

أساس حَجَر الرّشيد ثُلاثيّ اللُّغة) مِنْ قِبَل العالم الفرنسي "جان فرانسوا شامبليون" Jean-Francois Champollion في العشرينات من القرن التّاسع عشر (1820). وعلى الرّغم من بقاء الهُويّة الحقيقيّة للفراعنة الخاصّين، المذكورين في قصّة يُوسُف وقصّة الخُرُوج في التّوارة، مُبْهَمة، أو غير أكيدة، إلاّ أنّ هُناك ارتباطات أُخرى أصبحت واضحةً تماماً. فقد ذَكَرَت المسَلّة[1] التي أقامها الفرعون منفتاح Merneptah سنة 1207 ق. م، نصراً عظيماً على شعب سُمِّيَ إسرائيل. وفي عصرٍ بعده بقليلٍ، تَمّ التّعرُّف على الفرعون "شيشانق" Shishak (الذي يذكر سفْر المُلُوك الأوّل: 14 / 25 أنّه هاجم أُورشليم مُطالباً ملكها بدَفْع جزية باهظة، أثناء السّنة الخامسة من عهد حُكْم ابن سُلَيْمَان) أنّه هُو نفسه الفرعون شيشَنْق الأوّل Sheshonq1 من السُّلالة المَلَكيّة الثّانية والعشرين؛ الذي حَكَمَ من سنة 945 إلى 924 ق. م، وقد تَرَكَ وَصْفاً لحملته تلك على حائط في معبد آمون Amun في الكرنك، في مصر العُليا.

وجاء المصدر الغني الآخر للاكتشافات المُفيدة لكتابة جدول الأحداث الزّمني والمُطابقات التّاريخيّة، من السُّهُول الواسعة الواقعة بَيْن نهرَيْ الفُرات ودجلة؛ أيْ المنطقة القديمة في بلاد ما بَيْن النَّهرَيْن. فبدءاً من أربعينات القرن التّاسع عشر (1840)، بدأت بعثات علْميّة آثاريّة من إنجلترا، وفرنسا، وفيما بعد؛ من الولايات المُتّحدة وألمانيا، باكتشاف المُدُن، والقُصُور الواسعة، والأرشيفات المسماريّة للإمبراطوريّتَيْن العظيمتَيْن الآشُوريّة والبابليّة. وللمرّة الأُولى، مُنْذُ عهد الكتاب المُقدَّس العبْريّ، تمّ اكتشاف أهمّ الآثار والأوابد الرّئيسيّة والمُدُن لتينك الإمبراطُوريّتَيْن الشّرقيّتَيْن القويّتَيْن. لقد اكتشفوا أنّ مُدُناً مثل نينوى وبابل، المعروفة سابقا في "الكتاب المُقدّس العبْريّ"، كانت - في الواقع - عواصم لإمبراطُوريّات قويّة وعُدوانيّة، قام فنّانُوها وكُتّابها بتوثيق حملاتها العسكريّة وأحداثها السّياسيّة - التي كانت تقع في زمنهم - كُلّيّاً وبنَحْو شاملٍ.

---

(1) المسَلّة: عمود طويل مُربّع مُدبّب الرأس، كان يستخدمه المصريُّون القُدماء وغيرهم من الأمم المُجاورة، وينقشون على جوانبه كتابات تُسجّل أحداثاً تاريخيّة مُعيّنة كتواريخ مُلُوكهم أو معاركهم وانتصاراتهم، وما إلى ذلك. (المُترجم).

وهكذا تمَّ التَّعرُّف على عددٍ من المُلُوك التّوراتيّين المُهمّين في الأرشيفات المسماريَّة لبلاد ما بَيْن النَّهرَيْن، مثـل مُلُـوك مَمْلَكَـة إسـرائيل: عُمـري Omri، وآحـاب Ahab، ويـاهو Jehu، ومُلُوك مَمْلَكَة يهُوذا: حَزَقيًّا Hezekiah ومَنَسَّى وmanasseh، من بَيْن آخرين.

وسـمحت هـذه الإشـارات الخارجيَّـة للعُلمـاء برُؤيـة تـاريخ الكتـاب المُقـدَّس العبْريّ مـن منظور أوسع، وبمُزامنة عُهُود المُلُوك التّوراتيّين مع أنظمة تاريخيَّة أكثر كمالاً في الشّرق الأدنى القديم. وبدأت تُقَام الارتباطات، شيئاً فشيئاً، وتُحَـدَّدُ - بدقَّـة - تواريـخُ حُكْـم مُلُـوك مَمْلَكَتَيْ إسرائيل ويهُوذا، وتواريخ حُكْم الحُكَّام الآشُوريّين، والبابليّين، والفراعنة المصريّـين، وتُرَتَّـب - لأوّل مرَّةٍ - ترتيباً تاريخياً دقيقاً جداً.

وبالإضافة لذلـك؛ فقـد سـلَّطت السِّجلاَّت الأقـدم بكثـير، لحضـارات مـا بَيْـن الرّافدَيْـن ومصر، في العصر الـبرُونزي المُتوسِّط والمُتـأخِّر (2000 - 1150 ق. م)، والتـي تمَّ اكتشـافها فـي مواقع قديمـة مثـل مـاري، وتـلّ العمارنـة، ونُـوزي، أضـواءً مُهمَّـة علـى عـالم الشّـرق الأدنـى القديم، مُوضحَةً البيئة الثّقافيَّة التي خرج من رحمها - في النّهاية - "الكتاب المُقدَّس العبْريّ".

كما وجدت - أيضاً - نُقُوش مُتفرِّقة في المناطق الأقرب إلى أرض إسرائيل [يقصد فلسطين المُحتلَّة (المُترجم)]، قدَّمت ارتباطات مُفيدة ومُحدَّدة أكـثر. ففـي وصـف الانتصـار الـذي دوَّنـه الملك "ميشا" Mesha المُوآبي Moabite ، والذي تمَّ اكتشافه في القـرن التّاسـع عشـر فـي الضِّفَّـة الشّرقيَّة لنهر الأُردُن، ذُكر انتصار الملك "ميشا" على جُيُـوش إسـرائيل، مُعطيـاً شـهادة خارجيَّـة على حربٍ وقعـت بَيْـن إسـرائيل ومُـوآب، رواهـا سـفْر المُلُـوك الثّـاني: 3/ 4 - 27. وفـي عـام 1993؛ تمَّ اكتشاف نَقْشٍ فريدٍ ذي أهمّيَّة بالغةٍ في التّوثيق والتّحقيق التّاريخي في موقـع تـلّ دان Tel Dan في شمال إسرائيل [فلسطين المُحتلَّة]، يُسجِّل - على ما يبدو - انتصار الملـك الآرامـي "حزائيل" Aramean Hazael على ملك إسرائيل وملك "بيـت داود" فـي القـرن التّاسـع ق. م، وهكذا زوَّدنا هذا النَّقْش - مثلما فعل النَّقْش المُوابي - بسَنَدٍ هامٍّ لتاريخ إسرائيل القديمة.

تنقيب المواقع التّوراتيّة:

حتّى اليوم، جاءت أهمُّ مصادر الشّواهد المُتعلّقة بالسّياق التّاريخي للكتاب المُقدّس، من أكثر من مئة سنة من عمليّات التّنقيب الأثريّة الحديثة في إسرائيل [فلسطين المُحتلّة]، والأُردُن، والمناطق المُجاورة. ويشَكْل يرتبط ـ بنَحْو وثيق ـ بالتّقدُّم في تقنيّات الحفريّات الأثريّة على مُستوى العالم، تقدَّم علْم الآثار التّوراتي ـ أيضاً ـ بنَحْو؛ استطاع معه العُلماء أنْ يُميّزوا سلسلة طويلة من أنماط الفنّ المعماري سهلة التّمييز، والأشكال الفخّاريّة، والمصنوعات اليدويّة الأُخرى، بنَحْو؛ مكّنَ أُولئك العُلماء ـ حتّى الآن ـ من تحديد تواريخ مُستويات وقُبُور المُدُن المدفونة تحت الأرض بدرجة عالية من الدّقّة.

وقد ركّز هذا الفرع من علْم الآثار ـ الذي كان رائده العالم الأمريكي وليام إف أولبرايت William F Albright ـ في أوائل القرن العشرين ـ في الغالب ـ على تنقيب هضاب المُدُن الكبيرة (تُدعى "التّلال" في العَرَبيّة، و"تل" في العبْريّة)، التي تتكوّن من مُستويات مُتداخلة لعدّة مُدُن، يُمكن تتبُّع تطوُّر المُجتمع، والنُّموّ الحضاري فيها على مدى ألف عام.

بعد عُقُود من التّنقيب؛ استطاع الباحثون أنْ يُعيدوا بناء السّياق الآثاري الواسع الذي يجب أنْ يُوضع فيه التّاريخ التّوراتي (انظرْ الشّكل رَقْم 3). بدءاً من أوّل شاهد على وُجُود الزّراعة والمُجتمعات البشريّة المُستوطنة في المنطقة في نهاية العصر الحجري، واصل عُلماء الآثار تحديد صُعُود الحضارة الحضريّة في العصر البرُونزي (3500 ـ 1150 ق.م).

أزمنة علْم الآثار(*)

العصر البرُونزي المُبكّر	3500 ـ 2200 ق.م
العصر البرُونزي الأوسط	2200 ـ 2000 ق.م
العصر البرُونزي المُتوسّط	2000 ـ 1550 ق.م

(*) تتبع هذه التّواريخ نظام هذا الكتاب. تُعَدُّ التّواريخ المذكورة من العصر البرُونزي المُبكّر، وحتّى العُصُور البرُونزيّة الوُسْطَى تقريبيّة، وتعتمد ـ بشكْل أساسي ـ على اعتبارات ثقافيّة. أمّا التّواريخ من العصر البرُونزي المُتأخّر إلى العصر الفارسي؛ فهي تعتمد ـ بشكْل أساسي ـ على الأحداث التّاريخيّة.

العصر البرُونزي المُتأخِّر	1550 ـ 1150 ق . م
العصر الحديدي الأوَّل	1150 ـ 900 ق . م
العصر الحديدي الثّاني	900 ـ 586 ق . م
العصر البابلي	586 ـ 538 ق . م
العصر الفارسي	538 ـ 533 ق . م

مُلُوك إسرائيل ويهُوذا[*]

صموئيل 1025 ـ 1005 ق . م .

داود 1005 ـ 970 ق . م .

سُلَيْمَان 970 ـ 931 ق . م .

يهُوذا		إسرائيل	
رحبُعام	931 ـ 914	يربعام الأوَّل	931 ـ 909
أبيَّام	914 ـ 911	ناداب	909 ـ 908
آسا	911 ـ 870	بعشا	908 ـ 885
يوشافاط	870 ـ 846[**]	إيلة	885 ـ 884
يورام	851 ـ 843[**]	زمْري	884
أحَزْيا	843 ـ 842	تبني	884 ـ 880[***]
عَتَلْيا	842 ـ 836	عُمْري	884 ـ 873
يوآش	836 ـ 798	آخاب	873 ـ 852
أمَصْيا	798 ـ 769	أحزيا	852 ـ 851
عَزَرْيا	785 ـ 733[**]	يورام	851 ـ 842
يوتام	743 ـ 729[**]	ياهو	842 ـ 814
آحاز	743 ـ 727[**]	يوآحاز	817 ـ 800[**]
حزْقيّا	727 ـ 698	يوآش	800 ـ 784[**]
منسَّي	698 ـ 642	ياربعام الثّاني	788 ـ 747

(*) طبقاً لـ Anchor Bible Dictionary ؛ أيْ : قاموس مُرتَكز (أو سَنَد) الكتاب المُقدَّس ، المُجلَّد الأوَّل ، الصَّفحة 1010 ، وكتاب "الجدول الزّمني لمُلوك إسرائيل ويهُوذا" ، لـ" غاليل" .

(**) يشتمل على اشتراك أكثر من وصيّ على العرش في الحُكم بنَحْو مُتزامن .

(***) حكُم مُنافس .

أمون	640ـ641	زكريًا الأوّل	747
يُوشيًا	609ـ639	شلُّوم	747
يوآحاز	609	منحيم	737ـ747
يوياقيم	598ـ608	فقحيا	735ـ737
يوياكين	597	فاقّح	732ـ735
صدقيا	586ـ596	هوشع	724ـ732

الشّكل 3: الجدول الزّمني لملُوك يهُوذا وإسرائيل.

وتحوُّلها إلى ولايات إقليميَّة في الفترة اللاَّحقة: العصر الحديدي (1150ـ 586 ق. م)؛ حيثُ من المُفترض أنْ تكون قد حَدَثَتْ أغلب الأحداث التّاريخيَّة الموصوفة في الكتاب المُقدَّس العبْريّ.

وفي نهاية القرن العشرين؛ أظهر علم الآثار أنَّ هُناك ـ ببساطة ـ الكثير من التّطابقات الماديَّة بَيْن الاكتشافات الأثريَّة في إسرائيل [فلسطين المُحتلَّة] وكامل الشّرق الأدنى، والعالم الموصوف في الكتاب المُقدَّس العبْريّ، ممَّا لا يُعطي مجالاً ـ أبداً ـ للزَّعْم بأنَّ الكتاب المُقدَّس العبْريّ كان أدباً كَهَنُوتيّاً مُتأخِّراً وخياليّاً، كُتبَ بدُون أيّ أساس تاريخي قاعدة تاريخيَّة مُطلقاً؛ لكنْ؛ في الوقت نفسه؛ كان هُناك الكثير من التّناقضات ـ أيضاً ـ بَيْن الاكتشافات الأثريَّة والقَصَص التّوراتيَّة، ممَّا يمنع القول بأنَّ الكتاب المُقدَّس العبْريّ يُزوِّدنا بوَصْفٍ دقيقٍ ـ تماماً ـ لما حَدَثَ في الحقيقة والواقع.

من التّوضيحات التّوراتيَّة إلى علْم الأجناس البشريَّة لإسرائيل القديمة:

طالما حافظ النُّقَّاد النَّصيُّون للكتاب المُقدَّس وعُلماء آثار الكتاب المُقدَّس العبْريّ على مواقفهم المُتعارضة ـ أساساً ـ حول الثّقة التّاريخيَّة للكتاب المُقدَّس، فإنَّهم سيُواصلون العيش في عالمَيْن ثقافيَّيْن مُنْفَصلَيْن. وقد واصل النُّقَّاد النَّصيُّون نَظْرتهم للكتاب المُقدَّس كَمَوضوع للتّحليل والدّراسة النَّقْديَّة المُفصّلة، وأنَّه يُمكن تقسيمه إلى مصادر أصغر، وأصغر، وكُلٌّ منها إلى مصادر ثانويَّة أُخرى صغيرة، وذلك طبقاً للأفكار الدِّينيَّة أو السّياسيَّة المُتميِّزة، التي يُفترض أنَّ كُلَّ قسم يقوم بإبدائها. وفي الوقت نفسه؛ غالباً ما أخذ عُلماء الآثار القَصَص التّاريخيَّة

للكتاب المُقدَّس على معناها الظّاهري. وبَدَلاً من استخدام المُعطيات النّاتجة عن الحفريّات الأثريَّة كَمَصدر مُستقلٍّ لإعادة بناء تاريخ المنطقة، واصلوا الاعتماد على قَصَص الكتاب المُقدَّس العبْريّ - خاصَّة؛ الموضوع التّقليدي حول صُعُود ونشأة شعب إسرائيل - لتفسير اكتشافاتهم.

بالطَّبع؛ كان هُناك - دائماً - فَهْم جديدٌ لقصَّة نشأة وتطوُّر إسرائيل كُلَّمَا تقدَّمت التّنقيبات والاستطلاعات. وقد طُرحَت تساؤلات حول الوُجُود التّاريخي للآباء، وحول تاريخ وحجم الخُرُوج الجماعي لبني إسرائيل من مصر. وطُوِّرَت نَظَريَّات جديدةٌ - أيضاً - تقترح أنْ يكون الغزو الإسرائيلي لأرض كَنْعَان لم يتمَّ بشَكْل حَمْلَة عسكريَّة جماعيَّة، خلافاً لما يُصرُّ سفر يشُوع على روايته، لكنْ؛ بالنّسبة للأحداث التّوراتيَّة التي تبدأ من عهد داود حوالي 1000 ق.م، فإنَّ عُلماء الآثار يُجمعون - بلا خلاف، على الأقلّ حتَّى التّسعينيَّات - على أنَّه يُمكن قراءة الكتاب المُقدَّس العبْريّ كَوَثيقة تاريخيَّة موثوقة بشكْل أساسي.

ولكنْ؛ على أيَّة حال، مُنْذُ السّبعينات، بدأت اتِّجاهاتٌ جديدةٌ تُؤثِّر على منهج ومسيرة علْم الآثار التّوراتي، وتُغيِّر - في النّهاية - تركيزه الرّئيسي، وتَقلب - رأساً على عقب - تلك العلاقة التّقليديَّة بَيْن ما هُو من صُنْع الإنسان، وبَيْن النَّصّ التّوراتي.

للمرَّة الأُولى؛ لا يسعى عُلماء الآثار، الذين يعملون في أراضي التّوراة، لاستخدام الاكتشافات النّاتجة عن التّنقيبات في إيضاح نُصُوص الكتاب المُقدَّس العبْريّ؛ بل يتحوَّلون - بشكْل قويٍّ - إلى أُسلُوب ومنهج العُلُوم الاجتماعيَّة، ويتَّجهون إلى فَحْص ودراسة الحقائق الإنسانيَّة الكامنة وراء النَّصّ.

في تنقيب المواقع القديمة، لم يَعُدْ التّأكيد مُنصبّاً - فقط - على صلة الموقع بالأمكنة المذكورة في الكتاب المُقدَّس العبْريّ، بل أصبحت المصنوعات اليدويَّة المُستخرَجَة من الحفريّات الأثريَّة، والنّماذج المعماريَّة، وأنماط المُستوطنات البشريَّة، بالإضافة إلى بقايا العظام الحَيَوَانيَّة، والبُذُور، والتّحليلات الكيميائيَّة لعَيِّنات التُّربة، والنّماذج الأنثرُوبُولُوجيَّة (علْم أصل الإنسان) المُستخرَجَة - على مدى زمنٍ طويل - من العديد من الثّقافات العالميَّة، أصبحت كُلُّ هذه المعلومات تُستخدَم كَمَفَاتيح لإدراك التَّغيُّرات الأوسع في الاقتصاد، والتّاريخ السّياسي،

والمُمارسات الدِّينيَّة ، والكثافة السُّكَّانيَّة ، والتّركيبة السُّكَّانيَّة ذاتها للمُجتمع الإسرائيلي القديم . وأصبح هُناك عدد مُتزايد من العُلماء يُحاولون - عبْر تبنِّيهم نَفْسَ الطُّرُق المُستخدَمَة من قِبَل عُلماء الآثار وعُلماء الإنسانيَّات في المناطق الأُخرى - أنْ يفهموا كيف أثَّر التّفاعل الإنساني مع المُحيط الطّبيعي المُعقَّد والمُتنوِّع لأرض إسرائيل على تطوُّر نظامها الاجتماعي الفريد ، ودينها ، وتُراثها الرُّوحي الخاصّ .

رُؤية جديدة للتّاريخ التّوراتي:

لقد سمحت التَّطوُّرات الحديثة في علم الآثار لنا - أخيراً - بتجسير الفجوة بَيْن دراسة النُّصُوص التّوراتيَّة والاكتشافات الأثريَّة . يُمكننا - الآن - أنْ نرى أنَّ الكتاب المُقدَّس العبْريّ - جنباً إلى جنب الأشكال الفخَّاريَّة المُتميِّزة ، وأنماط الفنّ المعماري ، والنُّقُوش العبْريَّة - يُمثِّل نتاج براعة إنسانيَّة مُميَّزة ، وأنَّه يُخبرنا بأشياء كثيرة عن المُجتمع الذي أُنتجَ فيه .

ذلك لأنَّه أصبح من الواضح - اليوم - أنَّ ظواهر مثل حفظ السِّجلاَّت ، والمُراسلات الإداريَّة ، واليوميَّات الملكيَّة ، وتأليف كتاب مُقدَّس وَطَني - خُصُوصاً ؛ إذا كان مثل الكتاب المُقدَّس (التّوراة) في عُمقه وتطوُّره البالغ - كُلّ ذلك مُرتبط بمرحلة مُعيَّنة من التَّطوُّر الاجتماعي .

لقد قام عُلماء الآثار وعُلماء الإنسانيَّات - الذين يعملون في جميع أنحاء العالم - بدراسة السِّياق الذي تظهر فيه أنواع مُتطوِّرة من الكتابة ، التي تكون - في كُلّ حالة تقريباً - دليلاً على تشكيل دولة ، تتركَّز السُّلْطَة فيها في مُؤسَّسات وَطَنيَّة مثل شخصيَّات رَسْميَّة ، أو حُكْم مَلَكي .

من السِّمات الأُخرى التي تدلّ على هذه المرحلة من التَّطوُّر الاجتماعيّ نذكر الأبنية التّذكاريَّة ، والتَّخصُّصات الاقتصاديَّة ، وحُضُور شبكَة كَثيفة من المُجتمعات البشريَّة المُتشابكَة ، تتراوح في الحجم من المُدُن الكبيرة ، إلى المراكز الإقليميَّة ، إلى البلدات المُتوسِّطة الحجم ، والقُرَى الصّغيرة .

حتَّى فترة قريبة ؛ كان كلا : العُلماء النَّصيُّون وعُلماء الآثار يفترضون بأنَّ إسرائيل القديمة وَصَلَتْ إلى مرحلة التّشكيل الكامل للدّولة في عهد الحُكْم الملكيّ المُتَّحد لداود وسُلَيْمَان .

في الحقيقـة ؛ مـايزال العديـد مـن الاختصـاصيِّين فـي الكتـاب المُقـدَّس يعتقـدُون أنَّ أقـدم مصادر أسفار التّوراة الخمسة هُو الوثيقة "جي J"، أو الوثيقـة اليَهْويَّـة Yahwist ، وبأنَّـها كُتِبَت في دولة يهُوذا، في عصر داود وسُلَيْمَان، فـي القـرن العاشـر ق . م ، أمَّـا نحـنُ؛ فسـنُثبتُ ـ فـي كتابنا هذا ـ أنَّ مثل هذا الاستنتاج بعيدٌ جداً عن الواقع .

إنَّ تحليل الشّواهد الأثريَّة يُبيِّن أنَّه لا يُوجد أيُّ دليـلٍ ـ مُطلقاً ـ على وُجُـود معرفـة شـاملة للقراءة والكتابة، أو أيِّ خواصِّ أُخرى من خواصِّ الدّولة الكاملة فـي مَمْلَكَـة يـهُوذا ـ وبشَـكْلٍ خَاصٍّ؛ في أُورشليم ـ حتَّى أكثر من قرنَيْن ونصف تاليَيْن؛ أيْ نحو نهاية القرن الثّامن ق . م .

بالطَّبع؛ لا يُوجد عالم آثار يُمكنـه أنْ يُنكر بـأنَّ "الكتـاب المُقـدَّس العـبْري" يحتـوي علـى أساطير، وأشخاص، وأجزاء لقَصَـص تعـود لعـهد قديـم جـداً، لكـنْ؛ يُمكـن لعلْـم الآثـار أنْ يُظهر بأنَّ التّوراة والتّاريخ التّثنوي Deuteronomistic History يحمـلان بصمـات واضحـةً، تدلُّ على أنَّ تأليفها وجَمْعها إنَّما تَمَّا ـ لأوَّل مرَّة ـ في القرن السّـابع ق . م ، لماذا الأمـر كذلـك؟ ومـاذا يعنـي هـذا الأمـر بالنّسبة لفَـهْمنَا للقصَّـة التّوراتيَّـة العظيمـة؟ هـذا هُـو الموضـوع الرّئيـس لهذا الكتاب .

سنرى كَم من قَصَص وروايات الكتاب المُقدَّس العبْري هُـو مـن نتـاج آمـال، ومخـاوف، وطُمُوحات مَمْلَكَة يهُوذا، التـي بَلَغَـت أوجـها فـي عـهد الملـك يُوشـيَّا فـي نهايـة القـرن السّـابع ق . م ، وسنُثبت بأنَّ الجوهر التّاريخي للكتاب المُقدَّس إنَّما ظهر للوُجُـود، انطلاقـاً مـن ظُـرُوف رُوحيَّة واجتماعيَّة وسياسيَّة واضحة، وَشَكَّلته خلاَّقيَّة وبصيرة نساء ورجال استثنائيِّين . مُعظـم ما أُخذ عُمُوماً على أنَّه تـاريخٌ صحيـحٌ ودقيـقٌ مُسـلَّم بـه ـ كقَصَـص الآبـاء، والخُرُوج، وغـزو كَنْعَان، وحتَّـى قصَّـة الحُكْـم الملكـي المُتَّحـد المجيـد لـداود وسُلَيْمَان ـ ليـس ـ فـي الواقـع ـ سـوى تعبيرات خلاَّقة أَبْدَعَتْهَا حَرَكَة الإصلاح الدِّيني القويَّة التي ازدهرت في مَمْلَكَة يهُوذا في العصر الحديدي المُتأخِّر . وبالرّغم من أنَّ هذه القَصَص ربَّما كانت تستند إلى بعض الوقائع التّاريخيَّة، إلاَّ أنَّها تعكس ـ بشَكْلٍ أساسي ـ عقيدة كاتبيها وتصوُّرهم للعالم .

سوف نُبيِّن كيف أنَّ قصَّة الكتاب المُقدَّس العبْريّ فُصِّلَت - تماماً - لتُناسب تقوية الإصلاح الدِّيني والطُّمُوحات التَّوسُّعيَّة الإقليميَّة لِمَمْلَكَة يهُوذا أثناء العُقُود الختاميَّة البالغة الأهميَّة للقرن السّابع ق.م.

هذا؛ ولكنَّ القول بأنَّ أشهر قَصَص الكتاب المُقدَّس العبْريّ لم تحدث على النّحو الذي وُصِفَتْ به فيه، لا يُقْصَد به - أبداً - التّلميح إلى أنَّ إسرائيل القديمة ليس لها تاريخ أصيل.

سنُعيد في الفُصُول التّالية بناء تاريخ إسرائيل القديمة على أساس الأدلَّة الأثريَّة، التي تُشكِّل مصدر المعلومات الوحيد، حول الفترة التّوراتيَّة، الذي لم يُصحَّح على نطاق واسع، ولم يُحَرَّر، أو يخضع للرّقابة، فيُحذَف منْ قِبَل أجيال عديدة من نُسَّاخ وكُتَّاب الكتاب المُقدَّس العبْريّ. وبمُساعدة الاكتشافات الأثريَّة والسِّجلاَّت الإضافيَّة على الكتاب المُقدَّس العبْريّ، سنرى كيف أنَّ قَصَص "الكتاب المُقدَّس العبْريّ" هي نفسها جُزء من القصَّة الحقيقيَّة، وليست الإطار التّاريخي المُؤكَّد والقَطْعي الذي يجب أنْ يتَّفق معه كُلٌّ اكتشاف مُعيَّن، أو نتيجة مُحدَّدة. ستبتعد قصَّتنا - بشكْل مُثير - عن القصَّة التّوراتيَّة المألوفة. إنَّها ليست قصَّة مَمْلَكَة واحدة، بل مَمْلَكَتَيْن مُختارتَيْن، يُشكِّلان مع بعضهما الجُذُور التّاريخيَّة لشعب إسرائيل.

وُلدت إحدى المَمْلَكَتَيْن - مَمْلَكَة إسرائيل - في الوُديان الخصبة والتّلال المُتحرِّجة لشمال إسرائيل [فلسطين المُحتلَّة]، ونَمَتْ لتُصبح واحدة من بَيْن أغنى الممالك وأكثرها عالميَّة، وأقواها في المنطقة. وهي مَمْلَكَة منسيَّة كُلِّيّاً - تقريباً - اليوم، ماعدا الدّور الخسيس الذي لَعبتْهُ حسب وَصْف سفْرَيْ المُلُوك الأوَّل والثّاني من الكتاب المُقدَّس العبْريّ. أمَّا المَمْلَكَة الأُخرى - مَمْلَكَة يهُوذا -؛ فقد ظهرت في بلاد التَّلّ الجنوبيَّة القاسية الصّخريَّة، وبقيت حيَّة بفَضْل حفاظها على عُزلتها وولائها العنيف لمعبدها ولسُلالتها المَلَكيَّة.

تُمثِّل هاتان المَمْلَكَتان جانبَيْن لتجربة إسرائيل القديمة، ومُجتمَعَيْن مُختلفَيْن جداً ذوي مواقف مُتفاوتة وهُويَّة وَطَنيَّة مُختلفة. سنتتبَّع - خُطوةً خُطوةً - المراحل التي اندمج فيها بقُوَّة: تاريخ، وذاكرة، وآمال كلتا المَمْلَكَتَيْن، في كتاب مُقدَّس واحد، شكَّل - ويُواصل تشكيل - وجه المُجتمع الغربي، أكثر ممَّا فَعَلَتْهُ أيٌّ وثيقة مكتوبة أُخرى في التّاريخ.

[القسم الأوَّل]

الكتاب المُقدَّس العبْريّ كتاريخ ؟

الفَصلْ (1):

البحث عن الآباء

في البَدْء؛ كانت هُناك عائلة واحدة، ذات علاقة خاصَّة مع الله. وبمُرُور الزّمن؛ تكاثر أفراد تلك العائلة، وتضاعف عددهم كثيراً، ونموا؛ ليُصبحوا شعب إسرائيل. تلك هي القصَّة الملحميَّة الأساسيَّة الأُولى للكتاب المُقدَّس، قصَّة أحلام مُهاجرة، ووُعُود إلهيَّة عملت كتمهيد مُتنوِّع الصُّور، ومُلهم للتّاريخ اللاَّحق لأُمَّة إسرائيل. كان إبراهيمُ أوّلَ الآباء، ومُستلمَ الوعد الإلهي بالأرض والذُّرِّيَّة الوفيرة، والذي حَمَلَهُ ـ عبْر الأجيال ـ ابنه إسحاق، ثُمَّ ابنه يعقُوب ابن إسحاق، المعروف ـ أيضاً ـ باسم إسرائيل. من بَيْن أولاد يعقُوب الإثنَيْ عشر، الذي غدا كُلٌّ واحد منهم أباً ورأساً لقبيلة من قبائل بني إسرائيل، أُعطي يهُوذا الشّرفَ الخاصَّ للسّيادة عليهم جميعاً.

إنَّ رواية الكتاب المُقدَّس العبْريّ لحياة الآباء، قصَّة رائعة لكُلٍّ من العائلة والأُمَّة معاً. وتشتقُّ قُوَّتها العاطفيَّة من كَونها سجلّ كفاح إنساني عميق، لآباء، وأُمَّهات، وأزواج، وزوجات، وبنات، وبنين. فهي ـ بنَحْو ما ـ قصَّة مثاليَّة لعائلة، بكُلِّ أفراحها وأحزانها، وحُبِّها وكراهيَّتها، وخداعها ومَكْرها، ومجاعاتها وازدهارها. وهي ـ كذلك ـ قصَّة فلسفيَّة عالميَّة عن العلاقة بَيْن الله والبشريَّة؛ عن الإخلاص والطّاعة؛ عن الحقِّ والباطل؛ وعن الإيمان والتّقوى، والفُسق والفُجُور. هي قصَّة الله الذي اختار أُمَّة، وأعطاها وعده الأبديّ بالأرض، والازدهار، والنُّمُوّ.

تُعَدُّ قصَّة الآباء إنجازا أدبيّاً قويّاً على جميع المُستويات: تاريخيّاً، ونَفْسيّاً، ورُوحيّاً، لكنَّ السُّؤال هُو: هل هي ـ فعلاً ـ تسجيل موثوق لقصَّة ولادة شعب إسرائيل؟ هل هُناك أيُّ دليل على أنَّ آباءَ مثل إبراهيم، وإسحاق، ويعقُوب، وربَّات أُسَر مثل سارة، وربيكا، وأيلة، وراحيل، وُجدُوا، وعاشوا حقيقةً؟

قصَّة بُطوليَّة لأربعة أجيال:

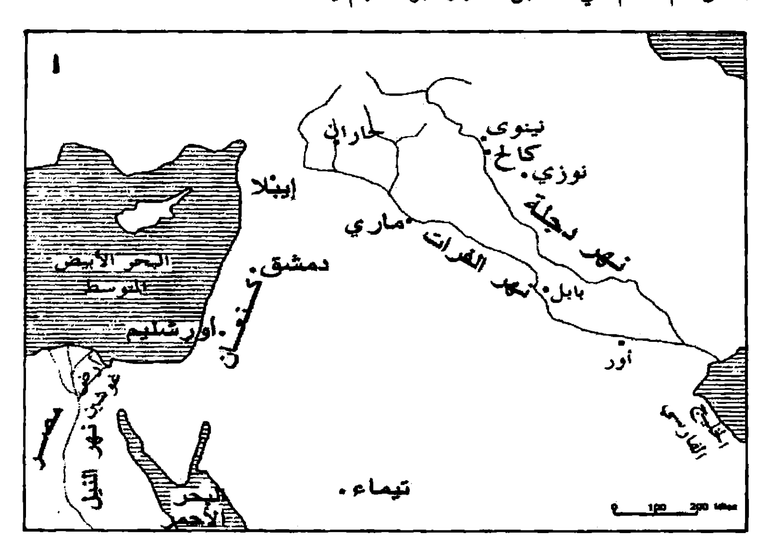
يصف سفْر التّكوين إبراهيمَ كَأُنموذج لرجل الإيمـان، وأب الأُسـرة، ويذكـر أنَّه قَـدمَ مـن مدينة "أور" في جنوب بلاد ما بَيْن النَّهرَيْن، واستوطن مـن جديـد، مـع عائلتـه، بلـدة "حاران" Haran، على إحدى روافد الفُرات الأعلى (الشَّكْل رَقْم 4). وَظَهَرَ اللهُ له هُناك، وأمره قائلاً: [اذْهَبْ منْ أَرْضكَ، وَمنْ عَشيرَتكَ، وَمنْ بَيْت أَبيكَ، إلَى الأَرْض التي أُريـكَ. فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظيمَةً، وَأُبَاركَكَ، وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَـةً.]، (تكويـن 12/ 1 ـ 2). أطـاع أبـرام (كمـا أصبح يُسمَّى) كلمات الله، وأخذ زوجته سارة وابـن أخيـه "لُـوط"، وغـادر إلـى أرض كَنْعَـان. تجوَّل بقطعانه في أنحاء منطقة المُرتفعات والتّلال المركزيَّة، وتحرَّك ـ بشَكْل رئيسـي ـ بَيْـن شـكيم (نابلس) في الشّمال، وبيت إيل Bethel (قُرْب أُورشَليم)، وحبرون (الخليـل) فـي الجنـوب، لكنَّه تنقَّل ـ أيضاً ـ في النَّقَب، بعيداً في الجنوب (الشَّكْل رَقْم 5).

بَنَى "أبرام" ـ خلال أسفاره ـ المذابح للَّه، في عدَّة أماكن، وشـيئاً فشـيئاً؛ اكتشـف الطَّبيعـةَ الحقيقيَّةَ لقَدَره. وَعَدَ اللهُ أبرامَ وذُرِّيَّته كُلَّ الأراضي بَيْن النّيل والفُرات، فقال: [لنَسْلكَ أُعْطـي هَذه الأَرْضَ، منْ نَهْر مصْرَ، إلَى النَّهْر الْكَبير نَـهْر الْفُـرَات.] (تكويـن 15 / 18). ولتبييـن دوره كَأَب رُوحي لشُعُوب عديدة، غيَّر اللهُ اسمَ أبرام إلى إبراهيم: [فَلاَ يُدْعَى اسْمُكَ ـ بَعْدُ ـ أَبْـرَامَ، بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إبْرَاهيمَ؛ لأَنِّي أَجْعَلُكَ أَباً لجُمْهُورٍ منَ الأُمَم.] (تكوين 17/ 5). كما غيَّر اسم زوجته ـ أيضاً ـ من ساراي Sarai إلى "سارة"؛ لتبيين أنَّ منزلتها تغيَّرت أيضاً.

كانت عائلة إبراهيم مصدر كُلِّ الأُمم في المنطقة. أثناء فترة ترحالهم وتجوالـهم فـي أرض كَنْعَان؛ بدأ رُعاة إبراهيم ورُعاة لُوط يتنـازعون فيمـا بَيْنـهم. وتفاديـاً لمزيـد مـن الصّـراع ضمـن الأُسرة، قرَّر إبراهيمُ ولُوطُ تقاسمَ الأرض. بقي إبراهيم وشعبه فـي المُرتفعـات الغربيَّـة، بَيْنمـا ذهب لُوط وعائلته شرقاً إلى وادي الأُردُن، واستقرُّوا في "سدوم" Sodom قُرْب البحـر الميِّـت. كان أهالي "سدوم" Sodom والمدينـة القريبـة منهـا: عمـورة Gomorrah مُنغمسـين فـي الفُسـق والفُجُور والخيانة، فَأَمْطَرَ اللهُ كبريتاً ونـاراً علـى المدينتَيْـن الفاسـقتَيْن، فدمَّرهمـا تمامـاً. وخـرج لُـوط قُبيـل ذلـك، مُتَّخـذاً لنفسـه طريقـاً باتِّجاه التّـلال الشّـرقيَّة؛ ليُصبـح جـدَّ الشُّـعُوب التـي استوطنت عبْر الأُردُن (الضِّفَّة الشّـرقيَّة)؛ أيْ شُـعُوب مُـوآب Moab وعمُّـون Ammon. كمـا

أصبح إبراهيم جَدّاً لعدَّة شعُوب أُخرى قديمة أيضاً. ولمَّا كانت زوجته سارة غير قادرة على الإنجاب، وبَلَغَت من العُمر تسعين عاماً؛ اتَّخذ إبراهيم من أَمَة زوجته سارة - الجارية المصريَّة "هاجر" - خليلة؛ ليُنجب منها طفلاً؛ سمَّاه إسماعيل، الذي أصبح - مع الزّمن - جدَّ كُلِّ الشُّعُوب العَرَبيَّة في الصّحراء الجنوبيَّة.

أهمُّ شيء بالنّسبة للرّواية التّوراتيَّة هُو أنَّ الله وَعَدَ إبراهيمَ بولَدٍ آخر، فأنجبتْ زوجتُهُ المحبوبةُ سارة - بشَكْل إعجازيٍّ - ابناً هُو إسحاق، وذلك عندما بَلَغَ إبراهيمُ المئة من عُمره. وتظهر إحدى أقوى الصُّور في التّوراة عندما يُواجه اللهُ إبراهيمَ بالاختبار النّهائي لإيمانه، فيأمره بالتّضحية بابنه المحبوب إسحاق على جبل في أرض مُوريا. ويستجيب إبراهيم، لكنَّ اللهَ يُوقف التّضحية، ويُكافئُ إبراهيمَ على طاعته ووفائه بتجديد عهده له. لن تنمو ذُرِّيَّة إبراهيم ليُصبحوا أُمَّة عظيمة كبيرة كَعَدد النُّجُوم في السّماوات والرّمل في شاطئ البحر فحسب، بل إنَّ كُلَّ أمم العالم - في المُستقبل - ستتبارك بواسطتهم أيضاً.



الشّكل 4: مواقع في بلاد ما بَيْن النّهرَيْن، ومناطق أُخرى من الشّرق الأدنى القديم ذات صلة بقَصَص الآباء.

بَلَغَ إسحاقُ سنَّ الرُّشْد، وبدأ يتجوَّل بقطعانه الخاصَّة حول مدينة بئر سبع الجنوبيَّة، وتزوَّج - في نهاية الأمر - من "ريبيكا"، الشَّابَّة التي جاءت من وَطَن أبيه بعيداً إلى الشَّمال. وبِمُرُور الزَّمن؛ كانت العائلة تضرب جُذُورها في أرض الميعاد بشَكْل أعمق. اشترى إبراهيم مغارة "مكفيلة" Machpelah في حبرون (الخليل)، في منطقة التّلال الجنوبيَّة؛ ليدفنَ فيه زوجته المحبوبة سارة. ثُمَّ دُفِنَ هُو - أيضاً - هُنَاك.

واستمرَّت الأجيال. وفي مُعسكرهم في النَّقَب؛ وَلَدَتْ ريبيكا - زوجة إسحاق - توأمَيْن، كان لكُلٍّ منهما طَبْعٌ ومزاجٌ مُختلف تماماً عن الآخر، وبالتَّالي؛ وَقَعَ التّصارع بَيْن نسلَيْهما، واستمرَّ لمئات السّنوات. كان "عيسُو" - الصَّيَّاد البارع - الابنَ الأكبرَ، والمحظيَّ أكثر في عينَيْ والده إسحق، بَيْنما كان يعقُوب - الابن الأصغر - حسَّاساً، ومُرهف الشُّعُور، وكان محبوباً أكثرَ منْ قبَل أُمِّه. وبالرّغم من أنَّ عيسُو كان الولد البكر، والوارث الشَّرْعي للوعد الإلهي، إلاَّ أنَّ ريبيكا قامت بإخفاء وجه ابنها المُحبَّب يعقُوب بعباءة مصنوعة من جلد الماعز القاسي، وقدَّمَتْهُ إلى إسحاق، الذي كان يحتضر في سريره، لكي يُخطئ الأبُ الأعمى والضّعيف، فيحسب أنَّ يعقُوب هذا هُو عيسُو، فيمنحه - دُون أنْ يشعر - البَرَكَةَ التي كانت من حقِّ الابن الأكبر حسب قاعدة حقِّ البكُوريَّة.

لدى عودته إلى المُخيَّم؛ اكتشف عيسُو الحيلة والبَرَكَةَ المسروقة، لكنَّه لم يعد قادراً على فعْل شيء. وكُلُّ ما فَعَلَهُ أبوه إسحق ليُعوِّضه عن تلك الخسارة، هي وَعْده إيَّاه أنَّه سيُصبح جَدَّاً لكُلِّ ساكني الصّحراء؛ أي شعب الإيدُوميِّين Edomites: [هُوَذَا بلاَ دَسَم الأَرْض يَكُونُ مَسْكَنُكَ، وَبِلاَ نَدَى السَّمَاء منْ فَوْقُ.] (تكوين 27/ 39).

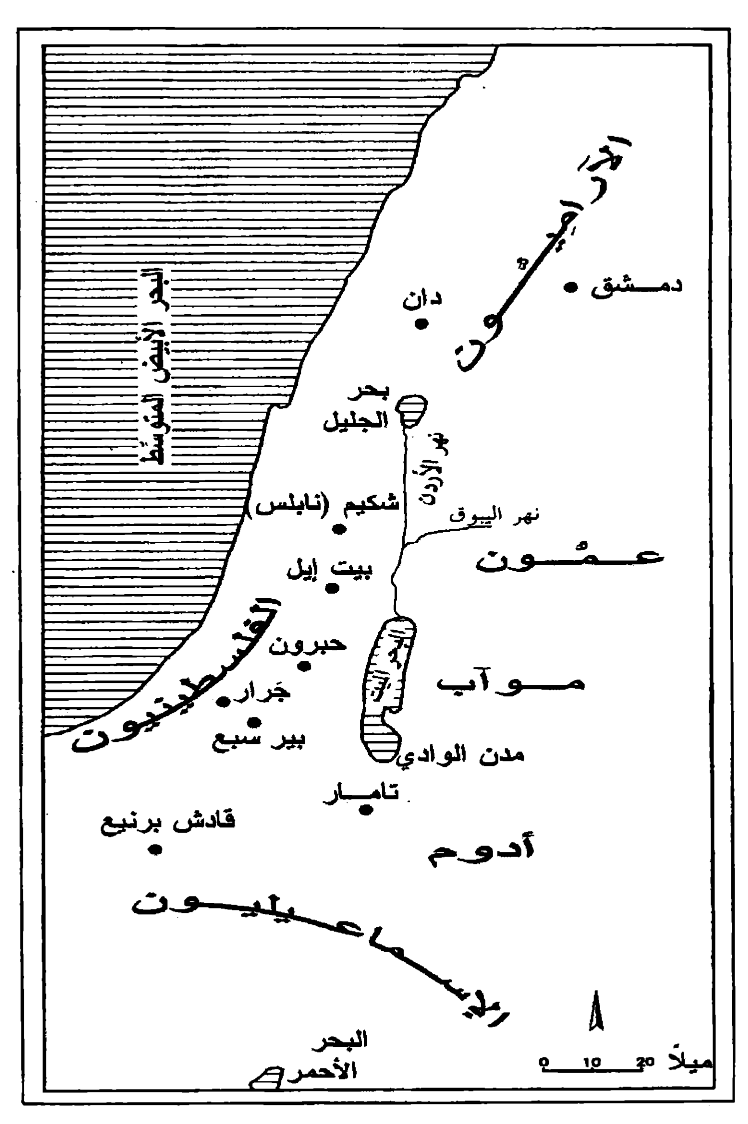
وبهذا؛ تأسَّس شعب جديد في المنطقة، وفيما بعد - كما يروي سفْر التّكوين 28/ 9 - تزوَّج عيسُو من عائلة عمِّه إسماعيل وأنجب ابناً صار جَدَّاً لقبيلةٍ أُخرى من القبائل التي تقطن في الصّحراء. وكانت هذه القبائل على صراع دائم مع الإسرائيليِّين؛ يعني: أحفاد أخيه يعقُوب، الذي اختَطَفَ منه حقَّ البكُوريَّة الإلهي.

وسُرعان ما هرب يعقُوب من غضب أخيه الحزين، وسافر بعيداً إلى الشّمال، إلى بيت عمِّه لابان Laban في حاران Haran، لإيجاد زوجةٍ له. وفي طريقه نحو الشّمال؛ ثبَّت الله ميراثَ يعقُوب. وتوقَّف يعقُوب ليلاً في بيت إيل Bethel للاستراحة، فحلم بسُلَّم فوق على الأرض، يصل في قمَّته إلى السّماء، ورأى ملائكة الله تصعد وتنزل، ومن فوق السُّلَّم، جدَّد اللهُ وعدَه الذي أعطاه لإبراهيم قائلاً:

[أَنَا الرَّبُّ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ. الأَرْضُ التي أَنْتَ مُضْطَجِعٌ عَلَيْهَا أُعْطِيهَا لَكَ وَلِنَسْلِكَ. 14وَيَكُونُ نَسْلُكَ كَتُرَابِ الأَرْضِ، وَتَمْتَدُّ غَرْباً وَشَرْقاً وَشِمَالاً وَجَنُوباً. وَيَتَبَارَكُ فِيكَ وَفِي نَسْلِكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ. 15وَهَا أَنَا مَعَكَ وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ، وَأَرُدُّكَ إِلَى هَذِهِ الأَرْضِ؛ لأَنِّي لاَ أَتْرُكُكَ حَتَّى أَفْعَلَ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ] (تكوين 28 / 13 ـ 15).

واصل يعقُوب مسيره نحو الشّمال، إلى "حاران"، وبقي مع "لابان" عدَّة سنوات، وتزوَّج من ابنتَيْه "ليئة" Leah، و"راحيل" Rachel (ومن خادمتَيْهما الجاريتَيْن)، وأصبح أباً لأحد عشر ابناً؛ هُم: رَأُوبَيْنُ (بِكْرُ يَعْقُوب)، وشَمْعُونُ، ولاَوِي، ويهُوذا، ودَانُ، ونَفْتَالي، وجَادُ، وأَشِيرُ، ويَسَّاكَرُ، وزَبُولُونُ. ويُوسُف (انظُرْ التّكوين 35/ 25.23)، ثُمَّ أمرَ اللهُ يعقُوبَ بالعودة إلى كَنْعَان مع عائلته.

وفي طريقه ـ بَيْنما كان يعبر نهر "يبوق" في عبْر الأُرْدُن ـ أُجْبِرَ يعقُوب على مُصارعة شخصيَّة غامضة. وسواء كانت تلك الشّخصيَّة ملاكاً، أو الله، فإنَّ هذه المُصارعة غيَّرت اسم يعقُوب إلى اسم جديد هُو"إسرائيل" (الذي معناه الحَرْفي: "الذي تصارعَ مع الله")، [لاَ يُدْعَى اسْمُكَ ـ فِي مَا بَعْدُ ـ يَعْقُوبَ، بَلْ إِسْرَائِيلَ؛ لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ، وَقَدِرْتَ] (تكوين 32/ 28)، ثُمَّ عاد يعقُوب إلى كَنْعَان، ونصب مُخيَّماً قُرْب "شكيم" (نابلس)، وبنى مذبحاً في "بيت إيل" Bethel في المكان نفسه الذي كَشَفَ اللهُ فيه له نفسَهُ، عندما كان في طريقه إلى "حاران" Haran. وأثناء سيرهم أكثر نحو الجنوب؛ ماتت "راحيل" أثناء ولادتها لـ "بنيامين"، آخر أبناء يعقُوب. ومُباشرة ـ بعد ذلك ـ تُوفِّي أبو يعقُوب ـ إسحاق ـ، ودُفن في مغارة "مكفيلة" Machpelah في حَبْرون (الخليل).



الشَكْل 5: أهمُّ المواقع والشُعُوب في كَنْعَان المذكورة في رواية قَصَص الآباء.

رُويداً رُويداً؛ تحوَّلت العائلة إلى عشيرة، بل بدأ طريق التَّحوُّل إلى أُمَّة. رغم ذلك؛ كان بنو إسرائيل - في هذه المرحلة - مايزالون يُشكِّلون عائلة يتشاجر فيها الإخوة، ومن ذلك؛ مَقْتُ وحسدُ أولاد يعقُوب لأخيهم يُوسُف، ابن يعقُوب المُفضَّل، بسبب أحلامه الغريبة، التي تنبَّأت بأنَّه سيسود على كُلِّ أفراد عائلته. ورغم أنَّ أغلب الإخوة أرادوا قَتْلَهُ؛ إلاَّ أنَّ راؤبين ويهُوذا أثْنَيَاهُم عن ذلك. بَدَلاً من أنْ يذبحوا يُوسُف؛ قام إخوة يُوسُف ببَيْعه إلى مجموعة من التُّجَّار الإسماعيليِّين (من ذُرِّيَّة إسماعيل)، الذين كانوا في طريقهم إلى مصر، يسوقون قافلةً من الجمال. وتظاهر الإخوةُ بالحُزن والبُكاء، وأوضحوا لأبيهم الشّيخ يعقُوب بأنَّ وحشاً بريَّاً مُفترساً افترس يُوسُف، ونَدَبَ يعقُوب ابنَهُ المحبوب.

لكنَّ القَدَرَ العظيم كان بانتظار يُوسُف، ولم يستطع حَسَدُ إخوته له أنْ يحولوا بَيْنه وبَيْن ذلك القَدَر المُخبَّأ له. استقرَّ يُوسُف في مصر، وسُرعان ما علا شأنه في الثّروة والمنزلة، بفَضْل مَلَكَاته الاستثنائيَّة. وبعد تفسيره لحلم فرعون؛ مُبيِّناً أنَّه يُنبئ عن مجيء سبع سنوات جيِّدة، تعقبها سبع سنوات سيِّئة، عيَّنه فرعونُ وزيرَهُ الكبيرَ. فاستطاع - بالاستفادة من هذا المنصب الرّفيع - أنْ يُعيد تنظيم اقتصاد مصر بخَزْن الغذاء الفائض من السّنوات الجيِّدة؛ لتتمَّ الاستفادة منه خلال السّنوات السَّيِّئة الآتية. وهذا ما حَصَلَ بالفعل؛ فعندما حلَّت السّنوات السَّيِّئة أخيراً، كانت مصرُ مُستعدَّةً بشَكْل جيِّد جداً.

وفي كَنْعَان القريبة؛ عانى يعقُوب وأبناءه من المجاعة، وأرسل يعقُوب عشرةً من أبنائه الأحد عشر الباقين إلى مصر، لأجل شراء الطّعام. وفي مصر؛ ذهبوا لرُؤية الوزير يُوسُف، الذي كان قد بَلَغَ سنَّ الرُّشْد آنذاك. لم يعرف أبناء يعقُوب أخاهم المفقود مُنْذُ زمن طويل، كما أنَّ يُوسُف - في بادئ الأمر - لم يكشف هُويَّته لهم، ثُمَّ - في مشهد مُؤثِّر - كَشَفَ يُوسُفُ لهم أنَّه أخوهم، الذي احتقروه، وباعوه بعيداً إلى العُبُوديَّة.

وأخيراً؛ توحَّد بنو إسرائيل من جديد، وجاء الشّيخ العجوز يعقُوب للعيش مع كامل عائلته قُرْب ابنه العظيم، في أرض غُوشين [شمال مصر]. وعلى فراش موته؛ بارك يعقُوب أبناءه وأحفاده، وابنَيْ يُوسُف "مَنَسَّى" و"أفرايم". ومن بَيْن أنواع الشَّرَف، نال يهُوذا شَرَفَ حقِّ البكُوريَّة المَلَكي:

[يهُوذا ! إيَّاكَ يَحْمَدُ إخوَتُـكَ. يَدُكَ عَلَى قَفَا أعْدَائكَ. يَسْجُدُ لَكَ بَنُو أبيكَ. يهُوذا جَرْوُ أَسَدٍ. منْ فَريسَةٍ صَعدْتَ يَا ابْني. جَثَا وَرَبَضَ كَأَسَدٍ وكَلَبْوَةٍ. مَنْ يُنْهضُهُ؟ لاَ يَزُولُ قَضيبٌ منْ يهُوذا وَمُشْتَرِعٌ منْ بَيْن رجلَيْه حتَّى يَأتيَ شيلُونُ، وَلَهُ يَكُونُ خُضُوعُ شُعُوبٍ.] (تكوين49/ 8 ـ 10).

بعد موت يعقُوب؛ استُردَّ جسمه إلى كَنْعَان ـ الأرض التي ستُصبح ـ يوماً ما ـ الميراث العشائري ليهُوذا ـ، وقام أبناؤه بدَفْنه في مغارة "مكفيلة" Machpelah في حَبْرون (الخليل)، ثُمَّ مات يُوسُف أيضاً، وبقي بنو إسرائيل في مصر؛ ليبدؤوا صفحات الفَصْل التّالي من تاريخهم كأُمَّة.

البحث بلا نتيجة عن إبراهيم التّاريخي:

قبل أنْ نُبيِّن الزّمان والظُّرُوف التّاريخيَّة المُحتملة التي تمَّت فيها عَمَليَّة تجميع ونَسْج قصَّة الآباء التّوراتيَّة لأوَّل مرَّة من عدَّة مصادر سابقة، لابُدَّ أنْ نُوضِّح سبب اقتناع العديد من العُلماء خلال المئة سنة الماضية بأنَّ قَصَص الآباء كانت ـ على الأقلّ ـ من ناحية خُطُوطها العريضة، صادقة تاريخياً. لقد بدا أُسلُوب الحياة الرّعوي للآباء مُتوافقاً ـ بنَحْو كبير، في شَكْله العام ـ مع ما لاحظه عُلماء آثار أوائل القرن العشرين حول الحياة البَدَويَّة المُعاصرة في الشّرق الأوسط. منحت الفكرة العلميَّة القائلة بأنَّ طريقة الحياة البَدَويَّة بقيت بدُون تغيير جوهري طوال الألف عام جواً من التّشابه مع القَصَص التّوراتيَّة، التي تتكلَّم عن الثّروة، التي تُقاس بعدد الخراف والعنزات (التّكوين 30/ 30 ـ 43)، والصّراعات العشائريَّة مع أهالي القُرَى على سقاية الآبار (التّكوين 25/ 25 ـ 33)، والنّزاعات على المراعي (التّكوين 53/ 5 ـ 52). بالإضافة لذلك؛ بدت الإشارات الواضحة إلى بلاد ما بَيْن النّهرَيْن والمواقع السُّوريَّة مثل مسقط رأس إبراهيم: أور، وحاران على أحد روافد الفُرات (حيثُ واصلت أغلب عائلة إبراهيم العيش بعد هجرته إلى كَنْعَان)، مُتطابقة ـ تماماً ـ مع نتائج التّنقيبات الآثاريَّة في القوس الشّرقي للهلال الخصيب؛ حيثُ كانت تُوجد بعض المراكز القديمة جداً لحضارة الشّرق الأدنى القديم.

رغم ذلك؛ كان هُناك شيء أكثر عُمقاً، ومُرتبط بنَحْو وثيق جداً بالمُعتقد الدِّيني الحديث، حفَّز البحث العلمي عن الآباء "التّاريخيِّين".

لقد كان العديد من عُلماء الآثار التّوراتيّين الأوائل قد تدرّبوا - في البداية - كرجال دين، أو لاهُوتيّين. كانوا مُقتعنين بإيمانهم بأنّ وعدَ الله لإبراهيم، وإسحاق، ويعقُوب، الذي أعطى حقّاً خاصّاً يحمله كُلّ فرد من الشّعب اليهُودي مع ولادته، وهُو حقٌّ انتقل - فيما بعد - إلى المسيحيّين، كما يُوضّحه القدّيس بُولُس في رسالته إلى الغلاطيّين[1]، كان وعداً حقيقيّاً. وإذا كان الأمر كذلك؛ فإنّه من الواضح أنّه تمّ مَنْحُ هذا الوعد الإلهي لأُناس حقيقيّين، وليس لمخلوقات خياليّة اخترعها قلمُ كاتب قديم مجهول.

لاحظ العالم التّوراتي وعالم الآثار الفرنسي الدُّومنيكي "رُولاند دي فُو" **Roland de Vaux** - على سبيل المثال - "أنّه إذا لم يكن للإيمان التّاريخي لإسرائيل أساس تاريخي، فإنّ مثل هذا الإيمان سيكون خاطئاً، وبالتّالي؛ إيماننا - أيضاً - سيكون باطلاً". وقد ردّد هذا الشُّعُور عميدُ علم الآثار التّوراتيّة، الأمريكي "وليام إف. أولبرايت" **William F. Albright**، مُصراً على "أنّ الصُّورة في سفر التّكوين هي - من النّاحية الكُلّيّة - صُورة تاريخيّة حقيقةً، وليس هُناك ما يدعو للشّكّ في الدّقّة العامّة للتّفاصيل المُتعلّقة بسيرة (الآباء)".

في الحقيقة؛ مُنذُ العُقُود الأُولى للقرن العشرين، ومع الاكتشافات الأثريّة العظيمة في بلاد ما بَيْن النّهرَيْن، وتكثُّف النّشاط الآثاري في فلسطين، اقتنع العديد من المُؤرّخين وعُلماء الآثار التّوراتيّين بأنّ تلك الاكتشافات الجديدة يُمكن أنْ تجعل من المُحتمل - إنْ لم تُثبت بالكامل - أنّ الآباء كانوا شخصيّات تاريخيّة حقيقيّة.

لقد حاولوا إثبات أنّ القَصَص التّوراتيّة، حتّى وإنْ كانت قد أُلّفت في تاريخ مُتأخّر نسبيّاً؛ مثل فترة الحُكْم الملكي المُتّحد لبني إسرائيل، إلاّ أنّها أبْقَتْ - على الأقلّ - الخُطُوطَ العامّةَ الرّئيسيّةَ، لحقائق تاريخيّة قديمة أصيلة.

---

(1) يُشير إلى ما جاء في رسالة بُولُس إلى أهل غلاطية، ونصُّه: [7 اعْلَمُوا - إذاً - أنَّ الَّذينَ هُمْ مِنَ الإيمَان أُولئكَ هُمْ بَنُو إبْرَاهيمَ. 8 وَالكتَابُ إذْ سَبَقَ فَرَأى أنَّ اللهَ بالإيمَان يُبرِّرُ الأُمَمَ، سَبَقَ فَبَشَّرَ إبْرَاهيمَ أنْ "فيكَ تَتَبَارَكُ جَميعُ الأُمَم". 9 إذاً؛ الَّذينَ هُمْ منَ الإيمَان يَتَبَارَكُونَ مَعَ إبْرَاهيمَ الْمُؤْمن. . . . . 14 لتَصيرَ بَرَكَةُ إبْرَاهيمَ للأُمَم في الْمَسيح يَسُوعَ، لنَنَالَ بالإيمَان مَوْعدَ الرُّوح، . . 16 وَأمَّا الْمَوَاعيدُ؛ فَقيلَتْ في "إبْرَاهيمَ وَفي نَسْله". لاَ يَقُولُ "وَفي الأنْسَال" كَأنَّهُ عَنْ كَثيرينَ، بَلْ كَأنَّهُ عَنْ وَاحد. وَ"في نَسْلكَ" الَّذي هُوَ الْمَسيحُ.] الإصحاح 3/ 7 - 9 و14و16. (المُترجم).

في الواقع؛ تُزوِّدنا التّوراةُ بالكثير من المعلومات الزّمنيَّة المُحدَّدة التي قد تُساعدنا ـ قبل أيّ شيء ـ على تحديد الزّمن الذي عاش فيه الآباء، بالضّبط وعلى وجه الدِّقَّة. تروي التّوراة تاريخ بني إسرائيل القديم بترتيب زمني مُتسلسل، بدءاً من الآباء، وحتَّى مصر، ثُمَّ حادثة الخُرُوج، ثُمَّ التّيه في الصّحراء، إلى غزو كَنْعَان، ثُمَّ فترة القُضَاة، وحتَّى مُؤسَّسة الحُكْم المَلَكي. وتُزوِّدنا التّوراة بمفاتيح تُمكِّننا من إجراء حسابات زمنيَّة وتاريخيَّة دقيقة ومُحدَّدة. أهمُّ تلك المفاتيح ما يذكره سفْر المُلُوك الأوّل 6/ 1 من أنَّ حادثة الخُرُوج حَدَثَتْ قبل أربعمئة وثمانين سنة من بناء الهيكل (المعبد) في أورشليم (القُدْس)، الذي بدأ في السّنة الرّابعة من عهد الملك سُلَيْمَان. ومن الجهة الأُخرى؛ يذكر سفْر الخُرُوج 12/ 40 أنَّ بني إسرائيل عانوا العُبُوديَّة في مصر لمُدَّة أربعمئة وثلاثين سنة قبل الخُرُوج. فإذا أضفنا لذلك مُدَّة قصيرة؛ وهي مُدَّة مئتَيْ سنة للفترة المُتداخلة لحياة الآباء في كَنْعَان، قبل توجُّه بني إسرائيل إلى مصر، نصل إلى تاريخ توراتي يضع زمن مُغادرة إبراهيم لموطنه الأصلي باتِّجاه كَنْعَان في حوالي سنة 2100 ق. م. .

بالطّبع؛ كان هُناك بعض المشاكل الواضحة في قبول مثل هذا التّاريخ في عَمَليَّة إعادة البناء التّاريخيَّة الدّقيقة، ليس أقلّها العُمر الطّويل جداً لحياة إبراهيم، وإسحاق، ويعقُوب، الذي يتجاوز بالنّسبة لكُل منهم عُمر المئة سنة بمُدَّة مديدة. بالإضافة إلى ذلك؛ كانت سلاسل الأنساب المُتأخِّرة التي تُبيِّن أحفاد يعقُوب مُشوَّشة، إنْ لم تكن تحتوي على تناقضات واضحة. على سبيل المثال: عُدَّ مُوسى وهارون أحفاداً من الجيل الرّابع لـ "ليفي" ابن يعقُوب، بَيْنما عُدَّ "يشُوع" ـ المُعاصر لمُوسى وهارون ـ الحفيدَ من الجيل الثّاني عشر ليُوسُف، الذي هُو ابن يعقُوب أيضاً! من الواضح أنَّه لا يُمكن أنْ نعدَّ هذا مُجرَّد تناقض بسيط.

رغم ذلك؛ حاول العالمُ الأمريكيُّ إثباتَ أنَّ بعض التّفاصيل الفريدة في قَصَص الآباء في سفْر التّكوين قد تحمل مفاتيح دلاليَّة تُفيد في تحقيق أساسها التّاريخي. يُمكن مُطابقة عناصر مثل أسماء شخصيَّات مُعيَّنة، وعادات زواج غير مألوفة، وقوانين شراء الأراضي، مع سجلاَّت تعود للألفيَّة الثّانية ق. م لمُجتمعات بلاد ما بَيْن النّهرَيْن، التي يُفترض أنَّ الآباء قدموا منها. ولا يقلُّ أهمِّيَّة عن ذلك، وَصْف الآباء ـ بنَحْو واقعي ـ بأنَّهم كانوا يعيشون حياة بَدَويَّة، يرتحلون بقطعانهم في جميع أرجاء بلاد التَّلِّ المركزيَّة لكَنْعَان، بَيْن شكيم (نابلس)، وبيت

إيل، وبئر سبع، وحبرون (الخليل). لقد أقنعت كُلُّ هذه العناصر "أولبرايت" أنَّ عهد الآباء كان عهداً حقيقياً. وبدأ هُو وزُملاؤه بالبحث عن دليل يُثبت وُجُود مجموعات رعويَّة من أُصُول ما بَيْن نهرانيَّة تتجوَّل في كافَّة أنحاء أرض كَنْعَان حوالي سنة 2000 ق. م..

ولكنَّ البحث عن الآباء التَّاريخيِّين بقي بلا نتيجة، وأثبت - في النِّهاية - إخفاقه؛ حيثُ لم تُزوِّدنا أيٌّ من الفترات الزَّمنيَّة - المُقترحة توراتيّاً - بخلفيَّة مُتوافقة - بنَحْو جيِّد - مع القَصَص التَّوراتيَّة. (انظُرْ المُلحق "أ" لمزيد من التَّفاصيل).

لقد ثبت - علمياً - أنَّ الهجرة الغربيَّة المُفترضة لمجموعات من بلاد ما بَيْن النَّهرَيْن نحو كَنْعَان، والتي سُمِّيت بالهجرة العموريَّة، والتي وَضَعَ "أولبرايت" - ضمنها - هجرة إبراهيم وعائلته إلى أرض كَنْعَان، لم تعدُ كونها فكرة خادعة وَوَهْميَّة؛ إذْ فنَّد عُلماءُ الآثار - بشَكْل كامل - الزّعمَ بأنَّ ثمَّة حَرَكَة انتقال سكَّاني جماعي ومُفاجئ حَدَثَتْ في مثل ذلك الوقت.

والتَّشابهات الظَّاهرة بَيْن قوانين بلاد ما بَيْن النَّهرَيْن وعادات الألفيَّة الثَّانية ق. م، مع تلك الموصوفة في قَصَص الآباء كانت عامَّة جداً؛ بحيثُ يُمكن أنْ نجد لها نظيراً في أيِّ فترة من فترات تاريخ الشَّرق الأدنى القديم.

إذنْ؛ استخدام ورقة التَّواريخ لا يُقدِّم أيَّ مُساعدة في المسألة. كما أخفقت - أيضاً - جميع المُحاولات اللاَّحقة؛ سواء منْ قبَل "دي فُو" لوَضْع قَصَص الآباء في العصر البرُونزي المُتوسِّط (2000 - 1550 ق. م)، أو منْ قبَل العالمَيْن الأمريكيَّيْن سبايزر، وجُوردن، لوَضْعها في خلفيَّة تعود للقرن الخامس عشر ق. م، استناداً لأرشيف وُجِد في "نُوزي" **Nuzi** في شمال العراق، أو منْ قبَل المُؤرِّخ التَّوراتي الإسرائيلي بنيامين مازار **Benjamin Mazar** لوَضْعها في العصر الحديدي المُبكِّر، أخفقت في تأسيس أيِّ صلة أو دليل مُقنع. لقد كانت التَّشابهات التي يتمُّ إبرازها عامَّة جداً؛ بحيثُ يُمكن أنْ يُوجد نظير لها في العديد من الفترات.

مشروع البحث كُلّه أَنْتَجَ ما يُشبه الحلقة المُفرَغَة. النَّظَريَّات العلميَّة حول عهد الآباء (الذين لم يتطرَّق الشَّكُّ - أبداً - إلى وُجُودهم التَّاريخي الفعلي) تغيَّرت - بشَكْل مُتواصل، طبقاً للاكتشافات - من مُنتصف الألفيَّة الثَّالثة ق. م، إلى أواخر الألفيَّة الثَّالثة، إلى أوائل الألفيَّة

الثّانية، إلى مُنتصف الألفيَّة الثّانية، إلى أوائل العصر الحديدي. كانت المُشكلة الرّئيسيَّة تكمن في أنَّ العُلماء الذين قبلوا الرّوايات التّوراتيَّة على أنَّها روايات موثوقة اعتقدوا ـ خطأً ـ أنَّ عهد الآباء يجب أنْ يُرَى ـ بشَكْلٍ أو بآخر ـ كَمرحلة أسبق في التّاريخ المُتسلسل لإسرائيل.

بعض المُفارقات التّاريخيَّة الواضحة:

أصرَّ عُلماء نَقْد النُّصُوص ـ الذين ميَّزوا عدَّة مصادر مُتميِّزة لنصِّ سفْر التّكوين ـ على أنَّ قَصَص الآباء كُتِبَتْ في تاريخ مُتأخِّر نسبيّاً، في وقت الحُكْم المَلكي (القُرُون من العاشر إلى الثّامن ق.م)، أو حتَّى في وقت أكثر تأخُّراً؛ أيْ في فترة النَّفْي وفترة ما بعد النَّفْي (القرنَان السّادس والخامس ق.م).

دلَّلَ العالم التّوراتي الألماني "يُوليُوس فيلهاوْزن" Julius Wellhausen على أنَّ قَصَص الآباء في كلا المصدرَيْن اليَهَويّ والإيلوهي إنَّما عكست مخاوف الحُكْم الإسرائيلي المَلكي المُتأخِّر، التي تمَّ إسقاطها على حياة الآباء الأُسطُوريِّين في ماضٍ أُسطُوريٍّ بشَكْل كبير. وبناء عليه؛ يجب النَّظَر إلى القَصَص التّوراتيَّة كأساطير وَطَنيَّة لا يزيد أساسها التّاريخي على الأساس التّاريخي لأسفار "أوديسُوس" في مَلْحَمَة "هُوميرُوس" أو قصَّة تأسيس "أينياس" لمدينة رُوما في مَلْحَمَة فيرجيل Virgil.

في العُقُود الأكثر حداثةً؛ تحدَّى العالمان التّوراتيَّان الأمريكيان "جُون فان سيترز" John Van Seters و"تُوماس طُومسن" Thomas Thompson الدّلائل الآثاريَّة المُفترضة على تعيين زمن وُجُود الآباء التّاريخيِّين في الألفيَّة الثّانية ق.م. . لقد جادلا بأنَّه حتَّى إذا احتوت النُّصُوص التّالية بعضَ التّقاليد المُبكِّرة، فإنَّ اختيار القَصَص وترتيبها كان تعبيراً عن رسالة واضحة أراد مُحرِّرو التّوراة أنْ يُوصلوها عندما قاموا بجَمْعها وتدوينها، أكثر من كونه مُحافظة منهم على روايات تاريخيَّة موثوقة.

لكنْ؛ متى حَدَثَ ذلك التّجميع والتّدوين؟ يكشف النَّصُّ التّوراتي عن بعض المُؤشِّرات الواضحة التي يُمكن أنْ تُضيِّق الفترة الزّمنيَّة لوقت تأليفها النّهائي. خُذْ مثلاً الذِّكْر المُتكرِّر للجمال. إنَّ قَصَص الآباء مُكتظَّة بذكْر الجمال، وعادةً؛ تَذْكُرُ قطعان الجمال؛ لكنْ؛ كما في

قصَّة بَيْع أخوة يُوسُف، إيَّاه عبداً (التَّكوين 37 / 25)، وُصِفت الجمال - أيضاً - كَدَوابّ تُستخدَم لحَمْل الأثقال في تجارة القوافل. ونحنُ نعرف - الآن - من خلال الأبحاث الأثريَّة أنَّ الجمال لم يبتدئ استخدامها كَدَوابّ لحَمْل الأثقال قبل أواخر الألفيَّة الثَّانية، ولم ينتشر استعمالها إلى ذلك الحَدِّ الكبير في الشَّرق الأدنى إلاَّ بعد فترة لا بأس بها من سنة 1000 ق. م.. والتَّفصيل الأكثر دلالة في قصَّة يُوسُف هُو ما ذُكر فيها من أنَّ قافلة الجمال كانت تحمل "كَثيرَاءَ وَبَلَسَاناً وَلاَذَناً"، الأمر الذي يكشف أُلفة واضحة بالمُنتجات الرَّئيسيَّة للتّجارة العَرَبيَّة المُربحة، التي ازدهرت تحت إشراف الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة في القرنَيْن الثَّامن والسَّابع ق. م..

في الحقيقة؛ لقد كَشَفَ التَّنقيب في موقع تلّ جمَّة Tell Jemmeh في السَّهل السَّاحلي الجنوبي لإسرائيل (يقصد: فلسطين المُحتلَّة) - والذي كان يُشكِّل مخزناً مُهمّاً جداً على طريق القوافل الرَّئيسي بَيْن الجزيرة العَرَبيَّة والبحر الأبيض المُتوسِّط - كَشَفَ عن زيادة مُثيرة في عدد عظام الجمال في القرن السَّابع ق. م.. كانت العظام كُلُّها - تقريباً - لحَيَوانات بالغة، ممَّا يُفيد بأنَّها كانت من الدَّوابّ المُستخدَمَة لحَمْل الأثقال في الأسفار، وليست من القطعان التي يتمُّ تربيتها محلّيّاً، (وإلاَّ لوُجد بَيْنها عظام حَيَوانات صغيرة أيضاً).

في الحقيقة؛ بالضَّبط في هذا الوقت، تصف مصادر آشُوريَّة الجمال بأنَّها تُستعمل كحَيَوانات حَمْل في القوافل. في الواقع؛ لم تُصبح الجمال جُزءاً شائعاً جداً من المنظر الطَّبيعي للحياة - بحيثُ يتمُّ تضمينها كَتَفصيل عَرَضي في قصَّة أدبيَّة - إلاَّ في ذلك الزَّمن فقط.

ثُمَّ هُناك قضيَّة الفلسطينيِّين. نسمع عنهم عند الحديث عن لقاء إسحاق مع "أَبيمَالِكَ مَلِك الْفَلَسْطِينيِّين" في مدينة "جَرَار" Gerar (تكوين 26 / 1). لم يُؤسِّس الفلسطينيُّون - الذين كانوا مجموعة من المُهاجرين من بحر إيجة أو من شرق البحر الأبيض المُتوسِّط - مُستوطناتهم على طُول السَّهل السَّاحلي لكَنْعَان إلاَّ بعد مُضيّ مُدَّة من عام 1200 ق. م.. ثُمَّ ازدهرت مُدُنهم في القرنَيْن الحادي عشر والعاشر ق. م، وواصلت السَّيْطَرَة على المنطقة - بشَكْل جيِّد - حتَّى الفترة الآشُوريَّة. إنَّ ذكْر مدينة "جَرَار" كَمَدينة فلسطينيَّة في قصَّة إسحاق، وذكْر المدينة (بدُون الصِّفة الفلسطينيَّة) في قصَّة إبراهيم (تكوين 20 / 1) يُفيد بأنَّه كانت لها في ذلك الحين

أهمِّيَّة خاصَّة، أو على الأقلّ؛ أنَّها كانت معروفة على نحو واسع في وقت تأليف قَصَص الآباء. اليوم يُطابق عُلماء الآثار "جَرار" على تلّ حرُور Haror في المنطقة الشّماليَّة الغربيَّة لمدينة بئر سبع؛ حيثُ أظهرت التّنقيبات الأثريَّة هُناك بأنَّه في العصر الحديدي الأوَّل - أيْ المرحلة المُبكِّرة من التّاريخ الفلسطيني - لم تكن "جَرار" أكثر من قرية صغيرة وتافهة جداً. ولكنَّها أصبحت - في نهاية القرن الثّامن وفي القرن السّابع ق. م. - حصناً ومَعْقلاً إداريّاً آشوريّاً قويّاً في الجنوب، وبالتّالي؛ أصبحت مَعْلَماً واضحاً.

هل كانت تلك التّفاصيل المُتعارضة مُجرَّد إقحامات مُتأخِّرة في تقليد نصّيٍّ مُبكِّر، أم أنَّها مُؤشِّرات تدلُّ على أنَّ كلا القصَّة نفسها وتفاصيلها كانا مُتأخِّرين؟ عَدَّ العديد من العُلماء، خُصُوصاً أُولئك الذين دعموا فكرة "تاريخيَّة" الآباء، تلك التّفاصيل عَرَضيَّةً، لكنْ؛ كما بَيَّن "تُوماس طُومسن" مُنْذُ السّبعينات، الإشارات المُعيَّنة في النّصِّ إلى مُدُن، وشُعُوب مُجاورة، وأماكن مألوفة هي - بالضّبط - السّمة التي تُميِّز قَصَص الآباء عن القَصَص الشّعبيَّة الأُسطُوريَّة بشكْلٍ كامل. لذلك فهي ذات أهمِّيَّة حاسمة جداً في تمييز تاريخ ورسالة النّصِّ. وبكلمة أُخرى؛ إنَّ "المُفارقات التّاريخيَّة" ذات أهمِّيَّة، في فَهْم المعنى والسّياق التّاريخي لقَصَص الآباء، أكثر بكثير من البحث عن البدو القُدماء، أو من الحسابات الرّياضيَّة لأعمار الآباء وسلاسل أنسابهم.

هذه المُؤشِّرات - إذا وُضِعت إلى جانب بعضها البعض؛ أيْ: ذكْر الجمال، والسِّلَع العَرَبيَّة، والفلسطينيُّون، ومدينة جرار، بالإضافة للأماكن والأُمم الأُخرى التي وَرَدَ ذكْرها ضمن قَصَص الآباء في سفْر التّكوين - تُعطي مغزى ودلالة هامَّيْن جداً. إنَّها تُشير إلى أنَّ زمن تأليف تلك القَصَص إنَّما يقع في زمن مُتأخِّر بعدَّة قُرُون عن الزّمن الذي تُحدِّد التّوراة عيشَ الآباء فيه. هذه المُؤشِّرات وغيرها من المُفارقات التّاريخيَّة تقترح أنَّ الفترة الزّمنيَّة المركزيَّة لتدوين قَصَص الآباء إنَّما تقع في القرنَيْن الثّامن والسّابع ق. م..

خريطة حيَّة للشّرق الأدنى القديم:

عندما نبدأ بفَحْص سلاسل أنساب الآباء والأُمم العديدة التي نشأت عن لقاءاتهم، وزيجاتهم، وعلاقاتهم العائليَّة، يظهر لنا - بوُضُوح - أنَّها تُقدِّمُ خريطةً إنسانيَّة مُلوَّنةً للشّرق

الأدنى القديم من وُجهة نَظَرٍ - لا يُمكن أنْ نُخْطئَها - لَمْلَكَتَيْ "إسرائيل" و"يهُوذا" في القرنَيْن الثّامن والسّابع ق. م. . تُقدِّم هذه القَصَص تفسيراتٍ مُتطوِّرةً جداً عن الشُّؤُون السّياسيَّة في هذه المنطقة في الفترتَيْن - الآشُوريَّة، والبابليَّة - الجديدة.

يُمكن إرجاع العديد من المُصطلحات الإثنيَّة (العرْقيَّة)، وأسماء الأماكن إلى تلك الفترة، وليس هذا فحسب، بل إنَّ أوصاف وخصائص تلك الأعراق والأماكن تنطبق - بشَكْلٍ مثاليٍّ - على ما نعرفه اليوم من طبيعة العلاقات التي كانت بَيْن مَمْلَكَتَيْ "يهُوذا" و"إسرائيل" والشُّعُوب المُجاورة لها.

دعنا نبدأ بالآراميِّين، الذين يُهَيْمنُون على قَصَص زواج يعقُوب بـ "لَيْئة" و"رَاحيل"، وعلاقة يعقُوب مع خاله "لابان". لم يُذكَر الآراميُّون كَمَجموعة عرْقيَّة مُتميِّزة في أيِّ نصٍّ من نُصُوص الشّرق الأدنى القديم قبل سنة 1100 ق. م. . وقد أصبحوا عاملاً مُهَيمناً على الحُدُود الشّماليَّة للإسرائيليِّين في أوَّل القرن التّاسع ق. م، عندما برزت عدَّة ممالك آراميَّة في كافَّة أنحاء منطقة سُوريا الحديثة، كانت إحداها مَمْلَكة آرام دمشق، التي كانت حليفةً لمَمْلَكة إسرائيل تارةً، وطَوْراً مُنافسةً لها على السَّيْطَرَة على الأراضي الزّراعيَّة الغنيَّة التي تقع بَيْن مراكزهما الرّئيسيَّة، في أعلى وادي الأُردُن والجليل.

في الحقيقة؛ تعكس دورة قَصَص يعقُوب ولابان - بنَحْوٍ استعاريٍّ - العلاقات المُعقَّدة، والعاصفة - في أغلب الأحيان - بَيْن آرام وإسرائيل عبْر قُرُون عديدة.

من جهة؛ كانت مَمْلَكَتَا إسرائيل وآرام - في كثير من الأوقات - ندَّيْن عسكريَّيْن مُتصارعَيْن. ومن الجهة الأُخرى؛ كان مُعظم سُكَّان الأراضي الواقعة شمال مَمْلَكة إسرائيل من أُصُول آراميَّة. لذا؛ فقد ذَهَبَ سفر التّثنية إلى أبعد من ذلك، عندما وَصَفَ يعقُوب نفسه بأنَّه كان "آرامياً تائهاً" (سفر التّثنية: 26/ 5). تُعبِّر قَصَص العلاقات بَيْن الآباء الفَرْديِّين وأبناء عُمُومتهم الآراميِّين - بشَكْلٍ واضح - عن وعيٍ بأُصُول عرْقيَّة مُشتركَة.

إنَّ الوَصْف التّوراتي للعلاقات المُتوتِّرة بَيْن يعقُوب ولابان وقيامهما - في النّهاية - بتأسيس حُدُود حَجَريَّة شرقي الأُردُن لرَسْم الحُدُود بَيْن شعبَيْهما (تكوين 31 / 51 - 54، مصدر إيلوهي

بشكْل ملحوظ ، أو قصَّة "شماليَّة") يعكسان التّقسيم الإقليمي بَيْن آرام وإسرائيل في القرنَيْن التّاسع والثّامن ق . م . .

انعكست علاقات "إسرائيل" و"يهُوذا" مع جيرانهما الشّرقيِّين - أيضاً ، بشَكْل واضح - في قَصَص الآباء . كانت علاقاتهما مع مَمْلَكَتَيْ عمُّون ومُوآب - خلال القرنَيْن الثّامن والسّابع ق . م ، في أغلب الأحيان - علاقات عدائيَّة .

في الواقع ؛ لقد سيطرت إسرائيل على مُوآب في أوائل القرن التّاسع ق . م . . لذا ؛ فإنَّ الاستخفاف والتّحقير الذي نُلاحظه في عرض شجرة نَسَب أجداد أُولئكَ الجيران الشّرقيِّين له مغزى كبير ومُضحك بالوقت نفسه . يُخبرنا سفْر التّكوين (19 / 30 - 38) (يُلاحَظُ أنَّه نصٌّ يَهْوي) بأنَّ هذه الأُمم وُلدت نتيجة علاقة زنا بَيْن المحارم ؛ حيثُ يُذكَر أنَّه - بعد أنْ دمَّر اللهُ مدينَتَيْ سدُوم وعمورة - لجأ لُوط وابنتاه إلى مغارة في أحد التّلال . ولمَّا لم تكن البنتان قادرتَيْن على أنْ تجدا زوجاً مُناسباً في هذا المكان المُنعزل ، قامت كُلٌّ واحدة منهما بتقديم الخمر لأبيها ، حتَّى سكرَ ، فضاجعتَاهُ ؛ لتلدا ابنَيْن : مُوآب وعمُّون [1] .

لاشكَّ أنَّ أيَّ يَهْوَذَويّ (أيْ فرد من أهالي يهُوذا) في القرن السّابع قبل الميلاد ، لا يُمكنه - عندما ينظر عبْر البحر الميِّت إلى المَمْلَكَتَيْن المُعاديتَيْن اللّتَيْن تقعان شرقه - أنْ يُخفي اغتباطه ، لسماع مثل هذه القصَّة الفاضحة عن نَسَب أجدادهما .

تُقدِّم قصَّة الأخوَيْن - يعقُوب وعيسُو في التّوارة - حالة أكثر وُضُوحاً - أيضاً - عن تصوُّرات القرن السّابع ، التي يتمُّ عَرْضها بلباس قديم . يُخبرنا سفْر التّكوين : الإصحاحان 25 و27

(1) النَّصُّ التّوراتي لهذه القصَّة هُو التّالي : [صَعدَ لُوطٌ من صُوغَرَ وَسكَنَ في الجَبَلِ وَابنَتَاهُ مَعَهُ لأَنَّهُ خَافَ أنْ يَسْكُنَ في صُوغَرَ. فَسكَنَ في المَغَارَةِ هُوَ وَابنَتَاهُ. 31 وَقَالَت البَكْرُ للصَّغيرَةِ : "أبُونَا قَدْ شَاخَ وَلَيْسَ في الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ . 32 هَلُمَّ نَسقي آبَانَا خَمْراً وَنَضْطَجعُ مَعَهُ فَنُحْيي من أبينَا نَسْلاً" . 33 فَسَقَتَا أبَاهُمَا خَمْراً في تلكَ اللّيلَةِ وَدَخلَت البكْرُ وَاضطَجعَتْ مَعَ أبيهَا وَلَمْ يَعلَمْ باضْطجاعهَا وَلاَ بقيَامهَا. 34 وَحَدَثَ في الغَد أنَّ البكْرَ قَالَتْ للصَّغيرَةِ : "إنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ البَارحَةَ مَعَ أبي. نَسقيه خَمْراً اللّيلَةَ أيضاً فَادْخُلي اضطجعي مَعَهُ فَنُحْيي من أبينَا نَسْلاً" . 35 فَسَقَتَا أبَاهُمَا خَمْراً في تلكَ اللّيلَةِ أيضاً وَقَامت الصَّغيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ وَلَمْ يَعلَمْ باضطجاعهَا وَلاَ بقيَامهَا 36 فَحَبلَت ابنَتَا لُوط من أبيهمَا . 37 فَوَلَدَت البكْرُ ابناً وَدَعَت اسمَهُ "مُوآبَ" - وَهُوَ أبو المُوآبيِّينَ إلَى اليَوْم . 38 وَالصَّغيرَةُ أيضاً وَلَدَت ابناً وَدَعَت اسمَهُ "بنْ عَمّي" - وَهُوَ أبو بَني عَمُّونَ إلى اليَوْمِ .] سفر التّكوين : 19/ 30 - 38 . (المُترجم) .

(نصّ جنوبي، يَهْوِي) عن التَّوأم عيسُو ويعقُوب، اللَّذَيْن أوشكا أنْ يُولدا لإسحاق و"ريبيكا".
يقول اللهُ لريبيكا الحُبْلَى: في بَطْنك أُمَّتَان، وَمنْ أَحْشَائك يَفْـتَرِقُ شَـعْبَان: شَـعْبٌ يَقْـوَى عَلَـى شَعْبٍ، وكَبِيرٌ يُسْتَعْبَدُ لصَغيرٍ (تكوين 25/ 23). عندما تتجلَّى الأحداث، نتعلَّم بـأنَّ عيسُـو كـان هُو الكبير، ويعقُوب كان الأصغر. وبهذا؛ يُستخدَم هذا الوَصْف للأخوَيْن اللَّذَيْن يُمثِّلان جَـدَّي أدوم وإسرائيل، لإضفاء مشروعيَّة مُقدَّسة على العلاقـة السّياسـيَّة بَيْـن الأُمَّتَيْـن فـي أواخـر الفـترة المَلكيَّة. يعقُـوب ـ إسـرائيل ـ حسَّـاس ومُثقَّـف، بَيْنمـا عيسُـو ـ أدوم ـ صيَّـاد أكثر بدائيَّة، ورجـل النُّزهات خارج المنزل. ولكنَّ أدوم لم تنشأ ـ ككَيَان سياسي مُتميِّز ـ حتَّى فترة مُتأخِّرة نسبياً.

تُفيد المصادر الآشُوريَّة أنَّـه لـم يكـن هُنـاك مُلُـوك حقيقيُّـون، ولا دولـة لأدوم قبـل أواخـر القـرن الثَّـامن ق.م. . ولا تظـهر أدوم فــي السِّـجلاَّت القديمـة ككَيَـان مُتمـيِّز إلاَّ بعـد غـزو الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة للمنطقة، كما أنَّـها لـم تُصبـح مُنافسـاً جديَّاً لدولـة يـهُوذا إلاَّ فـي بداية التّجارة العَرَبيَّة المُربحة.

إنَّ الدّلائل الآثاريَّة واضحة أيضاً: كانت أوَّل موجة واسعة النّطـاق مـن الاسـتيطان فـي أدوم، والتي كانت مصحوبة بتأسيس مُسـتوطنات وقـلاع كبـيرة، لربَّمـا بـدأت فـي أواخـر القـرن الثَّـامن ق.م، وَوَصَلَتْ إلى ذروتها في القرن السَّابع وأوائل القرن السَّادس ق.م. . أمَّا قبل ذلـك؛ فلـم تكن المنطقة مأهولة إلاَّ بشَـكْل ضعيـف ومُتنـاثر. وكَشَـفَتْ أعمـال التّنقيـب فـي بُصـرى ـ عاصمـة أدوم، في أواخر العصر الحديدي الثّاني ـ أنَّها لم تُصبح مدينة كبيرة إلاَّ في الفترة الآشُوريَّة.

وهكـذا؛ فـهُنا ـ أيضـاً ـ تمَّـت صياغـة قصَّـة يعقُـوب: الابـن الحسَّـاس، وعيسُـو: الصيَّـاد العنيف ـ بشكْل ماهر ـ لتبدو كقصَّة أُسطُوريَّة قديمة؛ لتعكس تنافُسات الفترات المَلكيَّة المُتأخِّرة.

شُعُوب الصّحراء والإمبراطُوريَّات الشّرقيَّة:

خلال القرنَيْن الثّامن والسَّـابع ق.م، كـانت التّجـارة المُربحـة، لقوافـل التّوابـل والبُخُـور النّـادر، بَيْـن جنـوب بـلاد العَـرَب (الجزيـرة العَرَبيَّـة) وموانئ البحـر الأبيـض المُتوسِّـط، مُـرُوراً بالصّحاري والحُدُود الجنوبيَّة ليهُوذا، عاملاً هامَّاً فـي الحيـاة الاقتصاديَّـة لكُـلِّ المنطقـة. بالنّسـبة

لأهالي يهُوذا؛ كان وُجُود عدد من النّاس ذوي الأُصُول البَدَوِيَّة أمراً حاسماً في هذا النّظام التّجاري البعيد المدى.

تُقدِّم لنا سلاسل الأنساب المُتعدِّدة المذكورة في قَصَص الآباء (في سفْر التّكوين) صُورة مُفصَّلة عن شُعُوب الصّحاري الجنوبيَّة والشّرقيَّة خلال الفترة المُتأخِّرة من العهد المَلَكي، وتشرح ـ مرَّة ثانية من خلال استعارة علاقات عائليَّة ـ الدّور الذي لعبتْهُ في تاريخ يهُوذا المُعاصر. يصف سفْر التّكوين ـ بشَكْل خَاصٍّ ـ إسماعيلَ، الابنَ المُحتَقَرَ لإبراهيم وهاجر، على أنَّه جَدٌّ العديد من القبائل العَرَبيَّة التي سَكَنَتْ الأراضي الواقعة على الحافَّة الجنوبيَّة ليهُوذا. إنَّ الصُّورة أبعد ما تكون عن الصُّورة الجذَّابة. يُوسُف في سفْر التّكوين بأنَّه هائم (جوَّال في الصّحاري) بشَكْل دائم، [وَإنَّهُ يَكُونُ إنْسَاناً وَحْشيَّاً يَدُهُ عَلَى كُلٍّ وَاحدٍ (أيْ ضدّ كُلٍّ واحد)، وَيَدُ كُلٍّ وَاحد عَلَيْه، وَأَمَامَ جَميع إخْوَته يَسْكُن] (تكوين 16 / 12)، (لا عجب أنْ يكون النَّصُّ وثيقة يَهْويَّة). وكان من بَيْن أبنائه العديدين، تلك القبائل الجنوبيَّة المُختلفة التي أقامت اتِّصالاً جديداً مع يهُوذا في الفترة الآشُوريَّة.

مثلاً؛ أحد أحفاد إسماعيل الذين أُدرجوا في سفْر التّكوين 25/ 12 15، هُم بنو قيدَارُ (من ذُرِّيَّة ابنه قيدار)، وهؤلاء نجد لهم ذكْراً لأوَّل مرَّة في سجلاَّت آشُوريَّة، تعود لأواخر القرن الثّامن ق.م، ونجد إحالات مُتكرِّرة إليهم في عهد حكُم الملك الآشُوري آشُوربنيبعل في القرن السّابع ق.م.. أمَّا قبل ذلك الوقت؛ فكان بنو قيدار يعيشون في منطقة بعيدة عن اليهُوديَّة، وعن اهتمام إسرائيل المُباشر؛ إذْ كانوا يحتلُّون الحافَّة الغربيَّة للهلال الخصيب. على النّمط نفسه، يُمثِّل أبناء إسماعيل أَدَبْئيلُ Adbeel وَمِبْسَامُ وNebaioth مجموعات عَرَبيَّة شماليَّة، تُذكَر ـ أيضاً ـ في نُقُوش آشُوريَّة، تعود لأواخر القرن الثّامن، وأوائل القرن السّابع.

وأخيراً؛ من المُحتمَل جداً أنْ يرتبط ابن إسماعيل "تَيْمَا" Tema بواحة القوفل العظيمة لتيماء في شمال غرب جزيرة العَرَب، والتي تذكرها المصادر الآشُوريَّة والبابليَّة العائدة للقُرُون من الثّامن إلى السّادس ق.م؛ حيثُ كانت أحد المركزَيْن الحضريَّيْن الرّئيسيَّيْن في شمال جزيرة العَرَب مُنْذُ عام 600 ق.م، وحتَّى القرن الخامس ق.م.. ومن المجموعات الأُخرى التي

ذُكرت في سفْر التّكوين - أيضاً - (التّكوين 25/ 3) قبيلة "شَبا"، التي كانت تعيش - أيضاً - في شمال بلاد العَرَب. بما أنّه لم يكن لأيٍّ من تلك الأسماء المُحدَّدة للشُّعُوب أو الجماعات البشريَّة أهمِّيَّة، بل حتَّى لم يكن لها وُجُودٌ - أصلاً - في تجربة شعب إسرائيل قبل الفترة الآشُوريَّة، لذا؛ لن يُوجد أدنى شكٍّ بأنَّ فقرات سلاسل الأنساب هذه إنَّما أُلِّفَت في زمن يقع بَيْن أواخر القرن الثّامن والقرن السّادس ق. م.[1].

تُفيد أسماء أماكن أُخرى وَرَدَ ذكْرها في قَصَص الآباء تتعلَّق بالصّحراء والبَرِّيَّة المُحيطة في التّأكيد الإضافي على تاريخ تأليف أسفار التّوراة. تكوين 14، تُعَدُّ قصَّة الحرب الكُبْرَى التي شنَّها غُزاة من الشّمال (تحت القيادة الغامضة لـ "كَدَرْلَعَوْمَر" Chedorlaomer مَلك عيلاَمَ في بلاد ما بَيْن النّهرَيْن) مع مُلُوك مُدُن السّهل - الوارد ذكْرها في الإصحاح 14 من سفْر التّكوين - مصدراً فريداً في ذلك السِّفْر، ربَّما يعود تاريخه للفترة التي سبقت النَّفْي، أو التي تَلَتْهُ، لكنَّه يُزوِّدنا بمعلومات جَغرافيَّة هامَّة، لا يُمكن أنْ يكون لها معنى إلاَّ في القرن السّابع ق. م..

تُشير عبارة: "عَيْن مشفَاطَ (التي هيَ قَادشُ)"، الورادة في سفْر التّكوين 14 / 7 - على الأغلب - إلى "قادش برنيع"، الواحة العظيمة في الجنوب التي تلعب دوراً مُهماً في قصَّة الخُرُوج. ولقد طابقها عُلماءُ الآثار مع "أُمِّ القديرات" الواقعة في شرق سيناء، وهُو موقع تَمَّ تنقيبه، وتبيَّن أنَّه كان قد سُكنَ لأوَّل مرَّة، في القرن السّابع، وأوائل القرن الثّامن قبل الميلاد. وعلى المنوال نفسه؛ الموقع المدعو (تامار) في الآية التّوراتيَّة نفسها، ينبغي - على الأغلب - مُطابقته مع "عين حسيفا" في وادي عَرَبَة الشّمالي؛ حيثُ كَشَفَتْ التّنقيبات الأثريَّة عن حصن كبير، كان يُؤدِّي وظيفته - بشكْل رئيسي - في العصر الحديدي المُتأخِّر.

---

(1) [من المُهمّ أنْ نُلاحظ أنَّ بعض موادّ سلاسل الأنساب في سفْر التكوين، مثل قائمة أبناء إسماعيل، تعود للمصدر الكَهَنُوتي الذي يعود تاريخه - بشكل رئيسي - إلى الفترة التّالية للنّفي. بينما يُجادل بعض العُلماء بأنَّ للمصدر الكَهَنُوتي طبقة مَلَكيَّة مُتأخِّرة، قد تعكس - فعلاً - اهتمامات وحقائق يَهُوذا في القرن السّابع قبل الميلاد، بل من المُحتمل أنْ تكون بعض التّلميحات تعكس حقائق للقرن السّادس ق. م.. ولكنْ؛ لا يُوجد - بشكل من الأشكال - أيُّ دليل مُقنع يُفسِّر ذكْر كُلّ تلك الشُّعُوب المُتجوِّلة في الصّحراء في سلاسل الأنساب الأبويَّة سوى أنْ يكون ذكْرها مُحاولات أدبيَّة مُتأخِّرة لدمجها على نحو مُنظّم في تاريخ إسرائيل المُبكِّر]. (المُؤلِّف).

وبناءً عليه؛ فإنَّ الجغرافيا - وحتَّى الحالة الأساسيَّة للصِّراع المُخيف مع غازٍ من بلاد ما بَيْن النَّهرَيْن - كانت ستبدو مألوفة على نحو الإنذار بالخطر والسُّوء، بالنِّسبة لشعب مَمْلَكَة يهُوذا في القرن السَّابع ق.م.

وليس هذا كُلُّ شيء، بل تكشف قَصَص سفْر التَّكوين عن معرفة واضحة جداً بمواقع وبشُهرة الإمبراطُوريَّتَيْن الآشُوريَّة والبابليَّة في القُرُون من التَّاسع إلى السَّادس قبل الميلاد؛ حيثُ جاء ذكْر الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة تحديداً بعلاقة مع نهر دجلة، وذلك في سفْر التَّكوين 2/ 14، كما ذُكرت اثنتان من العواصم المَلكيَّة للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة - أيْ نينوى (المعروف أنَّها عاصمة الإمبراطُوريَّة خلال القرن السَّابع قبل الميلاد) وكالا (سلفها) - في سفْر التَّكوين 10/ 11، (وكلاهما وثيقة يَهْويَّة). كما تلعب مدينة حاران دوراً مُهَيْمناً في قَصَص الآباء. ويقع هذا الموقع - والذي مايزال حتَّى يومنا هذا يُسمَّى "إسكي حاران" (أيْ حارن القديمة) - في جنوب تُركيا، على الحُدُود مع سُوريا، وقد ازدهر هذا الموقع في أوائل الألفيَّة الثَّانية قبل الميلاد، ثُمَّ ازدهر - مرَّة ثانية - في العهد الآشُوري الجديد.

وأخيراً؛ تذكر النُّصُوص الآشُوريَّة مُدُناً في منطقة حاران تحمل أسماءً تُشبه - لحَدٍّ كبير - أسماء أجداد إبراهيم؛ مثل: "تَارَح" و"نَاحُور" و"سَرُوج" (سفْر التَّكوين: 11/ 22-26، مصدر كَهَنُوتي). ويُحتمَل أنَّهم كانوا الأسلاف الرَّمزيِّين لتلك البلدات.

مصير يهُوذا:

دلَّل العالم التَّوراتي الألماني مارتن نُوث Martin Noth - مُنْذُ زمن بعيد - على أنَّ قَصَص أحداث الفترة الباكرة من تاريخ بني إسرائيل - أيْ قَصَص الآباء، والخُرُوج، والتِّيه في صحراء سيناء - لم تُؤَلَّف دَفْعَةً وَاحدَةً، بل حاول أنْ يُثبت أنَّها كانت - بدايةً - تقاليد مُنْفَصلة لقبائل فَرْديَّة، ثُمَّ تمَّ تجميعها ضمن قصَّة واحدة، لتخدم هَدَفاً سياسياً؛ هُو توحيد الجماعات الإسرائيليَّة المُتناثرة، وغير المُتجانسة.

في رأيه؛ تُقدِّم البُؤرة الجغرافيَّة لكُلِّ دورة من دورات القَصَص، وخاصَّة قَصَص الآباء، مُؤشِّراً مُهمَّاً على مكان تأليفها، وليس - بالضَّرورة - على المكان الحقيقي لوُقُوع أحداثها. تمَّ

تأليف كثير من القَصَص المُرتبطة بإبراهيم، في الجُزء الجنوبي من المنطقة المُرتفعة (منطقة التّلال أو الهضاب) لا سيما منطقة حبرون (الخليل) جنوب يهُوذا.

أمَّا إسحق؛ فيرتبط بحافَّة الصّحراء الجنوبيَّة ليهُوذا؛ وخاصَّة بمنطقة بير سبع. وعلى العكس من ذلك؛ تقع نشاطات يعقُوب - في أغلبها - في منطقة الهضبة الشّماليَّة والضِّفَّة الغربيَّة لنهر الأُردُن، وهي مناطق كانت - دائماً - موضع اهتمام خاصٌ منْ قبَل مَمْلكَة إسرائيل الشّماليَّة. وعليه؛ فقد اقترح "نُوث" بأنَّ الآباء كانوا - في الأصل - أسلافاً إقليميِّين مُنْفَصلين عن بعضهم تماماً، ثُمَّ - في النّهاية - تمَّ الجَمْع بَيْنهم ضمن سلسلة أنساب واحدة، في مُحاولة لخَلْق تاريخ مُوحَّد.

لقد أصبح من الواضح - الآن - أنَّ اختيار إبراهيم - ذي الارتباط الوثيق بمنطقة حبرون (الخليل)، المدينة الملكيَّة الأُولى لمَمْلكَة يهُوذا، وبأورشليم (القُدْس) (أو مدينة "سالم" كما في سفْر التّكوين 13/ 18) - إنَّما كان الهَدَف منه التّأكيد على سيادة وأوَّليَّة مَمْلكَة يهُوذا، حتَّى في أبكر أيَّام تاريخ مَمْلكَة إسرائيل. إنَّ هذا يُشبه - إلى حدٍّ كبير - أنْ يقوم كتابٌ أمريكي، أثناء وَصْفه للتّاريخ قبل الكُولُومبي لأمريكا، بإيلاء "جزيرة مانهاتن" أو "المنطقة التي ستُصبح - فيما بعد - ولاية واشنطن دي سي" اهتماماً خاصّاً واستثنائيّاً. إنَّ المعنى السّياسي المُشار إليه لإقحام مثل هذا التّفصيل في قصَّة طويلة، أقلّ ما يُقال فيه أنَّه يضع علامة سُؤال على مصداقيَّتها التّاريخيَّة.

كما سنرى - بتفصيل أكبر - في الفُصُول القادمة، كانت مَمْلكَة يهُوذا مَمْلكَة مُنعزلَة وقليلة السُّكَّان حتَّى القرن الثّامن قبل الميلاد، وكانت ضعيفة، ولا تُقارَن من ناحية الأراضي، أو الثّروة، أو القُوَّة العسكريَّة بمَمْلكَة إسرائيل. كان عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة في مَمْلكَة يهُوذا قليلاً جداً، ولم تكن عاصمتها أُورشليم سوى قرية نائية وصغيرة في منطقة هَضْبيَّة. ولكنْ؛ عندما قام الآشُوريُّون بتصفية مَمْلكَة إسرائيل سنة 720 ق. م، نَمَتْ يهُوذا - بشَكْل كبير - في عدد سكَّانها، وطوَّرت مُؤسَّسات حكُوميَّة مُعقَّدة، وبَرَزَتْ كَقُوَّة ذات أهمِّيَّة في المنطقة. كان يحكم مَمْلكَة يهُوذا سُلالة قديمة، كما كانت تمتلك أهمَّ وأقدم هيكل (معبد) لإله إسرائيل بقي حيّاً إلى حينه. وبناءً عليه؛ طوَّرت مَمْلكَة يهُوذا، في القرن الثّامن والسّابع ق. م، شُعُوراً

فريداً بأهميَّتها ورسالتها الإلهيَّة المُقدَّسة. لقد رأت في بقائها نفسه شاهداً على إرادة الله، مُنْذُ عهد الآباء، أنْ تحكم يهُوذا كُلَّ أرض إسرائيل (يقصد: فلسطين الحاليَّة المُحتلَّة)، لقد رأت يهُوذا نفسها - ككَيان إسرائيلي وحيد بقي على قيد الحياة، وبشُعُور أكثر أرضيَّة أو دُنيويَّة - الوريثَ الطَّبيعيَّ للأراضي الإسرائيليَّة، ولسُكَّان إسرائيل، الذين نجوا، وبقوا أحياء، بعد المذبحة الآشُوريَّة. وبناءً عليه؛ كانت هُناك - إذنْ - حاجة مُلحَّة لتعبيرٍ يتمُّ بطريقة قويَّة عن هذا، ويُقَدَّم لشعب يهُوذا، ولسائر الجماعات الإسرائيليَّة المُتناثرة الخاضعة للحُكْم الآشُوري؛ من هُنا؛ وُلدت فكرة الجامعة الإسرائيليَّة (أو القوميَّة الإسرائيليَّة) التي تقع مَمْلَكَة يهُوذا في مركزها.

بهذا؛ تُصوِّر قَصَص الآباء أسلافاً مُوحَّدَيْن للشَّعب الإسرائيلي، يصلون - في نهايتهم - إلى "إبراهيم": أكثر الآباء يَهُوَذَوِيَّةً (أيْ انتساباً إلى دولة يهُوذا). ومع ذلك؛ ورغم أنَّ قَصَص سفْر التَّكوين تدور - بشَكْل رئيسي - حول يهُوذا، إلاَّ أنَّها لا تُهمل تشريف التَّقاليد الإسرائيليَّة الشَّماليَّة. وفي هذا الإطار؛ نفهم مغزى قيام إبراهيم ببناء مذابح لتقديم القرابين ليَهْوَه في شكيم (نابلس)، وبيت إيل (تكوين 12/ 7 - 8)، وهُما أهمُّ مركزَيْن للعبادة في المَمْلَكَة الشَّماليَّة (13/ 18)، وكذلك في حبرون (الخليل) (تكوين 13/ 18)، وأهمّ مركز في دولة يهُوذا بعد أُورشليم (القُدْس).

إذاً؛ تُؤدِّي شخصيَّةُ إبراهيم وظيفةَ المُوحِّد بَيْن التَّقليدَيْن الشَّمالي والجنوبي، والمُنشئ لجسرٍ يصل الشَّمالَ بالجنوب. حقيقةُ أنَّ إبراهيم يُقَدَّر لتأسيسه المذابح في بيت إيل وشكيم، يُعَدُّ شهادةً واضحةً على الادِّعاء اليَهُوَذَوِيّ أنَّه حتَّى أماكن العبادة التي تلوَّثت بعبادة الأصنام أثناء حُكْم المُلُوك الإسرائيليِّين، كانت - في الأصل - أماكن مُقدَّسة بنَحْو شَرْعي، ومُرتبطة بالأب الجنوبي[1].

(1) مثال آخر على توحيد التَّقاليد الشَّماليَّة والجنوبيَّة تحت السِّيادة اليهُوديَّة: موقع قُبُور الآباء. يقع هذا المكان المُقدَّس الذي دُفن فيه إبراهيم وإسحق (بطلان جنوبيَّان) وكذلك يعقوب (بطل شمالي) في مدينة حبرون (الخليل)، وهي - تقليدياً - ثاني أهمّ مدينة في منطقة الهضاب ليَهُوذا. إنَّ قصَّة شراء قبر الآباء تُنسَب - عُمُوماً - إلى مصدر كَهَنُوتي، والذي يبدو أنَّه يتضمَّن أكثر من طبقة تأليفيَّة واحدة. وإذا كان هذا النَّصُّ التَّقليدي مَلَكيّاً مُتأخِّراً في أصله (رغم أنَّ روايته النِّهائيَّة جاءت في وقت لاحق)، فإنَّه تعبير واضح عن مركزيَّة يَهُوذا وعُلُوِّها على الشَّمال. صفقة الأرض الخاصَّة المذكورة في القصَّة لها مُوازيات قويَّة في الفترة البابليَّة الجديدة، وهذا مُؤشِّر آخر على الحقائق المُتأخِّرة التي تكمن وراء قَصَص الآباء. (المُؤلِّف).

من المُمكن جداً، بل من المُحتمل أنْ تكون الحوادث الفَرْديَّة في قَصَص الآباء مُستندة إلى تقاليد محليَّة قديمة، إلاّ أنَّ طريقة توظيفها وترتيبها تُحوِّلها إلى تعبير قوي عن أحلام القرن السّابع اليَهُوذَويَّة.

في الحقيقة؛ لم يكن من المُمكن تأكيد تفوُّق دولة يهُوذا على كُلِّ الدُّول الأُخرى بنَحْو أكثر قُوَّة من البَرَكَة الأخيرة التي أعطاها يعقُوب لابنَيْه، كما سَبَقَتْ الإشارة إليه. ورغم أنَّ الأعداء يضغطون من كُلِّ جانب، فإنَّ يهُوذا موعودة بأنَّها لن يُطاحَ بها، أو لن تسقطَ أبداً.

لذا؛ يجب اعتبار تقليد قَصَص الآباء نوعاً من التّاريخ السّابق "الدِّيني" لإسرائيل، لعبت فيه مَمْلَكَة يهُوذا دوراً حاسماً. إنَّ تلك القَصَص تصف التّاريخَ المُبكِّرَ جداً للأُمَّة، وتُحدِّدُ حُدُودها العرْقيَّة، وتُؤكِّد بأنَّ الإسرائيليِّين كانوا غُرَبَاء، وليسوا جُزءاً من السُّكّان الأصليِّين لكَنْعَان، وتعتنق كلا تقليدَيْ الشّمال والجنوب، مع التّشديد ـ في النّهاية ـ على تفوُّق يهُوذا[1].

في الشّواهد ـ التي نقبل أنَّها مُتجزِّئة ـ للرّواية الإيلوهيَّة لقَصَص الآباء، والتي من المُفترض أنْ يكون تأليفها قد تمَّ في المَمْلَكَة الشّماليَّة لإسرائيل قبل دمارها عام720 ق.م. ـ لا تلعب قبيلة يهُوذا أيَّ دورٍ تقريباً، لكنْ؛ في نهاية القرن الثّامن، وبالتّأكيد في القرن السّابع ق.م، أصبحت يهُوذا مركز ما تبقّى من الأُمَّة الإسرائيليَّة. في ضوء ذلك؛ يجب أنْ نعدَّ الرّواية اليَهْويَّة لقَصَص الآباء مُحاولةً أدبيَّة لإعادة تعريف وحدة شعب إسرائيل، بَدَلاً من النَّظَر إليها على أنَّها سجلٌّ دقيقٌ لحياة أشخاصٍ تاريخيِّين عاشوا قبل أكثر من ألف سنة.

كانت القصَّة التّوراتيَّة للآباء ستبدو مألوفة ـ بشَكْل كبير ـ لشعب يهُوذا في القرن السّابع ق.م.. في تلك القَصَص، الشُّعُوب المألوفة والأعداء المُهدِّدُون بالخطر في الزّمن الحاضر، تمَّ رَصْفُها حول مُعسكرات ومراعي إبراهيم وذُرِّيَّته. إنَّ "بانُوراما" (أو المنظر الكُلِّي) لقَصَص

---

(1) [لمّا كان المصدر الكَهَنُوتي للتّوراة يُؤرَّخ من قِبَل أكثر العُلَماء إلى فترة ما بعد النَّفْي، والتّنقيح النّهائي للتّوراة يفترض أنّه حَدَثَ في تلك الفترة أيضاً، فإنَّنا نُواجه ـ هُنا ـ سُؤالاً جدِّيّاً حول ما إذا كُنّا نستطيع أنْ نتعرَّف على طبقة تنتمي لمرحلة بعد النَّفْي في قَصَص سفْر التّكوين؟ من عدَّة نواح، كانت حاجات الجماعة اليهُوديَّة في فترة ما بعد النَّفْي مُشابهة تماماً لضرورات الدّولة المَلَكيَّة المُتأخِّرة، لكنْ؛ رغم ذلك، كما نُحاول أنْ نُثبت هُنا، فإنَّ الإطار الأساسي والتّدوين الابتدائي لقَصَص الآباء يُشير ـ بشكل واضح ـ إلى أصل ينتمي للقرن السّابع ق.م.]. (المُؤلِّف).

الآباء يُشبه رُؤية رُومانسيَّة كَحلم، للماضي الرّعوي، تُلائم - بشَكْل خَاصٌ - الخَلْفيَّة الرّعويَّة لنسبة كبيرة من سُكَّان "يهُوذا". لقد تمَّ حَبْكُهَا من الذّاكرة، مع نتف من العادات القديمة، ومن أساطير ولادة شعُوب، ومن المخاوف التي كانت تُثيرها النّزاعات المُعاصرة(1).

تدلُّ المصادر والأحداث العديدة جداً - التي دُمجت مع بعضها - على غنى التّقاليد، التي استندت إليها القصَّة التّوراتيَّة، وعلى تنوُّع المُخاطبين - من أهالي يهُوذا وإسرائيل - الذين قُصد إسماعهم تلك القَصَص.

سفْر التّكوين كَمُقدِّمة تمهيديَّة؟

رغم أنَّ قَصَص سفْر التّكوين تدور حول يهُوذا - وإذا كانت قد كُتِبَتْ في القرن السّابع ق.م، أيْ قريباً من وقت تأليف التّاريخ التّثنوي - فكيف تسنَّى أنْ تكون تلك القَصَص بعيدة إلى هذه الدّرجة عن أفكار سفْر التّثنية، مثل مركزيَّة العبادة، ومركزيَّة أُورشليم (القُدْس)؟ بل تبدو قَصَص سفْر التّكوين مُروِّجَةً لأماكن العبادة الشّماليَّة؛ مثل بيت إيل وشكيم (نابلس) وتصف تأسيس مذابح تقديم القرابين في الكثير من المناطق عدا أُورشليم (القُدْس). ربَّما يجب أنْ نرى هُنا مُحاولة لتقديم تقاليد الآباء كَنوع من التّاريخ السّابق التّقوي، قبل أُورشليم

---

(1) [تنعكس طُمُوحات يَهُوذا الإقليميَّة، في القرن السابع ق.م. لاسترداد الأراضي الإسرائيليَّة التي استولى عليها الآشوريُّون، في قصَّة إبراهيم أيضاً. في قصَّة الحرب الكُبْرَى المذكورة في سفْر التّكوين 14، يُلاحق إبراهيم مُلُوك بلاد ما بين النَّهرَيْن الذين أسروا ابن أخيه "لُوط"، ويُطاردهم على طُول الطّريق المُؤدِّي إلى دمشق ودان (14/ 14 - 15). في هذا الفعل؛ يُحرِّر قريبه من عبُوديَّة بلاد ما بين النَّهرَيْن، ويطرد قُوَّات أجنبيَّة من الحُدُود التي ستُصبح - لاحقاً - الحُدُود الشماليَّة لمملكة إسرائيل.

وممَّا له علاقة - أيضاً - بطُمُوحات يَهُوذا الإقليميَّة في هذه الفترة، التّركيز الخاصُّ على قبيلتَيْ "يُوسُف": "أفرايم" ومنسّي"، والرّسالة القويَّة لافتراق الإسرائيليِّين عن الكنعانيِّين في قَصَص الآباء. كان أوَّل بند في جدول أعمال يَهُوذا بعد سقُوط المملكة الشّماليَّة هُو التّوسُّع نحو الأراضي الإسرائيليَّة السّابقة في المُرتفعات التي تقع شمال يَهُوذا مُباشرة، يعني أراضي قبيلتَيْ "أفاريم" ومناسّي". ومن جهة أخرى؛ قام الآشوريُّون، بعد تدميرهم لمدينة السّامرة، بإحلال مُبعدين من بلاد ما بين النَّهرَيْن في أراضي المملكة الشّماليَّة المقهورة. وقد حلَّ البعض في منطقة بيت إيل، القريبة من الحُدُود الشّماليَّة ليَهُوذا. من هُنا؛ كان على فكرة الجامعة (أو القوميَّة) الإسرائيليَّة أن تأخذ بعين الاعتبار هذه الحالة من "الكنعانيِّين" الجُدُد الذين يعيشون في الأراضي التي تراها يَهُوذا كميراثه الشّرعي. لذا؛ نجد قَصَص الآباء، التي تضع تأكيداً قويّاً على أهميَّة الزّواج من الأقرباء وتجنُّب الزّواج من شعُوب الأرض الأخرى، مُلائمة - بشكل مثالي - لهذه الوضعيَّة الجديدة.] (المُؤلِّف).

(القُدْس)، وقبل الحُكْم المَلَكي، وقبل الهيكل (المعبد)، عندما كان آباء الأُمَّة مُوحِّدين لله، رغم أنَّه كان مازال مسموحاً لهم بتقديم القرابين في الأماكن الأُخرى. في الحقيقة؛ ربَّما قصد من تصوير الآباء كَرُعاة أو مُربِّي ماشية، إعطاءُ جوٍّ من العراقة العظيمة لمراحل التَّشكُّل الأوَّليَّة التي تطوَّرت - في الفترة الأخيرة فقط - إلى وعي قومي واضح.

إنَّ معنى كُلِّ هذا بأنَّ كلا التَّوراة اليَهْويَّة والتَّاريخ التَّثنوي كُتبا في القرن السَّابع ق. م، في يهُوذا، في أُورشليم (القُدْس)، عندما لم يكن لمَمْلَكَة إسرائيل الشّماليَّة أيُّ وُجُود أصلاً بعدُ. في الغالب؛ كانت الأفكار، والقَصَص الأساسيَّة، وحتَّى الشَّخصيَّات، الكامنة خلف كلا التَّأليفَيْن (قَصَص الآباء، وسفْر التَّثنية) معروفة على نحو واسع. يصف المصدرُ اليَهَويُّ التَّاريخَ المُبكِّر جداً للأُمَّة، بَيْنما يتعامل التَّاريخ التَّثنوي مع أحداث القُرُون المُتأخِّرة أكثر، مع تأكيد خاصٍّ على فكرة القوميَّة الإسرائيليَّة الجامعة، وعلى الحماية الرَّبَّانيَّة للذُّرِّيَّة الدّاوديَّة، وعلى مركزيَّة العبادة في الهيكل (المعبد) في أُورشليم (القُدْس).

لقد تجلَّت العبقريَّة العظيمة لمُؤلِّفي تلك المَلْحَمَة الوَطَنيَّة في القرن السَّابع بالطَّريقة الرَّائعة التي جمعوا فيها القَصَص الأوَّليَّة إلى بعضها البعض، دُون أنْ يُعَرُّوهَا من إنسانيَّتها، أو تمايزها الفَرْدي. بقي كُلٌّ من إبراهيم، وإسحاق، ويعقُوب شخصيَّات رُوحيَّة حيَّة، مع كَونهم بالوقت نفسه، الأسلاف المجازيِّين لشعب إسرائيل. وتمَّ جَلْبُ الأبناء الإثْنَيْ عشر ليعقُوب إلى التَّقليد، كأعضاء أصغر في سلاسل الأنساب الأكثر كمالاً في المهارة الفنِّيَّة للقصَّة التَّوراتيَّة، التي جَعَلَتْ أبناء إبراهيم، وإسحاق، ويعقُوب عائلة واحدةً حقيقةً. كان الذي وحَّدهم - في الواقع - هُو قُوَّة الأُسطُورة، التي استطاعت أنْ تقوم بهذا التَّوحيد بطريقة أكثر قُوَّة، وأبقى خُلُوداً ممَّا كان يُمكن أنْ تعمله مُجرَّد قَصَص مُغامرات عابرة لبضعة أفراد تاريخيِّين كانوا يرعون الخراف في مُرتفعات كَنْعَان.

الفَصْل (2):

هل حَدَثَ الخُرُوج الجماعي؟

مَثَّلَتْ الشَّخصيَّة البُطُوليَّة لِمُوسى الذي واجه فرعون الطَّاغية، والآفات العشر التي حلَّت بالمصريِّين، والخُرُوج الجماعي الشَّامل لبني إسرائيل من مصر، مشاهد رئيسيَّة لا تُمحى - عبْر العُصُور - من ذاكرة التَّاريخ التّوراتي.

انتقل بنو إسرائيل، تحت قيادة زعيم ربَّاني - ليس مُجرَّد أب رُوحي، بل زعيم قدَّم شعبه إلى الله، وقدَّم اللهَ إلى شعبه - ذلك الانتقال الذي كان - بالنِّسبة إليهم - شبه مُستحيل، من حالة العُبُوديَّة اليائسة إلى الاقتراب من حُدُود أرض الميعاد نفسها.

لقد كان لقصَّة تحرُّر بني إسرائيل من نير العُبُوديَّة في مصر ذلك المقدار البالغ من الأهمِّيَّة الذي جَعَلَ أربعةً من أسفار التّوراة: أيْ سفْر الخُرُوج وسفْر اللاَّوِيِّين (الأحبار)، وسفْر العدد، وسفْر التَّثنية، التي تُشكِّل - في الواقع - أربع أخماس التّوراة، مُخصَّصة للحديث عن تلك الأحداث بالغة الأهمِّيَّة، التي واجهها ذلك الجيل الواحد من بني إسرائيل خلال مُدَّة تزيد قليلاً على الأربعين عاماً. خلال تلك الأربعين سنة؛ كانت مُعجزات الأجمة التي تشتعل ناراً، ولا تحترق، (الوسيلة التي استدعى اللهُ - من خلالها - مُوسى إلى الجبل؛ ليُكلِّمه)، والآفات العشر (التي حلَّت بالمصريِّين بسبب رَفْض فرعون وآله دعوة مُوسى)، وشقّ البحر الأحمر فلقَتَيْن، ظُهُور المنّ في صحراء سيناء، وإيحاء الله شريعته ووصاياه لِمُوسى في جبل سيناء، كانت كُلُّها ظُهُورات عَمَليَّة ومَرْئيَّة لهيمنة الله وحُكْمه المُطلَق على الطَّبيعة وبني الإنسان. وهكذا كَشَفَ اللهُ - الذي عَرَفَهُ الآباء عبْر وحيه الخاصّ إليهم فقط - عن نفسه لكُلّ الأُمَّة كإله عالمي.

لكنْ؛ هل تُمثِّل تلك الأحداث تاريخاً واقعيّاً؟ هل يُمكن لعلْم الآثار أنْ يُساعدنا في عَمَليَّة التَّحديد الدَّقيق للعصر الذي قام به زعيم كبير اسمه مُوسى بتعبئة شعبه، والسَّيْر به نحو

عَمَليَّة التَّحرُّر العظيمة تلك؟ هل بالإمكان أنْ نتتبَّع المسيرة والطَّريق الذي سَلَكَهُ بنو إسرائيل في خُرُوجهم الجماعي (من مصر)، وطريق تيههم في الصّحراء؟ بل؛ هل يُمكننا أنْ نُثبت (آثاريّاً) أنَّ حادثة الخُرُوج الجماعي ـ كما تصفها التّوراة ـ حَدَثَتْ من الأصل أساساً؟!

لقد قدَّمَت لنا متتا سنة من التّنقيبات والحفريّات الأثريَّة ودراسة وتحليل آثار الحضارة الفرعونيَّة القديمة، جدولاً تاريخياً مُفصَّلاً من الأحداث، والشّخصيَّات، والأماكن، خلال الحقبة الفرعونيَّة القديمة، إلاَّ أنَّ قصَّة الخُرُوج الجماعي مملوءة ـ أكثر بكثير من قَصَص الآباء ـ بثروة كبيرة من الإشارات الجَغرافيَّة المُفصَّلة والمُحدَّدة.

فهل يُمكن لتلك التّفاصيل أنْ تُزوِّدنا بخَلْفيَّة تاريخيَّة موثوقة للمَلْحَمَة العظيمة لهُرُوب الإسرائيليِّين من مصر، وتلقِّيهم شريعة الله في سيناء؟!

بنو إسرائيل في مصر: القصَّة التّوراتيَّة:

تصف قصَّة الخُرُوج تحوُّلَيْن عظيمَيْن ذوي ارتباط حاسم بالفُصُول اللاَّحقة للتّاريخ الإسرائيلي:

التَّحوُّل الأوَّل: هُو نُمُوُّ وتكاثر أبناء يعقُوب (إسرائيل) الاثنَيْ عشر ـ الذين كانوا يعيشون حياة النَّفْي في مصر ـ وتحوُّلهم لأُمَّة عظيمة، هذا من جهة، ومن الجهة الأُخرى؛ مُرُور تلك الأُمَّة بتجربة عَمَليَّة تحرُّر كبيرة والتزام بشريعة إلهيَّة، كان من المُستحيل حُدُوثها قبل ذلك.

وبالتَّالي؛ كانت رسالة الكتاب المُقدَّس العبْريّ هي التّأكيد على القُوَّة الكامنة لأُمَّة مُتوحِّدة ومُتديِّنة، برزت عندما بدأت تُطالب بحُرِّيَّتها حتَّى من أعظم مَمْلَكَة على الأرض آنذاك.

لقد تمَّ الإعداد لهذه المرحلة المُستعدَّة لهذا التَّحوُّل الرُّوحي المُثير في آخر سفْر التّكوين، عندما وصفت الحياة الآمنة التي عاشها أبناء يعقُوب، في ظلِّ حماية أخيهم يُوسُف في مصر، بفضل ارتقاء يُوسُف إلى منصب مسؤول هامٍّ ورفيع المُستوى في هَيْكَليَّة الحُكْم في مصر، بأنَّها كانت حياة مُوفَّقة وناجحة، وأنَّهم كانوا راضين عن حياتهم في مُدُن دلتا النّيل الشّرقيَّة، ويتمتَّعون بحُرِّيَّة التَّنقُّل ذهاباً وإياباً إلى وَطَنهم الأصلي كَنْعَان. قام أولاد يعقُوب ـ بعد موت

أبيهم ـ بنَقْل جُثمانه إلى القبر، الذي أعدَّ ـ سابقاً ـ لهذا الغرض، ودفنوه إلى جانب أبيه إسحاق وجَدِّه إبراهيم في مغارة "مكفيلة" Machpelah في مدينة حبرون (الخليل).

على مدى أربعمئة وثلاثين عاماً؛ تكاثر أحفاد وذُرِّيَّة أبناء يعقُوب الاثنَيْ عشر، ونموا ليُصبحوا أُمَّة عظيمة ـ تماماً كما وَعَدَ اللهُ ـ وصار المصريُّون يعرفونهم باسم "العبْرانيِّين": [وَأَمَّا بَنُو إسْرَائيلَ؛ فَأَثْمَرُوا، وَتَوَالدوا، وَنَمُوا، وكَثُرُوا كثيراً جداً، وَامتَلأت الأَرْضُ منهُمْ.] الخُرُوج: 1/ 7.

لكنَّ الزّمن تغيَّر، وجاء للحُكْم ـ في نهاية الأمر ـ فرعون جديد: "لم يكن يعرف يُوسُف"، ولخَوْفه من قيام العبْرانيِّين بخيانة مصر لصالح أحد أعدائها، قام الفرعون الجديد باستعباد العبْرانيِّين، وتحويلهم إلى مجموعات من عُمَّال البناء، ليقوموا ـ مُكرَهين ـ ببناء وتشييد المُدُن المَلكيَّة "فيثوم" Pithom و"رمسيس": [فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ تَسْخيرٍ؛ لكَيْ يُذلُّوهُمْ بأَثْقَالهمْ، فَبَنُوا لفرْعَوْنَ مَدينَتَيْ مَخَازنَ: فيثُومَ وَرَعَمْسيسَ، وَلَكنْ؛ بحَسْبمَا أَذَلُّوهُمْ هَكَذَا نَمُوا، وَامتَدُّوا. فَاختَشُوا منْ بَني إسْرَائيلَ.] الخُرُوج: 1/ 11 ـ 12.

ويوماً بعد يوم؛ ازدادت شدَّة الظُّلم والاضطهاد للعبْرانيِّين، الذين أصبحوا يُكرَهون على الأعمال الشَّاقَّة: [فَاسْتَعْبَدَ المصريُّونَ بَني إسْرَائيلَ بعُنْفٍ، وَمَرَّرُوا حَيَاتَهُمْ بعُبُوديَّةٍ قَاسيَةٍ في الطِّين وَاللِّبْن، وَفي كُلِّ عَمَلٍ في الحَقْل. كُلُّ عَمَلهم الذي عَملُوهُ بوَاسطَتهمْ عُنْفاً.] الخُرُوج: 1/ 13 ـ 14.

ولخَوْفه من الازدياد السُّكَّاني الكبير لأُولئك العُمَّال المُهاجرين الخطرين، أمر فرعون بإغراق كُلِّ أولاد العبْرانيِّين الذُّكُور في نهر النِّيل، ولكنَّ وسيلة تحرير العبْرانيِّين جاءت من نفس هذا الإجراء المُستميت الذي مُورس ضدَّهم. وُضعَ طفلٌ رضيعٌ من قبيلة "ليفي" (اللاَّويِّين) في سلَّة من البردى في نهر النِّيل، لتلتقطه إحدى بنات فرعون، وتتبنَّاه، وأعطتْهُ اسم "مُوسى" الذي معناه بالعبْرانيَّة: "السَّحْبُ" من الماء، ونشأ مُوسى، وتربَّى في البلاط المَلكي.

بعد سنوات؛ عندما بَلَغَ مُوسى سنَّ الرُّشْد، رأى رئيساً مصريَّاً مُتعسِّفاً يجلد عبداً عبْرانياً، فاستيقظت مشاعر مُوسى العميقة، وَهَجَمَ على ذلك الرَّئيس المصري المُتعسِّف، وَضَرَبَهُ، فَقَتَلَهُ، و"أخفيا جثَّته في الرَّمْل".

وخوفاً من نتيجة فعلته هذه؛ هَرَبَ مُوسى باتِّجاه الصّحراء إلى أرض مدين؛ حيثُ تبنّى هُناك حياة جديدة هي حياة البدو الرُّحّل في الصّحراء. وأثناء تجوُّله كَرَاعٍ وحيد؛ تلقّى مُوسى الوحيَ الإلهي، الذي سيُغيِّر العالم.

من خلال وميض النّار في أجمة صحرائيّة، كانت تلتهب دُون أنْ تحترق، كَشَفَ إلهُ إسرائيل نفسَهُ لِمُوسى كَمُخَلِّص لبني إسرائيل. وَوَعَدَ بأنّه سيُحرِّرهم من مُستعبديهم، ويأتي بهم لحياة الحُرِّيّة والأمن، في الأرض الموعودة. وعرَّف اللهُ نفسَهُ لِمُوسى كإله إبراهيم، وإسحق، ويعقُوب، كما أوحى - أيضاً - لِمُوسى اسمه الرّمزي الباطني: "يَهْوَه"؛ أيْ "أنا هُو أنا". وكلَّف اللهُ مُوسى - بجدّيَّة - أنْ يعود إلى مصر، برفقه مُساعده، وأخيه هارون، ليُواجه فرعون بمُعجزاته الباهرة، ويُطالبه بعتْق بيت إسرائيل، وحُرِّيَّتهم.

لكنَّ قلب فرعون ازداد قسوة، وأجاب مُوسى بتشديد آلام ومُعاناة بني إسرائيل. فأمر اللهُ مُوسى أنْ يُهدِّد مصر بسلسلة من الآفات الفظيعة، إذا استمرَّ فرعون في رَفْضه الانصياع للأمر الإلهي": [وَتَقُولُ لَهُ: الرَّبُّ إِلَهُ الْعِبْرَانِيِّين أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ قَائلاً: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي في الْبَرِّيَّة.] الخُرُوج: 7/ 16.

ولم يستجب فرعون. فتحوَّل النّيل إلى دم، وعجَّت الضّفادع، ثُمَّ البعوض، ثُمَّ الذُّباب، فملأت أنحاء البلاد. وانتشر وباء غامض أهْلَكَ ماشية المصريِّين. وَطَفَحَتْ الدّمامل والقُرُوح الجلديَّة على جُلُود المصريِّين وجُلُود ما بقي حيّاً من حَيَوَاناتهم، ثُمَّ انهار البَرَدُ من السّماوات على الأرض كَالحجارة، مُسبِّباً هَلاك الحرث ودمار المحاصيل. ومع ذلك؛ رفض فرعون الاستسلام، ثُمَّ اجتاحت مصر موجات من الجراد والظّلام، وأخيراً؛ حلَّ بهم طاعون مُريع، قَتَلَ كُلَّ بكْر من الإنسان والحَيَوَان في كُلِّ أرض النّيل.

ولكي يحمي اللهُ أولادَ الإسرائيلين الأبكار، أمرَ اللهُ مُوسى وهارون أنْ يُهيِّئا تجمُّع إسرائيل لتضحية خاصَّة للحملان، وأنْ يُلطِّخوا بدمهم إطار باب مسكن كُلِّ إسرائيلي؛ لكي يمرَّ البلاء فوقه في ليلة قَتْل أبناء المصريِّين. كما أمرهم بتهيئة مؤنة من خُبز الفطير (أيْ الخُبز الخالي من الخميرة) لأجل الخُرُوج الجماعي العاجل. وعندما شهد فرعون عدد الخسائر المُروِّع

للطّاعون العاشر، وقَتْل الأبكار، بِمَنْ في ذلك ابنه البكْر أيضاً، لانَ أخيراً، وَطَلَبَ من الإسرائيليِّين أنْ يأخذوا قطعانهم ومواشيهم، ويرحلوا.

وهكذا [ارْتَحَلَ بَنُو إسْرَائِيلَ منْ رَعَمْسِيسَ إلَى سُكُّوتَ نَحْوَ ستٍّ مئَة ألْف مَاشٍ منَ الرِّجَال عَدَا الأوْلاَد] (الخُرُوج 12 / 37)، وانطلقوا من مُدُن الدّلْتا الشّرقيَّة نحو صحراء سيناء. لكنْ؛ [لَمَّا أَطْلَقَ فرْعَوْنُ الشّعْبَ، فإنَّ اللهَ لَمْ يَهْدهمْ في طَريق أرْض الفَلَسْطينيِّين، مَعَ أنَّهَا قَريبَةٌ؛ لأنَّ اللهَ قَالَ: لئَلاَّ يَنْدَمَ الشّعْبُ إذَا رَأَوا حَرْباً، وَيَرْجعُوا إلَى مصْرَ. فَأَدَارَ اللهُ الشّعْبَ في طَريق بَرِّيَّة بَحْر سُوف (أيْ البحر الأحمر) . . .] (الخُرُوج 13 / 17 - 18). وبعد هُرُوب بني إسرائيل؛ أسف فرعون لقراره، وأرسل قُوَّة مُؤلَّفة من ستُّمائة عَرَبَة مُلتقَطة، وكُلُّ العَرَبات الأُخرى لمصر، فانشقَّ البحر الأحمر للسَّماح للإسرائيليِّين بالعُبُور إلى اليابسة؛ أيْ سيناء. وحالما انتهوا من العُبُور، ابتلعت المياه الشّاهقة المصريِّين الذين كانوا يُلاحقون الإسرائيليِّين، في مُعجزة غير مَنْسيَّة أُحييَتْ في الأُنشُودة التّوراتيَّة للبحر (الخُرُوج 15 / 1 - 18).

عبرت جُمُوع بني إسرائيل إلى البَرِّيَّة (صحراء سيناء)، يقودهم مُوسى، واتَّبعوا خطَّ سَيْر دقيق، يمرُّ بأمكنة وبقاع مُحدَّدة، ثُمَّ أصابهم الجُوع والعطش، فبدؤوا يظهرون تململهم واستياءهم، ولكنَّ تدخُّل مُوسى ودُعائه اللهَ لأجلهم هدأ من استيائهم؛ حيثُ أنزلَ اللهُ عليهم ما يُغذِّيهم. وفي النّهاية؛ عندما وَصَلُوا لجبل الله الذي كان مُوسى قد تلقَّى فيه أوّل وحي عظيم من عند الله، تجمَّع بنو إسرائيل عند الجبل، في حين صعد مُوسى لقمَّته ليَتَلَقَّى الشّريعةَ، التي ستُمَثِّلُ القانُون الذي سيكون على الإسرائيليِّين المُحرَّرين أنْ يلتزموا به إلى الأبد.

و على الرّغم من أنَّ عبادة بني إسرائيل للعجل الذّهبي عندما كان مُوسى على قمَّة الجبل، أفسدت ذلك التَّجمُّع في سيناء، (و قد غضب مُوسى لذلك، وألقى الألواح الحَجَريَّة، فَحَطَّمَهَا)، إلاَّ أنَّ اللهَ أبلغ الشّعب - مع ذلك - عبْر مُوسى الوصايا العشر، وتشريعات العبادة المُفصَّلة والمُعقَّدة، وأحكام الطّهارات والأطعمة. ومُنْذُ ذلك الحين؛ أصبح تابوت العهد المُقدَّس الذي يحتوي على ألواح الشّريعة المُقدَّسة أكثر الرُّمُوز الوَطَنيَّة قداسةً وأهمِّيَّة في المعارك، يحمله بنو إسرائيل معهم في كُلِّ رحلاتهم. وانطلاقاً من مُعسكرهم في بَرِّيَّة فاران، أرسل بنو إسرائيل الجواسيس لاستطلاع الأخبار عن شعب كَنْعَان (سفْر العدد/ 13)، لكنَّ

أولئك الجواسيس عادوا بتقارير مُرعبة جداً حول قُوّة الكَنْعَانيّين والتّحصينات الشّاهقة لمُدُنهم؛ ممَّا ألقى الرُّعبَ في قُلُوب بني إسرائيل، وأفْقَدَهُم رباطة جأشهم، فثاروا ضدَّ مُوسى، راجين منه العودة بهم إلى مصر؛ حيثُ يُمكنهم - على الأقلّ - أنْ يضمنوا سلامة أجسامهم. وعندما رأى اللهُ منهم ذلك، قرَّر أنْ لا يبقى الجيل الذي عَرَفَ العُبُوديَّة في مصر أحياءً حتّى يرثوا أرض الميعاد، بل قدَّر عليهم التّيه والهُيام في الصّحراء لأربعين سنة أُخرى. لذا؛ لم يدخلوا أرض كَنْعَان مُباشرة، بل سَلَكُوا طريقاً مُتعرِّجاً عبْر "قادش بَرْنيع" نحو "عَرَبَة" عبْر أرض أدوم ومُوآب شرقي بحر الميِّت.

و كان آخر الأحداث في قصَّة الخُرُوج، هُو ما تمَّ على سُهُول مُوآب في عبْر الأُردُن (أيْ ضفَّته الشّرقيَّة)، على مرأى من الأرض الموعودة، ؛ حيثُ كَشَفَ مُوسى - الذي أصبح حينذاك مُسنّاً - للإسرائيليّين، الأحكام الكاملة للشّريعة، التي لابُدَّ لهم من اتِّباعها إذا أرادوا - حقّاً - أنْ يكونوا وَرَثَة أرض الميعاد. وقد تمَّ تضمين هذا القانُون الجديد أو الثّاني، في الشّريعة، في سفْر "التّثنية" (الذي أخذ اسمه من الكلمة اليُونانيَّة **deuteronomion** التي تعني القانُون الثّاني).
وقد فصَّل هذا السِّفْر الأخطار المُميتة لعبادة الأصنام، وَوَضَعَ تقويماً للمُناسبات والاحتفالات الدِّينيَّة، وأدرج تشكيلة واسعة من التّشريعات الاجتماعيَّة، وكلَّفهم بأنَّه عندما يتمُّ فَتْحُ الأرض، فإنَّ إله إسرائيل سيُعبَدُ في حَرَم مُقدَّس وحيد [المكان الذي يختاره الرَّبُّ إلهكَ؛ ليحلَّ فيه اسمه] (التّثنية: 26/ 2).

و بعد تعيين يشُوع بن نُون ليقود بني إسرائيل في حملتهم ذات الغزو الخاطف والسّريع؛ صعد مُوسى الذي بَلَغَ عمره 120 عاماً إلى قمَّة جبل "نَبو"، ومات هُنالك. وبهذا؛ اكتمل الانتقال من العائلة إلى الأُمَّة، وأصبحت الأُمَّة في مُواجهة التَّحدِّي الرّهيب لإنجاز قَدَرها الإلهي.

سحْر مصر:

ثمَّة شيء واحد مُؤكَّد؛ الحالة الأساسيَّة التي تصفها قصَّة الخُرُوج - ظاهرة المُهاجرين الذي هبطوا من كَنْعَان إلى مصر، واستقرُّوا في مناطق الحُدُود الشّرقيَّة للدِّلتا - أمرٌ أكَّدتْهُ الاكتشافات الأثريَّة، والنُّصُوص التّاريخيَّة الوافرة. فمُنْذُ أقدم السِّجلاّت، وعبْر العُصُور القديمة، تمَّت

الإشارة إلى مصر كَمَلجأ وملاذ آمن لشعب كَنْعَان، في زمن كان الجفاف والمجاعة والحُرُوب قد جَعَلَتْ الحياة في أرض كَنْعَان حياةً لا تُطاق، وصعبة للغاية.

ترجع هذه العلاقة التّاريخيَّة المُتبادلة بَيْن مصر وكَنْعَان إلى التّباين البيئي والمناخي بَيْن هاتَيْن الأرضَين المُتجاورتَيْن، اللّتَيْن تفصل بَيْنهما صحراء سيناء. تمتلك كَنْعَان مناخاً بحر-مُتوسِّطياً نمُوذجيّاً، جافّاً في الصّيف، ولا ينال المطر إلاّ في الشّتاء، وتتفاوت كميَّة سُقُوط الأمطار في أيّ سنة بنَحْو واسع.

ولمّا كانت الزّراعة في كَنْعَان مُعتمدة جداً على المناخ؛ كانت السّنوات ذات المطر الوفير تجلب ازدهاراً، في حين تُؤدِّي -عادةً- السّنوات ذات المطر المُنخفض إلى الجفاف والمجاعة. وهكذا كانت حياة شعب كَنْعَان مُتأثِّرة -بشَكْل كبير- بالتّقلُّبات بَيْن سنوات جيِّدة الأمطار، وأُخرى مُتوسِّطة، وأُخرى سيِّئة، الأمر الذي انعكس -مُباشرة- بسنوات من الازدهار، وسنوات صعبة وَصَلَتْ -أحياناً- إلى حَدّ المجاعة التّامَّة. وفي أوقات المجاعة الحادَّة كان هُناك حلٌ واحد فقط: الهبُوط إلى مصر، مصر التي لم تكن تعتمد على المطر، بل تحصل على مائها من النّيل.

في مصر -أيضاً- كانت هُناك سنوات جيِّدة، وسنوات سيِّئة، حسب المُستوى المُتقلِّب للنّيل في فصل الفيضان، وذلك بسبب الاختلاف الشّديد في نسبة هُطُول الأمطار في مناطق منابع النّيل في وسط أفريقيا والمُرتفعات الأثيوبيَّة، ولكنَّ حُدُوث مجاعات حقيقيَّة في مصر كان أمراً نادراً للغاية؛ فالنّيل -حتّى عندما ينخفض منسوب مياهه- كان مايزال مصدراً قابلاً للاعتماد عليه لمياه الرّيّ، وفي الأحوال كُلِّها؛ كانت مصر دولة مُنظَّمة بشَكْل جيِّد، ومُستعدَّة للسّنوات الجيِّدة والسّنوات السَّيِّئة، عن طريق خَزْن الحُبُوب في مخازن الحُبُوب الحُكُوميَّة. وبشَكْل خَاصٍّ؛ كانت دلتا النّيل في العصر القديم تُقدِّم منظراً طبيعيّاً رائعاً، أكثر بكثير ممّا هي عليه اليوم. فاليوم -بسبب الطّمي والتّغيير الجيُولُوجي- أصبح النّيل مُنشقّاً إلى فرعَيْن رئيسيَّيْن -فقط- شمال القاهرة، ولكنَّ أنواعاً مُختلفة من المصادر القديمة، من جُملتها تلك الخريطتان الباقيتان من الفترة الرُّومانيَّة البيزنطيَّة، تُبيِّنان أنَّ النّيل -في ذلك العهد- كان ينشطر إلى حوالي سبعة أفرع، ويخلق منطقة أكبر جداً من الأرض المَسقيَّة بشَكْل جيِّد. لقد كان آخر تفرُّع -من

ناحية الشّرق ـ للنّيل، يمتدُّ في ذلك الوقت إلى ما هُو ـ الآن ـ مُجرَّد منطقة قاحلة مالحة مُستنقعيَّة شمال غرب سيناء. وكانت مياه النّيل العذبة تتدفّق عبْر قنوات الرّيِّ الصّناعيَّة؛ لتنقل المياه إلى كامل المنطقة، التي هي ـ في يومنا هذا ـ مُجرَّد مُستنقعات مالحة قاحلة لمنطقة قناة السُّويس، مُحولّة إيّاها ـ آنذاك ـ إلى أرض خصبة خضراء، ذات كثافة سُكّانيَّة عالية. لقد كَشَفَتْ الدّراسات الجيُولُوجيّة والطُّوبُوغرافيَّة في السّنوات الأخيرة عن وُجُود كلا الفرع الشّرقي للنّيل، والقنوات الصّناعيَّة في الدّلتا الشّرقيَّة والصّحراء الواقعة شرقها.

هُناك سبب قويٌّ للاعتقاد بأنَّه في أوقات المجاعة في كَنْعَان ـ كما تحكي القصّة التّوراتيّة ـ كان الرُّعاة والمُزارعون ـ على حَدٍّ سواء ـ يذهبون إلى مصر للاستقرار في الدّلتا الشّرقيَّة، ويتمتَّعون بخُصُوبتها الموثوقة. ورغم ذلك؛ فإنَّ علْم الآثار يُزوِّدنا بصُورة أكثر تلوُّناً من ذلك بكثير؛ حيثُ يكشف عن قُدُوم جاليات كبيرة من السّاميِّين كانت تأتي مُنْذُ العصر البرُونزي من جنوب كَنْعَان؛ لتستقر في الدّلتا الشّرقيَّة للنّيل لأسباب مُختلفة، وكانت تُحقّق مُستويات مُختلفة من النّجاح. كان يتمُّ تجنيد بعض هؤلاء كَعُمَّال لا يملكون أرضاً خاصّة بهم، ليقوموا بأعمال بناء الأبنية العامَّة. وربَّما جاؤوا في فترات أُخرى ـ بكُلّ بساطة ـ؛ لأنَّ مصر كانت تُقدِّم لهم فُرصاً جيِّدة للتّجارة، ولتحسين أوضاعهم الاقتصاديّة. يُشير قبر "بني حسن" المشهور ـ الذي اكتُشف في مصر الوُسْطَى، والذي يعود تاريخه إلى القرن التّاسع عشر ق. م ـ إلى مجموعة من الكَنْعَانيِّين هبطوا من عبْر الأُردُن إلى مصر برفقة حَيَوَاناتهم وسلعهم على الأغلب كَتُجّار، لا كَعُمَّال مسخَّرين، وقسم آخر من الكَنْعَانيِّين في الدّلتا، قد يكون تمَّ جَلْبُهُم كَأسرى حرب منْ قِبَل جيُوش الفراعنة، خلال حملاتهم التّأديبيَّة التي كانوا يشنُّونها ضدَّ دُول المُدُن العاصية لكَنْعَان. ونعرف بأنَّ البعض منهم خُصِّصوا كَعَبِيد لزراعة أراضي عقارات المعابد. وقد وَجَدَ البعضُ الآخر من أُولئك الكَنْعَانيِّين طريقهم صُعُوداً في السُّلّم الاجتماعي؛ ليُصبحوا ـ في النّهاية ـ مسؤولين حكُوميِّين، أوجُنُوداً، وحتَّى كَهَنَة.

لم تكن هذه النّماذج السُّكّانيَّة (الدّيمُوغرافيَّة) على طُول الدّلتا الشّرقيَّة ـ لأُناس آسيويِّين يُهاجرون إلى مصر، ويتمُّ استخدامهم في أعمال إجباريّة في الدّلتا ـ مقصُورة على العصر البرُونزي؛ بل كانت تعكس ـ في الواقع ـ الإيقاعات القديمة في المنطقة، والتي شملت ـ كذلك ـ

القُرُون التّالية في العصر الحديدي؛ أيْ العهد القريب من الفترة التي كُتِبَتْ فيها قصَّة الخُرُوج التّوراتيَّة.

صعُود الهكْسُوس وانهيارهم:

تُعَدُّ حكاية ارتقاء يُوسُف إلى منزلة هامَّة في مصر ـ كما يرويها سفر التّكوين ـ أكثر قَصَص المُهاجرين الكَنْعَانيّين ـ الذين يصعدُون إلى السُّلْطَة في مصر ـ شُهرةً، ولكنْ؛ هُناك مصادر أُخرى تعرض ـ جوهريّاً ـ الصُّورة نفسها، ولكنْ؛ من وُجهة نَظَر مصريَّة، أهمّها هي القصَّة التي كَتَبَهَا المُؤرِّخ المصري "مانيثو" Manetho في القرن الثّالث ق.م؛ حيثُ سجَّل قصَّة هجرة ناجحة بنَحْو استثنائي، رغم أنَّها تُعَدُّ ـ من وُجهة نَظَر مُواطنيه المصريّين ـ مأساة وَطَنيَّة. يذكر "مانيثو" ـ مُستنداً إلى مصادر مُقدَّسة مجهولة الاسم، وإلى حكايات وأساطير شعبيَّة ـ قصَّة قيام أجانب من الشّرق ـ أطلَق عليهم اسم الهكْسُوس ـ بغَزْو وحشي هائل لمصر، وكلمة الهكْسُوس شكل يُوناني مُبهَم لكلمة مصريَّة ترجمتها بـ "المُلُوك الرُّعاة"، لكنَّها ـ في الحقيقة ـ تعني "حكَّام الأراضي الأجنبيَّة". وَذَكَرَ "مانيثو" Manetho بأنَّ الهكْسُوس أسَّسوا لأنفسهم مدينة في الدّلْتا اسمها "أفاريس" Avaris، وأسَّسوا هُناك سُلالة مَلَكيَّة حَكَمَتْ مصر بوحشيَّة بالغة؛ لأكثر من خمسمئة سنة.

في السّنوات الأُولى للدّراسات العصريَّة الحديثة؛ طابق العُلماء "الهكْسُوس" مع مُلُوك السُّلالة الخامسة عشرة لمصر، الذين حكَمُوا من حوالي 1670 إلى 1570 ق.م.. قبل العُلماء الأوائل تقرير "مانيثو" حَرْفيّاً، وبحثوا عن أدلَّة على أُمَّة أجنبيَّة قويَّة، أو مجموعة عرْقيَّة جاءت من بعيد لغَزْو وفَتْح مصر. أظهرت الدّراسات اللاَّحقة أنَّ النُّقُوش والأختام التي تحمل أسماء حكَّام الهكْسُوس تدلُّ على أنَّهم كانوا ساميِّين غربيّين، وبكلمة أُخرى؛ كَنْعَانيُّون. وأكَّدت التّنقيبات الأثريَّة الأخيرة في دلتا النّيل الشّرقيَّة هذا الاستنتاج، وأثبتت أنَّ "غزو" الهكْسُوس كان عَمَليَّة تدريجيَّة للهجرة من كَنْعَان إلى مصر، بَدَلاً من كونه حَمْلَة عسكريَّة خاطفة.

وكان التّنقيب الأثري الأكثر أهمِّيَّة هُو ما قام به مانفريد بيتاك Manfred Bietak، من جامعة فينا، في تلِّ الدّبا؛ حيثُ حدَّد موقعاً في الدّلْتا الشّرقيَّة، طابقه على مدينة "أفاريس"، عاصمة الهكْسُوس (الشَّكل 6).

وبيَّنت التّنقيبات هُناك زيادة تدريجيَّة من التّأثير الكَنْعَاني في أساليب الفخّاريَّات، والهندسة المعماريَّة، والقُبُور من حوالي 1800 ق.م.. في عهد السُّلالة الخامسة عشرة؛ أيْ بعد حوالي 150 سنة، صارت الثّقافة الحضاريَّة للموقع، الذي أصبح - في النّهاية - مدينةً ضخمة، ثقافة كَنْعَانيَّة بشَكْل كبير. إنَّ اكتشافات تلّ الدّبا تدلُّ على تطوُّر طويل وتدريجي من الحُضُور الكَنْعَاني في الدّلتا، وعلى سيطرة سلْميَّة على السُّلْطَة هُنالك. إنَّه وَضْعٌ مُماثل بنَحْو غير دقيق، على الأقلّ في خُطُوطه العامَّة الواسعة، لقَصَص زيارات الآباء إلى مصر، وتوطُّنهم النّهائي هُناك. أمَّا أنَّ "مانيثو" - الذي كَتَبَ تاريخه هذا بعد مئة وخمسة عشر سنة تقريباً، ووَصَفَ فيه حُكْم الهكْسُوس بأنَّه كان نتيجة احتلالٍ وحشيٌّ، بَدَلاً من هجرة سلْميَّة وتدريجيَّة، فيجب - في الاحتمال الغالب - أنْ يُفهَم على خلفيَّة زمانه الخاصّ؛ حيثُ كانت ذكريات غزوات مصر من قبَل الآشُوريِّيْن، والبابليِّيْن، والفُرس، في القرنَيْن السّابع والسّادس ق.م، ماتزال حيَّة - بشَكْل مؤلم - في الوعي المصري.

لكنَّ هُناك تشابهاً أكثر صدْقاً بَيْن قصَّة الهكْسُوس والقصَّة التّوراتيَّة للإسرائيليِّيْن في مصر، على الرّغم من اختلاف القصَّتَيْن الحادّ في اللَّحن. يصف "مانيثو" انتهاء احتلال الهكْسُوس لمصر بأنَّه تمَّ - أخيراً - منْ قبَل ملك مصري مُستقيم هاجمهم، و[هزم الهكْسُوس]، "وَقَتَلَ العديد منهم، وتابع فُلُولَهم إلى حُدُود سُوريا".

في الحقيقة؛ ذَكَرَ "مانيثو" بأنَّ الهكْسُوس - بعد طَرْدهم من مصر - ، قاموا بتأسيس مدينة "أُورشليم"، وبنوا هُناك معبداً. هُناك مصدر مصري يعود للقرن السّادس عشر قبل الميلاد، موثوق أكثر بكثير من كُلّ ما سَبَقَ، يقصُّ مآثر الفرعون "أحموس" Ahmose، من السُّلالة الثّامنة عشرة، ذاكراً أنَّه استباح مدينة "أفاريس" Avaris، وَطَرَدَ منها فُلُولَ "الهكْسُوس" إلى حصنهم الرّئيسي "شارُوحين" Sharuhen في جنوب كَنْعَان قُرْب غزَّة، ثُمَّ اقتحمها، وفتحها - أيضاً - بعد حصار طويل. وفي الحقيقة؛ حوالي مُنتصف القرن السّادس عشر ق.م، هُجرَ "تلّ الدّبا"، مُسجِّلاً نهايةً مُفاجئةً للتّأثير الكَنْعَاني هُناك.

إذنْ؛ فالمصادر الآثاريَّة والتّاريخيَّة المُستقلَّة تُخبرنا عن هجرات لساميِّيْن من كَنْعَان إلى مصر، وعن قيام المصريِّيْن بطَرْدهم بالقُوَّة. هذه الخُلاصة الأساسيَّة للهجرة، والعودة العنيفة

إلى كَنْعَان تتوازى مع القصَّة التّوراتيَّة للخُرُوج الجماعي. ويبقى هُنا سُؤالان رئيسيَّان: الأوَّل: مَنْ هُم هؤلاء المُهاجرون السَّاميُّون؟ والثّاني: كيف يتطابق تاريخ زيارتهم لمصر مع التّرتيب التّاريخي الزّمني للأحداث التّوراتيَّة؟

تَعَارُضُ التّواريخ والمُلُوك:

يؤرِّخ طَرْد الهكْسُوس - عُمُوماً - على أساس السِّجلاَّت المصريَّة والدّلائل الآثاريَّة للمُدُن المُحطَّمة في كَنْعَان، بحوالي 1570 ق. م.. كما ذكَرْنا في الفَصْل الأخير في مُناقشة تاريخ عُمر الآباء، يُخبرنا سفر المُلُوك الأوَّل (6/ 1) بأنَّ بناء الهيكل (المعبد) الذي بدأ في السّنة الرّابعة من عهد حكْم سُلَيْمَان إنَّما حَدَثَ بعد 480 سنة من حادثة الخُرُوج الجماعي.

طبقاً للتّرابط بَيْن التّواريخ المَلكيَّة للمُلُوك الإسرائيليِّين مع تواريخ مصادر خارجيَّة مصريَّة وآشُوريَّة؛ يُمكن وَضْع تاريخ الخُرُوج الجماعي في سنة 1440 ق. م.. أيْ أنَّه بعد أكثر من مئة سنة بعد تاريخ الطَّرْد المصري للهكْسُوس، حوالي 1570 ق. م.. لكنْ؛ هُناك إشكال أكثر جدِّيَّة أيضاً.

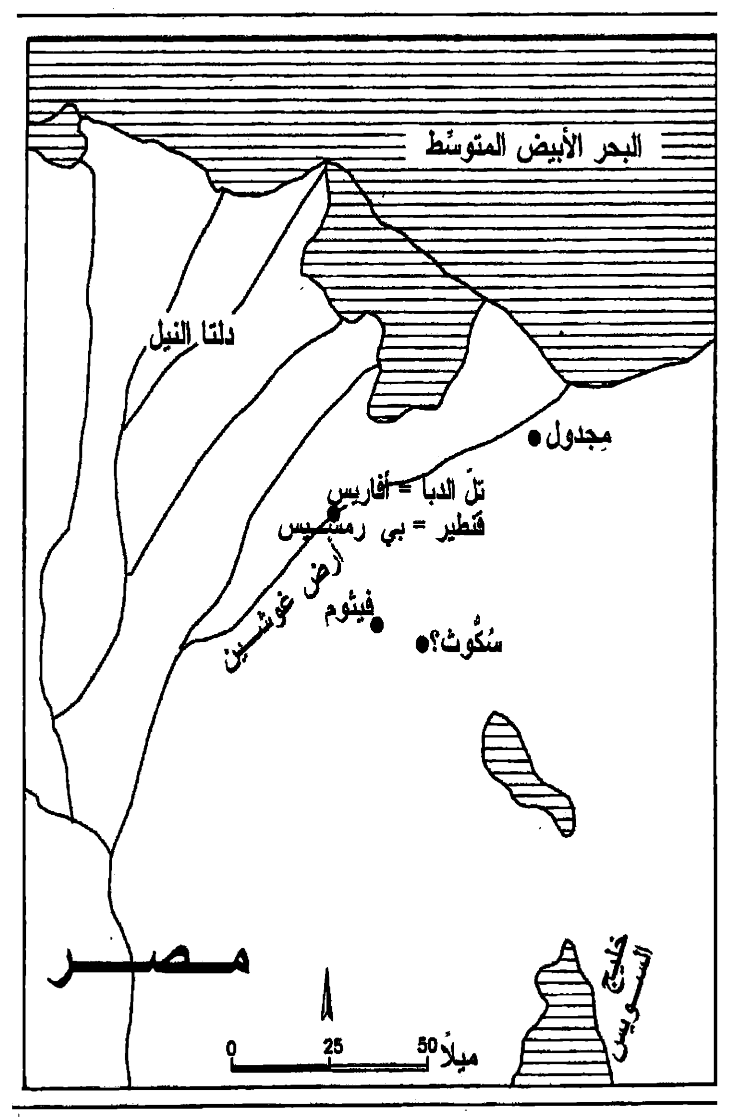
تتكلَّم التّوراة - بشَكْل واضح - عن مشاريع العمل الإجباريَّة لبني إسرائيل، وعن إشارات - بشَكْل خَاصٍّ - لبناء مدينة رعمسيس (رمسيس) (الخُرُوج 1/ 11). في حين؛ أنَّه في القرن الخامس عشر ق. م، لا يُمكن تصديق مثل هذا الاسم؛ لأنَّ أوَّل فرعون اسمه رعمسيس اعتلى العرش سنة 1320 ق. م، فقط؛ أيْ بعد أكثر من قرن من التّاريخ التّوراتي التّقليدي. وكَنَتيجة لذلك؛ مال العديد من العُلماء إلى رَفْض القيمة الحَرْفيَّة للتّاريخ التّوراتي، مُقترحين بأنَّ الرَّقْم 480 لم يكن أكثر من طُول رمزي للوقت، يُمثِّل فترات حياة اثنَيْ عشر جيلاً، كُلٌّ واحد منها يدوم مُدَّة الأربعين سنة التّقليديَّة. يضع هذا التّسلسل الزّمني - المُخطَّط بشَكْل عالٍ - لتاريخ الأحداث، بناء الهيكل (المعبد)، في زمن يقع في نصف الطّريق بَيْن نهاية النَّفْي الأوَّل (في مصر)، ونهاية النَّفْي الثّاني (في بابل).

على أيَّة حال؛ رأى أكثر العُلماء في الإشارة التّوراتيَّة الخاصَّة المُحدَّدة لاسم رعمسيس تفصيلاً احتفظ بذاكرة تاريخيَّة أصيلة. وبكلمة أُخرى؛ حاولوا إثبات أنَّ حادثة الخُرُوج

الجماعي لابُدَّ وأنْ تكون قد حَدَثَتْ في القرن الثّالث عشر ق. م. . وكان هُناك تفاصيل مُعيَّنة أُخرى في قصَّة الخُرُوج الجماعي التّوراتيَّة تُشير إلى العصرنفسه؛ أوَّلاً: تذكر المصادر المصريَّة بأنَّ مدينة "بي رعمسيس" ("بيت رعمسيس") بُنِيَت في الدّلتا في أيَّام الملك المصري العظيم رعمسيس الثّاني، الذي حَكَمَ في الفترة بَيْن 1279 ـ 1213 ق. م، والذي استُخْدمَ السّاميُّون ـ على ما يبدو ـ في بنائه؛ ثانياً: وربَّما الأكثر أهميَّة، أوّل ذكْر لإسرائيل في نصٍّ خارج توراتي، إنَّما وُجد في مصر في المسلَّة التي نُقش عليها وَصْف حَمْلَة الفرعون منفتاح بن رعمسيس الثّاني في أرض كَنْعَان في نهاية القرن الثّالث عشر ق. م نفسه. . يُخبر النَّقْش عن حَمْلَة مصريَّة تدميريَّة في كَنْعَان، تمَّ خلالَها تحطيم شعب يُسمَّى إسرائيل تحطيماً تامَّاً؛ لدرجة أنَّ فرعون تباهى بأنَّ بذرة إسرائيل مُحيت من الوُجُود. واضح أنَّ هذا التّفاخر كان تفاخراً فارغاً، لكنَّه يُبيِّن أنَّ بعض المجموعات المعروفة باسم إسرائيل كانت تُوجد ـ فعلاً ـ في كَنْعَان في ذلك الوقت.

في الحقيقة؛ لقد ظهرت عشرات المُستوطنات ذات الارتباط مع الإسرائيليِّين الأوائل في منطقة التّلال والمُرتفعات في كَنْعَان في ذلك الوقت تقريباً. إذنْ ـ يقول العُلماء ـ لو أنَّ حادثة الخُرُوج الجماعي حَدَثَتْ تاريخيّاً، فلابُدَّ وأنْ تكون قد حَدَثَتْ في أواخر القرن الثّالث عشر ق. م. .

تحتوي مسلَّة منفتاح على أوّل ظُهُور لاسم إسرائيل في أيِّ نصٍّ قديم باقٍ على قَيْد الحياة. هذا يطرح ـ مرَّة ثانية ـ الأسئلة الأساسيَّة نفسها: مَنْ كان السَّاميُّون في مصر؟ هل يُمكن أنْ يُعَدُّوا إسرائيليِّين بأيِّ نحو من المعاني المقبولة؟ لا يُوجد أيُّ ذكْر لاسم إسرائيل في أيِّ من النُّقُوش أو الوثائق المُرتبطة بفترة الهكسُوس، ولا ذكْر لإسرائيل في النُّقُوش المصريَّة التّالية، ولا في الأرشيف المسماري الذي يعود للقرن الرّابع عشر ق. م، والذي تمَّ اكتشافه في تلّ العمارنة في مصر، والذي تصف حوالي أربعمئة رسالة فيه ـ بالتّفصيل ـ الظُّرُوف السُّكَّانيَّة والسّياسيَّة والاجتماعيَّة في كَنْعَان في ذلك الوقت. كما سنُثبت في فصل لاحق؛ بدأ ظُهُور الإسرائيليِّين ـ بشَكْل تدريجي، كَمجموعة مُتميِّزة في كَنْعَان ـ في نهاية القرن الثّالث عشر ق. م، فقط، وليس هُناك أيُّ دليل آثاري مقبول يُثبت حُضُور الإسرائيليِّين في مصر مُباشرة قبل ذلك الوقت.



الشَّكْل رَقْم 6 : دلتا النّيل: أهمُّ المواقع المذكورة في قصَّة الخُرُوج.

هل كان حُدُوث خُرُوج جماعي مُحتملاً - أصلاً - في عهد رعمسيس الثّاني؟

نحنُ نعرف - اليوم - أنَّ مُشكلة حادثة الخُرُوج الجماعي لا تُحَلُّ - ببساطة - برَصْف مجموعة من التّواريخ والمُلُوك إلى جانب بعضها، وانتهى الأمر! إنَّ طَرْد الهكْسُوس من مصر عام 1570 ق. م، إنّما حَصَلَ عندما أصبح المصريُّون حذرين جداً من تغلغل الغُرَباء في أراضيهم. كما أنَّ التّأثير السّلبي الذي تركتهُ ذكريات عهد الهكْسُوس مثّل حالة عَقْليّة يجب مُلاحظتها في البقايا الآثاريَّة. لقد أصبح واضحاً - في السّنوات الأخيرة فقط - أنَّه مُنْذُ عهد المَمْلكة الجديدة فما بعد، أيْ ابتداءً من عهد طَرْد الهكْسُوس، شدَّد المصريُّون رَقَابَتهُم على الحُدُود الشّرقيَّة؛ ليمنعوا تدفُّق المُهاجرين من كَنْعَان إلى الدّلتا. لقد أسَّسوا نظاماً من الحُصُون على طُول حُدُود الدّلتا الشّرقيَّة، زوَّدوها بقُوَّات ومُديري حامية. تذكر سجلاَّت أوراق البردى - التي يعود عهدها إلى أواخر القرن الثّالث عشر قبل الميلاد - شدَّة مُراقبة قادة الحُصُون لتحرُّكات الأجانب: [أكملنا دُخُول قبائل شاسو الأدوميَّة Edomite Shasu [وبمعنى آخر: البدو] عبْر قلعة منفتاح - المُحتوى - مع - الحقيقة، الواقعة في تجكيو Tjkw، إلى بركَات (أحواض مياه) بر إيتم Pr Itm الموجودة في تجكيو Tjkw لمعيشة قطعانهم].

لهذا التّقرير أهميَّة من ناحية أُخرى: إنَّه يُسمّي أهمَّ موقعَيْن مذكورَيْن في الكتاب المُقدَّس العبْري عند الحديث عن الخُرُوج (الشّكْل 6)، فكلمة "سُكُّوتَ" Succoth (سفْر الخُرُوج 12 / 37؛ وسفْر العدد: 33 / 5) من المُحتمل أنْ تكون الشّكْل العبْري للكلمة المصريَّة تجكيو Tjkw، والذي يُشير إلى مكان أو منطقة في الدّلتا الشّرقيَّة بدأت تظهر في النُّصُوص المصريَّة مُنْذُ أيَّام السُّلالة التّاسعة عشرة؛ أيْ سُلالة رعمسيس الثّاني، وكلمة "فيثُومَ" Pithom (خُرُوج 1 / 11) هي الشّكْل العبْري لكلمة بيت "بر إيتم" pr itm [و التي تعني معبد] الإله آتوم Atum. يظهر هذا الاسم للمرَّة الأُولى في أيَّام المَمْلكة الجديدة في مصر.

في الحقيقة؛ هُناك اسمان آخران يظهران في قصَّة الخُرُوج التّوارتيَّة يبدوان مُلائمَيْن للحقيقة في دلتا الشّرقيَّة في عهد المَمْلكة الجديدة؛ الأوَّل: الذي سَبَقَ وأشرنا إليه أعلاه، هُو المدينة التي سُمّيتْ رعمسيس - بي - رمسيس Pi-Raamses -، أو "بيت رعمسيس" في اللُّغة

المصريَّة. بُنيت هذه المدينة في القرن الثَّالث عشر ق. م، كعاصمة للفرعون رعمسيس الثَّاني في الدَّلتا الشَّرقيَّة، وهي تقع على مقربة شديدة من بقايا آثار مدينة آفاريس Avaris. كانت الأعمال الشَّاقَّة في صناعة الطَّابوق، كما أتى وَصْفُهَا في القَصَص التَّوراتيَّة، ظاهرة شائعة في مصر، وتُصوِّرُ رُسُومات فنِّيَّة رُسِمَت على قبر مصري يعود تاريخه إلى القرن الخامس عشر ق. م، تجارة البناء الخاصَّة هذه بالتَّفصيل، وأخيراً: الاسم "مَجْدَلَ" Migdol، الذي يظهر في قصَّة الخُرُوج (سفْر الخُرُوج 14 / 2)، هُو اسم شائع في المَمْلَكَة الجديدة للحُصُون المصريَّة على الحُدُود الشَّرقيَّة للدَّلتا، وعلى طُول الطَّريق الدَّولي من مصر إلى كَنْعَان في شمال سيناء.

وهكذا كانت الحُدُود بَيْن كَنْعَان ومصر مُرَاقَبَةً عن كَثَب. إذا عبرت جماعة عظيمة من الإسرائيليِّين الفارِّين من خلال تحصينات حُدُود النِّظام الفرعوني تلك، فلابُدَّ أنْ يكون هُناك توثيق وتسجيل لمثل هذا الحَدَث الخطير، ولكنْ؛ ليس هُناك في أيٍّ من المصادر المصريَّة الوفيرة التي تصف زمن المَمْلَكَة الجديدة عُمُوماً أوالقرن الثَّالث عشر قبل الميلاد بشَكْل خَاصٍّ أيُّ إشارة إلى الإسرائيليِّين، وليس حتَّى مُجرَّد كلمة واحدة. نعرف أنَّ هُناك مجموعات بَدَوِيَّة من أدوم دَخَلَتْ مصر من الصَّحراء. تُشير مسَلَّة منفتاح إلى إسرائيل كَمَجموعة من النَّاس تعيش سابقاً في كَنْعَان، ولكنْ؛ ليس لدينا أيّ فكرة، ولا حتَّى كلمة واحدة، حول الإسرائيليِّين الأوائل في مصر: لا في النُّقُوش التَّذكاريَّة على حيطان المعابد، ولا في نُقُوش القُبُور، ولا في أوراق البردي. إسرائيل غائبة - سواء كَخَصْم مُحتمَل لمصر، أو كَصَديق، أو كأُمَّة مُستعبَدَة -. وببساطة؛ لا تُوجد هُناك أيُّ اكتشافات في مصر يُمكن رَبْطُهَا بفكرة مجموعة عرْقيَّة أجنبيَّة مُتميِّزة (في مُقابل فكرة تُركِّز العُمَّال المُهاجرين القادمين من أماكن عديدة) تعيش في منطقة مُتميِّزة من الدَّلتا الشَّرقيَّة، كما يُفهَم - ضمنيّاً - من القصَّة التَّوراتيَّة، التي تتكلَّم عن بني إسرائيل، الذين يعيشون سويَّة في أرض "جاسان" (سفْر التَّكوين 47 / 27)[1].

هُناك شيء أكثر: إنَّ هُرُوب أكثر من مجموعة صغيرة جداً من السَّيْطَرَة المصريَّة في عهد رعمسيس الثَّاني يبدو أمراً مُستبعداً جداً، مثله مثل عُبُور تلك المجموعة للصَّحراء ودُخُولهم

---

(1) نصُّ الآية: [وَسَكَنَ إِسْرَائِيلُ فِي أَرْضِ مِصْرَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ وَتَمَلَّكُوا فِيهَا وَأَثْمَرُوا وَكَثُرُوا جِداً.] (المُترجم).

إلى كَنْعَان؛ لأنَّ مصر ـ في القرن الثّالث عشر ـ كانت في قمَّة سُلطتها، بل كانت القُوَّة المُهيمنة في العالم. وكانت القبضة المصريَّة على كَنْعَان قويَّة؛ وكانت الحُصُون المصريَّة مبنيَّة في أماكن مُختلفة في البلاد، وكان المسؤولون المصريُّون يُديرُون شُؤُون المنطقة. في رسائل العمارنة، التي يعود تاريخها إلى قرن قبل ذلك، ذُكرَ لنا أنَّ وحدة من خمسين جُنْدياً مصرياً كانت كبيرة بما فيه الكفاية لقَمْع أيّ اضطراب في كَنْعَان. وخلال كُلّ فترة المَمْلَكَة الجديدة، زَحَفَتْ الجُيُوش المصريَّة الكبيرة ـ أكثر من مرَّة ـ عبْر أراضي كَنْعَان إلى الشّمال، إلى حُدُود نهر الفُرات في سُوريا. لذلك؛ كان الطّريق البرّيّ الرّئيسي، الذي يذهب من الدّلتا على طُول السّاحل الشّمالي لسيناء، وإلى غزَّة، وبعد ذلك إلى قلب كَنْعَان، ذا أهمّيَّة بالغة بالنّسبة للنّظام الفرعوني.

كان الامتداد الأكثر ضعفاً، أو بتعبير آخر؛ الأكثر عُرضة للاستفادة منه، من الطّريق الذي يعبر الصّحراء القاحلة والخطرة شمال سيناء، بَيْن الدّلتا وغزَّة، كان هُو الأكثر حمايةً. فكان هُناك نظام مُتطوِّر من الحُصُون المصريَّة، ومخازن القمح، والآبار أُسِّست على مسافة مسيرة يوم على طُول الطّريق، الذي دُعيَ طريق حورُس Horus. وقد مكَّنت محطَّات الطّريق هذه الجيشَ الإمبراطوريّ المصري من عُبُور شبه جزيرة سيناء بشَكْل مُلائم وكُفء، كُلَّمَا عنَّت الضّرورة. تُخبرنا سجلاَّت الفاتح المصري العظيم "تحتمُس الثّالث" بأنَّه زَحَفَ بقُوَّاته من الدّلتا الشّرقيَّة إلى غزَّة، وهي مسافة تبلغ حوالي 250 كيلومتراً، في عشرة أيّام. تُظهر تضاريس أرضيَّة في عهد والد رعمسيس الثّاني، الفرعون سيتي الأوَّل Seti I (حوالي 1300 ق. م)، خزَّانات الماء والحُصُون على شكل خريطة قديمة تتبَّع الطّريق من الدّلتا الشّرقيَّة إلى الحُدُود الجنوبيَّة الغربيَّة لكَنْعَان (الشّكْل رَقْم 7). تمَّ اكتشاف بقايا هذه الحُصُون أثناء التّحقيقات الآثاريَّة في شمال سيناء منْ قبَل "إليعازر أورين" Eliezer Oren من جامعة بن غُوريُون، في السّبعينات من القرن الماضي. اكتشف "أُورين" بأنَّ كُلَّ واحد من محطَّات الطّريق هذه، والذي يتوافق ـ بشَكْل كبير جداً مع خريطة التّضاريس المصريَّة القديمة المذكورة ـ كان يشمل ثلاثة عناصر: حصن قوي مصنوع من الطّابوق على النّمط النّموذجي المعروف للهندسة المعماريَّة العسكريَّة المصريَّة، وتجهيزات خزن للتّموينات الغذائيَّة، وخزَّان للماء.



الشَّكْل 7: نَقْش نافر يعود لعهد الفرعون سيتي الأوَّل (Seti I 1300 ق.م) ، نُقش على حائط في معبد آمون في الكَرْنَك ، تُصوِّر الخريطةُ الطَّريقَ الدّوليَّ من مصر إلى كَنْعَان على طُول السّاحل الشّمالي لشبه جزيرة سيناء. تمّت الإشارة إلى الحُصُون المصريَّة وخزّانات الماء في أسفل السِّجلّ.

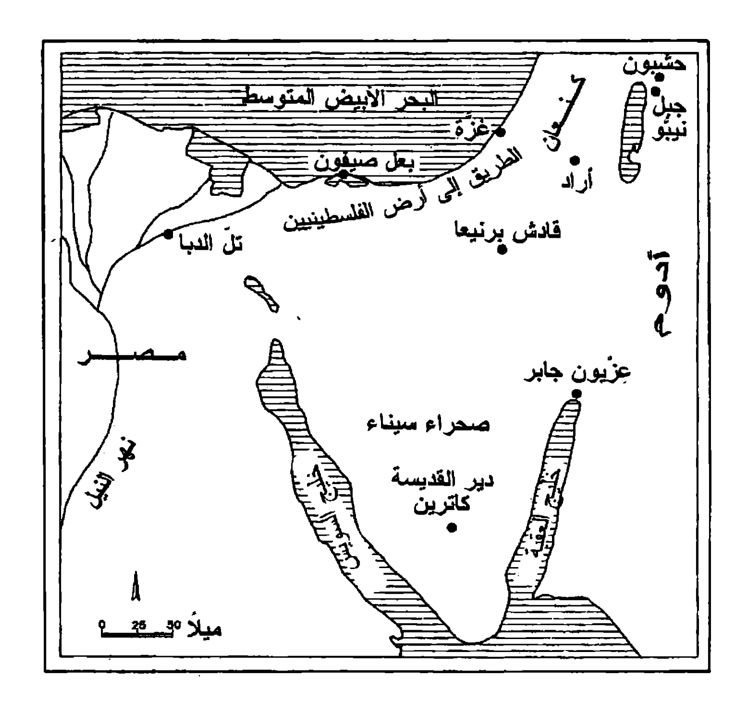
إذا وضعنا جانباً إمكانيَّة المُعجزات الإلهيَّة ، فإنَّه من الصَّعب جداً تقبُّل فكرة هُرُوب مجموعة كبيرة من العبيد من مصر ، عبْر التَّحصينات الحُدُوديَّة الشّديدة ، إلى الصَّحراء ، وبعد ذلك ؛ إلى كَنْعَان أثناء مثل هذا الحُضُور المصري الهائل ؛ أيْ مجموعة تُحاول الهُرُوب من مصر ضدَّ إرادة فرعون ، كانت سَتُتَعَقَّبُ بسُهُولة ، ليست - فقط - بواسطة جيش مصري يُطاردها من الدّلتا ، ولكنْ ؛ أيضاً منْ قِبَل الجُنُود المصريِّين المُتمركزين في الحُصُون المصريَّة في شمال سيناء ، وفي كَنْعَان .

في الحقيقة ؛ يُوجد في القصَّة التَّوراتيَّة ما يُلمِّح إلى خَطَر مُحاولة الهُرُوب بسُلُوك الطَّريق السّاحلي . لذا ؛ كان البديل الوحيد هُو التَّحوُّل إلى البقاع المُقفرة لشبه جزيرة سيناء ، لكنَّ إمكانيَّة تجوُّل وهُيام مجموعة كبيرة من النّاس في شبه جزيرة سيناء تتناقض - أيضاً - مع علْم الآثار .

الهائمون الشَّبحيُّون؟

طبقاً للقصَّة التَّوراتيَّة ؛ هَامَ بنو إسرائيل في صحراء وجبال شبه جزيرة سيناء ، وتحرَّكوا بسُهُولة فيها ، وأقاموا المُخيَّمات في أماكن مُختلفة ، لمُدَّة أربعين سنة (الشَّكْل رَقْم 8) . وحتَّى لو كان عدد الإسرائيليِّين الهاربين (الذي يذكر النَّصُّ التَّوراتي أنَّه كان ستُّمئة ألف) عدداً مُبالغاً فيه بشدَّة ، أو يُمكن أنْ يُترجَم بأنَّه يُمثِّل - في الواقع - وحدات أصغر من النّاس ، فإنَّ النَّصَّ التَّوراتي يصف بقاء عددٍ ضخمٍ من النّاس أحياءً من النّاس تحت أكثر الظُّرُوف الحياتيَّة صُعُوبةً . لابُدَّ أنْ تظهر هُنَاك بعض البقايا الأثريَّة لتجوالهم - على مدى جيل كامل - في سيناء ، ولكنْ ؛

ما عدا الحُصُون المصريَّة على طُول السّاحل الشّمالي، لم يتمَّ - أبداً - التَّعرُّف على أيِّ أثـر لأيِّ تخييم مُميَّز في سيناء، أو أيِّ إشارة ولـو واحـدة لاحتـلال أيِّ منطقـة مـن صحرائـها مُنْـذُ عـهد رعمسيس الثّاني، وأسلافه المُباشرين، أو خُلفائه. وليـس هـذا ناجمـاً عـن نَقْـص فـي مُحاولـة كَشْف مثل هذه الآثار، بل إنَّ الاستطلاعات الآثاريَّة المُتكرِّرة في كُلِّ منـاطق شبه الجزيـرة، بمـا في ذلك المنطقة الجبليَّة حول الموقـع التّقليـدي لجبـل سيناء، قُـرْب دير القدّيسة كـاثرين (انظُرْ المُلحق ب)، لم تُؤدِّ إلاَّ إلى نتيجة سـلبيَّة فحسـب، فليـس هُنـاك حتَّـى شـقفة فخَّاريَّـة وحيـدة، ولا بناء، ولا بيت واحد، ولا أثر لمُعسكر قديم. وقد يُجادل البعض بأنَّه لا يُمكن أنْ نتوقَّع من فرقة صغيرة نسبيّاً من الإسرائيليِّين التّائهين أنْ يتركوا خلفهم بقايا ماديَّة هامَّة تبقى عبْر القُرُون.



الشَّكْل 8: شبه صحراء سيناء، يظهر فيها أهمّ المواقع المذكورة في قصَّة الخرُوج.

لكنَّ التّقنيَّات الآثاريَّة الحديثة قادرة تماماً على اقتفاء آثار، حتَّى أدنى البقايا الضّئيلة جداً لمجموعة من الصيَّادين، أو البدو الرُّعاة في جميع أنحاء العالم.

في الحقيقة؛ السّجلُّ الآثاري لشبه جزيرة سيناء يكشف عن أدلَّة للنّشاط الرّعوي في مثل تلك العُصُور؛ كالألفيَّة الثَّالثة ق.م، وفي الفترات الهيلّينيَّة، والبيزنطيَّة، ولكنْ؛ وببساطة؛ لا يُوجد مثل هذا الدّليل في الوقت المُفترَض للخُرُوج الجماعي في القرن الثّالث عشر ق.م..

إنَّ الاستنتاج ـ بأنَّ الخُرُوج الجماعي لم يحدث، لا في الوقت، ولا حسب الطّريقة التي تذكرها التّوراة ـ يبدو غير قابل للدّحْض، عندما نبحث عن الشّواهد في المواقع المُعيَّنة التي قيل إنَّ بني إسرائيل خيَّموا فيها في الفترة الزّمنيَّة المُمتَدَّة أثناء هُيامهم وتيههم في الصّحراء (سفْر العدد: 33)، والتي كان لابُدَّ أنْ تُوجد فيها بعض المُكتَشَفَات، أو البقايا الأثريَّة المُؤيِّدة. طبقاً للقصَّة التّوراتيَّة، خيَّم بنو إسرائيل في "قادش بَرْنيع" لثمانية وثلاثين من السّنوات الأربعين من رحلاتهم.

إنَّ التّحديد العامَّ لهذا الموقع يَظهر ـ بوُضُوح ـ من وَصْف الحُدُود الجنوبيَّة لأرض إسرائيل المذكور في سفْر العدد: 34. وقد تمَّ التَّعرُّف عليه منْ قبَل عُلماء الآثار بأنَّه الواحة الكبيرة والمَسْقيَّة بشَكْل جيِّد لأُمّ القديرات في شرق سيناء، على الحُدُود بَيْن إسرائيل الحديثة [فلسطين المُحتلَّة] ومصر. ويبدو أنَّ الاسم قادش تمَّ الاحتفاظ به عبْر القُرُون بشَكْل اسم نَبْع صغير من الماء يُسمَّى حالياً "أُمّ قادس" Em Qadis. وتُوجد اليوم في مركز هذه الواحة كومة (أو تلّ) فيه بقايا حصن صغير يعود للعصر الحديدي المُتأخِّر، ولكنَّ كُلَّ التّنقيبات والاستطلاعات الأثريَّة المُتكرِّرة ـ لحَدّ الآن، في كافَّة أنحاء المنطقة ـ لم تُفلح في تزويدنا حتَّى بدليل واحد ـ على الأقلّ ـ لنشاط حياتي في العصر البرُونزي المُتأخِّر، فلم يتمَّ اكتشاف حتَّى مُجرَّد شقفة فخَّاريَّة وحيدة تَركَتْها وراءها جماعة صغيرة جداً من من اللاَّجئين الخائفين الهاربين.

أحد الأماكن الأُخرى التي تُحاول بعض التّقارير أنْ تجعله مكاناً يُعتقَد أنَّ بني إسرائيل أقاموا فيه مُخيَّمات هُو "عزيون ـ جبر" Ezion geber. وقد قاد ذكْره في مواضع أُخرى من الكتاب المُقدَّس (العبْري) كميناء لاحق على الرّأس الشّمالي لخليج العقبة، علماء الآثار إلى مُطابقته مع التَّلّ الواقع على الحُدُود الحديثة بَيْن إسرائيل والأُردُن، على مُنتصف الطّريق بَيْن بلدتَي إيلات والعَقَبة. وقد كَشَفَتْ التّنقيبات الأثريَّة هُنا في السّنوات 1938 ـ 1940 عن وُجُود بقايا هامَّة تعود

للفترة المُتأخِّرة من العصر الحديدي، لكنْ؛ لا أثر مُطلقاً لوُجُود استيطان في هذه المنطقة خلال الفترة المُتأخِّرة من العهد البرُونزي. من بيْن القائمة الطّويلة للمُخيَّمات في البَرِّيَّة، يُعَدُّ "قادش بَرْنيع" و"عزيون - جبر" Ezion geber الموقعَيْن الوحيدَيْن اللّذَيْن يُمكن التّعرُّف عليهما بنَحْو سليم ومضمون، ولكنْ؛ لم يتمّ اكتشاف أيّ أثر لإسرائيليّين تائهين في أيٍّ من هذَيْن الموقعَيْن!

وماذا عن الشُّعُوب والمُستوطنات الأُخرى في قصَّة تيه وتجوال الإسرائيليِّين؟ تروي القصَّة التّوراتيَّة كيف أنَّ الملك الكَنْعَاني عراد Arad، "السّاكن في الجنوب، حَارَبَ إسْرَائيل، وَسَبَى مِنْهُمْ سَبْياً"، ممَّا أغضبهم بشدَّة، لدرجة أنّهم دعوا الرَّبَّ أنْ ينصرهم على هؤلاء القوم؛ لكي يقوموا بتدمير جميع المُدُن الكَنْعَانيَّة (سفْر العدد 21 / 1 - 3).

كَشَفَتْ عشرون سنة - تقريباً - من التّنقيب المُركَّز في موقع تلّ عراد، شرق "بير شبع" (بئر سبع)، عن بقايا مدينة كبيرة تعود للفترة المُبكِّرة من العصر البرُونزي، وتمتدُّ على رُقعة كبيرة؛ مساحتها حوالي خمسة وعشرين هكتاراً، وعن حصن يعود للعصر الحديدي، ولكنْ؛ لم يتمَّ اكتشاف أيّ آثار أو بقايا من العصر البرُونزي المُتأخِّر - على الإطلاق - فيما يبدو دليلاً على أنَّ المكان كان مهجوراً تماماً في تلك الحقبة الزّمنيَّة. والأمر نفسه - تماماً - ينطبق على كُلّ وادي بئر سبع. وهذا يُبيِّن - بكُلّ بساطة - أنَّ "عراد" لم يكن لها أيُّ وُجُود في العصر البرُونزي المُتأخِّر.

الوضع نفسه نجده - بوُضُوح - في الضّفَّة الشّرقيَّة لنهر الأُردُن؛ حيثُ اضطُرَّ الإسرائيليُّون التّائهون للاشتباك في مدينة "حَشْبُونَ" عاصمة سيحُونَ مع مَلك الأمُوريِّين، الذي حاول مَنْعَ الإسرائيليِّين من المُرُور عبْر أرضه في طريقهم إلى كَنْعَان (سفْر العدد 21/ 21 - 25، سفْر التّثنية 2 / 24 - 35، سفْر القُضَاة 11 / 19 - 21).

فقد أظهرت التّنقيبات الأثريَّة في تلّ حسبان Hesban جنوب عمَّان؛ أيْ الموقع القديم لمدينة "حَشْبُونَ"، أنَّه لم تكن هُناك مدينة تعود للفترة المُتأخِّرة من العصر البرُونزي، بل؛ ولا حتَّى قرية صغيرة هُناك، بل هُناك ما هُو أكثر من ذلك. طبقاً للتّوراة؛ عندما تحرَّك بنو إسرائيل على طُول هضبة الضّفَّة الشّرقيَّة للأُردُن، اجتمعوا، وواجهوا مُقاومة ليس - فقط - في مُوآب، ولكنْ؛ أيضاً، منْ قبَل الدُّول الكاملة لأدوم وعمُّون. رغم ذلك؛ نعرف - الآن - بأنَّ هضبة الضّفَّة الشّرقيَّة للأُردُن إنَّما سكنَتْ - بشَكْل مُتناثر جداً - في العصر البرُونزي المُتأخِّر.

في الحقيقة؛ أكثر أجزاء هذه المنطقة ـ بما في ذلك أدوم، التي تروي التّوراة أنّها كانت دولة كاملة يحكمها ملك ـ لم تكن ـ في ذلك الوقت ـ مسكونة منْ قبَل سُكّان مُقيمين فيها بشَكْل دائم. بعبارة واضحة وبسيطة؛ إنَّ علْم الآثار يُبيِّن لنا أنَّه لم يكن هُناك مُلُوك لأدوم، يُمكن للإسرائيليّين أنْ يلتقوا بهم، أويجتمعوا معهم.

يجب أنْ يكون قد اتَّضح نَمَطُ الأُمُور حتَّى الآن. المواقع التي ذُكرت في قصَّة الخُرُوج التّوارتيَّة مواقع حقيقيَّة، بعضها كان مشهوراً ومسكوناً ـ على ما يبدو ـ في الفترات السّابقة بزمنٍ قديم جداً على تأسيس مَمْلَكَة يهُوذا، أو في الفترات الزّمنيَّة التّالية بوقت مُتأخّر جداً لتأسيس تلك المَمْلَكَة؛ أيْ عندما بدأت كتابة نصٍّ القصَّة التّوراتيَّة للمرَّة الأُولى. لسُوء حظٍّ أُولئك الذين يبحثون عن حادثة خُرُوج تاريخيَّة، لم تكن تلك المواقع مسكونة ـ بالتّحديد ـ في ذلك الوقت الذي ـ يُرْوَى ـ أنَّها (أيْ تلك المواقع) لعبت فيه دوراً في أحداث تيه وتجوال بني إسرائيل في البَرِّيَّة.

عودة إلى المُستقبل: الدّلائل التي تُشير إلى القرن السّابع ق.م:

إذنْ؛ أين يَضَعُنا ما تقدَّم كُلُّه؟ هل يُمكننا أنْ نقول بأنَّ الخُرُوج الجماعي، والتّيه، ـ والأهمّ من ذلك ـ إعطاء الشّريعة في سيناء، لا تمتلك أيَّ مُستوى من الحقيقة؟!

لقد تمَّ تضمين قصَّة الخُرُوج عديداً من العناصر التّاريخيَّة والجَغرافيَّة في فترات زمنيَّة عديدة جداً بنَحْوٍ أصبح من الصّعب معه تصوُّر وُقُوع مثل هذه الحادثة في فترة فريدة ووحيدة. هُناك الإيقاع المُستمرُّ (أو غير المُحدَّد بزمن مُعيَّن) للهجرات إلى مصر في العصر القديم. وهُناك الحادثة المُعيَّنة لهيمنة الهكْسُوس على الدّلتا في العصر البرُونزي المُتوسِّط. هُناك عناصر تُوحي بوُجُود مُشابهات في العصر الرّعمسيسي في مصر، مُترافقة مع أوَّل ذكْر لبني إسرائيل (في كَنْعَان، وليس مصر). كثير من أسماء الأماكن في سفْر الخُرُوج؛ مثل البحر الأحمر (في العبْريَّة: يام سوف)، ونهر الشّيحُور في الدّلتا الشّرقيَّة (سفْر يشُوع 13 / 3)، ومحطّات توقُّف الإسرائيليّين في "بي ـ ها ـ هيروث"، تبدو أسماء ذات أُصُول لُغويَّة مصريَّة، كُلُّها مُتعلّقة بجَغرافيَّة الخُرُوج الجماعي، لكنَّها لا تُعطي أيَّة إشارة واضحة لكونها تعود لفترة مُعيَّنة في التّاريخ المصري.

يتضمَّن الغُمُوض التّاريخي لقصَّة الخُرُوج الجماعي حقيقة أنّه لا تُوجد هُناك أيُّ إشارة بالاسم لأيِّ ملك مُعيَّن للمَمْلَكَة المصريَّة الجديدة (بَيْنما تذكر موادُّ توراتيَّة لاحقة الفراعنة بأسمائهم، على سبيل المثال "شيشانق" Shishak و"نكا (نخاو)" Necho). أمَّا تعريف رعمسيس الثّاني كَفرعون الخُرُوج؛ فقد جاء كَنتيجة لفَرَضيَّات علْميَّة حديثة مُستندة على مُطابقة المكان الذي اسمه (بي - رعمسيس) على الفرعون رعمسيس (سفر الخُرُوج 1 / 11؛ 12 / 37)، لكنْ؛ هُناك بضع صلات غير قابلة للجَدَل مع القرن السّابع ق.م.. ما عدا الإشارة المُبهَمة إلى خوف الإسرائيليِّين من سُلُوك الطّريق السّاحلي، لا يُوجد هُناك أيُّ ذكْر للحُصُون المصريَّة في شمال سيناء، أو لمعاقلهم في كَنْعَان. قد تعكس التّوراة حقيقة وُجُود مَمْلَكَة جديدة في مصر، لكنَّها قد تعكس - بالدّرجة نفسها - ظُرُوفاً تالية في العصر الحديدي، أقرب إلى الوقت الذي تمَّ تدوين قصَّة الخُرُوج فيه.

وذلك - بالضّبط - ما اقترحه عالم الآثار المصريَّة دُونالد ريدفُورد. أكثر التّفاصيل الجَغرافيَّة ثباتاً وتذكيراً في قصَّة الخُرُوج إنَّما جاءت من القرن السّابع ق.م، أثناء العصر العظيم لازدهار مَمْلَكَة يهُوذا؛ أيْ بعد ستَّة قُرُون من الزّمن المُفترَض لحُدُوث حادثة الخُرُوج الجماعي. لقد أظهر "ريدفُورد" - بوُضُوح - كم من التّفاصيل في قصَّة الخُرُوج يُمكن أنْ تُوضَّح في هذا الإطار الزّمني، الذي كان - أيضاً - آخر فترات السُّلْطَة الإمبراطُوريَّة لمصر، تحت حُكْم السُّلالة السّادسة والعشرين.

انتهج المُلُوك العُظماء لتلك السُّلالة، "بسناتيك الأوَّل" (1 Psammetichus 610 - 640 ق.م)، وابنه نكا (أو نَخَاو) Necho (610-595 ق.م)، بنَحْوٍمُتعمَّد وواعٍ، منهج وقالب فراعنة مصر القُدامى جداً. فكانوا نشيطين في بناء المشاريع في كافَّة أنحاء الدّلْتا، في مُحاولة لإعادة الأمجاد الزّائلة لدولتهم، وزيادة قُوَّتها الاقتصاديَّة والعسكريَّة. أسَّس "بسناتيك الأوَّل" عاصمته في سَيس Sais في الدّلْتا الغربيَّة (من هُنا؛ جاء اسم سيت للسُّلالة السّادسة والعشرين). أمَّا "نكا (أو نخاو)"؛ فقد انشغل في مشاريع أكثر طُمُوحاً في الدّلْتا الشّرقيَّة؛ حيثُ حَفَرَ قناة عبْر برزخ السُّويس؛ لكي يربط بَيْن البحر الأبيض المُتوسِّط والبحر الأحمر من خلال آخر روافد النّيل الشّرقيَّة. وقد كَشَفَتْ التّنقيبات الأثريَّة في منطقة الدّلْتا الشّرقيَّة بعض تلك النّشاطات العُمرانيَّة الاستثنائيَّة التي قامت بها السُّلاسلة السّيتيَّة Saite Dynasty، وحُضُور أعداد كبيرة من المُستوطنين الأجانب هُناك.

في الحقيقة ؛ يُزوِّدنا عصر السُّلالة السّيتيَّة بأحد أفضل الأمثلة التّاريخيَّة عن ظاهرة استقرار أجانب في دلتا النّيل . بالإضافة إلى المُستعمرات التّجاريَّة اليُونانيَّة ، التي أُسِّست هُناك مُنْذُ النّصف الثّاني للقرن السّابع ق . م ، كان العديد من المُهاجرين من يهُوذا مُقيمين في الدّلتا ، مُشكِّلين جالية كبيرة في أوائل القرن السّادس ق . م (سفْر أرميا 44 / 1 ؛ 46 / 14) . علاوةً على ذلك ، تتوافق الأشغال العامَّة التي بدأت في تلك الفترة - بشكْل كبير - مع التّفاصيل المَرْويَّة في قصَّة الخُرُوج التّوراتيَّة . وعلى الرّغم من أنَّ الموقع الذي يحمل الاسم "فيثُوم" Pithom مذكور في نصٍّ قديم يعود للقرن الثّالث عشر ق . م ، إلاَّ أنَّ مدينة "فيثُوم" المشهورة والأكثر بُرُوزا إنَّما بُنيت في أواخر القرن السّابع ق . م . . لقد قادت النُّقُوش التي وُجدت في تلّ مسخوطة Tell Maskhuta في الدّلتا الشّرقيَّة ، عُلماء الآثار إلى مُطابقة هذا الموقع مع " فيثُوم" Pithom التي وُجدت في وقت تال . كَشَفَتْ التّنقيبات الأثريَّة هُناك بأنّه - باستثناء فترة استيطان قصيرة حَدَثَتْ في العصر البرُونزي المُتوسِّط - لم تُصبح المدينة مأهولة - بشَكْل كامل - بالسُّكَّان إلاَّ في وقت السُّلالة السّادسة والعشرين ، عندما تطوَّرت مدينة هامَّة هُناك .

على المنوال نفسه ؛ اسم "مَجْدَل" Migdol (الذي ذُكر في سفْر الخُرُوج 14 / 2) هُو عُنوان مُشترَك لحصن وُجدَ في عهد المَمْلَكَة المصريَّة الجديدة ، لكنَّه - في الوقت نفسه - اسم خاصٌّ ومُهمٌّ جداً ، ومعروف في الدّلتا الشّرقيَّة في القرن السّابع ق . م . . وليس مُصادفة أنَّ النّبي أرميا ، الذي عاش في أواخر القرن السّابع وأوائل القرن السّادس ق . م ، يُخبرنا (44 / 1 ؛ 46 / 14) عن يهُود يعيشون في الدّلتا ، ويذكر اسم "مَجْدَل" Migdol بشَكْل مُحدَّد .

أخيراً ؛ الاسم "جَاسَانَ" - الذي ذُكر كَاسم للمنطقة التي استقرَّ فيها الإسرائيليُّون في الدّلتا الشّرقيَّة (التّكوين45 / 10) - ليس اسماً مصريّاً ، بل اسم ساميّ . مُنْذُ بدايات القرن السّابع ق . م ؛ توسّع العَرَب القيداريُّون إلى حوافِّ الأراضي الشّرقيَّة ، وفي القرن السّادس ق . م ، وَصَلُوا إلى الدّلتا ، ثُمَّ أصبحوا - لاحقاً ، في القرن الخامس - عاملاً مُهيمناً في الدّلتا . طبقاً لريدفُورد ، يُشتقُّ الاسم "جاسان" من "جيسيم" Geshem اسم الأُسرة المَلَكيَّة القيداريَّة .

تتجلَّى خلفيَّة القرن السّابع ق . م - بنَحْو واضح ، أيضاً - في بعض الأسماء المصريَّة الغريبة التي ذُكرت في قصَّة يُوسُف التّوارتيَّة . كُلُّ الأسماء الأربعة : صَفْنَاتَ فَعْنيحَ Za p henath

paneah (الوزيـر الكبـير للفرعـون)، و"فُوطيفـار" Potiphar (الضّـابط المَلَكـي)، وفُوطـي فَـارَعَ P otiphera (اســم كـاهن)، وأسْـنَاتَ A senath (بنـت فُوطـي فَـارَعَ Potiphera الكاهن)[1]، رغم أنَّها استُخدمت من حين لآخر في الفترات السّابقة من التّاريخ المصري، إلاَّ أنَّها لم تُصبح أسماء شعبيَّة جـداً إلاَّ في القرنَيْـن السّابع والسّادس ق. م. . ومثـال آخر علـى تفاصيل تبدو عَرَضيَّة في القصَّة، وتُثبت ما نحنُ بصَدَده من أنَّ القصَّة التّوراتيَّة قـد تمَّ تكميلـها وإقحام العديد من التّفاصيل ـ التي تنتمي لفترة زمنيَّة مُعيَّنة ـ فيها: الإشارة إلى الخـوف المصـري من غزو مُحتمَل من جهة الشّرق. لم تتعرَّض مصر ـ أبداً ـ للغزو من جهة الشّرق قبل هجمـات الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة في القرن السّابع ق. م. . رغم ذلك؛ نجـد فـي قصَّـة يُوسُـف، تصعيـداً لتوتُّر مُفاجئ عندما يتَّهم يُوسُفُ إخوتَهُ، الذيـن كـانوا قـد وَصَلُـوا لتوهّـم مـن كَنْعَـان، بأنَّـهم: [جَوَاسيسُ أَنْتُمْ! لتَرُوا عَوْرَةَ الأَرْض جئتُمْ!] (تكوين 42/ 9). وفي قصَّة الخُـرُوج الجمـاعي؛ يخـاف فرعـون مـن أنْ يتعـاون الإسـرائيليُّون المُغـادرون مـع العـدوِّ. هـذه اللّمسـات الخاصَّـة، لا يُمكـن أنْ يكـون لـها معنى مفـهوم إلاَّ بعـد مُضـيِّ العـهد العظيـم للقُـوَّة المصريَّـة فـي الفـترة الرّعمسيسيَّة؛ حيثُ يُمكن فَهْمُهَا على خلفيَّة الغزوات المُتعـدِّدة، التـي أصبحـت تتعـرَّض لـها مصر ـ التي ضعفت قُوَّتها العسكريَّة لحَدٍّ كبير ـ منْ قبَل الآشُوريِّين، والبـابليِّين، والفُـرس، فـي القرنَيْن السّابع والسّادس ق. م. .

أخيراً؛ كُلُّ الأماكن الرّئيسيَّة التي لعبت دوراً في قصَّة تيه الإسرائيليِّين، إنَّما سُـكنَتْ فـي القرن السّابع ق. م؛ وفي بعض الحالات؛ لم تُسْتوطَن إلاَّ فـي ذلـك الزّمـان فقـط. كـان هُنـاك حصن كبير قد تمَّ إنشاؤه في "قادش بَرْنيع" في القرن السّـابع ق. م. . هُنـاك خـلاف بَيْـن عُلمـاء الآثار حول هُويَّة بُناة الحصن، فمنهم مَنْ يرى أنَّه كان مخفراً أماميّاً فـي أقصـى جنـوب مَمْلَكَـة "يُداب" Judab على طُرُق الصّحراء في أواخر القرن السّابع ق. م، في حين يراه آخرون حصنـاً بُني في أوائل القرن السّابع ق. م، تحـت رعايـة آشُوريَّة. وعلـى كـلا الرّأيَيْـن فـإنَّ ذلـك الموقـع البارز جداً في قصَّة الخُرُوج الجماعي كَمَكَان إقامة المُخيَّمات الرّئيسي للإسرائيليِّين، كان مُهمّاً ـ وربَّما مخفراً صحرائيّاً أماميّاً مشهوراً ـ في الفـترة المَلَكيَّة المُتـأخِّرة. وكذلـك؛ لـم يزدهـر الميـنـاء

---

(1) انظُرْ سفر التكوين: 41/ 45. (المُترجم).

الجنوبي "عزيون جبر" Ezion geber إلاَّ في هذه الفترة. وعلى المنوال نفسه، لم تُصبح ممالك الضفَّة الشّرقيَّة للأُردُن مواقع مشهورة وآهلة - بشَكْل جيِّد - بالسُّكَّان إلاَّ في القرن السَّابع ق.م.. وأكثر تلك الممالك أهميَّة في ذلك الموضوع حالة مَمْلَكَة "أدوم". تروي التَّوراة كيف أرسل مُوسى مبعوثين من "قادش بَرْنيع" إلى ملك "أدوم"، طالباً منه السَّماح بعُبُور أراضيه في الطَّريق إلى كَنْعَان. وقد رَفَضَ ملك أدوم مَنْحَ الرُّخصة للإسرائيليِّين الذين اضطُرُّوا لتجاوز أرضه. إذنْ؛ طبقاً للقصَّة التَّوراتيَّة؛ كان هُناك مَمْلَكَة في أدوم في ذلك الوقت. هذا؛ في حين تُشير التَّحقيقات الآثاريَّة إلى أنَّ أدوم لم تصل إلى حالة دولة إلاَّ تحت الرِّعاية الآشُوريَّة في القرن السَّابع ق.م.. أمَّا قبل تلك الفترة؛ فلم تكن أدوم سوى منطقة هامشيَّة مسكونة بشَكْل مُتناثر، يقطنها - بشَكْل رئيسي - جماعات من البدو الرُّعاة. ولا يقلُّ أهميَّة عن ذلك، أنَّ مَمْلَكَة أدوم تمَّ تدميرها منْ قِبَل البابليِّين في القرن السَّادس ق.م، ولم تتعافَ من هذا الدَّمار وتعود لنشاطها الاستيطاني إلاَّ في العُهُود الهيلِّينيَّة.

تقترح كُلُّ هذه الإشارات بأنَّ قصَّة الخُرُوج الجماعي أخذت شَكْلَهَا النِّهائي في عهد السُّلالة السَّادسة والعشرين؛ أيْ في النِّصف الثَّاني من القرن السَّابع والنِّصف الأوَّل من القرن السَّادس ق.م.. تُبيِّن العديد من الإشارات - المذكورة في تلك القصَّة التَّوراتيَّة - والتي تتحدَّث عن أماكن وأحداث مُعيَّنة لم تُوجد إلاَّ في تلك الفترة الزَّمنيَّة، تُبيِّن - تماماً، وبشَكْل واضح - أنَّ مُؤلِّفيها أَقْحَمُوا العديدَ من التَّفاصيل المُعاصرة في تلك القصَّة. (يُشبه ذلك - بنَحْو كبير جداً - ما نجده في بعض المخطوطات الأُورُوبيَّة، التي يعود زمنها إلى القُرُون الوُسْطَى، والتي تتحدَّث عن الشَّرق الأوسط في العُصُور الوُسْطَى، فتُصوِّر مدينة أُورشليم (القُدْس) كَمَدينة أُورُوبيَّة ذات أبراج وشُرفات، وذلك لكي تُصعِّد من تأثيرها المُباشر على القُرَّاء المُعاصرين).

كان من المُمكن أنْ تكون هُناك قَصَص أقدم، وأقلّ أُسطُوريَّة، تتحدَّث عن التَّحرُّر من مصر، تمَّ نَسْجُهَا بشَكْل ماهر؛ لتُصبح مَلْحَمَة قويَّة، استعارت مناظر طبيعيَّة معروفة، وآثار باقية، ومناطق مألوفة.

لكنْ؛ هل هُو مُجرَّد تصادف أنْ تكون التَّفاصيل الجُغرافيَّة والعرْقيَّة لكلا قَصَص الآباء في سفْر التَّكوين وقصَّة الخُرُوج في سفْر الخُرُوج، علامات واضحة على إعدادها في القرن السَّابع

ق. م؟ هل تمّ تضمين تلك القَصَص لُبّاً وجوهراً من الحقيقة التّاريخيَّة الأقدم زمناً؟ أم كانت القَصَص الأساسيَّة قد تمّ تأليفها - لأوّل مرَّة - في ذلك الوقت ؟

تحدّي الفرعون الجديد:

من الواضح أنّ قصّة التّحرير من مصر لم تعدْ كَعَمَل جديد مُبتكَر من أساسه في القرن السّابع ق. م، بل إنّ الخُطُوط العامّة الرّئيسيَّة للقصّة قد عُرفت - بالتّأكيد - قبل فترة طويلة من ذلك الوقت، كما نُلاحظ ذلك مثلاً في التّلميحات إلى الخُرُوج الجماعي والتّيه في البَرِّيَّة التي تضمَّنها كُلٌّ من وحي سفْر النّبيّ عاموس (2/ 10، و3/ 1و9/ 7)، وسفْر النّبيّ هُوشع (11/ 1، و13/ 4)، قبل قرن كامل. كلاهما يشتركان في ذاكرة حَدَثٍ تاريخيٍّ عظيمٍ، يتعلّق بالتَّحرُّر من مصر، ووقع في الماضي البعيد، لكنَّها أيّ نوع من الذّاكرة كانت؟

يرى عالم الآثار المصريَّة "دُونالد ريدفُورد" Donald Redford أنّ الأحداث العظيمة لاحتلال الهكْسُوس لمصر، ثُمَّ طردهم العنيف من الدّلتا، بقيت أصداؤها تُدوّي لعدَّة قُرُون في أذهان الكَنْعَانيّين، حتَّى أصبحت ذكرى مركزيَّة مُشتركة لدى كُلّ شعب كَنْعَان. هذه القَصَص لمُستعمرين كَنْعَانيّين استقرُّوا في مصر، حتَّى وَصَلُوا إلى السَّيطَرَة على منطقة الدّلتا، ثُمَّ أُجبروا بعد فترة على العودة إلى وَطَنهم، كان يُمكن توظيفها كَوَسيلة للتّضامن ومُقاومة السَّيْطَرَة المصريَّة على كَنْعَان التي تعاظمت أثناء العصر البرُونزي المُتأخِّر. كما سنرى، مع الاستيعاب النّهائي للجماعات الكَنْعَانيَّة العديدة، في الأُمَّة المُتبلورة لإسرائيل، ربَّما تكون تلك الصُّورة القويَّة قد نَمَتْ لما تُمثّله من أهميَّة بالنّسبة لحُرِّيَّة تلك الجماعات الآخذة بالاتّساع بشَكْل مُطّرد. وفي هذا الإطار؛ لابُدَّ أنْ تكون قصَّة الخُرُوج، في عهد مَمْلَكتي إسرائيل ويهُوذا، قد ثبتت، وتواصلت، ونَمَتْ، وتطوَّرت، لتُصبح قصَّة وَطَنيَّة: نداء إلى الوحدة الوَطَنيَّة في وجه التّهديدات المُستمرَّة للإمبراطُوريَّات العظيمة.

إنَّه من المُستحيل الجزم بصحَّة أو خطأ القول بأنّ القصَّة التّوراتيَّة كانت توسُّعاً وإسهاباً لذكريات مُبهَمَة لهجرة كَنْعَانيّين إلى مصر، ثُمَّ طردهم من الدّلتا في الألفيَّة الثّانية ق. م، إلاّ أنّه من الواضح أنّ القصَّة التّوراتيَّة للخُرُوج الجماعي، اشتقَّت قُوَّتها ليس من التّقاليد القديمة

والتّفاصيل الجَغرافيَّة والسُّكَّانيَّة المُعاصرة فحسب ، بل اشتقَّت قُوَّتها - بدرجة أكبر مُباشـرة - من الحقائق السّياسيَّة المُعاصرة .

كان القرن السّابع عهد إحياء عظيم في كلا مصر ويهُوذا . في مصر ، بعد مُـدَّة طويلة من الانحطاط ، وسنوات صعبة من الخُضُوع للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة ، استولى الملك "بسناتيك" Psammetichus على السُّلْطَة ، وحوَّل مصر إلى قُوَّة دوليَّة رئيسيَّة من جديد . وعندما بدأت الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة بالانهيار ، تحرَّكت مصر لملء الفراغ السّياسي ، فاحتلَّت أراضٍ آشُوريَّة سابقة ، وأسَّست فيها حُكْماً مصريَّاً دائماً ، بَيْن 640 - 630 ق . م ، وعندما سَحَبَ الآشُوريُّون قُوَّاتهم من : "فلسْطْيا" Philistia و"فينيقيا" Phoenicia ، ومنطقة مَمْلَكَة إسرائيل السّابقة ، سيطرت مصر على أغلب تلك المناطق ، وبهذا ؛ حلَّتْ الهيمنة السّياسيَّة لمصر محلَّ النّير الآشُوري .

أمَّا في يهُوذا ؛ فيُوافق ذلك الزّمانُ عـهدَ حُكْم الملك "يُوشيًّا" . في ذلك الزّمن ، كانت عقيدة أنَّ "يَهْوَه" سيُنجز - في النّهاية - وُعُودَهُ التي أعطاها للآباء ، ولمُوسى ، وللملك داود ، بتحويل شعب إسرائيل لشعب كبير ومُوحَّد يعيش آمناً في أرضه ، عقيدةً سياسيَّة ورُوحيَّة قويَّة لدى رعايا الملك "يُوشيًّا" . من هُنا ؛ بدأ "يُوشيًّا" مُحاولةً طموحةً لتوحيد كُلِّ الإسرائيليِّين تحت حُكْمه ، مُستفيداً من الانهيار الآشُوري . كان برنامجه أنْ يتوسَّع إلى المناطق الواقعة شمال يهُوذا ؛ حيثُ كان الإسرائيليُّون مايزالون يعيشون بعد مُضيِّ قرن على سُقُوط دولتهم : مَمْلَكَة إسرائيل ، بيد الآشُوريِّين ، وذلك ليُحقِّق حُلم إقامة حُكْم مَلَكي مُوحَّد ومجيد : تحت ظلِّ دولة كبيرة وقويَّة لكُلِّ الإسرائيليِّين الذين يعبدُون إلـهاً واحداً في معبد واحد في عاصمة واحدة - أُورشليم (القُدْس) - يحكمها ملك واحد من ذُرِّيَّة داود .

وبناءً على ما سَبَقَ ؛ كان هُناك تعارض مُباشر بَيْن طُمُوحات مصر الكبيرة ؛ لتوسيع إمبراطُوريَّتها وطُمُوحات دولة يهُوذا الصّغيرة جداً ؛ لضَمِّ أراضي مَمْلَكَة إسرائيل السّابقة ليهُوذا ، وتحقيق الاستقلال التّامّ لها . لذلك ؛ وقفت مصر السُّلالة السّادسة والعشرون - بتطلُّعاتها الإمبراطُوريَّة - في وجه تحقيق "يُوشيًّا" لأحلامه . هُنا ؛ أصبحت صُور وذكريات الماضي ذخيرة هامَّة في ذلك الامتحان الوَطَني لصُمُود وإرادة بني إسرائيل في وجه فرعون وقُوَّاد عجلاته الحربيَّة .

بناءً على ما تقدَّم؛ يُمكننا أنْ ننظر لتأليف قصَّة الخُرُوج الجماعيّ من منظور جديد تماماً، لحَدٍّ مُدهش. تماماً؛ كما تمَّت كتابة قَصَص الآباء بدَمْج عدَّة تقاليد نصيَّة قديمة مُتفرِّقة مع بعضها البعض، لتُؤدِّي وظيفة إحياء وَطَني في يهُوذا القرن السّابع ق.م، كذلك خَدَمَتْ القصَّة المُوسَّعة جداً للنّزاع مع مصر - وللقُوَّة العُظْمَى لإله إسرائيل في إنقاذه الإعجازيّ لشعبه - في تأدية هدف سياسيٍ وعسكريٍ مُباشر وفوري بدرجة أكبر. لابُدَّ أنْ تكون القصَّة العظيمة لبداية جديدة وفُرصَة ثانية لتحقيق ذلك المجد قد رنَّت في وعي قُرّاء القرن السّابع، مُذكِّرةً إيَّاهم بصُعُوباتهم الخاصَّة، ومانحةً إيَّاهم الأمل في المُستقبل.

كان موقف دولة يهُوذا من مصر، في أواخر العهد المَلَكي، على الدّوام، موقفاً تختلط فيه الرّهبة مع الاشمئزاز. من جهة، وفَّرت مصر دائماً ملاذاً لكَنْعَان في أوقات المجاعة، وملجأً آمناً يلجأ إليه الهاربون، كما كان يُنْظَر إلى مصر كَحَليف مُحتمَل ضدَّ الغزوات من الشّمال. وفي الوقت نفسه؛ كان هُناك - دائماً - شكٌّ وعداوة تجاه الجار الجنوبي الكبير، الذي كانت طُمُوحاته، مُنْذُ قديم الزّمان، السَّيطَرَة على المعبر البرِّي الحَيَوي المُتمثِّل بأرض إسرائيل شمالاً نحو آسيا الصُّغْرَى وبلاد ما بَيْن النَّهرَيْن. والآن؛ هُناك في يهُوذا زعيم شابٌّ مُستعدٌّ لمُواجهة فرعون العظيم، لذلك؛ فقد تمَّت صياغة مَلْحَمَة شاملة فريدة، انطلاقاً من تقاليد قديمة ومصادر مُختلفة مُتعدِّدة، بغرض تعزيز ودَعْم أهداف الملك "يُوشيَّا" السّياسيَّة.

لابُدَّ أنَّ هُناك طبقات أُخرى جديدة أُضيفت إلى قصَّة الخُرُوج الجماعي في القُرُون اللاَّحقة أثناء النَّفْي في بلاد بابل، وما بعده. لكنْ؛ يُمكن أنْ نرى - الآن - كيف جاء التّأليف المُدهش سويَّة تحت ضغط نزاع مُتصاعد مع مصر في القرن السّابع ق.م.. وعليه؛ فليست قصَّة خُرُوج بني إسرائيل بشَكْل جماعي من مصر حقيقة تاريخيَّة، ولا هي خيال قَصَصي محض. إنَّها تعبير قوي عن الذّاكرة، وعن الأمل، وكَذَا في عالم يعيش وسط تغيُّرات مُهمَّة. عكست المُجابهة بَيْن مُوسى وفرعون، المُجابهة بالغة الأهميَّة بَيْن الملك الشَّاب "يُوشيَّا" والفرعون المُتوَّج حديثاً "نخاو" Necho. إنَّ تجميد تلك الصُّورة التّوراتيَّة في تاريخ مُحدَّدٍ وحيد، هُو - في الواقع - خيانة للمعنى الأعمق للقصَّة. لقد أثبت عيد الفصح أنَّه ليس حَدَثاً وحيداً، بل هُو تجربة مُستمرَّة للمُقاومة الوَطَنيَّة ضدَّ قوى مُفْتَرَضَة.

الفَصْل (3):

غزو كَنْعَان

لم يكن لقَدَر إسرائيل الوَطَني أنْ يتحقَّق إلاَّ في أرض كَنْعَان فقط. يحكي لنا سفْر "يشُوع" قصَّة حَمْلَة عسكريَّة خاطفة، هُزمَ - خلالها - مُلُوك كَنْعَان الأقوياء؛ لترث القبائل الإسرائيليَّة أراضيهم. كانت قصَّة انتصار شعب الله على وَثَنيِّين مُتغطرسين، وكانت مَلْحَمَة خالدةً لفَتْح حُدُود جديدة، واحتلال مُدُن جديدة، كان على المُنهزمين فيها أنْ يُعانوا من العُقُوبات النّهائيَّة للطَّرْد، وفقدان المُمتلكات، والموت. إنَّها قصَّة حرب مُثيرة، قصَّة البُطُولة، والخدعة، والثَّأر المُرّ، رَوَتْ - كَبَعض أكثر قَصَص التّوراة حَيَويَّة - سُقُوط جُدران أريحا، وُقُوف الشّمس عن الحَرَكَة في "جبْعُون"، واحتراق المدينة الكَنْعَانيَّة العظيمة "حَاصُور". والقصَّة تُمثِّل - كذلك - مقالة جَغرافيَّة مُفصَّلة حول المنظر الطّبيعي لكَنْعَان، وتفسيراً تاريخيّاً لكَيفيَّة حُلُول كُلّ قبيلة من قبائل بني إسرائيل الاثنتَيْ عشرة في ميراثها الإقليمي التّقليدي ضمن الأرض الموعودة.

ولكنْ؛ إذا كان خُرُوج الإسرائيليِّين الجماعي لم يحدث بالشَّكْل الموصوف في التّوراة، كما رأينا، فماذا عن غزو كَنْعَان نفسه؟ الواقع؛ أنَّ الإشكالات هُنا أعظم وأكبر؛ إذْ كيف أمْكَنَ لجيش مُمزَّق، يرتحل أفراده مع نساء وأطفال وشُيُوخ، قد قدِّم - بعد عُقُود من التّيه في الصّحراء - أنْ يرتقي لإمكانيَّة القيام بغزوٍ فعّال؟ كيف أمْكَنَ لمثل هذا الرّعاع الفوضوي غير المُنظَّم أنْ يتغلّب على القلاع العظيمة لكَنْعَان، وجُيُوشها المُحترفة، وفيالق عَرَبَاتها المُدرَّبة جيِّداً؟

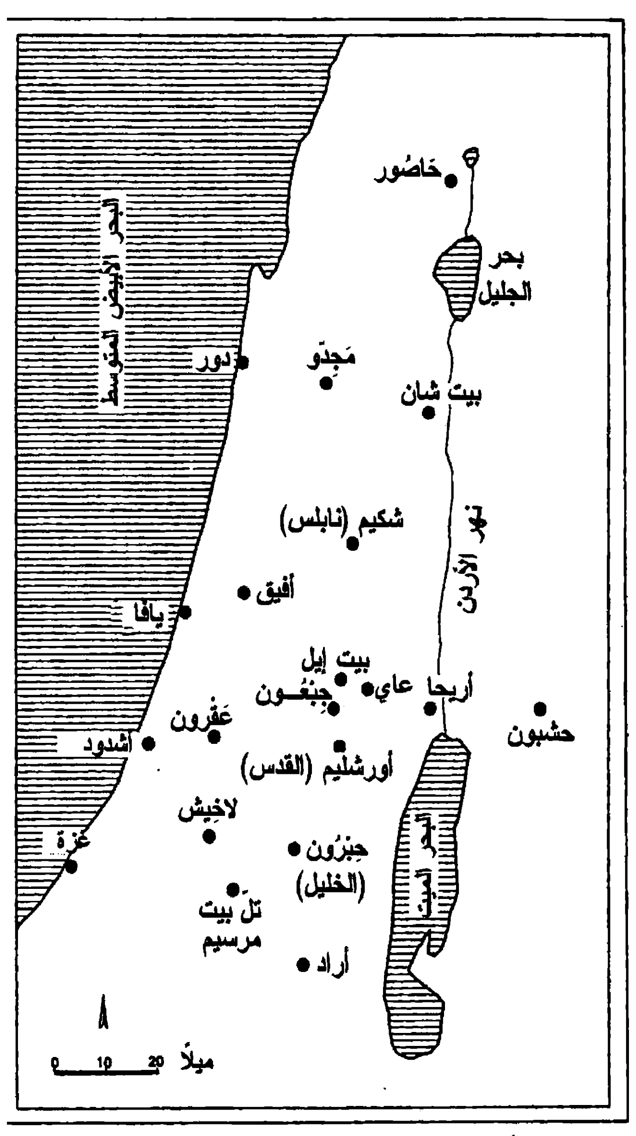
هل حَدَثَ غزوٌ لكَنْعَان حقّاً؟ هل هذه القصَّة المركزيَّة للتّوراة وتاريخ إسرائيل اللاَّحق، تُمثِّل تاريخاً واقعيّاً، أم أُسطُورة؟ على الرّغم من حقيقة أنَّ المُدُن القديمة مثل "أريحا"، "عاي"، "جبْعُون"، "لَخيش"، "حَاصُور"، وتقريباً؛ كُلُّ المُدُن الأُخرى المذكورة في قصَّة الغزو قد تمَّ - فعلاً - تحديد مكانها، وتنقيبها، إلاَّ أنَّ الدّليل على حُصُول الغزو التّاريخي لكَنْعَان منْ قبَل

الإسرائيليِّين ـ كما سنرى ـ دليل ضعيف. هُنـا أيضـاً، يُمكـن للأدلَّـة الآثاريَّـة أنْ تُسـاعدنا علـى تمييز أحداث التّاريخ الحقيقيَّة من الصُّور القويَّة للقصَّة التّوراتيَّة الباقية.

خُطَّة معركة يشُوع:

تبدأ قصَّة الغزو في آخر أسفار مُوسى الخمسـة؛ أيْ سفْر التّثنية، عندمـا نعلـم أنَّ مُوسـى ـ الزّعيم العظيم ـ لن يعيش ليقود بني إسرائيل ـ بنفسه ـ إلى كَنْعَان، بل كان على مُوسى ـ كَأَحَد أفراد الجيل الذي عانى شخصياً مرارة الحياة في مصر ـ أنْ يموت هُو ـ أيضاً ـ دُون دُخُول الأرض الموعودة. قبل موته ودَفْنه على جبل نيبو في مُوآب؛ أكَّد مُوسى على أهمِّيَّة مُراعـاة قوانين الله كَمفتاح للنّصر في الغزو القادم، وطبقاً لأوامر الله؛ أوصى لمُساعده القديم يشُوع بن نُون بقيادة الإسرائيليِّين. بعد أجيال من العُبُوديَّة في مصر، وأربعين سـنة مـن التّيـه فـي الصّحـراء؛ وَقَـفَ الإسرائيليُّون ـ الآن ـ علـى حُدُود كَنْعَان ذاتـها، يفصلـهم النّهر عـن الأرض التـي عـاش فيـها أسلافهم: إبراهيم، وإسحاق، ويعقُوب. في هذا الوقت؛ أَمَرَ الله أنْ تُطَهَّر الأرض من كُلّ أثر لعبادة الأوثان، وكان هذا يستلزم إبادة الكَنْعَانيِّين بشَكْل تامٍّ.

زحف الإسرائيليُّون ـ بسُرعة ـ تحت قيادة يشُـوع ـ الجنرال الرّائـع الـذي كـان يتمتَّـع بذكـاء المُفاجـأة التّكتيكيَّـة ـ مـن نصـر إلـى آخـر فـي سلسـلة مُذهلـة مـن الحصـارات ومعـارك الحُقُـول المفتوحة. تمَّت السَّيْطَرَة ـ فوراً ـ على مدينة أريحا القديمة في الضَّفَّة الغربيَّة للأُردُن، وهُـو موقـعٌ كان لابُدَّ للإسـرائيليِّين أنْ يستولوا عليـه، حتَّـى يتمكّنـوا مـن تأسيس رأس جسـر. فيمـا كـان الإسرائيليُّون يستعدّون لعُبُور الأُردُن؛ أرسل يشُوع جاسوسَـيْن إلـى أريحـا؛ لاستطلاع أخبـار استعدادات العدوِّ وقُوَّة تحصيناته. عاد الجاسوسان بأخبار مُشجِّعة (زوَّدتْهُمَا بها عـاهرة تُسـمَّى "راحَـاب") تُفيـد بـأنَّ السُّـكَّان استـولى عليـهم الخـوف، مـن الآن، بسـبب أخبـار اقـتراب الإسرائيلين. عَبَرَ شعب إسرائيل نهر الأُردُن فوراً، يتقدَّمه تابوت العـهد الـذي يقـود المُعسكر. إنَّ قصَّة الغزو اللاَّحقة لأريحا مشـهورة ومعروفـة لدرجـة تُغنينـا عـن إعـادة روايتـها هُنـا: اتَّبـع الإسرائيليُّون أوامر الله، التي بلَّغهم إيَّاها يشُوع، وزحفوا بجدّيَّة، حتَّى أحـاطوا بأسـوار المدينـة العاليـة، وفـي اليـوم السّـابع، مـع انفجـار أبـواق حـرب الإسـرائيليِّين التـي تُصيـب بـالصَّمَم، تساقطت الأسوار الهائلة لأريحا (يشُوع 6).



الشَّكْل 9: أهمُّ المواقع ذات العلاقة بقَصَص الغزو.

وكان الهَدَف القادم هُو مدينة "عاي"، التي تقع قُرْب "بيت إيل"، في مُرتفعات كَنْعَان، في مكان استراتيجي، على أحد الطُّرُق الرّئيسيَّة التي تقود من وادي الأُردُن إلى بلاد التَّلّ. هذه المرَّة؛ لم يتمَّ الاستيلاء على المدينة بفَضْل مُعجزة، بل بفَضْل وسائل يشُوع الرّائعة، التي تُذكِّر ببراعة المُحاربين اليُونانيِّين في فَتْحهم لحصن طروادة. بَيْنما صفَّ يشُوع مُعظم قُوَّاته في العراء إلى شرق المدينة؛ سَخرَ من المُدافعين عن "عاي"، عندما بيَّتهم، بنَحْو سرِّيّ، بكَمين من الجانب الغربي. وعندما اندفع مُحاربو "عاي" خارج المدينة لمُواجهة الإسرائيليِّين ومُلاحقتهم إلى الصّحراء، دَخَلَتْ وحدة الكمين المخفيَّة المدينة، التي بقيت بلا مُدافعين، وأشعلت النّار فيها، ثُمَّ عكس يشُوع تراجعه، وعاد إلى "عاي"، وذبح كُلَّ أهاليها، وأخذ كُلَّ ما فيها من الماشية وأسلاب المدينة كَغَنيمة حربيَّة، وشنق ملك "عاي" بشَكْل مُخزٍ على شجرة. (يشُوع 8/ 1 - 29).

بدأ الرُّعب ينتشر - الآن - بَيْن أهالي المُدُن الأُخرى في كَنْعَان. لَمَّا سمع "الجِبْعُونيُّون"، الذين كانوا يقطنُون أربعة مُدُن شمال أُورشليم (القُدْس)، ما حلَّ بأهالي "أريحا" و"عاي"، أرسلوا مبعوثين إلى يشُوع، مُلتمسين منه الرّحمة. ولأنَّهم أكَّدوا ليشُوع - بكُلّ إصرار - أنَّهم أجانب في هذه البلاد، وليسوا من مُواطنيها الأصليِّين (الذين أمر اللهُ بإبادتهم جميعاً)، وافق يشُوع على السّلام معهم، لكنْ؛ عندما تبيَّن أنَّ أهالي "جبْعُون" قد كذبوا، وأنَّهم كانوا - في الواقع - من سكّان الأرض الأصليِّين، عاقبهم يشُوع بإعلان أنَّهم سيعملون دائماً كَـ" مُحْتَطبي حَطَبٍ، وَمُسْتَقي مَاءٍ للْجَمَاعَة (أيْ للإسرائيليِّين)"، (يشُوع 9 / 27).

أدَّت الانتصارات الأُولى للإسرائيليِّين الغُزاة في أريحا، وفي بلدات ريف التّلال المركزيَّة، إلى استيلاء القلق على المُلوك الأكثر قُوَّة في كَنْعَان. وسُرعان ما أقام "أَدُوني صَادَقَ" مَلكُ أُورشليم (القُدْس)، تحالفاً عسكريّاً مع ملك حبرون (الخليل) في المُرتفعات الجنوبيَّة، ومع مُلُوك "يَرْمُوتَ"، و"لَخيش"، و"عَجْلُونَ" في مُرتفعات "شفيلة" **Shephelah** إلى الغرب. سار المُلُوك الكَنْعَانيُّون بقُوَّاتهم المُشتركة، وعسكروا حول "جبْعُون"، لكنَّ يشُوع - الذي ظلَّ يزحف طوال اللّيل من وادي الأُردُن - فاجأ جيش تحالف أُورشليم (القُدْس) بحَرَكَة خاطفة، فَهرَبَتْ القُوَّات الكَنْعَانيَّة مذعورةً على طُول الحافَّة الحادَّة لـ "بَيْت حُورُونَ" إلى الغرب. وأثناء هُرُوبهم؛ ضربهم اللهُ بمطر من الحجارة العظيمة المُتساقطة من السّماء.

في الحقيقة؛ تُخبرنا التّوراة بأنَّ: "الذينَ مَاتُوا بحجَارَةِ البَرَد هُم أكثَرُ منَ الذيـنَ قَتَلَـهُمْ بَنُـو إسْرَائيلَ بالسَّيْف" (يشُوع 10/ 11). رغم أنَّ الشّمس مالت إلى المغيب، إلاَّ أن عمليَّات القتْل التي كان يُنجزها الآتقاي لم تنته بعد، لذا؛ اتَّجه يشُوع إلى الله في حُضُور كامل جيشه الإسرائيلي، ودعا ربَّه أنْ يُوقف غُرُوب الشّمس، ويجعلها تقف بلا حراك، حتّى يتمَّ إنجاز الإرادة الإلهيَّة:

[فَدَامَت الشّمْسُ، وَوَقَفَ الْقَمَرُ، حتَّى انْتَقَمَ الشّعْبُ منْ أعْدَائه. أَلَيْسَ هَـذَا مَكْتُوباً فـي سفْرِ يَاشَرَ؟ فَوَقَفَت الشَّمْسُ في كَبد السَّمَاء، وَلَمْ تَعْجَلْ للْغُرُوب نَحْوَ يَوْمٍ كَاملٍ. 14وَلَمْ يَكُنْ مثْلُ ذَلكَ الْيَوْم قَبْلَهُ، وَلاَ بَعْدَهُ، سَمعَ فيه الرَّبُّ صَوْتَ إنْسَانٍ؛ لأَنَّ الرَّبَّ حَارَبَ عَنْ إسْرَائيلَ.] (يشُوع 10: 13 ـ 14).

في النّهاية؛ تمَّ أسْرُ المُلُوك الهاربين، وقُتلوا بحَدِّ السّيف. ثُمَّ واصل يشُوع حملتَهُ، ودمَّر تدميراً كاملاً المُدُنَ الكَنْعَانيَّة في الأجزاء الجنوبيَّة من البلاد، فاتحاً تلك المنطقة لشعب إسرائيل.

العمل الأخير حَدَثَ في الشّمال. قام تحالف لعدَّة مُلُوك كَنْعَانيِّين يرأسهم "يابين" ملك "حَاصُور": [فَخَرَجُوا هُم وكُلُّ جيُوشهمْ مَعَهُمْ، شَعْباً غَفيراً كَالرَّمْل الذي عَلَـى شَاطئ الْبَحْر في الْكَثْرَة، بخَيْلٍ وَمَرْكَبَاتٍ كَثيرَةٍ جداً.] (يشُوع 11/ 4)، واشتبكوا مع الإسرائيليِّين في معركة حقل مفتوحة في الجليل، انتهت بالدّمار الكامل للقُوَّات الكَنْعَانيَّة. وفُتحَت "حَاصُور"، المدينة الأكثر أهميَّة في كَنْعَان، بل [كَانَتْ قَبْلاً رَأْسَ جَميع تلْكَ الْمَمَالك] (يشُوع 11/ 10)، وأشعلت فيها النّيران، فأُحْرقت. وهكذا؛ بهذا النّصر، وَقَعَتْ كُلُّ الأرض الموعودة بكاملها، من الصّحراء الجنوبيَّة إلى القمَّة المُثلَّجة لجبل حرمون في الشّمال، في قبضة الإسرائيليِّين. وتحقَّق ـ فعلاً ـ الوعد الإلهي. وأُبيدت القُوَّات الكَنْعَانيَّة، واستعدَّ بنو إسرائيل لتقسيم الأرض بيْن القبائل، باعتبارها ميراثهم الذي وَهَبَهُم اللهُ إيَّاه.

كَنْعَان من نمط مُختلف:

كما هُو الحال في قصَّة الخُرُوج الجماعي، كَشَفَ علْم الآثار عن تناقض مُثير بيْن المعلومات التي يُقدِّمها الكتاب المُقدَّس العبْريّ وبيْن الحالة الحقيقيَّة لكَنْعَان، في زمن الغزو

(الإسرائيلي) المُقترَح ؛ أيْ بَيْن عامَيْ 1230 و1220 ق. م. .[1] فبالرّغم من أنَّنا نعرف بأنَّه كان هُناك جماعة تُسمَّى إسرائيل في مكان ما في كَنْعَان في سنة 1207 ق. م، إلاَّ أنَّ الأدلَّة الدّليل الموجودة المنظر السّياسي والعسكري لكَنْعَان يُفيد بأنَّ قيام تلك المجموعة بمثل ذلك الاحتلال الخاطف لم يكن من المُمكن عمليّاً، واحتمال حُدُوثه بعيد كُلَّ البُعْد.

هُناك عدد وافر من الأدلَّة في النُّصُوص المصريَّة التي تعود للعصر البرُونزي المُتأخِّر (550 ـ 1150ق. م) حول الشُّؤُون في كَنْعَان، وذلك على شَكْل رسائل دبلُوماسيَّة، وقوائم للمُدُن المفتوحة، ومشاهد الحصَارات، نجدها منقوشة على حيطان المعابد في سجلاَّت المُلُوك المصريِّين، والأعمال الأدبيَّة، والتّراتيل. وكانت رسائل تلّ العمارنة أكثر مصادر مثل تلك المعلومات تفصيلاً حول كَنْعَان في تلك الفترة. تُمثِّل هذه النُّصُوص جُزءاً من المُراسلات الدّبلُوماسيَّة والعسكريَّة لاثنَيْن من فراعنة مصر الأقوياء: "أمنحتب الثّالث"، وابنه "أخناتون"، اللَّذَيْن حكَمَا مصر في القرن الرّابع عشر ق. م. .

تتضمَّن حوالي أربعمئة من ألواح تلّ العمارنة، المُتفرِّقة ـ الآن ـ في عديد من المتاحف حول العالم، رسائل أُرْسلَت إلى مصر منْ قبَل حكَّام الدُّول القويَّة، مثل الحثِّيِّين في الأناضول وحُكَّام بلاد بابل، لكنَّ أكثر تلك الرّسائل كانت تلك التي أُرْسلَت منْ قبَل حكَّام دُول المُدُن في كَنْعَان، الذين كانوا توابع لمصر أثناء تلك الفترة. اشتمل المُرْسلُون على حكَّام المُدُن الكَنْعَانيَّة الذين اشتهروا لاحقاً في التّوراة، مثل مُلُوك: أُورشليم (القُدْس)، "شكيم" (نابلس)، "مَجدُّو"، "حَاصُور"، و"لَخيش". وأهمُّ ما في الأمر أنَّ رسائل تلّ العمارنة كَشَفَتْ أنَّ كَنْعَان كانت مُقاطعة مصريَّة، واقعة مُباشرة تحت سيطرة الإدارة المصريَّة. وكانت العاصمة الإقليميَّة تقع في غزَّة، لكنَّ الحاميات المصريَّة تركَّزت في المواقع الرّئيسيَّة في كافَّة أنحاء البلاد، مثل "بيت شان" جنوب بحر الجليل، وفي ميناء يافا (التي أصبحت ـ اليوم ـ جُزءاً من مدينة تلّ أبيب).

---

(1) هذا التّاريخ، كما رأينا في الفصل الأخير، اقتُرِح بناءً على الإشارات المُفترَضَة إلى الفراعنة الرّعمسيسيِّين في قَصَص الخُرُوج الجماعي، وبناءً على التّاريخ المذكور في مسَلَّة "منفتاح؛ أيْ عام 1207 ق. م. ، والذي أشار إلى وُجُود "شعب إسرائيل" في كنعان في ذلك الوقت. (المؤلِّف).

لا يُوجد في التّوراة أيُّ خبر عن مصريّين خارج حُدُود مصر، ولا شيء فيها مذكور عن المصريّين في أيٍّ من المعارك التي كانت تقع داخل كَنْعَان. هذا؛ في حين تُشير النُّصُوص المُعاصرة والاكتشافات الأثريَّة إلى أنَّ المصريّين كانوا يُديرُون ويحرسون شؤُون البلاد الكَنْعَانيَّة بعناية. كان أُمراء المُدُن الكَنْعَانيَّة (الذين وُصفوا في كتاب يشُوع كَأعداء أقوياء) - في الواقع - ضعيفين بنَحْو مُثير للشّفقة. أظهرت التّنقيبات بأنَّ مُدُن كَنْعَان في هذه الفترة لم تكن مُدُناً مُنتظَمَة من النّوع الذي نعرفه في التّاريخ التّالي. كانت تلك المُدُن - بشَكْل رئيسي - معاقل إداريَّة خاصَّة بالنُّخبة، لإسكان الملك، وعائلته، وحاشيته الصّغيرة من المُوظَّفين الإداريّين، مع جماعات من الفلاَّحين يعيشون - بشَكْل مُتناثر - في قُرَى صغيرة في أنحاء الرّيف المُحيط بتلك المعاقل. كانت المدينة المثاليَّة تتضمَّن قَصْراً، ومُجَمَّعَ الهيكل، وبضعة صُرُوح عامَّة أُخرى، هي - في الغالب - مساكن للمُوظَّفين الكبار، وحانات، وبنايات إداريَّة أُخرى، فقط؛ لا غير. فلم يكن هُنَاك أسوار للمُدُن. ولم تكن المُدُن الكَنْعَانيَّة الرّائعة - التي تصفها قَصَص الغزو الإسرائيلي لكَنْعَان في الكتاب المُقدَّس - مَحْميَّة - في الواقع - بأيَّة تحصينات دفاعيَّة!

وكان السّبب - على ما يبدو - هُو أنَّه طالما كانت مصر هي التي تأخذ على عاتقها - بشَكْل صارم - مهمَّة الحفاظ على أمن جميع المُقاطعة، لذلك؛ لم تكن هُنَاك حاجة للأسوار الدّفاعيَّة الهائلة. كان هُنَاك - أيضاً - سبب اقتصادي آخر لقلَّة التّحصينات في أغلب المُدُن الكَنْعَانيَّة؛ بسبب الضّرائب الباهظة التي كان فرعون يفرض دَفْعَهَا على الأُمراء الكَنْعَانيّين، لم يكن أُولئك الحُكَّام المحلّيُّون الضُّعفاء - في الغالب - يملكون الوسائل (أو السُّلْطَة) للقيام بأعمال إنشاء صُرُوح تذكاريَّة عامَّة.

في الحقيقة؛ كانت كَنْعَان، في أواخر العصر البرُونزي، مُجرَّد ظلٍّ لذلك المُجتمع النّاجح المُزدهر الذي كانت عليه قبل عدَّة قُرُون؛ أيْ في العصر البرُونزي المُتوسِّط. كانت العديد من المُدُن قد هُجرت، ومُدُن أُخرى قد انكمش حَجْمُهَا، ولم يكن مجموع عدد السُّكَّان المُستقرِّين في رُبُوعها يتجاوز كثيراً المئة ألف نسمة. أحد البراهين على صغر حجم ذلك المُجتمع هُو ما نجده في أحد رسائل ألواح تلّ العمارنة، أرسلها ملك أُورشليم (القُدْس) إلى فرعون، يطلب منه أنْ يمدَّه بخمسين رجل "لحماية الأرض". رسالة أُخرى، أرسلها ملك "مَجدُّو"، تُؤكِّد - أيضاً -

صغر حجم القُوَّات في تلك الفترة؛ حيثُ طَلَبَ فيها من فرعون إرسال مئة جُنْدي لحراسة المدينة من هُجُوم مُحتَمَل لجاره العُدواني، ملك "شكيم" (نابلس).

تصف رسائل تلّ العمارنة الحالة أثناء القرن الرّابع عشر ق. م، وذلك قبل مئة سنة، أو ما يُقاربها، قبل التّاريخ المُفترض للغزو الإسرائيلي. ليس لدينا مثل مصدر المعلومات المُفصَّل هذا حول الشُّؤُون في كَنْعَان أثناء القرن الثّالث عشر ق. م. . رغم ذلك؛ كان من المُستبعَد أنْ يتباطأ الفرعون رعمسيس الثّاني، الذي حَكَمَ مصر أغلب القرن الثّالث عشر، عن إشرافه العسكري على كَنْعَان. لقد كان ملكاً قوياً، بل ربَّما كان أقوى الفراعنة، وكان مُهتماً جداً في الشُّؤُون الخارجيَّة.

تبدو عديد من الإشارات الأُخرى ـ سواء الأدبيَّة أو الأثريَّة ـ مُشيرة إلى أنَّه في القرن الثّالث عشر ق. م، كانت قبضة مصر على كَنْعَان أقوى بكثير من أيِّ وقت مضى. عندما كانت تصل لمصر أخبار القلاقل في كَنْعَان، كان الجيش المصري يعبر صحراء سيناء على طُول ساحل البحر الأبيض المُتوسِّط، ويسير نحو المُدُن المُتمرِّدة، أو النّاس الثّائرين. كما ذكرنا سابقاً، كان الطّريق العسكري في شمال سيناء مَحْمِيَّاً بواسطة سلسلة من الحُصُون المُجهَّزة بمصادر الماء العذب. بعد عُبُوره الصّحراء، كان الجيش المصري قادراً على أنْ يدحر ـ بسُهُولة ـ أيَّ قُوَّات ثائرة، ويفرض إرادته على السُّكَّان المحلِّيِّين.

كَشَفَ علم الآثار عن أدلَّة مُثيرة تُبيِّن مدى الحُضُور المصري في كَنْعَان نفسها. في العشرينات من القرن الماضي؛ تمَّ اكتشاف مَعْقل مصري أثناء التّنقيب في موقع "بيت شان" إلى جنوب بحر الجليل، احتوت أبنيته المُختلفة وفناءاته على تماثيل وأنصاب كُتب عليها بالهيرُوغليفيَّة، تعود لعهد الفراعنة "سيتي الأوّل" (1294 - 1279 ق. م)، رعمسيس الثّاني (1279 - 1213 ق. م)، ورعمسيس الثّالث (1184 - 1153 ق. م). بل كَشَفَتْ المدينة الكَنْعَانيَّة القديمة "مَجدُّو" عنْ دليل على حُضُور مصري القوي حتَّى في فترة مُتأخِّر كأيَّام رعمسيس السّادس، الذي حَكَمَ نَحْو نهاية القرن الثّاني عشر ق. م؛ أيْ بعد فترة طويلة من غزو الإسرائيليِّين المُفترَض لكَنْعَان.

من المُستبعَد جداً أنْ تبقى الحاميات المصريَّة في كافَّة أنحاء البـلاد مكتوفة الأيـدي، وهـي تُشاهد مجموعة من اللاَّجئين (من مصر) يعيثون خراباً وفساداً في كافَّة أنحـاء مُقاطعـة كَنْعَـان، كما لا يُمكن تصديق أنْ لا يترك دمار العديد من المُدُن التّابعة الموالية، على أيدي غُـزاة مُحتلِّـين أيَّ أثر في السِّجلاَّت الشّاملة آنذاك للإمبراطُوريَّة المصريَّة. الذِّكْر المُستقلُّ الوحيد، الـذي نجده في هذه الفترة، لاسم إسرائيل، - في مسَلَّة النّصر التي أقامها "منفتاح" - يُعلن - فقط - أنَّ أُولئكَ النّاس - الغامضون عادةً، الذين يعيشون في كَنْعَان - قد تعرَّضوا لهزيمة ساحقة. هُناك شيء مـن عدم الانسجام والتّناقض، نلحظه - بوُضُوح - عندما نضع الرّوايـة التّوراتيّـة، والأدلَّـة الأثريَّـة، والسِّجلاَّت المصريَّة جنباً إلى جنب.

على خُطى يشُوع؟

هُناك، مع ذلك - أو علـى الأقـلّ، كـان هُنـاك - أدلَّـة مُعاكسـة ومُضـادَّة للدّلّيـل المصـري: أوّلاً: لقد كان من الواضح أنَّ سفر يشُوع لم يكن خُرافة خياليَّة تمامـاً، بـل لقـد عكـس - بدقَّـة - جَغرافيَّة أرض إسرائيل، كما أنَّ مسيرة حَمْلَة يشُـوع اتَّبعـت ترتيباً جَغرافيَّاً منطقيَّاً. فـي بدايـة القرن العشرين؛ اختار عدد من العُلماء بعض المواقع التي يُمكنهم أنْ يثقوا - تمامـاً - أنَّـها تتطـابق مع مواقع تقدُّم الغزو الإسـرائيلي، وبـدؤوا بـالحفر بحثاً عـن شـواهد علـى أسـوار سـاقطة، أو روافد خشبيَّة مُحترقة، أو آثار دمارٍ شاملٍ.

الشّـخصيَّة الأبـرز فـي هـذا المسـعى كـان - مرَّة ثانيـة - العـالم الأمريكـي "وليـام فُوكسـويل أُولبرايت" William Foxwell Albright، من جامعة "جُـون هُوبْكنـز" Johns Hopkins فـي بالتيمور Baltimore، اللُّغويُّ اللاَّمع، والمُـؤرِّخ، والعـالم التّوراتـي، وعـالم الآثـار الميدانـي، الذي حاول إثبات أنَّ الآباء كانوا شخصيَّات تاريخيَّة أصيلة. لقـد اعتقـد - مُرتكزاً علـى قراءتـه للشّواهد الأثريَّة - بأنَّ أعمال يشُوع البُطُوليَّة كانت تاريخيَّة أيضاً. أكثر تنقيبات أُولبرايت شُـهرة تمَّ إنجازها بَيْن عامَيْ 1926 و1932 في تلٍّ يُسَمَّى: "تلّ بيت مرسيم"، يقـع فـي التّـلال التـي تقـع جنوب غـرب مدينـة حـبرون (الخليـل)، (انظُـرْ الشَّـكْل رَقـم 9). رَبَـطَ أُولـبرايت ذلـك الموقـع - استناداً لموقعه الجَغرافي - بالمدينة الكَنْعَانيَّة "دَبِيـر"، التي وَرَدَ ذكْر غزو الإسرائيليِّين لها في ثلاثة مواضع من "الكتاب المُقدَّس العبْري"، مرَّتَيْـن فـي سـفْر يشُـوع (10 / 38 - 39، 15/ 15 - 19)،

ومرَّة في سفْر القُضَاة (1/ 11 ـ 15). ورغم أنَّ مُطابقة الموقع مع مدينة "دَبير" قـد تعـرَّض للنَّقْـد العلمي والتّشكيك بصحَّته، إلاَّ أنَّ هذا لم يُغيِّر من حقيقة أنَّ الاكتشافات الأثريَّة فـي "تـل بيـت مرسيم" بقيت ذات أهميَّة مركزيَّة بالنِّسبة للبحث التّاريخي.

كَشَفَتْ التّنقيبات هُناك عن بلدة صغيرة، وسيِّئة نسبيًّا، وغير مُحاطة بأسوار، تمَّ تدميرها بنار كارثيَّة هائلة مُفاجئة في حوالي نهاية العهد البرُونزي المُتأخِّر، وطبقاً لرأي "أُولبرايت"، فـي حوالي سنة 1230 ق.م. . على رماد هذه المدينـة المُحترقـة، حَصَـلَ أُولـبرايت علـى مـا اعتقـده دليلاً على وُصُول مُستوطنين جُدُد: الفخّاريَّات الخشـنة مُتبعـثرة، تُشـابه تلـك التـي عرفـها فـي المواقع الأُخرى في المُرتفعات، والتي ميَّزها بحَدْسه على أنَّها إسرائيليَّة. بدا هذا الدّليـل بُرهاناً على تاريخيَّة قَصَـص الكتـاب المُقـدَّس: مدينـة كَنْعَانيَّـة (ذُكـرت فـي الكتـاب المُقـدَّس) أحرقـها الإسرائيليُّون، ثُمَّ ورثوها، واستقرُّوا على خرابها.

في الواقع؛ بدا أنَّه تمَّ إعادة تقديم نتائج "أُولبرايت" في كُلِّ مكان. فقد كَشَفَتْ التّنقيبات فـي التَّلِّ القديم للقرية العَرَبيَّة بيتِّين Beitin، التي تمَّ مُطابقتها على المدينة التّوراتيَّة "بيـت إيـل"، والتـي تقع حوالي تسعة أميال شمال أُورشليم (القُدْس)، كَشَفَتْ عن مدينة كَنْعَانيَّـة سُكنَتْ في العصر البرُونزي المُتأخِّر، وقد تمَّ تدميرها بالنّار في أواخر القرن الثّالث عشر ق.م، ثُمَّ سكنتها من جديد ـ على ما يبدو ـ مجموعةٌ مُختلفةٌ، في العصر الحديدي الأوَّل. لقـد تطـابقت مـع القصَّـة التّوراتيَّـة التي تتحدَّث عن مدينة "لوز" الكَنْعَانيَّة، التي اسـتولى أفـراد مـن بيـت يُوسُـف عليـها، فسكنوها، وغيَّروا اسمها إلى "بيت إيل" (القُضَاة 1/ 22 ـ 26). أكثر جنوباً، وجد في التَّلِّ البارز المُسـمَّى بتـلِّ الدُّوير Tell ed Duweir في منطقة شـفيلة Shephelah موقـع تمَّـت مُطابقتـه مـع المدينـة التّوراتيَّـة المشهورة "لَخيش" (يشُوع 10 / 31 ـ 32)، كَشَفَتْ بعثة بريطانيَّة في الثّلاثينات مـن القـرن المُنصـرم عن بقايا مدينة كبيرة أُخرى تعود للعصر البرُونزي المُتأخِّر، الأُخرى تمَّ تدميرها بحريق كبير.

استمرَّت الاكتشافات في الخمسينات، بعد قيام دولة إسرائيل [يقصـد الكيـان الصّـهيوني الغاصب (المُترجم)]؛ حيثُ ركَّز عُلماء الآثار الإسرائيليُّون على قضيَّة غزو وفتْح الأرض الموعودة.

فـي عـام 1956؛ بـدأ عـالم الآثـار الإسـرائيلي البـارز "يغـائيل يـادين" Yigael Yadin، التّنقيب في المدينة القديمة "حَاصُور"، التي وَصَفَهَا سفر يشُوع بأنَّـها كـانت: [رأْسَ جَميـع تلْـكَ

المَمَالك] (يشُوع 11 / 10) . لقد كانت أرض اختبار مثاليَّة للبحث الآثاري المُتعلّق بالغزو الإسرائيلي . لقد ثبت آثاريّاً أنَّ مدينة "حَاصُور"، التي تمَّت مُطابقته على التَّلّ الضّخم المعروف باسم "تلّ الوقّاص" في الجليل الأعلى، استناداً لموقعه وأهميَّته، كانت - فعلاً - أكبر المُدُن الكَنْعَانيَّة في العصر البرُونزي المُتأخِّر. كانت تمتدُّ على مساحة ثمانين هكتاراً؛ أيْ أكبر بثماني مرَّات من نُظرائها من المواقع البارزة الأُخرى؛ مثل "مَجدُّو" و"لَخيش".

اكتشف "يادين" Yadin بأنَّه على الرّغم من أنَّ "حَاصُور" بَلَغَت ذروة ازدهارها في العصر البرُونزي المُتوسِّط (2000 - 1550 ق . م)، إلاَّ أنَّها استمرَّت في ازدهارها حتَّى العصر البرُونزي المُتأخِّر. كانت مدينة رائعة، ذات معابد وقَصْر ضخم. مُنْذُ التّسعينات في القرن الماضي؛ تواصلت الاكتشافات بفَضْل أعمال التّنقيب المُجدَّدة في "حَاصُور" تحت قيادة "عمُون بنطور" Amnon Bentor من الجامعة العبْريَّة، دالَّةً على ثراء ذلك القَصْر في نمط فنِّه المعماري، وفنِّ النّحت، مع اكتشافات صغيرة أُخرى - سبق أنْ لمّحت إليها نتائج تنقيبات "يادين" Yadin -. يُشير وُجُود عدد من الألواح المسماريَّة إلى وُجُود أرشيف مَلَكي. يحمل أحد الألواح - الذي أُعيد تأهليه - اسماً مَلَكيّاً هُو "ابني"، كما أنَّ مَلَكاً لـ "حَاصُور" اسمه "ابن أدُّو" ذُكر في أرشيف الرّجل. رغم أنَّ كلا الاسمَيْن يعود تاريخه إلى أزمنةٍ سابقةٍ بكثيرٍ (العصر البرُونزي المُتوسِّط)، إلاَّ أنَّهما قد يكونان مُرتبطَيْن بنَحْو إيتيمُولُوجي (اشتقاقي - لُغوي) باسم ملك "حَاصُور": "يابين"، المذكور في الكتاب المُقدَّس العبْريّ. التّكرار الإيحائي لهذا الاسم قد يُشير إلى أنَّه كان يُمثِّل اسم سُلالة مَلَكيَّة على صلة استمرَّت عدَّة قُرُون بمدينة "حَاصُور"، فبقي النّاس يذكرونه حتَّى بعد فترة طويلة من تدمير المدينة.

أظهرت أعمال التّنقيب في "حَاصُور" انتهاء عَظَمَة تلك المدينة الكَنْعَانيَّة، بنَحْو فُجائي وقاسٍ في القرن الثّالث عشر ق . م، مثلها مثل العديد من المُدُن الأُخرى في أجزاء مُختلفة من بلاد كَنْعَان. فجأةً؛ وعلى الظّاهر، بدُون سابق إنذار، أو أيّ إشارة صغيرة لسيرٍ نحو الانحطاط، هُوجمت "حَاصُور"، ودُمِّرَت، وأُحْرِقَت بالنّار. ماتزال جُدران القَصْر - المصنوعة من الطّابوق المطبوخ من الطّين، والتي طُبِخَتْ بحرارة حريق مهيب، حتَّى أصبحت حمراء - ماتزال باقية إلى اليوم بارتفاع ستَّة أقدام. بعد فترة من تَرْك المدينة؛ تمَّ تأسيس مُستوطنة فقيرة

في أحد أجزاء خراباتها الواسعة. وقد شابهت فخّاريّاتُهَا الفخّاريّات التي اكتُشفت في المُستوطنات الإسرائيليَّة المُبكِّرة في بلاد التّلّ المركزيَّة نحو الجنوب.

هكذا؛ في مُعظم القرن العشرين، بدا علْم الآثار مُؤكّداً لرواية الكتاب المُقدَّس العبْريّ، لكنْ؛ لسُوء الحظّ، سرُعان ما انفرط - في النّهاية - ذلك الإجماع العلْمي.

هل أذّنت الأبواق حقّاً؟

في وسط الفرح العارم - تقريباً في اللّحظة ذاتها التي بدا فيها أنَّ معركة الغزو مالت لصالح يشُوع - ظهرت بعض التّناقضات المُزعجة. حتّى لو أكّدت كُلّ الصّحافة العالميَّة خَبَرَ انتصار يشُوع، بقيت العديد من قطع لُعبة ألغاز البزل Puzzle الآثاريَّة، الأكثر أهميَّة، دُون أنْ تجد - ببساطة - مكانها المُلائم في الصُّورة.

كانت أريحا من بيْن الأجزاء الأكثر أهميَّة في الصُّورة.

كما لاحظنا؛ كانت مُدُن كَنْعَان غير مُحصَّنة، ولم يكن لها أسوار يُمكنها أنْ تسقط. في حالة أريحا، ما كان هُناك أيّ أثر لأيّ مُستوطنة من أيّ نوع في القرن الثّالث عشر ق.م، وكانت المُستوطنة الأقدم - والتي تعود للعصر البرُونزي المُتأخّر؛ أيْ القرن الرّابع عشر ق.م - مُستوطنة صغيرة وفقيرة، وتافهة تقريباً، وغير مُحصَّنة. لم يكن هُناك - أيضاً - أيّ علامة تدلّ على حُدُوث عَمَليَّة تدمير. لذا؛ فإنَّ المشهد المشهور للقُوّات الإسرائيليَّة التي زَحَفَتْ حول البلدة، وأحاطت بها، يتقدَّمها تابوت العهد، ثُمَّ إحداث انهيار لأسوار أريحا الهائلة بواسطة نفخ أبواق حرب الإسرائيليّين، لم يكن - ببساطة - سوى سراب رُومانسي.

وُجدَ تناقض مُماثل آخر، بيْن علْم الآثار والكتاب المُقدَّس العبْريّ، في موقع "عاي" القديمة، حيثُ نفَّذ يشُوع كَمينَهُ الذكي، طبقاً لرواية الكتاب المُقدَّس. لقد طابق العُلَماء هضبة "خربة التّلّ" الكبيرة الحاليَّة، التي تقع في الحافَّة الشّرقيَّة للمنطقة الشّماليَّة الشّرقيَّة لهضبة أُورشليم (القُدْس)، على الموقع القديم لمدينة "عاي"، وذلك لكون الموقع الجُغرافي لذلك التّلّ، إلى الشّرق مُباشرة من مدينة "بيت إيل"، يتطابق - بشكْل كبير - مع وَصْف الكتاب المُقدَّس لمدينة "عاي". الاسم العَرَبي المُعاصر لهذا الموقع هُو "التّلّ" والذي يعني "البقايا"، أو "الخرائب"،

وهُو معنى يتَّفق ـ بنَحْو ما ـ مع الاسم العبْري "عاي" المذكور في الكتاب المُقدَّس، خاصَّة أنَّه لا يُوجد أيُّ موقع بديل يعود للعصر البرُونزي المُتأخِّر، على أيِّ موقع قريب من تلك المنطقة. بَيْن عامَيْ 1933 و1935، قام عالم الآثار الفلسطينيّ اليهُودي الذي تدرَّب في فرنسا: "جُوديث ماركت كرُوز" Judith Marquet Krause، بتنفيذ أعمال تنقيب واسعة النّطاق "التّل"، وَوَجَدَ بقايا كثيرة جداً لمدينة قديمة وضخمة من العصر البرُونزي المُبكِّر، أرَّخ تاريخها بنَحْو ألف سنة قبل انهيار كَنْعَان في العصر البرُونزي المُتأخِّر.

لم يتمَّ اكتشاف حتَّى شقفة فخّاريَّة واحدة، أو أيّ إشارة أُخرى تدلُّ على وُجُود استيطان هُناك في العصر البرُونزي المُتأخِّر. وأنتجت التّنقيبات المُجدَّدة، التي أُعيد إجراؤها جرت في الموقع في السّتّينات، الصُّورة نفسها. مثل أريحا، لم يكن هُناك استيطان في "عاي"، وقت غزوها المُفترَض منْ قِبَل بني إسرائيل.

وماذا عن قصَّة الجبعونيّين والتماسهم الحماية؟ لقد كَشَفَتْ التّنقيبات في التّلّ الواقع في قرية "الجب" شمال أُورشليم (القُدْس) والذي أجمع العُلماء على أنَّه هُو موقع "جِبْعُون" التّوراتي، عن بقايا من العصر البرُونزي المُتوسِّط ومن العصر الحديدي، لكنْ؛ لا شيء يرجع للعصر البرُونزي المُتأخِّر. وقد أنتجت التّحقيقات الآثاريَّة في مواقع لثلاثة قُرَى جبعونيَّة أُخرى، هي: "شفيرة" و"بيروث" و"كريَات جياريم" الصُّورة نفسها؛ فلم يُوجد في أيٍّ من تلك المواقع أيُّ آثار أو بقايا تعود للعصر البرُونزي المُتأخِّر. والأمر نفسه يصدق على القُرَى أو البلدات الأُخرى المذكورة في قصَّة الغزو، وفي القائمة المُختصرة لمُلُوك كَنْعَان (يشُوع 12)، ومن بَيْنهم "عرَاد" (في النَّقَب) و"حَشْبُون" (في الضفّة الغربيَّة)، اللَّذَيْن ذكرناهما في الفَصْل الأخير.

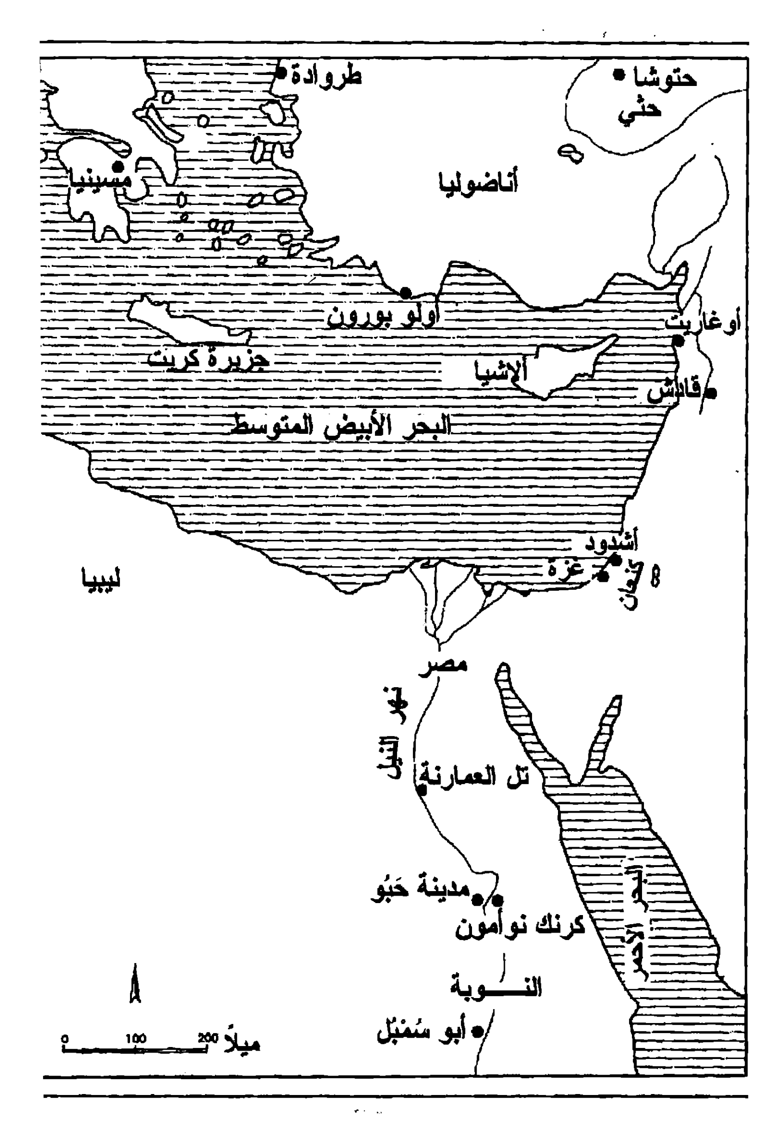
لم تتأخَّر التّفسيرات العاطفيَّة والعَقْلانيَّة المُعقَّدة كثيراً في المجيء؛ لأنَّ هُناك الكثير الذي أصبح في خطر الضّياع. بالنّسبة لـ"عاي"، اقترح أُولبرايت أنْ تكون قصَّة فتحها إنَّما قصد بها في الأصل فتح بيت إيل المُجاورة؛ حيثُ إنَّه لما كانت بيت إيل وعاي قريتان جداً من بعضهما، تمَّ الجَمْع والمُشاركة بَيْنهما جَغرافياً وتقليدياً. أمَّا بالنّسبة لأريحا؛ فقد بحث بعض العُلماء عن تفسيرات بيئيَّة. لقد اقترحوا أنْ تكون كامل الطّبقة التي تُمثِّل أريحا في وقت الغزو ـ بما في ذلك التّحصينات ـ قد تمَّ إزالتها بفعل عومل الحَتِّ الطّبيعيَّة.

لم ينفرط الإجماع بشأن قصّة الغزو، ولم يُترَك إلاَّ مُؤخَّراً. أمَّا بالنّسبة إلى دمار "بيت إيل"، "لَخيش"، "حَاصُور"، ومُدُن كَنْعَانيَّة أُخرى؛ فإنَّ الشّواهد التي تمَّ الحُصُول عليها من مناطق أُخرى من الشّرق الأوسط وشرقي البحر الأبيض المُتوسِّط تُفيد بأنَّ الذين قاموا بعمليَّات التّدمير ليسوا - بالضّرورة - إسرائيليِّين.

عالم البحر الأبيض المُتوسِّط في القرن الثّالث عشر ق.م:

إنَّ البُؤرة الجَغرافيَّة لقَصَص الكتاب المُقدَّس العبْريّ تتركَّز كُلِّيّاً - تقريباً - في أرض إسرائيل [بل، فلسطين المُحتلَّة (المُترجم)]، ولكنْ؛ لكي نفهم الحجم الحقيقي للأحداث التي حَدَثَتْ في نهاية العصر البرُونزي المُتأخِّر، علينا أنْ ننظر إلى ما هُو أبعد من حُدُود كَنْعَان؛ أيْ إلى كامل منطقة شرقي البحر الأبيض المُتوسِّط (انظُرْ الشّكل رَقْم 10). كَشَفَتْ الحفريّات في اليُونان، وتُركيا، وسُوريا، ومصر، قصّة مُذهلة لثورة، وحرب، وتوقُّف اجتماعي واسع الانتشار. في السّنوات الأخيرة من القرن الثّالث عشر ق.م، وبداية القرن الثّاني عشر، مرَّ كامل العالم القديم بتحوُّلات قويَّة مُثيرة؛ حيثُ عصفت أزمة مُدمِّرة بممالك العصر البرُونزي، وبدأ عالم جديد بالظُّهُور. كانت هذه الفترة إحدى أكثر فترات التّاريخ إثارة وفوضويَّة، سقطت خلالها إمبراطُوريَّات قديمة؛ لتحلَّ محلَّها قوى جديدة صاعدة.

سابقاً - في مُنتصف القرن الثّالث عشر ق.م - كانت هُناك إمبراطُوريّتان تحكمان المنطقة. في الجنوب؛ كانت مصر في ذروة عظمتها، يحكمها رمسيس الثّاني، وتُسيطر على كَنْعَان بما في ذلك أراضي لُبْنَان الحديث وجنوب غرب سُوريا. كما كانت تُسيطر في الجنوب على النّوبة، وفي الغرب؛ كانت تحكم ليبيا. كانت الإمبراطُوريَّة المصريَّة مشغولة ببناء الأبنية التّذكاريَّة الضّخمة، وكانت تُشارك في التّجارة المُربحة في شرقي البحر الأبيض المُتوسِّط. كانت هُناك بعثات وتُجَّار يتردَّدُون على مصر، قادمين من جزيرة كريت، وقُبرُص، وكَنْعَان، وبلاد الحثّيِّين، جالبين معهم هدايا لفرعون. وكانت هُناك بعثات مصريَّة تقوم باستغلال مناجم للنُّحاس والفيروز في سيناء والنَّقَب. لم يسبق أنْ وُجدت في مصر - أبداً - إمبراطُوريَّة بمثل تلك القُوَّة والاتّساع. ليس على أحدنا إلاَّ أنْ يقف اليوم أمام معبد أبو سُنبل في النّوبة أو المعابد المشهورة في الكَرْنَك والأقصر؛ ليشعر بالعَظَمَة التي كانت عليها مصر في القرن الثّالث عشر ق.م.



الشكل 10 : الشرق الأدنى القديم: مواقع آثاريَّة مُنتخَبَة من القرن الثالث عشر ق.م.

أمَّا الإمبراطُوريَّة الكبيرة الأُخرى في المنطقة؛ فقد تركَّزت في الأناضول؛ إنَّها كانت الدّولة الحثّيَّة، التي كانت تحكم انطلاقاً من عاصمتها "حتّوشا" التي تقع شرق أنقرة، عاصمة تُركيا الحديثة. كان الحثّيُّون يُسيطرون على آسيا الصُّغْرَى وشمال سُوريا، وكانوا قد بلغوا شأواً رفيعاً في العمارة، والأدب، وفنِّ الحرب. تُعطي مدينة "حتّوشا" الواسعة ـ بتحصيناتها الهائلة ومعبدها المحفور في الصّخر ـ الزُّوَّار المُعاصرين إحساساً بعَظَمَة الحثّيّين.

كانت الحُدُود بَيْن الإمبراطوريَّتَيْن ـ المصريَّة والحثّيَّة ـ تقع في سُوريا. وقد وقعت بَيْنهما الحرب التي كان لابُدَّ منها في بداية القرن الثّالث عشر ق. م؛ حيثُ التقى الجيشان العظيمان في قادش على نهر العاصي غربي سُوريا. كان في أحد الطّرَفَيْن "مواطاليس" Muatallis ملك الحثّيّين، وفي الطّرَف الآخر، وَقَفَ رمسيس الثّاني، الملك المصري الشّابُّ، وضعيف الخبرة في الحرب. لدينا سجلاّت عن الحرب تعود لكلا الطّرَفَيْن، وكُلٌّ منهما يدَّعي فيها النّصر. الحقيقة كانت في مكان ما وسط بَيْن الادِّعاءيْن. فالظّاهر أنَّ الحرب انتهت، دُون حُصُول أيٍّ من الطّرَفَيْن على نصر حاسم، لذا؛ كان على القُوَّتَيْن العُظْمَيَّيْن أنْ يتوصَّلا إلى تسوية. سُرعان ما وقَّع الملك الحثّيُّ الجديد، "حاتُّوسيليس الثّالث" Hattusilis III، ورمسيس الثّاني، الذي أصبح ـ الآن ـ أكثر تمرُّساً في الحرب، مُعاهدة سلام، أعلنت صداقة بَيْن الدّولتَيْن، وتَرْك العداوات بَيْنهما "إلى الأبد"، وخُتِمَت الاتّفاقيَّة بعملٍ رمزيٍّ، كان زواج رمسيس من أميرة حثّيَّة.

أعطى العالم الذي أوجده هذا الموقف "المصري ـ الحثّي" فُرصاً مُتزايدة لقُوَّة عُظْمَى ثالثة أُخرى في الغرب، لم تكن قُوَّتها ناتجة عن القُوَّة العسكريَّة، بل كانت تتجلّى بالمهارات البحريَّة؛ إنَّها العالم المسيني (نسبةً لمدينة مسينى القديمة فى جنوب اليُونان)، الذي أنْتَجَ الحُصُون والقلاع الشّهيرة لمدينة مسيني Mycenae، وتيرينس Tiryns، والقُصُور الغنيَّة لبيلوس Pylos، وطيبس Thebes. إنَّه كان الذي أعطى ـ على ما يبدو ـ الخلفيَّة الرُّومانسيَّة لإلياذة هُوميرُوس والأسفار الطّويلة لأُوديسي؛ كما كان العالم الذي أنْتَجَ الشّخصيَّات المشهورة لـ "أغاميمنُون" Agamemnon، و"هيلين" Helen، و"بريام" Priam، و"أُوديسوس" Odysseus.

لا نعرف اليوم ـ على وجه التّأكيد ـ فيما إذا كان "العالم المسيني" يُدَار ويُحكَم من مركز واحد، مثل مدينة مسيني Mycenae. من المُحتمل أكثر؛ أنَّ ذلك العالم كان نظاماً من عدَّة

مراكز، كُلٌّ واحد منها يحكم أراضٍ كثيرة، شيءٌ يُشبه دُول المُدُن في كَنْعَان، أو نظام "بُوليس" في اليُونان التّقليدي، ولكنْ؛ على نطاق، أو مقياس أوسع بكثير.

بدأ العالم المسيني، - الذي تمَّ اكتشافه لأوَّل مرَّة بفضل التّنقيبات الأثريَّة المُثيرة التي قام بها "هنريخ شلايمان" Heinrich Schliemann في مدينتَيْ مسيني Mycenae، وتيرينس Tiryns، في أواخر القرن التّاسع عشر - بدأ يكشف لنا أسراره بعد سنوات، عندما تمَّ فكُّ شفرة المخطوطة "ب" الخطِّيَّة. أثبتت الألواح التي وُجدت في القُصُور المسَينيَّة أنَّ المسينيِّين كانوا يتكلَّمون اللُّغة اليُونانيَّة. جاءت قُوَّتهم وثروتهم - على ما يبدو - من التّجارة في شرقي البحر الأبيض المُتوسِّط.

لعبت جزيرة قُبرُص - التي كانت تُعرَف في ذلك الحين باسم "الاشيا" Alashiya - دوراً مُهمّاً - أيضاً - في عالم القرن الثّالث عشر ق. م، هذا؛ حيثُ كانت المُنتج الرّئيسي للنُّحاس في شرقي البحر الأبيض المُتوسِّط، وكانت بُوَّابة للتّجارة في المشرق. تُبيِّن الأبنية الرّائعة التي بُنيَت بكُتَل الحجر المأخوذة من "الاشيا" مدى الازدهار الذي وَصَلَتْ إليه الجزيرة في ذلك الوقت.

تميَّز عالم العصر البرُونزي المُتأخِّر بالقُوَّة العُظْمَى، والثّروة، والتّجارة النّشطة. يُبيِّن حطام السّفينة المشهورة: "أُولُو بُورُون" Ulu Burun، التي وُجدت في أيَّامنا خارج ساحل جنوب تُركيا، لمحة إلى أيَّام الازدهار تلك. كانتْ سفينةً مُحمَّلة بشحنة تجاريَّة من عدَّة بضائع مثل: قوالب النّحاس والقصدير، قطَع أشجار الأبنوس، الرّاتنج الحادّ، عاج الفيل، وفَرَس النّهر، قُشُور بيض النّعامة، التّوابل، وبضائع أُخرى، وكانت تُبحر على طُول ساحل آسيا الصُّغْرَى، في وقت ما حوالي 1300 ق. م، عندما غرقت - على ما يبدو - بسبب عاصفة هوجاء.

أظهرت التّنقيبات التي أُجريت تحت الماء على حُطام السّفينة، واستعادة شحنتها التّجاريَّة الغنيَّة، بأنَّ هذه السّفينة الصّغيرة - والتي لم تكن بالتّأكيد استثنائيَّة في ذلك الزّمن - كانت تجوب جميع الطُّرُق المُربحة للتّجارة في كامل شرقي البحر الأبيض المُتوسِّط، حاملة المصنوعات اليدويَّة الفاخرة، والسِّلَع الاستهلاكيَّة المُلتَقَطَة من كُلِّ مرفأ تتوقَّف فيه.

من المُهمِّ التّذكير بأنَّ ذلك العالم لم يكن مُجرَّد نُسخة قديمة لسُوق مُشتركة حديثة فحسب، تقوم فيه كُلُّ أُمَّة بالتّجارة الحُرَّة مع سائر الأُمم. بل كان - أيضاً - عالماً تُديره، وتُسيطر عليه - بكُلِّ إحكام - مجموعة من المُلُوك والأُمراء، كُلٌّ في منطقته السّياسيَّة الخاصَّة به، وكان

محروساً ـ بعناية ـ منْ قبَل مصر وسائر القوى العُظْمَى الأُخرى في ذلك الزّمن. في مثل ذلك العالم المُنظّم والمُزدهر لنُخب العصر البرُونزي، كان السُّقُوط السّريع والمُفاجئ والعنيف سيترك ـ بالتّأكيد ـ أثره الدّائم في الذّاكرة، والأساطير، والشّعر.

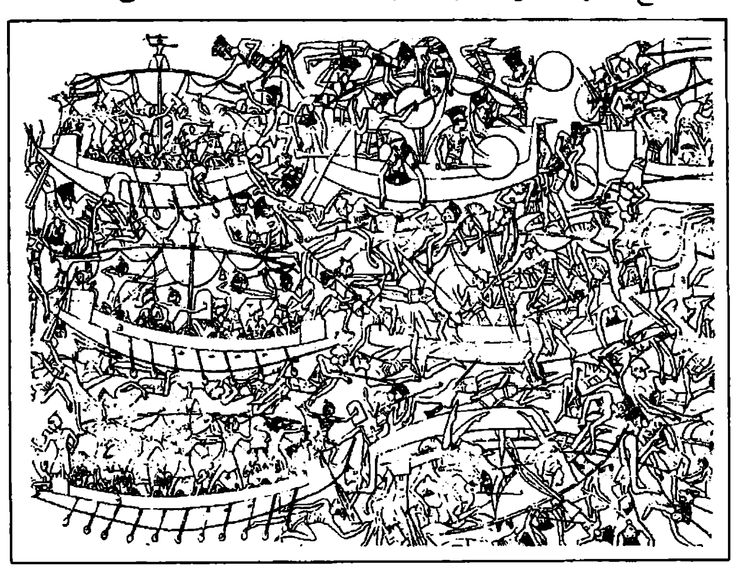
الثّورة العظيمة:

ربَّما بدا المنظر من قُصُور دُول مُدُن كَنْعَان منظراً سلْمياً، ولكنْ؛ كانت هُناك مشاكل جمَّة في الأُفُق، مشاكل ستُسبِّب انهياراً كاملاً لكُلّ الاقتصاد والبنية الاجتماعيَّة للعصر البرُونزي المُتأخِّر. مع حُلُول سنة 1130 ق. م، نرى عالماً مُختلفاً تماماً، مُختلفاً إلى درجة أنَّ أيّاً من سُكَّان مسينة **Mycenae**، أو "نُو آمُون" **No Amon** (عاصمة مصر آنذاك، وهي مدينة الأُقصُر اليوم)، أو "حتُّوشا" **Hattusha** (عاصمة الحثّيّين)، قبل مئة سنة؛ أيْ في العام 1230 ق. م، لن يستطيعوا التّعرُّف عليه. لم تكن مصر ـ حينذاك ـ سوى ظلّ باهت لماضيها المجيد، كانت قد فَقَدَتْ أغلب أراضيها الأجنبيَّة. مَمْلَكَة الحثّيّين انقرضت من الوُجُود، وكانت عاصمتها "حتُّوشا" أنقاضاً خاوية على عُرُوشها. لم يكن العالم المسيني سوى ذكرى خابية، مراكزه الواسعة مُدمَّرة. كانت قُبرُص قد تحوَّلت؛ وتوقَّفت فيها تجارة النُّحاس والسِّلَع الأُخرى. كانت العديد من الموانئ الكَنْعَانيَّة الكبيرة على طُول السّاحل الشّرقي للبحر الأبيض المُتوسّط، بما في ذلك الميناء التّجاري البحري العظيم "أُوغاريت" في الشّمال، مُحترقة كُلّيّاً. كما كانت عديد من المُدُن الدّاخليَّة الرّائعة، مثل "مجدُّو" و"حاصُور" أكواماً من الخرابات المهجورة.

ما الذي حَدَثَ؟ لماذا اختفى العالم القديم؟ لقد اقتنع العُلماء الذين عملوا على حلّ هذه المُشكلة أنَّ السّبب الرّئيسي لها كان الغزوات التي شنَّتْهَا مجموعات غامضة وعنيفة سُمِّيت بـ "شُعُوب البحر"، كانوا مُهاجرين قدموا من الغرب، من البرّ والبحر، وقاموا بتدمير كُلّ شيء وَقَفَ في طريقهم. جاء ذكْر أُولئكَ اللُّصُوص في سجلاّت أُوغاريتيَّة ومصريَّة تعود لأوائل القرن الثّاني عشر ق. م.. يُزوِّدنا نصٌّ وُجدَ في خرابات ميناء أُوغاريت بشهادة مُثيرة عن الوضع حوالي سنة 1185 ق. م.. كان ذلك النَّصُّ رسالة أرسلها: أمُورابي" **Ammurapi**، آخر مُلُوك أُوغاريت، إلى ملك آلاشيا (قُبرُص)، يصف ـ بشَكْل مسعور ـ كيف "وَصَلَتْ مراكب العدوّ، وأشعل العدوُّ النّارَ في المُدُن، ودمَّر، وعاث فساداً. كانت قُوّاتي في بلاد الحثّيّين، ومراكبي في ليسيا **Lycia**، والبلاد تُركَت لأدواتها الخاصَّة". وعلى المنوال نفسه؛

أعرب الملك العظيم الحثّي - في رسالة أرسلها - في تلك الفترة نفسها، إلى حاكم أوغاريت - عن قَلَقه بشأن حُضُور مجموعة من "شعب البحر" تُدعى "شيقالايا" "الذين يعيشون على المراكب".

بعد عشر سنوات، في سنة 1175 ق.م، عمَّ هذا الوَضْعُ في جميع أنحاء الشّمال: كانت حثّي، وآلاشيا، وأوغاريت مُدمَّرة. لكنَّ مصر مازالت قُوَّة هائلة، مُصمِّمة على القيام بدفاع مُستميت. تحكي النُّقُوش التّذكاريَّة لرمسيس الثّالث في معبد "مدينة هابُو" **Medinet Habu** في مصر العُليا، أنَّ "شعُوب البحر" دبَّروا مُؤامرة مزعومة لتدمير الأراضي المُستقرَّة الواقعة شرقي البحر الأبيض المُتوسِّط: "حاكت البُلدان الأجنبيَّة مُؤامرة في جزُرها، أنَّه لا يُمكن لأيّ أرضٍ أنْ تقف أمام أسلحتهم. . . . كانوا يتقدَّمون باتِّجاه مصر، بَيْنما كان اللَّهَبُ قد تمَّ إعداده أمامهم. ضمَّ اتِّحادُهُم الفلسطينيِّين، التّجيكريِّين **Tjeker**، الشّكليشيِّين **Shekelesh**، الدّنينيِّين **Denyen**، والوششيِّين **Weshesh**، الذين اتَّحدت أراضيهم. لقد وضعوا أيديهم على الأراضي بقدر ما تتَّسع له دائرة الأرض، وقالوا - بقُلُوب واثقة ومُطمئنة -: "خُطَطُنا ستَنْجَح!".



الشَّكْل11: نقشٌ نافر(بارز) في معبد مُستودع الجُثث الخاصّ برمسيس الثّالث في مدينة"هابُو" في مصر العُليا، يُبيِّن المعركة البحريَّة مع شعُوب البحر.

على جدارٍ خارجي للمعبد رُسِمَتْ رُسُومات واضحة وحَيَويَّة، تصف المعارك المُتتالية (الشَّكْل رَقْم 11). في أحدها؛ يظهر تشابك للسُّفُن المصريَّة مع الأجنبيَّة في وسط اشتباك بحري فوضوي، مع صُورة لرُماةٍ يستعدُّون لضَرْب سُفُن أعدائهم بالنِّبال، ومُحاربون ميِّتون يسقطون في البحر.

يظهر الغُزاة البحريُّون بأشكال تختلف كثيراً عن أشكال المصريِّين، أو عن أشكال الشُّعُوب الآسيويَّة في الفنِّ المصري. أكثر ما يُميِّز مظهرهم هُو غطاء رأسهم المُميَّز: بعضهم كان يلبس الخُوَذ، في حين كان آخرون يضعون على رُؤُوسهم غطاء رأس غريباً مُرَيَّشاً. على مقربة من ذلك الرَّسْم، يُوجد رَسْم آخر، يُصوِّر معركة بريَّة عنيفة، يشتبك فيها المصريُّون مع مُحاربي "شُعُوب البحر"، بَيْنما عائلات الرِّجال، من النِّساء، والأطفال، يركبون عَرَبات الثِّيران الخشبيَّة للهجرة عبْر الأرض، وينظرون للمعركة بلا حيلة.

بحسب الفرعون رمسيس الثَّالث؛ كانت نتيجة المعارك البريَّة والبحْريَّة حاسمة: [أُولئكَ الذين وَصَلُوا لحُدُودي، لم تنتهِ بذرتُهُم فحسب، بل انتهت قُلُوبهم، وأرواحهم، إلى أبد الآبدين. أُولئكَ الذين تقدَّموا مع بعضهم عبْر البحر، كان اللَّهَبُ الكامل أمامهم. سُحبوا، وأُحيط بهم، وطُرِحوا على الشَّاطئ، ثُمَّ قُتلوا، وجُعلوا أكواماً من ذيلهم لرُؤُوسهم].

مَنْ كان "شُعُوب البحر" المُهدِّدُون أُولئكَ؟

هُناك نقاش علْمي مُستمرٌّ حول أصلهم، والعوامل التي حَرَّكَتْهُم نحو الجنوب والشَّرق. يرى البعض أنَّهم كانوا إيجيِّين؛ في حين؛ يتلمَّس آخرون أصلَهم في جنوب الأناضول، لكنْ؛ ما الذي دَفَعَ بآلاف النَّاس المُشرَّدين من أوطانهم إلى السَّيْر في طُرُق البحر والبَرِّ، بحثاً عن منازل، أو أوطان جديدة؟ هُناك احتمال أنَّهم كانوا اتِّحاداً ضعيفاً من قراصنة، وبحَّارة، بدُون جُذُور، وفلاَّحين مُعدَمين، شُرِّدوا من أوطانهم؛ بسبب المجاعة، أو الضَّغْط السُّكَّاني، أو ندرة الأراضي الزِّراعيَّة. بتحوُّلهم نحو الشَّرق وتحطيمهم للشَّبكة الهشَّة للتِّجارة الدَّوليَّة في شرقي البحر الأبيض المُتوسِّط، أوقعوا الفوضى في اقتصاديَّات العصر البرُونزي، وأرسلوا الإمبراطُوريَّات العظيمة في ذلك العصر إلى عالم النِّسيان.

عَرَضَتْ نَظَرِيَّات أكثرُ حداثةً تفسيراتٍ مُختلفةً بشَكْلٍ مُثير. يُشير البعض إلى تغيير مناخي مُفاجئ دمَّر الزِّراعة، وسبَّب مجاعةً واسعة الانتشار. يفترض آخرون انحلالاً وتعطُّلاً كاملاً للمُجتمعات في كافَّة أنحاء شرقي البحر الأبيض المُتوسِّط، بنَحْوٍ أصبح معه من العسير تحمُّل أيّ تغيُّر اقتصادي، أو ضغط اجتماعي. في كلا السِّناريُوين المُحتملَيْن الأخيرَيْن، لم تكن الهجرات المُفاجئة "لشُعُوب البحر" هي السّبب، بل كانت المُسَبَّب. بكلمةٍ أُخرى؛ أرسل انحلال وتوقُّف اقتصاديَّات القَصْر للعصر البرُونزي المُتأخِّر حُشُوداً من النّاس الذين شُرِّدوا من أوطانهم، ليَهيمُوا في شرقي البحر الأبيض المُتوسِّط؛ بحثاً عن أوطان، ومعايش جديدة.

الحقيقة هي أنَّنا لا نعرف ـ على وجه الدِّقَّة ـ سَبَبَ انهيار العصر البرُونزي المُتأخِّر في كافَّة أنحاء المنطقة. رغم ذلك؛ فإنَّ الشّواهد الآثاريَّة ـ التي تدلُّ على نتيجة ذلك الانهيار ـ واضحة. يأتي الدّليل الأكثر إثارة من من "فيليسطيا" Philistia في جنوب إسرائيل؛ أيْ أرض الفلسطينيِّين، الذين كانوا أحد "شُعُوب البحر"، الذين ذُكروا في نَقْش رمسيس الثّالث. كَشَفَتْ التّنقيبات الأثريَّة في اثنَيْن من المراكز الفلسطينيَّة الرّئيسيَّة: "أشدود" و"عقرُون" شواهد مُفيدة حول سنوات الاضطرابات تلك.

في القرن الثّالث عشر ق.م؛ كانت "أشدود" ـ بشَكْلٍ خَاصٍّ ـ مركزاً كَنْعَانيّاً ناجحاً، يعيش تحت التّأثير المصري. بقيت كلتا "أشدود" و"عقرُون" حتَّى أيَّام رمسيس الثّالث على الأقلّ، ثُمَّ دُمِّرَت واحدة من المدينتَيْن، على الأقلّ؛ أيْ "أشدود"، بحَرْقها بالنّار.

أسَّس المُهاجرون الفلسطينيُّون مُدُنهم على الخراب. وفي القرن الثّاني عشر ق.م؛ كانت "أشدود" و"عقرُون" قد أصبحتا مدينتَيْن مُزدهرتَيْن، مع ثقافة ماديَّة جديدة. استُبْدلَت المظاهر القديمة للهندسة المعماريَّة والسّيراميك التي كانت مزيجاً مصريّاً كَنْعَانيّاً بشيء جديد تماماً في هذا الجُزء من البحر الأبيض المُتوسِّط: هندسة معماريَّة وأنماط فخَّاريَّة إيجيَّة.

وفي أجزاء أُخرى من البلاد؛ انحلَّ، وتعطَّل النّظام في العصر البرُونزي المُتأخِّر؛ بسبب انتشار عُنْف لم يتَّضح مصدره ـ بشَكْلٍ كامل ـ حتَّى الآن. بسبب الفترة الزّمنيَّة الطّويلة ـ حوالي قرن ـ لانهيار نظام "دُول المُدُن" الكَنْعَانيَّة، من المُحتمل أنْ تكون الأزمة الشّديدة قد أدَّت إلى

حُصُول نزاعات بَيْن المُدُن الكَنْعَانيَّة المُتجاورة من أجل السَّيْطَرَة على الأراضـي الزّراعيَّـة الحَيَويَّة، وعلى قُرَى الفلاَّحين. في بعض الحالات؛ لربَّما قام الفلاَّحـون ـ الذيـن يمـرُّون بصُعُوبـات بالغـة ـ والسُّكَّان الرُّعاة، بمُهاجمة المُدُن الغنيَّة في وسطهم. سقطت المراكز الكَنْعَانيَّة القديمة؛ واحـداً بعـد الآخر، في حرائق مُثيرة ومُفاجئة، أو دَخَلَتْ في مرحلة انحدار وانحطاط تدريجي.

في الشّمال، أُحرقَت "حاصُور"، وقطِّعَتْ رُؤُوس تماثيل الآلهة في قَصْرها المَلَكـي، وَجُعلَت حطاماً.

وعلى السّهل السّاحلي؛ دُمِّرَت مدينة "أفيق" بنارٍ رهيبة؛ تمَّ العثُور علـى لـوح مسماري، يتعلَّق بصفقة حنطة حَيَويَّة بَيْن "أوغـاريت" ومصـر فـي حُطـام الدّمـار السّميك. وإلـى الجنـوب أكثر؛ أُحْرقَت المدينة الكَنْعَانيَّة البارزة "لَخيْش"، وهُجرَتْ.

وفي وادي "يَزْرَعيل" الغني، تُركَتْ "مَجدُّو" لُقْمَـةً سـائغةً لألسـنة اللَّـهَب، ودُفـن قَصْرهـا تحت ستَّة أقدام من حُطام الطّابوق المُحترق.

يجب التّأكيد على أنَّ هذا التَّحوُّل العظيـم لـم يكـن فُجائيّاً فـي كُـلِّ مكـان. تُشير الأدلَّـة الآثاريَّة إلى أنَّ دمار المُجتمع الكَنْعَاني كان عَمَليَّة طويلة وتدريجيَّة نسبيّاً. الأنواع الفخَّاريَّة التي وُجدَتْ في أنقاض "حاصُور" العصر البرُونزي المُتأخِّر، فـاقدة للأشـكال المُميَّزة لأواخـر القـرن الثّالث عشر ق.م، لذا؛ لابُدَّ أنْ تكـون قـد دُمِّرت فـي زمـن أسبق بعـض الشّـيء. فـي مدينـة "أفيق"، يحمل اللّوح المسماري ـ في أحد طبقات الدّمار ـ أسماء مسؤولين من أُوغاريت ومصـر معروفة مـن مصـادر أُخرى، وبالتَّـالي؛ يُمكـن تأريخـها إلـى حوالـي 1230 ق.م. يُمكـن أنْ يكون المعقل المصري هُناك قد دُمِّر في أيِّ وقت، في العقدَيْن أوالثّلاثة التي تَلَتْ. وَجَدَ المُنقِّبون في "لَخيْش" فـي طبقـة الدّمـار، جُزءاً معدنيّاً، مـن المُحتمـل أنْ يكـون مُلائمـاً للبـاب الرّئيسـي للمدينة، يحمل اسم الفرعون رمسيس الثّالث.

هذا الاكتشاف يُخبرنا بأنَّ "لَخيْش" يجب أنْ تكون قد دُمِّرَت في وقت ليس أبكر من عـهد هذا الملك، الذي حَكَمَ بَيْن 1184 و1153 ق.م..

أخيراً؛ في خرابات "مَجدُّو"، تمَّ اكتشاف قاعدة معدنيَّة لتمثال يحمل اسم رمسيس الرّابع (1143 ـ 1136 ق. م)، ممَّا يُشير إلى أنَّ ذلك المركز الكَنْعَاني العظيم لوادي "يَزْرَعيل" قد تمَّ تدميره ـ احتمالاً ـ في النّصف الثّاني من القرن الثّاني عشر.

مُلُوك كُلِّ هذه المُدُن الأربع "حاصُور"، "أفيق"، "لَخيْش"، و"مَجدُّو"، ذُكر بأنَّهم قد هُزِموا على أيدي الإسرائيليِّين تحت قيادة يشُوع، لكنَّ الأدلَّة الآثاريَّة تُظهر بأنَّ دمار تلك المُدُن حَدَثَ على مدى أكثر من قرن. الأسباب المُحتمَلَة لذلك الدّمار هي: إمَّا عمليَّات غزو، أو انحلال اجتماعي، أو حُرُوب أهليَّة؛ أيْ أنَّه لم تقم بذلك الدّمار قُوَّة عسكريَّة وحيدة، وبالتّأكيد؛ لم يتمَّ ذلك الدّمار خلال حَمْلَة عسكريَّة واحدة.

ذكريات في حالة تحوُّل:

حتَّى قبل أنْ تضع نتائج الاكتشافات الآثاريَّة علامات سُؤالٍ كبيرة حول الأساس التّاريخي لغزو وفُتُوحات يشُوع في كَنْعَان، كانت هُنَاك دائرة صغيرة من العُلَماء بالكتاب المُقدَّس الألمان تتأمَّل في تطوُّر التّقليد الأدبي الإسرائيلي، بَدَلاً من التَّأمُّل في استراتيجيَّات ساحة المعركة. كَوَرَثَة للاتِّجاه النَّقْدي القويّ الذي تميَّز به القرن التّاسع عشر، أشار ذلك الفريق من العُلَماء إلى وُجُود تضاربات داخليَّة في النَّصِّ التّوراتي، الذي يحتوي ـ على الأقلِّ ـ على روايتَيْن مُتميِّزتَيْن ومُتناقضتَيْن ـ بشَكْل مُتبادَل ـ لقصَّة غزو الإسرائيليِّين لكَنْعَان.

طالما عدَّ العُلَماءُ الألمانُ كتابَ يشُوع مجموعةً مُركَّبةً من: أساطير، وقَصَص أبطال، وحكايات محلِّيَّة، أُخذت من مناطق مُختلفة من البلاد، تمَّ تأليفها مع بعض عبْر القُرُون. لقد حاول العالمان بالكتاب المُقدَّس "ألبريخت الت" "ومارتن نُوث" ـ بشَكْل خَاصٍّ ـ إثبات أنَّ عديداً من القَصَص التي أُبقيت ضمن كتاب يشُوع لم تكن أكثر من تقاليد، كان يُصار إليها بنَحْوٍ يُشابه ـ لحَدٍّ كبير ـ منهج "علْم أسباب الأمراض"؛ أيْ بمعنى آخر، أنَّها كانت أساطير تُحاول أنْ تفسِّر كيفيَّة حُصُول المعالم المشهورة، أو أنَّها ناتجة عن الفُضُول الطّبيعي لدى الإنسان. مثلاً؛ لا شكَّ أنَّ النّاس الذين كانوا يعيشون في قرية بيت إيل ـ في العصر الحديدي ـ وما حولها، قد لاحظوا التَّلَّ الضّخم للخرابات أو الآثار العائدة للعصر البرُونزي المُبكِّر إلى الشّرق منهم. كانت تلك

الخرابات والآثار أكبر عشرة مرأت - تقريباً - من بلدتهم الخاصَّة، وكانت بقايا تحصيناته ماتزال رائعة، لذا؛ حاول "ألبرخت الت" و"مارتن نُوث" إثبات أنَّه ربَّما كانت الأساطير قد نَمَتْ حول تلك الخرابات، ونَمَتْ قَصَص انتصار الأبطال القُدماء، التي وضَّحت كيف كان من المُمكن لمثل تلك المدينة الكبيرة أنْ تُدَمَّر.

في منطقة أُخرى من البلاد، ربَّما كان النّاس الذين يعيشون في تلال شفيلة Shephelah قد أُعجبوا بالحجم الكبير للصّخرة التي تسدُّ مدخل مغارة سرِّيَّة غامضة قُرْب بلدة "مَقِّيدَة"، لذا؛ ربَّما تكون قد نشأت قَصَص تربط بَيْن الحجارة الضّخمة والأفعال البُطُوليَّة في ماضيهم الخاصِّ الخافت: لقد سدَّت الصّخرةُ فمَ المغارة، التي كان خمسة من المُلُوك القُدماء قد اختفوا فيها، ثُمَّ دُفنوا فيها فيما بعد، كما يُوضِّحه سفر يشُوع 10/ 16 - 27. طبقاً لوُجهة النَّظَر هذه، القَصَص التّوراتيَّة التي انتهت بمُلاحظة أنَّ بعض المعالم كان مايزال يُمكن رُؤيتها "إلى يومنا هذا"، كانت - احتمالاً - أساطير من هذا النّوع. وفي وقت ما؛ تمَّ تجميع هذه القَصَص الفَرْديَّة، ورَبْطها مع بعض؛ لتُشكِّل حَمْلَة فَتْح واحدة، يقودها زعيم أُسطُوري عظيم.

على العكس من إعطائهما سفر يشُوع صفة الأُسطُوريَّة بشَكْل كبير؛ نَظَرَ "ألبريخت الت" "ومارتن نُوث"، إلى الإصحاح الأوَّل من سفر القُضَاة على أنَّه يمتلك - احتمالاً - نُواةً موثوقةً يُمكن الاعتماد عليها لانتصارات قديمة، حقَّقتْهَا ميليشيات جَبَليَّة مُتناثرة على نطاق واسع، على مُختلف المُدُن التي كانت تُهَيْمن عليهم.

في الحقيقة؛ الحالة الفوضويَّة لدمار المُدُن الكَنْعَانيَّة في بعض الأماكن، وبقائها في أماكن أُخرى يتَّفق أكثر مع الدّلائل الآثاريَّة. مع ذلك؛ ليس هُناك سبب يُفسِّر لماذا لا يُمكن أنْ تشتمل قصَّة الغزو في سفر يشُوع على ذكريات شعبيَّة - أيضاً - وعلى أساطير كانت تُحيي ذلك التَّحوُّل التّاريخي. إنَّها يُمكن أنْ تُقدِّم لنا لمحات مُتناثرة ومُتفرِّقة جداً عن العُنْف، والعاطفة، والغبطة عند دمار المُدُن، والذّبح المُروِّع لسُكّانها، الذي حَدَثَ بشَكْل واضح. مثل هذه التّجارب المُؤلمة، من البعيد أنْ يتمَّ نسيانها كُلِّيّاً، وفي الحقيقة؛ ربَّما تكون ذكرياتها الواضحة سابقاً، والتي نَمَتْ، وتوسَّعت، بنَحْو مُبهَم وتدريجي عبْر القُرُون، لتُصبح المادَّة الخامَّ لإعادة رواية

القصَّة بنَحْو أكثر إتقاناً بكثير. وبناءً على ذلك، فليس هُناك سبب لافتراض أنَّ احتراق "حاصُور" لم يحدث على أيدي قُوَّات مُعادية مثلاً، لكنَّ الذي كان - في الواقع - سلسلة فوضويَّة من الثورات، سبَّبها العديد من العوامل المُختلفة، ونفَّذتْهَا العديد من المجموعات المُختلفة، أصبح - بعد عدَّة قُرُون لاحقة - قصَّة مُصاغة - بشَكْل مُبدع - لفَتْح أراضٍ، بمُباركة الله، وقيادته المُباشرة. لقد تمَّ الإنتاج الأدبي لتلك القصَّة لأغراض مُختلفة - تماماً - عن إحياء أساطير محلِّيَّة. لقد كان - كما سنرى - خُطوة هامَّة نحو إيجاد الهُويَّة الإسرائيليَّة الجامعة.

عودة للمُستقبل مرَّة ثانية؟

هذه الصُّورة الأساسيَّة للتَّراكم التَّدريجي لأساطير وقَصَص - واندماجها النِّهائي في قصَّة مُتماسكة وحيدة ذات رُؤية لاهُوتيَّة مُحدَّدة - كانت من نتاج تلك الفترة المُبدعة بنَحْو مُدهش، التي تميَّزت بالإنتاج الأدبي لمَمْلَكَة يهُوذا في القرن السَّابع ق.م. . لعلَّ أكثر مُؤشِّر مفتاحي يدلُّنا على أنَّ سفر يشُوع إنَّما تمَّ تأليفه في ذلك الوقت هُو قائمة البلدات في أرض قبيلة يهُوذا، والتي ذُكرت - بالتَّفصيل - في سفر يشُوع 15 / 21 - 62. تتطابق هذه القائمة - بالضَّبط - مع حُدُود مَمْلَكَة يهُوذا في عهد الملك "يُوشيًّا". علاوةً على ذلك؛ تتطابق أسماء الأماكن المذكورة في القائمة - لحَدٍّ كبير - مع أسماء نماذج القُرَى المأهولة في المنطقة نفسها، في القرن السَّابع ق.م، بل إنَّ بعض المواقع لم تُسْكَن إلاَّ في العُقُود الأخيرة من القرن السَّابع ق.م. .

لكنَّ الجَغرافيا ليست الصِّلة الوحيدة بَيْن النَّصِّ وعصر الملك "يُوشيًّا"، بل نجد ملامح عقيدة الإصلاح الدِّيني والتَّطلُّعات الإقليميَّة التي تُميِّز ذلك العصر واضحة - أيضاً - في النَّصِّ. رأى العُلَماء المُختصُّون بالكتاب المُقدَّس - مُنْذُ مُدَّة طويلة - أنَّ سفر يشُوع هُو جُزء من ما سمُّوه بالتَّاريخ التَّثنوي Deuteronomistic History، الذي يجمع سبعة أسفار (من الكتاب المُقدَّس) تبدأ من سفر التَّثنية، وتنتهي بسفر المُلُوك الثَّاني، والتي تمَّ تأليفها جميعاً في عهد الملك "يُوشيًّا". يعود التَّاريخ التَّثنوي - مراراً وتكراراً - إلى الفكرة التي ترى أنَّه يجب أنْ تُحْكَم جميع أرض إسرائيل منْ قِبَل زعيم يختاره اللهُ، يحكمُ كاملَ شعب إسرائيل، مُتَّبعاً في حُكْمه - بدقَّة - شريعة الله التي أنزلها في سيناء، ومُراعياً التَّحذيرات الأكثر صرامة ضدَّ عبادة الأصنام، التي

بَلَّغَها مُوسى لبني إسرائيل في كتـاب سفْر التّثنيـة . إنَّ لُغـة سـفْر التّثنيـة ، وأُسـلُوبه ، والرّسـائل اللاّهُوتيَّة الصّارمة التي يتضمَّنها ، نجدها نفسها ـ بشكْل واضـح ـ في كافَّة أنحـاء سفْر يشُـوع ، خُصُوصاً ؛ في الفقرات التي تمَّ فيها نَسْجُ قَصَص المعارك الفَرْديَّة مع بعض ؛ لإنتاج قصَّة الغزو ، وفَتْح كَنْعَان الكبيرة ، وتُلائم خُطَّة المعركة العامَّة فـي سفْر يشُـوع حقـائقَ القـرن السّـابع ق . م ، أكثر بكثير ممَّا كان عليه الحال في العصر البرُونزي المُتأخِّر .

إنَّ المعركتَيْن الأوَّليَّتَيْن في كتـاب يشُـوع ، ضـدَّ أريحـا و"عـاي" (أيْ : منطقـة بيـت إيـل) ، وَقَعَتَا فـي الأراضـي نفسـها ، التـي كـانت الـهَدَفَ الأوَّل لتوسُّـع الملـك "يُوشـيًّا" شـمالاً ، عقـب انسحاب الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة من مُحافظة السّامرة . كانت أريحـا تُمثِّـل المخفـر الأمـامي فـي أقصى الجنوب الشّرقي للمَمْلَكَة الشّماليَّة لإسرائيل ، وكـانت المُحافظـة الآشُـوريَّة التّاليـة ، تقـع مُقابل ذلك المعـبر الاسـتراتيجي فـي نـهر الأُردُن . كـانت "بيـت إيـل" ـ مركـز العبـادة الرّئيسـي ، والمكروه جداً في المَمْلَكَة الشّماليَّة ـ مركز التّوطين الآشُوري للأقوام غـير الإسـرائيليّين[1] . كـلا المكانَيْن كانا ـ فيمـا بعـد ـ أهدافـاً لنشـاط الملـك "يُوشـيًّا" : لقـد ازدهـرت أريحـا ومـا حولـها بعـد السَّيْطَرَة اليَهُوَذَويَّة عليها ، وتمَّ تدمير المعبد الشّمالي في بيت إيل بشكْل كامل .

وأيضـاً ؛ تُـوازي قصَّـة غـزو "شـفيلة" Shephelah ، التَّوسُّـعَ اليَـهُوَذَويَّ المُجـدَّد فـي تلـك المنطقة المُهمَّة والخصبة جداً . هـذه المنطقـة التي تُعَدُّ المنطقـةَ التّقليديَّـةَ لإنتـاج الحُبُـوب ليـهُوذا ، فَتَحَهَا الآشُوريُّون قبل عقُود قليلة ، وأُعْطيَت إلى مُدُن فيلسطيا Philistia .

في الحقيقة ؛ يُخبرنا سـفْر المُلُـوك الثّـاني : 22 / 1 بـأنَّ أُمَّ "يُوشـيًّا" جـاءت مـن بلـدة تُسـمَّى "بُصْقَة" . لم تُذْكَر هذه البلدة إلاَّ مرَّة ثانيـة ـ فقـط ـ فـي الكتـاب المُقـدَّس فـي قائمـة بلـدات قبيلـة

---

(1) قصَّة الجبعونيِّين ، الذين "جاؤوا من أرض بعيدة" وأرادوا عقد ميثاق مـع الإسـرائيليِّين الغُـزاة (يشـوع 9/ 3 ـ 27) ، يُمكن أنْ تعكس ـ أيضاً ـ تبنِّياً لحقيقة من حقائق القرن السّابع ق . م . يتمُّ إظهارها بثوب قصَّة قديمة . عندما توسَّع الملك "يُوشيًّا" شمالاً إلى منطقة "بيت إيل" بعد انسحاب الإمبراطُوريَّة الآشوريَّة ، واجـهت دولـة يَهُوذا مُشـكلة إدمـاج أحفـاد المُبعدين الذين جَلَبَهُم الآشوريُّون من بعيد ، ووطَّنوهم هُناك قبل عقُود قليلة . ذكْـر "العَـوِّيم" Avvim فـي هـذه المنطقـة في يُوشع 18 / 23 يسـتدعي للذّاكرة الاسـم : "عَـوَّا" Avva ـ أحـد أمـاكن المُبعديـن المذكـورة فـي سـفْر المُلُـوك الثّـاني 17 / 24 . كانت المُشكلة العويصة ـ بشكل خاصٍّ ـ في عهد الملك "يُوشيًّا" هي كيـف يُمكـن امتصـاص أولئـك الذيـن كـانوا مُتعاطفين مع دولة يَهُوذا في المُجتمع . يُمكن لقصَّة الجبعونيِّين القديمة أنْ تُزوِّدنا بسياق "تاريخي" يشرح فيه سـفْر التّثنيـة كيف كان يُمكن عمل مثل ذلك الأمر . (المُؤلِّف) .

يهُوذا، التي يعود زمنها إلى عهد الملك "يُوشيًا" (يشُوع 15 / 39)؛ حيثُ تظهر هُناك "بُصْقَة" بَيْن "لَخيْش" و"عجلون"، المدينتَيْن الكَنْعَانيَّيْن اللَّتَيْن تلعبان دوراً رئيسياً في قصَّة غزو يشُوع لـ "شفيلة" Shephelah.

تتَّجه قصَّة حَمْلَة يشُوع ـ بعد ذلك ـ نحو الشّمال، تعبيراً عن رُؤية القرن السّابع ق.م، لفُتُوحات إقليميَّة مُستقبليَّة. إنَّ الإشارة إلى "حاصُور" تستدعي إلى الذّهن ليس سُمعتها في الماضي البعيد كأبرز دُول المُدُن الكَنْعَانيَّة فحسب، بل تستدعي ـ كذلك ـ حقائق قرنٍ واحدٍ قبل ذلك أيضاً، عندما كانت "حاصُور" المركز الأكثر أهميَّة لَمَلَكَة إسرائيل، في الشّمال، وبعد فترة وجيزة تالية، أصبحت مركزاً إقليمياً هاماً للإمبراطوريَّة الآشُوريَّة (السُّوريَّة)، بقَصْرها الرّائع، وقلعتها المُثيرة للإعجاب. كذلك لا يقلُّ أهميَّة في مغزاه ـ عمَّا سَبَقَ ـ ذكْر "نافوت دُور" Naphot Dor، مُلمِّحاً ـ احتمالاً ـ إلى الأيَّام التي كانت مدينة "دُور" فيها عاصمة مُحافظة آشُوريَّة.

في المجموع؛ تنطبق الأراضي الشّماليَّة المذكورة في سفْر يشُوع على أراضي مَمْلَكَة إسرائيل المقهورة، والتي صارت ـ فيما بعد ـ مُحافظات آشُوريَّة، تلك الأراضي التي كانت يهُوذا تعتقد أنَّها ميراثها الموهوب من الله لشعب إسرائيل، والتي كانت ستُسْتَرَدُّ ـ قريباً ـ من قبَل يشُوع "جديد".

غزوٌ جديدٌ للأرض الموعودة؟

عندما تُوِّجَ "يُوشيًا" ملكاً عام 639 ق.م، كانت فكرة قداسة ووحدة أرض إسرائيل ـ ذلك المفهوم الذي أكَّد عليه سفْر التّثنية بعاطفة قويَّة جداً ـ ماتزال بعيدة عن الإدراك. باستثناء الوسط الصّغير جداً لمَمْلَكَة يهُوذا (الحقّ التّقليدي لقبائل يهُوذا وسيمون والشّريط الضّيِّق إلى الشّمال منه، والذي يُمثِّل الحقّ التّقليدي لبنيامين)، كانت الأغلبيَّة العُظْمَى لأرض الميعاد خاضعة لسيطرة قُوَّة أجنبيَّة، هي الإمبراطوريَّة الآشُوريَّة، وبقيت كذلك لمُدَّة قرن تقريباً، بل كانت يهُوذا ـ أيضاً ـ تابعة لأمر الإمبراطوريَّة الآشُوريَّة.

كان تفسير الكتاب المُقدَّس العبْريّ لهذه الحالة الحزينة مُتجهِّماً شديداً، بقَدْر ما كان بسيطاً. في الأوقات الأخيرة؛ لم يفِ شعب إسرائيل بالتزامه بقوانين الميثاق، التي كانت

الشّرط الأساسي لامتلاكهم الأرض الموعودة. لم يستأصلوا كُلّ أثر للعبادة الوَثَنيَّة. لم يتوقَّفوا عن تقديم الثّناء لآلهة الشُّعُوب الأُخرى في مُحاولتهم لكَسْب الثّروة من خلال التّحالفات التّجاريَّة أو السّياسيَّة، لم يتَّبعوا شرائع الطّهارة في الحياة الشّخصيَّة بإخلاص، لم يهتمُّوا حتّى بتقديم أدنى إغاثة لإخوانهم الإسرائيليّين، الذين وَجَدُوا أنفسَهُم مُسْتَعبَدين، أو مُعْدَمين، أو مُتَحَمِّلين لدُيُون باهظة.

باختصار؛ توقَّفوا عن كَونهم جماعة مُقدَّسة. كان الطّريق الوحيد للتَّغلُّب على ذُنُوب الأجيال السّابقة، والسّماح للإسرائيليّين باستعادة امتلاك كامل أرض إسرائيل، هُو التَّمسُّك الدّقيق جداً (لَحَدُّ الوَسْوَسَة) بالتّشريع المنصوص عليه في كتاب "سفر الشّريعة"، الذي تمَّ اكتشافه مُؤخَّراً.

بعد سنوات قليلة؛ انسحب الآشُوريُّون، وبدا توحُّد جميع الإسرائيليّين مُمكناً. عَرَضَ سفر يشُوع مَلْحَمَةً غير مَنْسيَّة، مع درس واضح مفاده أنَّه: عندما اتَّبع شعب إسرائيل شريعة الميثاق، الذي أخذه اللهُ عليهم اتِّباعاً حَرْفيّاً، لم يُحَلْ بَيْنهم وبَيْن الانتصار في أيِّ معركة.

هذه النُّقطة تمَّت صياغتها بواسطة أكثر القَصَص الشّعبيَّة قُوَّة - سُقُوط أسوار أريحا، وقُوف الشّمس بلا حراك في جبْعون، اندحار المُلُوك الكَنْعَانيّين إلى الأسفل نحو المُرتقى الضَّيِّق في بيت حورون -؛ حيثُ دُمِجَتْ تلك القَصَصُ، وصُبَّت في مَلْحَمَة واحدة ذات خلفيَّة قرن سبعيَّة ق. م، مألوفة وإيحائيَّة جداً، وأُجريت المعارك في الأماكن ذات الأهمِّيَّة الخاصَّة بالنِّسبة للعقيدة التّثنويَّة. كان أهالي يهُوذا في أواخر القرن السّابع ق. م - بقراءتهم وتلاوتهم لتلك القَصَص - سيرون فيها تعبيرا قويّاً عن أعمق آمالهم ومُعتقداتهم الدِّينيَّة.

بهذا المعنى؛ يُعَدُّ سفر يشُوع تعبيراً أدبيّاً كلاسيكيّاً عن حنين وتخيُّلات شعب في زمن ومكان مُعيَّنَيْن. وقد استُخْدِمَت الشّخصيَّة الرّفيعة ليشُوع لاستدعاء صُورة مجازيَّة لـ"يُوشيّا"، المُنقذ المُنتظَر لكُلِّ شعب إسرائيل.

في الحقيقة؛ برهن العالم التّوراتي الأمريكي "ريتشارد دي. نيلسن" كيف وُصِفَتْ شخصيَّة يشُوع في أسفار التّاريخ التّثنوي بعبارات تخصُّ - عادةً - الملك. لقد تمَّ تأطير نَصْب الله

ليشُوع، عند تولّيه القيادة (يشُوع 1 / 1 ـ 9) بأسلُوب كلامي يخصُّ ـ عادةً ـ التّنصيب الملَكي. وتُذكّرُنا بَيْعَةُ النّاس على الطّاعة الكاملة ليشُوع كَخَليفة لمُوسى (يشُوع 1/ 16 ـ 18) بعادة السُّجُود العامّ للملك الذي يتمُّ تتويجه حديثاً. قاد يشُوع مراسمَ تجديد الميثاق (يشُوع 8/ 30 ـ 35)، وهُو دور أصبح امتيازاً خاصّاً لمُلُوك يهُوذا. والأكثر دلالة من كُلّ ما سَبَقَ تلك الفقرة التي يأمر اللهُ فيها يشُوع: [أنْ لا يَبْرَحْ سفر هَذه الشّريعَة منْ فَمكَ، بَلْ تَلْهَجُ فيه نَهَاراً وَلَيْلاً] (يشُوع 1 / 8 ـ 9)، في تشابهٍ غريب مع وَصْف الكتاب المُقدَّس العبْريّ لـ"يُوشيَّا" كَملك مُهتمّ ـ فقط ـ بدراسة الشّريعة، وأنَّه شخصٌ [قَدْ رَجَعَ إلَى الرَّبّ بكُلّ قَلْبه، وكُلّ نَفْسه، وكُلّ قُوَّته، حَسَبَ كُلّ شَريعَة مُوسى] (سفر المُلُوك الثّاني: 23 / 25).

ليس هذا مُجرَّد تشابهات عاديَّة بَيْن شخصيَّات مُستقيمة في الكتاب المُقدَّس العبْريّ، لكنَّه تشابه مُباشر في أسلُوب الكلام، وفي العقيدة، بالإضافة للأهداف الإقليميَّة المُتماثلة لكُلّ من "يشُوع" و"يُوشيَّا". بالطّبع؛ تَوَسَّعُ "يُوشيَّا"، أو رَغْبَتُهُ بضمّ أراضي مُرتفعات المَمْلَكَة الشّماليَّة، أنْعَشَ آمالاً عظيمة، لكنَّه ـ في الوقت نفسه ـ طَرَحَ صُعُوبات عَمَليَّة حادَّة. كان هُناك التَّحدِّي العسكري المُطلَق. كانت هُناك حاجة لأنْ يُثْبتَ للسُّكَّان المحلّيّين للمُرتفعات الشّماليَّة بأنَّهم كانوا ـ في الحقيقة ـ جُزءاً من شعب إسرائيل العظيم، الذي قاتل ـ جنباً إلى جنب ـ شعب يهُوذا لوراثة أرض الميعاد. وكان هُناك ـ أيضاً ـ مُشكلة التَّزوُّج بالنّساء الأجنبيَّات (غير الإسرائيليَّات)، التي أصبحت مُمارسة شائعة بَيْن الإسرائيليّين، الذين بقوا في أراضي المَمْلَكَة الشّماليَّة، والذين قام الآشُوريُّون بتوطين أجانب مُبْعَدين بَيْن ظهرانيهم.

إنَّه الملك "يُوشيَّا" الذي يقف وراء قناع "يشُوع" في إعلانه بأنَّ شعب إسرائيل يجب أنْ يبقى مُنْفَصلاً ـ تماماً ـ عن السُّكَّان المحلّيّين للأرض. هكذا يُبرز سفر يشُوع ـ بشَكْل واضح ـ أعمقَ مخاوف القرن السّابع ق.م، وأكثرها ضغطاً. وكما سنرى ـ لاحقاً ـ كانت قُوَّة هذه المَلْحَمَة هي تمكُّنها من البقاء حتَّى بعد زمن طويل من الفشل المأساوي لخُطَّة الملك "يُوشيَّا" الطّمُوحة والدّينيَّة والتّقَويَّة لإعادة احتلال أرض كَنْعَان.

الفَصْل (4):

مَنْ كان الإسرائيليُّون؟

لم يترك الكتاب المُقدَّس أيَّ مجال للشَّكِّ أو الإبهام حول الأصل الواحد لشعب إسرائيل. فقد عُدَّتْ قبائل إسرائيل الاثنَا عشر: الذُّرِّيَّة البيُولُوجيَّة، عبْر عديد من الأجيال، لأبناء يعقُوب الاثنَيْ عشر؛ أيْ النّسل المُباشر للآباء: إبراهيم، وإسحق، ويعقُوب. وعلى الرّغم من مرحلة العُبُوديَّة في مصر التي امتدَّت لمُدَّة 430 سنة، وُصفَ الإسرائيليُّون أنَّهم لم ينسوا ـ أبداً ـ جذُورهم في كَنْعَان، أو ميراثهم المُشترَك.

يُشدِّد الكتاب المُقدَّس ـ في الواقع ـ على أنَّ مُحافظة شعب إسرائيل على طريقته الخاصَّة في الحياة، وعلاقته الخاصَّة مع الله، كانت مفتاح مُستقبل ذلك الشّعب. في سفْر التّثنية؛ كان مُوسى قد وَعَدَ الأُمَّة الإسرائيليَّة بأنَّها إذا تمسَّكت ـ بقُوَّة ـ بشريعة الميثاق، وامتنعت عن التّزاوج مع جيرانها (غير الإسرائيليّين)، واجتنبت ـ بشدَّة ـ الوقُوع في شَرَك الطُّرُق الوثَنيَّة لكَنْعَان، فإنَّها ستعيش في أمن وسلام، مُمتلكةً أرضَ الميعاد للأبد. يروي سفْر يشُوع ـ بتفصيل كبير ـ أنَّه ـ فور انتهاء الغزو الكبير لكَنْعَان ـ قام الزُّعماء الإسرائيليُّون بتقسيم الأرض ـ التي طُهِّرَتْ في أغلبها ـ من سُكَّانها الكَنْعَانيِّين الأصليِّين ـ بيْن القبائل الإسرائيليَّة المُنتصرة، كَميراث أبدي لها.

ولكنْ؛ تُوجد في سفْر يشُوع، وفي سفْر القُضَاة الذي يليه، بعض التّناقضات الهامَّة، التي تتعارض مع هذه الصُّورة لوراثة القبائل لكُلِّ أرض إسرائيل. فعلى الرّغم من أنَّ سفْر يشُوع يُعلن في مَوْضع منه أنَّ الإسرائيليِّين استولوا على كُلِّ الأرض التي وَعَدَهُم الله، وهزموا كُلَّ أعدائهم (يشُوع: 21/ 43 ـ 44)، فإنَّ هُناك فقرات في سفْر يشُوع وسفْر القُضَاة تُبيِّن أنَّ كثيراً من الكَنْعَانيِّين والفلسطينيِّين كانوا يعيشون إلى جوار الإسرائيليِّين بنَحْو مُباشر، وأنَّ التّزاوج مع الأُمم الأُخرى كان وارداً، كما في حالة "شمشون"، كما أنَّه كانت هُناك ـ أيضاً ـ

مشاكل ضمن العائلة الواحدة، ففي سفْر القُضَاة؛ تتَّفق القبائل الإسرائيليَّة على الاتِّحاد لأجل شنِّ الحرب على قبيلة "بنيامين"، قاطعين على أنفسهم عهداً أنْ لا يَتَزَوَّجُوا منهم، ولا يُزَوِّجُوهُم أبداً (القُضَاة 19/ 21). وأخيراً؛ يبدو أنَّ القبائل المُختلفة تُركَت لتحلَّ مشاكلها المحلِّيَّة الخاصَّة تحت قيادة زُعمائها الفاتنين، حتَّى إنَّ أُغنيَّة "دبوره" (القُضَاة: 5) تُعَدِّد أيَّ القبائل الخاصَّة كانت وفيَّة، واستجابت، واهتمَّت لنداء التّضامن في سبيل كُلِّ إسرائيل، وأيَّ القبائل فضَّلت أنْ تبقى في أوطانها الخاصَّة.

إذا كانت قَصَص الآباء والخُروج - كما يقترح علْم الآثار - أساطير تمَّ تأليفها في أزمنة مُتأخِّرة، وإذا لم يكن هُناك أيُّ دليل مُقنع على وُجُود غزوٍ مُوحَّد لكَنْعَان تحت قيادة يشُوع، فماذا سنفعل بالادِّعاءات الإسرائيليَّة بشأن القوميَّة القديمة التي تجمعهم؟ مَنْ كان أُولئكَ النّاس الذين أعادوا تقاليدهم إلى الوراء لأحداث تاريخيَّة وعباديَّة مُشتركة؟ مرَّة ثانيةً؛ يُمكن لعلْم الآثار أنْ يُزوِّدنا - هُنا - ببعض الأجوبة المُفاجئة. يُمكن للتّنقيبات الأثريَّة في القُرَى الإسرائيليَّة القديمة، وما تُقدِّمه من فخّاريَّات، ومنازل، وحُبُوب السّيلوس Silos أنْ تُساعدنا على إعادة بناء حياة الإسرائيليِّين اليوميَّة، ومعرفة صلاتهم الثّقافيَّة.

يكشف علْم الآثار - بنَحْو مُدهش - أنَّ النّاس الذين كانوا يعيشون في تلك القُرَى إنَّما كانوا - هُم - السُّكَّان الأصليِّين لكَنْعَان، الذين طوَّروا - بشَكْل تدريجيّ فقط - هُويَّة عرْقيَّة، أصبح بالإمكان إطلاق اصطلاح: "الإسرائيليِّين" عليها.

وراثة الأرض الموعودة:

يُخبرنا سفْر يشُوع أنَّه لدى انتهاء عمليَّات الغزو الكبير لكَنْعَان: "اسْتَرَاحَت الأَرْضُ مِنَ الْحَرْب" (يشُوع 11 / 23). لقد تمَّ تدمير وإهلاك كُلِّ الكَنْعَانيِّين، وسائر أهالي أرض كَنْعَان الأصليِّين بشَكْل تامٍّ. دعا يشُوعُ القبائلَ لتقسيم الأرض. استلمتْ قبائل "رَأُوبَيْن" و"جَاد"، ونصف قبيلة "مَنَسَّى" الأراضي الواقعة شرق نهر الأُردُن، بَيْنما استلم كُلُّ الآخرين حصَصَهُم في الغرب. كان على قبائل "نَفْتالي"، و"أَشير"، و"زَبُولُونَ"، و"يَسَّاكَرَ" أنْ تسكن في مُرتفعات الجليل ووُديانه. في حين؛ أخذ النّصف الآخر من قبيلة "مَنَسَّى"، وقبيلتَيْ "أفرايم" و"بنيامين"،

مُعظمَ التّلال والـهضاب الوُسْطَى، التي تمتدُّ من وادي "يَزْرَعيل" في الشّمال إلى أُورشليم (القُدْس) في الجنوب. ومنحت قبيلة "يهُوذا" التّلال والهضاب الجنوبيَّة من أُورشليم (القُدْس) إلى وادي بئر سبع في الجنوب. في حين؛ ورثت قبيلةُ "شَمْعُون" المنطقةَ القاحلةَ لوادي بئر سبع والسّهل السّاحلي المُجاور. رغم أنَّ قبيلة "دَان" أخذت ميراثها ـ في البداية ـ في السّهل السّاحلي، إلاّ أنَّ القبيلة حوَّلت ـ فيما بعد ـ مَسْكَنَهَا إلى منطقة في شمال البلاد. بتلك الهجرة الأخيرة؛ تمَّ وَضْعُ خريطة الأرض المُقدَّسة.

هل كان الأمر كذلك؟ في تناقض مُحيِّر مع إعلان النَّصر التَّامِّ والشّامل، يذكر سفْر يشُوع بأنَّ أراضٍ كبيرةً ـ ضمن كَنْعَان ـ كانت خارج مواريث القبائل الإسرائيليَّة، وبقيت بدُون فَتْح، مُنتظرةً أنْ يتمَّ غَزْوها وفَتْحها. تشمل تلك الأراضي "كُلَّ مناطق الفلسطينيِّيْن" على طُول السّاحل الجنوبي للبلاد، والسّاحل الفينيقي بعيداً نحو الشّمال، ومنطقة وادي البقاع في المنطقة الشّماليَّة الشّرقيَّة (يشُوع 13: 1 ـ 6). ويذهب سفْر القُضَاة حتَّى أبعد من ذلك، حين يُعدِّد جُيُوباً كَنْعَانيَّة هامَّة لم يتمَّ فَتْحها ـ بَعْدُ ـ في أراضي أكثر من نصف القبائل (الإسرائيليَّة). مثلاً؛ يُدْرج سفْر القُضَاة المُدُن الكَنْعَانيَّة الكبيرة للسّهل السّاحلي والوُديان الشّماليَّة، مثل "مجدُّو"، "بيت شان"، و"دور" Dor، و"جَازَر" Gezer، كَمُدُن لم يتمَّ فَتْحها، بالرّغم من أنَّ حُكّامها ذُكروا في سفْر يشُوع ضمن قائمة المُلُوك الكَنْعَانيِّيْن المُنهزمين في الحرب. بالإضافة لذلك، بقي العمُّونيُّون والمُوآبيُّون ـ الذين يسكنُون في الضفَّة الشّرقيَّة لنهر الأُردُن ـ يُشكِّلُون مَمْلَكَتَيْن مُعاديَتَيْن. أمَّا المدينيُّون العنيفون والعَماليق راكبو الجمال في الصّحراء؛ فقد كانوا ـ دائماً ـ تهديداً لشعب إسرائيل. وهكذا كان الخطر الذي يُواجه الإسرائيليِّيْن المُستقرِّين حديثاً خطراً عسكريّاً ودينيّاً بالوقت نفسه. هدَّد الأعداءُ الخارجيُّون أمنَ الإسرائيليِّيْن في أنفسهم، في حين؛ شكَّل الكَنْعَانيُّون ـ الذين بقوا في الأرض ـ خطراً مُهلكاً يتمثَّل في إغراء الإسرائيليِّيْن بالارتداد، وبالتَّالي؛ تحطيمهم لقُوَّة ميثاق إسرائيل الجذّيّ مع الله.

وهكذا وُضعَتْ السّاحة أمام سنوات عديدة من الصّراع المُتطاول. لذلك؛ يُقدِّم سفْر القُضَاة ـ بعد سفْر يشُوع ـ مجموعة غنيَّة جداً من قَصَص الحرب المُرعبة والمُثيرة، ومن حكايات البُطُولة الفَرْديَّة في المعارك بَيْن الإسرائيليِّيْن، وجيرانهم. تتضمَّن تلك القَصَص بعض أكثر

شخصيَّات الكتاب المُقدَّس العبْريّ تلويناً، وأكثر الصُّور بقاءً فـي الذّاكـرة. استطاع "عُثْنيـئيل" الكالبيّ Othniel a Calebite، وحـده، أنْ يصـدَّ قُـوَّات العـدوِّ الغـامض "كُوشَـانَ رشَـعتَايمَ" Cushanrishathaim "ملك بلاد ما بَيْن النَّهرَيْن" (القُضَاة 3/ 7 ـ 11). وقـام "إهُودُ البنيـاميني" Ehud Benjaminite باغتيال الملك "عجْلُونَ" مَلك مُوآب القوي، والبدين لحَدٍّ مُضحـك، فـي شقَّته الخاصَّة، بشكْل جريء (القُضَـاة 3/ 12 ـ 30). كمـا ذَبـحَ "شَـمْجَرُ بْـنُ عَنَـاةَ" Shamgar، ستَّمئة رَجُلٍ منَ الفلسْطينيِّين بمنْخَـس البَقَر. (القُضَـاة: 3/ 31). وقـامت "دَبُـورَةُ" و"بَـارَاقُ" بإيقاظ القبائل الإسرائيليَّة لمُواجهة تهديد المُلُوك الكَنْعَانيِّين الباقين في الشّمال. وأخذت "يَاعيلُ" "امْرَأَةُ "حَابرَ الْقينيِّ" وَتَدَ الْخَيْمَة وَالْمطرَقَةَ في يَدهَا، وسارت إلى الجنرال الكَنْعَاني "سيـسَرَا" Sisera بهُدُوءٍ، وَضَرَبَتْ الْوَتَدَ في صُدْغه، وهُو مُتَثَقِّلٌ في النَوْم، وَمُتْعَبٌ، فَقَتَلَتْهُ. (القُضَاة: 4/ 1 إلى 5/ 31). ويُطَهِّر "جدْعُونُ" المَنسيُّ الأرضَ مـن عبـادة الأصنـام، ويحمـي شعبه من هجمات المديانيِّين (أهـالي مَديَـن) راكبـي الصّحـراء، (القُضَـاة: 6/ 1 إلـى 8/ 28). وبـالطَّبع؛ هُناك القصَّة المشهورة لـ "شَـمْشُـون"، بطل قبيلة "دان"، الذي تخونه الفاتنة الفلسـطينيَّة "دَليلَـةُ"، وتجزُّ شعره (مصدر قُوَّته)، فيذهب إلى موته في غزَّة، وهُو أعمى وذليل، بتهديم أعمدة المعبد الفلسطيني الكبير لـ "داجونَ" (إله الفلسطينيِّين)، (القُضَاة: 13/ 1 إلى 16/ 31).

يُوضِّـح سفْر القُضَـاة ـ مُنْذُ بدايته ـ المعنـى اللاَّهُوتـي لـهذه الفـترة المُبكِّـرة مـن التَّوطُّـن الإسرائيلي في كَنْعَان، وذلـك فـي عَرْضـه الجـدِّيِّ لقـانُون الارتـداد والعقـاب. إذا بقـي شـعب إسرائيل مُنْفَصلاً عن السُّكَّان الأصليِّين، فإنَّه سيكافأ، وينال أجْـرَهُ. أمَّـا إذا فُتنَ الإسـرائيليُّون بالذّوبان في الغُرَبَاء؛ فسـيتعرَّضون لعقـاب سريع وشـديد، ولكنَّـهم لا يسـتمعون. إنَّ تدخُّـل الزُّعماء المُستقيمين المُلهَمين من الله، المُسَمّون بـ "القُضَاة" هُو ـ فقط ـ الذي أنقذَ شعبَ إسرائيل، على الأقلّ؛ بشَكْل مُؤقَّت، من خُسران كُلِّ شيء:

[11 وَفَعَلَ بَنُو إسْرَائيلَ الشَّرَّ في عَيْنَي الرَّبِّ، وَعَبَدُوا الْبَعْليمَ، 12 وَتَرَكُوا الرَّبَّ إلَهَ آبَائهم الذي أَخْرَجَهُمْ منْ أَرْض مصْرَ، وَسَارُوا وَرَاءَ آلهَـةٍ أُخـرى مـنْ آلهَـة الشُّعُوب الذيـنَ حَولَـهُمْ، وَسَجَدُوا لَهَا، وَأَغَاظُوا الرَّبَّ. 13 تَرَكُوا الرَّبَّ، وَعَبَدُوا الْبَعْلَ وَعَشْتَارُوثَ. 14 فَحَميَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَـى إسْرَائيلَ، فَدَفَعَـهُمْ بـأَيْدي نَـاهبينَ نَـهَبُوهُمْ، وَبَاعَـهُمْ بيَـد أَعْدَائـهمْ حَولَـهُمْ، وَلَـمْ

يَقْدرُوا ـ بَعْدُ ـ عَلَى الوُقُوف أَمَامَ أَعْدَائهمْ. 15 حَيْثُمَا خَرَجُوا؛ كَـانَتْ يَـدُ الـرَّبِّ عَلَيْـهمْ للشَّرِّ، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ، وكَمَـا أَقْسَمَ الـرَّبُّ لَـهُمْ. فَضَـاقَ بـهمُ الأَمْرُ جداً. 16 وَأَقَـامَ الـرَّبُّ قُضَـاةً، فَخَلَّصُوهُمْ منْ يَد نَاهبيهمْ. 17 وَلقُضَاتـهمْ ـ أَيْضاً ـ لَـمْ يَسْـمَعُوا، بَـلْ زَنُـوا وَرَاءَ آلهَـةٍ أُخرى، وَسَجَدُوا لَهَا. حَادُوا سَرِيعاً عَن الطَّرِيق التي سَارَ بهَا آبَاؤُهُمْ لسَـمْع وَصَايَا الـرَّبِّ. لَـمْ يَفْعَلُـوا هكَذَا. 18 وَحِينَمَا أَقَامَ الرّبُّ لَهُمْ قُضَاةً كَانَ الرَّبُّ مَعَ الْقَاضي، وَخَلَّصَهُمْ منْ يَد أَعْدَائـهمْ كُـلَّ أَيَّام الْقَاضي؛ لأَنَّ الرَّبَّ نَدمَ مـنْ أَجْـل أَنينـهمْ بسَـبَب مُضَايقيـهمْ وَزَاحميـهمْ. 19 وَعنْـدَ مَـوْت الْقَاضي؛ كَانُوا يَرْجعُونَ، وَيَفْسُدُونَ أَكْثَرَ مـنْ آبَائـهمْ بالذَّهَـاب وَرَاءَ آلهَـةٍ أُخرى؛ ليَعْبُدُوهَـا، وَيَسْجُدُوا لَهَا. لَمْ يَكُفُّوا عَنْ أَفْعَالهمْ وَطَرِيقهم الْقَاسيَة.] (الْقُضَاة 2/ 11 ـ 19).

هل يروي الكتابُ المُقدَّسُ التَّاريخَ كما حَدَثَ فعـلاً؟ هـل عبـد الإسـرائيليُّون إلـهاً واحـداً لقُرُون عديدة، ولكنَّهم زلُّوا ـ أحياناً ـ ووقعوا بالإشراك بالله الذي كان عليه جيرانهم؟ وبشَـكْل عامٍّ أكثر؛ كيف كانوا يعيشـون؟ مـاذا كـانت ثقافتـهم؟ باسـتثناء حكايـات الصّـراع المُستمرِّ مع عبادة الأصنام والوَثَنيَّة، لا يُخبرنا الكتـاب المُقدَّس إلاَّ قليـلاً عـن حيـاة الإسـرائيليِّين اليوميَّـة. يُخبرنا سفْر يشُوع ـ في أغلبـه ـ عـن الحُـدُود الدّقيقـة لحصَّـة كُـلِّ قبيلـة مـن القبـائل المُختلفـة مـن الأرض. وفي سفْر القُضَاة؛ نقرأ عن المعارك مع أعداء الإسرائيليِّين، ولكنَّنا لا نسمع إلاَّ قليـلاً عن نوع المُستوطنات التي اختار الإسرائيليُّون إنشاءها، وكيف كانوا يُـؤَمِّـنُون معيشتهم.

بعد قُرُون من العمل كَعُمَّال في مصر؛ وبعد أربعين سنة من التّيه في برِّيَّـة سيناء المُقفرة، لم يكن الإسرائيليُّون مُستعدِّين ـ بشَكْل جيِّد جداً ـ للبدء بفلاحة الوُديان الضَّيِّقة وحُقُول التّـلال والهضاب الوعـرة فـي كَنْعَـان. إذنْ؛ كيـف تعلَّمـوا أنْ يُصبحـوا مُزارعـين مُسـتقرِّين؟! وكيـف تأقلموا ـ بسُرعة ـ مع النّظام اليومي الرّتيب، والجُهُود اللاَّزمة للحياة القرويَّة المُستقرَّة؟

مُهاجرون من الصّحراء؟

نعرف من مسَلَّة "مَنفتَاح" أنَّـه كـان هُنـاك شـعب يُسمَّى إسـرائيل، يعيـش فـي كَنْعَـان فـي حوالي سـنة 1207 ق. م. . حتَّـى عـهد قريـب جداً، وعلـى الرّغـم مـن الشُّكُوك حـول الدِّقَّـة التّاريخيَّة لقصَّة الخُرُوج الجماعي وقَصَص الغزو، لم يكن أحد من المُؤرِّخـين المُختصِّـين بتـاريخ

الكتاب المُقدَّس أو عُلماء الآثار ـ باستثناء بضعة قليلة جداً ـ يشكُّ بأنَّ الإسرائيليِّين كانوا أُناساً مُهاجرين، دخلوا كَنْعَان من الخارج.

كان الاختلاف الظّاهري بَيْن الكَنْعَانيِّين والإسرائيليِّين أوضحَ ما يكون في مجال الثّقافة، أو الحضارة المادِّيَّة. وَجَدَ عُلماء الآثار ـ بشَكْل مُنتظم، مُباشرة فوق طبقات دمار المُدُن الكَنْعَانيَّة المُختلفة الخاصَّة بالعصر البرُونزي المُتأخِّر ـ بعثرةً عشوائيَّةً لحُفَر محفورة في الأرض، وفخَّاريَّات خشنة تُرجمت على أنَّها البقايا الظّاهرة للمُخيَّمات المُؤقَّتة لأُناس نصف بدويِّين.

اعتقد العديد من العُلماء بأنَّهم تعرَّفوا على نَمَط مألوف في هذه الحالة الآثاريَّة، يعني الحَرَكَة الجماهيريَّة لسُكَّان الصّحراء الرُّحَّل، الذين يغزون الأرض المُستقرَّة، ثُمَّ يبدؤون بالاستقرار، ويتبنُّون ـ تدريجياً ـ طريقة حياة الإقامة الدّائمة. اعتقد العُلماءُ الذين لديهم خبرة وأُلفة بهجمات البدو على المناطق الزّراعيَّة في الشّرق الأوسط، أنَّه كان هُناك ـ دائماً ـ صراع بَيْن الصّحراء والأرض التي تتقبَّل البذار. رغم أنَّ الإسرائيليِّين ربَّما لا يكونوا قد زحفوا إلى كَنْعَان كَجَيش مُوحَّد، إلاَّ أنَّ إشارات وُصُولهم بَدَتْ واضحة. بالمُقارنة مع الأبنية التّذكاريَّة، والسِّلَع الفاخرة المُستورَدَة، وآنية السّيراميك الرّفيعة المُكتَشَفَة في مُستويات المُدُن الكَنْعَانيَّة السّابقة؛ بَدَتْ المُعسكرات القاسية، وأدوات الإسرائيليِّين القادمين، ذات مُستوى حضاري أدنى بكثير من مُستوى السُكَّان الذين كانوا قبلهم.

أَبْرَزَتْ هذه المُقارنةُ لأساليب الحياة، ما أصبح يُدْعَى نموذج "التَّسرُّب السِّلْمي"، الذي طَرَحَهُ ـ لأوَّل مرَّة ـ العالمُ الألماني بالكتاب المُقدَّس "ألبريخت الت" في العشرينات من القرن العشرين.

اقترح "الت" بأنَّ الإسرائيليِّين كانوا رُعاة (مُرَبِّي ماشية) يتجوَّلون بقطعانهم في هجرات مَوْسميَّة ثابتة بَيْن حافَّة الصّحراء والأراضي المُستقرَّة، في وقتٍ ما قُرْب نهاية العصر البرُونزي المُتأخِّر ـ ولأسباب لم تتَّضح له بشكْل كاملٍ ـ بدؤوا بالاستقرار في مُرتفعات كَنْعَان المُستقرَّة المُتناثرة.

طبقاً لـ "الت"، تمَّت العَمَليَّة ـ في الواقع، بنَحْو تدريجيّ وسلْميّ جداً ـ في البداية. قام الإسرائيليُّون الرُّعاة بتنظيف الغابات، وبدؤوا بمُزاولة زراعة مَوْسميَّة ضيِّقة النّطاق، إلى جانب رعي القطعان. ومع الوقت؛ تبنّوا أُسلُوب معيشةٍ أكثر استقراراً، مُنشئين قُرَى دائمةً، ومُركِّزين

جَهْدَهُم أكثر على الزّراعة. ولم تبدأ مُشكلتهم مع الكَنْعَانيِّين إلاَّ في الأوقات اللاَّحقة، وذلك عندما - بحسب هذه النَّظَريَّة - تكاثر المُتوطِّنُون الجُدُد، وازدادت أعدادهم، وبالتَّالي؛ ازدادت حاجتهم - بشَكْل مُتصاعد - للأرض والماء. أدَّت النّزاعات على حُقُوق الماء والأرض إلى حُدُوث اشتباكات، أو مُناوشات محلّيَّة، كانت - في النّهاية - الخلفيَّة الحقيقيَّة للصّراع بَيْن الإسرائيليِّين وجيرانهم، الذي ينقله لنا سفر القُضَاة بشَكْل واضح وحَيَوي. (انظُرْ المُلحق "ج" في آخر الكتاب، للاطِّلاع على المزيد من التّفصيل عن نَظَريَّة التَّسرُّب السِّلْميَّة هذه).

وهكذا؛ فقد تمَّ افتراض أنَّ الإسرائيليِّين كانوا مجموعات مُتناثرة من رُعاة الماشية القادمين، عوضاً عن قُدُومهم كَجَيش واحد. لم تُقدِّم "إسرائيل" - التي تحدَّثت عنها مسَلَّة مَنفتَاح - أيَّة معلومات إضافيَّة حول الموقع الدّقيق، لأُولئكَ النّاس، أو حقيقة حَجْمهم، أو طبيعتهم، إلاَّ أنَّ هُناك سجلاً مصرياً آخر بقي على قَيْد الحياة إلى اليوم - رغم أنَّه لا يُزوِّدنا إلاَّ بلمحة صغيرة عمَّا كان ينبغي أنْ يكون رواية أكبر وأكثر تفصيلاً - يذكر لنا مجموعتَيْن من الغُرَبَاء الخارجيِّين الذين اختاروا العيش - أو أُجبروا على العيش - إلى جوار المُجتمع الحضري الكَنْعَاني. كلاهما يُمثِّلان أهمِّيَّة خاصَّة في البحث عن الإسرائيليِّين الأوائل.

المجموعة الأُولى هُم "الأبيريُّون" The Apiru، مجموعة وُصِفَتْ في رسائل تَلّ العمارنة العائدة للقرن الرّابع عشر ق. م (بالإضافة إلى وَصْفها في نُصُوص أُخرى من العصر البرُونزي) بمجموعة من الأوصاف البعيدة عن المديح. فقد وُصفوا بأنَّهم كانوا يعيشون خارج المُجتمع الكَنْعَاني السّائد، قد شرَّدتْهُم الحربُ أو المجاعةُ، أو النّظامُ الضّريبيُّ الثّقيلُ، من أوطانهم، بل تمَّ وَصْفُهُم - أحياناً - كَمُجرمين، أو قُطَّاع طُرُق، وأحياناً؛ كَجُنُود مُرتزقة، بل حتَّى تمَّ وَصْفُهُم - في إحدى الحالات - أنَّهم كانوا موجودين في مصر نفسها كَعُمَّال مُستأجرين يعملون في مشاريع البناء الحُكُوميَّة.

باختصار؛ كانوا لاجئين أو هاربين مُتمرِّدين على النّظام، يعتاشون على الحافَّة الاجتماعيَّة للمُجتمع الحَضَري. لا أحد في الحُكْم بدا مُحبّاً لهم؛ كان أسوأ شيء يُمكن لملك صغير محلّي أنْ يقوله حول أمير مُجاور "أنَّه انضمَّ إلى الأبيريِّين Apiru".

في الماضي؛ اقترحَ بعضُ العُلماء بأنَّ الكلمة "أبيرو" Apiru (وأشكالها البديلة: هبيرو Hapiru وهبيرو Habiru) لها وجه اتِّصال لُغوي بكلمة "إبري" Ibri، أو عبْري، ولذلك؛ فإنَّ

الأبيريِّين Apiru في المصادر المصريَّة كانوا - هُم - الإسرائيليِّين الأوائل. اليوم نعرف بأنَّ هذا الرَّبطَ ليس بسيطاً إلى هذا الحَدّ.

إنَّ الاستعمال الواسع الانتشار لهذا الاصطلاح، أو التَّعبير على مدى قُرُون عديدة، وفي كافَّة أنحاء الشَّرق الأدنى بكامله، يُفيدُ بأنَّه كان له معنى اجتماعي - اقتصادي، بَدَلاً من كَونه بياناً لمجموعة عرْقيَّة مُعيَّنة.

مع هذا؛ لا يُمكن رَفْضُ تلك الصِّلة بالكامل. من المُمكن أنْ تكون ظاهرة "الأبيريِّين" قد تمَّ تذكُّرُها في القُرُون التَّالية، وبالتَّالي؛ تمَّ دَمْجُهَا في قَصَص الكتاب المُقدَّس العبْريّ.

أمَّا المجموعة الثَّانية التي ذُكِرَت في النُّصُوص المصريَّة؛ فكانت "الشَّوصيِّين" The Shosu. كانوا - على ما يبدو - بدواً رُعاةً، يُربُّون الخراف والماعز، ويعيشون - بشَكْل رئيسي - في المناطق الحُدُوديَّة لكَنْعَان والضِّفَّة الشَّرقيَّة لنهر الأُردُن. تُزوِّدنا رواية عن حَمْلَة مصريَّة ضدَّ جماعة من المُتمرِّدين في جنوب كَنْعَان زمن رمسيس الثَّالث، في أوائل القرن الثَّاني عشر ق.م، بوَصْفٍ جيِّد لأُولئكَ النّاس.

يصف الكاتبُ المصريُّ نَهْبَ "مُعسكرات خيَمهم، بما فيها من ناس وأملاك، وماشيتهم كذلك، وأنَّ أعدادهم كانت لا تُحْصَى". من الواضح أنَّهم كانوا عُنصُراً صعباً، وخارج السَّيطَرَة، ذا حُضُور كبير، خُصُوصاً؛ في البَرِّيَّة، وحُدُود التّلال والهضاب. كان قد عُرف عنهم - أيضاً - أنَّهم كانوا يُهاجرون من حين لآخر إلى الدّلتا الشَّرقيَّة لمصر، كما تشهد لذلك أوراق بردى تعود للقرن الثَّالث عشر ق.م، ذَكَرَتْ تحرُّكاتهم عبْر قلاع الحُدُود المصريَّة.

هل من المُمكن أنْ تكون أيٌّ من تلك المجموعتَيْن القديمتَيْن هي "الجماعة الإسرائيليَّة" الغامضة، التي سُمِّيت - ببساطة - باسمٍ آخر؟

فلاَّحون مُشَرَّدُون من أرضهم؟

تعرَّضت نَظَريَّة "التَّسرُّب السِّلْمي" التي طَرَحَهَا "الت" لـهُجُوم عنيف في سبعينات القرن العشرين؛ بسبب توفُّر مُعطيات إثْنُوغرافيَّة[1] (علْم أعراقيَّة) وأنثرُوبُولُوجيَّة[1] (علْم إنسانيَّة)

(1) الإثْنُوغرافيَّة من Ethnography = علْم الأعراق: علْمٌ يهتمُّ بوَصْف الأعراق والشُّعُوب الإنسانيَّة وشَرْح عاداتهم وتقاليدهم واختلافاتهم فيما بينهم، وما إلى ذلك. (المُترجم).

جديدة، وأكثر تفصيلاً بكثير عن العلاقة بَيْن البدو الرّعويِّيـن والمُجتمعات المُقيمة المُستقرَّة في الشّرق الأوسط. تمثّل النَّقْدُ الرّئيسيُّ للأفكار السّابقة حول الصّراع بَيْن الصّحراء والمناطق الزّراعيَّة، في بيان أنَّ المُزارعين ومُربِّي الماشية كانوا - في الواقع - مُتكاملين أكثر بكثير وأقلّ عُزلةً عن بعضهم البعض، بل كانوا - جوهريّاً - مُكوِّنات لمُجتمع واحد، ولذا؛ ظهرت - أثناء السِّتِّينات والسّبعينات - نَظَرِيَّة فريدة أُخرى حول أُصُول الإسرائيليِّين.

اقترحت هذه النَّظَرِيَّة - التي طَرَحَهَا - لأوَّل مرَّة - العالم بالكتاب المُقدَّس الأمريكي "جُورج ميندينهال" George Mendenhall، ثُمَّ وَسَّعَهَا، وَفَصَّلَهَا - لاحقاً - المُؤرِّخُ المُختصُّ بتاريخ الكتاب المُقدَّس وعالم الاجتماع الأمريكي "نُورمان غُوتوالد" Norman Gottwald - بأنَّ الإسرائيليِّين الأوائل لم يكونوا لا غُزاةً مُهاجمين، ولا بدواً مُتسلِّلين، بل كانوا فلاَّحين ثائرين فَرُّوا من مُدُن كَنْعَان نحو التّلال والهضاب الخالية. لقد حاول "ميندينهال" و"غُوتوالد" أنْ يُثبتا - على أساس شواهد وأدلَّة موجودة ضمن وثائق مصريَّة (بشكْل رئيسي ألواح تَلّ العمارنة) - أنَّ كَنْعَان في العصر البرُونزي المُتأخِّر كانت مُجتمعاً طَبَقِيّاً إلى حَدٍّ كبير، يتصاعد فيه - بنَحْو مُستمرٍّ - التَّوتُّر الاجتماعي، واللاَّمُساواة الاقتصاديَّة.

كانت النُّخبة الحَضَرِيَّة تُسيطر على الأرض، والثّروة، والتّجارة، في حين؛ كان الفلاَّحون في القُرَى محرومين من الثّروة، ومن حُقُوقهم أيضاً. ومع تدهور الأوضاع في كَنْعَان، في المرحلة الأخيرة من العصر البرُونزي؛ أصبحت الضّرائب الباهظة، وسُوء مُعاملة أرباب الأرض، والإيذاء المُستمرُّ من قِبَل السُّلطات - سواء المحلِّيَّة، أوالمصريَّة، على حَدٍّ سواء - غير قابلة للاحتمال.

هكذا فسَّر "ميندينهال" و"غُوتوالد" بأنَّه لم يبقَ هُناك حَلٌّ آخر للكثيرين، إلاَّ ترك بُيُوتهم، والبحث عن أوطان جديدة. ربَّما أصبح بعضهم من الـ "أبيريِّين" Apiru؛ أيْ أُناس يعيشون على حافَّة المُجتمع، ويُسبِّبون المشاكل للسُّلطات. سَكَنَ الكثير منهم في الغابات والتّلال والهضاب الخالية نسبيّاً، بعيداً عن السَّيْطَرَة الكَنْعَانيَّة والمصريَّة. وفي وَطَنهم الجديد؛ أسَّس

(1) الأنثرُوبُولُوجية من Anthropology = علم الإنسان: علم يبحث في أصل الجنس البشري وتطوُّره وعاداته وأعراقه ومُعتقداته. (المُترجم).

هؤلاء الفلاَّحون الثّائرون مُجتمعاً أكثر مُساواةً، وأقلّ طَبَقيَّة، وأقلّ قساوةً. وبقيامهم بذلك؛ أصبحوا "إسرائيليِّين".

بالإضافة لذلك؛ اقترح "غُوتوالد" أنَّ الأفكار الجديدة حول المُساواة إنَّما أَتَتْ بها مجموعة صغيرة من النّاس، جاءت من مصر، واستقرّت في التّلال والهضاب. ربَّما تكون تلك الجماعة قد تأثّرت بالأفكار المصريَّة غير التّقليديَّة حول الدِّين، كَتلك التي دَعَتْ إليها ثورة أخناتون التّوحيديَّة في القرن الرّابع عشر ق.م.. وبذلك؛ أصبحت هذه المجموعة النُّواةَ التي تبلور حولها المُستوطنُون الجُدُد في المُرتفعات. وعليه؛ فإنَّ نشأة إسرائيل الأُولى كانت ثورة اجتماعيَّة لبُؤساء ضدَّ أربابهم الإقطاعيِّين، تمَّ تنشيطها عبْر مجيء عقيدة جديدة نُبُوئيَّة.

لسُوء الحظِّ؛ لا تمتلك هذه النَّظَريَّة أيَّ أدلَّة آثاريَّة تدعمها، بل - في الحقيقة - مُعظم الأدلَّة الآثاريَّة تُناقضها بشَكْل قاطع. فَكَمَا رأينا كانت الثّقافة الماديَّة للقُرَى الجديدة مُتميِّزة جداً عن ثقافة السُّهُول الكَنْعَانيَّة؛ فإذا كان المُستوطنُون الجُدُد لاجئين قدموا من السُّهُول، فلابُدَّ أنْ نتوقَّع - على الأقلّ - أنْ نرى تشابهاً أكثر، في الهندسة المعماريَّة، والأساليب الفخَّاريَّة. والأكثر أهمِّيَّة؛ أنَّه أصبح من الواضح - في الدّراسات الآثاريَّة الأخيرة لمُدُن العصر البرُونزي المُتأخِّر - أنَّ القطاع الرّيفي للمُجتمع الكَنْعَاني بدأ يُصبح فقيراً مُنْذُ بدايات القرن السّادس عشر ق.م.. في الحقيقة؛ ربَّما لعب ذلك الرّيف - الذي أصبح أضعف وأقلّ سكَّاناً، وما تبع ذلك من هُبُوط في الإنتاج الزّراعي - دوراً في انهيار الثّقافة الحَضَريَّة، لكنَّه - بالتّأكيد - لم يكن لهذا التَّحوُّل القُدرة على تزويد تلك الطّاقة الكامنة وراء الموجة الجديدة والنّشيطة من الاستيطان في المُرتفعات. وأخيراً؛ وحتَّى بعد نهاية العصر البرُونزي المُتأخِّر، ودمار المراكز الحَضَريَّة الكَنْعَانيَّة، استطاعت أغلب القُرَى السَّهليَّة - التي كانت قليلة جداً - أنْ تُؤمِّن بقاءها، وتُواصل وُجُودها كما كانت من قبلُ، وهذا واضحٌ في قلب الثّقافة الكَنْعَانيَّة "يَزْرَعيل"، ووُديان الأُردُن، والسّهل السّاحلي الجنوبي لفلسْطيَا.

ولذلك؛ لا نرى حُشُود أُولئكَ النّاس الذين شرَّدُوا من أوطانهم، يتركون قُراهم في السُّهُول؛ بحثاً عن حياة جديدة على حُدُود المُرتفعات. إذاً؛ يجب البحث عن الإجابة عن السُّؤال "مَنْ كان الإسرائيليُّون" في مكان آخر ما؟.

حلٌّ مفاجئ يُقدِّمه علْم الآثار:

استندت التّعريفات الأُولى والنَّظَريَّات الاجتماعيَّة الأوسع انتشاراً حول أُصُول الإسرائيليِّين الأوائل، على فَكِّ رُمُوز النُّقُوش المُتجزِّئة والمُتناثرة، وعلى التّفسير الشّخصي لرواية الكتاب المُقدَّس، وليس على مُعطيات علم الآثار بنَحْوٍ أوَّلي. الحقيقة المُحزنة كانت أنَّ عُلماء الآثار كانوا يبحثون - لعدَّة عُقُود - عن أدلَّة مفتاحيَّة مُفيدة تدلُّهم على أُصُول الإسرائيليِّين في كُلِّ الأمكنة الخطأ. ولمَّا كان كثيرٌ منهم قد أخذ قصَّة يشُوع على معناها الظّاهري، فإنَّهم ركَّزوا كُلَّ جُهُودهم - تقريباً - على القيام بالحفريَّات في التّلال الرّئيسيَّة لمُدُن كَنْعَانيَّة؛ مثل: "أريحا"، و"بيت إيل"، و"لَخيْش"، و"حاصُوْر". اليوم؛ أصبحنا نعرف أنَّ هذه الاستراتيجيَّة كانت خاطئة؛ وذلك لأنَّه إذا كانت تلك التّلال تكشف لنا أشياء كثيرة عن الثّقافة الحَضَريَّة في العصر البرُونزي المُتأخِّر، فإنَّها لا تُخبرنا بشيء - تقريباً - عن الإسرائيليِّين.

كانت تلك المُدُن الكَنْعَانيَّة الرّئيسيَّة تقع على طُول السّهل السّاحلي، وفي الوُديان، بعيداً عن مناطق المُرتفعات (التّلال والهضاب) المُشجَّرة؛ حيثُ ظَهَرَتْ إسرائيل لأوَّل مرَّة.

قبل أواخر السّتّينات لم يتمَّ القيام بمَسْح آثاري شامل في المواقع الإسرائيليَّة الصّرفة؛ بحثاً عن دليل مُفيد، إلاَّ مرَّة واحدة فقط، وهُو البحث الذي قام به عالم الآثار الإسرائيلي "يُوهانان آهارُوني" Yohanan Aharoni في منطقة هامشيَّة في الحافَّة الشّماليَّة جداً للمنطقة التي سيطرت عليها إسرائيل الحديثة فيما بعد، في الجبال الوعرة والمُشجَّرة للجليل الأعلى. لقد اكتشف "آهارُوني" أنَّ المنطقة خالية من المواقع التي تعود للعصر البرُونزي المُتأخِّر، وبأنَّه تمَّ استيطانها على نطاق ضيِّق في مواقع تعود للعصر الحديدي الأوَّل (أيْ في القرنَيْن الثّاني عشر والحادي عشر ق. م)، والتي طابقها مع المُستوطنين الأوائل من قبائل "نَفْتَالي" و"أشير". وعليه؛ فإنَّ حقل عمل "آهارُوني" في الجليل الأعلى بدا مُؤيِّداً لنَظَريَّة "التَّسرُّب السّلْمي". كانت المُشكلة الوحيدة أنَّ مَسْحَهُ كان بعيداً جداً إلى الشّمال من مركز الاستيطان الإسرائيلي.

قد يبدو مُفاجئاً أنَّ منطقة قلب إسرائيل التي تضمُّ مُرتفعات غرب فلسطين الواقعة بَيْن "يَزْرَعيل" ووُديان "بئر سبع" كانت - عمليّاً - أرضاً مجهولةً آثاريّاً. إنَّ قلَّة الاستكشافات الآثاريَّة

في ريف التّلال والهضاب المركزيّة لم يكن سببها الأولويّات العلميّة فحسب. لقد أعاقت الحرب والاضطرابات السّياسيّة في الشّرق الأوسط - مُنْذُ العشرينات، وحتّى عام 1967 - التّحقيقات الآثاريّة الشّاملة لقَلْب المنطقة الجَبَليّة، لكنّ البانوراما الآثاريّة تغيّرت لاحقاً، بعد حرب 1967، بشَكْل كامل. جاء جيل شابٌ من عُلماء الآثار الإسرائيليّين - المُتأثّرين بالاتّجاهات الجديدة لعلْم الآثار العالمي - إلى هذا الحقل بطريقة جديدة من التّحقيق: كان هدفهم أنْ يستكشفوا، ويضعوا خرائط، ويُحلّلوا المشهد الطّبيعي القديم لريف التّلال والهضاب، بَدَلاً من الاقتصار على إجراء الحفريّات فقط.

أدرك عُلماء الآثار - بدءاً من أربعينات (القرن الماضي) - أهميّة الدّراسات الإقليميّة، التي تفحص نماذج الاستيطان المُتغيّرة عبْر الزّمن. إنّ التّنقيبات في مواقع واحدة، تُنتج صُوراً محليّة جداً عن الثّقافة الماديّة للشُّعُوب القديمة؛ كاشفةً عن تتابع أساليب الفخّاريّات، والمُجوهرات، والأسلحة، والبُيُوت، والقُبُور، لمجتمع، أو جماعة مُعيّنة، لكنّ الاستطلاعات الإقليميّة - التي يتمّ خلالها تخطيط وتأريخ المواقع القديمة في منطقة كبيرة، استناداً للقطع الفخّاريّة المُميّزة التي تُجْمَع من السّطح؛ أيْ التي تستبدل التّوسُّع في العُمق بالتّوسُّع الأُفقي العَرْضيّ - تكشف عن مكان استقرار الشُّعُوب القديمة، وحجم مُستوطناتها. اختيارهم لبعض الأماكن الطُّوبُوغرافيّة (التّضاريسيّة الجغرافيّة) الخاصّة (مثل قمَم التّلال بَدَلاً من الوُديان)، ولبعض أساليب النّشاط الاقتصادي المُعيّنة (مثل زراعة الحُبُوب بَدَلاً من البَسْتَنَة[1])، واختيارهم لسُهُولة الوُصُول إلى الطُّرُق الرّئيسيّة ومصادر الماء، يكشف أشياء كثيرة عن أُسلُوب الحياة، وفي النّهاية؛ عن الهُويّة الاجتماعيّة لسُكّان المناطق الكبيرة بَدَلاً من المجموعات، أو الجاليات الفَرْديّة. ولا يقلُّ أهميّةً عن ذلك، أنّ الاستطلاعات التي يتمّ فيها تخطيط مواقع تعود لفترات زمنيّة مُختلفة عديدة، تسمح لعُلماء الآثار بتَعَقُّب التّغيُّرات في التّاريخ السُّكّاني لمنطقة مُعيّنة، عبْر فترات زمنيّة طويلة.

في السّنوات التي تَلَتْ عام 1967، بدأ إجراء مَسْح استطلاعي مُكثّف لكُلّ منطقة قلب الاستيطان الاسرائيلي في الأراضي التّقليديّة لقبائل "يهُوذا"، و"بنيامين"، و"أفرايم"،

---

(1) البَستَنة horticulture = الجِنانة: علم (أو فن) زراعة الأشجار المُثمرة والخُضر والزُّهُور والنّباتات الزّينيّة. (المترجم).

و"مَنَسَّى". مشَّطت فرَقُ عُلماء الآثار والطُّلاَّب ـ عمليّاً ـ كُلَّ وادٍ، وحافَّة، ومُنحدراً، بحثاً عن آثار الأسوار، أو قطَع وشظايا الفخّاريَّات المُتناثرة. كان العمل في الحقل بطيئاً، يتمُّ فيه ـ خلال يوم كامل من العمل، في المُعدَّل ـ تغطية مساحة حوالي ميل مُربَّع واحد. وكان يتمُّ تسجيل أيِّ معلومة يتمُّ الحُصُول عليها عن وُجُود استيطان بشري، بدءاً من العصر الحجري، وحتَّى الفترة العُثمانيَّة، وذلك لأجل دراسة تاريخ الاستيطان في مناطق المُرتفعات الجَبَليَّة على طُول المدى الزّمني الطّويل. كانت تُستعمل الطُّرُق الإحصائيَّة لتخمين حجم كُلِّ مُستوطَنَة، في كُلِّ فترة من فترات استيطانها. كان يتمُّ جَمْعُ المعلومات البيئيَّة، وتحليلها؛ لإعادة بناء المنظر الطّبيعي في العُصُور المُختلفة. وفي بعض الحالات الواعدة؛ كان يتمُّ إجراء عمليَّات تنقيب أيضاً.

أَحْدَثَتْ تلك الاستطلاعات ثورة في دراسة إسرائيل القديمة. إنَّ اكتشاف بقايا شبكة كثيفة من قُرَى المُرتفعات ـ والتي بُنِيَت جميعها، على ما يبدو، خلال بضعة أجيال فقط ـ بيَّن أنَّ تحوُّلاً اجتماعيّاً قويّاً حَدَثَ في ريف التّلال والهضاب المركزيَّة لكَنْعَان حوالي سنة 1200 ق.م، لم تكن هُناك أيُّ إشارة لغَزْوٍ عنيف، أو حتَّى لتسرُّب مجموعة عرْقيَّة مُحدَّدة بشَكْل واضح. بَدَلاً من ذلك، بدا الأمر وكأنَّه ثورة في أُسلُوب الحياة. في المُرتفعات التي كانت ـ سابقاً ـ غير مأهولة بالسُّكَّان إلاَّ بشَكْل نادرٍ ومُتناثر وضعيفٍ، بدءاً من مُرتفعات يهُوذا في الجنوب، وحتَّى مُرتفعات السّامرة في الشّمال، بعيداً عن المُدُن الكَنْعَانيَّة التي كانت في عَمَليَّة انهيار وتفكُّك، برزت ـ فجأةً ـ حوالي مئتان وخمسون جماعة بشريَّة تعيش حياة مُشتركة في قمَم المُرتفعات، أو التّلال. كان هؤلاء ـ هُم ـ الإسرائيليِّين الأوائل[1].

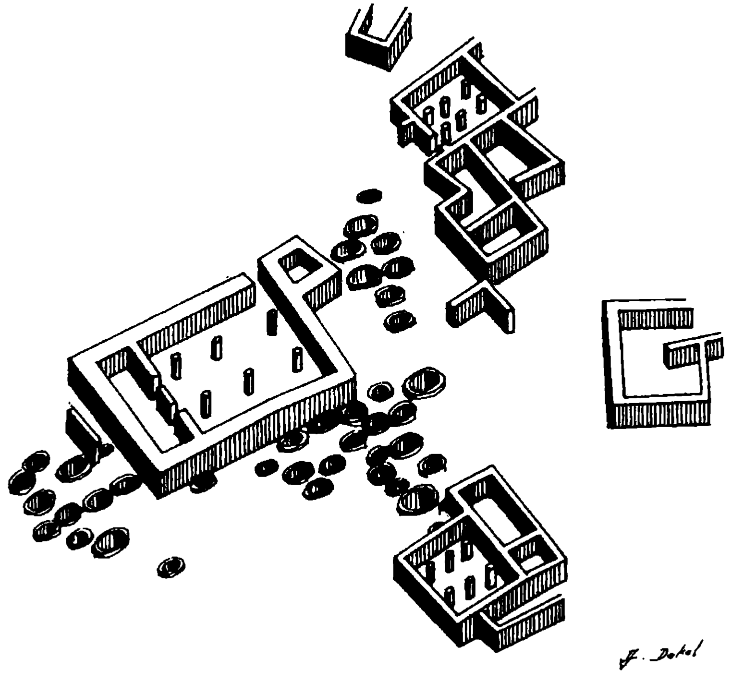
الحياة على حُدُود المُرتفعات:

أظهرت التّنقيبات التي أُجريت في بعض المواقع الصّغيرة التّابعة للعصر الحديدي الأوَّل ـ خلال ذلك المَسْح ـ كم كانت تلك الموجة المُفاجئة للاستيطان في المُرتفعات واحدة النَّمَط

---

(1) بالرّغم من أنَّه ليس هُناك طريق لمعرفة الهُوِيَّات العرْقيَّة التي كانت قد تشكَّلت بالكامل في ذلك الوقت، إلاَّ أنَّنا حدَّدنا هُويَّة قُرى المُرتفعات المُتميِّزة هذه بأنَّها قُرى "إسرائيليَّة"، لأنَّ العديد منها سُكِنَت ـ بشكل مُتواصل ـ حتَّى فترة الحُكُومات المَلَكيَّة ـ وهُو عصرٌ لدينا مصادر وفيرة، سواء من الكتاب المُقدَّس أو من خارج الكتاب المُقدَّس، تشهد بأنَّ سكَّانها عرَّفوا أنفسهم بنحوٍ واعٍ على أنَّهم إسرائيليُّون. (المُؤلِّف).

بشكْل مُدهش. كان موقع القرية النّموذجيَّة ـ عادةً ـ فوق قمَّة تَلٍّ، أو علـى حافَّة مُنحـدر، مـع إشراف على كُلِّ المنظر الطّبيعـي المُحيـط. كـانت القريـة تُؤَسَّس علـى منطقـة مفتوحـة مُحاطـة بغابات طبيعيَّة مُؤلَّفة ـ في الغالب ـ مـن أشجار البلُّـوط والبُـطم (التّربينث terebinth). وفـي بعض الحالات؛ كانت القُرَى تُؤَسَّس على حوافِّ الوُديـان الضَّيِّقة بَيْن الجبال، وذلـك ـ علـى ما يبدو ـ للوُصُول ـ بسُهُولة ـ إلى الحُقُول الزّراعيَّة. في العديد من الحالات؛ كانت تُبْنـى القُـرَى على أقصى ما يُمكن في جهة الشّرق من الأراضي الخصبـة المُشـرفة علـى الصّحـراء، قريبـاً من المراعي الجيِّدة. بدت القُرَى ـ في كُلِّ حالة ـ مُكتفية ذاتياً.



الشّكْل 12: قطاع مُستَكْشَف عبْر الحضريَّات لـ 'عزْبَتْ سرتاح'، قرية تعود للعصر الحديدي الأوَّل في المُرتفعات الغربيَّـة، تصـوِّر بُيُوتـاً مَبْنيَّـة علـى عواميـد، وحُبُـوب السّيلوس.

كان سكّانُهَا يسحبون المياه من الينابيع القريبة ، أو من مياه أمطار الشّتاء المُخزّنة (في باطن الأرض) ، والتي تخرج من الصُّخُور المقطوعة ، أو تُخزّن في صهاريج مُجصّصة تُستعمَل طيلة السّنة . أكثر ما يُفاجئ في شأن هذه القُرَى صغَر حجمها الشّديد . في أكثر الحالات ؛ لم تكن مساحة الواحدة منها تزيد على هكتار واحد في الحجم ، يقطنها ـ طبقاً للتّخمينات ـ حوالي خمسون بالغ ، وخمسون طفلاً . حتّى أكبر القُرَى في المُرتفعات كان حجمها يصل إلى ثلاثة أو أربعة هكتارات فقط ، مع بضعة مئات من السُّكّان . كان العدد الكامل لسُكّان هذه القُرَى الجبليّة ـ في ذروة عَمَليّة الاستيطان فيها ، أيْ حوالي سنة 1000 ق . م ـ لا يزيد على خمسةٍ وأربعين ألف نسمة .

على العكس من ثقافة المُدُن والقُرَى الكَنْعَانيّة في السُّهُول ؛ لم تكن قُرَى المُرتفعات تحتوي على أيّ بنايات عامّة ، أو قُصُور ، أو مخازن ، أو معابد .

أيُّ إشارات لوُجُود عمليّات تسجيل وتوثيق من أيّ نوع مُتطوّر : مثل الكتابة ، أو الأختام ، أو آثار الأختام ، كانت غائبةً ـ تماماً ـ تقريباً . لم تكن هُناك ـ تقريباً ـ أيُّ موادَّ مُمتازة : لا فخّاريّات مُستورَدَة ، وتقريباً ؛ لا مُجوهرات .

في الحقيقة ؛ كانت بُيُوت القرية جميعها مُتماثلة جداً في الحجم ، ممّا يُفيد أنّ الثّروة كانت مُوزّعة ـ بشَكْل مُتساو جداً ـ بَيْن العائلات . كانت البُيُوت تُبنى من صُخُور الحُقُول الخامّ (غير المشغولة) ، مع استخدام أعمدة من الحجارة القاسية لتزويد الدّعْم للسُّقُف أو الطّابق العُلْوي . كان حجم البناية المُتوسّطة ، حوالي ستُّمئة قَدَم مُربّع ، ويُقدّر عدد سُكّانها بأربعة إلى خمسة أشخاص ؛ أيْ حجم نُواة عائلة .

في العديد من الحالات ؛ كان يتمُّ حَفْر حُفَر مُخطّطة بالحجارة ، بَيْن البُيُوت ، لخَزْن الحُبُوب (الشّكْل رَقْم 12) . وُجدَت هذه المُستودعات ، وعدد كبير من أنصال المنجل ، والأحجار الطّاحنة في كُلّ بيت ، ممّا يُشير إلى أنّ زراعة الحُبُوب كانت تُمثّل أحد اهتمامات القرويّين الرّئيسيّة . رغم ذلك ؛ كان مايزال لتربية المواشي أهمّيّتها ؛ حيثُ كان يتمُّ استخدام الفناءات المُسيّجة قُرْب البُيُوت لحفْظ الحَيَوانات في مكان آمن ـ على ما يبدو ـ خلال الليل .

كانت وسائل الرّاحة الحياتيّة بسيطة . كانت الفخّاريّات خشنة وأساسيّة ، ولم تكـن هُنـاك آنية فاخرة ، ومُتقنة ، أو مُزخرفة جداً . كانت المُستودعات المنزليّة تتضمّن ـ بشَكْل رئيسي ـ جرار خَزْن ، وقُدُور طَبْخ ، والتي تُشكّل الأدوات الأساسيّة للحياة العاديّة . كانت الجرار تُستَعْمَل ـ على ما يبدو ـ لخَزْن الماء ، والزّيت ، والخَمْر . لا نعرف أيّ شيء ـ تقريباً ـ عن عادات الدّفْن ؛ لأنّ القُبُور كانت ـ على ما يبدو ـ بسيطة ، والموتى يُدفَنُون بدُون تقديم ذبائح أو قرابين .

على النّمط نفسه ؛ لم يكن هُناك أيُّ شيء يُشير للعبادة . لم تُوجد هُناك أضرحة في القُرَى ، لذا ؛ كانت مُعتقداتهم الدّينيّة المُعيّنة مجهولة . في حالة واحدة ؛ في موقع قمّة تَلٍّ صغير جداً في ريف التّلال والهضاب الشّماليّة قام بالتّنقيب فيها "أميناي مازار" Aminai Mazar من الجامعة العبْريّة تمّ اكتشاف تمثال ثور برُونزي ، ممّا يُشير ـ احتمالاً ـ لعبادة الآلهة الكَنْعَانيّة التّقليديّة . في موقع آخر ، على جبل "إيبال" Ebal ، اكتشف "آدم زيرتال" Adam Zertal ، من جامعة حيفا ، بناءً حجريّاً غير عادي ، ميّزه على أنّه مذبح إسرائيلي مُبكّر ، لكنّ الوظيفة الدّقيقة لذلك الموقع والمنطقة المُسوَّرة المُحيطة به ماتزال موضع نقاش .

وممّا يجدر ذكْره أنّه ـ على العكس من رواية الكتاب المُقدّس التي تحكي عن الحرب المُستمرّة تقريباً بَيْن الإسرائيليّين وجيرانهم ـ لم تكن تلك القُرَى مُحصّنة ؛ إمّا أنّ سُكّان تلك القُرَى كانوا يشعرون بالأمان في أماكنهم النّائية البعيدة ، ممّا يُغنيهم عن صَرْف الأموال في بناء تحصينات دفاعيّة ، أو أنّهم كانوا لا يمتلكون الوسائل ، أو التّنظيم الصّحيح للقيام ببناء مثل تلك التّحصينات . لم تُكْتَشَفْ أيُّ أسلحة ، كالسُّيُوف ، أو الرّماح ، بالرّغم من أنّ مثل هذه الاكتشافات كانت نَمَطيّةً دائماً في مُدُن السُّهُول . كما لم تُوجد هُناك إشارات لحريق ، أو دمار مُفَاجئ ، قد يُشيران إلى حُدُوث هُجُوم عنيف .

نُقّبَتْ قرية "عزبت سرتاح" Izbet Sartah التي تعود للعصر الحديدي الأوّل ـ والتي تقع على الحوافّ الغربيّة للمُرتفعات ، مُشرفةً على السّهل السّاحلي ـ بشَكْل كامل تقريباً ، وبالتّالي ؛ قدّمت لنا معلومات كافية لإعادة بناء موثوقة لاقتصادها المعيشي . اقترح "باروخ رُوزن" Baruch Rosen ـ اختصاصي إسرائيلي في الإنتاج الزّراعي القديم والتّغذية القديمة ـ في

تحليله المُفصَّل للمُعطيات التي قدَّمتها التّنقيبات، أنَّ القرية (التي يُقدَّر عدد سكَّانها بحوالي المائة نسمة) كانت - احتمالاً - تعتمد في معيشتها على ثمنمائة هكتار من الأرض المُحيطة، كانت 450 هكتار منها مزروعةً، في حين؛ كان الباقي يُستخدَم لرَعْي الماشية.

في ظُرُوف العصر الحديدي الأوَّل؛ كان من المُمكن لتلك الحُقُول أنْ تُنتج بحُدُود ثلاثة وخمسين طنَّاً من الحنطة، وعشرين طنَّاً من الشّعير بالسّنة، وذلك بمُساعدة حوالي أربعين ثوراً للحراثة. بالإضافة إلى ذلك؛ كان السُّكَّان يُرَبُّونَ - على ما يبدو - حوالي ثلاثمئة خروف وعنزة. (مع ذلك؛ لابُدَّ من الإشارة إلى أنَّ هذه القرية كانت تقع في منطقة خصبة من التّلال. في حين؛ أنَّ أغلب قُرَى المُرتفعات لم تكن على مُستوى هذه القرية نفسه في الغنى).

يُظهرُ كلُّ ما سَبَقَ أنَّ صراع الإسرائيليّين الأوائل لم يكن مع شُعُوب أُخرى، بل كان مع التّضاريس الحجريَّة وغابات المُرتفعات الكثيفة، والبيئة القاسية والمُتقلِّبة في كثيرٍ من الأحيان. رغم ذلك؛ يبدو أنَّهم عاشوا بسلامٍ نسبيَّاً، وأنَّهم كانوا قادرين على توفير اكتفاء ذاتي اقتصاديَّاً. كانوا مُنعزلين تماماً عن طُرُق التّجارة الإقليميَّة، وكانوا - حسبما يبدو - بعيدين جدَّاً عن بعضهم البعض؛ ولا تُوجد أيُّ مُؤشّرات على أنَّ هُناك سلَعَاً تجاريَّة كان يتمُّ تبادلها بَيْن قُرَى التّلال والمُرتفعات هذه. وبالتَّالي؛ فليس من المُفاجئ أنْ لا نجد في هذه القُرَى أيّ دليل على وُجُود تقسيم طَبَقي اجتماعي، فلا إشارة إلى أبنية إداريَّة لمسؤولين، ولا مساكن كبيرة لوُجَهَاء، ولا مُنتجات مُتخصِّصة لصنَّاع ماهرين بارعين.

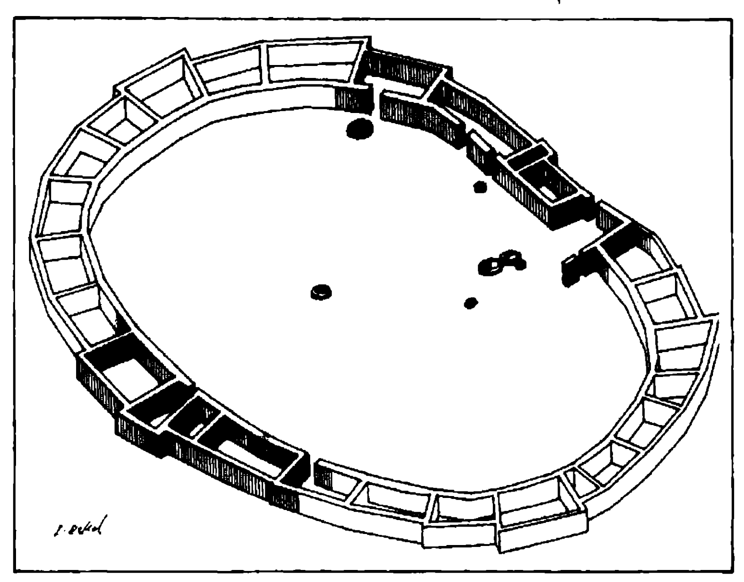
إذاً؛ ظهر الإسرائيليُّون الأوائل في حوالي 1200 ق.م، كَمُربِّي ماشية ومُزارعين في التّلال. كانت ثقافتهم ثقافة عيش بسيطة، هذا أكثر ما نعرفه عنهم. ولكنْ؛ من أين جاؤوا؟

مفاتيح جديدة حول أُصُول الإسرائيليِّيْن:

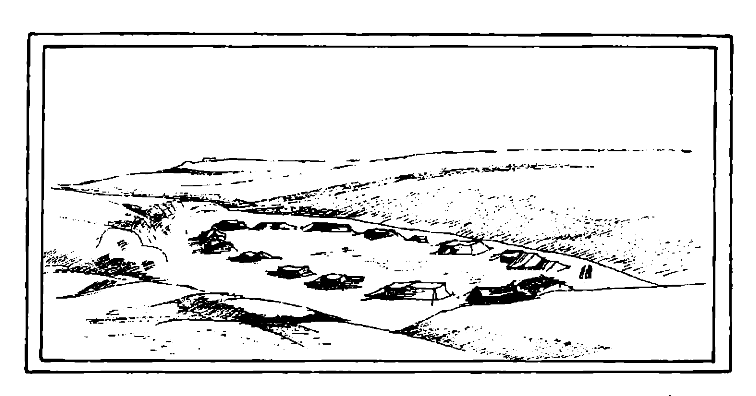
ظَهَرَ مِمَّا سَبَقَ، أنَّ حلَّ مسألة أُصُول الإسرائيليّين يكمن في البحث في بقايا مراكز الاستيطان الباكرة (الأولى). قدَّمت أغلب القُرَى - التي تمَّ تنقيبها في المُرتفعات - أدلَّة عن حياة الإسرائيليّين كما كانت عليه بعد عدَّة عقُود، أو حتَّى بعد قرن من تأسيسها. كانت البُيُوت والأفنية قد تمَّ توسيعها وإعادة تشكُّلها من جديد خلال تلك السّنوات. في حالات قليلة جداً

فقط، بقيت آثار المُستوطنة الأوليَّة نفسها محفوظة سليمة دُون تغيير، تحت أنقاض الأبنية التّالية. أحد الأمثلة عن مثل هذه الحالة كانت موقع "عزبت سرتاح" Izbet Sartah، التي سَبَقَ وأشرنا إليها.

كان تخطيط المرحلة الباكرة للموقع غير عادي، ومُختلفاً جداً عن التَّوزُّع العُنقُودي التّالي للبُيُوت المُستطيلة المُدعَّمة بعواميد، والتي بدأت تظهر لاحقاً في الموقع. كانت المُستوطنة الأُولى تُبنى بشَكْل إهليلجي، مع صفٍّ من الغُرف يُحيط بفناء مفتوح كبير (الشَّكْل رَقْم 13). كانت تلك الغُرف الخارجيَّة تتَّصل ببعضها البعض بطريقة تُشكِّل ما يُشبه الحزام المُستمرَّ الذي يحمي الفناء الدّاخلي. يُلمِّح الفناء المُغلق الكبير إلى أنَّ السُّكَّان كان لديهم قطعان ماشية، من المُحتمل أنَّها كانت قطعان غَنَم وماعز. كما يُشير اكتشاف بضعة مُستودعات، وأنصال منجل، وأحجار طحن إلى أنَّهم زاولوا - قليلاً - زراعة الحُبُوب أيضاً.



الشَكْل 13: مرحلة العصر الحديدي المُبكِّر في 'عزبت سرتاح' Izbet Sartah. يُشير التّخطيط البيضاوي إلى الأُصول الرّعَويَّة للسُكَّان.



الشَّكْل 14: مُعسكر بَدَوي بيضاوي قُرْب أريحا كما يظهر في رَسْم يعود للقرن التّاسع عشر.

تمّ اكتشاف مواقع بيضاويَّة مُماثلة في التّلال والهضاب الوُسْطى، وفي مُرتفعات النَّقَب في الجنوب. كما تمّ اكتشاف مواقع مُقارنة يعود تاريخها لفترات زمنيَّة أُخرى، في سيناء، والأُردُن، ومناطق أُخرى من الشّرق الأوسط. عُمُوماً؛ يبدو هذا النَّمَطُ من البُيُوت المُغلقة من الخصائص المُميِّزة للقُرَى الاستيطانيَّة في المُرتفعات، وعلى حُدُود الصّحراء. إنَّ مُخطَّط هذه القرية ـ التي تعود إلى بدايات العصر الحديدي الأوّل ـ لا يُشابه المواقع التي تعود للعصر البرُونزي والعصر الحديدي في أراضي السّهل فحسب، بل يُماثل ـ كذلك ـ مُخيَّمات البدو التي يصفها المُسافرون في صحراء يهُوذا والضفّة الشّرقيَّة للأُردُن، وصحراء سيناء، في آخر القرن التّاسع عشر، وبداية القرن العشرين، بل حتّى يُصوّرُونها (انظرْ الشَّكْل رَقْم 14).

في مثل هذا النَّمَط من المُخيَّم، يُحيط صفٌّ من الخيام بفناء مفتوح، تُحفَظُ فيه قطعان الماشية ليلاً. إنَّ مواقع المُرتفعات ومواقع النَّقَب التي تعود للعصر الحديدي تتماثل بنَحْو مُدهش في شكْلها، وحجمها، وعدد وحداتها.

على الرّغم من حُلُول الجُدران الحَجَريَّة محلّ الخيام المُتنقّلة في مراكز الاستيطان القديمة، فإنَّ الشَّكْل يُوحي بوُضُوح بنَفْس الوظيفة في كلا نَمَطَيْ الاستيطان. كان النّاس الذين يعيشون في هذه المواقع ـ سواءً في الماضي والحاضر ـ رُعاة يهتمُّون بشَكْل أساسي بحماية قطعان ماشيتهم. يُشير كُلُّ ذلك إلى أنَّ نسبة كبيرة من الإسرائيليّين الأوائل كانوا يوماً ما بدواً رُعاةً.

ولكنَّهم كانوا بدواً رُعاةً يمرُّون بتحوُّل عميق. فالانتقال المُفترَض من مُخيَّمات الخيام القديمة إلى قُرَى مبنيَّة من الحَجَر ذات هيكل عامٍّ مُشابه، ثُمَّ - فيما بعد - نحو المنازل المُستطيلة الأكثر دواماً، المُستندة إلى عواميد، يُشير إلى أنَّهم تركوا حياة التَّنقُّل، وتخلَّوا عن أغلب حَيَوَاناتهم، وانتقلوا نحو الزّراعة الدّائمة. مثل هذه التَّحوُّلات مايزال من المُمكن مُلاحظتها في الشّرق الأوسط حتَّى يومنا هذا. غالباً ما يستبدل البدو - في عَمَليَّة الاستقرار - خيامهم بأبنية من الأحجار والطُّوب، مبنيَّة على نَفْس شكْل الخيام. كَما أنَّهم يميلون للإبقاء على تخطيط المُخيَّم التّقليدي - أيضاً - في تخطيطهم لمُستوطنتهم الدّائمة الأُولى، ثُمَّ يبدؤون - لاحقاً، وبشكْل تدريجي - بمُغادرة هذا النَّمَط التّقليدي، والانتقال إلى قُرَى الإقامة المُنتظَمَة. هُناك تطوُّر مُماثل جداً يظهر في بقايا قُرَى المُرتفعات العائدة للعصر الحديدي.

هُناك مُؤشّرٌ آخر يُشير لنَفْس الاتّجاه أيضاً: نوع الأمكنة التي كان يختارها المُستوطنُون في العصر الحديدي الأوَّل لأجل إقامتهم الدّائمة يُوحي بخَلْفيَّة بَدَويَّة رعَويَّة. كانت كثير من المُستوطنات - مُنْذُ بداية نشاط العصر الحديدي في المُرتفعات - تقع في الجُزء الشّرقي للمنطقة، ليس بعيداً عن حَدِّ الصّحراء. مَكَّن تأسيس المُستوطنات في هذه النُّقطة القرويِّين من مُواصلة تربية الخرفان والماعز، مع انتقالهم التّدريجي إلى الزّراعة، كَوَسيلتهم الرّئيسيَّة لكَسْب عيشهم. ولم يتوسَّعوا نحو الغرب إلاَّ في فترة لاحقة، ذلك الغرب الذي كان أقلّ مضيافاً للزّراعة وتربية المواشي، وأكثر مُلاءمة لزراعة بساتين الزّيتون وكُرُوم العنب.

ومن هُنا؛ كان العديد من الإسرائيليِّين الأوائل - ظاهراً - بدواً، تحوَّلوا - بشَكْل تدريجي - إلى مُزارعين، ولكنْ؛ مازال هُناك بدو يجب أنْ يأتوا من مكان ما. هُنا - أيضاً - للشّواهد الآثاريَّة التي اكتُشفت مُؤخَّراً كلمة تقولها.

دورات كَنْعَان المَخْفيَّة:

جَمَعَتْ الاستطلاعاتُ الشّاملة التي جرت في المُرتفعات في العُقُود الأخيرة بيانات عن طبيعة الاستعمال الإنساني للأرض في هذه المنطقة عبْر عدَّة ألفيَّات. كانت إحدى أكبر المُفاجآت هي أنَّ تلك الموجة القَويَّة من استقرار الرُّعاة المُتنقِّلين وتحوُّلهم إلى مُزارعين مُقيمين

بشَكْل دائم في القرن الثّاني عشر ق . م ، لم تكن حَدَثاً فريداً ، بل أشارت الشّواهد الآثاريّة أنّه كانت ـ قبل القرن الثّاني عشر ق . م ـ موجتان سابقتان مُشابهتان من الاستيطان في المُرتفعات ، كُلٌّ منهما تبعتْهُمَا عودة المُستوطنين في النّهاية من جديد إلى نَمَط الحياة الرّعوي المُتنقّل .

نحنُ نعرف اليوم أنّ الاحتلال الأوّل للمُرتفعات حَدَثَ في العصر البرُونزي المُبكّر ، مُبتدئاً قبل حوالي ألفَيْ سنة من بُرُوز إسرائيل المُبكّرة ؛ أيْ في حوالي 3500 ق . م . في ذروة موجة الاستيطان هذه ، كان هُناك ـ تقريباً ـ مئة قرية ، أو بلدة أكبر ، مُتناثرة في كافّة أنحاء الحافّة المركزيّة . بعد أكثر من ألف سنة ؛ أيْ حوالي 2200 ق . م ، تمّ هَجر أغلب مراكز الاستيطان في المُرتفعات ، وأصبحت المُرتفعات منطقة حُدُوديّة من جديد ، ولكنّ موجةً ثانيةً من الاستيطان ، أقوى من الأُولى ، بدأ يزداد زَخْمُهَا في العصر البرُونزي المُتوسّط ، بعد مُدّة قصيرة من سنة 2000 ق . م . بدأت هذه الموجة بتأسيس قُرَى مُتفرّقة صغيرة نَمَتْ بشَكْل تدريجي ؛ لتُصبح شبكة مُعقّدة من حوالي 220 مُستوطنة ، تتراوح من القُرَى ، إلى البلدات ، إلى المراكز الإقليميّة المُحصّنة .

جدول 1 موجات الاستيطان في المُرتفعات

العصر	التّاريخ	الخصائص الأساسيّة
العصر البرُونزي الباكر	3500 ـ 2200 ق . م	أوّل موجة استيطان ؛ تمّ رصد حوالي 100 موقع .
الغصر البرُونزي الأوسط	2200 ـ 2000 ق . م	أزمة استيطان ؛ تمّ هَجْر أكثر المواقع
العصر البرُونزي المُتوسّط	2000 ـ 1550 ق . م	ثاني موجة استيطان ؛ تمّ رصد حوالي 220 موقع .
العصر البرُونزي المُتأخّر	1550 ـ 1150 ق . م	أزمة استيطان ؛ لم يتمّ رصد إلاّ 25 موقعاً فقط
العصر الحديدي الأوّل	1150 ـ 900 ق . م	ثالثُ موجة استيطان ؛ تمّ رصد حوالي 250 موقعاً .
العصر الحديدي الثّاني	900 ـ 586 ق . م	تطوّر نظام استيطان يصل إلى 500 موقع (القرن الثّامن ق . م)

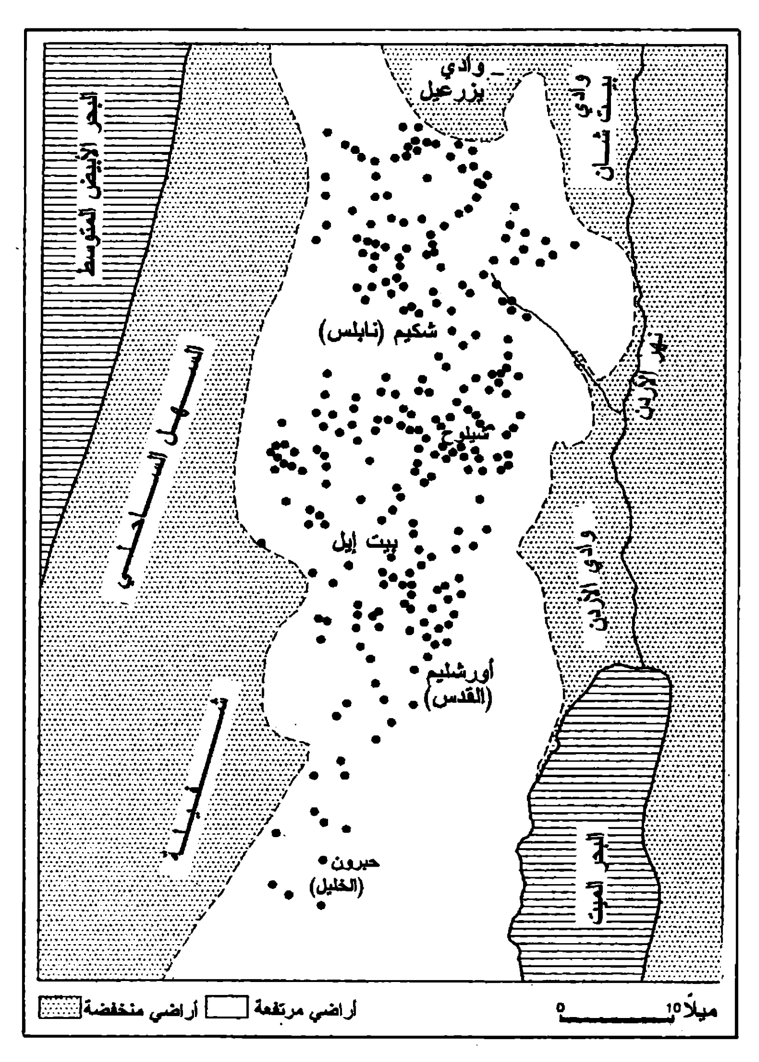
قُدّر عدد سُكّان موجة الاستيطان الثّانية هذه بحوالي أربعين ألف نسمة . أصبح العديد من المراكز المُحصّنة الرّئيسيّة في هذه الفترة ؛ مثل "حبرون" ، "أورشليم" ، "بيت إيل" ، "شيلوح" ، "شكيم" ؛ مراكز مُهمّة في عهد الإسرائيليّين . ومع ذلك ؛ انتهت موجة الاستيطان الثّانية في المُرتفعات هذه ، في وقت ما من القرن السّادس عشر ق . م ؛ حيثُ أصبحت المُرتفعات ـ حينئذٍ ـ منطقة حُدُوديّة مأهولة بالسُّكّان بشَكْل مُتناثر ، وبقيت كذلك لأربعة قُرُون .

أخيراً؛ - كَمَوجَة رئيسيَّة ثالثة - بدأ الاستيطان الإسرائيلي المُبكِّر حوالي 1200 ق. م، (انظُرْ الشَّكْل رَقْم 15)؛ حيثُ شَرَعَ - مثل أسلافه - بإنشاء مُجتمعات ريفيَّة صغيرة - بشَكْل رئيسي - بعَدَد ابتدائي من السُّكَّان يصل إلى حوالي 000، 45 نسمة تقريباً، في 250 موقعاً. ثُمَّ تطوَّر - تدريجياً - إلى أنْ بَلَغَ نظاماً ناضجاً من مُدُن كبيرة، ومراكز أسواق إقليميَّة مُتوسِّطة الحجم، وقُرَى صغيرة. شملت موجة التَّوطُّن هذه - في ذروتها في القرن الثَّامن ق. م.، بعد تأسيس مَمْلَكَتَيْ يهُوذا وإسرائيل - أكثر من خمسمئة موقع، بَلَغَ عدد سكَّانها حوالي 000. 160.

والذي جَعَلَ هذا النُّمُوَّ السُّكَّاني القَوِيَّ مُمكناً هُو الاستخدام الكامل للطَّاقة الزِّراعيَّة للمنطقة. كانت المُرتفعات تُقدِّم تضاريس مُمتازة لأجل زراعة الزَّيتون وكُرُوم العنب، وهي القطاعات الأكثر ربحاً في الاقتصاد التَّقليدي في الشَّرق الأوسط.

في كُلِّ فترات الاستيطان الثَّلاثة المُكثَّفة في المُرتفعات كان يبدو أنَّ فائضاً من الخَمْر وزيت الزَّيتون يتمُّ إرساله إلى السُّهُول، بل يتمُّ تصديره - أحياناً - حتَّى إلى خارج حُدُود كَنْعَان، وخاصَّة إلى مصر.

لقد تمَّ تحليل بعض سُفُن الخَزْن التي وُجدَتْ في مصر، والتي تعود للعصر البرُونزي المُبكِّر، فَوُجدَتْ بأنَّها كانت قد صُنعَتْ من الطِّين المأخوذ من المُرتفعات الكَنْعَانيَّة، بل في إحدى الحالات الاستثنائيَّة وُجدَتْ جرَّة من كَنْعَان كانت ماتزال تحتوي على بقايا من بُذُور العنب. وعليه؛ فإنَّ التَّشابه بَيْن أنماط الاستيطان في تلك الموجات الثَّلاثة الرَّئيسيَّة تشابه واضح. في كثير من الحالات؛ تمَّ إشغال نَفْس المواقع في كُلٍّ من الفترات الثَّلاثة. ولا يقلُّ أهمِّيَّة عن ذلك أنَّ النَّماذج الكُلِّيَّة للاستيطان كانت تشترك في بعض الخصائص؛ *أوَّلاً*: كان يبدو أنَّ الأجزاء الجنوبيَّة للمُرتفعات كانت دائماً مأهولة بالسُّكَّان بدرجة أقلّ من الأجزاء الشَّماليَّة، والذي كان سببه - كما سنرى - البيئة الطَّبيعيَّة المُختلفة جداً للمنطقتَيْن. *ثانياً*: كان يبدو أنَّ كُلَّ موجة من النُّمُوِّ الدِّيمُوغرافي تبدأ في الشَّرق، ثُمَّ تتوسَّع - تدريجيّاً - نحو الغرب. وأخيراً؛ تميَّزت كُلُّ واحدة من الموجات الثَّلاثة بثقافة ماديَّة مُتماثلة تقريباً، تجلَّت بفخَّاريَّات مُتشَابهَة وبهندسة معماريَّة، وتخطيط قُرَى مُتشَابه، والذي كان - احتمالاً - نتيجة لظُرُوف اقتصاديَّة وبيئيَّة مُتماثلة.



الشكل 15: مواقع العصر الحديديّ الأوّل في منطقة المُرتفعات المركزيّة.

في الفترات الواقعة بَيْن ذروات الاستيطان في المُرتفعات، عندما هُجِرَت المُدُن والبلدات، وحتَّى أغلب القُرَى، بقيت المُرتفعات مأهولة ببعض السُّكَّان، ولم تُهْجَر كُلِّيّاً، وقد جاءت أحد الشّواهد المُهمَّة على ذلك من مصدر غير مُتوقَّع - ليس نُقُوشاً أو أبنية تمّ تنقيبها، ولكنْ؛ تحليلٌ عن كَثَب لعظام حَيَوَانات استُخْرِجَت بواسطة أعمال التّنقيب. لقد احتوت العظام - التي تمّ الحُصُول عليها من المواقع، التي ازدهرت خلال فترات الاستيطان المُكثَّف في المُرتفعات - على كميَّة كبيرة نسبياً من المواشي البقريَّة، التي تُشير - بشَكْل عامٍّ - إلى مُمارسة زراعة الحُقُول على نطاق واسع واستخدام المحراث. في الحقيقة؛ هذه النِّسَب تُشابه ما نراه اليوم في الجماعات المُزَارِعَة في القُرَى التّقليديَّة بالشّرق الأوسط.

ولكنْ؛ يُمكن مُلاحظة فَرْقٍ قَويٍّ بَيْن العظام التي جُمِعَتْ من بعض المواقع في المُرتفعات التي استمرَّ استيطانها في الفترات الواقعة بَيْن موجات الاستيطان الرّئيسيَّة. كان عدد الأبقار قليلاً، في حين كانت هُنَاك نسب كبيرة جداً من الخرفان والماعز. هذا مُماثل لتركيب قطعان الماشية لدى المجموعات البَدَويَّة. بالنّسبة للرُّعاة الذين يعملون في زراعة موسميَّة هامشيَّة فحسب، ويقضون مُعظم السّنة في البحث عن مراعٍ جديدة، تُمثِّل المواشي الثّقيلة التي تتحرَّك ببُطء (مثل الأبقار والجمال) عبئاً ثقيلاً، إنَّها لا تستطيع أنْ تتحرَّك بسُرعة، وبقدر حَرَكَة الخرفان والماعز، لذا؛ في فترات الاستيطان المُكثَّف في المُرتفعات، كان هُنَاك أُناس أكثر مشغولين بالزّراعة؛ في حين أنَّه في سنوات أزمات الاستيطان، كان النّاس يُزاولون تربية الخرفان والماعز.

هل كانت مثل تلك التَّقلُّبات المُفاجئة أمراً شائعاً؟ لقد كان لدى النّاس في الشّرق الأوسط - دائماً - الخبرة في التّغيير بسُرعة من حياة القرية إلى حياة الفلاحة الحَيَوَانيَّة، أو العودة من حياة الرّعي إلى الزّراعة المُستقرَّة، وذلك تبعاً للظُّرُوف الاقتصاديَّة والسّياسيَّة، بل حتَّى المناخيَّة، المُتغيِّرة. كانت العديد من المجموعات - في أنحاء المنطقة كافَّة - قادرة على أنْ تنقل أُسلُوب حياتها إلى أفضل ما يُناسب الوقت، وكان الدَّرْب الذي يصل بَيْن حياة القرية والحياة البَدَويَّة ذات تربية المواشي طريقاً ذا اتِّجاهَيْن دائماً.

هذا بالضّبط ما أثبتتْهُ الدّراسات الأنثرُوبُولُوجيَّة لتاريخ الاستيطان في الأُردُن، والجنوب الغربي لسُوريا، ووادي الفُرات الأوسط، في القرنَيْن التّاسع عشر والعشرين. كان النّظام

الضّريبي الثّقيل جداً والتّهديد بالتّجنيد في الجيش العُثماني من بَيْـن العوامـل التـي دَعَـت عـدداً لا يُحصى مـن عوائـل القُرَى لـهَجْر بُيُوتـهم في المنـاطق الزّراعيَّـة ، والاختفـاء فـي الصّحـراء . هُناك ؛ زاولوا تربية الحَيَوَانات ، التي كانت ـ دائماً ـ نَمَطَ حياةٍ أكثر مُرُونةً ، وإنْ كان أقلَّ راحةً .

وتنطلق عَمَلِيَّة مُعاكسة في الأوقات التي يتحسَّن فيها الأمن والأحوال الاقتصاديَّة ؛ حيثُ يبدأ تأسيس المُجتمعـات المُقيمـة مـن قِبَـل البـدو ، أو التـي ينضـمُّ إليـها البـدو السّـابقون ، الذيـن يبـدؤون بمُزاولـة دورٍ تخصُّصـي فـي مُجتمـع ذي جُزأيـن ، أو مُزدوج الشّكْل : أحـد قطاعَيْـه يتخصَّص بالزّراعة ، في حين ؛ يُواصل الآخرُ عَمَلَهُ التّقليديَّ في تربية الخرفان والماعز .

هذا النَّمَط له مغزى خاصٌ في سُؤالنا : مَنْ كان الإسرائيليُّون الأوائل ؟ ذلك لأنَّ عُنصُرَيْ مُجتمع الشّرق الأوسط ـ المُزارعـون والبـدو الرُّعـاة ـ حـافظوا ـ دائمـاً ـ علـى بقائـهم وعلاقتـهم الاقتصاديَّة المُتبادلة ، وإنْ كان هُناك توتُّر بَيْن المجموعتَيْن في بعض الأوقات . يحتـاج البـدو إلـى أسواق أو قُرَى مُستقرَّة للحُصُول على الحُبُوب والمُنتجات الزّراعيَّة الأُخرى ، في حـين ؛ يعتمـد المُزارعـون علـى البـدو لـتزويدهم بـاللُّحُوم ، والألبـان والجُلُــود ، إلاَّ أنَّ طَرَفَـيْ التّبـادل ليسـا مُتسـاويَيْن : فـالقرويُّون يستطيعون الاعتمـاد علـى إنتاجـهم للبقـاء علـى الحيـاة ، فـي حـين ؛ لا يستطيع البدو الرُّعاة الاكتفاء ـ تماماً ـ بمُنتجات مواشيهم ، لأنَّهم يحتاجون إلى الحُبُوب لإكمـال ومُوازنة وجباتهم عالية الدَّسَم من اللَّحْم والحليب . مـادام كـان هُنـاك قرويُّـون يُمكـن التّجـارة معهم ، يستطيع البدو مُواصلة تركيزهم على تربية المواشـي ، لكـنْ ؛ متـى تعـذَّر الحُصُـول علـى الحُبُوب كَبَديل لمُنتجاتهم الحَيَوَانيَّة ، فإنَّ البدو الرُّعاة يُصبحون مُجبَرين على إنتاجها بأنفسهـم .

هذا ما سبَّب ـ حسب الظّاهر ـ الموجات الفُجائيَّة للاستيطان في المُرتفعات .

في العصر البرُونزي المُتأخِّر لكَنْعَان ، كـان الوُجُـود الكبيـر ـ بشَكْل خَـاصٍّ ـ للسُّكّان مـن البدو الرُّعـاة ، فـي حافّـات الصّحـراء والمُرتفعـات ، مُمكنـاً ؛ فقـط طالمـا أمكـن للمُـدُن والقُرَى الكَنْعَانيَّة أنْ تُنتج فائض الحُبُوب الكافي للمُتاجرة . كانت هذه هي الحالة أثنـاء ثلاثـة قُرُون مـن الحُكْم المصري لكَنْعَان ، ولكنْ ؛ عندما انهار ذلك النّظام السّياسي في القرن الثّاني عشر ق . م ، توقَّفت شبكته الاقتصاديَّة عن العمل . إنَّه من المعقول الافتراض أنَّ قرويِّيْ كَنْعَان أُجـبروا علـى التّركيز على المعيشة المحلِّيَّة ، ولم يعودوا يُنتجون فائضاً كافيـاً مـن الحُبُـوب ، أكثر ممَّا يحتاجونـه

لأنفسهم. ولهذا؛ كان على الرُّعاة الذين يعيشون في المُرتفعات وفي حافَّة الصّحراء أنْ يتأقلموا مع هذه الظُّرُوف الجديدة، ويقوموا بإنتاج حُبُوبهم بأنفسهم. وسُرعان ما تُسبِّبُ مُتطلَّبات الزّراعة تناقصاً في مدى الهجرات الموسميَّة. هُنا؛ تتناقص قطعان الماشية كُلَّمَا أصبحت فترات الهجرة أقصر، ومع استثمار الجُهُود في الزّراعة أكثر، فأكثر، يحدث الانتقال الدّائم نحو الإقامة والاستقرار.

العَمَليَّة التي شرحناها هُنا، هي - في الواقع - عكس ما نجده في الكتاب المُقدَّس العبْريّ: لقد أثبتْنا هُنا أنَّ بُروز إسرائيل المُبكِّرة كان نتيجة لانهيار الثّقافة الكَنْعَانيَّة، وليس سبباً له. وأغلب الإسرائيليّين لم يأتوا من خارج كَنْعَان - بل ظهروا من داخلها -. ولم يكن هُناك خُرُوج جماعي من مصر، بل لم يكن هُناك غزو وفَتْح عنيف لكَنْعَان. وأغلب الذين شكّلوا الإسرائيليّين الأوائل كانوا أُناساً محلّيّين - نَفْس النّاس الذين نراهم في المُرتفعات طُول فترة العصرَيْن البرُونزي والحديدي -. كان الإسرائيليُّون الأوائل - من سُخرية السُّخريات - أنفسهم - أصلاً - كَنْعَانيّين.

بأيِّ معنى كانت إسرائيل القديمة فريدة؟

في المناطق الأكثر خُصُوبة من مُرتفعات شرق الأُردُن، نرى نَفْسَ التَّقلُّبات في نشاط الإقامة، ونَفْس أزمة الاستيطان في العصر البرُونزي المُتأخِّر، وبالضّبط؛ نَفْس موجة الاستيطان في العصر الحديدي الأوَّل. لقد كَشَفَتْ الاستطلاعات الأثريَّة التي أُجْرِيَتْ في الأُردُن أنَّ تاريخ الاستيطان البشري في أراضي عمُّون، ومُوآب، وأدوم، كان مُشابهاً - في خُطُوطه العريضة - لتاريخ الاستيطان في إسرائيل المُبكِّرة. يُمكننا أنْ نأخذ وَصْفَنَا الآثاري لقرية إسرائيليَّة نمُوذجيَّة في المُرتفعات الواقعة غرب الأُردُن، تعود للعصر الحديدي الأوَّل، ونستخدمها، دُون أيّ تغيير تقريباً، لوَصْف قرية مُوآبيَّة قديمة. لقد عاش النّاس في نَفْس النَّمَط من القُرَى، في بُيُوت مُشابهة، واستخدموا فخَّارات مُماثلة، وزاولوا طريقة حياة مُماثلة تقريباً. رغم ذلك؛ نعلم من الكتاب المُقدَّس العبْريّ ومن مصادر تاريخيَّة أُخرى، أنَّ النّاس الذين عاشوا في القُرَى الواقعة شرق الأُردُن في العصر الحديدي الأوَّل لم يُصبحوا إسرائيليّين؛ بل على العكس، شكَّلوا - فيما بعد - ممالك عمُّون، ومُوآب، وأدوم. لذلك؛ يُطرَح التّساؤل: هل كان هُناك أيّ شيء خاصّ ومُميَّز في قُرَى النّاس الذين شكَّلوا إسرائيل

المُبكِّرة جَعَلَهم يتميَّزون من جيرانهم؟ هل يُمكننا أنْ نشرح كيف تبلور انتماؤهم العرْقي (إثنيَّتهم) وقوميَّتهم؟

اليوم - كما في الماضي - يُعرِّف النّاس انتماءهم العرْقي بطُرُق مُختلفة: باللُّغة، والدِّين، وعادات اللِّباس، وطريقة دَفْن الموتى، والمُحرَّمات الغذائيَّة المُفصَّلة. إنَّ الثّقافة الماديَّة البسيطة التي تَرَكَهَا مربُّو الماشية والمُزارعون في المُرتفعات - الذين أصبحوا الإسرائيليُّون الأوائل - لا تُقدِّم أيَّ إشارة واضحة على لهجتهم، أو طُقُوسهم الدِّينيَّة، أو عاداتهم، أو مُمارسات دَفْن موتاهم. لكنْ؛ هُناك تفصيل واحد مُثير جداً تمَّ اكتشافه بشأن عاداتهم الغذائيَّة.

إنَّ العظام المُكتَشَفة عبْر التّنقيبات في القُرَى الإسرائيليَّة الصّغيرة الباكرة في المُرتفعات تختلف عن تلك المُكتَشَفة في مراكز الاستيطان في سائر أنحاء البلاد في أمرٍ واحد: ليس هُناك بَيْنها عظام خنازير. إنَّ العظام المجموعة من مُستوطنات المُرتفعات الأقدم كانت تحتوي على بقايا خنازير، ونَفْس الأمر يصدق على مراكز الاستيطان التّالية؛ أيْ بعد العصر الحديدي هُناك. خلال كُلِّ فترة العصر الحديدي - أيْ عصر الممالك الإسرائيليَّة - لم تكن الخنازير تُطبَخ وتُؤكَل، ولا حتَّى تُربَّى في المُرتفعات. تُبيِّن مُعطيات مُقارنة من مُستوطنات ساحليَّة فلسطينيَّة تعود لنَفْس الفترة الزّمنيَّة - العصر الحديدي الأوَّل - أنَّ هُناك - بنَحْو مُفاجئ - عدد كبير من الخنازير بَيْن عظام الحَيَوَانات المُكتَشَفة. على الرّغم من أنَّ الإسرائيليِّين الأوائل لم يكونوا يأكلون الخنزير، كان الفلسطينيُّون يفعلون ذلك بشَكْل واضح، كما كان يفعله العَمُّونيُّون والمُوآبيُّون في شرق الأُردُن (كما تدلُّ عليه البيانات السّطحيَّة المأخوذة).

لا يُمكن لمنع لحم الخنزير أنْ يُفَسَّر بأسباب اقتصاديَّة أو بيئيَّة فقط. في الواقع؛ يُمكنه أنْ يكون الدّليل الوحيد الذي نملكه على وُجُود هُويَّة مُتميِّزة مُشتركة لأهالي قُرَى المُرتفعات في غرب الأُردُن. ربَّما توقَّف الإسرائيليُّون الأوائل عن أكْل الخنزير لمُجرَّد أنَّ الشُّعُوب المُحيطة بهم - خُصُومهم - كانوا يأكلونه، وبهذا؛ بدؤوا يرون أنفسهم مُختلفين. إنَّ المُمارسات الطّبْخيَّة المُتميِّزة، والعادات الغذائيَّة، اثنان من الطُّرُق التي تُشكِّل الحُدُود العرْقيَّة. والظّاهر أنَّ توحيد الله وقَصَص الخُرُوج الجماعي والميثاق جاءت في فترة مُتأخِّرة كثيراً على ما يبدو. لقد اختار الإسرائيليُّون قبل حوالي نصف ألفيَّة من تأليف نُصُوص الكتاب المُقدَّس العبْريّ، بقوانينه

المُفصَّلة، وأحكام أطعمته، ـ ولأسباب لم تتَّضح بشَكْل كامل بعـد ـ أنْ لا يـأكلوا لحـم الخنـزير "وعندما يفعل اليهُود المُعاصرون نَفْس الشّيء، فإنَّهم ـ بذلـك ـ يُواصلـون أقـدم مُمارسـة ثقافيَّـة أثبتها علْم الآثار لشعب إسرائيل القديم".

سفْر القُضَاة ودولة يهُوذا في القرن السّابع ق.م:

لن نعرف أبداً إلى أيِّ مدى استندت القَصَص في سفْر القُضَاة على ذكريات أصليَّة واقعيَّة لأبطال محلِّيِّين ونزاعات قرويَّة بقيت على مدى القُرُون على شكل قصائد مَلْحَميَّـة أو قَصَـص وحكايات شعبيَّة. ومع ذلك؛ فلا يُمكن تقيـيم الثِّقـة التّاريخيَّـة لسـفْر القُضَـاة بواسـطة الإدراج المُحتمل للحكايات البُطُوليَّة من العُصُور السّابقة. إنَّ أهم ميزات هذا السِّـفْر هـي نَمَطه الأدبي العامّ الذي يصـف تـاريخ إسـرائيل فـي الفـترة التّاليـة للغـزو علـى أنَّـه دورة مُتكـرِّرة للخطيئـة، والمُجازاة الإلهيَّة، ثُمَّ الخلاص (2: 11 ـ 19). فقط في الآيـة الأخيرة (21/ 25) يُوجـد تلميـح إلى إمكانيَّة كَسْر هذه الدّورة، بواسطة تأسيس حكْم مَلَكي.

إنَّه من الواضح أنَّ هذا التّفسير اللاّهُوتي للحكايات في سفْر القُضَاة تمَّ تطويره بعـد قُرُون مـن الأحـداث التـي يدَّعـي وُقُوعـها. علـى الرّغـم مــن أنَّ القَصَــص الفَرْديَّــة حــول الصّــراع الإسرائيلي ضدَّ الفلسطينيِّين، والمُوآبيِّين، والمدينيِّين، والعمونيِّين، تعـرض أمـاكن وأشـخاصاً مُختلفين جـداً، إلاَّ أنَّـها ـ جميعاً ـ تُسـتخدَم لتصوير علاقـة مُتبادلـة مُضطربـة بَيْـن الله وشـعبه. يُصَوَّرُ يَهْوَه كإله غاضب، آسف، أَنْقَذَ الإسرائيليِّين من العُبُوديَّة في مصـر، وأعطـاهم الأرض الموعودة كَميراث أبدي، ليجدهم أُناساً آثمين وجاحدين فحسبْ، خـانوا يَـهْوَه مـراراً وتكـراراً باتِّباعـهم آلهـة أجنبيَّـة، فعاقبـهم يَـهْوَه بتسـليمهم لأيـدي أعدائـهم؛ كـي يشـعروا بـألم العُنْـف والمُعاناة، ويتضرَّعوا ليَهْوَه؛ ليُساعدهم. عندئذٍ؛ يَقبلُ يَهْوَه توبتهم، ويُنقذهم بتكليفـه لزعيـم ديني مُستقيم من بَيْنهم بقيادتهم للانتصار على خُصُومهم. هُنا؛ اللاّهُوت هُو الفكرة المركزيَّة، وليس التّاريخ. الميثاق، الوعد، الارتداد، التّوبة، والعودة إلى الله، تُشكِّل التّسلسـل الـدّوري الذي يشغل كُلَّ سفْر القُضَاة. وبالتّالي؛ لابُدَّ أنَّه بدا لشعب يهُوذا فـي القـرن السّـابع ق. م، أنَّ نَفْسَ التّسلسل الدّوري ينطبق عليهم.

مُنْذُ زمن طويل؛ اعترف العُلماءُ بالكتاب المُقدَّس العبْريّ أنَّ سفر القُضَاة يُشكِّل جُزءاً من التّاريخ التّثنوي الذي ـ كما سَبَقَ، وبيَّناه ـ يُشكِّل التّعبير الكبير عن التّطلُّعات والآمال الإسرائيليَّة السّياسيَّة التي جُمعت، والذي تمَّ تأليفه في دولة يهُوذا أثناء عهد حكْم الملك يُوشيًّا في القرن السّابع ق.م.. لقد قدَّمت قَصَص الإسرائيليِّين الأوائل الذين استوطنوا في المُرتفعات دَرْسَاً للنّاس ذا صلة مُباشرة بالشُّؤون المُعاصرة. عندما تطلَّع يُوشيًّا ومُؤيِّدوه نحو الشّمال برُؤية تطمح إلى توحيد أرض إسرائيل، أكَّدوا أنَّ الغزو وحده ليس له قيمة من دُون طاعة يَهْوَه المُتواصلة والحَصْريَّة.

لقد نَظَرَتْ الحَرَكَة التّثنويَّة إلى الشُّعُوب الوَثَنيَّة داخل أرض إسرائيل وفي كُلِّ الممالك المُجاورة كَخَطَر مُميت. لقد أوضحت أحكام الشّريعة في سفْر التّثنية والدُّرُوس التّاريخيَّة للتّاريخ التّثنوي أنَّ على شعب إسرائيل أنْ يُقاوم إغراء عبادة الأوثان، وإلاَّ لاضطُرَّ أنْ يُعاني من كَوَارث جديدة. يُوضِّح الفَصْلُ الذي يُفتَتَحُ به سفرُ القُضَاة الارتباطَ الواضحَ بَيْن الماضي والحاضر. هذا؛ على الرّغم من أنَّ عديداً من العُلماء اعتبروه إضافة لاحقة، إلاَّ أنَّ المُؤرِّخ التّوراتي "باروخ هالبرن" **Baruch Halpern** جَعَلَه جُزءاً من التّاريخ التّثنوي الأصلي. يُخبرنا هذا الفَصْل (المُقدّمة) كيف أنَّ القبائل التي شكَّلت قلب المَمْلَكَة الجنوبيَّة ـ يهُوذا وشمعون ـ أنجزت مهمَّتها المُقدَّسة بشكْل مثالي في فَتْح كُلِّ المُدُن الكَنْعَانيَّة في أراضيها. وبهذا؛ تمَّت حماية مملكة يهُوذا من خَطَر الوَثَنيَّة المُباشر في وَسَطها، لكنْ؛ لم تكن هذه هي الحال بالنّسبة للقبائل التي شكَّلت ـ فيما بعد ـ قلب مَمْلَكَة إسرائيل الشّماليَّة، فقد روى السِّفْر بأنَّهم جميعاً فشلوا في مسعاهم لإزالة الكَنْعَانيِّين، وأدرج بالتّفصيل قائمة الجُيُوب الكَنْعَانيَّة التي استمرَّت في كُلِّ واحد من أراضيهم العشائريَّة، (القُضَاة: 1/ 21، 35ـ27). لا عجب ـ بعد ذلك ـ أنْ نرى أنَّ يهُوذا التَّقيَّة بقيت، وأنَّ إسرائيل المُرتدَّة قُهرَت، وأُزيلت. في الحقيقة؛ أغلب حكايات سفْر القُضَاة تتعامل مع خطيئة وعقاب القبائل الشّماليَّة. ولا يُوجد قصَّة واحدة تتَّهم ـ بشَكْل واضح ـ يهُوذا بعبادة الأصنام.

لكنَّ سفْر القُضَاة يعرض ـ ضمنيّاً ـ مَخْرَجَاً من هذه الدّورة اللاَّنهائيَّة للذّنب والعقاب الإلهي، إنَّه يُلمِّح بأنَّ الدّورة كانت قد كُسرت مرَّة قبل ذلك. إنَّه يُكرِّر، مراراً وتكراراً، مثل

كلمة سحْريَّة جُملة : "في تلْكَ الأيَّام؛ لَمْ يَكُنْ مَلكٌ في إسْرَائيلَ. كُلٌّ وَاحدٍ عَملَ مَا حَسُنَ في عَيْنَيْه." (القُضَاة: 21/ 25).

هذا تذكير بأنَّه مُباشرة بعد فترة القُضَاة جاء ملك عظيم حَكَمَ كُلَّ قبائل إسرائيل - إنَّه داود التَّقي، الذي أسَّسَ ميثاقاً أبديّاً مع الله -. قام هذا الملك بإزالة تأثير الآلهة الأجنبيَّة من قُلُوب ومُمارسة الإسرائيليِّين اليوميَّة، وقام بتأسيس عاصمة واحدة في أُورشليم، وعيَّن مكاناً دائماً لتابوت العهد. إله واحد، عُبدَ في معبَدٍ واحدٍ يقع في عاصمةٍ واحدةٍ فقط تحت حُكْم سُلالة مَلَكيَّة داوديَّة واحدة، كانت تلك مفاتيح إنقاذ إسرائيل في كلا عهد داود وعهد داود الجديد الملك يُوشيَّا. باجتثاثه واستئصاله كُلَّ أثر لعبادة الآلهة الأجنبيَّة التي قادت إسرائيل نحو الخطيئة في الماضي، يضع يُوشيَّا حدّاً للدّورة اللاَّنهائيَّة - على ما يبدو - للارتداد والكارثة، ويقود يهُوذا نحو عصر ذهبي من الازدهار والأمل.

كما نعرف الآن - على أيَّة حال - إنَّ الصُّورة التّوراتيَّة القَويَّة للقُضَاة الإسرائيليِّين المُستقيمين - رغم قُوَّتها وقُوَّة تأثيرها - ليس لها إلاَّ علاقة ضعيفة بما حَدَثَ فعلاً في مُرتفعات كَنْعَان، في العصر الحديدي المُبكِّر. لقد كَشَفَ علم الآثار أنَّ التَّحوُّلات الاجتماعيَّة المُعقَّدة بَيْن الشُّعُوب الرّعويَّة للمُرتفعات الكَنْعَانيَّة مثَّلت - أكثر بكثير من مفاهيم الكتاب المُقدَّس العبْريّ حول الخطيئة والتَّكفير - أكثر العناصر والقوى تشكيلاً لولادة إسرائيل.

الفَصْل (5):

ذكرياتُ عصر ذهبيٍّ؟

وَجَدَتْ إسرائيلُ التّوراتيَّة بُؤرَتَهَا الرُّوحيَّة الدّائمة في الهيكل (المعبد)، وفي قَصْر أُورشليم الملكي، بعد قُرُون من الكفاح والتَّجوُّل. وكما يروي سفْر صموئيل، أنهى مسح (الدّهْن بالزّيت المُقدّس) داود بن يَسَّى، كَمَلك على كُلِّ قبائل إسرائيل، العَمَليَّة التي بدأت بوعد الله الأصلي لإبراهيم قبل عدَّة قُرُون. والآن؛ انتهت الفوضى العنيفة لفترة القُضَاة؛ لتفسح المجال الذي يُمكن فيه لوُعُود الله أنْ تتحقَّق بشَكْل آمن تحت حُكْم ملك مُستقيم. وعلى الرّغم من أنَّ الاختيار الأوَّل لعرش إسرائيل كان شاول من قبيلة بنيامين، الشّخص الوسيم الذي أُوتي بَسْطَةً في الجسم، إلاَّ أنَّ خليفته داود هُو الذي أصبح الشّخصيَّة المركزيَّة في تاريخ إسرائيل المُبكّر. كانت القَصَص والأغاني التي تتحدَّث عن ذلك الملك الأُسطُوري داود لا تُعدُّ، ولا تُحْصَى. إنَّها تحكي عن قَتْله لجالوت العظيم بحجرة مقلاع واحدة؛ وعن قبوله في البلاط الملكي لمهارته كَعَازف قيثارة؛ وعن مُغامراته كَثَائر ومُحارب يبحث عن غنائم؛ وعن مُلاحقته الشّهوانيَّة لـ "بَثْشَبَعَ"؛ وفَتْحه لأُورشليم (القُدْس)، وسيطرته على إمبراطُوريَّة واسعة وراءها. أمَّا ابنه سُلَيْمَان؛ فيُذكر - بدوره - كأكثر المُلُوك حكْمَة، وأعظمهم بناءً. تُخبرنا قَصَص كثيرة عن أحكامه الرّائعة، وثروته مُستحيلة التَّصوُّر، وعن بنائه للهيكل (المعبد) العظيم في أُورشليم (القُدْس).

على مدى قُرُون مُتمادية، نَظَرَ قُرَّاء التّوراة - في جميع أنحاء العالم - للوراء إلى عصر داود وسُلَيْمَان كَعصر ذهبي في تاريخ إسرائيل. حتَّى فترة قريبة؛ كان العديد من العُلَماء يتقبَّلون فكرة أنَّ الحُكْم الملكي المُتَّحد كان الفترة التّوراتيَّة الأُولى التي يُمكن أنْ تكون موثوقة تاريخيَّة فعلاً. فخلافاً للذّكريات الخافتة لرحلات الآباء، أو الخُرُوج الجماعي الإعجازي من

مصر، أو الرُّؤى الدّمويَّة لسفرَيْ يشُوع والقُضَاة، كانت قصَّة داود قصَّة واقعيَّة جداً لُمناورة سياسيَّة ومؤامرة سُلاليَّة. وعلى الرّغم من أنَّ العديد من تفاصيل مآثر داود المُبكّرة تُعَدُّ إسهاباً أسطُوريّاً جداً، إلاَّ أنَّ العُلماء اعتقدوا لمدَّة طويلة أنَّ اعتلاءه السُّلطَة يتطابق - بنَحْو جيِّد - مع وقائع المُكْتَشَفَات الأثريَّة. التأمت مُستوطنات الإسرائيليِّين، التي كانت في بدايتها مُتناثرة في قُرَى المُرتفعات شيئاً فشيئاً؛ لتُصبح لتأخذ شكْلَ تنظيمٍ أكثر مركزيَّة. وقد وفَّر التّهديد، الذي فُرض على الإسرائيليِّين من قبَل مُدُن السّاحل الفلسطينيَّة، وفَّر الأزمة التي عجَّلت بظُهُور الحُكْم المَلكي الإسرائيلي. في الحقيقة؛ ميَّز علماء الآثار مُستويات واضحة من دمار المُدُن الفلسطينيَّة والكَنْعَانيَّة، التي اعتقدوا أنَّها رَسَمَتْ مسيرة فُتُوحات داود واسعة النّطاق. كما أنَّ البوابات الرّائعة للمُدُن، والقُصُور التي اكتُشفت في عدَّة مواقع هامَّة في إسرائيل نُظرَ إليها كأدلَّة وشواهد على النّشاط العُمراني لسُلَيْمَان.

ولكنْ؛ كثيراً من الافتراضات الآثاريَّة التي كانت تُعزِّزُ في القديم القاعدةَ التّاريخيَّة لقَصَص داود وسُلَيْمَان، تَعَرَّضَتْ مُؤخَّراً للتّشكيك. لقد تَعَرَّض المدى الحقيقي لاتّساع الإمبراطُوريَّة الدّاوديَّة لنقاش حادٍّ جداً. فقد أخفقت الحفريَّات في أورشليم (القُدْس) في الحُصُول على أيِّ شاهد يدلُّ على وُجُود مدينة كبيرة في عهد داود وسُلَيْمَان. والنُّصب الأثريَّة التي نُسبت يوماً إلى سُلَيْمَان، أصبحت - اليوم - تُربط - بنَحْو معقول أكثر - بمُلُوك آخرين. ولذلك؛ فإنَّ إعادة النَّظَر في تلك الأدلَّة سوف يكون لها نتائج مُهمَّة جداً. ذلك أنَّه إذا لم يكن هُناك آباء، ولا خُرُوج، ولا غزو لكَنْعَان، ولا حُكْم مَلَكي مُتَّحد ناجح تحت قيادة داود وسُلَيْمَان، فهل يُمكننا أنْ نُثبت - عندئذ - أنَّ إسرائيل التّوراتيَّة المُبكّرة كما جاء وَصْفها في أسفار مُوسى الخمسة، وأسفار يشُوع والقضاء وصموئيل، كان لها وُجُود من الأصل؟.

سُلالة مَلَكيَّة لإسرائيل:

تبدأ المَلْحَمَة التّوراتيَّة بتحويل إسرائيل من فترة القُضَاة إلى عهد الحُكْم المَلكي بأزمة عسكريَّة عظيمة. كما يُبيِّن سفر صموئيل الأوَّل 4 - 5، دَحَرَتْ الجُيُوش الفلسطينيَّة المُتجمّعةُ قُوَّات القبائل الإسرائيليَّة في المعركة، وَحَمَلَتْ معها تابوت العهد المُقدَّسة كَغنيمة حرب، لكنَّ الإسرائيليِّين تحت قيادة نبيِّهم صموئيل، الذي كان كاهناً في ملجأ في "شيلوح" (حُدِّد مكانُها

في نصف الطّريق بَيْـن أُورشـليم (القُـدْس) وشـكيم (نـابلس))، استعادوا ـ فيمـا بعـد ـ تـابوت العهد، والذي أُعيد، وتمَّ نصبه فـي قريـة "كريـات يعـاريم Kiriyat Yearim غـرب أُورشـليم (القُدْس). لكـنَّ أيّـام القُضَـاة كـانت قـد ولّـت بشَكْل واضـح. تطلّبـت التّـهديدات التـي كـان يُواجهها شعب إسرائيل اليوم زعيماً يصرف كُـلَّ وقتـه لقيادتـه. اجتمـع شُيُـوخ إسـرائيل وبيـت صموئيل في رماح، شمال أُورشليم، وَطَلَبُوا من صموئيل أنْ يُعيِّن لهم مَلكاً علـى إسـرائيل، "مثل كُلِّ الأُمم". وعلى الرّغـم مـن أنَّ صموئيـل حذَّرهـم مـن أخطـار المَلَكيَّـة فـي إحـدى أكـثر الفقرات المُعادية للمَلَكيَّة بلاغة في الكتاب المُقدَّس العبْريّ (صموئيل الأوّل: 8/ 10 ـ 18)، إلاَّ أنَّ الله أمره أنْ يستجيب لطَلَب الشّعب. وأوحى اللهُ اختيارَهُ إلى نبيِّه صموئيل: سيكون "شاول بن كيش" من قبيلة بنيامين أوّل ملـك لإسـرائيل. كـان "شـاول" رجـلاً شـابّاً ذا بَسْطَةٍ فـي الجسـم، ومُحارباً شُجاعاً، ولكنْ؛ كان شخصاً أدَّت شُكُوكه الدّاخليَّة وانتهاكاته السّـاذجة لقوانـين تقديـم القرابـين وغنـائم الحـرب والأحكـام الإلهيَّـة الأُخـرى (صموئيـل الأوّل5/ 10 ـ 26) إلـى رَفْضـه النّهائي، وانتحاره المأساوي في جبل "جلبُوا" عندما دُحرَ الإسرائيليُّون على يد الفلسطينيِّين.

أثناء ما كان شاول مايزال يحكم كَمَلكٍ على إسرائيل، كان خليفتـه ووارث عرشـه قـد تمَّ اختياره دُون أنْ يشعر. أمر اللهُ صموئيلَ أنْ يذهب إلى عائلة يَسَّى من بيت لحم (لأنّي قَدْ رَأيْـتُ لي في بَنِيه مَلكاً) (صموئيل الأوّل: 16/ 1). كان أصغر أُولئك الأبنـاء الرّاعـي الأشـقر الشّعر الوسيم الذي يُسمَّى داود هُو الذي سيأتي بالخلاص لشعب إسرائيل. جاء البُرهان الأوّل الرّائع مـن مـهارة داود العاليـة فـي سـاحة المعركـة. فقـد تجمَّـع الفلسـطينيُّون ثانيـة لشـنِّ حـرب ضـدَّ إسرائيل، وتواجه الجيشان فـي وادي البُطْـم فـي شـفيلة. كـان سـلاح الفلسـطينيِّين السِّرِّيّ هُـو المُحارب العملاق جـالوت الـذي هَزَأ بإلـه إسـرائيل، وتحـدَّى أيَّ إسـرائيليٍّ مُحـارب لمُنازلته. فاستولى رُعب كبير على شاول وجُنُوده، لكنَّ داود الشَّابَّ الذي كان أبـوه قـد أرسـله ليُوصـل الزّاد لإخوته الثّلاثة الأكبر سنّاً منه، الذين يخدمون في جيش شاول، وافق على التَّحدِّي بكُـلِّ جُرأة، وصاح في جالوت: "أَنْتَ تَأْتي إِلَيَّ بسَيْفٍ وَبرُمْـحٍ وَبتُرْسٍ. وَأَنَـا آتـي إِلَيْـكَ باسْـم رَبِّ الْجُنُود إِلَه صفُوف إِسْرَائيلَ الذيـنَ عَيَّرْتَـهُمْ." (صموئيـل الأوّل 17/ 45)، وأخـذ داودُ حجـرةً صغيرةً من جُعبة الرّعي الخاصَّة به، وَقَـذَفَ جبهـة جـالوت بـهَدَف قـاتل، أودى بحياتـه فـوراً.

وانهزم الفلسطينيُّون. وصادق داود، بطل إسرائيل الجديد، جُوناثان بن شاول، وتزوَّج مايكل بنت الملك. مَنَحَ الشّعبُ داودَ لقبَ أعظم أبطال إسرائيل - أعظم حتّى من الملك -. وأدَّت هُتافات الحماسيَّة للمُعجبين به: " ضَرَبَ شَاوُلُ أُلُوفَهُ وَدَاوُدُ رَبَوَاتِه "(صموئيل الأوّل: 18/ 7)، إلى غَيْرَة الملك شاول منه. وأصبحت مسألة وقت فقط، قبل أنْ يُنافس داود شاول على الزّعامة، ويُطالب بعرش كُلّ إسرائيل.

هَرَبَ داودُ من غضب شاول الذي أصبح يُهدِّده بالقتل؛ وتحوَّل إلى زعيم فرقة من الهاربين والجُنُود الباحثين عن الغنائم، وتجمَّع حوله كُلُّ النّاس البُؤساء، أو الذين يعانُون من دُيُون كبيرة. تجوَّل داود ورجاله في تلال شفيلة في صحراء يهُوذا، وفي أطراف تلالها الجنوبيَّة؛ أيْ كُلّ المناطق التي كانت بعيدة عن مراكز قُوَّة مَمْلَكَة شاول إلى الشّمال من أورشليم (القُدْس). قتل أبناء شاول بنَحْو مأساوي، في معركة مع الفلسطينيِّين في مكان بعيد إلى الشّمال في جبل جلبوة، وأخذ شاول حياته الخاصَّة. تقدَّم داود بسُرعة نحو مدينة حبرون اليَهْوَذَويَّة القديمة؛ حيثُ أعلنه شعب يهُوذا مَلكاً عليهم. كانت هذه بداية الولاية العظيمة للأُسرة الدّاوديَّة، وبداية الحُكْم الملكي المُتَّحد المجيد.

عندما هَزَمَ داودُ ورجالُه ما تبقّى من جُيُوب مُعارضيه من مُؤيِّدي شاول، قَدمَ وُفُودُ ومُمثِّلو جميع القبائل إلى حبرون (الخليل) لإعلان داود مَلكاً على كُلّ إسرائيل حسب الأُصُول. بعد أنْ حَكَمَ سبع سنوات في الخليل؛ تحرَّك داود شمالاً لفَتْح معقل أورشليم اليبُوسي - التي لم يَدَّعيها - حتّى ذلك الحين - أيّ أحد من القبائل الإسرائيليَّة - يجعلها عاصمته. وأمر بجَلْب تابوت العهد من قرية كون "كريات جيآريم" Kiriyath jearim.

وعندئذ؛ تلقّى داودُ الوعدَ غير المشروط والمُدهش من الله، الذي قال فيه:

[8 وَالآنَ؛ فَهكَذَا تَقُولُ لعَبْدي دَاوُدَ: هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُود: أَنَا أَخَذْتُكَ منَ الْمَرْبَض منْ وَرَاء الْغَنَم؛ لتَكُونَ رَئيساً عَلَى شَعْبي إسْرَائيلَ. 9 وَكُنْتُ مَعَكَ حَيْثُمَا تَوَجَّهْتَ، وَقَرَضْتُ جَميعَ أَعْدَائكَ منْ أَمَامكَ، وَعَملْتُ لَكَ اسْماً عَظيماً كَاسْم الْعُظَمَاء الذينَ في الأَرْض. 10 وَعَيَّنْتُ مَكَاناً لشَعْبي إسْرَائيلَ، وَغَرَسْتُهُ، فَسَكَنَ في مَكَانه، وَلاَ يَضْطَرِبُ بَعْدُ، وَلاَ يَعُودُ بَنُو

الإثم يُذَلِّلُونَهُ كَمَا في الأَوَّل 11 وَمُنْذُ يَوْمَ أَقَمْتُ فيه قُضَاةً عَلَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ. وَقَدْ أَرَحْتُكَ مِنْ جَمِيعِ أَعْدَائِكَ. وَالرَّبُّ يُخْبِرُكَ أَنَّ الرَّبَّ يَصْنَعُ لَكَ بَيْتاً. 12 مَتَى كَمُلَتْ أَيَّامُكَ، وَاضْطَجَعْتَ مَعَ آبَائِكَ، أُقِيمُ بَعْدَكَ نَسْلَكَ، الذي يَخْرُجُ مِنْ أَحْشَائِكَ، وَأُثَبِّتُ مَمْلَكَتَهُ. 13 هُوَ يَبْنِي بَيْتاً لاسْمِي، وَأَنَا أُثَبِّتُ كُرْسِيَّ مَمْلَكَتِه إِلَى الأَبَد. 14 أَنَا أَكُونُ لَهُ أَباً، وهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْناً. إِنْ تَعَوَّجَ أُؤَدِّبْهُ بِقَضِيبِ النَّاس وَبِضَرَبَات بَنِي آدَمَ. 15 وَلَكِنَّ رَحْمَتِي لاَ تُنْزَعُ مِنْهُ كَمَا نَزَعْتُهَا مِنْ شَاوُلَ الذي أَزَلْتُهُ مِنْ أَمَامِكَ. 16 وَيَأْمَنُ بَيْتُكَ وَمَمْلَكَتُكَ إِلَى الأَبَد أَمَامَكَ. كُرْسِيُّكَ يَكُونُ ثَابِتاً إِلَى الأَبَد]. (صموئيل الثّاني: 7/ 8-16).

ثُمَّ بدأ داود حُرُوبه الشّاملة للتّحرير والتَّوسُّع. في سلسلة من المعارك السّريعة الكاسحة؛ حطَّم داودُ قُوَّة الفلسطينيِّين، وَهَزَمَ العمُّونيِّين، والمُوآبيِّين، والأدوميِّين، في عبْر الأُردُن، وتوَّج حملاته بإخضاع الآراميِّين بعيداً إلى الشّمال. عند عودته مُنتصراً إلى أُورشليم، أصبح داود - الآن - يحكم على أرض واسعة أوسع بكثير حتَّى من المواريث القبائليَّة لإسرائيل، ولكنَّ داود لم يجد السّلام حتَّى في هذا الوقت من المجد. فقد أدَّت الصّراعات بَيْن أفراد الأُسرة المالكة - بما في ذلك انتفاضة ابنه أبشالوم - إلى قَلَقه العظيم بشأن استمرار سُلالته في الحُكْم. قبل موت داود مُباشرة؛ مَسَحَ الكاهنُ "صادوق" سُلَيْمَان؛ لكي يكون الملكَ القادم لإسرائيل.

عزَّز سُلَيْمَان - الذي أعطاه الله (حكْمَةً وَفَهْماً كَثيراً جداً) - السُّلالة الدّاوديَّة، ونظَّم إمبراطُوريَّته، التي امتدَّت - الآن - من الفُرات إلى أرض الفلسطينيِّين، وإلى حُدُود مصر (مُلُوك الأوَّل 4/ 24). جاءت ثروته وثراؤه الهائل من نظام ضريبي مُتطوِّر، وأعمال إجباريَّة، كانت تُطلَب من كُلِّ قبيلة من قبائل إسرائيل، ومن البعثات التّجاريَّة التي كان يُرسلها إلى البُلدان الأجنبيَّة في الجنوب. اعترافاً منها بشُهرته وحكمته؛ قامت ملكة سبأ الأُسطُوريَّة بزيارته في أُورشليم؛ جالبة معها قافلة من الهدايا الباهرة.

كانت أعظم إنجازات سُلَيْمَان نشاطاته العُمرانيَّة. فقد بنى في أُورشليم (القُدْس) هيكلاً (معبداً) رائعاً مُزيَّناً، بشكْلٍ مُفرطٍ جداً، ليَهْوَه، افتتحه في بهاء عظيم، وبنى قَصْراً جميلاً في مكانٍ قريبٍ منه.

و حصَّن أُورشليم، بالإضافة إلى تحصينه لعدَّة مُدُن إقليميَّة مُهمَّة؛ مثل حاصُوْر ومَجدُّو وجَازَر، وأنشأ إسطبلات، يضمُّ كلُّ واحدٍ منها أربعين ألفاً من أكشاك الخُيُول لعَرَبَاته الألف والأربع مئة، ولفُرسانه الذين بَلَغَ عددهم اثنا عشر ألفاً.

عَقَدَ مُعاهدة مع حيرام، ملك صُور، الذي بَعَثَ بأرز لُبْنَان إليه لبناية معبد في أُورشليم (القُدْس)، وأصبح شريك سُلَيْمَان في مُغامرات التّجارة في ما وراء البحار. يُلخِّص الكتاب المُقدَّس العبْريّ شهرة سُلَيْمَان بالعبارات التّالية: [فَتَعَاظَمَ الْمَلِكُ سُلَيْمَان عَلَى كُلِّ مُلُوك الأَرْض في الْغنَى وَالْحكْمَة. وكَانَتْ كُلُّ الأَرْض مُلْتَمسَةً وَجْهَ سُلَيْمَان لتَسْمَعَ حكْمَتَهُ التي جَعَلَهَا اللَّهُ في قَلْبه.] (سفر المُلُوك الأوَّل: 10/ 23 ـ 24).

هل داود وسُلَيْمَان وُجدَا؟

قد يبدو هذا السُّؤال ـ الذي طُرح بهذه الدّرجة من الصّراحة ـ استفزازيّاً بنَحْو مُتَعَمَّد. إنَّ داود وسُلَيْمَان يُمثِّلان رمزَيْن دينيَّين أساسيَّين لكلَيْ اليهُوديَّة والمسيحيَّة بنَحْو جعَلَ التّأكيدات الأخيرة حول النُّقُود الجَذْريَّة للكتاب المُقدَّس التي تعدُّ أنَّ تاريخيَّة شخصيَّة الملك داود ليست أكثر من تاريخيَّة شخصيَّة الملك آرثر **King Arthur**، جَعَلَها تُستَقْبَل لدى العديد من الدّوائر الدِّينيَّة والعلْميَّة بالغضب والاستنكار. لقد حاول المُؤرِّخون التّوراتيُّون أمثال "تُوماس طُومسُن" **Thomas Thompson** و"نيلز بيتر لمخي" **Niels Peter Lemche** من جامعة كُوبنهاكن و"فيليب دافيس" **Philip Davies** من جامعة شيفيلد **Sheffield**، والذين يُوصمون من قبَل ذاميِّهم، بأنَّهم "توراتيُّون مُعتدلون"، أنْ يُثبتوا أنَّ داود وسُلَيْمَان، والحُكْم المَلَكي المُتَّحد لإسرائيل، وفي الحقيقة الوَصْف التّاريخي لإسرائيل في الكتاب المُقدَّس العبْريّ برُمَّته، ليس أكثر من تركيبة أيديُولُوجيَّة ماهرة، أو مُتقنة أنتجتها دوائر كَهَنُوتيَّة في أُورشليم (القُدْس) في فترة ما بعد النَّفْي، أو حتَّى في الفترة الهيلينيَّة.

رغم ذلك، ومن زاوية أدبيَّة وآثاريَّة محضة؛ يُوجد لدى المُعتدلين بعض النُّقاط لصالحهم. إنَّ قراءةً بتدبُّر لوَصْف الكتاب المُقدَّس العبْريّ لأيَّام سُلَيْمَان تُظهر ـ بوُضُوح ـ أنَّ هذا الوَصْف تصوير لماضٍ يتمُّ تحويله لماضٍ مثاليٍّ استثنائيٍّ، وعهد ذهبيٍّ مجيد. الرّوايات عن

ثروة سُلَيْمَان الخياليَّة [وَجَعَلَ الْمَلِكُ الفِضَّةَ في أُورشليم مثْلَ الْحجَارَة ، وَجَعَلَ الأَرْزَ مثْلَ الْجُمَّيْز الذي في السَّهْل في الْكَثْرَة .] (طبقاً لسفر الْمُلُوك الأوَّل : 10/ 27) وعن حريمه الأُسطُوري [وكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مئَة منَ النّسَاء السَّيّدَات ، وَثَلاَثُ مئَة منَ السَّرَاريّ] (طبقاً لسفر الْمُلُوك الأوَّل : 11/ 3) ، هي تفاصيل أكثر مُبالغة من أنْ تكون حقيقيَّة فعلاً . علاوةً على ذلك ، رغم كُلّ ثروتهم وقُوَّتهم المَرْوِيَّة (في الكتاب المُقدَّس) ، لا يُوجد لداود ولا لسُلَيْمَان أيُّ ذكْر في أيّ نصّ تاريخيّ واحد مصريّ ، أو ما بَيْن النَّهرَيْن . كما أنَّ الدّليل الآثاريّ على مشاريع البناء المشهورة لسُلَيْمَان في أُورشليم (القُدْس) مفقود تماماً . لقد أخفقت كُلُّ التّنقيبات الآثاريَّة التي أُجريت ، في القرن التّاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، حول جبل الهيكل في أُورشليم (القُدْس) في التّعرُّف حتَّى على مُجرَّد أثر بسيط لهيكل سُلَيْمَان الأُسطُوري ، أو مجمع قَصْره . وفي حين تمَّ رَبْط بعض المُستويات والأبنية في مواقع في مناطق أُخرى من البلاد بعهد الحُكْم المَلَكي المُتَّحد ، فإنَّ تحديد تاريخها الواقعي - كما سنرى - أبعد ما يكون عن الوُضُوح .

من النّاحية الأُخرى ؛ تمَّ إبراز حُجَج قويَّة في مُواجهة بعض اعتراضات المُعتدلين التّوراتيّين . فقد جادل العديد من العُلَماء قائلين بأنَّ غياب أيّ آثار تعود للفترة السّلَيْمَانيَّة في أُورشليم (القُدْس) ، إنَّما سَبَبُهُ استئصال تلك الآثار بالكامل بسبب الإنشاءات الهيرُوديَّة Herodian الهائلة على جبل الهيكل في الفترة الرُّومانيَّة المُبكّرة . كما أنَّ غياب الشّواهد الخارجيَّة في النُّقُوش القديمة على حُكْم داود وسُلَيْمَان أمر مفهوم جداً ؛ لأنَّ الفترة الزّمنيَّة التي يُعتقد أنَّ داود وسُلَيْمَان حَكَمَا فيها (930-1005 ق . م) كانت فترة انحطاط للإمبراطُوريَّات العظيمة في مصر وبلاد ما بَيْن النَّهرَيْن . فليس هُنَاك ما يُفاجئ في عدم وُجُود إشارات إمَّا على حُكْم داود أو على حُكْم سُلَيْمَان ؛ سواء في النُّصُوص الضّئيلة المصريَّة المُعاصرة لتلك الفترة ، أو النُّصُوص ما بَيْن النَّهرينيَّة .

إلاَّ أنَّه في صيف عام 1993 ، في الموقع التّوراتي لتلّ دان شمال إسرائيل ، تمَّ اكتشاف أجزاء لمصنوعة يدويَّة مُكسَّرة ، غيَّرت - إلى الأبد - طبيعة النّقاش . كانت القطعة نَقْش "بيت داود" ، جُزءاً من نَصْب بازلتيّ أسود ، وُجدَ مكسُوراً ، واستُعمل - لاحقاً - في طبقة ثانية كحجارة بناية . كُتب النَّقْش باللُّغة الآراميَّة ، لُغة ممالك سُوريا الآراميَّة آنذاك ، ويروي

ـ بالتّفاصيل ـ قصّة غزو واحتلال إسرائيل منْ قبَل ملك آرامي لم يُذكَر اسمه على الأجزاء التي اكتُشفت حتّى الآن. لكنْ؛ بالكاد يكون هُناك أيُّ شكٍّ في أنَّ المقصود بهذا الغزو هُو قصّة هُجُوم "حزائيل"، ملك دمشق، على المَمْلَكَة الشّماليَّة لإسرائيل حوالي سنة 835 ق. م.. حَدَثَتْ هذه الحرب في العصر الذي كانت فيه إسرائيل ويهُوذا مَمْلكَتَيْن مُنْفَصلتَيْن، وكانت نتيجتها هزيمة مُرَّة لكلتَيْهما.

إنَّ أهمَّ جُزء في هذا النَّقْش هُو قول "حزائيل" مُفتخراً بوَصْف أعدائه:

[قتلتُ "يورام" Jehoiram ابن [آحاب] ملك إسرائيل، و[أنا] قتلتُ [يوآحاز] ابن [يورام الملك] من بيت داود. وأنا صيَّرتُ [بلداتهم إلى الخراب، وحوَّلتُ] أرضهم إلى [دمار].

إنَّ هذا دليل قَويّ عن شُهرة الأُسرة الدّاوديَّة المالكة بعد أقلّ من مئة سنة بعد عهد حُكْم سُلَيْمَان بن داود. إنَّ حقيقة أنَّ يهُوذا (أو ربَّما عاصمتها أُورشليم) يتمُّ الإحالة إليها بذكْر الأُسرة الحاكمة عليها فقط هُو دليل واضح أنَّ شهرة داود لم تكن اختراعاً أدبيّاً تمَّ ابتداعه بعد فترة زمنيَّة طويلة. يُضاف إلى ذلك، أنَّ العالم الفرنسي أندريه لُومير Lemaire اقترح ـ مُؤخَّراً ـ أنَّ مثل هذه الإحالة لبيت داود يُمكن أنْ نجدها على النَّقْش المشهور لميشا Mesha ملك مُوآب في القرن التّاسع ق. م، الذي وُجد في القرن التّاسع عشر شرق البحر الميِّت. وعليه؛ فإنَّ بيت داود كان معروفاً في كافَّة أنحاء المنطقة؛ وهذا يُوثِّق ـ بوُضُوح ـ وَصْفَ الكتاب المُقدَّس العبْريّ لشخصيَّة اسمها داود أصبح مُؤسِّس سُلالة مُلُوك الدّولة اليَهُوذَويَّة في أُورشليم (القُدْس).

إذا فالسُّؤال الذي نواجهه لم يعد مُجرَّد وُجُود داود وسُلَيْمَان. بل الذي يجب علينا أنْ نراه أنَّه هل كان وَصْفُ الكتاب المُقدَّس العبْريّ الشّامل لانتصارات داود العسكريَّة العظيمة ولمشاريع سُلَيْمَان العُمرانيَّة العظيمة مُتَّسقاً ـ فعلاً ـ مع الأدلَّة الآثاريَّة؟!

نظرة جديدة لمَمْلَكَة داود:

سَبَقَ ورأينا أنَّ المرحلة الأُولى للاستيطان الإسرائيلي في مُرتفعات كَنْعَان كانت ظاهرة إقليميَّة تدريجيَّة، بدأت فيها مجموعات رعويَّة محلّيَّة بالاستقرار في المُرتفعات المأهولة بالسُّكَّان بشكْل مُتناثر، حتّى شكَّلت مُجتمعات قرويَّة ذات اكتفاء ذاتي. ومع الزّمن، ومع نُمُوّ

سكّان المُرتفعات، تمَّ تأسيس قُرَى جديدة في المناطق التي لم تكن مأهولة في السّابق، مُنتقلة من أراضي السُّهُول الشّرقيَّة والوُديان الدّاخليَّة نحو الكُوَّات الصّخريَّة الغربيَّة والوعرة للمُرتفعات. في هذه المرحلة؛ بدأت زراعة الزّيتون والعنب، خُصُوصاً في المُرتفعات الشّماليَّة. ومع التَّنوُّع المُتنامي بَيْن الموقع والمحاصيل التي تُنتجها القُرَى المُختلفة في كافَّة أنحاء ريف التّلال والهضاب، لم يعد في الوُسْع الحفاظ على النّظام السّابق للاكتفاء الذّاتي، فقد أصبح القرويُّون الذين ـ ركَّزوا على البساتين والكُرُوم ـ بمساس الحاجة لُمبادلة الفائض من الخَمْر وزيت الزّيتون بسلَع أساسيَّة مثل الحُبُوب. ومع هذا التَّخصُّص برزت طبقات المُديرين، والتُّجَّار، والجُنُود المُحترفين، وفي النّهاية؛ المُلُوك.

لقد تمَّ اكتشاف نَفْسَ الأنماط من الاستيطان في المُرتفعات والانقسام الطّبقي الاجتماعي التّدريجي منْ قبَل عُلماء الآثار الذين يعملون في الأُردُن، في الأراضي القديمة لعَمُّون ومُوآب. ويبدو أنَّ عَمَليَّة مُوحَّدة بشَكْل كبير من التَّحوُّل الاجتماعي قد حَدَثَتْ في العديد من مناطق المُرتفعات في المشرق، عندما تخلَّص سُكَّانها من سيطرة إمبراطُوريَّات العصر البرُونزي العظيمة، أو مُلُوك دُول المُدُن السّهليَّة.

في الوقت الذي كان العالم كُلُّه يعود إلى الحياة من جديد في العصر الحديدي كانت تظهر ممالك جديدة مُتعَبَة من جيرانها، وكانت ـ حسب الظّاهر ـ تُميِّز نفسها عن بعضها البعض عبْر عادات عرْقيَّة مُتميِّزة وعبادة آلهة وَطَنيَّة، لكنْ؛ كانت ماتزال عَمَليَّة تخصُّصهم وتنظيمهم وتَمَيُّز هُويَّتهم الجماعيَّة تلك بعيدة عن تشكيل إمبراطُوريَّة واسعة. إنَّ الفُتُوحات الواسعة من النّمط المنسوب لداود تحتاج لمقدار كبير جداً من التّنظيم والقُوَّة البشريَّة والسّلاح. لذا؛ بدأ اهتمام علْمي بالتّركيز على الشّواهد الآثاريَّة للسُّكَّان، ونماذج الاستيطان، والمصادر الاقتصاديَّة والتّنظيميَّة في منطقة بيت داود في يهُوذا، وذلك لرُؤية ما إذا كان لتوصيف الكتاب المُقدّس العبْري ّأيُّ نصيب من الحقيقة التّاريخيَّة. لقد قدّمت الاستطلاعات الآثاريَّة الأخيرة في المُرتفعات دليلاً جديداً مُهماً على الصّفة الفريدة ليهُوذا، التي تشغل الجُزء الجنوبي من المُرتفعات، مُمْتَدَّة ـ تقريباً ـ نحو الجنوب من أُورشليم (القُدْس)، ونحو الحوافَّ الشّماليَّة للنَّقَب. إنَّها تُشكِّل وحدة بيئيَّة مُتجانسة من التّضاريس الوعرة، والاتِّصالات الصّعبة ومنسوب الأمطار الضّئيل والمُتقلّب جداً.

الجدول 2 مُلُوك الحُكْم المَلَكي المُتَّحد

الملك	التّواريخ(*)	شهادة الكتاب المُقدَّس	المُكْتَشَفَات الآثاريَّة
شاول	1025 ـ 1005	أوَّل ملك، عيَّنه النّبي صموئيل	استمرار لنظام الاستيطان في المُرتفعات في العصر الحديدي الأوَّل
داود	1005 ـ 970	يفتح أُورشليم (القُدْس)، ويجعلها عاصمته؛ يُؤسِّس إمبراطُوريَّة واسعة، تُغطِّي أغلب أراضي أرض إسرائيل	لا دليل على فُتُوحات داود، ولا على وُجُود إمبراطُوريَّته الواسعة. تستمرُّ ثقافة الوُديان الكَنْعَانيَّة دُون انقطاع، مع استمرار نظام الاستيطان في المُرتفعات في العصر الحديدي الأوَّل.
سُلَيْمَان	970 ـ 931	يبني الهيكل (المعبد) والقَصْر في أُورشليم (القُدْس)، وينشط كذلك في: "مجدُّو" و"حاصُوْر" و"جازر".	لا تُوجد أيُّ علامة أو دليل على بناء هندسي معماري تذكاري، أو على مدينة مُهمَّة في أُورشليم (القُدْس). لا تُوجد علائم أو دلائل على نشاط معماري مُهمّ في "مجدُّو" و"حاصُوْر" و"جازر". شمالاً، تستمرُّ الثّقافة المادِّيَّة الكَنْعَانيَّة.

وعلى العكس من المُرتفعات الشّماليَّة ذات الوُديان العريضة والطُّرُق البريَّة الطّبيعيَّة نحو المناطق المُجاورة؛ كانت يهُوذا ـ دائماً ـ منطقة زراعيَّة هامشيَّة ومعزولة عن المناطق المُجاورة، بواسطة حواجز (موانع) تضاريسيَّة تُطوِّقها من جميع الجوانب ماعدا الشّمال.

يحدُّ يهُوذا من الشّرق والجنوب المناطق القاحلة لصحراء يهُوذا والنَّقَب. وفي الغرب ـ باتِّجاه مُرتفعات وتلال شفيلة الخصبة والمُزدهرة والسُّهُول السّاحليَّة ـ تسقط الحافَّة المركزيَّة بشكْل فُجائي. عندما يُسافر شخص من حبرون (الخليل) باتِّجاه الغرب، فإنَّه يُجبَر على الهُبُوط إلى أكثر من ألف وثلاثمئة قَدَم أسفل المُنحدرات الصّخريَّة الحادَّة في مسافة أكثر بقليل من ثلاثة أميال فقط. وإلى الشّمال أكثر، غرب أُورشليم (القُدْس) وبيت لحم يكون الانحدار أكثر اعتدالاً، ولكنَّ عُبُوره أكثر صُعُوبة؛ لاشتماله على مجموعة من الحافَّات الطّويلة الضّيِّقة

(*) طبقاً لكتاب "غاليل" Galil": (الجدول التّاريخي لمُلُوك إسرائيل ويهُوذا).

التي تفصلها عن بعضها البعض وُديان عميقة. اليوم تتضمَّن الهضبة المركزيَّة المُستوية من أُورشليم (القُدْس) إلى بيت لحم وإلى حبرون (الخليل)، شبكة خُطُوط مُتصالبة من الطُّرُق والمناطق المزروعة على نطاق واسع، ولكنَّه احتاج إلى ألفيَّة من السّنوات من العمل المُركَّز لإزالة التّضاريس الصّخريَّة بنَحْو يكفي للسّماح بمثل هذه النّشاطات. كانت المنطقة في العصر البرُونزي وفي بداية العصر الحديدي منطقة صخريَّة ومُغطَّاة بأحراش وغابات كثيفة، مع أرض مفتوحة قليلة جداً مُتوفِّرة للحُقُول الزّراعيَّة. تمَّ تأسيس مُجرَّد بضع قُرَى دائمة هُناك في زمن التَّوطُّن الإسرائيلي؛ حيثُ كانت بيئة يهُوذا مُناسبة بنَحْو أفضل بكثير للمجموعات الرّعويَّة.

واصل نظام الاستيطان في يهُوذا - في القرنَيْن الثّاني عشر والحادي عشر ق. م - تطوُّره في القرن العاشر؛ حيثُ ازداد عدد القُرَى وكَبُرَ حجمها، ولكنَّ طبيعة النّظام لم تتغيَّر بشَكْل كبير. في شمال يهُوذا، تطوَّرت البساتين ومزارع العنب الكثيرة نحو المُنحدرات الغربيَّة للمُرتفعات؛ أمَّا في يهُوذا؛ فإنَّها لم تفعل ذلك بسبب الطّبيعة المانعة للتّضاريس. بقدر ما يُمكن أنْ نرى على أساس الاستطلاعات الآثاريَّة بقيت يهُوذا فارغة - نسبيَّاً - من السُّكَّان الدّائمين، معزولة تماماً وهامشيَّة جداً حتَّى الزّمن المُفترض لداود وسُلَيْمَان، وما بعد تاريخهما، بدُون مراكز حَضَريَّة رئيسيَّة، وبدُون تدرُّج واضح من القُرَى الصّغيرة إلى القُرَى وإلى البلدات.

البحث عن أُورشليم:

لقد كانت صُورة أُورشليم (القُدْس) في عهد داود - وبنَحْو أكثر في عهد ابنه سُلَيْمَان، عبْر القُرُون - موضوعاً لصياغة الأساطير والقَصَص الرُّومانسيَّة. لقد صاغ الحُجَّاج، والصَّليبيُّون، والحالمون من كُلِّ نوع، قَصَصاً خُرافيَّة رائعة حول عَظَمَة مدينة داود وهيكل سُلَيْمَان.

ولذلك؛ لم يكن مُصادفة - إذاً - أنْ نجد أنَّ البحث عن بقايا هيكل سُلَيْمَان كان من بَيْن التَّحدِّيات الأُولى التي أخذتها الدّراسات الآثاريَّة التّوراتيَّة على عاتقها في القرن التّاسع عشر. لم يكن البحث سهلاً أبداً، ولم يكن مُثمراً إلاَّ بنَحْو نادر ، نَظَرَاً لطبيعة الموقع.

كانت أُورشليم (القُدْس) - التي عاشت بشَكْل مُتواصل، وازداد بناؤها إلى حدٍّ كبير - تقع في مَنْطقة مُنخفضة إلى الشّرق من مساقط مياه مُرتفعات يهُوذا، قريبة جداً من حافَّة صحراء

يهُوذا. تقع المدينة القديمة في قلب الجُزء التّاريخي من أُورشليم (القُدْس)، مُحاطة بالأسوار العُثمانيَّة. في حين يقع الحي المسيحي في شمال غرب المدينة القديمة، حول كَنيسة القيامة المُقدَّسة. ويقع الحي اليهُودي في الجنوب الشّرقي، مُطلاً على حائط المَبْكَى وجبل الهيكل. ويُغطّي الأخير الزّاوية الجنوبيَّة الشّرقيَّة للمدينة العُثمانيَّة. وتمتدُّ مدينة داود إلى جنوب جبل الهيكل، خارج أسوار المدينة العُثمانيَّة، على مسافة طويلة ضيِّقة وحافَّة مُنخفضة نسبيّاً للتَّلّ القديم لمدينة أُورشليم (القُدْس) العصر البرُونزي والعصر الحديدي المُبكِّر. ويفصلها واديان عن التّلال المُحيطة، يفصلها الوادي الشّرقي منهما؛ أيْ وادي قدرون، عن قرية سيلوم. ويقع المصدر الأساسي لمياه أُورشليم (القُدْس) الكتاب المُقدَّس - ينبوع جيهون - في هذا الوادي.

لقد نُقِّبت مدينة أُورشليم (القُدْس) مرَّة بعد مرَّة - مع التّركيز في السّبعينات والثّمانينات من القرن الماضي على البحث عن آثار المدينة العائدة للعصر البرُونزي والعصر الحديدي تحت إشراف "يِغال شيلوح" Yigal Shiloh، من الجامعة العبْريَّة، في مدينة داود، اللُّبّ الحَضَري الأصلي لأُورشليم. الأمر المُفاجئ والمُدهش - كما أشار إليه عالم آثار جامعة تلّ أبيب ديفيد أوسّيشكين David Ussishkin - أنَّ العمل الميداني هُناك وفي الأجزاء الأُخرى من أُورشليم الكتاب المُقدَّس أخفقت في تزويد دليل هامٍّ على أنَّ المدينة كانت آهلة بالسُّكَّان في القرن العاشر ق.م.. هُناك فُقدان لأيِّ بناء معماري تذكاري، وليس هذا فحَسْب، بل وكذلك لم تُوجد آثار حتَّى لأيّ قطع فخَّاريَّة بسيطة. إنَّ أنماط الآثار المُميَّزة جداً للقرن العاشر في المواقع الأُخرى، نادرة الوُجُود في أُورشليم (القُدْس). بعض العُلماء جادلوا بأنْ لاحقاً أزالت نشاطات البناء المُكثَّفة في أُورشليم (القُدْس) كُلّ آثار المدينة القديمة؛ إلاَّ أنَّ التّنقيبات في مدينة داود كَشَفَتْ عن آثار هامَّة تعود للعصر البرُونزي وللقُرُون المُتأخِّرة من العصر الحديدي، ولكنْ؛ لا آثار تعود للقرن العاشر ق.م.. أكثر التّقييمات تفاؤلاً لهذا الفُقدان لأيِّ دليل عن آثار تعود للقرن العاشر هُو أنَّ أُورشليم (القُدْس) لم تكن في تلك الفترة أكثر من مُجرَّد قرية مُرتفعات نَمَطيَّة صغيرة.

يتطابق هذا التّقييم البسيط - بشَكْل جيِّد - مع نَمَط الاستيطان الضّئيل لبقيَّة يهُوذا في نَفْس الفترة الزّمنيَّة، والذي كان يتألَّف من حوالي عشرين قرية صغيرة فقط، وبضعة آلاف من السُّكَّان، الكثير منهم عبارة عن رُعاة مُتنقِّلين.

في الواقع؛ من المُستبعد جداً أنْ تُصبح هذه المنطقة - المسكونة بشَكْل مُتناثر، من يهُوذا، وقرية أُورشليم (القُدْس) الصّغيرة - مركزاً لإمبراطُوريَّة عظيمة تمتدُّ من البحر الأحمر في الجنوب إلى سُوريا في الشّمال. هل من المُمكن حتَّى لأكثر المُلُوك شعبيَّة وتأثيراً أنْ يكون قد تمكَّن من تجهيز وتحريك الرّجال والأسلحة اللأزمة لإنجاز مثل تلك الفُتُوحات الإقليميَّة الواسعة والمُحافظة عليها؟ ليس هُناك - بالتّأكيد - أيّ إشارة آثاريَّة للثّروة، أو القُوَّة البشريَّة، أو مُستوى التّنظيم الذي سيكون لازماً لدَعْم جُيُوش قويَّة - حتَّى لفترات زمنيَّة قصيرة - في الميدان. حتَّى لو كان السُّكَّان القليلون نسبيّاً ليهُوذا قادرون على القيام بهجمات سريعة وكاسحة على المناطق المُجاورة، كيف كان من المُمكن لهم أنْ يتمكَّنوا من إدارة الإمبراطُوريَّة الأوسع والأكثر طُمُوحاً لسُلَيْمَان بن داود؟؟.

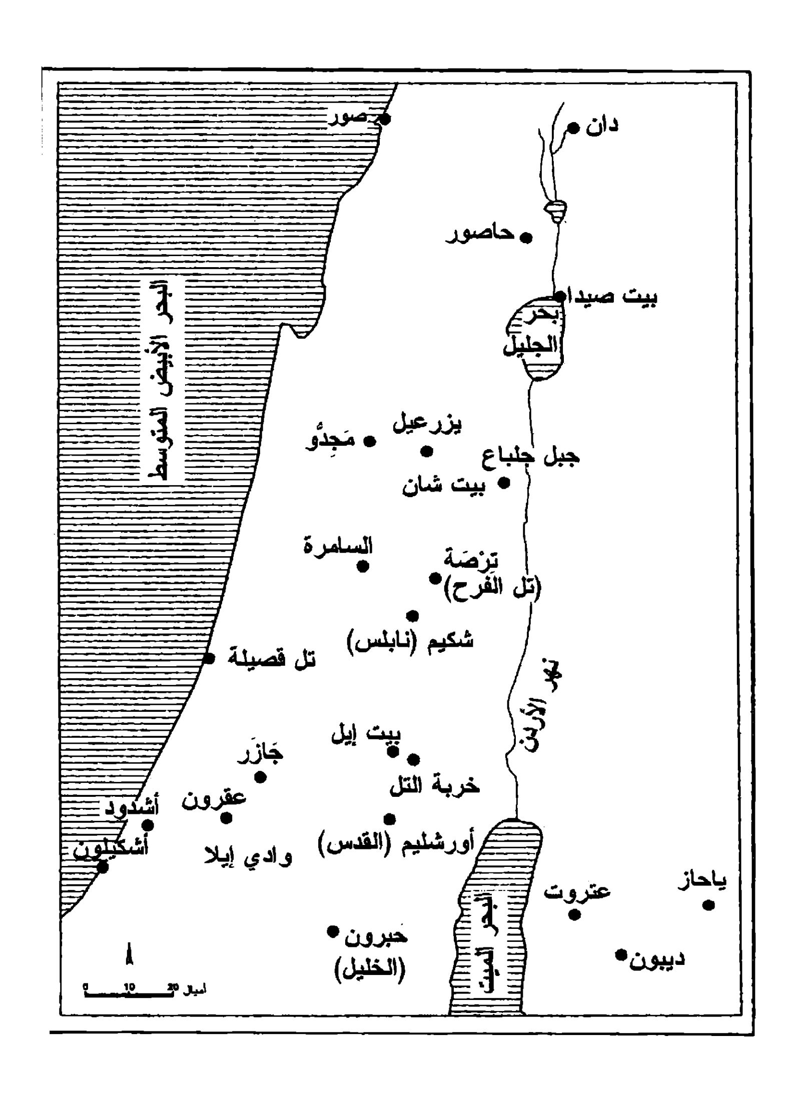
كم كان اتّساع فُتُوحات داود؟

اعتقد عُلماء الآثار - لعقُود من الزّمن - بأنَّ الدّلائل التي تمَّ اكتشافها خلال العديد من التّنقيبات التي أُجريت خارج أُورشليم (القُدْس) دَعَمَتْ رواية الكتاب المُقدَّس العبْريّ بشأن الحُكْم المَلَكي المُتَّحد الواسع (انظرْ الشّكْل رَقْم 16). كانت أبرز انتصارات داود، طبقاً للكتاب المُقدَّس، انتصاراته على المُدُن الفلسطينيَّة، التي تمَّ تنقيب عدد منها على نطاق واسع. يعرض سفْر صموئيل الأوَّل تفصيلاً عظيماً للمُواجهة بَيْن الإسرائيليِّين والفلسطينيِّين: كيف استولت جُيُوش الفلسطينيِّين على تابوت العهد في معركة "حجر المعونة"؛ وكيف تُوفِّي "شاول" وابنه "جُوناثان" أثناء الحُرُوب مع الفلسطينيِّين؛ وبالطّبع؛ كيف قضى داود الشَّابُّ على جالوت. في حين أنَّ البعض من تفاصيل هذه القَصَص أُسطُوريّ جداً، إلاَّ أنَّ بعض الأوصاف الجَغرافيَّة فيها دقيقة وصحيحة للغاية. والأكثر أهمّيَّة؛ أنَّ الانتشار التّدريجي لفخَّاريَّات الفلسطينيِّين، الإيحيَّة الإلهام، ذات الزّينة أو الزّخرفة المُميَّزة، نحو التّلال وبعيداً إلى أقصى الشّمال نحو وادي "يَزْرَعيل"، يُقدِّم دليلاً واضحاً على التّوسُّع التّدريجيّ لتأثير الفلسطينيِّين في كافَّة أنحاء البلاد. وعندما اكتُشفت أدلَّة آثاريَّة على وُجُود دمار في المُدُن السّهليَّة حوالي سنة 1000 ق.م، بدا ذلك مُؤكَّداً على المدى الذي وَصَلَتْ إليه فُتُوحات داود.

أحد أفضل أمثلة هذا الخطأ من التّفكير حالة تَلّ قصيلة Qasile، وهُو موقع صغير على الأطراف الشّماليَّة لتلّ أبيب الحديثة. قام عالم الآثار التّوراتي والمُؤرِّخ الإسرائيلي "بنيامين مازَر" Benjamin Mazar بتنقيبه لأوَّل مرَّة في الأعوام 1948 ـ 1950. اكتشف "مازَر" بلدة فلسطينيَّة مُزدهرة، ليس لها ذكْر في الكتاب المُقدَّس العبْريّ. احتوت الطّبقة الأخيرة هُناك على فخَّاريَّات فلسطينيَّة مُميَّزة، وَحَمَلَتْ علامات أُخرى على ثقافة فلسطينيَّة كانت قد دُمِّرَت بالنّار. وبالرّغم من عدم وُجُود أيّ إشارة مُعيَّنة في الكتاب المُقدَّس العبْريّ على غزو داود لهذه المنطقة، لم يتردَّد "بنيامين مازَر" في استنتاج أنَّ داود دمَّر هذه المُستوطنة، وسوَّى بها الأرض في حُرُوبه ضدَّ الفلسطينيِّين.

وهكذا ذَهَبَ في كافَّة أنحاء البلاد؛ وأخذ يجد الدّلائل على آثار أعمال داود التّدميريَّة في طبقات الرّماد والحجارة المقذوفة في مواقع عديدة؛ بدءاً من فيلسطيا، وحتَّى وادي يَزْرَعيل، وما بعده. في كُلّ حالة تقريباً حيثُما وجد أنَّ هُناك مدينة ـ ذات ثقافة فلسطينيَّة أو كَنْعَانيَّة لاحقة ـ، قد هوجمت، ودُمِّرَت، أو حتَّى أُعيد تشكيلها من جديد، اعتبر أنَّ فُتُوحات الملك داود الشّاملة هي السّبب وراء ذلك.

هل من المُمكن أنْ يكون الإسرائيليُّون الذين كانوا يعيشون في المُرتفعات المركزيَّة، قد تمكَّنوا من تأسيس سيطرة ليس ـ فقط ـ على مواقع صغيرة مثل تَلّ قصيلة Qasile، ولكنْ؛ على مراكز "كَنْعَانيَّة" كبيرة ـ أيضاً ـ مثل: "جازَر"، و"مَجدُّو"، و"بيت شان"؟! نظريَّاً، نعم؛ هُناك بعض الأمثلة في تاريخ أُناس ريفيِّين تمكَّنوا من مُمارسة سيطرة على المُدُن الكبيرة، خُصُوصاً في الحالات التي يستعمل فيها أسياد الحرب أو رُؤساء عصابات أو شُيُوخ قبائل خارجون على القانون، المُرتفعات، كَوَسيلة للتّهديد بالعُنْف، أو الوعد بالحماية الإلهيَّة الأبويَّة لضمان الحُصُول على الأتاوات (الضّرائب) وولاء المُزارعين وأصحاب المتاجر في البلدات السّهليَّة. لكنْ؛ في أكثر الحالات لم تكن تلك فُتُوحات عسكريَّة بشَكْل تامّ، ولا تأسيساً لإمبراطُوريَّة إداريَّة منظَّمة بكُلّ معنى الكلمة، أكثر ممَّا كانت وسائل خفيَّة تستخدمها الزّعامة، يُقدِّم فيها شيخ قبيلة أو زعيم جماعة نوعاً من الأمن للمُجتمعات السّهليَّة.



الشكْل 16: أهمُّ مواقع عهد الحكْم المَلَكي.

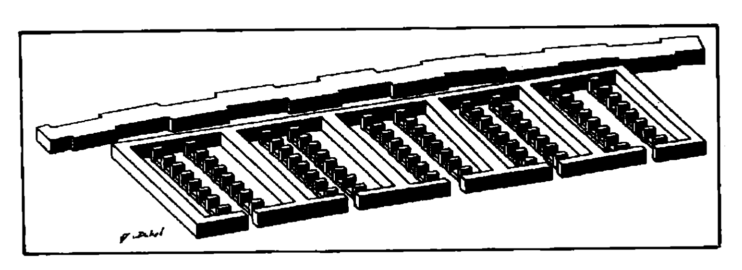
إسطبلات، ومُدُن، وبوّابات الملك سُلَيْمَان:

محور النّقاش والجدل الأساسي لم يكن حول فُتُوحات داود، بل حول ما بعدها. هل أسَّس سُلَيْمَان حُكْماً وعهداً مجيداً على المَمْلَكَة التي فَتَحَهَا داود؟ رغم أنّه لم يتمّ - أبداً - الحُصُول على أيّ أثر لهيكل سُلَيْمَان أو لقَصْر في أُورشليم (القُدْس)، إلاَّ أنَّ العُلماء وجدوا أماكن أُخرى عديدة؛ ليبحثوا فيها.

تصف القصَّة التّوراتيَّة إعادة بناء سُلَيْمَان للمُدُن الشّماليَّة مَجدُّو، وحاصُور، وجازَر (سفْر المُلُوك الأوّل: 9/ 15). عندما نقَّبت بعثة المعهد الشّرقي لجامعة شيكاغو أحد تلك المواقع - موقع مَجدُّو - في العشرينات والثّلاثينات (من القرن الماضي)، نُسِبَتْ بعض أكثر آثار ذلك الموقع روعة والتي تعود للعصر الحديدي، إلى سُلَيْمَان.

كانت "مَجدُّو" - التي تقع في منطقة استراتيجيَّة؛ حيثُ ينحدر الطّريق الدّولي السّريع من مصر في الجنوب إلى بلاد ما بَيْن النّهرَيْن والأناضول في الشّمال، ينحدر من المُرتفعات نحو وادي يِزْرَعيل - أحد أهمّ مُدُن إسرائيل التّوراتيَّة. بالإضافة إلى ذكْرها سفْر المُلُوك الأوّل: 9/ 15، ذكرت هذه المدينة - أيضاً - في سفْر المُلُوك الأوّل: 4/ 12، في قائمة مناطق المُحافظات السُّلَيْمَانيَّة.

احتوى مُستوى المدينة المُسمَّى الطّبقة 4 - وهي آخر طبقة كانت مُعرَّضة بشَكْل كامل في كامل المنطقة القديمة - على مجموعتَيْن من الأبنية العامَّة الكبيرة، كُلّ واحد منها يتألَّف من سلسلة من الغُرف الطّويلة المُتّصلة ببعضها البعض بالتّسلسل. وقد قُسِّمَتْ كُلُّ واحدة من الغُرف الفَرْديَّة إلى ثلاثة مَمَرَّات ضيِّقة فُصلت عن بعضها الآخر بجُدران تقسيم مُنخفضة مُؤلَّفة من عواميد وحجارة (الشَّكْل 17).



الشَّكْل 17: سلسلة من الأبنية المُرتكزة على عواميد في مَجدُّو، عُرِفَت بأنّها إسطبلات.

أحد مُدريري البعثة: "بي. إل. أو. غاي" P.L.O. Guy، عرَّف هذه البنايات كإسطبلات تعود إلى عهد سُلَيْمَان. لقد كان تفسيره مُرتكزاً على وَصْف الكتاب المُقدَّس لتقنيَّات البناء السُلَيْمَانيَّة في أورشليم (القُدْس) (سفر المُلُوك الأوَّل 7/ 12)، والإحالة الخاصَّة للنَّشاط العُمراني لسُلَيْمَان في مَجدُّو في سفر المُلُوك الأوَّل 9/ 15، وعلى ذكْر المُدُن السُّلَيْمَانيَّة الخاصَّة بالعَرَبَات والخيَّالة في سفر المُلُوك الأوَّل 9/ 19.

وَضَعَ "غاي" Guy السُّؤال التَّالي: "لو سألنا أنفسنا أنَّه بعد مُدَّة قصيرة من هزيمة الفلسطينيِّين على يد الملك داود، في مَجدُّو، مَنْ الذي قام - مُستعيناً ببنَّائين أجانب ماهرين - ببناء مدينة ذات هذا العدد الكبير من الإسطبلات؟! أعتقد أنَّنا يجب أنْ نجد الجواب في الكتاب المُقدَّس العبْريّ.. ولو قرأ أحدنا تاريخ سُلَيْمَان، سواء في سفْر المُلُوك أو سفْر الأيَّام، فإنَّه سيُصدم من تكرار ذكْر العَرَبَات والخيول".

وقد تمَّ دَعْم الدَّليل الظَّاهري على عَظَمَة الإمبراطُوريَّة السُّلَيْمَانيَّة في الخمسينات من القرن الماضي، بواسطة نتائج التَّنقيبات التي قام بها "يغائيل يادين" Yigael Yadin في "حاصُوْر". فقد اكتشف "يادين" وفريقه بوَّابة عريضة لمدينة يعود تاريخها للعصر الحديدي. وكان لها مُخطَّطٌ غريبٌ: كان هُناك بُرج وثلاثة غُرف على كُلِّ جانب من جانبَيْ البوَّابة - ممَّا أعطاها اسم البوَّابة ذات الغُرف السِّتَّة (الشَّكْل 18). لقد أُصيب "يادين" بالذّهول. فقد تمَّ اكتشاف بوَّابة مُماثلة - في المُخطَّط والحجم - قبل عشرين سنة من قِبَل فريق المعهد الشَّرقي في "مَجدُّو"؟ ربَّما كانت هذه البوَّابة، وليس الإسطبلات، العلامة الواضحة على الحُضُور السُّلَيْمَاني في كافَّة أنحاء البلاد.

ومن هُنا؛ اتَّجه "يادين" إلى القيام بحَفْر مدينة "جازَرَ"، المدينة الثَّالثة المذكورة في سفْر المُلُوك الأوَّل 9/ 15 باعتبارها مدينة قام سُلَيْمَان بإعادة بنائها، ليس في الميدان، بل في المكتبة. لقد تمَّ تنقيب مدينة "جازَرَ" في بداية القرن العشرين منْ قِبَل عالم الآثار البريطاني "ر. أ. س. مكاليستر" R.A.S. Macalister عندما بدأ "يادين يتصفَّح تقارير "مكاليستر" أُصيب بالدّهشة. لقد وَجَد "يادين" في مُخطَّط بناية عَرَّفها "مكاليستر" كـ "قَصْر مكَّابي" يعود تاريخه إلى القرن

الثّاني ق.م، الخُطُوط العريضة لأحد جانبَيْ نفس نَمَط البوَّابة تماماً التي كان قد وَجَدَها في مَجدُّو وحاصُور. لم يتردَّد "يادين" - أبداً - في ذلك، لقد ادَّعى أنَّ هُناك مُهندساً معمارياً واحداً من أورشليم (القُدْس) قام برَسم مُخطَّط رئيسي (مُخطَّط أمّ) لأبواب المُدُن السُّلَيْمَانيَّة، وأرسل به إلى جميع المُحافظات.

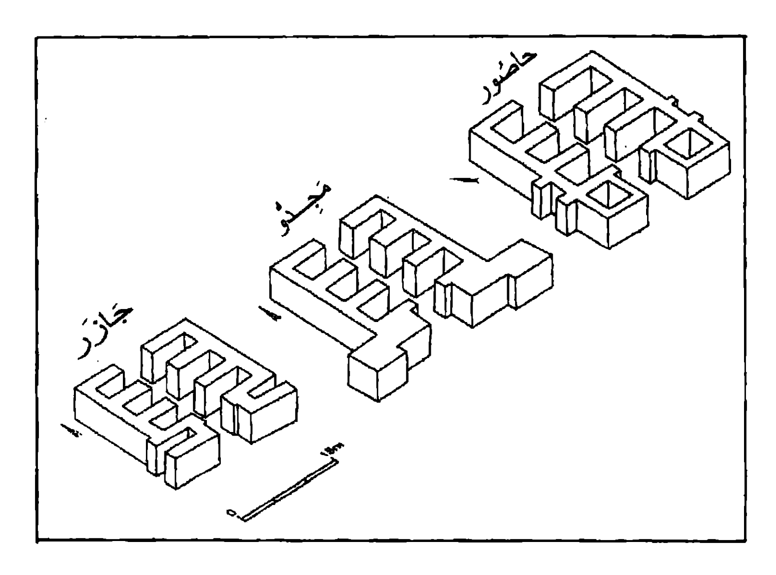
ولَخَّص "يادين" الأمر بهذه العبارات: "ليس هُناك مثال في تاريخ علْم الآثار ساعدت فيه فقرة نَصِّيَّة على التَّعرُّف على أبنية ومعرفة تاريخها في عدد من أهمّ التّلال في الأرض المُقدَّسة، كما ساعدت به فقرة الآية 9/ 15 من سفْر المُلُوك الأوَّل. لقد استند قرارنا بنسبة الطّبقة [في حاصُوْر] لسُلَيْمَان - بشَكْل أساسي - على فقرة سفْر المُلُوك الأوَّل، وعلى مُعطيات دراسة الطّبقات البيُولُوجيَّة، والفخَّاريَّات، لكنْ؛ عندما وَجَدْنَا - إضافة إلى ما سَبَقَ - أنَّ الطّبقة تحتوي على 6 غُرف وبوَّابة ذات بُرجَيْن مُتَّصلة بجدار مُماثل في تخطيطه ومقياسه للبوَّابة المُكتَشَفة في مَجدُّو، شَعَرْنا بالتَّأكُّد التَّامّ من أنَّنا اكتشفنا - بنجاح - مدينة سُلَيْمَانيَّة".

أروع من انْ يُصدَّق؟

لم تكن اكتشافات "يادين" السُّلَيْمَانيَّة قد انتهت بعد. في أوائل السِّتِّينات؛ ذهب "يادين" مع فريق من طُلاَّبه إلى "مَجدُّو" لتوضيح التّطابق بَيْن البوَّابات السُّلَيْمَانيَّة، التي كانت موصولة في "جازَرَ" و"حاصُوْر" إلى غُرفة مُحصَّنة (تُرمى منها النّيران)، ولكنَّها في "مَجدُّو" كانت موصولة بجدار صلب صمت. كان "يادين" مُتأكِّداً أنَّ المُنقِّبين في "مَجدُّو" أخطؤوا بنسبتهم الجدار الصّلب للبوَّابة، وأنَّهم لابُدَّ أنْ يكونوا قد فقدوا جدار الغُرفة المُحصَّنة (التي تُرمى منها النّيران) الموجودة تحت التُّراب. ولَمَّا كانت البوَّابة قد أصبحت معروضة بالكامل مِنْ قِبَل فريق جامعة شيكاغو، اختار "يادين" التّنقيب شرق البوَّابة؛ حيثُ كان الفريق الأمريكي قد حدَّد موقع سلسلة من الإسطبلات التي نسبوها إلى سُلَيْمَان.

لقد أحدث ما اكتشفه ثورة في علْم آثار الكتاب المُقدَّس، لمُدَّة جيل كامل، فقد وَجَدَ "يادين"، تحت الإسطبلات، بقايا قَصْر جميل، تبلغ مساحته حوالي ستَّة آلاف قَدَم مُربَّع، بُني من كُتل الحجر المنحوت الكبيرة (الشَّكْل رَقْم 24). لقد بُني على الحافَّة الشَّماليَّة للتَّلّ، وكان

موصولاً بصفٍّ من الغُرف التي فسَّرها "يادين" بأنَّها جدار الغرفة المُحصَّنة (التي تُرمى منها النّيران) المفقودة، التي كانت متَّصلة بالبوَّابة ذات الغُرف السِّتَّة. وقد اكتشف فريق المعهد الشّرقي قصْراً مُشابهاً - لحدٍّ - ما بُني كذلك من الكتل المُلبَّسة الجميلة، في الجانب الجنوبي للتَّلِّ، وكان يقع - أيضاً - تحت مدينة الإسطبلات. كان النَّمَط المعماري لكلا البناءيْن مُتوازياً ومُشتركاً بنَحْو كبير، ويُمثِّل النَّمَط المُتميِّز للقَصْر السُّوري الشّمالي، الذي يعود للعصر الحديدي، والمعروف باسم "بيت حيلاني"، والذي يتألَّف من مدخل تذكاري وصُفُوف من الغُرف الصّغيرة المُحيطة بغُرفة الاستقبال الرَّسْميَّة. وعليه؛ فكان هذا النَّمَط من البناء مُناسباً لإقامة مسؤول رَسْمي في مَجدُّو، ربَّما كان حاكم الإقليم "بَعنَا بنْ أُخيلُود" (سفر المُلُوك الأوَّل 4/ 12). سُرعان ما ثبَّت "ديفيد أوسشْكين" تلميذ "يادين"، ارتباط تلك البنايات بسُلَيْمَان عن طريق البرهنة على أنَّ وَصْف الكتاب المُقدَّس العبْريّ لقَصْر سُلَيْمَان المبني في أورشليم (القُدْس) ينطبق تماماً على قُصُور "مَجدُّو".



الشّكْل 18: البوَّابة ذات الغُرف السِّتَّة في مَجدُّو، حاصُوْر، وجازَر.

بدا الاستنتاج قطعياً لا يُمكن اجتنابه. لقد مثّل القَصْرَان والبوّابة "مَجدُّو" السُّلَيْمَانيَّة، في حين كانت الإسطبلات - في الواقع - تنتمي لمدينة مُتأخِّرة، بناها الملك آحاب من مُلُوك مَمْلَكَة إسرائيل الشّماليَّة في بدايات القرن التّاسع ق. م. . كان هذا الاستنتاج الأخير حجر زاوية مُهماً في نَظَريَّة "يادين"؛ حيثُ وَصَفَ نَقْشٌ آشُوريٌّ يعود للقرن التّاسع قُوَّةَ العَرَبَة الكبيرة لآحاب ملك إسرائيل.

بالنّسبة لـ "يادين" وكثيرين آخرين، بدا علم الآثار مُتطابقاً مع الكتاب المُقدَّس بنَحْو أوثق من أيِّ وقت مضى. لقد وَصَفَ الكتاب المُقدَّس العبْريّ توسُّعات الملك داود الإقليميَّة. في الحقيقة؛ بأنَّها قامت بتدمير المُدُن الكَنْعَانيَّة والفلسطينيَّة المُتأخِّرة في جميع أنحاء البلاد بواسطة نار رهيبة. كما يصف الكتاب المُقدَّس نشاطات سُلَيْمَان العُمرانيَّة في حاصُوْر، ومَجدُّو، وجازَر؛ ولا شكَّ أنَّ البوَّابات المُتماثلة تكشف عن أنَّ المُدُن الثّلاث بُنِيت مع بعضها، وطبقاً لمُخطَّط واحد. يقول الكتاب المُقدَّس العبْريّ إنَّ سُلَيْمَان كان حليفاً لحيرام، ملك صُور، وإنّه كان بنَّاءً عظيماً. في الحقيقة؛ تُظهر قُصُور مَجدُّو تأثيراً شمالياً في نَمَطها المعماري، إنَّها كانت أجمل الأبنية المُكتَشَفة في طبقة العصر الحديدي في إسرائيل.

لبضع سنوات، مثَّلت بوَّابات سُلَيْمَان أكثر اكتشافات علم الآثار أهمِّيَّة في دَعْم الكتاب المُقدَّس. إلاَّ أنَّ أسئلة أساسيَّة من المنطق التّاريخي طُرحت في النّهاية، وقَوَّضت أهمِّيَّة تلك الاكتشافات. لم تُوجد في أيّ موقع آخر في كُلّ المنطقة - بدءاً من شرق تُركيا في الشّمال، وعبْر المناطق الغربيَّة لسُوريا، نُزُولاً نحو شرق الأُردُن في الجنوب - أيّ إشارة أو دليل على مُؤسَّسات مَلَكيَّة مُتطوِّرة، أو أبنية تذكاريَّة تعود للقرن العاشر ق. م. . كما سَبَقَ ورأينا كانت دولةُ يهُوذا، وَطَن داود وسُلَيْمَان، دولةً مُتخلِّفةً بشَكْلٍ واضحٍ، وليس هُنَاك دليلٌ مهمٌّ على وُجُود ثروة لإمبراطُوريَّة عظيمة تتدفَّق عائدةً إلى تلك الدّولة، بل هُنَاك مُشكلة زمنيَّة تاريخيَّة مُزعجة بدرجة أكبر: إنَّ قُصُور بيت حيلاني التي تعود إلى سُوريا العصر الحديدي - والتي يُفتَرَض أنَّها تُمثِّل النَّمَطَ التّقليدي للقُصُور السُّلَيْمَانيَّة في مَجدُّو - إنَّما ظهرت في سُوريا لأوَّل مرَّة في القرن التّاسع ق. م؛ أيْ بعد نصف قرن على الأقلّ من عصر سُلَيْمَان. فكيف أمكن لمعماريِّي سُلَيْمَان أنْ يتبنّوا هذا النَّمَطَ المعماري الذي لم يكن قد وُجد بعد؟ وأخيراً؛ هُنَاك

مُشكلة التّباين بَيْن مَجدُّو وأُورشليم : هل من المُمكن لملك بنى قُصُوراً رائعةً من الحجر المنحوت في مدينة إقليميَّة ، أنْ يحكم بلاده من قرية مُتخلِّفة ، بعيدة وصغيرة؟ كما ظهر ؛ أصبحنـا اليـوم نعرف أنَّ الشّواهد الآثاريَّة حول المدى الواسع للفُتُوحات الدّاوديَّـة وعَظَمَـة المَمْلَكَـة السّلَيْمَانيَّة إنَّما جاءت كَنَتيجة لتواريخ مُخطئة تماماً .

مُشكلات في التّأريخ:

استند التَّعرُّف على وتحديد هُويَّة الآثار الباقية من عهد داود وسُلَيْمَان ـ وفي الواقع من عـهد المُلُوك الذين تلوا في القرن التّالي ـ على صنفَيْن من الأدلَّـة . لقـد تمَّ ربط انتـهاء الفخَّاريَّـات الفلسطينيَّة المُتميِّزة (المُؤرَّخـة بسنة 1000 ق . م) بفُتُوحات داود ، بشَكْل وثيق . كمـا تمَّ رَبْط بناء البوَّابات والقُصُور التّذكاريَّة في مَجدُّو ، وَحَاصُورَ ، وَجَازَرَ بعهد سُلَيْمَان . ولكنْ ؛ في السّنوات القليلة الأخيرة ، بدأ كلا الدّليلَيْن بالتّهاوي والسُّقُوط (انظُرْ المُلحق "د" لمزيد من التّفاصيل) .

أوّلاً ؛ لم يعد من المُمكن التّأكُّد من أنَّ الأسـاليب الفخَّاريَّـة الفلسـطينيَّة المُميَّزة لـم تسـتمرَّ إلى القرن العاشر ـ بعد فترة طويلة من موت داود ـ وبالتَّالي ؛ أصبحت عديمة الفائدة في تأريخ ، (وحتّى أقلّ فائدة بنَحْـو أكثر ـ أيضـاً ـ في تحقيـق) الفُتُوحـات المُفترضـة . ثانيـاً ؛ يُشير التّحليـل المُجدَّد لأنماط الفنِّ المعماري والأشكال الفخَّاريَّة في الطّبقات السُّلَيْمَانيَّة المشـهورة في مَجدُّو ، وَجَازَرَ وَحَاصُورَ بأنَّها تُؤرِّخ ـ في الحقيقة ـ إلى بدايات القرن التّاسع ق . م ؛ أيْ بعـد عُقُود مـن موت سُلَيْمَان !

الصّنف الثّالث من الشّواهد ؛ أيْ التّأريخ الأكثر دقَّة عبْر الاستفادة مـن التّقنيَّات المخبريَّة للكربون 14 ، أصبح اليوم يبدو أنَّه يُثبت القضيَّة . حتَّى عهد قريب كان من المُستحيل اسـتعمال الكربون الإشعاعي في تأريخ مثل هـذه الفترات الحديثة نسـبيّاً مثل العصـر الحديـدي ؛ بسـبب هامش الاحتمال العريض فيه ، والذي يمتدُّ ـ في الغالب ـ إلى قرن أو أكثر ، ولكنَّ تحسين تقنيَّات التّأريخ بالكربون 14 أنْقصَ ـ لحدٍّ كبير ـ هامش عدم الدّقَّة ذاك . لقد تمَّ اختبار عدد مـن العيِّنـات المأخوذة من المواقع الرّئيسيَّة المشمولة في الجدل والنّقاش الدّائر حول القرن العاشر ، وبدت أنَّها تدعم الجدول الزّمني الجديد للأحداث .

أبرز موقع مَجدُّو - بشَكْل خَاصٍّ - بعض التّناقضات المُذهلة في التّفسيرات المقبولة سابقاً. لقد أُخذَت خمس عشرة عيِّنة خشبيَّة من الرّوافد الخشبيَّة لسقف كبير انهار في النّار، والدّمار الفظيع المنسوبَيْن لداود. ولمَّا كان البعض من الرّوافد الخشبيَّة مُمكن أنْ يكون قد استُعْمل سابقاً في بنايات أقدم، فلا يُمكن إلاَّ لآخر التّواريخ في السّلسلة أنْ تُشير باطمئنان إلى زمن بناء الأبنية. في الحقيقة؛ أغلب العيِّنات تنطبق - بنَحْو جيِّد - على القرن العاشر ق. م؛ أيْ بعد فترة طويلة من عهد داود. والقُصُور التي نُسبت إلى سُلَيْمَانَ، والمبنيَّة فوق طبقتَيْن من ذلك الدّمار، يجب أنْ تكون تابعة لعهد مُتأخِّر بوقت طويل عن ذلك العهد.

لقد تمَّ تأكيد هذه التّواريخ باختبارات للطّبقات المُتوازية في مثل تلك المواقع البارزة كتَلّ دور، على ساحل البحر الأبيض المُتوسِّط، وتلّ حادر على شاطئ بحر الجليل. وقد دعمت القراءات المُتفرِّقة المأخوذة من عدَّة مواقع أُخرى، أقلّ شهرة، مثل "أمّ حاجيت" قُرْب مَجدُّو و"تلّ كينّيريت" على السّاحل الشّمالي لبحر الجليل، دعمت هذا التّأريخ أيضاً. وأخيراً؛ أعطت سلسلة من العيِّنات المأخوذة من طبقة دمار في تَلّ ريحوف Rehov قُرْب بيت شان، المدينة المُعاصرة لمدينة مَجدُّو المُفترضة أنَّها مدينة سُلَيْمَانيَّة، تواريخ تعود لمُنتصف القرن التّاسع ق. م؛ أيْ بعد فترة طويلة من دمارها المَرْويّ على يد الفرعون شيشانق عام 926 ق. م. .

جوهريّاً؛ لقد أخطأ علْم الآثار في تأريخ كلا الآثار "الدّاوديَّة" و"السّلَيْمَانيَّة" بمُدَّة قرن كامل. فالاكتشافات التي أُرِّخَت بأنَّها تنتمي للزّمن السّابق مُباشرة لعهد داود في أواخر القرن الحادي عشر ق. م، تُبيِّن أنَّها تعود في الواقع لمُنتصف القرن العاشر، وتلك التي أُرِّخت بعهد سُلَيْمَان، تُبيِّن أنَّها تعود لأوائل القرن التّاسع ق. م. . تضع التّواريخ الجديدة، ظُهُور الأبنية التّذكاريَّة، والتّحصينات، والإشارات الأُخرى الدَّالَّة على وُجُود دولة كاملة، تضعها في نفس زمن ظُهُورها، لأوَّل مرَّة، في بقيَّة مناطق المشرق بالضّبط. إنَّها تُصحِّح عدم التّكافؤ في التّواريخ بَيْن أبنية قَصْر بيت حيلاني في مَجدُّو ونُظرائها في سُوريا. وهي تسمح لنا - أخيراً - أنْ نفهم لماذا كانت أُورشليم (القُدْس) ويهُوذا فقيرة جداً في المُكتشَفَات العائدة للقرن العاشر ق. م. . إنَّ السّبب هُو أنَّ يهُوذا كانت ماتزال منطقة بعيدة ومُتخلِّفة في ذلك الوقت.

إذا لم يكن هُناك أيُّ سبب مُهمٌ للشَّكِّ في تاريخيَّة داود وسُلَيْمَان، فإنَّ هُناك الكثير من الأسباب لوَضْع علامات استفهام كبيرة حول مدى وعظمة مَمْلَكَتهما. إذا لم تكن هُناك إمبراطُوريَّة كبيرة، ولم تكن هُناك أبنية تذكاريَّة ضخمة، ولم تكن هُناك عاصمة رائعة، فماذا كانت طبيعة مَمْلَكَة داود إذنْ؟!

التُّراث الداودي: من رئيس عشيرة في العصر الحديدي إلى أُسطُورة السُّلالة المَلَكيَّة:

بقيت الحضارة والتَّطوُّر المادِّي في المُرتفعات في عهد داود بسيطة. كانت الأرض ريفيَّة بشَكْل شبه تامٍّ، دُون وُجُود أيّ أثر لوثائق مكتوبة، أو نُقُوش، أو حتَّى دلائل على انتشار واسع لمعرفة القراءة والكتابة، التي لابُدَّ منها لعمل حُكْمٍ مَلَكيٍّ حقيقيٍّ.

من وُجهة نَظَر ديمُوغرافيَّة (سُكَّانيَّة - جَغرافيَّة)، كانت رُقعة التَّوطُّن الإسرائيلي - بالكاد - مُتجانسة. من الصّعب رُؤية أيِّ دليل على ثقافة أو نظام ماديّ مُوحَّد، أو دولة محكومة مركزيًّا. كانت المنطقة من أُورشليم (القُدْس) إلى الشّمال مأهولة تماماً بشَكْل كثيف، بَيْنما المنطقة من أُورشليم إلى الجنوب - محور مَمْلَكَة يهُوذا المُستقبليَّة - ماتزال مأهولة بشَكْل مُتناثر وضعيف جداً. لم تكن أُورشليم نفسها - في أحسن الأحوال - أكثر من قرية مُرتفعات نَمُوذجيَّة. لا يُمكننا أنْ نقول عنها أيّ شيء أكثر من ذلك.

التّقديرات السُّكَّانيَّة للمراحل التّالية لفترة التَّوطُّن الإسرائيلي تنطبق - أيضاً - على القرن العاشر ق. م.. إنَّها تُعطي فكرة عن حجم الإمكانيَّات التّاريخيَّة. من بَيْن ما مجموعه خمسة وأربعون ألفَ نسمةٍ تقريباً، يعيشون في مناطق المُرتفعات، كانت حوالي 90٪ كاملة منهم تسكن القُرَى الشّماليَّة. ممَّا يُبْقي حوالي خمسة آلاف شخص فقط مُتناثرين بَيْن أُورشليم (القُدْس)، وحبرون (الخليل)، وحوالي عشرين قرية صغيرة في يهُوذا، بالإضافة لمجموعات أُخرى استمرَّت - احتمالاً - في العيش كرُعاة مُتنقِّلين. مثل هذا المُجتمع الصّغير والمعزول كان لابُدَّ أنْ يعزّ ذاكرة زعيم استثنائي مثل داود، واصل أحفاده الحُكْم في أُورشليم (القُدْس) على مدى السّنوات الأربعمئة التّالية. في بادئ الأمر، في القرن العاشر، لم تمتدَّ قاعدة حُكْمهم إلى أيّ إمبراطُوريَّة، ولا إلى أيّ مُدُن واسعة، ولا عاصمة رائعة أو مُثيرة للإعجاب. من زاوية

علم الآثار لا يُمكننا أنْ نقول عن داود وسُلَيْمَان أكثر من أنّهما وُجدا فعلاً، وأنَّ أسطُورتهما ثبُتت وبقيت إلى اليوم.

إلاّ أنَّ افتتان المُؤرِّخ التثنوي في القرن السّابع ق.م، بذكريات داود وسُلَيْمَان - وفي الحقيقة استمرار التّبجيل اليَهُوذَوِيّ لهاتَيْن الشّخصيتَيْن - قد يكون أفضل، إنْ لم يكن الدّليل الوحيد، على وُجُود نوع من الدّولة الإسرائيليَّة المُوحَّدة الباكرة. الحقيقة بأنَّ المُؤرِّخ التّثنوي يستخدم الحُكْم المَلكي المُوحَّد كأداة قويَّة من الدّعاية السّياسيَّة، يُوحي بأنَّه في عهده (أيْ عهد ذلك المُؤرِّخ) فإنَّ قصَّة داود وسُلَيْمَان كحُكَّام أو مُلُوك على أراض واسعة نسبيّاً في المُرتفعات الوُسْطَى كانت ماتزال قصَّة حيَّة ومُعْتَقَدَة منْ قبَل النّاس على نطاق واسع.

بالطّبع؛ في القرن السّابع ق.م، تغيّرت الظُّرُوف في يهُوذا بنَحْو خارج التَّوقُّعات تقريباً. أصبحت أُورشليم (القُدْس) - الآن - مدينة كبيرة نسبياً، يُسيطر عليها هيكلٌ (معبدٌ) أُقيم لعبادة إله إسرائيل، وأصبح المقام المُقدَّس الوَطَني الوحيد. وقد وَصَلَتْ مُؤسَّسات الحُكْم المَلكي، والجيش المُحترف، والإدارة إلى مُستوى من التَّطورُّ يُوازي، بل حتَّى يتجاوز تعقيد المُؤسَّسات المَلكيَّة للدُّول المُجاورة. مرَّة ثانية؛ يُمكننا أنْ نُلاحظ المشهد الطّبيعي وعادات وتقاليد دولة يهُوذا في القرن السّابع ق.م، في خلفيَّة قصَّة الكتاب المُقدَّس التي لا تنسى، والتي تحكي هذه المرَّة عن عصر ذهبي أُسطُوري. لا شكَّ أنَّ الزّيارة المُسرفة لشريك سُلَيْمَان التّجاري، ملكة شيبا (سبأ)، لأُورشليم (سفْر المُلُوك الأوَّل 10/ 10.1) وتجارة السّلع النّادرة مع الأسواق البعيدة مثل أرض "أُوفير" في الجنوب (سفْر المُلُوك الأوَّل 9/ 28؛ 10/ 11) تعكس مُشاركة يهُوذا القرن السّابع، في التّجارة العَرَبيَّة المُربحة. ونفس الأمر ينطبق على وَصْف بناء "تامار" في البرِّيَّة (سفْر المُلُوك الأوَّل 9/ 18) والبعثات التّجاريَّة للأراضي البعيدة التي كانت تنطلق من عزيون جبر Ezion geber في خليج العقبة (سفْر المُلُوك الأوَّل 9/ 26) - موقعان تمَّ التّعرُّف عليهما آثارياً بشكْل مُطمئن، واللّذان لم يُسكنا قبل العُهُود المَلكيَّة المُتأخِّرة. والحَرَس المَلكي لداود: "الجلاّدين والسُّعاة" (سفْر صموئيل الثّاني: 8/ 18)، الذين افترض العُلماء لمُدَّة طويلة أنْ يكونوا إيجيّين في أصلهم، يجب أنْ يُفهَموا على خلفيَّة خدمة المُرتزقة اليُونانيّين، القُوَّة القتاليَّة الأكثر تقدُّماً في ذلك العهد ضمن الجُيُوش المصريَّة، ومن المُحتمل الجُيُوش اليَهُوذَوِيَّة في القرن السّابع.

في الأوقات المَلكيَّة المُتأخِّرة، تطوَّر لاهُوتٌ (عقيدة دينيَّة) مُتقَن في يهُوذا وأُورشليم يهدف لتوثيق وتأكيد الارتباط بَيْن وريث داود وقدر شعب إسرائيل بأكمله. طبقاً للتَّاريخ التَّثنوي، كان داودُ التَّقيُّ أوَّلَ مَنْ أوْقَفَ دورة عبادة الأصنام (مِنْ قِبَل شعب إسرائيل) وعقابهم عليها (من قبل يَهْوَه). وبفضل طاعته، وإخلاصه، واستقامته، ساعده يَهْوَه على إكمال العمل غير المنهي ليشُوع - أيْ فتح بقيَّة الأرض الموعودة وتأسيس إمبراطُوريَّة مجيدة على كُلِّ الأراضي الواسعة التي كان قد وُعد بها إبراهيم -. إذنْ كانت تلك آمالاً لاهُوتيَّة، أكثر من كونها صُوراً تاريخيَّة بالمعنى الدّقيق للكلمة. وكانت تلك الآمال تُمثِّل العُنصُر المركزي في رُؤية قويَّة في القرن السّابع لعصر نهضة وَطَنيَّة أرادت أنْ تجمِّع أُناساً مُتفرِّقين، أرهقتهم الحرب، لتُثبت لهم أنَّهم مرُّوا بتاريخهم بتجربة قَويَّة لتدخُّل الله المُباشر في مصيرهم وقَدَرهم. كانت المَلْحَمَة المجيدة للحُكْم المَلكي المُتَّحد مثلها مثل قَصَص الآباء وقَصَص الخُرُوج الجماعي (من مصر) وقَصَص غزو كَنْعَان تأليفاً رائعاً نُسجَ من حكايات وأساطير بُطُوليَّة قديمة أُدمجت مع نُبُوءات مُتماسكة ومُقنعة لشعب إسرائيل في القرن السّابع ق.م..

بالنّسبة لشعب يهُوذا، في الوقت الذي تمَّ تأليف وتدوين الكتاب المُقدَّس العبْريّ فيه، كان قد اعتلى العرش داودٌ جديدٌ ينوي إعادة مجد أسلافه القُدماء. إنَّه كان الملك "يُوشيَّا"، الموصوف بأنَّه كان أكثر مُلُوك يهُوذا تديُّناً. كان "يُوشيَّا" قادراً على أنْ يعود بيومه إلى تاريخ العهد الأُسطُوري للحُكْم المَلكي المُتَّحد. بتطهيره ليهُوذا من إثْم الوَثَنيَّة - التي أدخلها سُلَيْمَان إلى أُورشليم (القُدْس) أوَّل مرَّة عبْر حريمه من النّساء الأجنبيَّات (اللَّواتي جَلَبْنَ آلهتهنَّ الأجنبيَّة معهنَّ) (سفْر المُلُوك الأوَّل 11/ 1 - 8) - تمكَّن "يُوشيَّا" من إزاحة التَّعدِّيات والانحرافات التي أدَّت إلى توقُّف الإمبراطُوريَّة الدّاوديَّة. كان الكلام الذي أراد المُؤرِّخ التّثنوي قوله بسيطاً وقويّاً: "مايزال هُناك طريق لاستعادة مجد الماضي".

وبناءً عليه؛ فقد بدأ "يُوشيَّا" بتأسيس حُكْم مَلَكي مُوحَّد يربط يهُوذا بأراضي المَمْلَكَة الشّماليَّة السّابقة عبْر مُؤسَّسات مَلَكيَّة، وقُوَّات عسكريَّة، وولاء عنيد لأُورشليم، التي لها مقام مركزي جداً في قصَّة داود في الكتاب المُقدَّس.

بجلُوسه على عرش داود في أُورشليم (القُدْس)، كـان الملك "يُوشيًّا" الوريث الشَّرْعي الوحيد للإمبراطُوريَّة الدّاوديَّة، وبالتّالي؛ للأراضـي الدّاوديَّة. كان على وشك أنْ "يستعيد" أراضي المَمْلَكَة الشّماليَّة المُدمَّرة في ذلك الحين، تلك المَمْلَكَة التي وُلدت من ذُنُوب سُلَيْمَان. وتُلخِّص كلمات سفْر المُلُوك الأوَّل 4/ 25: "وَسَكَنَ يهُوذا وإسْـرَائيلُ آمنينَ، كُلٌّ وَاحدٍ تَحْتَ كَرْمَته وتَحْتَ تينَته مـنْ دَانَ إلَى بئْر سَبْع"، تلك الآمال في التَّوسُّع الإقليمي والبحث عن الأزمنة المُزدهرة المُشابهة لأزمنة الماضي الأُسطُوري، عندما كان هُنا ملك يحكم من أُورشليم (القُدْس) على جميع أراضي يهُوذا وإسرائيل مُجتمعين.

كما رأينا، كانت الحقيقة التّاريخيَّة لمَمْلَكَة داود وسُلَيْمَان مُختلفة تماماً عن الرّواية. كانت جُزءاً من تحولٍ سكَّانيٍّ - جَغرافيٍّ عظيمٍ، أدَّى إلى ظُهُور مَمْلَكَتَيْ يهُوذا وإسرائيل - في تسلسل تاريخي مُختلف بنَحْو قَويّ عن ذلك التّسلسل الذي يصفه الكتاب المُقدَّس العبْريّ.

إلى هُنا؛ قُمنا بفَحْص رواية الكتاب المُقدَّس العبْريّ لتاريخ تبلور إسرائيل الذي كُتبَ في القرن السّابع ق. م، وأعطينا لمحات عن الحقائق الآثاريَّة التي تكمن خلفه. وقد حان الوقت - الآن - لحكاية قصَّة جديدة. في الفُصُول التّالية، سنُقدِّم الخُطُوط العامَّة العريضة لصعُود، وسقُوط، وانبعاث إسرائيل مُختلفة جداً.

[القسّم الثّاني]

صُعُود وسُقُوط إسرائيل القديمة

الفَصْل (6):

دولة واحدة وأُمَّة واحدة وشعب واحد؟ (930 . 720 ق.م)

إنَّ مسيرة تاريخ إسرائيل ـ كما يُخبرنا سفرا المُلُوك بنَحْو خطير ـ يتحرَّك بحتميَّة مأساويَّة تقريباً، من الوحدة إلى الانشقاق الدِّيني، ومن الانشقاق الدِّيني إلى الكارثة القوميَّة. بعد العهد المجيد لداود وسُلَيْمَان، عندما كانت تُحْكَمُ كُلُّ إسرائيل من أُورشليم (القُدْس)، في فترةٍ من الازدهار والقُوَّة لم يسبق لها مثيل، انفصلت ـ بغضبٍ ـ قبائل المُرتفعات الشّماليَّة والجليل، مُقاومةً الضّرائب التي كان يفرضها "رَحَبْعام" بن سُلَيْمَان عليهم. وتلا ذلك مئتا سنة من الكراهية والحقد بيْن الإخوة، ونشأت مَمْلكَتان هُما مَمْلكَة إسرائيل المُستقلَّة في الشّمال، ومَمْلكَة يهُوذا في الجنوب، المُستعدَّتان ـ بشَكْل مُتقطِّع ـ لضَرْب بعضهما البعض. إنَّها قصَّة انقسام مأساوي، وعُنْف ووَثَنيَّة في مَمْلكَة الشّمال. هُناك؛ طبقاً لروايات الكتاب المُقدَّس العبْريّ، تمَّ تأسيس مراكز عبادة جديدة لتكون مُنافسة للهيكل في أُورشليم (القُدْس). وَصَلَ عدد من الأُسر الحاكمة الإسرائيليَّة الشّماليَّة الجديدة، من مُنافسي بيت داود، إلى السُّلْطَة بشَكْل دموي الواحد تلو الآخر. ومع مُرُور الزّمن، يدفع الشّماليُّون ثمن إثمهم وشرِّهم بنُزُول العقاب النّهائي عليهم، الذي تمثَّل في دَمَار دولتهم، ونَفْي قبائلهم الشّماليَّة العشرة.

هذه الرُّؤية ذات مقام مركزي في علْم لاهُوت الكتاب المُقدَّس العبْريّ، وفي الأمل الذي يطرحه الكتاب المُقدَّس لإعادة لَمِّ شمل يهُوذا وإسرائيل النّهائي، تحت حُكْم الأُسرة الدّاوديَّة، ولكنَّ تلك الرُّؤية ـ ببساطة ـ ليست تمثيلاً دقيقاً للحقيقة التّاريخيَّة. فكما رأينا، ليس هُناك دليل آثاري مُهمٌّ على الوُجُود التّاريخي لحُكْم مَلَكي مُتَّحد واسع، مركزه أُورشليم (القُدْس)، ويُسيطر على كُلِّ أرض إسرائيل كاملةً، بل على العكس؛ تكشف الأدلَّة تحوُّلاً ديمُوغرافيّاً (جغرافيّاً سكّانيّاً) مُعقَّداً في المُرتفعات، يبدأ خلاله وعيٌ عرْقيٌّ بالتّبلور شيئاً فشيئاً.

وهُنا؛ ربَّما نكون قد وَصَلْنَا إلى أكثر التّصادمات بَيْن المُكتَشَفَات الأثريَّة والكتـاب المُقـدَّس العبْريّ إثارة للقَلَق. فإذا لم يكن هُناك خُرُوج جمـاعي، ولا غـزو، ولا حُكْـم مَلَكي متَّحـد، فماذا نحن صانعون برغبة الكتاب المُقدَّس العـبْريّ بتوحيـد الإسـرائيليِّين؟ مـاذا نصنـع بالعلاقـة الطّويلة والصّعبة بَيْن مَمْلَكَتي يهُوذا وإسرائيل التي دامت لمِئتَـيْ سـنة تقريباً؟ هُنـاك سـبب جيِّـد لاقتراح أنْ يكون هُناك ـ دائماً ـ كيانَان متمايزَان في المُرتفعات، كان الكيـان الجنوبي مـن بَيْنـهما الأفقر، والأضعف، والأكثر ريفيَّة، والأقلّ تأثيراً، حتَّى برز فجأةً؛ ليُصبح كياناً بـارزاً ومُـهمّاً بعد سُقُوط مَمْلَكَة إسرائيل الشّماليَّة.

قصَّة اثنتَيْ عشرة قبيلة ومَمْلَكَتَيْن:

يتمُّ وَصْف القبائل الشّماليَّة، في الكتاب المُقـدَّس العبْريّ، بنَحْـو مُسـتمرٍّ وثـابت كَحَـالات فشلٍ، مع ميل واضح للشّرّ والإثم. هذا واضح ـ بشكْل خَاصٍّ ـ في سفْر القُضَاة؛ حيـثُ تُكـافح القبائل الفَرْديَّة ضدَّ الشُّعُوب الوثَنيَّة المُحيطة بها. مـن بَيْـن ذُرِّيَّـة أبنـاء يعقُـوب الاثنَـيْ عشـر، لـم تنجح إلاَّ قبيلتا يهُوذا وشمعون فقط في فَتْـح كُـلِّ الجُيُـوب الكَنْعَانيَّـة فـي الأرض التـي وَهَبَـهُم الله إيَّاها. كَنَتيجة لذلك، لم يبقَ هُنـاك كَنْعَـانيُّون فـي الجنـوب، كمـا لـم يكـن هُنـاك نسـاء كَنْعَانيَّـات يُمكن الزّواج منهنَّ، والتّأثُّر بهنَّ. أمَّا قبائل الشّمال؛ فقصَّتهم مُختلفة: لم تُنجـز قبـائل بنيـامين، ومنسَّى، وأفرايم، وزبولون، وأشير، ونفتالي، ودان، المهمَّة التي كان يجب عليهم القيـام بـها؛ لأنَّهم لم يُنهوا الكَنْعَانيِّين. ولذلك كانوا ـ دائماً ـ عُرضة للفتنة، والتَّأثُّر بهم مرَّة بعد أُخرى.

لا يـترك نـصُّ الكتـاب المُقـدَّس العـبْريّ ريبـاً فـي أنَّ القبـائل الشّـماليَّة كـانت أكثـر عـدداً، واحتلَّت أرضاً أوسع، وبالتّأكيد؛ لم يكن مُصادفة أنْ يحكم أوَّل ملك لإسرائيل، شاول، من قبيلة بنيامين، كُلَّ الأراضي الشّماليَّة في المُرتفعات، إلاَّ أنَّ شاول انتهك شرائع العبادة، وسـيق إلى الانتحار بعد هزيمة قُوَّاته على يد الفلسطينيِّين. سَحَـبَ اللهُ بركتَهُ مـن هـذا الزّعيـم الشّـمالي الممسوح بالزّيت، واتَّجه شُيُوخ القبائل الشّماليَّة إلى داود، حسب الأُصُول، الـذي كـان ملـك يهُوذا البطل الخـارج عـن القـانُون، وتوّجـوه ملكـاً علـى كُـلِّ إسـرائيل. رغـم ثروتـها وقُوَّتـها، عُوملت القبائل الشّماليَّة ـ حسبما يصفـه سفْـر المُلُـوك الأوَّل ـ أفضـل بقليـل مـن مُعاملـة الرّعايـا

المُستعمَرين منْ قبَل سُلَيْمَان بن داود. تمَّ بناء عواصم الأقاليم الكبيرة ومُدُن المخازن الخاصَّة بسُلَيْمَان: "جازَر"، و"مَجدُّو"، و"حاصُوْر" في وسطهم، وكانت تُفْرَض الضّرائب على قبائل الشّمال، وكانوا يُجَنَّدُون في مشاريع الأشغال العامَّة من قبَل الولاة السُّلَيْمَانيِّين. بعض الشّماليِّين - مثل "يَرَبْعام" بن ناباط، من قبيلة أفرايم - خدموا ضمن مَحْكَمَة أورشليم (القُدْس) في مناصب ذات أهمِّيَّة. لكنَّ يهُوذا وُصِفَت بأنَّها كانت الفريق الأقوى، وأنَّها تنظر إلى القبائل الشّماليَّة كَرَعايا خاضعين لها.

عند موت سُلَيْمَان وخلافة ابنه "رَحَبْعام" له، طالب الشّماليُّون بتخفيف الأعباء عنهم، لكنَّ "رَحَبْعام" المُتغطرس رَفَضَ نصيحة مُستشاريه المُعتدلين، وأجاب الشّماليِّين بالكلمات المشهورة الآن: [أَبي ثَقَّلَ نيركُمْ، وَأَنَا أَزيدُ عَلَى نيركُمْ. أَبي أَدَّبَكُمْ بالسِّيَاط، وَأَنَا أُؤَدِّبُكُمْ بالعَقَارب] (سفر المُلُوك الأوَّل 12/ 14). وانتشرت راية التَّمرُّد في الشّمال، وصاح الشّماليُّون مُطالبين بالانفصال: [فَلَمَّا رَأَى كُلُّ إسْرَائيلَ أَنَّ المَلكَ لَمْ يَسْمَعْ لَهُمْ، أَجَابَ الشَّعْبُ المَلكَ: ((أَيُّ قسْمٍ لَنَا في دَاوُدَ، وَلاَ نَصيبَ لَنَا في ابْنِ يَسَّى! إلَى خيَامكَ يَا إسْرَائيلُ. الآنَ انْظُرْ إلَى بَيْتكَ يَا دَاوُدُ)). وَذَهَبَ إسْرَائيلُ إلَى خيَامهمْ] (سفر المُلُوك الأوَّل 12/ 16). ومضى الشّماليُّون إلى حدِّ رَجْم والي "رَحَبْعام" وجابي ضرائبه الرّئيسي حتَّى الموت، فهرب الملك "رَحَبْعام" مذعوراً إلى الأمان في أورشليم (القُدْس).

ثُمَّ تجمَّع الشّماليُّون ليختاروا عليهم ملكاً، فاختاروا "يَرَبْعام" بن ناباط، الذي كان قد خَدَمَ في مَحْكَمَة سُلَيْمَان. وهكذا انتهى - تماماً - الحُكْم الملكي المُتَّحد لداود وسُلَيْمَان. وأُوجِدَت دولتان مُستقلَّتان: دولة يهُوذا، التي حَكَمَها مُلُوك الأُسرة الدّاوديَّة من أورشليم (القُدْس)، وكانت تُسيطر على أرض محدودة بالجُزء الجنوبي للمُرتفعات الوُسْطَى؛ ودولة إسرائيل، التي سيطرت على الأراضي الواسعة في الشّمال. كانت العاصمة الأُولى للمَمْلَكَة الشّماليَّة مدينة "ترْصَة"، التي تقع إلى الشّمال الشّرقي من مدينة شكيم (نابلس). وقرَّر الملك الجديد "يَرَبْعام"، أنْ يُنشئ معابد مُنافسة لهيكل (معبد) أورشليم (القُدْس)، وطَلَبَ تصميم عجلَيْن ذهبيَّيْن؛ ليتمَّ نصبهما في المعابد المُقدَّسة في أبعد المناطق من مَمْلَكته: أيْ في بيت إيل، في أقصى الجنوب، ودان في أقصى الشّمال.

هكذا بدأت فترة عاصفة وحاسمة في التّاريخ التّوراتي لإسـرائيل. مـن التّضـامن العـائلي لفترة الآباء، ومن الدَّعْم والتّأييد الرُّوحي للخُرُوج الجماعي، ومـن الوحـدة السّياسـيَّة للحكْـم المَلكي المُتّحد، أصبح شعب إسـرائيل - الآن - مُمزَّقاً إلـى شعبَيْن مُتنافسَيْن، يُقـاتل كُـلٌّ منـهما الآخر، وأحياناً؛ يُساعد بعضهم البعض حسب الظُّرُوف السّياسيَّة المُتغيِّرة فـي المنطقـة، لكـنْ؛ دائماً على أساس النِّدّ للنِّدّ تقريباً. لاشكَّ أنّه بدأت تظـهر بعـض الاختلافـات الإقليميَّـة، لكـنَّ أكثر العُلماء استنتجوا أنَّ بقيَّة تاريخ المَمْلكَتَيْـن الإسـرائيليَّتَيْن كـان عبـارة عـن التّزايد السُّكّاني فيهما، وتكثّف النّشاط العُمراني فيهما، والحرب، لكنْ؛ لم تحدث تنمية اجتماعيَّة قَويَّة وهامَّة أكثر من ذلك.

هذه الصُّورة التي كانت مقبولة على نطاق واسع، ظهر - اليوم - أنَّها كانت صُورة خاطئة.

الشّمال مُقابل الجنوب خلال الألفيَّات:

فَتَحَتْ الاستطلاعات الآثاريَّة المُركّزة في ريف التّلال والهضاب الوُسْطى فـي الثّمانينـات نوافذ جديدة لفَهْم خصـائص وأُصُول دولتَـيْ المُرتفعـات: يـهُوذا وإسـرائيل. اختلفـت الرُّؤى الجديدة - بشَكْل قَويّ - عن روايـة الكتـاب المُقـدَّس العبْريّ. أظـهرت الاسـتطلاعات أنَّ ظُـهُور الإسرائيليِّين في مُرتفعات كَنْعَان لم يكن حَدَثاً فريداً، بـل كـان - فـي الحقيقـة - حادثـةً واحـدةً، ضمن سلسلة من التّذبذبات الدِّيمُوغرافيَّة (الجَغرافيَّة - السُّكّانيَّة) التي يُمكـن تتبُّعـها خـلال ألفيَّـة من السّنوات.

في كُلٍّ من موجتَيْ الاستيطان السّابقتَيْن - في العصر البرُونزي المُبكّر (3500 ـ2200 ق. م) وفي العصر البرُونزي المُتوسِّط (2000 - 1550ق. م) - انتقل سُكّان المُرتفعات الأصليُّون من حياة الرّعي إلى الزّراعة الموسميَّة، ثُمَّ إلى القُرَى الدّائمة، ثُمَّ إلى اقتصاديّات المُرتفعـات المُعقَّـدة فـي أسلُوب كان مُشابهاً - بنَحْو مُدهش - لعَمَليَّة الاستيطان الإسـرائيليَّة فـي العصـر الحديـدي الأوَّل (1150 ـ900 ق. م)، لكـنَّ المُفـاجئ بدرجـة أكـبر، أنَّ الاسـتطلاعات (والمعلومـات التّاريخيَّـة المُجزّأة) تُشير إلى أنّه في كُلِّ موجة اسـتيطان فـي المُرتفعـات، بـدا أنَّ هُنـاك مُجتمعَيْـن مُتميِّزَيْن

أحدهما في المُرتفعات الشّماليَّة والآخر في الجنوبيَّة؛ أيْ نفس المناطق تقريباً التي كانت تشغلها مَمْلَكتَا يهُوذا وإسرائيل.

إنَّ خريطةً لمواقع مُرتفعات العصر البرُونزي المُبكِّر - على سبيل المثال - تُظهر نظامَيْ استيطان إقليمَيْن مُختلفَيْن بشَكْل واضح، مع حَدٍّ فاصلٍ بَيْنهما، يسير تقريباً من شكيم (نابلس) إلى أُورشليم (القُدْس)، وهُو نفس الحَدِّ الذي سيكون - لاحقاً - الحُدُود بَيْن إسرائيل ويهُوذا. مثل مَمْلَكَة إسرائيل التي وُجدت فيما بعد، كان نظام الاستيطان الشّمالي كثيفاً، ويمتلك تسلسلاً هرميّاً مُعقَّداً من المواقع الكبيرة، والمُتوسِّطة، والصّغيرة، تعتمد جميعها - بشكْل تامٍّ - على الزّراعة المُستقرَّة. أمَّا المنطقة الجنوبيَّة؛ فعلى غرار مَمْلَكَة يهُوذا التي وُجدَت فيما بعد، كان نظام التَّوطُّن السُّكَّاني فيها مُتناثراً أكثر - في الغالب - في مواقع صغيرة، دُون مثل تلك التّشكيلة من الأحجام المُختلفة. كان لدى الجنوب - أيضاً - عدد كبير نسبيّاً من المواقع الآثاريَّة ذات قطع فخَّاريَّة مبعثرة فحسب، بَدَلاً من آثار لبنايات دائمة؛ ممَّا يقترح وُجُود نسبة كبيرة من السُّكَّان تعيش حياة المجموعات الرّعويَّة المُتنقِّلة.

كان كُلٌّ من الشّمال والجنوب مُدَاراً مركزيّاً منْ قبَل مركز واحد لكُلٍّ منهما، كان بُؤرة لتمركز إقليمي سياسي واقتصادي، وربَّما مركزاً للطُّقُوس الدِّينيَّة الإقليميَّة أيضاً. ففي الجنوب، في العصر البرُونزي الباكر، كان يُوجد موقع كبير يُسمَّى خربة التَّل (مدينة "عاي" التّوراتيَّة)، يقع في شمال شرق أُورشليم (القُدْس). كان يُغطِّي مساحة تبلغ حوالي خمسة وعشرين هكتاراً، مثَّلت خمساً كاملاً لكُلِّ المنطقة المبنيَّة في ريف التّلال والهضاب الجنوبيَّة. تُؤكِّد تحصينات ذلك الموقع الرّائعة ومعبده التّذكاري منزلته الأساسيَّة في الجنوب الرّيفي والرّعوي بشكْل كبير. أمَّا في الشّمال؛ فكان هُناك بضعة مواقع مركزيَّة، لكنْ؛ كان هُناك موقع واحد يُسيطر عليها؛ وهُو "تَلّ الفرح"، الذي يقع قُرْب يُنبوع كبير من الماء العذب، ويحرس الطّريق الرّئيسي الذي يهبط نحو وادي الأُردُن؛ حيثُ يبدو أنَّه يُسيطر على الأراضي الزّراعيَّة الغنيَّة للمنطقة. ليس مُصادفةً محضةً - كما سنرى - أنْ تُصبح هذه المدينة - التي أصبحت تُعرف لاحقاً باسم "ترْصَةَ" كما وَرَدَ ذكْرها في الكتاب المُقدَّس العبْريّ - العاصمة الأُولى لمَمْلَكَة إسرائيل الشّماليَّة.

في العصر البرُونزي المُتوسِّط التّالي، كان لموجة الاستيطان في المُرتفعات نفس الخصائص بالضّبط. كانت مواقع الاستيطان الدّائم قليلة جداً في الجنوب، وأغلبها صغير، وكان هُناك عدد كبير من المجموعات الرّعويَّة، أُثبتت بواسطة مقابرها المُنعزلة غير المُرتبطة بالمواقع الدّائمة. كان الشّمال مأهولاً بالسُّكَّان بشَكْل أكثر كثافة، وذا مُزارعين مُستقرِّين بنسب أكبر بكثير من نسب الرُّعاة. كان أهمَّ مركز حَضَري في الجنوب أورشليم (القُدْس)، التي كانت مُحصَّنة بشدَّة (كما كان حال مدينة "عاي" في العصر البرُونزي الباكر)، وانضمَّ إليه مركز ثانوي هُو حبرون (الخليل)، الذي كان مُحصَّناً كذلك. أمَّا المركز الكبير في الشّمال؛ فكان حين ذاك شكيم (نابلس). وقد كَشَفَتْ التّنقيبات في موقع تَلّ بلاطة في الأطراف الشّرقيَّة للمدينة عن تحصينات بارزة ومعبد كبير. بالإضافة إلى الإشارات الآثاريَّة الدَّالَّة على الانشقاق الشّمالي - الجنوبي، هُناك - أيضاً - بعض الأدلَّة النَّصيَّة المُهمَّة في مصر. أحد المصادر هُو ما يُسمَّى بنُصُوص اللَّعنَة - أو نُقُوش اللَّعنَة -، كُتِبَت على أجزاء فخَّاريَّة وعلى تماثيل صغيرة لأسرى حرب أُريد تحطيمها ودَفْنها في احتفال لجَلْب سُوء الحظّ على أعدائهم في مصر. هذه النُّصُوص تُقدِّم لنا - مثل الرّوايات القديمة للدُّمى الوَدُّونيَّة المُغطَّاة بالرُّسُوم الغاضبة - لمحة إلى الجغرافيا السّياسيَّة لكَنْعَان خلال تلك الفترة، وخاصَّة الأماكن والشُّعُوب التي وَجَدَهَا المصريُّون أكثر تهديداً لهم. تذكر النُّصُوص عدداً كبيراً من المُدُن السّاحليَّة والسّهليَّة، ولكنَّها لا تذكر إلاَّ مركزَيْن في المُرتفعات فقط: شكيم (نابلس) و(طبقاً لأغلب العُلَماء) أورشليم (القُدْس). هُناك مرجع مصري آخر حول المُرتفعات يُضاف إلى الصُّورة. إنَّه النَّقْش الذي يُسجِّل مآثر جنرال يُسمَّى خُو سبق **KhuSebek**، قاد حَمْلَة عسكريَّة مصريَّة على مُرتفعات كَنْعَان في القرن التّاسع عشر ق.م.. يُشير النَّقْش إلى "أرض" (بَدَلاً من "مدينة") شكيم (نابلس)، ويذكر شكيم (نابلس) كَمُوازٍ لريتينو **Retenu**، أحد الأسماء المصريَّة لكُلّ أرض كَنْعَان. يبدو أنَّ هذا يُشير إلى أنَّه بدءاً من الألفيَّة الثّانية ق.م، كانت شكيم (نابلس) - أحد أهمّ مراكز مَمْلَكَة إسرائيل - محور كيان إقليمي كبير.

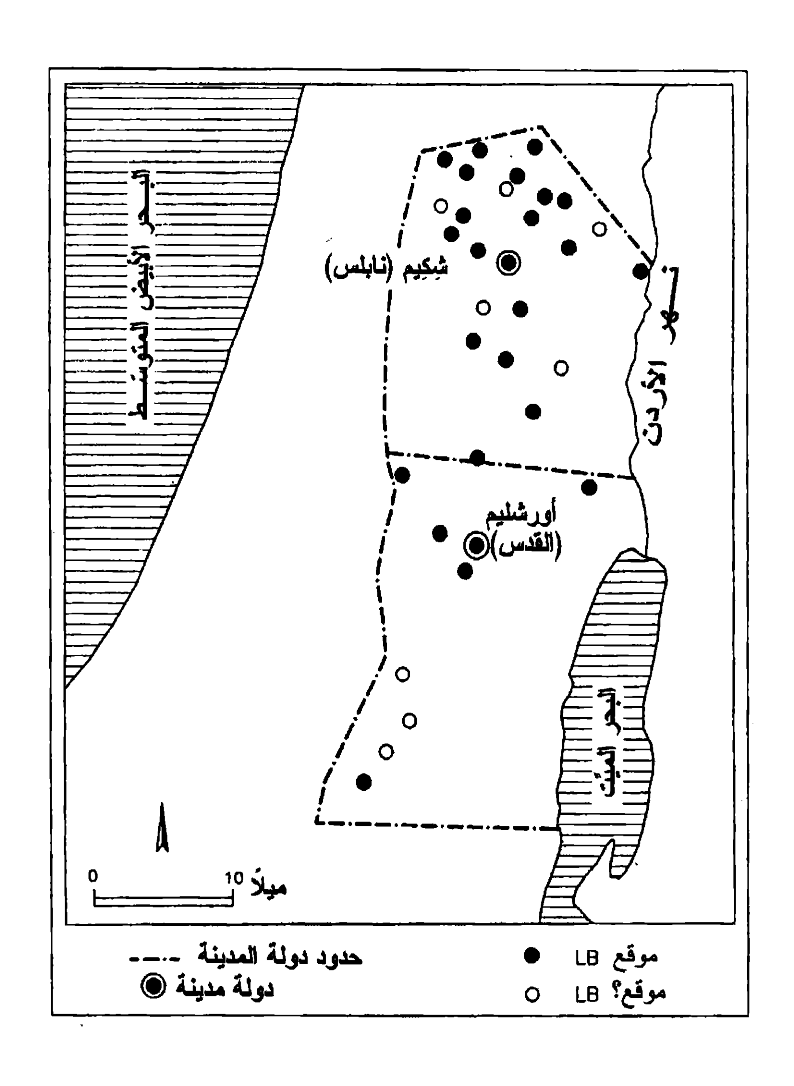
ليس لدينا معلومات نصِّيَّة حول الأراضي الجنوبيَّة في العصر البرُونزي المُتوسِّط، لكنْ؛ هُناك معلومات وفيرة حول مداها في الفترة القادمة؛ أيْ العصر البرُونزي المُتأخِّر. تُؤكِّد رسائل تَلّ العمارنة التي يعود عهدها إلى القرن الرّابع عشر ق.م، على تقسيم ريف التّلال والهضاب

الوُسْطَى بَيْن دولتَيْ مُدُن، أو في الواقع دولتَيْن إقليميَّتَيْن مُبكِّرتَيْن: شكيم (نابلس) وأورشليم (انظُرْ الشَّكْل 19). تُحيل عدد من الرّسائل بالاسم إلى حُكَّام دولتَيْ المُدُن هاتَيْن - ملك يُسمَّى عَبْدي حبا Abdi Heba حَكَمَ في أُورشليم (القُدْس)، وملك يُسمَّى لابايو Labayu حَكَمَ في شكيم (نابلس) - كُلٌّ واحد منهما كان يُسيطر على أراضٍ تبلغ مساحتها حوالي ألف ميل مُربَّع. كانت تلك أوسع المناطق التي يُسيطر عليها حاكم محلِّي واحد؛ لأنَّه في ذلك الوقت كانت سُهُول ووُديان كَنْعَان السّاحليَّة مُقسَّمة إلى العديد من المُدُن الصّغيرة جداً، كُلٌّ واحد منها يُسيطر على أرضٍ صغيرة ذات كثافة سُكَّانيَّة عالية نسبياً. بالرّغم من أنَّ الوحدات السّياسيَّة في المُرتفعات كانت أكبر بكثير من ناحية المساحة، إلاَّ أنَّ عدد سُكَّانها كان أقلّ بكثير.

لقد كانت شكيم (نابلس) وأورشليم (القُدْس)، إسرائيل ويهُوذا، أراضٍ مُتميِّزة ومُتنافسة دائماً. وكان هُناك أسباب قويَّة لهذه الاختلافات: كان الشّمال والجنوب منطقتَيْن ذواتي بيئتَيْن مُختلفتَيْن بشكْل جذري.

عالَمان في المُرتفعات:

تبدو المُرتفعات الواقعة بَيْن "يَزْرَعيل" ووُديان بئر سبع، لأوّل وهلة، مُشكِّلةً لكتلة جَغرافيَّة مُتجانسة، ولكنَّ التّفاصيل البيئيَّة والطُّوبُوغرافيَّة (التّضاريسيَّة) تُقدِّم صُورة مُختلفة جداً. إنَّ لكُلٍّ من الشّمال والجنوب نظاماً بيئيَّاً مُتميِّزاً يختلف عن الآخر من كُلّ النّواحي: من ناحية التّضاريس، وتشكيلات الصُّخُور، والمناخ، والتّغطية النّباتيَّة، ومصادر الإمكانيَّات الاقتصاديَّة. لقد كانت يهُوذا - دائماً - الجُزْء الأكثر بُعْداً والنّائي لريف التّلال والهضاب، معزولةً بواسطة حواجز تضاريسيَّة ومناخيَّة. وعلى العكس؛ كانت الأجزاء الشّماليَّة للمُرتفعات تتألَّف من تجميع رُقَع من الوُديان الخصبة المحشورة بَيْن المُنحدرات المُتجاورة للمُرتفعات. بعض تلك الوُديان يُوفِّر أراضٍ زراعيَّة خصبة بنَحْو كافٍ لإعالة سُكَّان عدَّة قُرَى. وبالتَّالي؛ كانت منطقة مُنتجة نسبياً، مع وُديان داخليَّة ومع أرض هامشيَّة شرقيَّة لحافَّة الصّحراء كانت تُزرَع بشَكْل رئيسي بالحُبُوب، بَيْنما كانت تُزرع مناطق التّلال والهضاب ببساتين الكُرُوم والزّيتون. وعلى الرّغم من أنَّ المُسافر العابر قد يجد هذه المنطقة اليوم أكثرَ مُرتفعاتٍ في ظاهرها من الجنوب، إلاَّ أنَّ المُواصلات ونَقْل المحاصيل الزّراعيَّة فيها أسهل بما لا يُقاس.



الشكل 19: وحدتا مرتفعات في القرن الرابع عشر ق.م (فترة العمارنة).

المُنحدرات نحو الغرب مُعتدلة أكثر بكثير، وفي الحقيقة؛ تُسهِّل ـ بَدَلاً من عرقلتها ـ العُبُور إلى الأسفل نحو مُدُن سهل البحر الأبيض المُتوسِّط السّاحليَّة. ويقع الاتِّساع العريض لوادي "يَزْرَعيل" على الحافَّة الشّماليَّة لهذه المنطقة، مُشكِّلاً أرضاً زراعيَّة غنيَّة جداً، عملت كطريق برِّي رئيسي ـ أيضاً ـ للتِّجارة والمُواصلات بَيْن مصر وبلاد ما بَيْن النَّهرَيْن.

في الشّرق، كانت منطقة سهل الصّحراء أقلَّ قحالةً، وأقلَّ وُعُورةً منها في المناطق الأبعد نحو الجنوب، ممَّا يُوفِّر حُرِّيَّة نسبيَّةً في تنقُّل النّاس، وانتقال السِّلَع بَيْن الحافَّة المركزيَّة، ووادي الأُردُن، ومُرتفعات الضَّفَّة الشّرقيَّة للأُردُن في الشّرق.

أيُّ وحدة إقليميَّة كانت تبرز في المُرتفعات الشّماليَّة كانت تتمتَّع بطاقة اقتصاديَّة كامنة أعظم جداً من تلك التي تتوفَّر لأيِّ وحدة تقوم في الجنوب. وبالرّغم من أنَّ الآليَّة الأساسيَّة للتَّوطُّن في المُرتفعات في كلتَيْ المنطقتَيْن كانت مُتماثلة، ـ أيْ الانتقال من تربية المواشي والزّراعة الموسميَّة، إلى الاعتماد الأوسع على الزّراعة المُتخصِّصة ـ إلاَّ أنَّ الشّمال كان عنده مصادر أكثر ومناخ أغنى للاستغلال. في المراحل المُبكِّرة لكُلِّ موجة استيطان، عندما كان القسم الأكبر لسُكَّان المُرتفع يتركَّزون في الحافَّات الشّرقيَّة لسُهُول ووُديان المُرتفعات الشّرقيَّة، حافظوا على توازن، وعلى اقتصادٍ مُكتفٍ ذاتيَّاً بشَكْل جوهريّ. كان أهالي كُلِّ قرية يُؤَمِّنُون ـ بأنفسهم لأنفسهم ـ حاجاتهم من المحاصيل الزّراعيَّة والمُنتجات الحَيَوانيَّة، ولكنْ؛ عندما أجبرت الضُّغُوط السُّكَّانيَّة وإغراء الحُصُول على فُرص اقتصاديَّة أفضل السُّكَّان بالتَّوسُّع نحو الحوافِّ الغربيَّة لريف التّلال والهضاب، كان للشّماليِّين ميزة مُتميِّزة على الجنوبيِّين، لقد كانوا قادرين على تطوير اقتصاد مُتخصِّص وأكثر تطوُّراً؛ لأنَّ المُنحدرات الغربيَّة لمناطق المُرتفعات الشّماليَّة كانت أقلَّ شدَّة في انحدارها وأقلَّ صخريَّة من تلك التي في الجنوب، وبالتّالي؛ كانت أكثر مُناسبة بكثير لزراعة الزّيتون وبساتين الكُرُوم، على بقع صغيرة مُمهَّدة في سُفُوح التّلال وجوانب المُرتفعات. وقد شجَّع التَّخصُّص الابتدائي في الزّيتون والعنب على نُمُوِّ وتطوُّر تقنيَّة مُعالجة هذه المُنتجات بشَكْل كُفء، وتحويلها إلى زيت زيتون ونبيذ. كما أنَّ ذلك أدَّى إلى ظُهُور مُؤسَّسات اقتصاديَّة ـ أيضاً ـ من الأسواق، ووسائل النّقل والتّبادل، لكي تتمكَّن القُرَى المُنتجة للنّبيذ والزّيت من الحُصُول على الحُبُوب المطلوبة بشَكْل حَيَوي، وعلى مُنتجات الحَيَوانات مُقابل مُنتجاتها الخاصَّة.

وكانت النّتيجة تزايد تعقيد مُجتمعات المُرتفعات الشّماليَّة، وفي النّهاية؛ بلورة شيء يُشبه الدّولة. ودفعت تجارة التّصدير إلى سُكَّان السُّهُول، والأكثر أهمِّيَّة، التّصدير إلى أسواق مُدُن مصر الكبيرة وموانئ السّاحل الفينيقي، دفعت بالأُمُور خُطوات أُخرى نحو الأمام. وهكذا، في بداية العصر الحديدي، استعدَّت المُرتفعات الشّماليَّة لأنْ تُصبح أكثر سُكَّاناً وأكثر ثروةً من المُرتفعات في الجنوب.

تشكيل الدّولة في عالم الكتاب المُقدَّس العبْريّ:

لقد كان تطوُّر مُرتفعات كَنْعَان إلى حُكُومتَيْن مُتميِّزتَيْن تطوُّراً طبيعيّاً. ليس هُناك أيُّ دليل آثاري مُطلقاً بأنَّ هذه الحالة بَيْن الشّمال والجنوب نتجت عن وحدة سياسيَّة سابقة ـ خاصَّة عن وحدة مُتمركزة في الجنوب. في القرنَيْن العاشر والتّاسع ق. م، كانت يهُوذا ماتزال مسكونة بشَكْل ضعيف جداً، مع عدد محدود من القُرَى الصّغيرة، لا يتجاوز في الواقع أكثر من عشرين قرية، أو نحو ذلك. هُناك سبب جيِّد للاعتقاد، استناداً لـ: تركيب العشيرة المُتميِّز، والاكتشافات الأثريَّة في يهُوذا، أنَّ الشّريحة الرّعويَّة من السُّكَّان كانت ماتزال هامَّة هُناك. ونحنُ مازلنا لا نمتلك أيَّ دليل آثاري ـ على الرّغم من الأوصاف الفريدة في الكتاب المُقدَّس عن عَظَمَتها ـ على أنَّ أُورشليم (القُدْس) كانت أكثر من مُجرَّد قرية مُرتفعات بسيطة أثناء عهد داود، وسُلَيْمَان، و"رَحَبْعام". وفي الوقت نفسه؛ النّصف الشّمالي للمُرتفعات ـ وبشَكْل خَاصٍّ الأراضي التي انفصلت عن الحُكْم المَلَكي المُتَّحد على ما يقال ـ كانت مأهولة بشَكْل كثيف بالعشرات من المواقع، وكانت تتمتَّع بنظام استيطان مُتطوِّر ـ بشَكْل جيِّد ـ تضمَّن مراكز إقليميَّة كبيرة، ومُدُن وبلدات من كُلِّ الأحجام، وقُرَى صغيرة جداً. وببساطة؛ بَيْنما كانت يهُوذا ماتزال هامشيَّة اقتصادياً ومُتخلِّفةً، كانت إسرائيل تزدهر وتنمو.

في الحقيقة؛ كانت إسرائيل تسير بخُطوات سريعة في طريقها نحو صيرورتها دولة مُتطوِّرة بالكامل خلال بضعة عقُود بعد النّهاية المُفترضة للحُكْم المَلَكي المُتَّحد؛ أيْ حوالي سنة 900 ق. م.. ونقصد بعبارة "مُتطوِّرة بالكامل" أنّها أصبحت أرضاً محكومة بآليّات إداريَّة تنظيميَّة (بيرُوقراطيَّة)، التي تتجلّى بتقسيم طَبَقي اجتماعي كما رأينا في توزيع المواد الثّريَّة الفاخرة، ومشاريع البناء الكبيرة، والنّشاطات الاقتصاديَّة المُزدهرة، بما في ذلك التّجارة مع المناطق المُجاورة، ونظام استيطان مُتطوِّر بالكامل.

تطوَّرت في إسرائيل مراكز إداريَّة إقليميَّة مُنْذُ أوائل القرن التَّاسع ق.م.. وكانت تلك المراكز مُحصنَّة ومُجهَّزة بالقُصُور المُتقنة التي بُنيت من الحجر المنحوت، وزُيِّنت برُؤُوس العواميد الحجريَّة؛ تجد أفضل الأمثلة على ذلك في "مَجدُّو"، و"يَزْرَعيل"، و"السَّامرة". أمَّا في الجنوب؛ فلم تظهر الأبنية المبنيَّة من الحجر المنحوت ورُؤُوس العواميد الحجريَّة إلاَّ في القرن السَّابع ق.م، وتظهر بحُجُومٍ أصغر، وبنَحْوٍ أقلّ تأثُّراً بتأثيرات أجنبيَّة، ونوعيَّة أضعف في فنّ البناء. هُناك - أيضاً - اختلاف عظيم في التَّخطيط وفي تطوُّر المُدُن الكبيرة. تأسَّست السَّامرة، عاصمة المَمْلَكَة الشَّماليَّة، كَمَركزٍ حكُوميٍّ واسعٍ وكبير في حُدُود القرن التَّاسع؛ في حين أنَّ أُورشليم (القُدْس) لم تُصبح مدينة كاملة إلاَّ في أواخر القرن الثَّامن.

بالإضافة لذلك؛ تطوَّرت صناعة زيت الزَّيتون في إسرائيل في حُدُود القرن التَّاسع، لكنَّ إنتاج زيت الزَّيتون في يهُوذا، لم يتحوَّل من إنتاجه منْ قبَل عوائل محلِّيَّة خاصَّة إلى صناعة حكُوميَّة إلاَّ في القرن السَّابع ق.م.. وأخيراً؛ يجب أنْ ننظر إلى تاريخ الاستيطان في المُرتفعات، الذي استقرَّ في الشَّمال في وقت سابق على يهُوذا، ووَصَلَ إلى مُستويات من الكثافة السُّكَّانيَّة أعلى بكثير ممَّا في يهُوذا. وخُلاصة الأمر؛ نستطيع أنْ نقول - بكُلِّ اطمئنان - إنَّ المَمْلَكَة الشَّماليَّة لإسرائيل ظَهَرَتْ كَحَالة مُتطوِّرة بالكامل في وقت باكر، ليس بعد بدايات القرن التَّاسع ق.م، في وقت لم يتغيَّر فيه مُجتمع واقتصاد يهُوذا إلاَّ تغيُّرا قليلاً عن أُصُوله كَقُرَى مُرتفعات بسيطة. كُلُّ هذا - أيضاً - تدعمه السِّجلاَّت التَّاريخيَّة.

في الفَصْل القادم؛ سنرى كيف ظَهَرَتْ المَمْلَكَة الشَّماليَّة - فجأةً - على مسرح الشَّرق الأدنى القديم كَقُوَّة إقليميَّة رئيسيَّة في التَّحالف الذي واجه الملك الآشُوري شلمانصّر الثَّالث في معركة "قرقر" في سنة 853 ق.م..

ليس هُناك شكٌّ في أنَّه كانت بَيْن دولتَيْ العصر الحديدي - إسرائيل ويهُوذا - قواسم مُشتركَة كثيرة. فكلاهما عَبَدَ يَهْوَه (من بَيْن الآلهة الأُخرى). واشترك شعباهما في الإيمان بالعديد من الأساطير، والأبطال، والحكايات التي تدور حول أحداث في الماضي البعيد. تكلَّم شعباهما لُغات مُماثلة أيضاً، أو لهجات عبْريَّة، وفي القرن الثَّامن ق.م؛ كَتَبَ كلاهما المخطوطة نفسها، لكنَّهما كانتا - أيضاً - مُختلفتَيْن جداً عن بعضهما البعض في تركيبتهما السُّكَّانيَّة، وفي طاقتهما الاقتصاديَّة، وحضارتهما المادِّيَّة، وعلاقاتهما مع جيرانهما.

وببساطة؛ واجهت إسرائيل ويهوذا تواريخ مُختلفة جداً، وطوّرت كُلٌّ منهما ثقافات مُتميِّزة. وبمعنى من المعاني، لم تكن يهوذا تزيد على منطقة من مناطق إسرائيل الدّاخليَّة الرّيفيَّة.

ابتداء تاريخ إسرائيل:

طوال كُلّ ألفيّات تاريخ كَنْعَان الإنساني، لربَّما كانت المُرتفعات الشّماليَّة أغنى من المُرتفعات الجنوبيَّة، لكنَّها لم تكن ناجحة ومُتمدِّنة بنَحْو يُقارب ازدهار وتمدُّن دُول المُدُن الكَنْعَانيَّة في الوُديان والسّهل السّاحلي. وفي الحقيقة؛ كان الذي مكَّن المُرتفعات من الاستمرار في حالة الاستقلال الابتدائي - كما رأينا - نظام دُول المُدُن الكَنْعَاني الذي عانى سلسلة من الكوارث التّدميريَّة المأساويَّة (الفاجعة) في نهاية العصر البرُونزي المُتأخِّر. وسواء كان سبب تلك الكوارث نهب شُعُوب البحر، أو المُنافسات بَيْن المُدُن، أو اضطرابات اجتماعيَّة، فإنَّ الاقتصاد السّهلي تعرَّض - فعلاً - إلى ضربة ساحقة.

بمُرُور الوقت؛ بدأ السُّكَّان الكَنْعَانيُّون للسُّهُول - في القرن الحادي عشر ق. م - بالازدهار من جديد. كما أنَّ الفلسطينيِّين، الذين كانوا قد استقرُّوا سابقاً على طُول السّاحل الجنوبي، دعموا مُدُنهم بقُوَّة، ثُمَّ احتلَّ الفينيقيُّون - وَرَثَة الكَنْعَانيِّين السّاحليِّين - الموانئ البحريَّة في الشّمال. أمَّا في الوُديان الشّماليَّة؛ فبَيْنما عانت مواقع رئيسيَّة مثل "مَجدُّو" من الدّمار أثناء القرن الثّاني عشر ق. م، استمرَّت الحياة في المناطق الرّيفيَّة الأقلّ تمدُّناً بلا انقطاع. وبعد بضعة عُقُود من التّرْك حتَّى المواقع الرّئيسيَّة عادت إلى الحياة، وأصبحت مأهولة بالسُّكَّان من جديد، وعلى ما يبدو؛ كانوا من نفس نوع السُّكَّان السّابقين، - أيْ السُّكَّان الكَنْعَانيُّون المحلِّيُّون للسُّهُول - والبعض من المراكز الكَنْعَانيَّة الأكثر أهمِّيَّة جُدِّدت، واستمرَّت جيِّداً حتَّى القرن العاشر ق. م. .

تُعَدُّ "مَجدُّو" مثالاً جيِّداً على هذه العَمَليَّة. بعد عدَّة عُقُود من دمار مدينة العصر البرُونزي المُتأخِّر، بقَصْرها المُتقن، استؤنف التّوطُّن في الموقع على نحو مُعتدل. بعد بضعة عُقُود أكثر؛ كان هُناك إشارات هامَّة على نُمُوٍّ سُكَّاني وعُمراني، بدقَّة؛ إلى درجة أنْ أصبحت "مَجدُّو" مرَّة أُخرى مدينة كبيرة (دُعيَت الطّبقة الثّامنة)، مع كُلّ ميِّزات ثقافتها الكَنْعَانيَّة السّابقة تقريباً. أشبهت أساليب الفخّاريّات فيها تلك التي كانت في القرن الثّاني عشر ق. م؛ كما أشبهت خُطَّة البلدة نفس الحجم وتخطيط المدينة التي كانت في العصر البرُونزي المُتأخِّر في "مَجدُّو"؛ والأكثر

أهميَّة، بقي المعبد الكَنْعَاني يعمل كالسّابق. كَشَفَ التّنقيب في المواقع الرّئيسيَّة الأُخرى في الوُديان والسّهل السّاحلي الشّمالي، مثل تلّ دور (على السّاحل إلى الغرب من "مَجدُّو") وتلّ ريحوف (جنوب بحر الجليل)، صُورة مُماثلة عن استمرار عالم دُول المُدُن الكَنْعَانيَّة، والذي كانت تُسيطر فيه البلدات أو المُدُن الكبيرة على الرِّيف المُزدهر.

لكنَّ هذا الازدهار المُتأخِّر لكَنْعَان لم يكن ليدوم طويلاً. سيتمُّ تدمير المُدُن الشّماليَّة بالعُنْف والنّار. كان الخراب ساحقاً جداً، لدرجة أنَّ تلك المُدُن لم تستطع - إلى الأبد - أنْ تتعافى من تلك الصّدمة. كان هذا نَفَسَ كَنْعَان الأخير. فماذا حَدَثَ؟

كانت مصر - التي مرَّت مُنْذُ مُدَّة طويلة بفترة من الانحطاط والانسحاب من السّاحة الدّوليَّة - قد أصبحت جاهزة - أخيراً - لإعادة تأكيد قُوَّتها على الأراضي في الشّمال. قُرْب نهاية القرن العاشر ق.م؛ أطلق الفرعون شيشانق، مُؤسِّس السُّلالة الثّانية والعشرين (المعروف بشيشَنْق في النُّقُوش المصريَّة)، هُجُوما عُدوانياً باتِّجاه الشّمال. هذا الغزو المصري مذكور في الكتاب المُقدَّس العبْري، من منظور يَهُوَذَوِيّ محض، في فقرةٍ من سفْر المُلُوك تُقدِّم لنا أبكر ارتباط بَيْن السّجلاَّت التّاريخيَّة الخارجيَّة ونصّ الكتاب المُقدَّس: [وَفِي السَّنَة الْخَامسَة للْمَلك رَحُبْعَامَ، صَعدَ شيشَقُ مَلكُ مصْرَ إلَى أُورشليم. وَأَخَذَ خَزَائنَ بَيْت الرَّبِّ وَخَزَائنَ بَيْت الْمَلك، وَأَخَذَ كُلَّ شَيْءٍ. وَأَخَذَ جَميعَ أَتْرَاس الذَّهَب التي عَملَهَا سُلَيْمَان] (سفْر المُلُوك الأوَّل 14/ 25 - 26).

رغم ذلك؛ نعرف - الآن - بأنَّ أورشليم (القُدْس) كان من الصُّعُوبة جداً أنْ تكون الهَدَف الوحيد، أو حتَّى الهَدَف الأكثر أهمِّيَّة. يصف نَقْشٌ انتصاريٌّ أثري أمْرَ الفرعون شيشَنْق بكتابته على جُدران معبد "الكرنك" العظيم في قوائم مصر العُليا أنَّ حوالي مئة وخمسين بلدة وقرية تمَّ تدميرها في تلك العَمَليَّة. كانت تلك القُرَى تقع في الجنوب، خلال ريف التّلال والهضاب المركزيَّة (الوُسْطَى)، وعبْر وادي "يَزْرَعيل" والسّهل السّاحلي.

وقد أُدرجَت المُدُن الكَنْعَانيَّة التي كانت - حينذاك - مُدُناً عظيمة؛ مثل "ريحوف"، و"بيت شانْ"، و"تَعنَكَ" و"مَجدُّو" كأهداف للقُوَّات المصريَّة، وقد وُجدت - في الواقع - قطعة من مسَلَّة النّصر التي تحمل اسم شيشانق في "مَجدُّو"، ولسُوء الحظِّ؛ كانت ضمن نفايات أعمال التّنقيب السّابقة، ولذلك كان ارتباطها الآثاري الدّقيق غير واضح. كَشَفَتْ الطّبقات السّميكة

من الحريق والانهيار في تلك المواقع وفي غيرها من المواقع الكبيرة في الشّمال، عن شواهد مُثيرة، للدّمار المُفاجئ والكُلّي لهذا النّظام الكَنْعَاني في أواخر القرن العاشر ق. م. . ويُعَدُّ شيشانق، الذي قام بحَمْلَة في المنطقة عام 926 ق. م، المُرشَّح الأكثر احتمالاً وراء تلك الموجة من الدّمار[1] . تبدو قائمة "الكرنك" ونتائج التّنقيبات الأخيرة مُشيرة لضربة شيشانق للشّبكة النّامية من القُرَى الإسرائيليَّة المُبكِّرة في المُرتفعات أيضاً.

لكنَّ حَمْلَة شيشانق لم تُؤدِّ إلى السَّيْطَرَة الدّائمة على كَنْعَان. عندما وضعت الحرب أوزارها، كان واضحاً أنَّ الضّربة في المُرتفعات كانت عابرة فقط (كان أثرها الظّاهر الوحيد هجرة بعض القُرَى شمال أُورشليم). إلاَّ أنَّ الضّربة التي وُجِّهت ضدَّ المُدُن الكَنْعَانيَّة في وادي يَزْرَعيل كانت قاصمة ونهائيَّة. وكان لها آثار عظيمة؛ لأنَّ دمار آخر دولة من دُول المُدُن الكَنْعَانيَّة فَتَحَ فُرصَة سانحة أمام سكَّان المُرتفعات الشّماليَّة، الذين كانوا - من قبلُ - قد بدؤوا يمرُّون بفترة من النُّمُوِّ الاقتصادي والسُّكَّاني الكبير. لقد فَتَحَ ذلك الدّمارُ الطّريقَ أمام بُرُوز مَمْلَكَة تامَّة قادرة على التَّوسُّع من مناطق المُرتفعات الشّماليَّة باتِّجاه السُّهُول المُجاورة في أواخر القرن العاشر نفسه، أو من المُحتمل أكثر في بداية القرن التّاسع ق. م. .

بعيداً إلى الجنوب؛ في المُرتفعات الجنوبيَّة؛ حيثُ تُوجد بضعة قُرَى تحيط بأُورشليم، واصل النّظام القديم للقُرَى المُتناثرة والرّعويَّة حياته. وعلى الرّغم من قَصَص الكتاب المُقدَّس التّالية عن الإمبراطُوريَّة العظيمة لداود وسُلَيْمَان، اللَّذَيْن سيفتحان ويُديران البلاد من "دان" في أقصى الشّمال إلى "بئر سبع" في أقصى الجنوب، لن تُوجد دولة حقيقيَّة هُنالك قبل أنْ تمرَّ مئتا سنة أُخرى.

أربع نُبُوءات حقيقيَّة:

لماذا يروي الكتاب المُقدَّس العبْريّ قصَّة الانشقاق الدِّيني وانفصال إسرائيل عن يهُوذا تلك في مثل هذا التّعارض العظيم مع الشّواهد التّاريخيَّة؟ إذا كانت الإيقاعات القديمة للحياة في مُرتفعات كَنْعَان قد فَرَضَتْ ثقافتَيْن إقليميَّتَيْن مُتميِّزتَيْن، وإذا كانت دولتا إسرائيل ويهُوذا

---

(1) يطرح بديل شيشانق مُشكلة: لماذا قام الملك المصري بتحطيم المُدُن في وادي يَزْرَعيل إذا كان ينوي الاستمرار في السّيطرة على كنعان؟ ولماذا يقوم بنصب مسلَّة نصر مُتقنة في مدينة مُدمَّرة مثل "مَجَدُّو"؟ إنَّ المُرشَّح المُحتمل الآخر كعامل لدمار المُدُن الكنعانيَّة يُمكن أنْ يكون مملكة إسرائيل الشّماليَّة في أيَّامها الأولى. (المُؤلّف).

مُختلفتَيْن جداً في طبيعتهما مُنْذُ البداية ذاتها ، فلماذا قام الكتاب المُقدَّس ـ بكُلِّ ذلك الإصرار المُنظَّم والمُقنع ـ بتصويرهما كَدَولتَيْن توءمَيْن ؟

هُناك أربعة نُبُوءات مُستقبليَّة أوحى اللهُ بها ، ثمَّ نَسْجُهَا وضمُّها ـ بنَحْو حاذق وماهر جداً ـ ضمن قصَّة انتهاء الحُكْم الملكي المُتَّحد ، وتأسيس مَمْلكَة إسرائيل المُستقلَّة ، تُلمِّح للجواب عن ذلك السُّؤال .

هذه النُّبُوءات المُوحى بها ـ التي كُتِبَت بشَكْل اتِّصال مُباشر بَيْن الله وعدد من الأنبياء ـ تُمثِّل ـ في الواقع ـ جُهُود جيل لاحق من المُفسِّرين اليَهُوذَويِّيْن ، الذين سعوا لتوضيح تبدُّلات التّاريخ والتَّغيُّرات غير المُتوقَّعة لمُجريات أحداثه .

اعتقد شعب يهُوذا أنَّ اللهَ أعطى وعده لداود أنَّ سُلالته ستكون آمنة إلى الأبد ، ومُستقرَّة في أُورشليم (القُدْس) . رغم ذلك وَجَدَتْ دولة يهُوذا نفسها تعيش لقُرُون عديدة في ظلِّ إسرائيل ، الذي كان مُلُوكها لا يُعيرون أُورشليم (القُدْس) إلاَّ اهتماماً ضئيلاً . كيف أمكن لهذا أنْ يحدث؟ تضع قصَّة الكتاب المُقدَّس اللاَّئمة مُباشرة على الخيانة الدِّينيَّة لأحد مُلُوك يهُوذا . وتعد بأنَّ انقسام إسرائيل إلى مَمْلكَتَيْن مُتنافستَيْن سيكون عقاباً مُؤقَّتاً فقط ، على ذنب عُضْو كبير من سُلالة داود المُباركة من الله .

لامت النُّبوءة الأُولى ـ بشَكْل قاطع ـ التّجاوزات الشّخصيَّة لابن داود : سُلَيْمَان ، وعدتَّها السّبب في تقسيم وحدة إسرائيل . وعلى الرّغم من أنَّ الكتاب المُقدَّس صوَّر سُلَيْمَان كأحد أعظم المُلُوك الذي لم يسبق له مثيل في كُلِّ الأزمنة ، ملكٌ حكيمٌ وغنيٌّ ، يحكم على أرضٍ تمتدُّ من الفُرات إلى حُدُود مصر ، إلاَّ أنَّه صوَّره ـ أيضاً ـ كَمُذنب آثم ، تزوَّج من نساء أجنبيَّات ، وأدْخَلَهُنَّ في حريمه الملَكي ، وهُو ـ بالضّبط ـ نوع الاتِّصال الذي حرَّمه يَهْوَه ـ بصرامة ـ على الإسرائيليِّيْن ، خشية أنْ تُميلَ الزّيجات مع النّساء الوَثَنيَّات قلوبَ أزواجهنَّ نحو عبادة الآلهة الأُخرى . وذلك ـ بالضّبط ـ ما يرويه الكتاب المُقدَّس :

[4 وكَانَ في زَمَان شَيْخُوخَة سُلَيْمَان أنَّ نساءهُ أمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلهَة أخرى ، ولَمْ يكُنْ قَلْبُهُ كَاملاً مَعَ الرَّبِّ إلَهه كَقَلْب دَاوُدَ أَبيه . 5 فَذَهَبَ سُلَيْمَان وَرَاءَ عَشْتُورَثَ إلَهَة الصَّيْدُونيِّيْن وَمَلْكُومَ رجْس العَمُّونيِّيْن . 6 وَعَملَ سُلَيْمَان الشَّرَّ في عَيْنَي الرَّبِّ ، ولَمْ يَتْبَع الرَّبَّ تَمَاماً كَدَاوُدَ

أَبيه . 7 حينَئذٍ بَنَى سُلَيْمَان مُرتفعةً لكَمُوشَ رجْس الْمُوآبِيِّين عَلَى الْجَبَل الذي تُجَاهَ أُورشـليم، وَلمُولَكَ رجْس بَني عَمُّونَ . 8 وَهكَذَا فَعَلَ لجَميع نسَائه الْغَريبَـات اللَّوَاتـي كُـنَّ يُوقـدْنَ وَيَذْبَحْـنَ لآلهَتهنَّ .] (سفر الْمُلُوك الأَوَّل 11/ 4 ـ 8).

وهكذا أصبح العقاب أمراً حتمياً لا يُمكن اجتنابه، لوريث داودي "لم يتَّبـع الـرَّبَّ تماماً، بَيْنما عمل ذلك داود أبوه" : [11فَقَالَ الرَّبُّ لسُلَيْمَان : منْ أَجْـل أَنَّ ذَلـكَ عنْـدَكَ، وَلَـمْ تَحْفَـظْ عَهْدي وَفَرَائضيَ التي أَوْصَيْتُكَ بهَا، فَإنِّي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ عَنْـكَ تَمْزيقـاً، وَأُعْطيهَا لعَبْدكَ . 12 إلاَّ إنِّي لاَ أَفْعَلُ ذَلكَ في أَيَّامكَ، منْ أَجْل دَاوُدَ أَبيكَ، بَلْ منْ يَد ابْنـكَ أُمَزِّقُهَا . 13عَلَـى أَنِّـي لاَ أُمَـزِّقُ منْـكَ الْمَمْلَكَـةَ كُلَّـهَا، بَـلْ أُعْطـي سـبْطاً وَاحـداً لابْنـكَ، لأَجْل دَاوُدَ عَبْـدي، وَلأَجْـل أُورشليم التي اخْتَرْتُهَا]. (سفر الْمُلُوك الأَوَّل 11/ 11 ـ 13).

هكذا تمَّ تعليق الوعد الأصلي لداود ـ وإنْ كان لم يُلْغَ بشَكْل كـامل ـ بسـبب ذلـك الذَّنـب الذي وَقَعَ به سُلَيْمَان.

تعاملت النُّبوءة الثَّانية مع "خادم سُلَيْمَان" الذي خَلَفَ داود في الحُكْـم. إنَّـه كـان "يَرَبْعـام بـن نابَاط"، من قبيلة "أفرايم" الإسرائيليَّة، الذي خَدَمَ في إدارة سُلَيْمَان كَمُوظَّف مسؤول عن التَّجنيد الإلزامي للعُمَّال بَيْن قبـائل الشَّـمال. وفـي يـوم مـن الأيَّـام ـ وهُـو عـائد فـي طريقـه مـن أُورشـليم (القُدْس) ـ قابل النَّبي "أخيَّا" الشَّيلوني" (من شيلوح)، الذي مزَّق كسائه الذي كان يلبسه إلى اثنتَـيْ عشرة قطعة، وأعطى "يَرَبْعام" منها عشر قُصاصات. كانت نُبوءة "أخيَّا" حاسمة ومصيريَّة :

[وَقَالَ ليَرُبْعَامَ : (خُذْ لنَفسكَ عَشَرَ قطعٍ، لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إلَهُ إسْـرَائيلَ : هَـأَنَذَا أُمَـزِّقُ الْمَمْلَكَةَ منْ يَد سُلَيْمَان، وَأُعْطيكَ عَشَرَةَ أَسْبَاطٍ . 32 وَيَكُونُ لَـهُ سـبْطٌ وَاحـدٌ مـنْ أَجْـل عَبْـدي دَاوُدَ وَمنْ أَجْل أُورشـليم الْمَدينَـة التـي اخْتَرْتُـهَا مـنْ كُـلِّ أَسْبَاط إسْـرَائيلَ، 33 لأَنَّـهُمْ تَرَكُونـي وَسَجَدُوا لعَشْتُورَثَ إلهَةُ الصيْدُونيِّين وَلكَمُـوشَ إلَـه الْمُوآبيِّيـن وَلمَلْكُومَ إلَـه بَنـي عَمُّـونَ، وَلَـمْ يَسْلُكُوا في طُرُقي ليَعْمَلُوا الْمُسْتَقيمَ في عَيْنَيَّ وَفَرَائضي وَأَحْكَامي كَدَاوُدَ أَبيه . 34 وَلاَ آخُذُ كُلَّ الْمَمْلَكَة منْ يَده، بَلْ أُصَيِّرُهُ رَئيساً كُلَّ أَيَّام حَيَاته لأَجْل دَاوُدَ عَبْـدي الـذي اخْتَرْتُـهُ الـذي حَفـظَ وَصَايَايَ وَفَرَائضي . 35 وَآخُذُ الْمَمْلَكَةَ منْ يَد ابْنه، وَأُعْطيكَ إيَّاهَا (أَيْ الأَسْبَاطَ الْعَشَـرَةَ). 36 وَأُعْطي ابْنَهُ سبْطاً وَاحداً؛ ليَكُونَ سرَاجٌ لدَاوُدَ عَبْدي كُلَّ الأَيَّام أَمَامي في أُورشليم الْمَدينَة التي

اخترتُهَا لنفسي لأضَعَ اسْمي فيهَا. 37 وآخُذُكَ فتَمْلكُ حسَبَ كُلِّ مَا تَشْتَهي نَفسُكَ، وتَكُونُ مَلكاً عَلَى إسْرَائيلَ. 38 فَإذَا سَمعْتَ لكُلِّ مَا أُوصيكَ به وَسَلَكْتَ في طُرُقي وَفَعَلْتَ مَا هُو مُسْتَقيمٌ في عَيْنَيَّ وَحفظْتَ فَرَائضي وَوَصَايَايَ كَمَا فَعَلَ دَاوُدُ عَبْدي، أَكُونُ مَعَكَ، وَأَبْني لَكَ بَيْتاً آمناً كَمَا بَنَيْتُ لدَاوُدَ، وَأُعْطيكَ إسْرَائيلَ. 39 وَأُذلُّ نَسْلَ دَاوُدَ منْ أَجْل هَذَا، وَلَكنْ؛ لاَ كُلَّ الأَيَّام).] (سفر المُلُوك الأوَّل 11/ 31 ـ 39).

وعلى خلاف وعده لداود، كان وعدُ الله لـ "يَرُبْعام" مشروطاً: كان يَـهْوَه سيمنح دولته الأمن والاستقرار طالما عمل ما هُو صحيح في نَظَر الله فقط. لكنَّه لم يفعل:

[وَبَنَى يَرُبْعَامُ شَكيمَ في جَبَل أَفْرَايمَ وَسَكَنَ بهَا. ثُمَّ خَرَجَ منْ هُنَاكَ وَبَنَى فَنُوئيلَ. 26 وَقَالَ يَرُبْعَامُ في قَلْبه: (الآنَ تَرْجعُ الْمَمْلَكَةُ إلَى بَيْت دَاوُدَ. 27 إنْ صَعدَ هَذَا الشَّعْبُ ليُقَرِّبُوا ذَبَائحَ في بَيْت الرَّبِّ في أُورشليم يَرْجعْ قَلْبُ هَذَا الشَّعْب إلَى سَيِّدهمْ إلَى رَحُبْعَامَ مَلك يهُوذا وَيَقْتُلُوني وَيَرْجعُوا إلَى رَحُبْعَامَ مَلك يهُوذا). 28 فَاسْتَشَارَ الْمَلكُ، وَعَملَ عجْلَيْ ذَهَب، وَقَالَ لَهُمْ: (كَثيرٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تَصْعَدُوا إلَى أُورشليم. هُوَذَا آلهَتُكَ يَا إسْرَائيلُ الذينَ أَصْعَدُوكَ منْ أَرْض مصْرَ). 29 وَوَضَعَ وَاحداً في بَيْت إيلَ، وَجَعَلَ الآخَرَ في دَانَ.] (سفر المُلُوك الأوَّل 12/ 25 ـ 30).

تلقَّى الملك "يَرُبْعام" ـ الذي جلس على العرش حديثاً ـ رُؤيا عن هلاكه أحدثت صدمةً له. أثناء أدائه للطُّقُوس في ضريح العجل الذّهبي لبيت إيل، في مهرجان ديني خريفي قُصد به ـ في الغالب ـ صرف الحُجَّاج عن الاحتفالات في أُورشليم (القُدْس)، واجه "يَرُبْعام" في المذبح شخصيَّة شبيهة بنبيٍّ، إلاَّ أنَّ الكتاب المُقدَّس عرَّفها فقط بعبارة: "رجل الله":

[وَإذَا برَجُل اللَّه قَدْ أَتَى منْ يهُوذا بكَلاَم الرَّبِّ إلَى بَيْت إيلَ، وَيَرُبْعَامُ وَاقفٌ لَدَى الْمَذْبَح ليُوقدَ. 2 فَنَادَى نَحْوَ الْمَذْبَح بكَلاَم الرَّبِّ: (يَا مَذْبَحُ يَا مَذْبَحُ، هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هُوَذَا سَيُولَدُ لبَيْت دَاوُدَ ابْنٌ اسْمُهُ يُوشيَّا، وَيَذْبَحُ عَلَيْكَ كَهَنَةَ الْمُرتفعات الذينَ يُوقدُونَ عَلَيْكَ، وَتُحْرَقُ عَلَيْكَ عظَامُ النَّاس)]. (سفر المُلُوك الأوَّل 13/ 1 ـ 2).

هذه نُبُوءة فريدة؛ لأنَّ "رجل الله" هذا كَشَفَ في نُبُوأته عن اسم ملك مُعيَّن ليهُوذا، كان سيأتي بعد ثلاثة قُرُون، ويأمر بتدمير نفس ذلك المعبد، ويقْتُل كَهَنَته، وتدنيس مذبحه ببقاياهم. إنَّ هذا يُشبه شيئاً مثل قراءة كتاب عن تاريخ قصَّة العُبُوديَّة والاسترقاق أَلْفَ في

أمريكا المُستعمرات في القرن السّابع عشر، وجاء في أحد مقاطعه توقُّع ولادة مارتن لُوثر كنج!. وذلك ليس كُلّ شيء: لقد هزَّت النُّبوءة "يَرُبْعام" بعُمق، ومُباشرة ـ بعد ذلك ـ مرض ابنه أبيًا. وَمَضَتْ زوجة "يَرُبْعام" فوراً إلى مركز العبادة القديم في شيلوح للتّشاور مع النّبي "أخيًّا"، ذلك النّبي ذاته الذي توقَّع بأنَّ "يَرُبْعام" سيحكم قريباً كَمَلك على القبائل الشّماليَّة. لم يكن لدى "أخيًّا" كلمات الاطمئنان للأُمّ القلقة. بل أصدر ـ بَدَلاً من ذلك ـ النُّبوءة الرّابعة، إحدى أكثر نُبُوءات الكتاب المُقدَّس العبْريّ إرهاباً:

[7 اذْهَبِي قُولِي لِيَرُبْعَامَ: هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: مِنْ أَجْلِ أَنِّي قَدْ رَفَعْتُكَ مِنْ وَسَطِ الشَّعْبِ، وَجَعَلْتُكَ رَئِيساً عَلَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ، 8 وَشَقَقْتُ الْمَمْلَكَةَ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ، وَأَعْطَيْتُكَ إِيَّاهَا، وَلَمْ تَكُنْ كَعَبْدِي دَاوُدَ، الذي حَفِظَ وَصَايَايَ، وَالذي سَارَ وَرَائِي بِكُلِّ قَلْبِه؛ لِيَفْعَلَ مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ فَقَطْ فِي عَيْنَيَّ، 9 وَقَدْ سَاءَ عَمَلُكَ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الذينَ كَانُوا قَبْلَكَ، فَسِرْتَ، وَعَمِلْتَ لِنَفْسِكَ آلِهَةً أُخرى، وَمَسْبُوكَاتٍ لِتُغِيظَنِي، وَقَدْ طَرَحْتَنِي وَرَاءَ ظَهْرِكَ، 10 لِذلِكَ؛ هَئَنَذَا جَالِبٌ شَرّاً عَلَى بَيْتِ يَرُبْعَامَ، وَأَقْطَعُ لِيَرُبْعَامَ كُلَّ ذَكَرٍ مَحْجُوزاً وَمُطْلَقاً فِي إِسْرَائِيلَ. وَأَنْزِعُ آخِرَ بَيْتِ يَرُبْعَامَ كَمَا يُنْزَعُ الْبَعْرُ حَتَّى يَفْنَى. 11 مَنْ مَاتَ لِيَرُبْعَامَ فِي الْمَدِينَةِ تَأْكُلُهُ الْكِلاَبُ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْحَقْلِ تَأْكُلُهُ طُيُورُ السَّمَاءِ؛ لأَنَّ الرَّبَّ تَكَلَّمَ. 12 وَأَنْتِ، فَقُومِي، وَانْطَلِقِي إِلَى بَيْتِك، وَعِنْدَ دُخُولِ رِجْلَيْكِ الْمَدِينَةَ يَمُوتُ الْوَلَدُ. 13 وَيَنْدُبُهُ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ، وَيَدْفِنُونَهُ؛ لأَنَّ هذَا وَحْدَهُ مِنْ يَرُبْعَامَ يَدْخُلُ الْقَبْرَ؛ لأَنَّهُ وُجِدَ فِيهِ أَمْرٌ صَالِحٌ نَحْوَ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ يَرُبْعَامَ. 14 وَيُقِيمُ الرَّبُّ لِنَفْسِه مَلِكاً عَلَى إِسْرَائِيلَ، يَقْرِضُ بَيْتَ يَرُبْعَامَ هذَا الْيَوْمَ. وَمَاذَا؟ الآنَ أَيْضاً! 15 وَيَضْرِبُ الرَّبُّ إِسْرَائِيلَ كَاهْتِزَازِ الْقَصَبِ فِي الْمَاءِ، وَيَسْتَأْصِلُ إِسْرَائِيلَ عَنْ هَذه الأَرْضِ الصَّالِحَة التي أَعْطَاهَا لآبَائِهِمْ، وَيُبَدِّدُهُمْ إِلَى عَبْرِ النَّهْرِ؛ لأَنَّهُمْ عَمِلُوا سَوَارِيَهُمْ، وَأَغَاظُوا الرَّبَّ. 16 وَيَدْفَعُ إِسْرَائِيلَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَا يَرُبْعَامَ الذي أَخْطَأَ، وَجَعَلَ إِسْرَائِيلَ يُخْطِئُ]. (سفر المُلوك الأوَّل 14/ 7ـ16).

إنَّ دقَّة النُّبوءة السّابقة لـ "رجل الله" تُقدِّم لنا العصر الذي كُتِبَت فيه. عاش الملك الدّاودي "يُوشيًّا" ـ الذي فَتَحَ بيت إيل، وحطَّم المذبح فيها ـ في نهاية القرن السّابع ق.م.. لماذا تحتاج قصَّة حَدَثَتْ في أواخر القرن العاشر ق.م، إلى الإتيان بشخصيَّة من المُستقبل البعيد لهذه

الدّرجة؟ ما سبب وَصْف ما سيفعله ملك مُستقيم مُتديِّن يُسمَّى "يُوشيَّا"؟ إنَّ الإجابة تُشابه كثيراً ما اقترحناه لتفسير لماذا كانت قَصَص الآباء، والخُرُوج، وغزو كَنْعَان، تفيض بتلميحات خاصَّة بالقرن السّابع. إنَّ الحقيقة التي لا مفرَّ منها هي أنَّ سفْرَيْ المُلُوك هُما احتجاجان دينيَّان عاطفيَّان كُتبا في القرن السّابع ق. م، بنَفْس قَدْر كونهما كتابَيْن تاريخيَّيْن.

مع مُرُور الوقت؛ أصبحت إسرائيل ذاكرة مُتلاشية، بمُدُنها المُدمَّرة والأعداد الكبيرة من أهاليها الذين تمَّ نَفْيُهُم إلى الزّوايا البعيدة للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة. ولكنَّ يهُوذا كانت في تلك الأثناء، تعيش في ازدهار وتُطَوُّر طُمُوحات إقليميَّة، وتدَّعي أنَّها الوريث الشَّرْعي الوحيد لأراضي إسرائيل الواسعة. كانت إيديُولُوجيَّة ولاهُوت مُؤرِّخ الفترة المُتأخِّرة من الحُكْم المَلَكي مُستندة على عدَّة أعمدة، كان واحداً من أهمِّها هُو فكرة أنْ تكون العبادة الإسرائيليَّة مُتمركزة - تماماً - في هيكل القُدْس "أُورشليم". ومن هُنا؛ فلابُدَّ أنَّه كان يُنْظَر إلى مراكز العبادة الشّماليَّة المُنافسة في بيت إيل، التي لا تبعد كثيراً عن أُورشليم (القُدْس)، كتَهديد حتَّى قبل تدمير المَمْلكَة الشّماليَّة. والأسوأ أنَّها كانت ماتزال فعَّالة في أوائل القرن السّابع، جاذبة إليها - احتمالاً - السُّكَّان الذين يعيشون في أراضي المَمْلَكَة الشّماليَّة السّابقة، والذين كان أغلبهم من الإسرائيليِّين، الذين لم يتمَّ نَفْيُهُمْ. وكان هذا يُمثِّل تحدِّياً خطيراً للطُّمُوحات السّياسيَّة، والأراضيَّة، واللاَّهُوتيَّة ليهُوذا في أيَّام الملك "يُوشيَّا". ولهذا؛ أصبح سُقُوط إسرائيل الحتمي - وانتصار "يُوشيَّا" - فكرة مركزيَّة في رواية الكتاب المُقدَّس العبْريّ.

قصَّة حذرة جداً:

هذه هي الأسباب التي جَعَلَتْ المُؤرِّخ التّثنوي، في كُلِّ أنحاء وَصْفه لتاريخ المَمْلَكَة الشّماليَّة، ينقل للقارئ رسالة ثُنائيَّة، ومُتناقضة لحدٍّ ما. فمن جهة؛ يصف يهُوذا وإسرائيل كَدَولتَيْن شقيقتَيْن؛ ومن ناحية أُخرى؛ يُطَوِّرُ تناقضاً قويّاً بَيْنهما. لقد كان لدى "يُوشيَّا" طُمُوح في التّوسُّع نحو الشّمال، والسَّيْطَرَة على أراضي المُرتفعات (التّلال والهضاب)، التي كانت في يوم من الأيَّام جُزءاً من المَمْلَكَة الشّماليَّة. لذلك؛ يدعم الكتابُ المُقدَّس العبْريّ هذا الطُّمُوحَ، ويُؤيِّده ببيانه؛ لكون المَمْلَكَة الشّماليَّة إنَّما أُسِّست في أراضي الحُكْم المَلكي المُتَّحد الأُسطُوري،

الذي كانت تتمُّ إدارته من أُورشليم (القُدْس)؛ وأنَّها كانت دولة إسرائيليَّة شقيقة؛ وأنَّ شعبها كان من الإسرائيليِّين الذين ينبغي عليهم العبادة في أُورشليم (القُدْس)؛ وأنَّ الإسرائيليِّين الذين مايزالون يعيشون في تلك الأراضي لابُدَّ أنْ يُوَلُّوا وُجُوهَهُم شَطرَ أُورشليم (القُدْس)؛ وأنَّ "يُوشيَّا"، وارث العرش الدّاودي ووارث وعد يَهْوَه الأبدي لداود، هُو الوارث الشَّرْعي الوحيد لأراضي إسرائيل المقهورة. ومن النّاحية الأُخرى؛ كان على مُؤلِّفي الكتاب المُقدَّس العبْريّ أنْ يُزيلوا أيَّ صفة شَرْعيَّة عن الطُّقُوس الشّماليَّة - خاصَّة في معبد بيت إيل - ليُبيِّنُوا أنَّ التّقاليد الدِّينيَّة المُتميِّزة للملكة الشّماليَّة كانت كُلُّها شرٌّ يجب القضاء عليه، واستبداله بالعبادة المركزيَّة في الهيكل (المعبد) في أُورشليم (القُدْس).

إنَّ التّاريخ التّثنوي يُنجز كُلَّ ذلك. في نهاية سفْر صموئيل الثّاني يظهر داود التّقي مُؤسِّساً لإمبراطُوريَّة عظيمة. وفي بداية سفْر المُلُوك الأوَّل، يصل ابنه سُلَيْمَان للعرش، ويُواصل الازدهار، لكنَّ الثّروة والازدهار لم يكونا كافيَيْن. بل - على العكس - لقد جلبا شُؤم الوَثَنيَّة. وقادت خطيئة سُلَيْمَان إلى انتهاء العصر الذّهبي. واختار يَهْوَه يَرُبْعَامَ لقيادة الدّولة المُنْفَصلة في الشّمال، ليكون داوداً ثانياً، لكنَّ يَرُبْعَامَ يُخطئُ ويرتكب الإثم أكثر من سُلَيْمَان، وبالتّالي؛ تُضيع المَمْلَكَة الشّماليَّة فُرصتها الوحيدة في التّاريخ، ويُصبح بقيَّة تاريخ الشّمال سُقُوطاً حزيناً نحو الدّمار. إلاَّ أنَّه، تحت حُكْم "يُوشيَّا" يأتي الزّمان ليهُوذا لتصعد نحو العَظَمَة، ولكنْ؛ لأجل إحياء العصر الذّهبي، يحتاج داود الجديد هذا - أوَّلاً - إلى إبطال خطيئة سُلَيْمَان ويَرُبْعَامَ. إنَّ الطّريق نحو العَظَمَة لابُدَّ أنْ يمُرَّ عبْر تطهير إسرائيل، وبالتّحديد؛ تدمير المعبد في بيت إيل. هذا سوف يقود إلى إعادة توحيد كُلِّ إسرائيل - شعباً وأرضاً - تحت معبد يَهْوَه وعرش داود في أُورشليم (القُدْس).

والأمر الهامُّ الذي يجب تذكُّره إذاً، أنَّ قصَّة الكتاب المُقدَّس العبْريّ لا تنظر إلى انقسام الحُكْم المَلَكي المُتَّحد لداود وسُلَيْمَان كَوَاقعة نهائيَّة، بل كَسُوء حظٍّ مُؤقَّت. وأنَّه مايزال هُناك إمكانيَّة لنهاية سعيدة. إذا صمَّم النّاس على تغيير طريقتهم والعيش من جديد كأُناس أتقياء مُقدَّسين بعيداً عن الأصنام الأجنبيَّة، وفتنتها وإغراءاتها، فإنَّ يَهْوَه سيتغلَّب على كُلِّ أعدائهم، ويُعطيهم الرّاحة الأبديَّة، ورضاه في أرضهم الموعودة.

الفَصْل (7):

مَمْلَكَة إسرائيل الأُولى المنسيَّة (884 . 842 ق.م)

العُنْف، عبادة الأوثان، والطَّمَع، هذه هي علامات مَمْلَكَة إسرائيل الشّماليَّة كما يُصوِّرها سفرا المُلوك الأوَّل والثّاني بتفصيل دموي. بعد "يَرُبْعَامَ"، كان الأوغاد الرّئيسيُّون للقصَّة هُم "العُمْرِيِّين"، وهُم أُسرة مالكة شماليَّة عظيمة أسَّسها قائد عسكري إسرائيلي سابق اسمه "عُمْري"، علا شأن خُلفائه، وبلغوا من القُوَّة درجة مكَّنتهم - في النّهاية - من وَضْع إحدى أميراتهم على عرش مَمْلَكَة يهُوذا أيضاً. يتَّهم الكتاب المُقدَّس العبْريّ الزَّوجَيْن "العُمْرِيَّين" الشّهيرَيْن جداً - الملك "آخآب" وزوجته الأميرة الفينيقيَّة سيِّئة السّمعة "إيزَابَل" - بارتكاب بعض أخطر الذُّنُوب من وجهة نَظَر الكتاب المُقدَّس، لقد جَلَبَا - مراراً وتكراراً - عبادة الآلهة الأجنبيَّة إلى أرض إسرائيل، وَقَتَلا الكَهَنَة المُخلصين، وأنبياء يَهْوَه، وصادرا مُمتلكاتهم بلا حقٍّ، وانتَهَكَا قداسة تقاليد إسرائيل المُقدَّسة بكُلِّ غطرسة وقذارة.

يُذْكَرُ "العُمْرِيُّون" كأكثر الشّخصيَّات حقارةً في تاريخ الكتاب المُقدَّس العبْريّ، ولكنَّ الرُّؤى الآثاريَّة الحديثة لمَمْلَكَة إسرائيل تُعطينا منظوراً مُختلفاً كُلِّيّاً عن عهدهم. في الحقيقة؛ لو كان مُؤلِّفو الكتاب المُقدَّس العبْريّ ومُحرِّروه مُؤرِّخين بالمعنى العصري الحديث، لربَّما قالوا إنَّ "آخآب" كان ملكاً عظيماً، وإنَّه أوَّل مَنْ أخذت دولة إسرائيل في عهده أهمِّيَّة بارزة في السّاحة الدّوليَّة، وإنَّ زواجه من ابنة الملك الفينيقي "أَثْبَعَل" كان ضربةً دبلُوماسيَّةً دُوَلِيَّة رائعةً. ولربَّما قالوا كذلك إنَّ العُمْرِيِّين بنوا مُدُناً رائعة لتكون مراكز إداريَّة لمَمْلَكَتهم المتوَسِّعة. ولربَّما قالوا بأنَّ "آخآب" وأباه "عُمْري" من قبله، نَجَحَا في بناء أحد أقوى الجُيُوش في المنطقة - تمكّنا بواسطته من فَتْح أراضٍ كثيرة في الشّمال البعيد والضفَّة الشّرقيَّة للأُردُن. وبالطّبع؛ لربَّما ذكروا أيضاً، بأنَّ "عُمْري" و"آخآب" لم يكونا أتقياء جداً، وبأنَّهما كانا - أحياناً - مُتَّبعَيْن

لنزواتهما، ومُتصرِّفَيْن بقسوة، لكنَّ الأمر نفسه يُمكن أنْ يُقال - عملياً - عن كُلّ مُلُوك الشّرق الأدنى القديم.

في الحقيقة؛ تمتَّعت إسرائيل - كدولة - بثروة طبيعيَّة، وارتباطات تجاريَّة واسعة، جَعَلَتْ منها دولة ناجحة، لا يُمكن التَّفرقة بَيْنها وبَيْن سائر الممالك المُزدهرة الأُخرى في المنطقة. وكما ذكرنا في الفَصْل السّابق، كان لدى إسرائيل التّنظيم الضّروري للقيام بمشاريع عُمرانيَّة تذكاريَّة ضخمة، ولتأسيس جيش مُحترف ونظام إداري مُحترف، ولتطوير تدرُّج هَرَميّ استيطاني مُعقَّد من المُدُن والبلدات والقُرَى، جَعَلَ منها أوَّل مَمْلَكَة إسرائيل تامَّة بكُلّ معنى الكلمة. كانت صفتها وأهدافها وإنجازاتها مُختلفة - بشَكْل جذري - عن صفة وأهداف وإنجازات مَمْلَكَة يهُوذا. ولذلك؛ تمَّ طَمْسُ صُورتهم الحقيقيَّة بشَكْل كامل تقريباً عبْر الإدانات التي وجَّهها إليهم الكتاب المُقدَّس العبْريّ، الذي أيَّد الادِّعاءات التّالية للجنوبيِّين من سُلالة داود في حقِّهم للسَّيْطَرَة عليهم، وتنقيصهم، وتشويه صُورة كُلّ شيء تقريباً قامت به سُلالة "العُمْرِيِّين" الشّماليَّة.

صُعُود وسُقُوط بيت 'عُمْري':

يُقدِّم سفرا المُلُوك وَصْفاً سطحياً فقط، للعُقُود العاصفة الأُولى من تاريخ مَمْلَكَة إسرائيل المُستقلَّة. بعد حُكْم "يَرُبْعَامَ" الذي دام 22 سنة، خَلَفَهُ ابنه "ناداب"، الذي أُطيحَ به بانقلاب عسكري، قُضي فيه على كُلّ مَنْ بقي على قيد الحياة من أهل بيت "يَرُبْعَامَ" (وبذلك تحقَّقت كلمات النّبي "أَخيَّا" بدقَّة بأنْ لا أحد من وَرَثَة "يَرُبْعَامَ" سيبقى حيَّاً). أظهر الملك الجديد "بَعْشَا"، الذي كان - احتمالاً - قائداً عسكرياً سابقاً، طبيعته العُدوانيَّة فوراً بإعلانه الحرب على مَمْلَكَة يهُوذا، وتقدُّمه بقُوَّاته نحو أورشليم (القُدْس)، لكنَّه سُرعان ما أجبر على رَفْع ضغطه عن المَمْلَكَة الجنوبيَّة عندما غُزِيَتْ مَمْلَكَته نفسها منْ قِبَل ملك دمشق "بِنْهَدَدَ".

الجدول 3 الأسرة "العُمْرِيَّة"

الملك	التّواريخ(*)	شهادة الكتاب المُقدَّس	شاهد من خارج الكتاب المُقدَّس	المُكْتَشَفَات الآثارية
"عُمْري"	884 ـ 873 ق . م	تأسيس "السّامرة" .	مذكور في مسَلّة "ميشا" في مُوآب	تأسيس "السّامرة"
"آخاب"	873 ـ 852 ق . م	يتزوّج من الأميرة الفينيقيّة "إيزَابَل" ؛ ويبني بيتاً للإله "بعل" في "السّامرة" ؛ ويستولي غصباً على مزرعة الكرم لنابوت ؛ يتواجه مع النّبي إيليًا ؛ يدخل في عدّة حُرُوب مع الآراميّين ويموت في ساحة المعركة .	يذكر "شَلمانَصَّر الثّالث" قوّة عَرَبَات كبيرة لـ "آخاب" في معركة "قرقر" سنة 853 ق . م ؛ وربّما كانت مذكورة في نُقُوش تلّ "دان" .	فترة البناء الرّئيسيّة في "السّامرة" ؛ مُجَمَّع "يَزْرَعيل" ؛ قُصُور "مَجدُّو" ؛ سُور وبوّابة "حاصُوْر" .
"أحزيا"	852 ـ 851 ق . م	فترة حكْم قصيرة ، يمرض بعدها ويموت		
"يورام"	851ـ 842 ق . م	يهزم "مُوآب" ؛ ويُجْرَح في المعركة ضدّ "حَزائيل" ملك "آرام دمشق" ؛ نُبُوءة النّبي أليشَعُ .	يظهر أنّه مذكور في نُقُوش تلّ "دان" .	دمار مُجَمَّع "يَزْرَعيل" ؛ طبقات دمار أُخرى في مواقع أُخرى من الشّمال .

بعد موت "بَعْشَا" مُباشرة ، خُلعَ ابنه "أَيْلَةُ" في انتفاضة أُخرى للجيش ، تمّ خلالها إبادة بيت "بَعْشَا" (سفْر المُلُوك الأوّل 16/ 8 ـ 11) ، لكنّ زعيم الثُّوّار ، "زِمْري" ، الذي كان قائد عَرَبَة ، لم

(*) طبقاً لقاموس : Anchor Bible Dictionary "قاموس مُرتَكز الكتاب المُقدَّس" ، وكتاب : "الجدول الزّمني لمُلُوك إسرائيل ويهُوذا" ، لـ" غاليل" .

يتمكّن من الحُكْم سوى سبعة أيّام فقط. قام شعب إسرائيل بإعلان "عُمْري"، قائد الجيش، الملك التّالي لإسرائيل. وبعد حصار قصير للعاصمة المَلَكيَّة "ترْصَة" - وانتحار مُغتصب السُّلطة "زمْري" في نيران القَصْر - دعم "عُمْري" سُلطته، وأسَّس سُلالة حاكمة حَكَمَت المَمْلَكة الشّماليَّة لأربعين سنة تالية.

في السّنوات الاثنَتَيْ عشرة من عهده، بنى "عُمْري" عاصمة جديدة لنفسه في مكان يُسمَّى "السّامرة"، وَوَضَعَ أُسُسَ حُكْم مُستمرٌّ من سُلالته. ثُمَّ جاء "آخْاب" بن "عُمْري" إلى العرش، ليحكم إسرائيل لُمدَّة اثنَتَيْن وعشرين سنة. كان تقييم الكتاب المُقدَّس العبْريّ لـ "آخْاب" أقسى حتَّى من مُعالجته العادية للمُلُوك الشّماليِّين؛ حيثُ فصَّل مدى ارتباطه الأجنبي وَوَثَنيَّته، مع التّأكيد على زوجته الأجنبيَّة الشّهيرة، التي قادت زوجها إلى الكُفر:

[(و"آخْاب" ابن "عُمْري") عَملَ الشَّرَّ في عَيْنَي الرَّبِّ أكْثَرَ منْ جَميع الذينَ قَبْلَهُ. 31 وكَأنَّهُ كَانَ أمْراً زَهيداً سلُوكُهُ في خَطَايَا يَرُبْعَامَ بْن نَبَاطَ حتَّى اتَّخَذَ إيزَابَلَ ابْنَةَ أثْبَعَلَ مَلك الصَّيْدُونيِّين امْرَأَةً، وَعَبَدَ البَعْلَ وَسَجَدَ لَهُ. 32 وَأقَامَ مَذْبَحاً للبَعْل في بَيْت البَعْل الذي بَنَاهُ في "السّامرة". 33 وَعَملَ أخَابُ سَوَاريَ، وَزَادَ في العَمَل لإغَاظَة الرَّبِّ إلَه إسْرَائيلَ أكْثَرَ منْ جَميع مُلُوك إسْرَائيلَ الذينَ كَانُوا قَبْلَهُ.] (سفر المُلُوك الأوّل: 16/ 30 - 33).

يروي الكتاب المُقدَّس العبْريّ أنَّ "إيزَابَل" أيّدت الكَهَانَة الوَثَنيَّة في "السّامرة"، واستضافت على سفرتها المَلَكيَّة الواسعة [أربعمائة وخمسين من أنبياء بَعَلْ، وأربعمائة من أنبياء السّواري]، ثُمَّ أمرت بقَتْل كُلِّ أنبياء يَهْوَه في مَمْلَكَة إسرائيل.

وتستمرُّ رواية الكتاب المُقدَّس العبْريّ في تكريس مُعظم وَصْفها لحُكْم العُمْريِّين لبيان جرائمهم وآثامهم - ومعركة دهائهم المُستمرَّة ضدَّ "إيليَّا" ومحميِّه "أليشَع"، نبيَّان مشهوران ليَهْوَه كانا يتجوّلان في كافَّة أنحاء الشّمال. وسُرعان ما التقى "إيليَّا" بـ "آخْاب"، وَطَلَبَ أنْ يجتمع جميع أنبياء بَعَلْ وأنبياء السّواري الذين أكلوا على سفرة إيزَابَلَ في جبل الكرمل للمباهلة. وهُناك، أمام "كُلّ الشّعب" بنى كُلٌّ من الفريقَيْن مذبحاً لإلهه الخاصّ، وضَحَّى بثَورٍ فَوْقَهُ، مُتضرِّعاً لإلهه المُختار بأنْ يحرق الأُضحيَّة بالنّار (علامة على قبول القربان). وفي حين لم يستجب "بَعْل" لنداءات أنبيائه، أرسل يَهْوَه فوراً ناراً [أكَلَت المُحْرَقَةَ وَالحَطَبَ وَالحجَارَةَ

وَالتُّراب، وَلَحَسَت الْمِيَاهَ التي في الْقَنَاة. 39 فَلَمَّا رَأَى جَمِيعُ الشَّعْب ذَلِكَ سَقَطُوا عَلَى وُجُوههِمْ، وَقَالُوا: (الرَّبُّ هُو اللّهُ! الرَّبُّ هُو اللّهُ!). 40 فَقَالَ لَهُمْ إِيلِيًّا: (أَمْسكُوا أَنْبِيَاءَ الْبَعْل، وَلاَ يُفْلتْ منْهُمْ رَجُلٌ). فَأَمْسَكُوهُمْ، فَنَزَلَ بهمْ إِيلِيًّا إِلَى نَهْر قِيشُونَ، وَذَبَحَهُمْ هُنَاكَ][1] .

وكان ردُّ فعل الملكة "إيزَابَل" غاضباً وعنيفاً، فهرب "إيليًّا" بسُرعة إلى الصّحراء. وعندما وَصَلَ إلى البريَّة المقفرة في "حُوريب"، جبل الله، تلقّى وحياً قُدْسيّاً من الله. لقد تكلّم يَهْوَه مُباشرة إلى "إيليًّا"، وأعلن له نُبُوءة هلاك كُلّ بيت "عُمْري". وأمره يَهْوَه أنْ يدهن "حَزائيل"، مُنافس إسرائيل الأكثر خُطُورة، كَمَلك "آرام" دمشق. كما أمر "إيليًّا" - أيضاً - بدَهْن قائد "آخَاب" العسكري: "ياهو"، كَمَلك إسرائيل التّالي. وأخيراً؛ أمر يَهْوَه "إيليًّا" بجَعْل النبي "أليشَع" في مكانه. بهذه الأوامر الثّلاثة، قرَّر يَهْوَه مُعاقبة بيت "عُمْري" على ذُنُوبه وخطاياه:

[17 فَالذي يَنْجُو منْ سَيْف حَزَائيلَ يَقْتُلُهُ يَاهُو، وَالذي يَنْجُو منْ سَيْف يَاهُو يَقْتُلُهُ أَلِيشَعُ.] (سفْر الْمُلُوك الأوَّل 19/ 17).

إلاَّ أنَّ يَهْوَه أعطى المَمْلَكَة الشّماليَّة فُرصَة ثانية عندما جاء لإنقاذ إسرائيل عندما غزاها بنْهَدَد، ملك "آرام" دمشق، وحاصر "السّامرة". وأعطاها فُرصَة ثالثة عندما سمح لـ"آخَاب" بهزيمة بنْهَدَد في معركة قُرْب بحر الجليل في السّنة التّالية، لكنَّ "آخَاب" أثبت أنَّه لم يكن جديراً بذلك التّأييد الإلهي. لقد قرَّر أنْ يسمح ببقاء عدوِّه في مُقابل جوائز دُنيويَّة: إعادة المُدُن التي كانت سابقاً تابعة لمَمْلَكَة إسرائيل وحقّ تأسيس أسواق في دمشق. أخبر نبيٌّ ليَهْوَه "آخَابَ" بأنَّه سيدفع حياته ثمناً لعصيانه لأمر يَهْوَه، الذي كان قد أمر بقَتْل "بنْهَدَد" بحدِّ السّيف.

ثُمَّ يروي الكتاب المُقدَّس العبْريّ قصَّة حول السُّلُوك اللاَّأخلاقي للزَّوجَيْن الفاجرَيْن تجاه شعبهما، وهي خطيئة أُخرى كان عليهم أنْ يدفعا حياتهما ثمناً لها. فقد حَدَثَ أنْ امتلك رجل يُسمَّى "نابُوت" مزرعةَ عنب (كرمة) قُرْب قَصْر "آخَاب" في "يَزْرَعيلَ"، ووقفت تلك الكرمة في طريق خُطط تنمية "آخَاب". فعندما أراد "آخَاب" أنْ يُسيطر على تلك الأرض ليُوَسِّعَ قَصْره، عرض "آخَاب" على "نابُوت" عرضاً مُغرياً اعتقد أنَّه لا يُمكنه أنْ يرفضه: سوف يأخذ كرمة "نابُوت"، ويُعطيه واحدة أفضل منها بكثير، أو إذا فضَّل "نابُوت"، فسيدفع "آخَاب" له سعرها

(1) سِفْر المُلُوك الأوَّل: 18/ 39 - 40. (المُترجم).

نَقْدَاً، لكنَّ "نابُوت" لم يكن لـه مصلحـة فـي أنْ يفقـد ميراث أُسـرته لأيِّ سـبب كـان، وَرَفَـضَ عرض الملك بكُلِّ عناد. وكان لدى "إيزَابَل" زوجة "آخَاب" حلٌّ آخر: لقد لفَّقت دليلاً على كُفر وتجديف "نابُوت"، وجلست تتفرَّج ـ بسُرُور ـ علـى قيـام أهـالي "يَزْرَعيـلَ" برجـم "نـابُوت" حتَّـى الموت. وبمُجرَّد أنْ استولى "آخَاب" على ملكيَّة مزرعة العنب حتَّى ظهر النَّبي "إيليَّا" مـرَّة أُخـرى في موقع الحَدَث. كانت نُبُوءته رهيبه ترتعد لها الفرائص:

[19وَقُلْ لَهُ: هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: (هَلْ قَتَلْتَ وَوَرِثْتَ أَيْضاً؟ فِي الْمَكَـانِ الـذِي لَحَسَتْ فيه الْكِلاَبُ دَمَ نَابُوتَ تَلْحَسُ الْكِلاَبُ دَمَكَ أَنْتَ أَيْضاً). 20 فَقَالَ أَخْآبُ لإِيلِيَّا: (هَـلْ وَجَدْتَنِي يَـا عَدُوِّي؟)، فَقَالَ: (قَدْ وَجَدْتُكَ؛ لأَنَّكَ قَدْ بِعْتَ نَفْسَكَ لِعَمَلِ الشَّرِّ فِي عَيْنَـي الـرَّبِّ. 21 هَئَنَـذَا أَجْلِبُ عَلَيْكَ شَرّاً، وَأُبِيدُ نَسْلَكَ، وَأَقْطَعُ لأَخْآبَ كُلَّ ذَكَرٍ وَمَحْجُوزٍ وَمُطْلَـقٍ فـي إِسْرَائِيلَ. 22 وَأَجْعَلُ بَيْتَكَ كَبَيْت يَرُبْعَامَ بْن نَبَـاطَ، وكَبَيْـت بَعْشَـا بْـن أَخِيَّا، لأَجْـلِ الإِغَـاظَـة التي أَغْظْتَنِـي، وَجَعَلْتَ إِسْرَائِيلَ يُخْطِئُ).] (سفر المُلُوك الأوَّل 21/ 19 ـ 24).

في تلك الأثناء؛ عقدت مَمْلَكَة إسرائيل حلفاً مع مَمْلَكَة يهُوذا، قام بمُوجبه "يَهُوشَافَاط"، ملك يهُوذا، بضمِّ قُوَّاته إلى قُوَّات "آخَاب" ملك إسـرائيل، لشـنِّ حـرب ضـدَّ "آرام" دمشـق فـي "رَامُوت جلْعَادَ" في عبْر الأُردُن. ضُرِب "آخَاب" أثناء القتال بسهم، ومـات فـي أرض المعركـة. وأُعيد جثمانه إلى "السَّامرة"؛ ليُدفن بمراسـم مَلَكيَّـة، وعندمـا غُسـلَتْ عَرَبَتـه، لعقـت الكـلابُ دمَّه، في تحقيق دقيق وقاسٍ لنُبُوءة "إيليَّا".

ثُمَّ جاء "أَخَزيَا" بن "آخَاب" إلى العرش، وارتكب هُو ـ أيضاً ـ آثاماً خطيرةً. عندما أُصيـب بسبب سقُوطه من السُّلَّم في حُجرته العُلويَّة في "السَّامرة"، أرسل رُسُلاً لاستشارة "بَعْلَ زَبُـوبَ" إله مدينة الفلسطينيِّين "عَقْرون"، ليعرف منه فُرصَ تعافيه وشفائه. لكنَّ "إيليَّا"، عاقبـه لمُناشـدته صَنَمَاً ومعبوداً أجنبيَّاً، بَدَلاً من تضرُّعه ليَهْوَه، وأعلن موته الوشيك.

وأخيراً؛ اعتلـى العـرش "يَـهورام"، أخـو "أَخَزيَـا": الملـك الرَّابـع والأخـير مـن سُـلالة "العُمْرِيِّين". رداً على عصيانٍ قام به "ميشا"، ملك مُوآب، الذي كان لفترة طويلة تابعاً لإسـرائيل، سار "يَهورام" بجيشه ضدَّ مُوآب، وانضمَّ إليه "يَهُوشَافَاط"، ملك يـهُوذا، وملـكٌ آخـرُ لأدوم غـير مُسمَّىً. وتوقَّع النَّبي "أليشَع" النَّصر، فقط لأنَّ ملكاً ليـهُوذا، "يَهُوشَـافَاط"، كـان ضمـن الجيـش. وفي الحقيقة؛ هَزَمَ التَّحالفُ الإسرائيليُّ ـ اليَهُوذَويُّ ـ الأدوميُّ المُوآبيِّين، ودمَّر مُدُنهم.

إلاّ أنّ السُّلالة العُمْريَّة لم تستطع - في النّهاية - أنْ تفرَّ من قَدَرها النّهائي المُتجلّي بالدّمار. مع صُعُود "حَزائيل" ملكاً على دمشق، بدأت القُوَّة العسكريَّة والسّياسيَّة للسُّلالة "العُمْريَّة" بالانحدار. وَهَزَمَ "حَزائيلُ" جيشَ إسرائيل في "رَامُوت جلْعَاد"، وجُرح في المعركة "يَهورام" ملك إسرائيل جُرحاً شديداً. في تلك اللحظة العصيبة؛ أرسل "أليشَع" إحدى أبناء أنبياء يَهْوَه لدهن "ياهو"، قائد الجيش، ملكاً على إسرائيل، ليقوم بتوجيه الضّربة الأخيرة إلى بيت "آخاب". وهذا ما حَدَثَ فعلاً. عندما عاد الملك "يهورام" إلى قَصْر "العُمْريِّين" في "يَزْرَعيل" للتّداوي من جرُوحه برفقة الملك "أَخَزيَا" عاهل يهُوذا، إذا به يواجه "ياهو" (في كَرْم عنَب "نابُوت"، بشَكْل رمزي)، الذي وجَّه إلى قلب الملك سهماً، فقتله. وحاول "أَخَزيَا" الهرب، لكنّه جُرحَ، ومات في مدينة "مَجدُّو" القريبة، التي هرب إليها.

كانت تصفية عائلة "آخاب" قد اقتربت من ذروتها. دخل "ياهو" المجمَّع الملكي في "يَزْرَعيل" وأمر برمي "إيزَابَل" من نافذةٍ عاليةٍ في القَصْر. كما أَمَرَ "ياهو" خَدَمَه بأخْذ جُثّتها لدَفْنها، لكنّهم لم يكتشفوا إلاّ جُمجمتها وأقدامها، وراحة أيديها، في فناء القَصْر فقط، لقد أكلت الكلاب الضَّالَّة لحم "إيزَابَل"، كما حذَّرت منه نُبُوءة "إيليَّا" الرّهيبة. في هذه الأثناء، تمَّ ذَبْحُ جميع أبناء ملك إسرائيل السّابق، الذين كانوا يعيشون في "السّامرة"، وكان مجموعهم سبعين ابناً، ووُضعَت رُؤُوسهم في سلالٍ، وأُرْسلَتْ إلى "ياهو" في "يَزْرَعيل". أَمَرَ "ياهو" بوَضْع تلك الرُّؤُوس فوق بعضها، في كومة، تكون أمام أنظار عامَّة النّاس جميعاً، عند المدخل إلى بوّابة المدينة، ثُمَّ انطلق "ياهو" نحو "السّامرة"؛ حيثُ قَتَلَ كُلَّ مَنْ بقي من بيت "آخاب". وهكذا؛ انقرضت سُلالة "العُمْريِّين" إلى الأبد، وتحقَّقت النُّبُوءة الفظيعة لـ"إيليَّا" حتَّى آخر حرفٍ منها.

الحُدُود البعيدة والقُوَّة العسكريَّة:

إنَّ مأساة بلاط بيت "عُمْري" قصَّة كلاسيكيَّة أدبيَّة، مليئة بالشّخصيَّات الحَيَويَّة، والمشاهد المسرحيَّة، دَفَعَتْ فيها عائلة مالكة ثمن الجرائم التي ارتكبتها بحقِّ شعبها، تمثَّل بنهايتها الدّمويَّة. لا شكَّ أنَّ ذكريات عهد "آخاب" و"إيزَابَل" بقيت حيَّة لقُرُون عديدة، كما نراه واضحاً من إدراجها بمثل هذه الطّريقة البارزة في التّاريخ التّثنوي، الذي دُوِّنَ على مدى مئتَيْ سنة بعد وفاتهما. ومع ذلك؛ فإنَّ هذه القصَّة في الكتاب المُقدَّس العبْريّ مليئة جداً بالتّناقضات والمُفارقات التّاريخيَّة،

ومتأثِّرة ـ بشكْل واضح ـ بالعقائد اللاَّهُوتيَّة لكُتَّاب القرن السَّابع ق . م ، الأمر الذي يدعو لاعتبارها حكاية تاريخيَّة أكثر من اعتبارها سجلاً تاريخيَّاً دقيقاً وحقيقيَّاً . أحد التَّناقضات في تلك الرِّواية ما ترويه من قيام بنْهَدَد الدِّمشقي بغزو "السَّامرة" في عهد "آخآب" ، مع أنَّ هذا الغزو لم يتمَّ ـ في الواقع ـ في عهد "آخآب" ، بل حَدَثَ في فترة لاحقة من تاريخ المَمْلَكَة الشَّماليَّة . كما أنَّ ذكْر تحالف إسرائيل مع ملك غير معروف الاسم لأدوم هُو ـ أيضاً ـ مُفارقة تاريخيَّة ؛ لأنَّه ليس هُناك أيُّ دليل على وُجُود حكْم مَلَكي في أدوم إلاَّ بعد مئة سنة من زمن العُمْرِيِّين .

في الحقيقة ؛ إذا استخرجنا المُفارقات التَّاريخيَّة وقَصَص التَّهديدات التي صَدَرَتْ والنُّبوءات التي تحقَّقت فلن يبقى إلاَّ مقدار ضئيل جداً من المادَّة التَّاريخيَّة في رواية الكتاب المُقدَّس العبْريّ القابلة للتَّحقيق والإثبات ، ما عدا تسلسل المُلُوك الإسرائيليِّين وبعض أشهر مشاريعهم البنائيَّة والمناطق العامَّة للنَّشاط العسكري .

لحُسن الحظِّ ـ ولأوَّل مرَّة في تاريخ إسرائيل ـ تُوجد هُناك بعض المصادر الخارجيَّة المُهمَّة للمعلومات التَّاريخيَّة التي تسمح لنا برُؤية "العُمْرِيِّين" من منظور مُختلف : كَحُكَّام أقوياء عسكريَّاً ، لأحد أقوى الدُّول في الشَّرق الأدنى . مفتاح هذا الفَهْم الجديد هُو الظُّهُور المُفاجئ للنُّقُوش التَّذكاريَّة الذي يُشير ـ مُباشرة ـ إلى مَمْلَكَة إسرائيل . إنَّ أوَّل ذكْر للمَمْلَكَة الشَّماليَّة في عهد "العُمْرِيِّين" ليس عَرَضيَّاً . إنَّ تقدُّم الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة نحو غرب مركزها الأصلي في بلاد ما بَيْن النَّهرَيْن ـ مع نظامها الإداري المُتطوِّر بشكْل كامل وتقاليدها الطَّويلة في تسجيل أفعال حُكَّامها في إعلانات عامَّة ـ أثَّر ـ بشكْل عميق ـ في ثقافة دُوَل مُتبلورة كإسرائيل ، و"آرام" ، و"مُوآب" .

بدءاً من القرن التَّاسع ق . م ، نجد ـ أخيراً ـ في سجلاَّت الآشُوريِّين أنفسهم ، كما في سجلاَّت قوىً أصغر شأناً في الشَّرق الأدنى ، بعض الشَّواهد المُباشرة على أحداث وشخصيَّات ذُكرت في نصِّ الكتاب المُقدَّس [1] .

---

(1) هذه الإشارة من المُؤلِّف تُؤكِّد ما ذكَرْنَاه في المُقدِّمة أنَّ نقص أو انعدام الشَّواهد الملموسة (من نُقُوش أو كتابات وما إلى ذلك) على حوادث أو شخصيَّات تاريخيَّة مُعيَّنة كإبراهيم وإسحق ويعقوب ومُوسى . . لا يكفي ـ وحده ـ دليلاً على عدم وُجُودها ، ذلك لأنَّه أولاً : في الفترات القديمة لم يكن تسجيل كُلِّ الأحداث في سجلاَّت أو ألواح ونحوها أمراً شائعاً ، بل بدأ ذلك التَّسجيل يشيع في مراحل مُتأخِّرة كالقرن التَّاسع ق . م . كما ذكَرَ . وثانياً ؛ لأنَّه ليس من الضَّروري أنْ تتمَّ كتابة نَقْش أو لوح أو سجلّ عن كُلِّ شخص أو كُلِّ حادثة في العالم حتَّى يثبت وُجُودها ! ! ! (المُترجم) .

في عهد داود وسُلَيْمَان، لم يكن التّنظيم السّياسي في المنطقة قد وَصَلَ - بعدُ - لمرحلة وُجُود نظام إداري شامل أونُقُوش تذكاريَّة. وبعد مضي قرن من الزّمن، في عهد "العُمْرِيِّين"، أدَّت العمليَّات الاقتصاديَّة الدّاخليَّة، والضُّغُوط السّياسيَّة الخارجيَّة إلى ظُهُور دُول وَطَنيَّة إقليميَّة "مُتطوِّرة - بشكْل كامل" - في المشرق.

بمعنى علْم إنساني (أنثرُوبُولُوجي)، تعني عبارة "مُتطوِّرة بشكْل كامل" أرضاً يحكمها تنظيم إداري رُوتيني مُعقَّد (أيْ نظام إداري رُوتيني) قادر على تنظيم مشاريع عُمرانيَّة كبيرة، والمُحافظة على جيش دائم، وتطوير ارتباطات تجاريَّة مُنظَّمة مع المناطق المُجاورة. وأنَّ الدّولة قادرة على حفْظ سجلاَّت لأعمالها في الأرشيفات وفي النُّقُوش التّذكاريَّة المفتوحة أمام أنظار الجُمهُور. مُنْذُ القرن التّاسع فما بعد، كان يتمُّ تسجيل أحداث سياسيَّة رئيسيَّة في كتابات تذكاريَّة من وجهة نَظَر كُلِّ ملك. تُعَدُّ تلك النُّقُوش حاسمةً في موضوع تأسيس تواريخ دقيقة للأحداث والشّخصيَّات المذكورة في الكتاب المُقدَّس العبْريّ. وبالنّسبة لكُلِّ واحد يعرف رواية الكتاب المُقدَّس؛ فإنَّ تلك المصادر تُقدِّم صُورة غير مُتوقَّعة للمدى الذي وَصَلَتْ إليه قُوَّة مَمْلَكَة إسرائيل.

أحد أهمِّ المصادر الخارجيَّة هُو مسَلّة ميشا Mesha Stele، التي اكتُشفَت عام 1868، على سطح تلٍّ بعيدٍ في منطقة "ذيبان" في جنوب الأُردُن، شرق البحر الميِّت - وهُو موقع "ديبون" التّوراتي، عاصمة مَمْلَكَة مُوآب. كان هذا النّقش التّذكاري قد تعرَّض لتَلَفٍ شديد؛ نتيجةً للجدال بَيْن المُستكشفين الأُورُوبيِّين المُتنافسين والبدو المحلِّيِّين، ولكنَّ أجزاءه الباقية تمَّ تجميعها لتقديم ما يُعَدُّ - حتَّى الآن - أطولَ نصٍّ خارج الكتاب المُقدَّس وُجدَ في تاريخ المشرق. وقد كُتبَ باللُّغة المُوآبيَّة، القريبة جداً من لُغة الكتاب المُقدَّس العبْريَّة، وهُو يُسَجِّلُ إنجازات الملك ميشا، الذي فَتَحَ أراضي مُوآب الشّماليَّة، وأسَّسَ عاصمتها في "ديبون". وقد أوجد اكتشاف هذا النَّقْش حماساً كبيراً في القرن التّاسع عشر؛ لأنَّ ميشا ذُكرَ في سفْر المُلُوك الثّاني كَتَابع عاصٍ من توابع مَمْلَكَة إسرائيل الشّماليَّة.

هُنا؛ نجد - لأوّل مرَّة - الجانب الآخر للقصَّة؛ حيثُ نجد أوّل وَصْف خارج الكتاب المُقدَّس للعُمْرِيِّين. وَقَعَتْ الأحداث التي سُجِّلَتْ في النّقش في القرن التّاسع ق. م، عندما - طبقاً لنصِّه

المُتجزئ -[كان "عُمْري" "ملك إسرائيل"، قد اضطَهَدَ مُوآب أيَّاماً عديدة. . وَخَلَفَهُ ابنه، وهُو قال أيضاً: (سأُذلُّ مُوآب)، في أيَّامي، هكذا تكلَّم. . . واستولى "عُمْري" على أرض ميديبَا. وَسَكَنَ فيها أيَّامه ومجموع أيَّام ابنه: أربعون سنة].

ويُواصل النَّقْش روايته مُبيِّناً كيف وَسَّعَ ميشا أرضه تدريجيَّاً، مُتمرِّداً على إسرائيل، ومُدَمِّراً المُستوطنات الرئيسيَّة للإسرائيليِّين شرق الأُردُن، بَيْنما قام بتحصين وتزيين عاصمته الخاصَّة. ومع أنَّ ميشا لا يكاد يُخفي احتقاره لـ"عُمْري" وابنه "آخَاب"، فإنَّنا ـ مع ذلك ـ نَفهم من نَقْش الانتصار هذا أنَّ مَمْلَكَة إسرائيل وَصَلَتْ بعيداً إلى شرق وجنوب أرضها المركزيَّة الأصليَّة في المُرتفعات الوُسْطَى.

وعلى نفس المنوال، نسمع عن النِّزاعات مع "آرام" ـ دمشق من نَقْش "بيت داود" الذي اكتُشف في مدينة "دان" التَّوراتيَّة عام 1939. بالرّغم من أنَّ اسمَ الملك الذي أمر بنَصْب أو كتابة ذلك النَّقْش لم يُوجد على الأجزاء التي تمَّ اكتشافها واستعادتها حتَّى الآن، إلاَّ أنَّ هُناك قليلاً من الشَّكِّ، من السِّياق العامِّ، بأنَّه كان "حَزائيل" العظيم، مَلك "آرام" دمشق. وهُو مذكور عدَّة مرَّات في الكتاب المُقدَّس العبْريّ، وبشَكْل خَاصٍّ؛ كأداة الله لإذلال بيت "عُمْري". ويبدو من النَّقْش، أنَّ "حَزائيل" استولى على مدينة "دان"، ونَصَبَ مسَلَّة انتصار هُناك حوالي سنة 835 ق. م. . يُسجِّل النَّقْش كلمات "حَزائيل" المُنتصر في اتِّهامه الغاضب بأنْ: "لقد دَخَلَ ملك إسرائيل سابقاً إلى أرض أبي." وبما أنَّ النَّقْش ـ على ما يبدو ـ ذَكَرَ اسم ابن "آخَاب" وخليفته، "يَهورام"، فالنَّتيجة اللاَّزمة واضحة. إنَّ مَمْلَكَة إسرائيل التي امتدَّت ـ تحت حُكْم "العُمْريِّين" ـ من جوار دمشق وعبر المُرتفعات الوُسْطَى ووُديان إسرائيل، مُرُوراً بأراضي مُوآب الجنوبيَّة، قد حَكَمَت عدداً كبيراً من السُّكَّان غير الإسرائيليِّين.

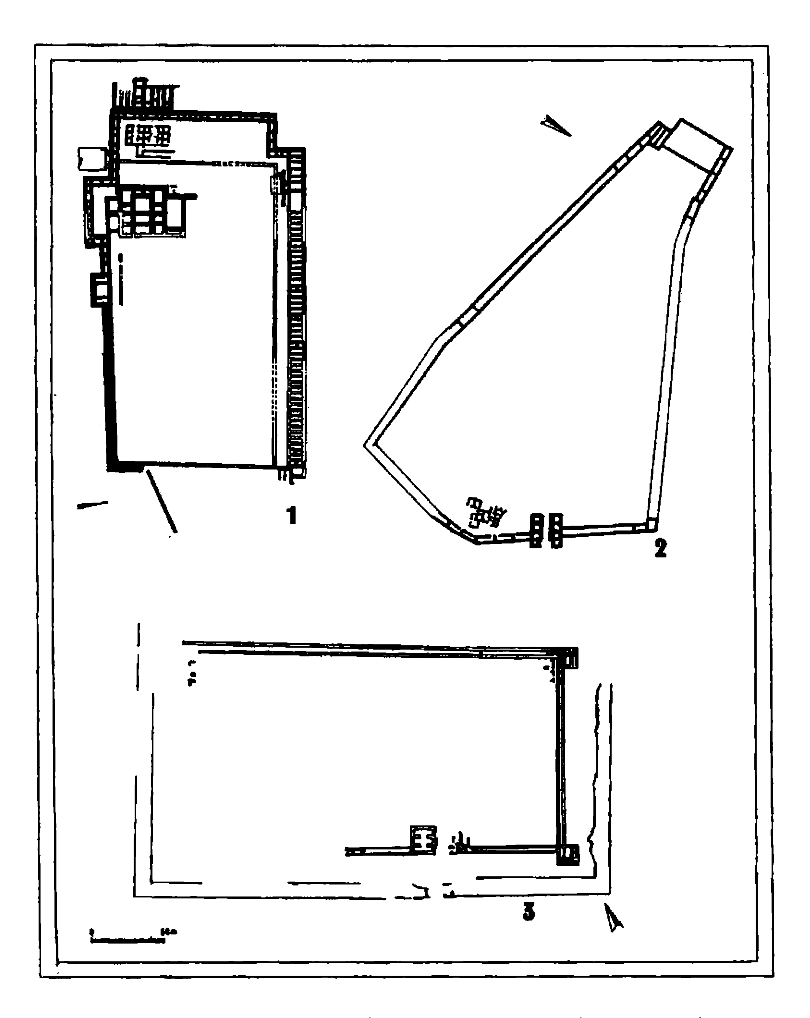
كما نفهم أنَّ الإمبراطُوريَّة "العُمْريَّة" كانت تمتلك قُوَّة عسكريَّة عظيمة. ومع أنَّ رواية الكتاب المُقدَّس العبْريّ عن السُّلالة الحاكمة "العُمْريَّة" كَرَّرَت ذكْر حُدُوث كوارث عسكريَّة ـ ولم تأت بذكْر ـ أصلاً ـ على أيِّ تهديد آشُوري لها ـ فإنَّ هُنَاك بعض الشَّواهد المُثيرة على قُوَّة "العُمْريِّين" من نفس آشُوريا. لعلَّ شَلْمانَصَّر الثَّالث، الذي يُعَدُّ أحد أعظم المُلُوك الآشُوريِّين الذي حَكَمَ في 858 ـ 824 ق. م، قَدَّمَ أوضح مديح (وإنْ كان غير مقصود أبداً) لقُوَّة سُلالة "العُمْريِّين".

قاد شَلْمانَصَّر، سنة 853 ق. م، قُوَّة غزو آشُوريَّة كبيرة باتِّجاه الغرب لإخضاع - وربَّما فتح - الدُّول الصَّغيرة في سُوريا، وفينيقيَّة، وإسرائيل، لكنَّ جُيُوشه المُتقدِّمة تواجهت مع تحالف ضدَّ آشُوري قُرْب قَرْقَرْ Qarqar على نهر العاصي غرب سُوريا. لقد تبجَّح شَلْمانَصَّر بنصره العظيم في نصٍّ قديم مُهمٍّ يُعرَف بنَقْش العمود، اكتشفه في الثَّمانينات في القرن التَّاسع عشر المُستكشف الإنجليزي "أُوستن هنري لايارد" Austen Henry Layard في الموقع الآشُوري القديم لنمرود.

سجَّل النَّصب الحجري القاتم اللَّون - الذي نُقش عليه بكثافة، بالحُرُوف المسماريَّة، بافتخارٍ - أنَّ القُوَّات التي اصطفَّتْ لحرب شَلْمانَصَّر كانت: 1200 عَرَبَة، و1200 فارس، و20000 من جُنُود المُشاة من حماة، و2000 عَرَبَة، و10000 جُنْدي مُشاة من جُنُود "آخاب" الإسرائيلي، و500 جُنْدي من قيو، و1000 جُنْدي من مصر، و10 عَرَبَات، و10000 جُنْدي من أيرقناطة.

ليس هذا أبكر شاهد من خارج الكتاب المُقدَّس على أحد مُلُوك إسرائيل فحسب، بل هُو - أيضاً - يدلُّ - من ذكْره لـ"الأسلحة الثَّقيلة" (العَرَبَات) - على أنَّ آخاب كان العُضْو الأقوى في التَّحالف ضدَّ - الآشُوري. ومع أنَّ شَلْمانَصَّر الكبير ادَّعى النَّصْر، فإنَّ النَّتيجة العَمَليَّة لهذه المُواجهة تتكلَّم بصوت أعلى من صوت الادِّعاءات المَلَكيَّة. لقد عاد شَلْمانَصَّر بسُرعة نحو آشُوريا، وتوقَّف التَّقدُّم الآشُوري نحو الغرب، على الأقلِّ؛ لفترةٍ من الزَّمن.

و هكذا نطَّلعُ من ثلاثة نُقُوش قديمة (و من سُخرية القَدَر أنَّها لثلاثة من ألدِّ أعداء إسرائيل) على معلومات تُضيف إلى القصَّة التَّوراتيَّة إضافات مُثيرة جداً. وعلى الرّغم من أنَّ الكتاب المُقدَّس يتحدَّث عن جيش آرامي يقوم بمُحاصرة "السَّامرة"، فإنَّ "عُمْري" وخُلفاءه كانوا - في الحقيقة - مُلُوكاً أقوياء، وسَّعُوا أرضَ مَمْلَكتهم، وامتلكوا ما كان - بالتَّأكيد - أحد أكبر الجُيُوش الدَّائميَّة في المنطقة. كما كان لهم دورٌ ومُساهمةٌ كبيران في سياسات القُوَّة الدَّوليَّة، في جهد مُستمرٍّ للحفاظ على استقلالهم ضدَّ مُنافسين إقليميِّين، وضدَّ التَّهديد المُرتقب للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة (هذا في حين مرَّ نَقْش شَلْمانَصَّر على مَمْلَكة يهُوذا بكُلِّ صمت، دُون أنْ يذكر عنها شيء).



الشكْل 20: مُخططات ثلاثة مواقع عمْريَّة: 1) السامرة 2) حاصُور 3) يزرعيل. تمَّ رَسْم المُخطَّطات بنفس المقياس . الأرقام 1 و2 من تفضل البرُوفسُور زيف هيرزوغ جامعة تلّ أبيب.

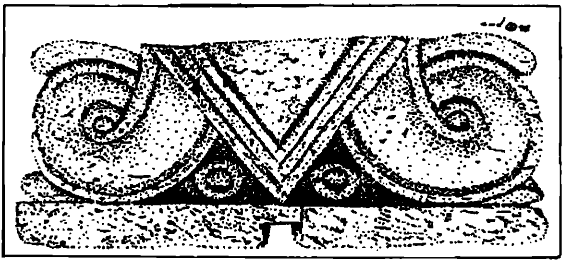
قُصُور ، إسطبلاتٌ ، وَمُدُن مَخَازِن:

يكشف الدّليل الآثاري - أيضاً - بأنَّ "العُمْرِيِّين" فاقوا - بنَحْو كبيرٍ - أيَّ مُلُوك آخرين في إسرائيل أو يهُوذا كَبُناة ومُديرين. وبمعنىً؛ كانوا يُمثِّلون العصر الذّهبي الأوَّل للمُلُوك الإسرائيلين. رغم ذلك؛ كان وَصْفُ مَمْلَكَة "العُمْرِيِّين" في الكتاب المُقدَّس وَصْفاً سطحيّاً جداً. فباستثناء ذكْر قُصُورهم المُتقَنَة في "السّامرة" و"يَزْرَعيلَ"، لا تُوجد هُناك أيُّ إشارة - تقريباً - لحجم، ومقياس، وثراء عالمهم.

في أوائل القرن العشرين؛ بدأ علْم الآثار - أوَّلاً - بتقديم مُساهمة هامَّة، تجلَّت بتنقيبات كبيرة في موقع عاصمة مَمْلَكَة "عُمْري" الكبيرة: مدينة "السّامرة". لا يكاد يُوجد أيُّ شكٌّ في أنَّ "العُمْرِيِّين" هُم الذين بنوا "السّامرة"؛ لأنَّ المصادر الآشُوريَّة المُتأخِّرة كانت تُسمِّي المَمْلَكَة الشّماليَّة "بيت عُمْري"، في إشارة إلى أنَّ عُمْري كان مُؤسِّس عاصمتها. لقد تمَّ تنقيب الموقع لأوَّل مرَّة عام 1908 - 1910، منْ قبَل بعثةٍ لجامعة هارفارد، ثُمَّ قام فريق أمريكي، وبريطاني، ويهُودي - فلسطيني مُشترَك باستكشاف الموقع في الثّلاثينات (من القرن الماضي). وقد عكس هذا الموقع - بشَكْل أكثر - عَظَمَة السُّلالة "العُمْرِيَّة".

إنَّ موقع "السّامرة" موقع رائع حتّى هذا اليوم. تقع "السّامرة" وسط تلال مُتحرِّجة بلُطف، مزروعة ببساتين اللّوز والزّيتون، تُشرف على منطقة زراعيَّة غنيَّة. ويُشير اكتشاف بعض القطَع الفخّاريَّة، وبعض الحيطان، ومجموعة من الأبنية الصّخريَّة، إلى أنّها كانت قد سَكَنَتْ قبل وُصُول "عُمْري"؛ ويبدو أنَّه كانت تُوجد في ذلك الموقع قرية إسرائيليَّة فقيرة وصغيرة، أو مزرعة في القرنَيْن الحادي عشر والعاشر ق.م.. رُبَّما تكون هذه هي ميراث "شَامرَ" Shemer، المالك الأصلي للعقار المذكور في سفْر المُلُوك الأوَّل 16/ 24. وعلى أيٍّ حال؛ بوُصُول "عُمْري" وأعضاء بلاطه في حوالي سنة 880 ق.م، تمَّ تدمير كُلِّ أبنية المزرعة، وتسويتها بالأرض؛ ليظهر في مكانها - على قمَّة التَّلِّ - قَصْر فاخر غني مع أبنيته المُلحقة به، الخاصَّة بأعضاء البلاط المَلَكي، والخَدَم، والحَشَم.

يبدو أنَّ "السّامرة" قُبلَت - مُنْذُ البداية - كعاصمة شخصيَّة للأُسرة "العُمْريَّة". كانت مظهراً للعَظَمَة المعماريَّة لحُكْم "العُمْريِّين" وحكْم "آخاب" (انظُرْ الشَّكْل 21)، إلاَّ أنَّ موقعها على قمَّة هضبة صغيرة لم يكن مكاناً مثاليّاً لمجمع مَلَكي واسع وكبير؛ وكان الحلُّ الذي اقترحه البنَّاءون لهذه المُشكلة - والذي يُعَدُّ إبداعاً جريئاً في إسرائيل العصر الحديدي - هُو القيام بعمليَّات تحريك ونَقْل مُكثَّف للتُّربة لخَلْق أرضيَّة اصطناعيَّة كبيرة على قمَّة الهضبة. لذا؛ تمَّ بناءُ سُور ضخم (يتألَّف من غُرف موصولة ببعضها، أو غُرف لرمي السّهام منها) حول الهضبة، ليُؤطِّر قمَّتها والمُنحدرات العُليا، ضمن مُستطيل كبير. وعندما اكتمل ذلك السُّور السّاند، قامت مجموعات البنَّاءين بملء داخله بآلاف الأطنان من تُراب الأرض المأخوذ من المناطق المُجاورة.



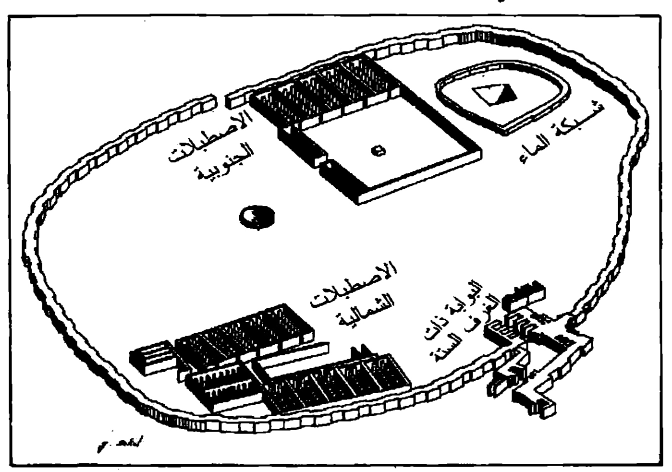
الشَّكْل 21: تاج عمود صخري من النّمط العولسي. الأوّلي Proto-Aeolic. من تفضُّل جمعيَّة اكتشاف وتنقيب إسرائيل.

لقد كان حجم هذا المشروع هائلاً؛ حيثُ بَلَغَ عُمق الملء الطّيني المُعبّأ خلف السُّور السّاند في بعض الأماكن عشرين قَدَمَاً تقريباً. وهذا يُفسِّر - احتمالاً - لماذا بُني السُّور المُحيط والدّاعم لمُجمَّع القَصْر بتقنيَّة غُرف الملاجئ: لقد قُصِدَ من غُرف الملاجئ هذه (والتي كانت مملوءة - أيضاً - بالتُّراب) تخفيف الضّغط الهائل للملء. وهكذا تمَّ إنشاء قلعة أكرُوبُوليسيَّة[1] مَلَكيَّة على مساحة خمس هكتارات. هذا البناء الحجري والتُّرابي الضّخم، لا يُمكن مُقارنته من ناحية الجُرأة والتّبذير والفخامة (وإنْ كان، ربَّما، ليس من ناحية الحجم)، إلاَّ مع العمل الذي نفَّذه "هيرُود" الكبير قبل ألف عام تقريباً على جبل الهيكل في أُورشليم (القُدْس).

(1) الأكرُوبُوليس Acropolis هُو الجُزء الأعلى المُحصَّن من مدينة إغريقيَّة، كما إنَّه اسم علَم لقلعة أثينا الإغريقيَّة الشّهيرة. (المُترجم).

قام على أحد جوانب تلك الأرضيَّة الاصطناعيَّة قَصْر جميل وكبير بنَحْو استثنائي، يُنافس في عَظَمَته القُصُور المُعاصرة في دُول شمال سُوريا. بالرّغم من أنَّ قَصْر "العُمْريّين" في "السّامرة" لم يتمّ تنقيبه إلاّ بنَحْو جُزئي فقط، إلاّ أنّ الجُزء الذي تمّ اكتشافه من مُخطّطه كان كافياً في اكتشاف أنّ بناءه المركزي وحده كان يُغطّي مساحة تصل لحُدُود نصف هكتار. يُعَدّ هذا القَصْر - بحيطانه الخارجيّة التي بُنيت كُلّياً من الحجارة المُربّعة المنحوتة بنَحْو مُمتاز ورائع وأنيق، وُضعت بلصق بعضها البعض بنَحْو مُلائم - أوسع وأجمل بناء تمّ تنقيبه عن إسرائيل العصر الحديدي على الإطلاق.

حتّى التّزيين المعماري كان استثنائياً. وُجدت في أنقاض تراكمات القُرُون التّالية تيجان عواميد حَجَريّة، بُنيت على طراز قديم فريد يُسمّى عولسي - أوّلي [1] Proto-Aeolic (بسبب مُشابهته للأُسلُوب العولسي Aeolic الإغريقي التّالي)، (الشّكْل21). لقد زيّنت تيجان العواميد الحجريّة المُزخرفة هذه البوابة الخارجيّة الضّخمة لمجمّع القَصْر، أو ربّما كانت مدخلاً مُتقناً مزيّناً للقَصْر الرّئيسي نفسه.



الشّكْل 22: القرن الثّامن ق.م، في "مَجدُو". البوّابة ذات الحُجُر السّتّة six-chambered (نسبها عالم الآثار "يادين" إلى المُستوى "السّليماني") تعود - في الاحتمال الغالب - إلى هذه الطّبقة الأرضيّة. من تفضّل الأُستاذ ديفيد أوسيشكين، من جامعة تلّ أبيب.

(1) Aeolic = عولسي: نسبة لعولس إله الرّياح اليُوناني. (المُترجم).

لم يبق من الأثاث الدّاخلي إلاّ القليل، باستثناء عدد من اللّوحات العاجيّة المنحوتة بشَكْل دقيق مُعقّد، والتي تُـؤرَّخ - احتمالاً - إلى القرن الثّامن ق. م، وتحمل سمات سُوريا - فينيقيَّة، ومصريّة. وقد استُعملت تلك القطَع العاجيّة كَبطانات في أثاث القَصْر، ممّا قد يُفسّر التّلميح الذي جاء في سفْر المُلُوك الأوّل 22/ 39 إلى البيت العاجي الذي بناه "آخاب" على ما يُرْوَى.

أحاطت عدَّة أبنية إداريّة بالقَصْر، ولكنّ أغلب المنطقة المُضَمَّنة تُركَتْ مفتوحة. وتجمَّعت البُيُوت البسيطة لشعب "السّامرة" - على ما يبدو - على المُنحدرات تحت قلعة الأكْرُوبُوليس Acropolis. بالنّسبة للزُّوّار والتُّجّار والمبعوثين الرّسميّين الذين كانوا يَصلُون إلى "السّامرة" لابُدّ أنّ الانطباع البَصَري لعاصمة "العُمْريِّين" المَلكيَّة كان مُذهلاً، خاصَّة أرضيَّتها المُرتفعة وقَصْرها العظيم والمُتقن، والذي كان يحكي عن ثروتها وقُوَّتها وتأثيرها.

لم تكن "السّامرة" إلاّ بداية اكتشاف عَظَمَة "العُمْريِّين". وجاءت بعدها "مَجدُّو". في وسط العشرينات من القرن الماضي، اكتشف فريق تابع لجامعة شيكاغو قَصْراً من العهد الحديدي، بُني من كتل الحجارة المنحوتة والمُلبَّسة بشكْل جميل. كان المُدير الأوّل لتنقيبات المعهد الشّرقي في "مَجدُّو": "كلارنس س. فيشر" Clarence S. Fisher، قد عمل - أيضاً - في "السّامرة"، وتأثّر - فوراً - بتشابه البناءين. وقد أيّده في مُلاحظته تلك "جُون كراوفوت" John Crowfoot، رئيس البعثة المُشتركَة إلى "السّامرة"، الذي اقترح بأنّ تشابه تقنيّات البناء والمُخطّط الكُلّي في "السّامرة" و"مَجدُّو" يُشير إلى أنّ كليْهما بُنيَا تحت إشراف "العُمْريِّين"، لكنّ مسألة التّشابه المعماري هذه لم تتمّ مُتابعتها - بشكْل كامل - لعدَّة عقُود. لقد كان أعضاء فريق جامعة شيكاغو أكثر اهتماماً بعَظَمَة ومجد سُلَيْمَان من اهتمامهم بالعُمْريِّين الفَسَقَة الأوغاد. لقد أهملوا تشابه نَمَط البناء في مَجدُّو والسّامرة، وأعادوا تاريخ مُجمَّعات الأبنية ذات العواميد التي وَجَدُوها في الطّبقة التّالية (و افترضوا أنّها إسطبلات) إلى عهد الحُكْم المَلكي المُتّحد. في أوائل السّتّينات، عندما جاء "يغائيل يادين"، من الجامعة العبْريّة، إلى "مَجدُّو"، أرَّخَ قُصُور "مَجدُّو" - أيْ القَصْر الذي اكتُشفَ في عشرينات القرن الماضي والقَصْر الذي اكتشفه هُو نفسه - إلى عهد سُلَيْمَان -، وربط المُستوى المُتأخّر الذي كان يحتوي على إسطبلات وأبنية أُخرى بعهد "العُمْريِّين".

كانت المدينـة رائعـة بالتّـأكيد. كـانت مُحاطـة بتحصينـات هائلـة، وطبقـاً ليـادين؛ كـانت مُجهَّزة ببوّابة مدينة ذات أربع حُجرات كبيرة (بُنِيَتْ مُباشـرة فـوق البوّابـة السُّلَيْمَانيَّة السّـابقة).
كانت أبرز ميزة مُهَيْمنَة داخل المدينة صَفَّيْ أبنيـة العواميد التي كـانت قـد عُرِّفَتْ على أنّـها إسطبلات. إلاّ أنّ "يادين" لم يربطـها بما جـاء فـي الكتـاب المُقدَّس العـبْريّ مـن وَصْف لجيـش عَرَبَات سُلَيْمَان الكبير، بـل ربَطَهَا بجيـش "آخَابْ"، الـذي جـاء ذكْره فـي نَقْش شَـلْمانَصَّر (الآشُوري). إلاّ أنّه ـ كما سنرى ـ لم يُحدِّد "يادين" ـ بشَكْل صحيح ـ مدينة "آخَابْ"؛ لأنّ تلك الإصطبلات كانت تنتمي ـ احتمالاً ـ لملكٍ إسرائيليٍ آخر، بل حتّى ملك مُتأخِّر.

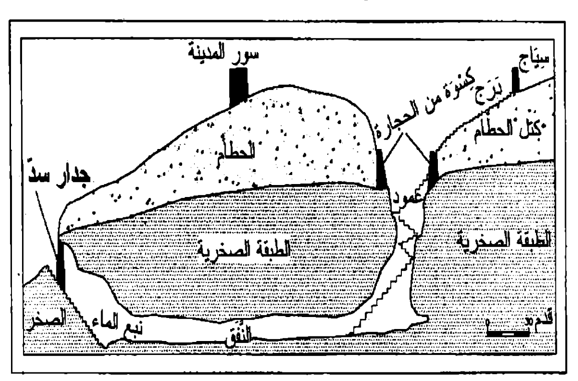
قدّمتْ مدينة "حاصُور" الشّماليَّة، التي نقَّبها "يادين" في الخمسينات والستِّينات (من القـرن الماضي)، دليلاً باهراً آخر على عَظَمَة "العُمْرِيِّين". كانت "حاصُور" ـ أيضاً ـ مُحاطـة بتحصينـات هائلة. وقد اكتشف "يادين"، في مركز تلك المدينـة، بنايـةً ذات عواميـد مُشـابهة ـ لحـدٍّ مـا، فـي الشَّكْل ـ لإسـطبلات "مَجِدُّو"، المُقسَّمة إلى ثلاثـة ممَرَّات طويلـة بواسـطة صفُـوف أعمـدة حَجَرِيَّة، لكنّ هذا البناء لم يحتو على مُنخفضات حَجَرِيَّة للإطعام، لذا؛ فُسِّرَ ـ بناءً على ذلك ـ على أنّه كان مَخْزَناً مَلَكيّاً، ثُمَّ تمَّ اكتشاف قلعة بارزة على الرّأس الضيِّق الشّرقي للتّلّ، مُحاطـةً بسُور مدينة قوي.

أحد المواقع الأُخرى الـذي رُبِطَ بـالعُمْرِيِّين كـان مدينـة "دان" فـي أقصـى الشّـمال، قُـرْب منطقة منابع نهر الأُردُن. وقد سَبَقَ واستشهدنا بالسُّطُور الافتتاحيَّة للمسَلَّة التي نَصَبَهَا "حزائيل" ملك "آرام دمشق" في مدينة دان، والتي أشارت إلى أنّ "العُمْرِيِّين" كانوا قد أخـذوا هـذه المنطقـة سابقاً من الآراميِّين. لقد كَشَفَتْ التّنقيبـات فـي "دان" التـي قـام بـها آبراهـام بـيران Abraham Biran، من الكُلِّيَّة العبْريَّة المُتَّحدة، تحصينات كثيفة تعود للعصر الحديدي، وبوّابة مدينة مُتقنـة وضخمة، وملجأ ذا مكان مُرتفع. وقـد تمَّ تـأريخ هـذه المنصَّـة الكبيرة التـي يصـل حجـم أحـد جوانبها إلى حوالي ستّين قَدَمٍ، وبُنِيَت من حَجَرٍ منحوتٍ ومُلَبّسٍ بشَكْل جميـل، مـع الأبنيـة التّذكاريَّة الأُخرى للمدينة، إلى عهد "العُمْرِيِّين".

ومع كُلّ ما سَبَقَ، ربَّما كانت أكثر الإنجـازات الهندسيَّة روعـةً التي تمّ ربطـها أوَّليّاً بعـهد "العُمْرِيِّين" هُو أنفاق الماء الكبـيرة تحـت الأرض، التي حُفِرَتْ في الأرضيَّـة الصّخريَّـة، تحـت

مدينتَيْ "مَجدُّو" و"حاصُوْر". لقد زَوَّدَت هذه الأنفاق أهالي المدينتَيْن بوُصُول آمِـنٍ لمياه الشُّرب حتَّى في أوقات الحصار. كانت قضيَّة الوُصُول الآمن لمياه الشُّـرب تُعَـدُّ تحدِّياً هامَّاً فـي الشّرق الأدنى القديم؛ إذْ بَيْنما كانت المُدُن الهامَّة مُحاطة بتحصينات مُتقنة تسمح لها بمُقاومة هُجُوم أو حصارٍ لأكثر الأعداء شراسة وتصميماً، كان من النّادر جدّاً أنْ تمتلك منبعاً للمياه العذبة داخـل أسوار تلك المُدُن. نعم؛ كان الأهالي قادرين ـ دائماً ـ على تجميع ميـاه الأمطـار فـي صـهاريج، لكنَّ هذا لم يكن كافياً عندما كان الحصار يَمتَدُّ خـلال أشـهر الصّيـف الحـارَّة الجافَّة الخاليـة مـن الأمطار، لاسيَّما عندما تمتلئ المدينة باللاَّجئين.

ولَمَّا كانت أكثر المُدُن القديمة تقع قُرْب ينابيع المياه، كان التَّحدِّي هُو ابتكار طريقـة وُصُـول آمنة لمياه تلك الينابيع. ولذلك؛ فإنَّ أنفـاق المـاء المحفـورة فـي الصّخـر فـي "حـاصُوْر" و"مَجـدُّو" كانت من بَيْن أكثر الحُلُول إتقاناً وتطوُّراً لهذه المُشكلة.



الشَّكْل 23: مقطع عرضي لنظام الماء في "مَجدُّو"

في مدينة "حاصُور" تمَّ قَطْع وحَفْر عمود شاقولي عريـض خـلال بقايـا المُدُن السّابقة نحـو الطّبقة الصّخريَّة الصّلبة في الأسفل. وبسـبب عُمقـه الكبيـر، والـذي وَصَـلَ ـ تقريبـاً ـ إلـى مئة قَدَم، كان يجب بنـاء جُـدران داعمـة لمَنْـع انهياره، فكـانت هُنـاك درجـات عريضـة تُـؤدِّي إلـى القاع؛ حيثُ يُوجد نفق مائل طُوله حوالي 80 قَدَم، يُؤدِّي إلى غُرفة محفورة في الصّخـر تُشبه البركة، كانت تتسرَّب إليها المياه الجوفيَّة. يُمكن لأحدنا أنْ يتخيَّل ـ فقط ـ موكب حاملي المـاء،

الذين يسيرون في خطٍّ مُتسلسل، ويهبطون عبْر الدّرج، ويسيرون على طُول النّفق تحت الأرض، ليملؤوا جرارهم في الكهف المُظلم، ويعودُون بالماء إلى شوارع المدينة المُحاصرة؛ لإبقاء النّاس على قَيْد الحياة.

اشتمل نظام الماء في "مَجدُّو" على عمود أسهل إلى حدٍّ ما، ينزل إلى عُمق مئة قَدَم، حُفِرَ ضمن البقايا السّابقة للأرضيَّة الصّخريَّة. ومن هُنا؛ كان يُؤدِّي إلى نفق أُفُقي طُوله أكثر من مئتَيْ قَدَم، عريض ومُرتفع بنَحْو يكفي لسَيْر عدَّة أشخاص فيه في نفس الوقت، والذي يُؤدِّي إلى كهف يُنبوع ماء طبيعي على حافَّة الهضبة. وكان يتمُّ سدُّ مدخل الكهف من الخارج، وإخفاؤه. لقد أرَّخ "يادين" شَبَكَتَيْ الماء في "مَجدُّو" و"حاصُور" إلى عهد "العُمْرِيِّين". واقترح رَبْطَ مهارة الإسرائيليِّين في قَطْع وحَفْر شبكة المياه بفقرة في مسَلَّة ميشا يروي فيها الملك المُوآبيّ كيف حَفَرَ خزَّاناً للماء في عاصمته الخاصَّة بمُساعدة أسرى الحرب الإسرائيليِّين. لقد كان من الواضح أنَّ بناء مثل تلك التّجهيزات الضّخمة يحتاج لاستثمار ضخم، ولتنظيم حكُوميٍّ فعَّال، ولمُستوىً عالٍ من المهارة التّقنيَّة. ومن وجهة نَظَر وظيفيَّة، ربَّما كان مُهندسو العصر الحديدي قادرين على الوُصُول إلى نتيجة مُشابهة باستثمار أصغر بكثير، وذلك عبْر حفر بئر، بكُلِّ بساطة، يصل إلى البركة المائيَّة تحت التَّلِّ، ولكنَّ الإثارة والتّأثير البَصَري لتلك المُنشآت المائيَّة الكبيرة دَعَّمَ - بلا شكٍّ - سُمعة ونُفُوذ السُّلْطَة المَلَكيَّة التي أَمَرت بإنشائها.

نُقطة تحوُّل منسيَّة في تاريخ الإسرائيليِّيْن:

على الرّغم من أنَّ عُلماء آثار أوائل ومُنتصف القرن العشرين نسبوا الكثير من مشاريع الأبنية الضّخمة لفترة "العُمْرِيِّين"، إلاَّ أنَّ تاريخ الكتاب المُقدَّس العبْريّ لم ينظر - أبداً - إلى فترة حُكْمهم كَفَترة مُهمَّة - بنَحْو خاصٍّ ومُؤثِّرة - في تشكيل مَمْلَكَة إسرائيل.

أجل؛ كانت فترة حُكْمهم مُتعدِّدة الألوان. ومن المُؤكّد أنّها كانت - أيضاً - فترة حَيَويَّة ونشطة. لكنْ؛ من زاوية تاريخيَّة محضة، بَدَتْ قصَّة "العُمْرِيِّين" - "آخَاب" و"إيزَابَل" - مذكورة - بتفصيل كاف جداً - في الكتاب المُقدَّس، مع معلومات مُؤيّدة من النُّصُوص الآشُوريَّة، والمُوآبيَّة، والآراميَّة. بدا أنَّ هُناك العديد من الأسئلة التّاريخيَّة الأكثر إثارةً التي يُنتَظَر من

التّنقيبات والمزيد من الأبحاث أنْ تُجيب عنها: العَمَليَّة الدّقيقة للاستيطان الإسرائيلي؛ التّبلـور السّياسي للحكْم المَلَكـي تحت داود وسُلَيْمَان؛ أو حتّى الأسباب الخلفيَّة الكامنة وراء الغزو الآشُوري والبابلي النّهائي لأرض إسرائيل. كان علْم آثار "العُمْرِيِّين" يُعَدُّ - عادةً - مُجرَّد معلومات عرضيَّة على جدول الأعمال الرّئيسي لعلْم آثار الكتاب المُقدَّس، أُعْطِيَ اهتماماً أقلّ من الانتباه الذي مُنح للفترة السُّلَيْمَانيَّة.

ولكنْ؛ كان هُناك شيء خاطئ جداً في هذا الارتباط الأوَّلي بَيْن التّاريخ التّوراتي والاكتشافات الأثريَّة. فالأسئلة الجديدة التي بدأت تُطرَح حول طبيعة، ومدى، أو حتّى حول الوُجُود التّاريخي، أساساً، لمَمْلَكَة سُلَيْمَان الواسعة - وإعادة تحديد تاريخ الطّبقات الآثاريَّة - أخذت تُؤثّر على فَهْم العلْم - الآثاري لفترة "العُمْرِيِّين" أيضاً؛ لأنَّه إذا لم يكن سُلَيْمَان - في الحقيقة - هُو الذي بنى البوّابات والقُصُور "السُّلَيْمَانيَّة"، فَمَنْ بناها إذنْ؟ إنَّ "العُمْرِيِّين" كانوا المُرشَّحين البديهيِّين. أبكر التّشابهات المعماريَّة للقُصُور المُتميِّزة التي تمَّ التّنقيب عنها في "مَجدُّو" (والتي نُسبت - في البداية - لسُلَيْمَان) جاءت من سُوريا الشّماليَّة - المكان المُفترض لأصل هذا النّوع - في القرن التّاسع ق.م؛ أيْ بعد قرن كامل من عهد سُلَيْمَان! وكان هذا - بالضّبط - هُو عهد حكْم "العُمْرِيِّين".

الدّليل المفتاحي الهامُّ الذي يُثبت لُزُوم إعادة تحديد تاريخ البوّابات والقُصُور "السُّلَيْمَانيَّة" جاء من الموقع التّوراتي لـ "يَزْرَعيلَ"، الذي يقع على بُعد أقلّ من عشرة أميال شرق "مَجدُّو" في قلب وادي "يَزْرَعيلَ". يقع الموقع في بُقعة مُرتفعة جميلة، تتمتَّع بمناخ مُعتدل في الشّتاء، ونسيم بارد في الصّيف، وتُشرف على منظر طبيعي رائع لكامل وادي "يَزْرَعيلَ"، والتّلال التي تُحيط بها، من "مَجدُّو" في الغرب، وعبْر مُرتفعات الجليل في الشّمال، وحتّى "بيت شان" و"جلْعَاد" في الشّرق. اشتهرت "يَزْرَعيلَ" - بشكْل كبير - بسبب قصَّة الكتاب المُقدَّس عن مزرعة عنب "نابُوت"، و"آخَاب" وخُطط "إيزَابَل" لتوسيع القَصْر، ومشهد التّصفية النّهائيَّة الدّامية لسُلالة "العُمْرِيِّين".

في التّسعينيَّات، نَقَّبَ الموقعَ "ديفيدُ أُوسيِّشْكين" David Ussishkin من جامعة تلَّ أبيب، و"جُون وودهيد" John Woodhead من المدرسة البريطانيَّة لعلْم الآثار في أورشليم (القُدْس). لقد اكتشفوا منطقة مُسيَّجة مَلَكيَّة كبيرة، مُشابهة جداً لتلك التي في "السّامرة" (الشّكْل 20 : 3).

لقد تمَّ شُغل هذا المجمَّع الرّائع، في القرن التّاسـع ق. م، لفـترة قصيرة فقـط، ـ من المُفترض أنَّـها كانت ـ فقط ـ أثناء عهد أُسرة "العُمْرِيِّين" ـ ثُمَّ تمَّ تدميره بعد فترة قليلة من بنائه، ربَّما بالارتبـاط مـع سقُوط "العُمْرِيِّين" أو الغزوات اللاّحقة لشمال إسرائيل منْ قبَل جيُوش "آرام دمشق".

كما في "السّامرة"، تمَّ في "يَزْرَعيل" بناء سُور ضخم من غُـرف ملاجئ الحُـرّاس (أو الجنُـود) حول التَّلّ الأصلي مُشكِّلاً ما يُشبه "الصُّنْدُوق" الذي مُلئ ـ فيما بعد ـ بأطنـان عديـدة مـن التُّراب. كَنَتيجة لعمليَّات الملء والتّسوية واسعة النّطاق، نشأت منصَّة مُستوية بُنيت عليـها الأبنيـة الدّاخليَّة للمُجَمَّع المَلكيّ. في "يَزْرَعيل"، اكتشف علُماء الآثار عناصر مُميَّزة أُخـرى لنَمَـط الفنّ المعمـاري "للعُمْرِيِّين"، الذي لم يكن مُعترَفاً به حتَّى ذلك الوقـت؛ حيـثُ لاحظـوا وُجُـود سُـور طينـي مـائل يدعم السُّور المُؤلَّف من غُرف ملاجئ الحُـرّاس مـن الخـارج لمنعـه مـن الانـهيار. وكعُنصُـر دفـاعي إضافي، أُحيط المُجَمَّع بخندق مائي هائل حُفر في الأرضيَّة الصّخريَّة، لا يقلّ عرضه عن خمسـة وعشرين قَدَماً، ويصل عُمقه لحوالي خمسة عشر قَدَماً. وزُوِّدَ المدخل إلى المنطقة المَلكيَّة المُسيَّجة "للعُمْرِيِّين" في "يَزْرَعيل" ببوَّابة، من المُحتمل أنَّها من نَمَط البوّابات ذات الغُرف السِّتَّة.

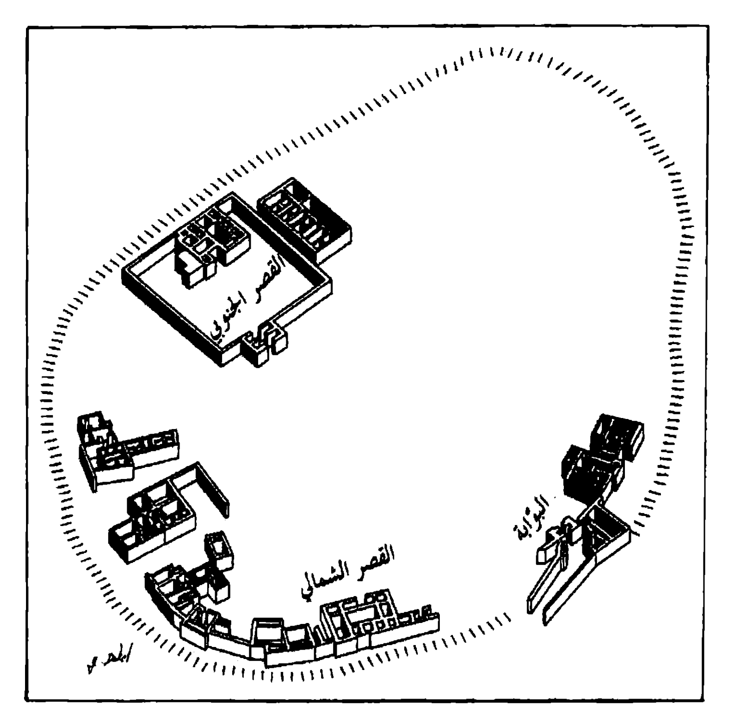
بما أنَّ "يَزْرَعيل" حُدِّدت زمنياً، وقُصرَت على فترة قصيرة تمَّ فيـه شُـغلها، فـي القـرن التّاسـع ق. م، فإنَّها تُقدِّم حالة فريدة يُمكن ـ مـن خلالـها للأسـاليب المُتميِّزة للفخّاريّات، التي وُجدت ضمنها ـ أنْ تُستعمل كَمُؤشِّرات واضحة على تحديد تاريخ فترة "العُمْرِيِّـين" فـي المواقـع الأُخـرى. بشكْل ملحوظ؛ كانت الأساليب الفخّاريَّة التي اكتُشفَت في المنطقة المُسيَّجة في "يَزْرَعيل" مُماثلة ـ تقريباً ـ لتلك التي وُجدت في مُسـتوى القُصُـور "السُّـلَيْمَانيَّة" فـي "مَجدُّو". وهكـذا أصبـح واضحاً تماماً ـ من وجهتَيْ النَّظَر المعماريَّـة والخَزَفيَّة ـ أنَّ الـذي بنـى البنايـات الحجريَّة المنحوتـة فـي "مَجدُّو"، و"يَزْرَعيل" ومُجَمَّعات "السّامرة" لم يكن "سُلَيْمَان"، وإنَّما كان في الواقع "العُمْرِيُّون".

النَّظَريَّة التي تقول إنَّ "العُمْرِيِّين"، وليـس سُـلَيْمَان، هُـم الذيـن أسَّسـوا أوَّل حكْـم مَلكـي مُتطوِّر بالكامل في إسرائيل أصبحت تزداد قُوَّة إقناعـها، مـع الرُّؤيـة الجديـدة للشّـواهد التـي تمَّ الحُصُول عليها من المُدُن الرّئيسيَّة الأُخرى لمَمْلَكَة إسرائيل. حدَّد عالم الآثار "يـادين" فـي مدينـة "حاصُور"، هُويَّة مُجَمَّع مُثلَّث الشّكْل على الأكرُوبُوليس **Acropolis** (منطقة مُرتفعة) ـ مُحاط بسُور من غُرف ملاجئ الحُرّاس (أو الجنُود) ومدخله مُؤلَّف من بوَّابة ذات ستَّة غُرف ـ بأنَّه يُمثِّل

المدينة التي أسَّسها سُلَيْمَان في القرن العاشر ق.م. . لكنَّ إعادة تحديد تاريخ الفخَّاريَّات على أساس المُكتَشَفَات في "يَزْرَعيلَ"، وَضَعَتْ مُستوى هذه المدينة في أوائل القرن التّاسع ق.م.

في الحقيقة، كان هُناك تشابه هيكلي واضح تماماً بَيْن ذلك المُجَمَّع المُثلَّث ومُجَمَّعات القَصْر في "السّامرة" و"يَزْرَعيلَ" (الشَّكْل 20 : 2). بالرّغم من أنَّ الشَّكْل المُثلَّث لمُجَمَّع "حاصُور" فَرَضَتْهُ تضاريس الموقع، إلاَّ أنَّ بناءه تضمَّن عمليَّات ملء وتسوية كبيرة وعظيمة جداً، رفعت مُستوى منطقة البوَّابة بالنّسبة للمنطقة الخارجيَّة التي تقع شرقه. وتمَّ حَفْر خندق مائي هائل، خُمِّن عرضه بـ 150 قَدَمَاً وعُمقه بثلاثين قَدَمَاً، خارج السُّور المكوَّن من غُرف ملاجئ الحُرَّاس. التّشابه العامُّ مع "يَزْرَعيلَ" و"السّامرة" واضح. وهكذا، نجد أمامنا مدينة أُخرى كان يُعتَقَد ـ لزمنٍ طويلٍ ـ أنَّها مدينة سُلَيْمَانيَّة، تُبيِّن اليوم أنَّها ـ احتمالاً ـ تعود لعهد "العُمْرِيِّين".

ظَهَرَ الدّليل على مدى المشاريع البنائيَّة "للعُمْرِيِّين" من تحليل أقرب للآثار الباقية في "مَجدُّو" و"جازَر". بالرّغم من أنّه ليس "لمجدُّو" مُجَمَّعٌ ذُو سُور من غُرف الملاجئ، إلاَّ أنَّ القَصْرَيْن الجميلَيْن على قمتّها، اللّذَيْن بُنيا بأحجار منحوتة مُتميِّزة، يستدعيان إلى الذّهن تقنيَّات البناء المُستعملة في "السّامرة" (الشَّكْل 24). إنَّ التّشابه قوي جداً في حالة قَصْر أقصى الجنوب في "مَجدُّو"، الذي بُنيَ على حافَّة فناء كبير، على نَمَط قَصْر "بيت حيلاني" السُّوري الشّمالي، مُغطِّياً منطقةً من حوالي خمسة وستِّين قَدَمَاً مضروبة بمئة قَدَم. كما تمَّ اكتشاف تاجَيْ عمود صخريِّين من النَّمَط العولسي ـ الأوَّلي Proto-Aeolic كبيرَيْن جداً بنَحْو استثنائي (مثل تلك التي في قُصُور السّامرة) قُرْب البوَّابة المُؤدِّية لمجمَّع القَصْر، وربَّما كانا تزييناً لمدخل القَصْر نفسه. ميَّز "نُورما فرانكلين" Norma Franklin، من بعثة "مَجدُّو" الحاليَّة، تشابهاً آخر: إنَّ القَصْر الجنوبي في "مَجدُّو" والقَصْر في "السّامرة" هُما البناءان الوحيدان من أبنية العصر الحديدي في إسرائيل، التي تشترك حجارته المنحوتة بنوع مُعيَّن من علامات البنَّائين. وثمَّةَ قَصْرٌ آخر، اكتشفه ـ جُزئياً ـ "يادين"، على الحافَّة الشّماليَّة للتّلِّ، ثُمَّ تمَّ ـ الآن ـ اكتشافه بالكامل منْ قَبَل البعثة الجديدة إلى "مَجدُّو"، بُنيَ ـ أيضاً ـ من الحجر المنحوت على نَمَط أُسلُوب القَصْر السُّوري الشّمالي.



الشَكْل 24: المدينة العمْريَّة في 'مَجدُو'

ربَّما كان الدّليل في "جازَر" أكثر الأدلَّة تجزأً في كُلّ المُدُن السّلَيْمانيَّة المُفترضة، لكنْ؛ تمَّ اكتشاف شواهد بما فيه الكفاية تُشير إلى مُشابهته لمواقع "العُمْريّيْن" الأخرى. اكتُشفَتْ في الحافَّة الجنوبيَّة للموقع، بوَّابة ذات ستّ غُرف مبنيَّة بأُسلُوب معماري رفيع، مع أحجار منحوتة في العضائد، وموصولة بسُور من غُرف ملاجئ الحُرَّاس المُدافعين. اشتمل بناء البوَّابة وسُور غُرف الملاجئ على عمليَّات تسوية الفناء الموجود على جانب التَّلّ، وتمَّ جَلْبُ كمّيَّة ضخمة من التُّراب للملء. بالإضافة إلى ذلك؛ تُشير الجُدران المُجزَّأة (المُقطَّعة لأجزاء) إلى أنَّ ثمَّة بناية كبيرة، في أغلب الاحتمال أنَّها قَصْر مبنيٌّ من الحجارة المنحوتة، كانت مبنيَّة على الجانب الشّمالي الغربي للتَّلّ. هذه - أيضاً - ربَّما كانت قد زُيِّنت بتيجان عواميد حجريَّة، بُنيت على الطّراز العولسي - الأوَّلي **Proto-Aeolic**، والتي وُجدت في "جازَر" في بداية القرن العشرين.

تُقدِّم تلك المواقع الخمسة لمحة إلى الهندسة المعماريَّة الملَكيَّة لعصر "العُمْرِيِّين" الذّهبي لإسرائيل. بالإضافة للأرضيَّات الاصطناعيَّة لمُجَمَّعات القَصْر المُختلفة في حجمها ووسعتها، يبدو أنَّ المُجَمَّعات - على الأقلّ في "السّامرة"، و"يَزْرَعيل"، و"حاصُور" - كانت فارغةً بنَحْو كبير، باستثناء الأبنية الإداريَّة المُتخصِّصة والقُصُور الملَكيَّة. لقد كانت الحجارة المنحوتة بنَحْو رفيع وتيجان العواميد الحجريَّة، المبنيَّة على الطّراز العولسي - الأوَّلي Proto-Aeolic تُمَثِّلُ تزييناً مُتميِّزاً في هذه المواقع. يبدو أنَّ المداخل الرّئيسيَّة إلى المُجَمَّعات الملَكيَّة كانت محروسة ببوّابة ذات ستِّ حُجرات، وفي بعض الحالات؛ كانت المجمَّعات مُحاطة بخندق مائي ومُنحدرات خفيفة[1].

إنَّ إعادة تحديد تاريخ تلك المُدُن من فترة سُلَيْمَان إلى زمن "العُمْرِيِّين" له نتائج هائلة. إنَّه يُزيل الدّليل الآثاري الوحيد على وُجُود حُكْمٍ مَلَكيٍّ مُتَّحد مركزه أُورشليم (القُدْس)، ويقترح أنَّ داود وسُلَيْمَان لم يكونا - سياسياً - أكثر من زُعماء ريف المُرتفعات (التّلال والهضاب)، بقيت سُلطتهم الإداريَّة محصُورة في رُقعة محلّيَّة مُتواضعة هي ريف المُرتفعات. والأهمُّ من ذلك أنَّ هذا يُظهر بأنَّه على الرّغم من تأكيد الكتاب المُقدَّس العبْريّ على تَفَرُّديَّة إسرائيل، فإنَّ هُناك مَمْلَكَةَ مُرتفعاتٍ من النّمط الشّرق أدنوي التّقليدي جداً، ظهرت في الشّمال في أوائل القرن التّاسع ق.م..

نَصْبٌ معْمَاريٌّ مَنْسيٌّ للحُكْم "العُمْريّ"؟

أصبح - الآن - من المُمكن البحث عن أمثلة إضافيَّة للمُدُن "العُمْرِيَّة" في أماكن أكثر بُعْداً، أبعد بكثير من مناطق المواريث القبائليَّة التّقليديَّة لشعب إسرائيل. تروي مسلَّة ميشا أنَّ "عُمْري" بنى مدينتَيْن في "مُوآب": "أتاروث" Ataroth، و"يَاحَاز" Jahaz، لتكونا - احتمالاً - معاقل حُدُوديَّة جنوبيَّة في شرقي الأُردُن (الشّكْل 16)، كلاهما ذُكر - أيضاً - في قوائم جَغرافيَّة مُختلفة في الكتاب المُقدَّس؛ حيثُ تمَّ تحديد هُويَّة "أتَارُوث" بأنَّها نفس موقع "خربة أتاروس" الذي لم يتمَّ تنقيبه بعد، والواقع جنوب غرب قرية "مادابا" Madaba الأُردُنيَّة العصريَّة. أمَّا

---

(1) لقد وُضعت عدَّة علامات سُؤال على التّواريخ التي ذُكرَت لشبكات الماء؛ حيثُ أصبح من المُمكن ربطها بفترة لاحقة من تاريخ مملكة إسرائيل. ومع ذلك؛ فإنَّ غيابها لا يُقَلِّل من عَظَمَة شبكة المُدُن الملَكيَّة التي يبدو أنَّها خُطِّطَت مركزياً، وبُنيت خلال القرن التّاسع ق.م.. (المؤلِّف).

"ياحاز" Jahaz؛ فعَمَليَّة التَّعرُّف عليها أصعب. لقد جاء ذكْرها مرَّات قليلة في الكتاب المُقدَّس العبْريّ بأنَّها تقع في حافَّة الصَّحراء قُرْب "أرنُون"، الوادي المُتعرِّج العميق، الذي يمرُّ خلال وسط مُوآب، من الصَّحراء الشَّرقيَّة إلى مخرجها في البحر الميِّت. يبدو أنَّ "العُمْريِّين" وسَّعوا حُكْمهم حتَّى وَصَلَ إلى هذه المنطقة، وهُناك على الحافَّة الشَّماليَّة لـ"أرنُون" منطقة خرابات نائية تعود للعصر الحديدي تُسمَّى "خرْبةُ المُدينَة" تحتوي على كُلِّ الخصائص التي اكتشفنا أنَّها النَّمَط المعماري المُميَّز لـ"العُمْريِّين".

يتألَّف هذا الموقع، الذي يقوم بتنقيبه - الآن - "ب. م. ميشيل دافييو" Daviau من جامعة ولفريد لورير Wilfrid Laurier في كندا، من قلعة كبيرة بُنيت على تلٍّ مُتطاولٍ (طُولي). يُحيط سُور من غُرف ملاجئ الحُرَّاس بمنطقة مساحتها حوالي هكتارَيْن ونصف، يتمُّ الدُّخُول إليها عبْر بوَّابة ذات ستِّ غُرف. أمَّا ميزَّاتها الدّفاعيَّة؛ فتشتمل على سُور طيني مائل وخندق مائي. تُوجد داخل المُجَمَّع بقايا بناية ضخمة تذكاريَّة، بما في ذلك أحجار منحوتة مُنهارة ومُحطَّمة. تُشير الصُّور الجويَّة المأخوذة للموقع أنَّ المُجمَّع بكامله كان مُستنداً على منصَّة اصطناعيَّة مملوءة بالتُّراب. كان المُستكشف الرَّائد للأُردُن نيلسون غلوويك Nelson Glueck، الذي زار الموقع في الثّلاثينات من (القرن الماضي)، مُعجباً جداً بميِّزات المُجَمَّع الذي قارنه بقلعة التَّلِّ الهائلة والشَّهيرة التي تعود للعصر الحديدي المُبكِّر في إنجلترا.

هل يُمكن أنْ تكون هذه الخرابات الأثريَّة النَّائية هي المخفر العُمْري القديم المُسمَّى "ياحاز" والمذكور في مسَلَّة "ميشا"؟ وهل من المُمكن أنْ يكون المُهندسون والمعماريُّون قد استخدموا - في بناء هذه القلعة الحُدُوديَّة النَّائية التَّابعة لـ"العُمْريِّين" - الخصائص النَّمَطيَّة لمشاريعهم البنائيَّة الكبيرة في المَمْلَكَة الشَّماليَّة غرب الأُردُن؟ هل من المُمكن أنْ يكونوا - كما هُو الحال في "السَّامرة" و"يَزْرَعيل" - قد استخدموا العمليَّات المُتطوِّرة لتحريك التُّربة وأسوار الدَّعْم والإسناد الضَّخمة لتحويل مُستوطنة صغيرة على قمَّة تلٍّ إلى معقل بارز؟ ربَّما كان "العُمْريُّون" أقوى حتَّى من ذلك - وربَّما كان تأثيرهم الثّقافي أبعد مسافة حتَّى أكثر - ممَّا يُعرَف حالياً[1].

---

(1) تمَّ تحديد تاريخ عيِّنة من الكربون 14 أُخذت من منطقة البوَّابة بأواخر القرن التَّاسع قبل الميلاد (حَصَلْتُ على هذه المعلومة عبر اتِّصال شخصي مع ميشيل دافيو الذي يقوم بعمل التّنقيب). لا يستبعد التَّاريخ الزّمني المُمكن لهذه القراءة بناءً يعود لمُنتصف القرن التَّاسع ق. م. ومع ذلك، لا يُمكننا أنْ نستبعد إمكانيَّة أنْ تُمثِّل هذه الميِّزات العمريَّة للموقع نُسخة مُوآبيَّة للنّشاط العُمراني في المملكة الشّماليَّة. (المؤلِّف).

قُوَّة التَّنوُّع:

من أين جاءت القُوَّة والثّروة التي مكّنت من تأسيس مثل هذه المَمْلَكَة التَّامَّة والمُحافظة عليها؟ أيُّ تطوُّرٍ حَدَثَ في بلاد التّلال الشّماليَّة أدَّى إلى بُرُوز الدّولة "العُمْرِيَّة"؟

سَبَقَ وَذَكَرْنَا كيف أنَّ الثّروات المحدودة نسبياً ليهُوذا، وعدد سُكَّانها الضئيل، جَعَلا من المُستبعد جداً أنْ يكون داود قد أحرز فُتُوحات أرضيَّة واسعة، أو أنْ يكون ابنه سُلَيْمَان قد استطاع أنْ يُدير أراضٍ واسعة. كما ذَكَرْنَا - أيضاً - كيف أنَّ ثروات ريف التّلال والهضاب الشّماليَّة كانت أغنى وعدد سُكَّانها كان أكثر بكثير. مع دمار المراكز الكَنْعَانيَّة في السُّهُول، ربَّما أثناء حَمْلَة الفرعون "شيشانق" Shishak في نهاية القرن العاشر ق.م، كان من المُمكن لأيِّ رجل قويّ شمالي مُحتمل، أنْ يتمكَّن من السَّيْطَرَة على الوُديان الخصبة للشّمال أيضاً. إنَّ هذا ينطبق على ما نراه في نماذج أكثر آثار "العُمْرِيِّين" الباقية بُرُوزاً. بتوسُّعهم من منطقة التّلال الأصليَّة في مَمْلَكَة إسرائيل الشّماليَّة نحو قلب الأراضي الكَنْعَانيَّة السّابقة في "مَجدُّو" و"حاصُور" و"جازَر"، ونحو أراضي جنوب سُوريا وعبْر الأُردُن، حقَّق "العُمْرِيِّين" حلم حُكَّام بلاد التّلال الذين كانوا - مُنْذُ قُرُون - يطمحون إلى تأسيس دولة إقليميَّة واسعة ومُتنوِّعة، تُسيطر على أراضٍ زراعيَّة غنيَّة وطُرُق تجارة دوليَّة نشطة. دولةٌ ستكون - بالضّرورة - مُجتمعاً مُتعدِّد الأعراق.

دَمَجَتْ مَمْلَكَة إسرائيل الشّماليَّة مُرتفعات "السّامرة" مع الوُديان الشّماليَّة، مُكَامِلَةً عدَّة أنظمة بيئيَّة مُختلفة، وسُكَّاناً مُتبايِنَيْن عرْقيّاً، ضمن دولتها الواحدة. كانت مُرتفعات "السّامرة" - الأرض الرّئيسيَّة للدّولة ومركز العاصمة - مسكونة منْ قبَل مُجتمعات قرويَّة تُعرِّفُ نفسها ثقافيَّاً ودينيَّاً بأنَّها إسرائيليَّة. في السُّهُول الشّماليَّة - وُديان جزريل والأُردُن - كان السُّكَّان القرويُّون يتألَّفون - بشَكْل رئيسي - من قُرَى فلاَّحين مُستقرِّين كانت مُرتبطة - بشَكْل وثيق، ولقُرُون عديدة - بدُول المُدُن الكَنْعَانيَّة. وبعيداً في الشّمال؛ كانت هُنَاك قُرَى مُرتبطة بنَحْوٍ أوثق بثقافة سُوريا الآراميَّة، وبفينيقِيِّ السّاحل.

و بشَكْل خَاصٍّ؛ كانت المجموعة السُّكَّانيَّة الكَنْعَانيَّة الكبيرة والحَيَويَّة التي بقيت في الشّمال، تحتاج أنْ يتمَّ إدماجها ضمن الجهاز الإداري لأيِّ دولة كاملة تامَّة. إنَّ المزيج السُّكَّاني الفريد لأهالي المَمْلَكَة الشّماليَّة، خاصَّة العلاقة بَيْن الإسرائيليِّين والكَنْعَانيِّين، لم يغب عن

انتباه عُلماء الكتاب المُقدَّس، حتَّى قبل الاكتشافات الآثاريَّة الكبيرة. اقترح العالم الألماني "البريخت الت"، استناداً إلى رواية الكتاب المُقدَّس عن الاضطراب الدِّيني ضمن مَمْلَكَة "العُمْرِيِّين"، بأنَّ "العُمْرِيِّين" كانوا قد طوَّروا نظامَ حُكْمٍ ثُنائيّاً، انطلاقاً من عاصمتَيْهِم الرَّئيسيَّتَيْن؛ حيثُ كانت "السَّامرة" تعمل كَمَركَز إداري للسُّكَّان الكَنْعَانِيِّين، في حين تخدم "يَزْرَعيل" كَعَاصمة للإسرائيليِّين الشَّماليِّين، لكنَّ المُكْتَشفَات الآثاريَّة والتَّاريخيَّة الأخيرة تُشير إلى عكس ذلك تماماً. كان السُّكَّان الإسرائيليُّون مُتمركزون - في الواقع - في منطقة ريف التِّلال حول "السَّامرة"، في حين كانت "يَزْرَعيل"، في قلب الوادي الخصب، في منطقة ذات استمراريَّة ثقافيَّة (حضاريَّة) كَنْعَانيَّة واضحة.

في الواقع؛ إنَّ الثَّباتَ الواضحَ في نماذج الاستيطان والهيكلَ أو المُخطَّط العامّ غيرَ المُتغيِّر للقُرَى الصَّغيرة في وادي "يَزْرَعيل"، مُؤشِّراتٌ واضحةٌ على أنَّ "العُمْرِيِّين" لم يُحدثوا تغييرا هاماً في النِّظام الكَنْعَاني الرِّيفي في السُّهُول الشَّماليَّة.

بالنِّسبة لـ"العُمْرِيِّين"؛ كان لمُهمَّة الدَّمْج السِّياسي أهميَّتها الضَّاغطة بسبب بُرُوز دُوَل مُنافسة في الوقت نفسه، في المناطق المُجاورة؛ مثل دمشق، وفينيقيَّة، ومُوآب، لكُلٍّ منها ادِّعاءاته الثَّقافيَّة القويَّة بشأن المجموعات السُّكَّانيَّة التي تعيش داخل حُدُود إسرائيل. ولذلك كانت فترة أوَّل القرن التَّاسع ق.م، زمناً يتطلَّب تعريف وتحديد الحُدُود الوَطَنيَّة، بل حتَّى نوعاً من الحُدُود الإقليميَّة. ومن هُنا؛ فإنَّ إنشاء "العُمْرِيِّين" لمجمَّعات قلاع وتحصينات قويَّة، بعضها يشتمل على حيٍّ للقُصُور، في قلب الأرض الإسرائيليَّة، وفي وادي يَزْرَعيل، وعلى الحُدُود مع "آرام - دمشق"، وحتَّى في مناطق أبعد من ذلك، يجب أنْ يُنظَر إليه على أنَّه كان يُحقِّق وظيفتَيْن: ضرورات إداريَّة، ودعايَة مَلَكيَّة. وَصَفَ عالمُ الكتاب المُقدَّس، البريطاني "هاغ ويليامسون" Hugh Williamson هاتَيْن الوظيفتَيْن كعُرُوض بصريَّة لقُوَّة ونُفُوذ دولة "العُمْرِيِّين"، يهدف إلى التَّأثير على، وإرعاب، وتخويف، السُّكَّان، سواءً داخل الوَطَن، أو الذين يعيشون على الحُدُود.

من بَيْن جميع مصادر القُوَّة التي كانت تحت تصرُّف "العُمْرِيِّين"، وربَّما أكثرها أهميَّة للزِّراعة والنَّشاطات العُمرانيَّة والحرب، كان امتلاكهم لسُكَّان مُتنوِّعي الأعراق، وغير

مُتجانسين. وعلى الرّغم من أنَّه من الصّعب تقدير عدد سُكَّان مَمْلَكَة إسرائيل في القرن التّاسع بدقَّة كبيرة، إلاَّ أنَّ عمليَّات المسح الواسعة في المنطقة تُشير إلى أنَّ عدد السُّكَّان في مَمْلَكَة إسرائيل الشّماليَّة في القرن الثّامن ق.م، - أيْ بعد قرن من عهد "العُمْرِيِّين" - رُبَّما يكون قد وَصَلَ إلى 350 ألف نسمة.

كانت إسرائيل - في ذلك الوقت، بالتّأكيد - أكثر الدُّول كثافة سُكَّانيَّة في المشرق؛ حيثُ كان لديها عددٌ أكثر بكثير من السُّكَّان ممَّا تمتلكه يهُوذا، أو مُوآب، أو عمُّون. المُنافس المُحتمل الوحيد لها كان مَمْلَكَة "آرام - دمشق" في جنوب سُوريا، التي - كما سنراه بتفصيل أكبر في الفَصْل التّالي - كانت تُنافس إسرائيل - بشَكْل مرير - على الهيمنة الإقليميَّة.

حَدَثَتْ تطوُّرات إيجابيَّة خارج المنطقة أفادت كثيراً المَمْلَكَة "العُمْرِيَّة" اقتصادياً، فقد تزامن صُعُودها مع حَرَكَة إحياء تجارة شرق البحر الأبيض المُتوسِّط ودُخُول موانئ اليُونان، وقُبرُص، والسّاحل الفينيقي بشكْل قوي، من جديد، في التّجارة البحريَّة. إنَّ التّأثير الفنِّي الفينيقي على الثّقافة الإسرائيليَّة، والظُّهُور المُفاجئ لكميَّات كبيرة من الأواني ذات النَّمَط الفينيقي - القُبرُصي - في مُدُن مَمْلَكَة إسرائيل، وليس بنفس الوقت - شهادة الكتاب المُقدَّس العبْري" أنَّ "آخاب" تزوَّج من أميرة فينيقيَّة، كُلُّ ذلك يبدو أنَّه يُؤشِّر إلى أنَّ إسرائيل كانت مُشاركاً فعَّالاً في هذا الإحياء الاقتصادي كَمُزوِّد بالمُنتجات الزّراعيَّة القيِّمة، وكَسَيِّد على بعض أهمّ طُرُق التّجارة البريَّة في المشرق.

وبناءً عليه؛ فإنَّ فكرة "العُمْرِيِّين" عن دولة تُغطِّي أراضٍ واسعة في المُرتفعات والسُّهُول، أعادت - بنَحْو ما - إحياء الأفكار، والمُمارسات، والحضارة الماديَّة لكَنْعَان العصر البرُونزي، في القُرُون التي سبقت صُعُود إسرائيل.

في الواقع؛ من وجهة النَّظَر التَّصوُّريَّة والوظيفيَّة أشبهت العواصمُ "العُمْرِيَّة" الكبيرة عواصمَ دُول المُدُن الكَنْعَانيَّة الكبيرة في العصر البرُونزي المُتأخِّر، التي حَكَمَت على رُقَع (مُتنوِّعة) من النّاس والأراضي.

وهكذا؛ فمن زاوية الشَّكْل والوظيفة، لم يكن المُخطَّط العامُّ لمدينة "مَجدُّو" في القرن التّاسع ق.م، مُختلفاً جداً عن مُخطَّطها العامّ في العصر البرُونزي المُتأخِّر. فقد خُصِّصَت

أجزاءٌ كثيرةٌ من التّلال للأبنية العامّة والمناطق المفتوحة، بَيْنما شغلت الأحيـاء السَّكَنيَّة للأهـالي المحلّيّين مناطق محدودة فقط. وكما كان الأمر فـي "مَجدُّو" الكَنْعَانيَّة كـان السُّكّان الحَضَريُّون يتألَّفون - بشَكْل رئيسي - من النُّخبة الحاكمة، التي كانت تُسيطر على المناطق الدّاخليَّة الرّيفيَّة. وقد ظهرت استمراريَّة ثقافيَّة مُماثلة - بشَكْل رائع وواضح - في مدينة "تعنـاخ" المُجاورة؛ حيثُ يحمل مركز عبادة رائع ومُزَيَّن - باقٍ من القرن التّاسع ق. م، - سمَات مُفصَّلة مُشتقَّة من التّقاليد الكَنْعَانيَّة في العصر البرُونزي المُتأخّر.

ومن هُنا؛ نفهم لماذا كان من الصّعب الإصرار - من وجهة نَظَر علْـم آثاريَّـة محضـة - على أنَّ مَمْلكَة إسرائيل - كَكُلٍّ - كانت - في يوم ما - إسرائيليَّة محضة، سواء من النّاحيـة العرْقيَّة، أو الثّقافيَّة، أو الدِّينيَّة، حسبما نفهمه مـن منظور كُتّابْ الكتـاب المُقدَّس العـبْريّ التّـالين. إنَّ إسرائيليَّة المَمْلكَة الشّماليَّة كانت - من عدَّة نواحٍ - مُجرَّد فكرة يَهْوَذَويَّة مَلَكيَّة مُتأخّرة.

الأوغاد النّهائيُّون:

كان كاتب سفْري المُلُوك مُهتماً بأنْ يُظهر للقارئ أنَّ "العُمْريِّين" كانوا أشراراً، وأنّـهم نـالوا عقابهم الإلهي علـى سُلُوكهم المُتغطـرس الشّرِّير. كـان عليـه - بـالطّبع - أنْ يروي التّفـاصيل والأحداث عن "العُمْريِّين"، التـي كـانت معروفـة جيِّداً مـن خـلال القَصَص الشّعبيَّة والتّقـاليد السّابقة، ولكنَّه أراد - من بَيْن كُلّ تلك القَصَص - أنْ يُبرز الجـانب المُظلـم لـ "العُمْريِّين". لـهذا؛ قلَّل من شأن قُوَّتهم العسكريَّة بروايته لقصَّة الحصار الآرامي لمدينة "السّامرة"، والـذي أُخـذَ من أحداث حَدَثَتْ في وقت تالٍ، وباتّهامه لـ "آخَاب" بأنَّه في لحظة النّصر عصى أمر الله الـذي كـان قد أمره بإعدام وتصفية عدوِّه. لقد رَبَطَ كاتب الكتاب المُقدَّس العبْريّ عَظَمَةَ قَصْـر "السّـامرة"، وَعَظَمَةَ المجمَّع المَلكي في "يَزْرَعيلَ" - بنَحْو وثيق - بالوثَنيَّة والظُّلم الاجتمـاعي. لقـد رَبَـطَ صُـور العَظَمَة الرّهيبة للعَرَبَات الإسرائيليَّة في المعركة بالنّهاية المُروّعة للأُسرة العُمْريَّة.

لقد أراد إزالة صفة المشروعيَّة عن حُكْم "العُمْريِّين"؛ ليُظهر أنَّ كُلَّ تاريخ المَمْلَكَة الشّـماليَّة برُمَّته كان تاريخ الخطيئة والإثم، الذي أدَّى إلى البـؤس والدّمـار الحتمـي. إنّـه يقـول إنّـه كُلَّمـا ازدهرت إسرائيل في الماضي ازدادت حقارة وسلبيَّة مُلُوكها.

اشتملت الصّفة الحقيقيّة لإسرائيل تحت حُكْم "العُمْرِيّين" على قصّة استثنائيّة من القُوَّة العسكريَّة، والإنجازات المعماريَّة، و(بقدر ما أمكننا أنْ نُحدِّده) التّطوُّر الإداري. لقد جَلَبَ "عُمْري" وخُلفاؤه على أنفسهم كراهيَّة الكتاب المُقدّس العبْريّ؛ لأنَّهم ـ بالضّبط ـ كانوا أقوياء، ولأنَّهم ـ بالضّبط ـ نجحوا في تحويل المَمْلكَة الشّماليَّة إلى قُوَّة إقليميَّة هامَّة، تغلّبت على مَمْلكَة يهُوذا الرّيفيَّة الرّعويَّة الهامشيَّة الفقيرة تماماً في الجنوب. إنَّ إمكانيَّة أنْ يزدهر المُلُوك الإسرائيليُّون الذين تلاءموا مع الأُمم، وتزوَّجوا من النّساء الأجنبيَّات، وبنوا المعابد والقُصُور ذات النَّمَط الكَنْعَاني، كانت (من وجهة نَظَر كاتب سفْري المُلُوك) إمكانيَّة غير واردة بتاتاً، وغير مُحتَمَلَة، بل مُستحيلة.

وعلاوةً على ذلك؛ فإنَّ الانفتاح والعالميَّة التي مارسها "العُمْريُّون" كانت ـ من وجهة نَظَر يهُوذا المَلكيَّة المُتأخِّرة ـ ذنباً وخطيئة. لقد كان التَّورُّط بطُرُق الشُّعُوب المُجاورة ـ طبقاً للعقيدة التّثنويَّة للقرن السّابع ـ انتهاكاً مُباشراً للأوامر الإلهيَّة، لكنْ؛ مازال هُناك درسٌ يُمكن تعلُّمه من هذه التّجربة.

في الوقت الذي تمَّت فيه كتابة وتأليف سفْرَيْ المُلُوك، كان حُكْم التّاريخ قد صَدَرَ سابقاً. لقد أُطيح بحُكْم "العُمْريّين"، ولم يعد لمَمْلكَة إسرائيل وُجُود. ورغم ذلك، وبمُساعدة الأدلَّة الآثاريَّة، وشهادة المصادر الخارجيَّة، يُمكننا ـ اليوم ـ أنْ نرى كيف أخفى التّصوير الدِّينيّ الواضح في الكتاب المُقدَّس ـ الذي حَكَمَ على "عُمْري"، و"آخاب"، و"إيزَابَل" بأنْ يكونوا مادَّة للسُّخرية والاحتقار على مدى القُرُون ـ كيف أخفى ـ بشَكْل ماهرٍ ـ الوَصْفَ الحقيقي للمَمْلكَة الحقيقيَّة الأُولى لإسرائيل.

الفصل (8):

في ظلّ إمبراطُوريَّة (842 . 720 ق.م)

يُخيِّم إحساسٌ مُظلمٌ بنذير شُؤم على مَمْلكَة إسرائيل، وهي تقترب ـ حسب رواية الكتاب المُقدَّس ـ من نهايتها المأساويَّة. بدا أنَّ المُعاناة وفُقدان المُمتلكات والنَّفْي، أصبحت القدر المحتوم لشعب المَمْلكَة الانفصاليَّة، عقاباً على أعماله الآثمة. ذلك لأنَّه، عوضاً عن الوفاء للحَرَم القُدْسي في أُورشليم، وعبادة يَهْوَه وحده، ونَفْي كُلّ الآلهة الأُخرى، قام شعب إسرائيل الشّماليَّة ـ لا سيما مُلُوكُهُ الآثمون ـ بجَلْب سلسلة من الكوارث، التي ستُؤدِّي ـ في النّهاية ـ إلى دمارهم. لقد كانت غزوات الجُيُوش الأجنبيَّة وتدمير مَمْلكَة إسرائيل جُزءاً أساسياً من الخُطَّة الإلهيَّة.

إنَّ تفسير الكتاب المُقدَّس العبْريّ لمصير المَمْلكَة الشّماليَّة تفسير لاهُوتيٌّ محض. وعلى العكس من ذلك؛ يُقَدِّم علْم الآثار منظوراً مُختلفاً لأحداث القرن الذي تلا سُقُوط "العُمْريِّين".

بَيْنما استمرَّت يهُوذا في فقرها وعُزلتها، أغْرَى غنَى مَمْلكَة إسرائيل الطّبيعي، والعدد الكبير لسكَّانها، ممالك الجوار، جاعلاً منها هَدَفاً للسّياسات الإقليميَّة المُعقَّدة للفترة الآشُوريَّة. لقد أثار ازدهار وقُوَّة "العُمْريِّين" غَيْرَة جيرانهم، ومُنافستهم العسكريَّة، كما أثار الأطماع الطَّمُوحة للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة العظيمة. كما أحدثت ثروة مَمْلكَة إسرائيل تَوَتُّرات اجتماعيَّة مُتنامية وإدانات نبويَّة من الدّاخل.

نستطيع ـ الآن ـ أنْ نرى أنَّ سُوء حظّ إسرائيل الأعظم ـ وسبب دمارها، ونَفْي عدد كبير من أبناء شعبها ـ كان يعود لأنَّها كانت مَمْلكَة تعيش في ظلّ إمبراطُوريَّة عظيمة، ونجحت بالازدهار بنَحْو جيِّد أكثر من اللاَّزم.

الكُفران ، والرّحمة الإلهيّة ، وسُقُوط إسرائيل النّهائي:

يُبيِّنُ سفرا المُلُوك كيف أنَّ جميع نُبُوءات "إيليَّا" المُخيفة بشأن هلاك آل "عُمْري" تحقّقت حَرْفيّاً. إلاّ أنَّ رواية الكتاب المُقدَّس العبْريّ تتواصل لتُري أنَّ استئصال الأُسرة المَلكيَّة القديمة لم يُنهِ مُتابعة إسرائيل لأعمالها الوَثنيَّة والشِّرْكيّة.

بعد سُقُوط "العُمْريِّين"، سار الملك المسوح حديثاً، "ياهو" بن "نمْشي"، (الذي حَكَمَ من 842 إلى 814 ق. م)، على خُطَى "يَرُبْعَام"، و"عُمْري"، و"آخاب" في قلّة اهتمامهم بأورشليم (القُدْس). ذلك أنَّه على الرّغم من قيامه بذَبْح كُلّ أنبياء وكَهَنَة وعُبّاد الإله "بَعْل" في السّامرة، وتحويله معبد "بَعْل" نفسه إلى مرحاضٍ عامٍّ (سفر المُلُوك الثّاني 10/ 18 ـ 28)، يُخبرنا الكتاب المُقدَّس أنَّ "ياهو" [لَمْ يَحِدْ عَنْ خَطَايَا يَرُبْعَامَ التي استَغْوَى بهَا الإسْرَائيليِّين، وَجَعَلَهُمْ يُخْطِئُونَ؛ إذْ أَبْقَى عَلَى عُجُول الذَّهَب التي في "بَيْت إيل" وَفي "دَانَ".] (سفْر المُلُوك الثّاني: 10/ 29). بكلمة أُخرى؛ على الرّغم من أنَّ "ياهو" أزال عبادة "بَعْل"، إلاّ أنَّه أخفق في إلغاء وإبطال مراكز العبادة الشّماليَّة المُنافسة التي كانت تتحدَّى السّيادة الدّينيَّة لأُورشليم. كما لم يُبطل أيُّ أحد من مُلُوك إسرائيل الذين تلوه مراكز العبادة تلك.

كان العقاب سريعاً، كما حَكَمَ بذلك النّبي "إيليَّا". هذه المرَّة كانت وسيلة الله وعامله في دمار إسرائيل: "حَزائيل"، مَلك "آرام دمشق"، الذي هَزَمَ إسرائيل في عبْر الأُرْدُن، وفي حَمْلة الدّمار أسفل السّهل السّاحلي للبحر الأبيض المُتوسّط (سفْر المُلُوك الثّاني 10/ 32 ـ 33؛ 12/ 17 ـ 18؛ 13/ 3 و7 و22). لقد كانت تلك الفترة، فترة انحطاط وتدهور للمَمْلَكَة الشّماليَّة؛ لأنَّه في طوال أيّام "ياهو" وابنه "يُوآحَاز"، كانت إسرائيل تحت الضّغط المُباشر لدولة "آرام دمشق". لقد هُزِمَ جيش إسرائيل، وتقلّصت أرضها، إلاّ أنَّ زمن تأديب عامَّة شعب مَمْلَكَة إسرائيل لم يحنْ بَعْدُ؛ لأنَّه: [فَحَنَّ الرَّبُّ عَلَيْهِمْ، وَرَحِمَهُمْ، وَالْتَفَتَ إلَيْهِمْ لأَجْل عَهْده مَعَ إبْرَاهِيمَ وَإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَلَمْ يَشَأ أنْ يَسْتَأْصلَهُمْ، وَلَمْ يَطرَحْهُمْ عَنْ وَجْهه حتَّى الآنَ.] (سفْر المُلُوك الثّاني 13/ 23).

وهكذا بارك اللهُ الملكَ الإسرائيلي التّالي "يُوآش"[1] Joash - على الأقلّ بشَكْل مُؤَقّت - وأعاد إلى إسرائيل المُدُن التي كانت قد احتلّتهَا آرام (سفر المُلُوك الثّاني 13/ 25).

وَبَدَتْ ثروات إسرائيل قد أخذت بتغيُّرٍ مُفَاجئ نحو الأحسن - حتّى بعد الغزو التّأديبي الذي قام به "يُوآش" ضدّ يهُوذا - عندما اعتلى ابنه عرش إسرائيل. هذه - أيضاً - كانت مسألة رحمة إلهيَّة لابن "يُوآش" المُسمَّى "يَرُبْعَامَ الثّاني"، الذي وَلِيَ الحُكْم سلْمياً لمُدَّة 41 سنة تالية (788 - 747 ق. م)، - بعد أكثر المُلُوك الشّماليِّين إثماً وعصياناً لله -. وعلى الرّغم من أنَّ هذا الملك لم يبتعد عن أيٍّ من ذُنُوب "يَرُبْعَامَ" الأصليَّة، خاصّة؛ المُحافظة على مراكز العبادة الشّماليَّة الوثَنيَّة، وعلى الرّغم من تردُّد أصداء الاحتجاجات النّبويَّة لـ "عاموس" و"هُوشَع" في كافّة أنحاء البلاد، إلاّ أنّ "يَرُبْعَامَ الثّاني" : [اسْتَرْجَعَ لإِسْرَائِيلَ أَرَاضِيهَا الْمُمْتَدَّةَ مِنْ حَمَاةَ إِلَى الْبَحْرِ الْمَيِّت، تَحْقِيقاً لِكَلاَمِ الرَّبِّ، الذي نَطَقَ به عَلَى لِسَانِ عَبْدِه يُونَانَ بْنِ أَمِتَّايَ النَّبِيِّ مِنْ أَهْلِ جَتَّ حَافِرَ، 26 لأَنَّ الرَّبَّ رَأَى مَا يُعَانِيه الإِسْرَائِيلِيُّونَ مِنْ عَبِيدٍ وَأَحْرَارٍ مِنْ ضِيقٍ أَلِيمٍ مَرِيرٍ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ مُعِينٍ. 27 وَإِذْ لَمْ يَكُنِ الرَّبُّ قَدْ قَضَى بِمَحْوِ اسْمِ إِسْرَائِيلَ مِنْ تَحْتِ السَّمَاء، أَنْقَذَهُمْ عَلَى يَدِ يَرُبْعَامَ بْنِ يُوآشَ.] (سفر المُلُوك الثّاني 14/ 25 - 27).

إلاّ أنّ فترة البركة الإلهيَّة هذه لم تدم طويلاً؛ لأنّ الله - كما يُبيِّنُ سفر المُلُوك الثّاني 10/ 30 - وعد "ياهو" بأنّ أربعة أجيال - فقط - من ذُرّيّته سيحكمون[2].

وهكذا اغْتِيلَ "زكريّا" بن "يَرُبْعَامَ الثّاني" بعد ستّة شُهُور - فقط - من تولّيه الحُكْم، وَدَخَلَتْ إسرائيل في حرب أهليَّة، وضُغُوط خارجيَّة أُخرى، وسُرعان ما قُتِلَ القاتل "شَلُّوم"، منْ قِبَل مُدَّعٍ للملك أكثر وحشيَّة منه اسمه "مَنَحيم بن جَادي"، الذي حَكَمَ السّامرة لعشر سنوات (747 - 737 ق. م). عندئذٍ؛ أعد الله عاملاً جديداً لتأديب المَمْلَكَة الشّماليَّة، وقدَّرَ

---

(1) يذكر الكتاب المُقدّس مَلكَيْن من عصر واحد تقريباً - أحدهما لإسرائيل والآخر ليهُوذا - كلاهما يُحال إليه بالأسماء العبريَّة البديلة يهُوآش ويُوآش. ولأجل التّوضيح، سنُشير إلى الملك الشمالي (الذي حَكَمَ 800 - 784 ق. م.) باسم "يُوآش" وإلى الملك الجنوبي (الذي حَكَمَ 836 - 798 ق. م.) كـ "يهوآش." (المُؤلّف).

(2) نصُّ الآية المُشار إليها هُو: [30 وَقَالَ الرَّبُّ لِيَاهُو: "مِنْ حَيْثُ أَنَّكَ قَدْ أَحْسَنْتَ بِتَنْفِيذِ مَا هُوَ صَالِحٌ فِي عَيْنَيَّ، وَأَجْرَيْتَ عَلَى بَيْتِ أَخْآبَ مَا أَضْمَرْتُهُ فِي قَلْبِي، فَإِنَّ أَبْنَاءَكَ يَتَرَبَّعُونَ عَلَى عَرْشِ إِسْرَائِيلَ إِلَى الْجِيلِ الرَّابِعِ".]. (المُترجم).

سلسلةً من الأحداث أدَّتْ إلى دمارها النّهائي . كان ذلك العامل هُو الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة العظيمة، التي جاءت جيُوشها، وطالبت بضرائب باهظة: [فَجَاءَ فُولُ مَلكُ أشُّورَ عَلَى الأَرْض، فَأَعْطَى مَنَحيمُ لفُولَ أَلْفَ وَزْنَة منَ الْفضَّة؛ لتَكُونَ يَدَاهُ مَعَهُ؛ ليُثَبِّتَ الْمَمْلَكَةَ في يَده. 20 وَوَضَعَ مَنَحيمُ الْفضَّةَ عَلَى إسْرَائيلَ عَلَى جَميع جَبَابرَة الْبَأْس؛ ليَدْفَعَ لملك أشُّورَ خَمْسينَ شَاقلَ فضَّة عَلَى كُلِّ رَجُل. فَرَجَعَ مَلكُ أشُّورَ وَلَمْ يُقمْ هُنَاكَ في الأَرْض.] (سفْر المُلُوك الثّاني: 15/ 19 ـ 20).

كانت الضُّغُوط الخارجيَّة والدّاخليَّة تتراكم. وقُتلَ ابنُ "مَنَحيم" وخليفته "فَقْحيا" منْ قبَل ضابط عسكري اسمه: "فَقْحُ بنُ رَمَلْيَا"، ولكنْ؛ في تلك الأثناء، لم يعد الآشُوريُّون مُقتنعين بالجزية، وبدؤوا يُفكِّرون بالاستيلاء الكامل على أرض إسرائيل الغنيَّة وامتلاكها لأنفسهم: [في أيَّام فَقْح مَلك إسْرَائيلَ، جَاءَ "تَغْلَثْ فَلاَسرُ" مَلكُ أشُّورَ، وَأَخَذَ عُيُونَ وَآبَلَ بَيْت مَعْكَةَ وَيَانُوحَ وَقَادشَ وَحَاصُورَ وَجلْعَادَ وَالْجَليلَ وكُلَّ أَرْض نَفْتَالي، وَسَبَاهُمْ إلَى أشُّورَ.] (سفْر المُلُوك الثّاني 15/ 29). وهكذا؛ تمَّ فَتْحُ الوُديان الشّماليَّة والجليل عام (732 ق. م)، وأُبْعد سُكَّانها، على عكس الوُعُود الإلهيَّة التي أعطاها الله للإسرائيليِّين عند غزوهم الأوَّلي لكَنْعَان بوراثتهم لأرضها، وعيشهم الآمن فيها. فَقَدَتْ مَمْلَكَة إسرائيل بعض أغنى أراضيها، وتقلَّصت إلى مُجرَّد مُرتفعات حول العاصمة "السّامرة". ومع هذا التَّحوُّل الكارثي للأحداث، تمَّ اغتيال "فقح" المُغتصب للسُّلْطَة ـ وكان فقح هذا رابع ملك إسرائيلي يتمُّ اغتياله خلال خمسة عشر سنة فقط ـ. وأصبح "هوشَعْ"، قاتل "فَقْح" وخليفته في الحُكْم، آخر مُلُوك مَمْلَكَة إسرائيل.

ومع وُصُول "شَلْمَانَصَّرْ" الخامس، الملك الآشُوري العُدواني الجديد، بدأت الكمَّاشة الآشُوريَّة تُضيِّقُ الخناق على ما تبقَّى من مَمْلَكَة إسرائيل. في هذه الأثناء؛ أعلن "هوشَعْ" عن نفسه أنَّه تابعٌ مُوالٍ للآشُوريِّين، وَعَرَضَ على "شلمانَصَّرْ" دَفْعَ الجزية له، ولكنَّه حاول ـ سراً ـ أنْ يتحالف مع ملك مصر للقيام بثورة مفتوحة. وعندما عَلمَ "شلمانَصَّرْ" بالمُؤامرة، أخذ "هوشَعْ" أسيراً، وغزا ما بقي من مَمْلَكَة إسرائيل. حاصر الملكُ الآشُوريُّ العاصمةَ الإسرائيليَّةَ "السّامرةَ" لمُدَّة ثلاث سنوات، وتمكَّن ـ في النّهاية ـ من فَتْحها، سنة 720 ق. م، و: [أَخَذَ مَلكُ

أَشُّورَ السَّامرَةَ، وَسَبَى إِسْرَائيلَ إِلَى أَشُّورَ، وَأَسْكَنَهُمْ في حَلَحَ وَخَابُورَ نَهْرِ جُوزَانَ، وَفي مُـدُن مَادي.] (سفر المُلُوك الثّاني 17/ 6).

ولم تنته القصَّة بالفَتْح والإبعاد، بل بعد نَفْي الإسرائيليِّين من أرضهم إلى بلاد ما بَيْن النَّهرَيْن، جَلَبَ الآشُوريُّون مُستوطنين جُدُداً إلى إسرائيل: [وَأَتَـى مَلِكُ أَشُّورَ بِقَوْمٍ مِنْ بَابِلَ وَكُوثَ وَعَوَّا وَحَمَاةَ وَسِفَرْوَايِمَ، وَأَسْكَنَهُمْ فِي مُدُنِ السَّامِرَةِ، عِوَضاً عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَامْتَلَكُوا السَّامِرَةَ، وَسَكَنُوا فِي مُدُنِهَا.] (سفر المُلُوك الثّاني 17/ 24). وهكذا ضاعت قبائل إسرائيل الشّماليَّة العشرة بَيْن الأُمم البعيدة. ولم تبقَ - الآن - إلاَّ مَمْلكَة يهُوذا، بمعبدها ومُلُوكها الدّاوديِّين، لتُواصل تنفيذ وصايا الله، ولتُعيد أرض إسرائيل.

نظرة أقرب إلى تاريخ إسرائيل المُتأخِّر:

كثيراً ما يتحدَّث عُلماء الآثار عن فترات طويلة من الزّمن لا يحدث فيها أيُّ تغيير، ولكنَّ حقيقة الأمر هي أنَّ سبب ذلك هُو أنَّ طبيعة اكتشافاتهم تجعل من الصّعب التَّعرُّف على تقسيمات تسلسل الأحداث الزّمنيَّة. وفي النّهاية؛ لا يُوجد مُجتمع بشري يُمكنه أنْ يبقى ثابتاً بدُون أيّ تغيير جوهري لُمدَّة تصل إلى مئتَيْ عام. ومع ذلك؛ كان هذا هُو الفَهْم التّقليدي لعُلماء الآثار للمملكة الشّماليَّة، وذلك لأنَّه مُنْذُ عشرينات (القرن الماضي) نَقَّبَ عُلماء الآثار بعض أهمِّ مواقع مَمْلَكَة إسرائيل، ولاحظوا أنَّه لا يُوجد أيُّ تَغَيُّرٍ هامٍّ سوى دمارها النّهائي. وكما كانت الحالة في الدّراسة الآثاريَّة لـ "العُمْرِيِّين"، لم يُعَدّ التّاريخ المُستقلّ لإسرائيل في الفترة بعد العُمْريَّة تاريخاً مُشكلاً أو مُهماً بنَحْو خاصٍّ من وجهة نَظَر علْم الآثار. لقد وَصَفَ عُلماء الآثار - في ترديدٍ غير واعٍ للتّفسيرات اللاّهُوتيَّة للكتاب المُقدَّس - استمراريَّة رتيبة تلاها دمار حَتْمي. تمَّ إيلاء أهمِّيَّة قليلة جداً للدّيناميكيَّات الدّاخليَّة للمملكة وتاريخها الاقتصادي (باستثناء بعض التّأمُّلات لمجموعة فَرْديَّة من إيصالات المحاصيل من "السّامرة". وكما سنرى، تُعَدُّ هذه الأُمُور مناطق حاسمة في البحث، إذا أُردْنا أنْ نتحرَّك خارج تفسيرات الكتاب المُقدَّس العبْريّ اللاّهُوتيَّة المحضة لتاريخ إسرائيل؛ أيْ أنَّ انهيارها وانتهاءها كان عقاباً مُباشراً وحتمياً على معاصيها. لقد كانت الـ 120 سنة من التّاريخ الإسرائيلي الذي تلا سُقُوط

"العُمْرِيِّين" - في الواقع - فترة تغيُّر اجتماعي قَويّ في المَمْلَكَة، وفي التَّقلُّبات الاقتصاديَّة، وفي الاستراتيجيَّات الدّائمة التَّحوُّل للنّجاة من تهديد الإمبراطُوريَّة.

كان أحد الأسباب الرّئيسيَّة لسُوء الفَهْم هذا، نظام التّأريخ التّقليدي، والذي يميل إلى تجميع كُلّ تاريخ المَمْلَكَة الشّماليَّة - من صعُودها إلى سقُوطها - في كُتلة زمنيَّة تاريخيَّة واحدة. لقد اعتُقِدَ أنَّ كثيراً من المراكز المُهمَّة في وادي "يَزْرَعيل" وفي ساحل البحر الأبيض المُتوسِّط القريب، مثل "مَجدُّو" و"يُقْنيَام" و"دُوْر" إنّما تحتوي على طبقة واحدة، تُغطّي كامل تاريخ مَمْلَكَة إسرائيل من "يَرُبْعَام" الأوّل (في الواقع؛ مُنْذُ حَمْلَة "شيشَانق" عام 626 ق.م) إلى سُقُوط "السّامرة" سنة 722 ق.م، هذا؛ على الرّغم من وُجُود شواهد على التَّغيُّرات الرّئيسيَّة والهزائم العسكريَّة التي حَدَثَتْ أثناء هذه الفترة الطّويلة، والتي كان أهمّها غزو "حَزائيل" عاهل دمشق لإسرائيل، كما هُو مُسجَّل في الكتاب المُقدَّس، وفي مسَلَّة "دان" التي دوَّنها كُتَّاب "حَزائيل" نفسه.

الجدول 4 المُلُوك الآشُوريُّون الذين لهم تدخُّلٌ في تاريخ إسرائيل ويهُوذا(*)

شلمانصَّر الثّالث	859 - 824 ق.م.
أَدَدْ نيرَاري الثّالث	811 - 783 ق.م.
تَغلات بيلاصَّر الثّالث	745 - 727 ق.م.
شلمانصَّر الخامس	727 - 722 ق.م.
سَرْجون الثّاني	722 - 705 ق.م.
سَنَحريب	722 - 705 ق.م.
أسرحدون	681 - 669 ق.م.
آشُور بانيبال	669 - 627 ق.م.

كان هُناك شيءٌ خطأٌ في الفَهْم الآثاري التّقليدي: كيف أَمْكَنَ لـ "حَزائيل" أنْ يستولي على "دان"، وأنْ ينشر الدّمار في أراضي المَمْلَكَة الشّماليَّة دُون أنْ يترك أيَّ أثر آثاري محسوس لهذا الدّمار؟

(*) طبقاً لـ "كوجان وتدمر"، المُلُوك 2.

آرام في إسرائيل:

كان توغُّل "حَزائيل" في الأراضي التي كانت سابقاً تحت سيطرة إسرائيل، مُدمِّراً بشَكْل واضح، وأثَّرَ كثيراً في إضعاف قُوَّة المَمْلَكَة الشّماليَّة. في المسَلَّة المشهورة في مُوآب، يفتخر الملك "ميشا" بأنَّه نَجَحَ في الاستيلاء على الأراضي المُوآبيَّة من إسرائيل، واستطاع التَّوسُّع - بنَحْو إضافي - حتَّى أراضٍ إسرائيليَّة أكثر إلى الشّمال. يذكر الكتاب المُقدَّس أنَّ "حَزائيل" انتزع من إسرائيل جميع المناطق التي كانت تُسيطر عليها سابقاً في عبْر الأُردُن شمال مُوآب (سفر المُلُوك الثّاني 10/ 32 - 33 [1]). إلاَّ أنَّ الدّليل الأكثر أهمِّيَّة على هُجُوم "حزائيل" يُوجد في نَقْش تل دان. بَيْنما تربط رواية الكتاب المُقدَّس سُقُوط "العُمْرِيِّين" ومذبحة العائلة المالكة في قَصْرهم في "يَزْرَعيل" بثورة "ياهو" - حيثُ قُتل الملك الحاكم لإسرائيل، "يَهورام"، بسهمٍ رماه به "ياهو" - يربط نصُّ نَقْش "دان" - الذي أُعيد بناؤه وترميمه - موت "يَهورام" بانتصار الآراميِّين. يفتخر "حَزائيل" قائلاً: ([قتلتُ ياهو] رام بن [آخـآب] ملك إسرائيل، و [أنا] قتلتُ [يوآحاز] بن ["يَهورام" الملك] من بيت داود. وأنا صيَّرتُ [بلداتهم إلى الخراب، وحوَّلتُ] أرضهم إلى [دمار].)

إذنْ؛ هل كان "حزائيل" أم "ياهو"؟ من الصّعب معرفة ذلك بنَحْو مُؤكّد. يربط نصُّ الكتاب المُقدَّس بَيْن ضغط "حَزائيل" وانقلاب "ياهو". ربَّما يكون "حَزائيل" قد رأى في "ياهو" أداته، أو ربَّما تشوَّشتْ ذكريات الحَدَثَيْن مع بعضهما أثناء المئتَيْ سنة التي مَضَتْ، حتَّى زمن التّأليف الأوَّل للتّاريخ التّثنوي.

لا شكَّ أنَّ الهُجُوم الشّامل الذي قام به الزّعيم السُّوري لعب دوراً رئيسيّاً في الانهيار الخطير لإسرائيل. كان هدف "حَزائيل" الأساسي السَّيْطَرَة على المنطقة الحُدُوديَّة الخصبة الاستراتيجيَّة بَيْن المَمْلَكَتَيْن، ويبدو أنَّه لم يفتح الأراضي الآراميَّة التي كان قد استولى عليها "العُمْرِيِّين" فحسب، بل قام - أيضاً - بتدمير أكثر مناطق إسرائيل الزّراعيَّة خُصُوبةً، وعَرْقَلَ طُرُق التّجارة فيها.

---

(1) ونصُّ الآيات هُو التالي: [32 وَفِي تلكَ الأيَّامِ بَدَأَ الرَّبُّ يُخَفِّضُ من مساحَة أرْض إسْرَائيلَ، فَاستَوْلى حَزَائيلُ عَلَى أجْزَاء كَبيرَة منْ مَنَاطقهمْ. 33 ابْتدَاءً منْ شَرْقيِّ نَهر الأرْدُنِّ، بمَا في ذَلكَ أرْضُ جلعَادَ، أرْضُ الجَاديِّينَ وَالرَّأوبَيْنيِّينَ، وَالمَنَسِّيِّينَ، مِنْ عَرُوعَيرَ القَائمَة عَلَى وَادي أرْنُونَ وَجلعَادَ وَبَاشَانَ.]. (المُترجم).

لا يذكر الكتاب المُقدَّس أيَّ فُتُوحات إقليميَّة هامَّة طويلة المدى، قامت بها قوى أجنبيَّة في الأراضي الواقعة غرب الأُردُن، في الفترة بَيْن زمن فَتْح يشُوع لكَنْعَان والفَتْح الآشُوري. يبدو أنَّ الحُدُود التي عيَّنها الكتاب المُقدَّس لأرض إسرائيل، كما بيَّنها سفر يشُوع، أخذت قداسة لا يُمكن انتهاكها. باستثناء المنطقة التي رُويَ أنَّ سُلَيْمَان مَنَحَهَا للملك حيرام، ملك صُور، مُقابل مُساعدته في بناء المعبد (الهيكل)، يُصوِّر الكتاب المُقدَّس احتلالاً إسرائيلياً عاصفاً، ولكنَّه مُستمرٌّ لأرض إسرائيل في كُلِّ الفترة التي سَبَقَتْ الفَتْحَ الآشُوري، ولكنَّ إعادة فَحْص الدّليل الآثاري، المدعومة بتقنيَّات تأريخ جديدة أكثر دقَّة، تُشير إلى فترة بضعة عُقُود بَيْن حوالي 835 ـ 855 ق. م، كانت تُسيطر فيها مَمْلَكَة آرام ـ دمشق على وادي الأُردُن الأعلى، وعلى مناطق هامَّة في شمال شرق إسرائيل، وقامت خلالها ـ أيضاً ـ بتخريب المراكز الإداريَّة الإسرائيليَّة الرّئيسيَّة في وادي "يَزْرَعيل" الخصب.

بَرَزَ دليلٌ جديدٌ مُهمٌّ حول هذا الموضوع من تنقيب مجمع قَصْر "العُمْريِّين" في "يَزْرَعيل"، الذي سُكِنَ لفترةٍ قصيرةٍ ـ نسبياً فحسب ـ في القرن التّاسع ق. م؛ حيثُ تمَّ تدميره بعد فترة قصيرة ـ نسبياً ـ من بنائه. كانت هُناك مُستوطنةٌ صغيرةٌ في "يَزْرَعيل" في الأيَّام التّالية من العصر الحديدي، لكنَّ الموقع لم يَسْتَعِدْ أهميَّته السّابقة. ولهذا؛ فإنَّ هُناك سبباً جيِّداً لرَبْط دمار "يَزْرَعيل" بثورة "ياهو"، أو باحتلال "حَزائيل"، وكلاهما حَدَثَ بعد بضعة سنوات من مُنتصف القرن التّاسع.

بما أنَّ "يَزْرَعيل" سُكِنَت لهذه الفترة القصيرة نسبياً، فإنَّ الأشكال الفخَّاريَّة، التي وُجِدت في طبقة دمارها، تُقدِّم عيِّنة قيِّمة للأنماط المُعاصرة في مُنتصف القرن التّاسع ق. م، وفي الحقيقة؛ تُوجد هذه الأنماط نفسها في مُستويات القُصُور السُّلَيْمَانيَّة في "مَجدُّو"، وفي الطّبقات المُماثلة في مواقع أُخرى في كافَّة أنحاء الشّمال. على القُرَّاء الذين لم يقتنعوا ـ سابقاً ـ بأنَّ "العُمْريِّين" هُم الذين بنوا تلك المُدُن المنسوبة لسُلَيْمَان أنْ يأخذوا بعين الاعتبار (بالإضافة إلى الأدلَّة الخَزَفيَّة والتّشابهات المعماريَّة، وتواريخ الكاربون 14) الاحتمال الشّديد في أنْ يكون الدّمار العنيف لتلك المواقع ـ الذي طالما نُسب إلى الهُجُوم المصري الذي قاده الفرعون شيشانق في أواخر القرن العاشر ق. م ـ إنَّما وَقَعَ في عهد "حَزائيل" حوالي 835 ق. م.

هكذا احترقت المُدُن الموجودة في كافَّة أنحاء المنطقة الخصبة للوُديان الشّماليَّة الغنيَّة، وصارت طُعمة للنّيران، من تلّ ريحوف، إلى بيت شام، إلى تعماخ، إلى مَجدُّو. وعلى أساس هذا الدّليل الجديد؛ استنتج المُؤرِّخ التّوراتي الإسرائيلي "ناداف نُعمان" بأنَّ طبقات الدّمار هذه تُمثِّل دماراً وخراباً للمَمْلَكَة الشّماليَّة قام به "حَزائيل"، وأنَّه كان دماراً شديداً، لدرجة أنَّ بعض المواقع لم تستطع أنْ تتعافى وتعود إلى حالتها إلى يومنا هذا. وربَّما تُتوِّج ضغط دمشق العسكري على إسرائيل بحصار عاصمتها "السّامرة" منْ قِبَل "برهَدَدْ الثّالث بن حَزائيل" (المعروف في الكتاب المُقدَّس باسم بنْهَدَدْ). ومن المُحتمل جداً أنْ يُشير حصارا السّامرة الموصوفان في الكتاب المُقدَّس العبْريّ في عهدَيْ "آخَاب" و"يهورام" إلى هذه الفترة.

و هكذا اكتشف علْم الآثار شيئاً أهمَلَ ذكْره الكتاب المُقدَّس: كان قلب إسرائيل قد احتُلَّ لُمدَّة زمنيَّة طويلة. ويبدو أنَّه لا أحد من عُلماء الآثار السّابقين وَجَدَ دليلاً على هذا الأمر. قسَّم "يغائل يادين" الفترة الواقعة بَيْن عهد "العُمْريِّين" ودمار إسرائيل، في "حاصُور"، إلى أربع طبقات، ولم يُربَط أيّ منها - بشَكْل مُحدَّد - باحتلال "حَزائيل"، ولكنْ؛ عندما نربط المدينة ذات البُوَّابة ذات الغُرف السِّتَّة، والسُّور المُؤلَّف من غُرف دفاع حائطيَّة - والتي اعتُقدَ لُمدَّة طويلة أنَّها مدينة سُلَيْمَانيَّة - بعهد "العُمْريِّين"، فإنَّ دمارها يُمكن - عندئذ - رَبْطه بحَمْلَة "حَزائيل". وفي مدينة دان، التي احتلَّها "حَزائيل" - والتي نَصَبَ فيها مسلَّة نَصر، مُعلناً فيها عن استرداده لهذه الأراضي إلى مَمْلَكته - أخفقت طُرُق التّأريخ التّقليديَّة في التَّعرُّف على دمار وَقَعَ في مُنتصف القرن التّاسع، فضلاً عن التَّعرُّف على فترة احتلال آرامي، ولكنْ؛ في دان - أيضاً - يسمح التّأريخ البديل بالتَّعرُّف على طبقة دمار تتعلَّق بغزو "حَزائيل" الذي خُلِّدَ ذكْره في ميلة دان.

و لكنَّ "حَزائيل" لم يكن قويّاً بما فيه الكفاية ليتمكَّن من ضَمّ المراكز الإسرائيليَّة المُدمَّرة بعيداً في الجنوب في وادي "يزرعيل" ووادي "بيت شان" واللّذان كانا بعيدَيْن عن المنطقة المركزيَّة التي تقع تحت إدارته، ويبدو أنَّه تركها خربة، مُسبِّباً هجرة مواقع كثيرة فيها، وانحطاط كُلّ المنطقة لعدَّة عقُود. بعض المراكز في هذه المنطقة لم يتعافَ بعد ذلك أبداً؛ مثل "يزرعيل" و"تعناخ"، التي لم تستعد أهميَّتها السّابقة إلى الأبد. يُشير تحليل الفخّاريّات في مَجدُّو - على ما يبدو - إلى أنَّ هذه المدينة المحوريَّة للإدارة الإسرائيليَّة في الشّمال هُجِرَتْ لُمدَّة نصف قرن كامل تقريباً.

و هكذا؛ فَقَدَتْ المَمْلَكَة الإسرائيليَّة السَّيْطَرَة الفعَّالة على المناطق الزّراعيَّة الأكثر خُصُوبة، والأهمُّ من ذلك؛ أنَّ مُنافسها كسب موطئ قَدَم أكثر دواماً في موقعَيْ "حاصُور" و"دان" الاستراتيجيَّيْن في الشّمال الشّرقي. كانت تلك المواقع تقع أقرب إلى دمشق منها إلى السّامرة، وكانت تقع في الأراضي التي كان "حَزائيل" يدَّعي أنَّها أراضٍ آراميَّة أصلاً. ونقتبس هُنا، مرَّة ثانية من نَقْش "حَزائيل" نفسه، ويصف الوَضْع الذي أعقب موت سَلَفه: (واضطجع أبي، وذهب إلى [أسلافه]. ودخل ملك إسرائيل سابقاً في أرض أبي). لا يُعقل أنْ يفتح "حَزائيل" وادي الأُردُن الأعلى، وينصب مسلَّة نَصر في دان، ثُمَّ ينسحب بعد ذلك. هُنا؛ تُرْجِمَتْ الانتصارات في ساحة المعركة إلى هيمنة إقليميَّة طويلة المدى.

و بناءً على ما سَبَقَ؛ فإنَّه من المُحتمل أنْ تكون المدينة الجميلة التي بُنيت في "حاصُور" بعد فَتْح "حَزائيل" مُباشرةً - في الواقع - أداة رَبْط مُهمَّة ضمن سلسلة من المُدُن والقلاع الآراميَّة التي كانت تحرس حُدُود آرام - دمشق الجنوبيَّة الشّرقيَّة مع إسرائيل. وقد توسَّعت المدينة - التي بُنيت فوق طبقة الدّمار - لتشمل كُلَّ المُرتفع (الأكرُوبُوليس) الأعلى للعصر البرُونزي، وكانت مُحاطةً بجدار كثيف جديد. وقد بُنيت قلعةٌ أو قَصْر في نهايتها الغربيَّة - ظاهراً - على قمَّة العاصمة العُمْريَّة المُدمَّرة حالياً. وحتَّى نظام الرّي المائي المشقوق ضمن الصّخر ربَّما يكون قد بُني في هذه المرحلة من تاريخ المدينة.

في "دان"، ليس هُناك شكٌّ في أنَّ المسَلَّة الشّهيرة إنَّما نُصبت في المدينة الجديدة التي أعاد "حَزائيل" بناءها. تتميَّز مدينة أواخر القرن التّاسع - هُناك - ببناء سُور حجري رائع للمدينة، مُشابه لذلك الذي تمَّ اكتشافه في "حاصُور"، وبوَّابة المدينة المُتطوِّرة الرّائعة. لقد اكْتُشِفَتْ - خارج البُرج الأيمن من جهة الدُّخُول إلى المدينة - مُواصفات لتلك البُوَّابة ذات عناصر خاصَّة، لم تكن معروفة في الأراضي الإسرائيليَّة أو اليَهُوَذَويَّة في ذلك الوقت: بقايا ستارة ورصيف مُرتفع. وقد اشتملت على قاعدتَيْن من صخرة دائرة مقطوعة، ذات مُواصفات نَمَطيَّة شماليَّة؛ أيْ سُوريا. يُمكن أنْ تكون المسلَّة التّذكاريَّة نفسها، التي أفترض أنَّها ذَكَرَتْ - أيضاً - النّشاطات العُمرانيَّة لـ"حَزائيل"، قد وُضعت إمَّا عند بُوَّابة المدينة، أو في مكان المعبد الحجري، الذي أُعيد بناؤه بشَكْل نَحْو مُتقن، والذي خُصِّص - احتمالاً - لإله آرام "هدد".

أمّا المعقل الرّائع الآخر - الذي بُني في الوقت نفسه ، والذي يُحتمل أنّه يرتبط باحتلال "حَزائيل" لإسرائيل الشّماليّة - فإنّه موقع يُعرَف باسم "التّل" ويقع على الشّاطئ الشّمالي لبحر الجليل . وقد عرَّف المُنقّبون هُويّته - بنَحْو مُحتمل - بأنّه موقع استيطاني مُتأخِّر هُو بيت صيدا ، الذي بُني في الأزمنة الرُّومانيَّة . كان هُناك في القرن التّاسع سُور حجري قوي يُحيط بالموقع ، ويُشابه السُّور الذي بُني في "حاصُور" و"دان" ، وهُناك بُوَّابة ضخمة للمدينة ، مُشابهة في شكلها وحجمها لتلك التي اكتُشفت في دان . اكتشف المُنقّبون في الجُزء الأمامي من بُوَّابة المدينة اكتشافاً استثنائيّاً رائعاً ، بدا أنّه سيكشف السّتار عن الهُويَّة العرْقيَّة ، وربَّما - بنَحْو أدقّ - الهُويَّة السّياسيَّة والثّقافيَّة للسُّكّان ، وقد وُجدَت قُرْب البُرج الأيمن من جهة الدُّخُول من البُوَّابة إلى المدينة مسلَّةٌ بازلتيَّة ، وَصفُها لإله مُبجَّل هُو وَصْفٌ آرامي تماماً ، كما أنَّ موقعها أمام البُوَّابة يُقدِّم إمكانيَّة أنْ يكون هُناك مسلَّة مُشابهة تمَّ نَصبُهَا قُرْب بُوَّابة دان ، تحت السّتارة المُتقنة الصُّنْع .

و هكذا أصبح عندنا تلميحات على أنَّ غزو "حَزائيل" لإسرائيل في مُنتصف القرن التّاسع ق . م ، أعقبه احتلالٌ مُتطاول وتأسيس ثلاث قلاع على الأقلّ - في كُلٍّ من "دان" و"حاصُور" و"بيت صيدا" - تميَّزت بمُواصفات مُشتركة بعضها آرامي بشكْل واضح ، وهُناك سبب آخر يدعو للاعتقاد بأنَّ سكّان هذا القسم من المَمْلَكة الإسرائيليَّة كانوا - على الأقلّ جُزئيَّاً ، إنْ لم يكن أغلبه - آراميِّين ، يُشير إلى ذلك - حقيقةً - أنّه في كُلِّ موقع هامٍّ في المنطقة يعود للعصر الحديدي الثّاني ، أدَّت التّنقيبات إلى اكتشاف بقايا كُتبت باللُّغة الآراميَّة .

عودة الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة:

لم يَدُمْ الاحتلال السُّوري لإسرائيل طويلاً . نعلم من المصادر الآشُوريَّة أنَّ "حَزائيل" تمكَّن من التّوسُّع نحو الغرب والجنوب داخل إسرائيل ، مُستفيداً من انشغال المُلُوك الآشُوريِّين بمُعالجة اضطرابات في أجزاء أُخرى من إمبراطوريّتهم خلال عدَّة عُقُود في النّصف الثّاني من القرن التّاسع ، ولكنْ ؛ مع وُصُول ملك آشُوريٍّ جديد قويّ : "أدَدْ نيرَاري الثّالث" ، سنة 811 ق . م ، تغيَّر ميزان القوى - بنَحْو قَويّ - بيْن آرام وإسرائيل . فقد قام "أدَدْ نيرَاري" - فوراً - بإعادة الضّغط العسكري باتّجاه الغرب ، وحاصر دمشق ، التي كانت في حينها أقوى قُوَّة إقليميَّة في المنطقة . ربَّما كانت دمشق قادرة على التّغلُّب على إسرائيل ، ولكنْ ؛ لم يكن لها القُدرة على مُواجهة

جُيُوش القُوَّة العُظْمَى في بلاد ما بَيْن النَّهرَيْن في ذلك الوقت. استسلم "بَرْهَدَدْ الثّالث بن حَزائيل"، وَدَفَعَ جزية باهظة للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة. وَأَنْهَتْ هذه الأحداث هيمنة آرام دمشق، وَأَنْهَتْ - بالتّالي - الضّغط العسكري على إسرائيل.

على ضوء هذا؛ يُمكننا أنْ نبدأ بفَهْم التّأثير الهائل للإمبرياليَّة الآشُوريَّة على سَيْر الأحداث في مَمْلَكَة إسرائيل، وكيف أنَّ قسماً كبيراً من التّاريخ الموصوف في الكتاب المُقدّس العبْريّ على أنّه عاملٌ لفُسْق مُلُوك إسرائيل وإثْمهم وَجَشَعهم، إنَّما يرتبط أكثر برياح سياسات القوى الدّوليَّة. على الرّغم من أنَّ سفْرَيْ المُلُوك يُصوِّران "آخاب" - بشَكْل أساسي - كَطَاغية وثَني؛ نعرف من نَقْش عمود "شلمانَصَّر الثّالث" بأنَّه كان أحد أكثر المُعارضين النّشطين للهيمنة الآشُوريَّة؛ حيثُ أرسل قُوَّة عَرَبَات هائلة لمُواجهة الآشُوريِّين في قَرْقَرْ. وبَيْنما يصف الكتاب المُقدّس "ياهو" الثّائر كأداة الله في تحطيم الوَثَنيَّة في إسرائيل، تُظهرهُ "المسَلَّة السّوداء" الشّهيرة لـ "شلمانَصَّر" خاضعاً ومُنبطحاً إلى الأرض أمام قَدَمَيْ الملك الآشُوريّ العظيم.

يُسجِّل "شلمانَصَّر" أيضاً: (الجزية التي دَفَعَهَا "ياهو بن عُمْري"؛ استلمتُ منه فضَّةً، وَذَهَباً، وطاسةً ذَهَبيَّة، وزهريَّة ذَهَبيَّة، ذات قاع مُدَبَّبْ، وأساطل ذَهَبيَّة، وعُلباً ذَهَبيَّة، وقصديراً، ومجموعة من المُوظّفين للملك). (إنَّ حقيقة أنَّ "ياهو" سُمِّيَ بابن "عُمْري" - جوهرياً ابن الأُسرة التي رُوِيَ أنَّه قضى عليها - يَدُلُّ - فقط - على أنَّه كان يحكم مَمْلَكَةً تابعةً كان "عُمْري" هُو الذي أسَّس عاصمتها).

إنَّ انتفاضة إسرائيل تحت قيادة حفيد "ياهو": "يوآش" (سفْر المُلُوك الثّاني 13/ 22 - 25)، مُرتبط - بشَكْل مُباشر - بالإذلال الآشُوري لدمشق أكثر من ارتباطه بتغيُّر رأي الله، الذي يرويه الكتاب المُقدّس.

أعطى انتهاء هيمنة آرام دمشق فُرصَة سانحة لمَمْلَكَة إسرائيل الشّماليَّة - التي قدَّمت ولاءها للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة في وقت مُبكِّر مُنْذُ عهد "شلمانصَّر" الثّالث - لتعترف بها تلك الإمبراطُوريَّة كأكثر الدُّول التّابعة تفضيلاً. وهكذا استعادت المَمْلَكَة الشّماليَّة عافيتها - بسُرعة - تحت زعامة الملك "يوآش"، وبدأت باستعادة أراضيها التي كانت فَقَدَتْهَا لصالح دمشق (سفْر المُلُوك الثّاني 13/ 25). واستمرَّ توسُّع الإسرائيليِّين - على ما يبدو - تحت "يَرُبْعَامَ الثّاني" (سفْر

المُلُوك الثّاني 14/ 25 و28)، الذي يُروَى أنّه وَسَّعَ حُدُود إسرائيل - بشَكْل جيِّد - نحو أراضي آرام السّابقة. عندما ننظر إلى السّجلّ الآثاري، نجد تأكيداً واضحاً على أنَّ "يوآش" بن "يَرُبْعَامَ الثّاني"، الذي كانت مُدَّة حُكْمه الأطول في تاريخ المَمْلَكَة الشّماليَّة، ترأس فترة من الازدهار الفريد الذي لا نظير له في إسرائيل.

جوائز النّظام العالمي الجديد:

ذُكِرَتْ المرحلة الجديدة للازدهار التي بدأت حوالي 800 ق. م، لُمدَّة طويلة، كَعصرٍ ذَهَبيٍ للمَمْلَكَة الشّماليَّة، حتّى في ذاكرة شعب يهُوذا. أُجْبِر الكاتب التّوراتي لسفْرَيْ المُلُوك على إيجاد تفسير لهذا الطّالع السّعيد والمُحَيِّر، الذي تمتَّع به الشّماليُّون الأشرار. لقد فسَّر تبدُّل الأحداث برحمة الله وشفقته المُفاجئة على إسرائيل (سفْر المُلُوك الثّاني 14/ 26 - 27)، لكنَّنا نستطيع أنْ نرى - الآن - سبباً أرجح[1] هُو العُدوان الآشُوري على دمشق، واشتراك إسرائيل المُتلهِّف في الاقتصاد الآشُوري العالمي المُتنامي. في "دان"، تمَّ - على ما يبدو - تحطيم مسَلَّة النّصر التي نَصَبَهَا "حَزائيل"، ثُمَّ استخدمت أجزاؤها وقطعها في بناء لاحق (اكتشفها عُلماء الآثار قبل حوالي مئتَيْن وثمانين سنة)، عندما أسَّس البنّاؤون الإسرائيليُّون مدينة جديدة هُناك. كما أُزيلت المسَلَّة، في بيت صيدا، التي تحمل شكل الإله الآرامي الطّراز، وقُلِبَت رأساً على عقب عمداً.

وفي الوقت نفسه - تقريباً - احتُلَّتْ "حاصُور"، وخُرِّبَتْ، وتمَّ إعادة بنائها من جديد؛ ولعلَّه ليس من المُصادفة أنْ تظهر النُّقُوش العبْريَّة في "حاصُور" لأوَّل مرَّة في هذه المرحلة من البناء.

أفضل دليل على قُوَّة الاقتصاد الإسرائيلي أثناء حُكْم "يَرُبْعَامَ الثّاني"، هُو التَّطَوُّر الزّراعي والنُّمُوّ السُّكّاني الرّائع. لقد شكَّلت المُرتفعات المُحيطة بـ "السّامرة"، لألف سنة، أفضل منطقة في البلاد لزراعة كُرُوم العنب وبساتين الزّيتون. قدَّمت الاستطلاعات الآثاريَّة

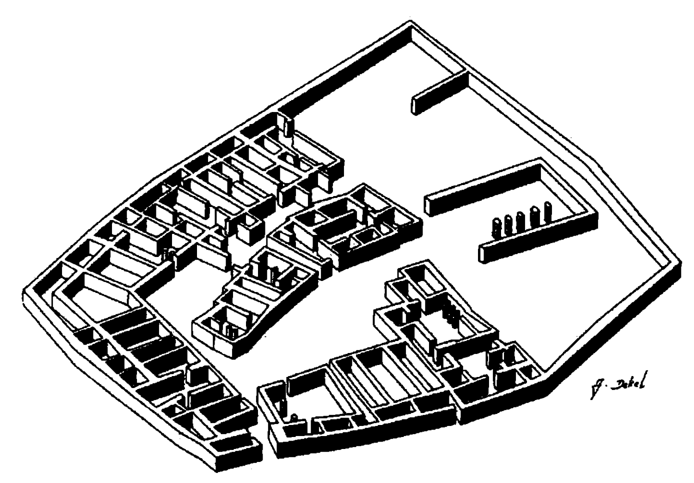
---

(1) لا يخفى ما في هذا المنطق من خطأ وضحالة، ناتج عن التّفكير المادّي المُظلم وإنكار عالم ما وراء المادَّة، فلا تعارض أبداً بين الأسباب المادّيَّة لحُصُول شيء وبين مشيئة الله وإرادته لحُصُول ذلك الشّيء؛ لأنّهما علّتان في طُول بعضهما، لأنَّ الله هُو العلّة النّهائيّة والسّبب بلا سبب لجميع الأسباب، فالله إذا أراد شيئاً هيَّأ له أسبابه المادّيَّة، مثلاً إنزال المطر يتمُّ بتجمع الغُيُوم ذات الشُّحَن الكهربائيَّة المُتعارضة، بفَضْل الرّياح، فيهطل منها المطر، وهذا لا ينفي أنَّ الله هُو - في النّهاية - وراء كُلِّ تلك العلل عندما أوجد - من البداية - ما يُساعد على هُبُوب الرّياح وتبخُّر الماء وتكثُّف الغُيُوم. .إلخ. وكذلك في حوادث التّاريخ، من هُنا؛ قيل إنَّ الظّالم عدل الله في أرضه، ينتقم به، ثُمَّ ينتقم منه. (المُترجم).

المركزة في مناطق المُرتفعات إلى جنوب "السّامرة" دليلاً على نُمُوٍّ وتوسُّعٍ لم يسبق له مثيل في إنتاج زيت الزّيتون في العصر الحديدي.

في القرن الثّامن نرى - لأوّل مرّة - مُستوطنات بُنِيَت على نُتُوءات صخريَّة في قلب أفضل مناطق زراعة البساتين، التي تخصَّصَ سُكَّانها في هذا الفرع من الزّراعة (الشّكْل 25). هُنَاك المئات من طاحنات الزّيتون، ومُنشآت أُخرى لمُعالجته قُطعَتْ من الصُّخُور حول تلك القُرَى، ربَّما كان بعضها عقارات مَلَكيَّة، أو على الأقلّ؛ أبنيةٌ بُنِيَت خصِّيصاً لهذا الغرض. ولم يكن هُنَاك نقصٌ في الأسواق الاحتماليَّة: كان من المُمكن تصدير زيت الزّيتون من مُرتفعات إسرائيل بنَحْو مُربح إلى الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، أو شَحْنه لمصر، وذلك لأنَّ مصر وآشُوريا كان ينقصهما المناطق الرّئيسيَّة لزراعة الزّيتون.

في الحقيقة؛ تذكُرُ "نُقُوش السّامرة" المشهورة - وهي مجموعة من 63 قطعة فخّاريَّة مكتوبة بالحبر باللُّغة العبْريَّة، وتُؤرِّخ - بنَحْو معقول إلى عهد "يَرُبْـعَامَ الثّاني" - عمليّات شحن لزيت الزّيتون وللخمر من القُرَى البعيدة إلى العاصمة: السّامرة.



الشّكْل 25: مُخطّط موقع مُنتج لزيت الزّيتون في المُرتفعات، شمال غرب أُورشليم (القُدْس). استناداً لمُخطّط نُشر في 'عتيقوت' Atiqot.

في هذه الأثناء؛ كانت تلك المنطقة الدّاخليَّة الزّراعيَّة قد أصبحت مأهولة بالسُّكَّان بشكْل أكثر كثافةً من أيٍّ وقت مضى. بفَضْل ارتباطهم باقتصاد عالمي، وعدم مُواجهتهم لأيٍّ تهديد عسكري هامٍّ، نما عدد سُكَّان المَمْلَكَة الشّماليَّة بشَكْل كبير. تُلقي الاستطلاعات الواسعة النّطاق التي أُجريَت في العُقُود القليلة الماضية الضّوء على النُّمُوِّ السُّكَّاني الكبير في الفترة من القرن العاشر إلى القرن الثّامن ق.م.. مع نهاية القرن الثّامن أصبحت المَمْلَكَة الشّماليَّة - مُرتفعات السّامرة والوُديان الشّماليَّة على حدٍّ سواء - أكثر المناطق كثافةً سُكَّانيَّة في كامل المشرق[1].

رغم أنَّ الأعداد تقريبيَّة، إلاَّ أنَّها تُزوِّدنا بتخمين عامٍّ لعدد سُكَّان المَمْلَكَة الشّماليَّة في القرن الثّامن، بما في ذلك أراضيها في عبْر الأُردُن، يُقَدَّر بحوالي 350.000 نسمة. وبنفس الآليَّة؛ يُخمِّن العُلماء أنَّ عدد سكَّان كامل أراضي غرب فلسطين، في العصر البرُونزي، لم يصل حتَّى لرَقْم 250.000 نسمة. إنَّ النُّمُوَّ السُّكَّاني مُثير جداً - بشَكْل خَاصٍّ - عندما نعتبر أنَّ عدد سُكَّان المُرتفعات في العصر الحديدي المُبكِّر - بالكاد - يتجاوز 45.000 نسمة. حتَّى في القرن الثّامن؛ لم يتجاوز عدد سكَّان مَمْلَكَة يهُوذا الـ 100.000 نسمة. كما يصل عدد سُكَّان الدُّول الواقعة شرق الأُردُن: أيْ عمُّون ومُوآب مُجتمعتَيْن، - بصُعُوبة - إلى ثُلث عدد سُكَّان إسرائيل الشّماليَّة.

تُوضِّح هذه الأعداد المُقارنة القُوَّة العسكريَّة والقُوَّة الاقتصاديَّة للمَمْلَكَة الشّماليَّة. كما أنَّها تُلمِّح للموارد البشريَّة لإسرائيل أيضاً، التي مكَّنتها من تجهيز الحُشُودات العسكريَّة، ومن إنجاز نشاطات عُمرانيَّة رائعة. يبدو أنَّ يُوآش - أو على الأرجح - يَرُبْعَامَ الثّاني، قام بعمليَّات بناء رئيسيَّة، ليس - فقط - في "مَجدُّو" (بما في ذلك نظام الماء العظيم والمجموعتَان الضّخمتَان من الإسطبلات) بل - أيضاً - في إعادة بناء "حاصُوْر" كَمَعقل في الأراضي التي استردها من

(1) نستند في هذه الفَرَضيَّة على تخمين سكَّاني تقريبي، وَصَلْنا إليه باستعمال مجموعة البيانات الآثاريَّة والأثنُوغرافيَّة (العرْقيَّة). في هذه التّقنية لتخمين عدد السُّكَّان القُدماء، يتمُّ جداء المساحة المبنيَّة لجميع المواقع المسكونة أثناء القرن الثّامن ق.م. (والتي يتمُّ تحديدها بواسطة وُجُود أنواع الفخّاريَّات المُتميِّزة في القرن الثّامن) بمُعدَّل كثافة سُكَّانيَّة هُو: المُعدَّل الوَسَطي للكثافة السُّكَّانيَّة التي لُوحظَتْ في المُجتمعات التّقليديَّة قبل الحديثة، في القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين. (المُؤلِّف).

الآراميِّين، وفي إعادة بناء مدينة "جازَر" كَمخفر أمامي استراتيجي للمَمْلَكَة الشّماليَّة علـى حُدُود يهُوذا وفلسطيا. ربَّما يُمكن تأريخ السُّور القوي لمدينة "جازَر" الجديدة وبُوَّابتها، إلى هذا الوقت.

إنَّ عَظَمَة مَمْلَكَة إسرائيل - التي وُلدت من جديد - واضحة من الدّليل. إنَّه ذا مغزى هـامّ أنْ يكون "يَربْعَامَ الثّاني" هودم ملك إسرائيلي وَجَدْنا له ختماً رَسْمياً. وُجدت هـذه المصنوعـة اليدويَّة الكبيرة والجميلة جداً في بداية القرن العشرين في "مَجدُّو". إنَّها تُصوِّر أسداً قوياً يـزأَرُ، وكتابةً عبْريَّة منقوشةً: (يعود إلى "شيما" Shema خادم [أي: مُوظَّف كبير] يَربْـعَامَ.). يُعَدُّ تصميم أسدٍ في الختم نموذجاً نَمَطياً في القـرن ثـامن ق.م، لـذا؛ لا يُمكـن نسبته إلـى "يَربْـعام" السّابق، الذي أسَّس المَمْلَكَة الشّماليَّة قبل قرنَيْن من الزّمن تقريبـاً. ربَّمـا تكـون دولـة "يَـربْـعَامَ" الثّاني - بمعايير ازدهارها، وارتباطاتها الدّوليَّة، ومشاريعها البنائيَّة الواسعة - قـد بقيـت حيَّة فـي ذاكرة الإسرائيليِّين و"اليَهُوَذوِيِّين" كَنموذج لحُكْم مَلَكي مجيد. هُنا؛ نتذكَّر - من جديـد - الفقـرة الشّهيرة في سفْر المُلُوك الثّـاني: 9/ 15، التـي تصـف النّشـاطات العُمرانيَّـة لسُـلَيْمَان فـي "حاصُوْر"، و"مَجدُّو"، و"جازَر". هل من المُمكن أنْ يكون المُؤلِّف "اليَـهُوَذوي" اللاَّحـق، الـذي ألَّفَ تاريخه بعد مئة سنة تقريباً من وُقُوع تلك الأحداث، قد نَسَبَ - بدافع عـاطفي (ووَطَنـي) - الآثار الباقية للأبنية العظيمة التي بناها "يَربْعَامَ"، إلى عصر سلَيْمَان الذّهبي؟

لُغز "مَجدُّو" يُطْرَح بقُوَّة مرَّة ثانية:

كانت الخُيُول - فيما يبـدو - أحـد أغلـى مُنتجـات المَمْلَكَـة الشّـماليَّة ثَمَنـاً، وأكثرهـا قيمـة. يُمكن أنْ نحصل على بعض المعلومات الدّالَّة على مدى اتِّساع تربية وتكثير الخُيُول في إسرائيل من إعادة بناء "مَجدُّو" خلال عهد "يَربْعَامَ" الثّاني (الشَّكْل 16).

إنَّ العُنصُر الأبرز في مدينة "مَجدُّو" الإسرائيليَّة الأخيرة هُما المجمَّعان الكبـيران مـن الأبنيـة المُسندة إلى عواميد، والتي اقترح فريق جامعة شيكاغو في العشرينات (من القرن المـاضي) أنَّـها كانت إسطبلات بناها سُلَيْمَان، ثُمَّ أرَّخها عالم الآثار "يادين" فيما بعـد، بأنَّـها إسـطبلات بناهـا "آخـاب"، الذي جهَّز جيشاً من العَرَبَات بتلك القُوَّة الهائلة ضـدَّ الآشُـوريِّين فـي معركـة قرقـر. وسواء رُبطَت تلـك الإسـطبلات بسُـلَيْمَان أو بآخـاب، فـإنَّ مُؤيِّـدي نَظَريَّـة كَوْن تلـك الأبنيـة

إسطبلات اتَّفقوا على أنَّ الخُيُول كانت تُوضَع، ويُحتفظ بها في الممرَّات الجانبيَّة الضيِّقة الطَّويلة للبنايات؛ حيثُ كانت تُرْبَط بأعمدة صخريَّة، وتُغَذَّى في المعالف الموضوعة بَيْن الأعمدة (الشَّكْل 17). وافترضوا أنْ يكون الممرُّ المركزي، الذي كانت أرضيَّته مُغطَّاةً بطبقة لاصقة ناعمة، قد استُخْدِمَ كَمنطقة خدمة؛ حيثُ كان يُمكن لسَاسَة الخُيُول أنْ يسوسوا الخُيُول، ويُوزِّعوا غذاءها. اقترح عُلماء الآثار - أيضاً - أنْ يكون الفناء الكبير أمام المجموعة الجنوبيَّة للإسطبلات قد استُخْدِمَ كَسَاحة للتَّمرين والتَّدريب.

كان هُنَاك مُشكلة واحدة - فقط - في هذه النَّظَريَّة الجذَّابة: لم يُكتَشَف أيٌّ من السِّلع والأدوات التي تتعلَّق بالخُيُول، أو العَرَبَات، أو سلاح الفُرسان في أيٍّ من البنايات. والممرَّات الجانبيَّة للأبنية المُماثلة التي اكتُشفت في المواقع الأُخرى كانت مليئة بالأواني الفخَّاريَّة، ممَّا جَعَلَ عدداً من عُلماء الآثار يقترحون بأنَّ أمثال تلك البنايات ذات الممرَّات الثَّلاثة كانت كُلُّها تُستخدَم كَمَخَازن.

فَسَّرَ البعض بأنَّ المعالف التي وُجِدت في بنايات "مَجدُّو" كانت تُستعمَل لتغذية دوابِّ حَمْل الأثقال، التي من المُحتمل أنَّها كانت حميراً، والتي كانت تجلب السِّلع إلى المخازن ضمن القوافل التِّجاريَّة. اقترح عُلماء آخرون بأنَّ البنايات المُسندة في "مَجدُّو"، بالإضافة إلى الأماكن الأُخرى في المنطقة، كانت تعمل كَثكنات للجيش، أو حتَّى كأسواق عامَّة.

بُذلَت مُحاولات خلال التَّنقيبات المُستمرَّة في "مَجدُّو" لحلِّ المُشكلة بالاختبار الكيميائي المُنظَّم للتُّربة، التي تمَّ استخراجها - مُؤخَّراً - عبْر التَّنقيب من طوابق البنايات المُستندة إلى عواميد، وذلك لأجل التَّعرُّف على آثار الغذاء، أو الغائط الحَيَوَاني، ولكنَّ النَّتائج - حتَّى الآن - غير حاسمة، لكنَّ شيئاً واحداً كان واضحاً في التَّنقيبات المُجدَّدة. يجب أنْ لا نتوقَّع أنْ نجد أيَّ موادَّ هامَّة تتعلَّق بالخُيُول في تلك البنايات؛ لأنَّه بعد استيلاء الآشُوريِّين على المدينة تمَّ تنظيف تلك الأبنية بشكْل كامل، وأُعيد استخدامها - على الأقلِّ جُزئيَّاً - ثُمَّ تمَّت إزالتها تماماً، عندما هُجِرَت لاحقاً؛ حيثُ تمَّ تخريبها عَمْداً بإنزال جُدرانها إلى الأرض. نستطيع - الآن - بفَضْل إعادة تأريخ طبقات مَجدُّو - وإعادة تَقْييم التَّاريخ الآثاري للمَمْلَكَة الشَّماليَّة - أنْ نرفض النَّظَريَّات القديمة،

ونقول - بكُلّ ثقة - إنَّ الأبنية التي على شكل إسطبلات، في مَجدُّو، إنّما تعود إلى عهد "يربعام الثّاني"، و"آخاب"، اللّذَيْن رغم احتفاظهما الواضح بقُوَّة عَرَبَات كبيرة، بَنَيَا القُصُور الكبيرة في مَجدُّو التي سبقت مُستوى الإسطبلات (هذا على الرّغم من أنَّ بعض العُلماء يقترح أنَّ المدينة - أيضاً - التي تمَّ تنقيبها - بنَحْو جُزئي فقط - كانت تمتلك إسطبلات أيضاً).

لكنَّ رَبْطَ الإسطبلات بـ "يَربْعَامَ الثّاني" لا يحلُّ مُشكلة وظيفتها بشَكْل حاسم. فهل هُناك أيُّ دليل مفتاحي آخر يُفيد في توضيح أهمِّيَّة الخُيُول في مَمْلَكَة إسرائيل - وربَّما فَهْم دور إسرائيل العسكري في المُجتمع الإمبراطُوري الآشُوري الأوسع - ؟

يأتي الدّليل الهامُّ من المصادر الآشُوريَّة، التي تكشف أنَّ مَمْلَكَة إسرائيل كانت مشهورة بقُوَّات عَرَبَاتها لمُدَّة طويلة بعد مُواجهة الملك "آخاب" لـ "شلمانصرّ" بألفَيْ عَرَبَة في معركة قرقر في سُوريا عام 853 ق. م، وَجَدَ عالمُ الآشُوريَّات (المُتخصِّص بتاريخ الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة) "استيفاني ديلي" دليلاً مُقنعاً في السِّجلاَّت الآشُوريَّة على أنَّ بعض الدُّول التّابعة للإمبراطُوريَّة تخصَّصت في تربية وتصدير الخُيُول التي تُستَخدَم في حرب سلاح الفُرسان والعَرَبَات.

نعلم أنَّ إسرائيل في عهد "يَربْعَامَ الثّاني" ازدهرت من خلال تخصُّصها في بعض السِّلع. فهل يُمكن أنْ يكون ما نجده في "مَجدُّو" هُو آثار باقية معماريَّة لمركز تربية خُيُول هامّ لأجل وحدات العَرَبَات الشّهيرة لمَمْلَكَة إسرائيل؟ وهل من المُمكن أنَّ إسرائيل في أيَّام "يَربْعَامَ الثّاني" كانت تُربِّي الخُيُول ليس لتلبية حاجاتها العسكريَّة الخاصَّة فحسب، بل لتأمين حاجات وَحَدَاتْ العَرَبَات في كافَّة أنحاء الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة؟

يأتي دليلٌ في هذا الاتِّجاه من دولة أُخرى تابعة للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة هي مَمْلَكَة "أُورارتُو" في شرق الأناضول، التي اعتُبرَ أنَّها كانت تمتلك أفضل سلاح فُرسان في العالم. نعلم من ذكْر صريح جاء في مصادر آشُوريَّة أنَّ الخُيُول كانت تُرَبَّى هُناك لأجل التّصدير. والأمر المُثير للاهتمام، هُو أنَّ الأبنية التي اكتُشفَت في مواقع تعود للعصر الحديدي الثّاني في "أُورارتُو" تُماثل - بشَكْل كبير - في مُخطَّطها إسطبلات "مَجدُّو"، ولكنْ؛ ربَّما جاء أوضح دليل على صلة الإسرائيليِّين بالفُرُوسيَّة العسكريَّة، من الفترة التي تلي - مُباشرة - غزو الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة للمَمْلَكَة الشّماليَّة، عندما تمَّ دَمْج وحدة عَرَبَات إسرائيليَّة خاصَّة بالجيش الآشُوري.

في الواقع؛ يُزوِّدنا البحث الذي قام به "استيفاني ديلي" حول الألواح الآشُوريَّة المعروفة باسم "قوائم الخُيُول" بمعلومات حول الضبَّاط، والمسؤولين، والوحدات في الجيش الآشُوري في عهد الملك "سرجون الثّاني". تُشير هذه السّجلاَّت إلى أنَّه بَيْنما تمَّ دَمْج قُوَّات مُتخصِّصة أخرى، من مناطق مُحتلَّة، بالجيش الآشُوري، كأفراد، كان لواء العَرَبَات الإسرائيلي الوحدة الأجنبيَّة الوحيدة التي سُمحَ لها بالاحتفاظ بهُويَّتها الوَطَنيَّة. وقد قالها الملك الآشُوري "سرجون الثّاني" بوُضُوح: "شكَّلتُ وحدة من متَيْ عَرَبَة من عَرَبَاتهم لقُوَّاتي الملكيَّة".

و بناءً عليه؛ يبدو أنَّه بفَضْل شُهرة قادة العَرَبَات الحربيَّة الإسرائيليِّين بمهارتهم، سُمحَ لهم بمنزلة خاصَّة. من جُملة التّفاصيل المذكورة في قوائم الخُيُول جاء ذكْر قائد عسكري إسرائيلي "شيما"، ربَّما كان من وحدات العَرَبَات، خَدَمَ في منصب عال في الجيش الآشُوري، وكان أحد أعضاء حاشية الملك.

اصوات الاحتجاج الأولى:

قدَّم الازدهار والشُّهرة والأهميَّة التي بَلَغَتها مَمْلَكَة إسرائيل في عهد "يَرُبْعَامَ الثّاني" ثروةً كبيرة للطّبقة الأرستقراطيَّة الإسرائيليَّة؛ وعلى الرّغم من أنَّ الطُّرُق الفوضويَّة للحفريَّات، في التّنقيبات التي تمَّت أوائل القرن العشرين في "السّامرة"، لم تسمح بتحليلات مُفصَّلة للأبنية، ولتجديد المدينة الملكيَّة الذي تمَّ في أوائل القرن الثّامن ق.م؛ فإنَّ هُناك مجموعتَيْن من المُكتَشفَات الصّغيرة ذواتي أهميَّة بالغة ومُمتعة للغاية، تُقدِّمان لمحة - على الأقلّ - إلى الثّراء والفَخْفَخَة التي كانت تعيش فيها الطّبقة الحاكمة في إسرائيل. أكثر من متَيْ لوحة عاجيَّة دقيقة حُفرَت على النَّمَط الفينيقي بمواضيع مصريَّة تمَّ تأريخها، حسب نَمَطها، إلى القرن الثّامن ق.م، كانت تُزَيِّنُ - احتمالاً - جُدران القَصْر أو الأثاث الرّفيع للعائلة المالكة الإسرائيليَّة. إنَّها تشهد على الثّروة والأذواق العالميَّة للمُلُوك الإسرائيليِّين وعائلات النُّبلاء في مَمْلَكَتهم. كما تُمثِّل نُقُوش "السّامرة" الشّهيرة، ووُصُولات شحن زيت الزّيتون والخمر من الأرياف إلى العاصمة نظاماً مُتقدِّماً للائتمان وحفْظ السِّجلاَّت، الذي - من خلاله - يُطالَب مالكو الأراضي الكبيرة بالإنتاج في المناطق الدّاخليَّة، أو يستخدمها مسؤولو الضّرائب الحُكُوميُّون، الذين كانوا يُشرفون على جَمْع المحصول.

في ذروة ازدهار المَمْلَكَة الشّماليَّة تحت حكْم "يَرُبْعَامَ الثّاني" أصبحنا قادرين - أخيراً - على أنْ نُميِّزَ جميع المعايير الكاملة للدّولة: معرفة القراءة والكتابة، النّظام الإداري، التّخصُّص في الإنتاج الاقتصادي، ووُجُود جيش مُحترف. وكانت تلك - أيضاً - الفترة الأُولى التي سُجِّلَ فيها اعتراضٌ نبويٌّ.

إنَّ الوحي الذي جاء إلى النَّبِيَّيْن "عاموس" و"هوشع" هُو أقدم الأسفار النَّبَويَّة التي تمَّ الاحتفاظ بها، والتي تحتوي على مادَّة تعكس عُنْفوان "يَرُبْعَامَ الثّاني". يُفيدنا شَجْبهما القاسي للأرستقراطيَّة الفاسدة والأثيمة للشّماليِّين، كَوَثِيقة على الثّراء الفاحش في تلك الفترة، كما أنَّه يُقدِّم لنا تعبيراً - لأوَّل مرَّةٍ - عن آراءٍ سيكون لها تأثير عميق على بلورة العقيدة التّثنويَّة (التّوارتيَّة). وُصفَ "عاموس" بأنَّه كان راعياً من قرية "تيكوا" الرّيفيَّة في يهُوذا، كان يتجوَّل بقطعانه شمالاً، ولكنَّ أيّاً كان مركزه الاجتماعي الدّقيق أو سبب وَعْظه في مَمْلَكَة إسرائيل، فإنَّ الوحي الذي تمَّ تسجيله باسمه يُزوِّدنا بإدانة شديدة لأساليب الحياة المُسرفة والوقائع الماديَّة للأرستقراطيَّة الإسرائيليَّة في القرن الثّامن ق.م،: [وَيْلٌ للرَّاقدينَ فَوْقَ أسرَّةٍ منْ عَاجٍ، المُسْتَرْخينَ فَوْقَ الأرَائك، الآكلينَ لَحْمَ خَيْرَة الحُمْلان وَالعُجُول المُخْتَارَة منْ وَسَط المَعْلَف. 5 المُغَنِّينَ عَلَى صَوْت الرَّبَاب، المُخْتَرعينَ لأنْفُسهمْ آلات غنَاءٍ كَدَاوُدَ. 6 الشَّاربينَ خَمْراً في كُؤُوسٍ، المُتَطَيِّبينَ بأفْضَل العُطُور. . .] (سفر عاموس: 6/ 4 - 6).

ويستمرُّ "عاموس" في إدانته لأُولئك الذين [تُشَيِّدُوا بُيُوتاً منْ حجَارَةٍ مَنْحُوتَة] (5/ 11). في حين يتكلَّم مُعاصره، النَّبي "هوشع" ضدَّ أُولئك الذين [يَرْتَكبُ الأكَاذيبَ وَالجَوْرَ بكَثْرَةٍ، وَيُبْرمُ عَهْداً مَعَ أشُّورَ، وَيَبْعَثُ بزَيْت الزَّيْتُون إلَى مصْرَ.] (سفر هوشع: 12/ 1). في تلك التّلميحات والعديد من أمثالها؛ يُلَخصُ النَّبيَّان الارتباطات الاقتصاديَّة والحضارة الماديَّة التي أوضحها علْم آثار مَمْلَكَة إسرائيل بشكْل وافر.

علاوةً على إدانة الأغنياء والأقوياء؛ يُوجِّه "عاموس" و"هوشع" نُقُوداً لاذعة للظُّلم الاجتماعي، والوثَنيَّة، والتَّوتُّرات المحليَّة التي جَلَبَتْهَا التّجارة الدّوليَّة والاعتماد على الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة. طبقاً لهوشع، [إنَّ أشُّورَ لَنْ تُخَلّصَنَا، وَلَنْ نَعْتَمدَ عَلَى خُيُول مصْرَ لإنْقَاذنَا، وَلَنْ نَقُولَ للأوْثَان صَنْعَة أيْدينَا: (أنْتُمْ آلهتُنَا)] (هوشع 14/ 3). يدين "عاموس" فُسْقَ

الذين يُطيعون الدِّين بلقلقة ألسنتهم فقط ، في حين يقومون بتجميع الثّروات لأنفسهم ، ويُسيئون مُعاملة الفقير :

[استَمِعُوا هَذَا أَيُّهَا الدَّائسُونَ عَلَى البَائسينَ ، يَامَنْ حَاوَلْتُمْ أَنْ تَقْضُوا عَلَى فُقَرَاء الأَرْض ، 5 قَائلينَ : (مَتَى يَنْقَضي أَوَّلُ الشَّهْر حتَّى نَبيعَ الْحنْطَةَ؟ مَتَى يَمْضي السَّبْتُ لنَعْرضَ الْقَمْحَ في السُّوق ، فَنَعْمَدَ إلَى تَصْغير حَجْم مكْيَال الإيفَة ، وَنَرْفَعَ الأَسْعَارَ ، وَنَسْتَعْملَ ميزَاناً مَغْشُوشاً . 6 لنَشْتَرِيَ الْمسْكينَ بقطْعَةٍ منَ الْفضَّة ، وَالْبَائسَ بنَعْلَيْن ، وَنَبيعَ نُفَايَةَ الْقَمْح؟)] (عاموس 8/ 4-6) .

احتفظ أتباع "عاموس" و"هوشع" بتلك الإدانات النَّبويَّة ، التي أخذت معنىً جديداً بعد سُقُوط مَمْلَكَة إسرائيل . ذلك لأنَّ هذَيْن النَّبيَّيْن - بنَقْدهما للغنيّ واشمئزازهما من تأثير الطُّرُق الأجنبيَّة على حياة شعب إسرائيل - كانا رائدي الحَرَكَة الرُّوحيَّة والاجتماعيَّة ، التي ستترك بصماتها الدّائمة على تبلور النَّصّ التّوراتي .

آلام احتضار إسرائيل:

أثبت موت "يَرُبْعَامَ الثّاني" عام 747 ق . م ، أنَّ بناء المُجتمع الإسرائيلي - على الرّغم من ازدهاره المادّي وإنجازاته في الهندسة المعماريَّة والفُنُون العسكريَّة - بناءٌ أجوفٌ . لقد ظهرت الفئات - احتمالاً - بَيْن المُديرين الإقليميِّين ، وضُبَّاط الجيش ، ومجموعات المصالح الخاصَّة . وبدأ كُلُّ ملك يتلو الملك الآخر بتعاقب سريع نسبيّاً ، ودام في الغالب . وبدأ ينهار - تدريجيّاً - ذلك التّوازن الحرج بَيْن الاستقلال الاقتصادي والتّحالف السّياسي مع ، إلى الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة ، والتَّذلُّل لها . القصَّة التي يُقدِّمها سفر المُلوك الثّاني - والتي تدعمها تأكيدات عَرَضيَّة - موجودة في سجلاّت الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة ، هي كُلُّ ما نملكه للاستمرار في توثيق سُقُوط إسرائيل .

وجاءت سلسلة ثورات العائلة المالكة العنيفة في "السّامرة" في أكثر الأوقات خُطُورة . كانت تحدث في ذلك الوقت تغيُّرات عظيمة في بلاد ما بَيْن النَّهرَيْن . في عام 745 ق . م - بالضّبط بعد اغتيال ملكَيْن في "السّامرة" - ثار الحاكم الطَّمُوح لمدينة كالح الآشُوريَّة العظيمة في وادي دجلة ، مُتمرِّداً ضدَّ سادته الكبار ، وبدأ عَمَليَّة تحويل الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة إلى دولة وحشيَّة ولُصُوصيَّة عُدوانيَّة .

وهكذا بدأ الملك الجديد ، "تغلات بيلاصَّر الثّالث" (واسمه في الكتاب المُقدَّس "تَغْلَثَ فَلاَسر الثّالث") (المعروف ـ أيضاً ـ في الكتاب المُقدَّس باسمه البابلي : بول)، عملاً لا يقلُّ عن تجديد شاملٍ للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة ، أوَّلاً ؛ في علاقاتها مع الدُّول التّابعة لها سابقاً ، والتي ستُصبح ـ الآن ـ تحت السَّيْطَرَة المُباشرة أكثر بكثير منْ قَبْل .

في 837 ق . م ؛ قاد جيشه في حَمْلَة تهديد كبيرة باتِّجاه الغرب ، نَجَحَ ـ خلالها ـ في إرعاب توابع الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة نصف المُستقلّين سابقاً بطَلَبات اقتصاديَّة لم يسبق لها مثيل . ولم يكن ذلك إلاَّ البداية فقط .

في عصر الإمبرياليَّة الآشُوريَّة الذي افتتحه "تغلات بيلاصَّر الثّالث" ، سُرعان ما تمَّ غزو وفَتْح الممالك التّابعة للملكة الآشُوريَّة ، وأُلحقَت بها ، مع تعرُّض السُّكّان المحلّيِّين فيها للتّرحيل ، كُلَّمَا أرادت السُّلطات الآشُوريَّة ذلك .

في "السّامرة" ، العاصمة الإسرائيليَّة ـ وبعد موت الملك "مَنَحيم" في 737 ق . م ، والاغتيال الفوري ـ تقريباً ـ لابنه ووريثه ، منْ قبَل ضابط عسكري اسمه "فَقْح بن رَمَلْيَا" ـ ، تغيَّرت السّياسة الخارجيَّة لمَمْلَكَة إسرائيل . ليس لدينا معلومات عن الدّوافع السّياسيَّة والشّخصيَّة لفَقْح ، هذا المُغتصب الأخير للسُّلْطَة ، كُلُّ ما نعرفه أنَّه أنْهَى ـ فجأةً ـ تبعيَّة إسرائيل ، وخُضُوعها للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة . وانضمَّ فَقْح ـ ربَّما كَرَدِّ فعْل مُستميت ويائس ضدَّ تغيُّر السّياسات الآشُوريَّة ، وعدم القُدرة على تلبية المُطالب الآشُوريَّة ـ إلى تحالف بَيْن القوى المحلّيَّة الأُخرى ـ بما في ذلك الملك "رَصيم" ـ وبعض المُدُن الفلسطينيَّة في مقامرة مُستميتة للاستقلال .

ما تلا كان سلسلة مأساويَّة من الأخطاء في التّقدير ، أتَتْ بنهاية إسرائيل المُستقلَّة ، وفي الحقيقة ؛ قضت على كُلِّ احتمالٍ لاستقلال أيِّ دولة في المشرق ، طالما بقيت الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة . أملَ "فَقْح" و"رصين" بتنظيم جبهة واسعة مُلتزمة ، تُشارك فيها كُلُّ الدُّول في المنطقة ، لمُقاومة الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة ، ولكنَّ التّحالف فَشلَ في أنْ يَجدَ طريقه للظُّهُور ، وكان ردُّ فعل "تغلات بيلاصَّر" سريعاً وغاضباً .

بعد استيلائه على دمشق ، وإعدامه لرصين ، وشَقِّ طريقه جنوباً نحو ساحل البحر الأبيض المُتوسِّط ، مُدمِّراً كُلَّ المُدُن الثّائرة احتمالاً ، وضامناً أنْ لا تصل أيُّ مُساعدة للمُتمرِّدين

من مصر، وَضَعَ "تغلات بيلاصَّر" عينَيْه - بكُلِّ قُوَّة - على مَمْلَكَة إسرائيل. بفَتْحه لأغلب أراضيها، وتحطيمه لِمُدُنها الرّئيسيَّة، وإبعاده لِجُزْء من سُكَّانها أجبر "تغلات بيلاصَّر" إسرائيل على الجُثُوّ على رُكبَتَيْهَا.

عند موت "تغلات بيلاصَّر" عان 727 ق. م، كانت أغلب أرض المَمْلَكَة الشّماليَّة قد ضُمَّتْ مُباشرة، وأُلْحقت بالإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة. ثُمَّ تمَّ تقسيمها إداريّاً إلى مُحافظات: "دور" (على طُول السّاحل الشّمالي)، و"مَجدُّو" (في وادي "يَزْرَعيل" والجليل)، و"جِلْعَاد" (في مُرتفعات عبْر لأُردُن). يُشير نَقْشٌ نافر (أيْ بارزٌ) يعود لعصر "تغلات بيلاصَّر الثّالث" - يصف حصار مدينة تُسمَّى "جازرو"، التي من المُحتمل أنَّها مدينة "جازَرَ" - إلى أنَّ السّهل السّاحلي الجنوبي لإسرائيل لم يهرب من المصير المُرِّ للمُحافظات الشّماليَّة. كان كُلُّ ما تبقَّى من المَمْلَكَة الشّماليَّة مُجرَّد مُرتفعات حول العاصمة: السّامرة.

وهكذا أمكن لتغلات بيلاصَّر القاسي الجاف" أنْ يفتخر قائلاً في نَقْش تذكاري: "لقد سوَّيْت بالأرض أراضي بيت حُمْريا [أيْ بيت "عُمْري"]، كُلُّ مُدُنهم سوَّيْتُهَا بالأرض في حملاتي السّابقة . . . سلبتُ ماشيتها، ولم أُوفِّر إلاَّ "السّامرة" المعزولة فقط."

تذويب الشّمال بالدّولة الآشُوريَّة، وطَبْعه بطابعها:

لم يكتف الطّراز الجديد للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، تحت قيادة "تغلات بيلاصَّر"، بمُجرَّد الفُتُوحات الإقليميَّة. لقد نَظَرَ الآشُوريُّون إلى كُلِّ الأراضي، والحَيَوَانات، والثّروات الطّبيعيَّة، وسُكَّان المناطق التي فَتَحُوها، كأشياء - مثل الأثاث - يُمكنهم - بل يجب عليهم - أنْ يُحرِّكوها، أو يستغلُّوها لتخدم مصالح الدّولة الآشُوريَّة بأفضل نحوٍ مُمكن. وهكذا طبَّق الآشُوريُّون سياسة الإبعاد وإعادة التّعمير على مقياس كبير.

وكان لهذه السّياسة عددٌ من الأهداف، تخدم كُلُّها مُواصلة تطوير الإمبراطُوريَّة. من وجهة النَّظَر العسكريَّة، كان أَخْذُ الأهالي أسرى، وإزالة القُرَى المحلِّيَّة من الوُجُود تأثيرٌ في إرهاب وإحباط السُّكَّان، وتقسيمهم بنَحْوٍ يحول دُون حُدُوث أيِّ مُقاومة مُنظَّمة أُخرى. ومن وجهة النَّظَر الاقتصاديَّة، جَلَبَ التّجنيد - واسع النّطاق في الجيش الإمبراطُوري - قُوَّة بشريَّة، وتقنيَّات عسكريَّة جديدةً، إلى إطار يُمكن - من خلاله - مُراقبة المُجنَّدين الجُدُد بعناية.

وَدَعَمَتْ سياسة إعادة التّوطين الإجباريَّة للصنَّاع في مراكز قلب الدّولة الآشوريَّة الموارد البشريَّة المُتدرِّبة، وَجَعَلَتْها في مُتناول الاقتصاد الآشوري. وأخيراً؛ قُصد من الإسكان المُجدَّد والمُنظَّم للسُّكَّان الجُدُد في مناطق فارغة، أو أراضٍ تمَّ فتحها مُؤخَّراً توسيع النّاتج الزّراعي العامّ للإمبراطوريَّة.

بدأ "تغلات بيلاصَّر الثّالث" هذه العمليَّات، فوراً، تقريباً، في مناطق مَمْلَكَة إسرائيل التي اجتاحتها جيُوشه. بَلَغَ عدد المُبْعَدين - حسبما تذكره سجلاَّته - 500، 13 شخص. وإذا لم يكن هذا العدد مُبالغاً به - كما تُفيده الاستطلاعات الآثاريَّة التي تمَّت في أسفل الجليل، والتي تُشير إلى عَمَليَّة تهجير واسعة - فمعنى ذلك أنَّ الآشُوريِّين أبعدوا مقداراً هاماً من أهالي وسُكَّان المناطق الرِّيفيَّة إلى الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة.

يُمكن مُشاهدة النّتائج الكارثيَّة لهُجُوم "تغلات بيلاصَّر" الأوَّلي في مواقع عديدة. في "حاصُوْر"، التي تُذْكَر - بشَكْل مُحدَّد في الكتاب المُقدَّس - بالارتباط مع حملته (سفْر المُلُوك الثّاني 15/ 29)، تمَّ تدمير المدينة الإسرائيليَّة الأخيرة، وَحَرْقها كُلّيّاً، وتحويلها إلى رماد. هُنَاك دليل آثاري واضح على أنَّه في الأيَّام التي سَبَقَتْ الهُجُوم الآشُوري النّهائي، أُعيدت تقوية التّحصينات الدّفاعيَّة للمدينة، ولكنْ؛ دُون جدوى، كما ترشح من الأحداث التّالية. كما تمَّ تتبُّع آثار دمارٍ شاملٍ في كُلٍّ من "دان" و"بيت شان"، لكنْ؛ في "مَجدُّو"، كانت النّوايا الآشُوريَّة مُختلفة لحَدٍّ ما؛ لأنَّ تلك المدينة كانت ستُصبح مركزاً جديداً لإدارة الإمبراطُوريَّة. تمَّ حَرْقُ الأحياء المحلِّيَّة؛ حيثُ تروي لنا البنايات المُحترقة المُنهارة والأواني والظُّرُوف المسحوقة قصَّة السّاعات الأخيرة للمدينة الإسرائيليَّة، لكنَّ البنايات المُسندة إلى عواميد - أيْ إسطبلات "مَجدُّو" الشّهيرة - تُركَت سليمة؛ لتُسْتَخْدم من جديد - احتمالاً - لفترة قصيرة. نوى الآشُوريُّون إعادة بناء الموقع لأغراضهم الخاصَّة، وأثبتت الأحجار الرّفيعة في أبنية الإسطبلات أنَّها مصدر مُمتاز للموادّ الإنشائيَّة.

تُزوِّد "مَجدُّو" أفضل دليل عن المراحل المُبكِّرة للاحتلال الآشُوري. بعد الدّمار الجُزئي لآخر مدينة إسرائيليَّة، حَدَثَتْ فترة قصيرة من التَّرْك، تلاها إعادة بناء شاملة.

جَعَلَ الآشُوريُّون "مَجدُّو" عاصمة مُحافظتهم الجديدة، التي غطَّت أراضٍ سابقةً من المَمْلَكَة الشّماليَّة في الوُديان الشّماليَّة وتلال الجليل. تتحدَّث الوثائق الرَّسْميَّة - خلال عدَّة عُقُود - عن "مَجدُّو" كَمَركز حاكم المُقاطعة. كانت بُؤرة المدينة الجديدة؛ التي أُعيد بناؤها على أساس مُخطَّطٍ جديدٍ تماماً، تقع قُرْب البوَّابة، حيثُ بُنِيَ قَصْرَان على الأُسلُوب الآشُوري النَّمَطي. نُظِّمت بقيَّة المدينة على شكل شبكة دقيقة من الشّوارع المُتوازية، الأفقيَّة: شرق - غرب والعموديَّة: شمال - جنوب، مُشكِّلةً كُتَلاً مُستطيلةً للأبنية المحلِّيَّة، وهُو نَمَطٌ جديدٌ من تخطيط المُدُن، كان مجهولاً حتَّى الآن في المشرق. في ضوء هذه التَّغييرات الجَذْريَّة، من المُحتمل أنْ يكون الأهالي الجُدُد - الذين أُبْعدُوا من المناطق الأُخرى التي احتلَّتْهَا الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة - قد حلُّوا - الآن - هُناك.

نهاية المَمْلَكَة:

عندما حُصرَتْ مَمْلَكَة إسرائيل في الجوار المُباشر لـ"السّامرة"، لم تعد أكثر من لُقمة صغيرة يُمكن للدّولة الآشُوريَّة الصّاعدة أنْ تبتلعها في أوَّل فُرصَة سانحة. ومع ذلك؛ بدأ "هُوشَع"، قاتل "فَقح" وآخر مُلُوك إسرائيل، بعد أنْ قدَّم الإتاوة - بسُرعة - للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، بدأ بنَفْس السُّرعة مُؤامرة خطيرة وكارثيَّة. ففي فترة الحَيْرة القصيرة التي أعقبت موت "تغلات بيلاصَّر الثّالث" حول موضوع خلافته، والتي انتهت بخلافة "شلمانصَّر الخامس"، أرسل "هُوشَع" - على ما يُرْوَى - كلمة سريَّة إلى أحد الزُّعماء الإقليميِّين في الدّلتا المصريَّة، آملاً أنْ تكون مصر قد أصبحت مُستعدَّة - الآن - للدُّخُول في المعركة ضدَّ - الآشُوريَّة. واستمراراً في المُقامرة حتَّى نهايتها، أنهى "هُوشَع" - من الآن فصاعداً - دَفْعَ الإتاوة للملك الآشُوري الجديد. مَنْ الذي يُمكنه أنْ يُفاجأ بما سيحدث؟ لقد بدأ "شلمانصَّر الخامس" حَمْلَة تصفية. قلَّص الرّيف حول "السّامرة"، وحاصر المدينة بنفسه.

وبعد حصار طويل؛ اقتحم المدينة، وساق - على الأقلِّ - جُزءاً من سُكَّانها - الذين بقوا على قَيْد الحياة - إلى نُقاط تجمُّع، تمَّ ترحيلهم منها - في النّهاية - وإعادة توطينهم في مناطق آشُوريَّة بعيدة.

هُناك جَدَلٌ واختلاف كبير بَيْن العُلَماء حول ما إذا بقي "شلمانصَّر الخامس" حيّاً ليرى الاستيلاء على "السّامرة"، أو أنَّ خليفته "سرجون الثّاني"، الذي اعتلى العرش عام 722 ق.م، كان هُو المسؤول عن تلك الضّربة القاضية.

وعلى كُلِّ حال؛ لدينا رواية آشُوريَّة كاملة، مُدوَّنة في سجلاَّت سرجون، عن كُلِّ ما حَدَثَ: [لقد حاربتُ أهالي السّامرة، الذين اتَّفقوا وتآمروا مع ملكٍ مُعادٍ لي على أنْ لا يتحمَّلوا الخدمة، وأنْ لا يُقدِّموا الإتاوة لآشُور، وخُضتُ المعركة، مُستعيناً بقُوَّة الآلهة العظيمة، أربابي. لقد عَدَدْتُ 280 . 27 نسمةً أُخذُوا كَغَنائم مع عَرَبَاتهم، وآلهتهم، التي وثقوا بها. وشكَّلتُ وحدةً من مئتَيْن من عَرَبَاتهم، لقُوَّاتي المَلكيَّة، وأعدتُ إحلال النّاس في "السّامرة" أكثر من ذي قبل. لقد جلبتُ إليها أناساً من البُلدان التي فتحتُها بيديَّ، وعيَّنتُ مُفوَّضي كَحَاكمٍ عليهم. واعتبرتُهُم كآشُوريِّين.

الجدول 5 المُلُوك الإسرائيليِّيْن من 'ياهو' وحتّى 'هوشع'

الملك	التّواريخ (*)	شهادة كتاب المُقدّس	السّجلاّت الآشُوريَّة	الاكتشافات الأثاريَّة
"ياهو"	842 ـ 814	قاد انقلاباً ضدّ "العُمْريِّين"، وقضى على أُسرتهم؛ أزال بيت عبادة "بعل" في "السّامرة"؛ استمرار المُواجهات مع آرام دمشق؛ النّبي إيليا	دفع الجزية لـ "شلمانصّر الثّالث".	حاصُور والشّمال بأيدي آرام ـ دمشق؛ مَجدُّو هجرت؟
"ياهوآحاز"	817 ـ 800 (**)	هزمت إسرائيل، وحُوصرت "السّامرة" من قبَل آرام؛ النّبي إيليا.		

(*) طبقاً لقاموس مُستند الكتاب المُقدّس.

(**) يشتمل على سنوات من التّزامن.

"يوآش"	800 ـ 744	يهزم الآراميِّين، وتستعيد إسرائيل عافيتها؛ يُهاجم أورشليم.	يدفع الجزية لـ "أدَدْ نيراري"	حاصُور مرَّة ثانية بيد الإسرائيليِّين
"يَرُبعام"	788 ـ 747 (**)	يهزم دمشق ويُوسِّع حُدُود المَمْلَكَة الشَّماليَّة لأقصى اتِّساعها؛ النَّبيَّان "هوشع" و"عاموص"		ازدهار لا سابقة له في المَمْلَكَة الشَّمالية؛ نشاطات عُمرانيَّة واسعة النِّطاق في حاصُور وجازر ومجدو (إسطبلات ونظام شبكات مياه)؛ ألواح السَّامرة والقطع العاجيَّة؛ ختم يحمل اسمه وُجد في مَجدُّو
"زكريا"	744	حَكَمَ ستة أشهر، ثُمَّ قتل في انقلاب		
"شلوم"	744	حَكَمَ لِمُدَّة شهر واحد، ثُمَّ قُتل بانقلاب		
"منحيم"	744 ـ 737	دفع الجزية للملك الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة	دفع الجزية لـ"تغلات بلاصر الثَّالث"	
"فقحياه"	737 ـ 735	قُتل في انقلاب		

"فقح"	735 ـ 732	حارب ضدَّ آحاز ملك يهُوذا بالتّعاون مع دمشق؛ "تغلات بلاصّر الثّالث" يفتح الجليل ووادي يزرعيل	أطاح به "تغلات بلاصر الثّالث"؛ تغلات بلاصر يفتح الجليل	تدمير المُدُن الإسرائيلية في الشّمال
"هوشع"	732 ـ 724 (***)	آخر مُلُوك إسرائيل؛ "شلمانصر الخامس" الإمبراطُوريّة الآشُوريّة يحاصر "السّامرة"، يستولي عليها، ويُرحِّل الإسرائيليِّين إلى أنحاء الإمبراطُوريّة	نصبّهُ "تغلات بلاصر الثّالث" وجَعَلَه يدفع الجزية	

تُزوِّدنا رواية سرجون بعدد المُبْعَدين من "السّامرة"، لكنْ؛ ليس من الواضح في ما إذا كان هذا العدد يتحدَّث عن سُكّان العاصمة والمناطق المُحيطة بها مُباشرة، أو عن العدد الكُلّي المأخوذ من المَمْلَكة خلال السّنين الماضية. يذكر الكتاب المُقدَّس العبْريّ المناطق التي هُجِّرَ إليها الإسرائيليُّون، فيقول: [حَلَحَ وَخَابُورَ نَهْرِ جُوزَانَ وَفِي مُدُنِ مَادِي.] (سفْر المُلُوك الثّاني 17/6)، لكنَّ المصير النّهائي لأغلبهم ـ قبائل شمال إسرائيل العشرة ـ بقي مجهولاً، ولم يُعرَف أبداً. في البداية؛ لربّما حاول المُبْعَدون أنْ يُحافظوا على هُويّتهم، بمُواصلتهم ـ مثلاً ـ لأشكال العبادة الإسرائيليّة، أو تسمية أولادهم بأسماء إسرائيليّة، لكنّهم سُرعان ما ذابوا في الدّولة الآشُوريّة، وتمَّ استيعابهم في الإمبراطُوريّة.

لقد انتهى كُلُّ شيء. وَصَلَ قرنان عاصفان إلى نهايتهما الكارثيّة. ضاعت المَمْلَكة الشّماليّة الفخورة، وضاع جُزء هامٌّ من سكّانها في التّاريخ.

(***) أو 722 ق.م.

المُبْعَدُون والباقون على قَيْد الحياة:

كما فَعَلَتْ السُّلطات الآشُوريَّة في توطين مواقع رئيسيَّة فـي الشّـمال مثـل "مَجدُّو" برعايا تابعين لها من مناطق أُخرى، جَلَبَتْ مجموعات سكَّانيَّة جديدة؛ لتُوطِّنـها في قلـب المُرتفعـات الإسرائيليَّة عوضاً عن الإسرائيليِّين الذين تمَّ إبعادهم: [وَأَتَى مَلِكُ أَشُّورَ بِقَوْمٍ مِنْ بَابِلَ وَكُـوثَ وَعَوَّا وَحَمَاةَ وَسِفَرْوَايِمَ، وَأَسْكَنَهُمْ فِي مُدُنِ السَّامِرَةِ عِوَضاً عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَـامْتَلَكُوا السَّامِرَةَ، وَسَكَنُوا فِي مُدُنِهَا.] (سفر المُلُوك الثّاني 17/ 24). تُؤشِّر بعـض الدّلائـل والمُؤشّـرات التّاريخيَّة والآثاريَّة إلى أنَّ تلك المجموعات - التي جيء بها من المناطق المُتمـرِّدة فـي جنـوب بـلاد ما بَيْن النَّهرَيْن - تمَّ توطينها ليس في "السّامرة" فحسب، بل - أيضاً - في المنطقة الاستراتيجيَّة جداً حول "بيت إيل"، - مركز العبادة الإسرائيلي القديم - على الحُدُود الشّماليَّة لمَمْلَكَـة يـهُوذا، التـي كانت ماتزال مُستقلَّة. يُقدِّم المُؤرِّخ التّوراتي شهادةً ظَرْفيَّة حـولَ هـذا الأمـر بإدراجـه لـ "عَوِّيـم" Avvim كـأحد بلـدات يـهُوذا فـي القـرن السّـابع ق.م، فـي منطقـة "بيـت إيـل" (سـفْر يشُـوع: 18/ 23). هـذا الاسـم يرتبـط - احتمـالاً - بـ عَوِّيـم Avva المذكـورة كـأحد الأمـاكن الأصليَّـة للمُبْعَدين. يذكر نص آرامي مُبْعَدينَ تمَّ إحلالهم في "بيـت إيـل" نفسـها. بالإضافـة إلـى ذلـك، تُزوِّد بضعة نُصُوصٍ مسـماريَّة مـن القـرن السّـابع، تحمـل أسـماء بابليَّـة، ووُجـدَت فـي "جـازَرَ" وجوارها، دليلاً ملموساً على حُضُور أولئـك المُبْعَديـن فـي الأرض الجنوبيَّـة الغربيَّـة لإسـرائيل المقهورة، قُرْب حُدُود يهُوذا أيضاً.

وأخيراً؛ اقترح "آدم زيرتال" Zertal Adam - مـن جامعـة حيفـا - أنَّـه ربَّمـا تكـون الأنمـاط الخاصَّة من الفخّاريَّات - التي تحمل إشارات شبه مسماريَّة، والتي وُجدت في بعض المواقـع فـي مُرتفعات "السّامرة" - تكون على صلة وعلاقة بتلك المجموعات التي وَصَلَتْ حديثاً.

ولكنَّ تبادل السُّكّان كان أبعد ما يكون عن كونه كاملاً وشاملاً؛ إذْ يبلغ العـدد الإجمـالي الذي تُعطيه المصادر الآشُوريَّة للإبعادَين - الذي قام به "تَغْلات بيلاصَّر الثّالث" مـن الجليـل، ثُـمَّ الذي قام به "سرجون الثّاني" من السّامرة - حوالي أربعين ألـف شـخصٍ. وهـذا لا يتعـدَّى - فـي الواقع - أكثر من خُمْس العدد المُقـدَّر لسُكّان المَمْلَكَـة الشّـماليَّة غـرب الأُردُن فـي القـرن الثّامن

ق.م. . يبدو أنَّ "تَغْلات بيلاصَّر الثّالث" قد أبعد - بشَكْل رئيسي - القرويِّين المُثيرين للقلاقل في تلال الجليل، وسُكَّان المراكز الرَّئيسيَّة، مثل "مَجدُّو"، كما يبدو أنَّ "سرجون الثّاني" قد أبعد - بشَكْل رئيسي - الطَّبقة الأرستقراطيَّة في "السّامرة"، واحتمالاً؛ جُنُوداً وصنَّاعاً ماهرين، كانت تحتاجهم الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة.

وكنتيجة لذلك؛ تُرِكَ أغلب الإسرائيليِّين - الذي بقوا على قَيْد الحياة - في أراضيهم. كانت عَمَليَّة الإبعاد في ريف المُرتفعات (التّلال) حول مدينة "السّامرة"، التي خُصِّصَت لتكون محور المُحافظة الآشُوريَّة الجديدة "سامرينا" Samerina - على ما يبدو - قليلة جداً. كانت لدى الآشُوريِّين أسبابٌ اقتصاديَّة هامَّة تدعوهم لعدم تدمير المنطقة الغنيَّة المُنتجة لزيت الزّيتون. لقد حطَّم الآشُوريُّون في الوُديان الشّماليَّة المراكز الإسرائيليَّة الإداريَّة، لكنّهم تركوا سُكَّان الأرياف (الذي كانوا - أساساً - فينيقيِّين، وكَنْعَانيِّين، وآراميِّين في تقاليدهم) دُون المساس بهم، طالما بقوا مُسالمين ومُطيعين، وأدوا حصَّتهم من الأتاوات للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة. اعترف حتَّى الفاتحون الآشُوريُّون المُتوحشُّون بأنَّ الدّمار الشّامل والإبعاد الكامل لسُكَّان أرياف إسرائيل كان يُمكن أنْ يُدمِّر النّاتج الزّراعي لمُحافظتهم الجديدة، لذا؛ فضَّلوا - كُلَّمَا أمكن - الاستقرار والاستمراريَّة.

في الحقيقة؛ تُؤكِّد الاستطلاعات والتّنقيبات في وادي "يزرعيل" الاستمراريَّة السُّكَّانيَّة المُفاجئة. استمرَّت حوالي نصف المواقع الرّيفيَّة قُرْب "السّامرة" مأهولةً بالسُّكَّان لعدَّة قُرُون لاحقة، بل ربَّما نملك إشارة توراتيَّة على هذه الحالة السُّكَّانيَّة. بعد بضعة سنوات من دمار المَمْلَكَة الشّماليَّة؛ احتفل ملك يهُوذا "حزَقيَّا" بعيد الفصح في "أُورشليم". فقد رُويَ أنَّه: [وَأَرْسَلَ حَزَقِيَّا إِلَى جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ وَيهُوذا، وكَتَبَ - أيْضاً - رَسَائِلَ إِلَى أَفْرَايِمَ وَمَنَسَّى أَنْ يَأْتُوا إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ في أورشليم؛ لِيَعْمَلُوا فصْحاً للرَّبِّ إِلَه إِسْرَائِيلَ.] (سفر أخبار الأيَّام الثّاني 30/ 1). تُشير "أفرايم" و"منسَّى" إلى مُرتفعات السّامرة في شمال يهُوذا. وإذا كانت هُناك شُكُوكٌ حول تاريخيَّة سفْرَيْ أخبار الأيَّام الأوَّل والثّاني، فإنَّ إرميا يذكر - أيضاً - (في سفْره)، بعد حوالي 150 سنة من سقُوط المَمْلَكَة الشّماليَّة أنَّ إسرائيليِّين من شكيم (نابلس): [وَمِنْ شيلُوَ، وَمِنَ السّامرَة ثَمَانِينَ رَجُلاً مَحْلُوقِي اللُّحَى، وَمُشَقَّقِي الثِّيَاب، وَمُخَمَّشِينَ، وَبِيَدِهِمْ تَقْدِمَةٌ وَلُبَانٌ؛ لِيُدْخِلُوهُمَا إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ] (أيْ المعبد في أورشليم) (أرميا 41/ 5).

إنَّ كون عددٍ هامٍّ من الإسرائيليِّين بقي يعيش في ريف مُرتفعات "السّامرة"، بما في ذلك المنطقة الجنوبيَّة لـ "بيت إيل"، جنباً إلى جنب السُّكَّان الجُدُد الذين جَلَبَهُم الآشُوريُّون، يُشكِّل واقعاً سيكون له دورٌ رئيسيٌّ يلعبه في سياسة يهُوذا الخارجيَّة، وفي تطوُّر العقيدة التّوراتيَّة للقرن السّابع ق. م. .

الدَّرْسُ القاسي والمُرَوِّع لَمَمْلَكَة إسرائيل:

لا يُمكننا - أبداً - أنْ نعرف مدى ثقة التّقاليد، أو النُّصُوص، أو الأرشيفات التي استخدمها مُؤلِّفو الكتاب المُقدَّس العبْريّ لجَمْع تاريخهم حول مَمْلَكَة إسرائيل. لم يكن هَدَفهم إنتاج تاريخ موضوعي للمَمْلَكَة الشّماليَّة، بل كان - بالأحرى - إعطاء تفسير لاهُوتي لتاريخٍ كان معروفاً أصلاً - احتمالاً، على الأقلّ - في تفاصيله الواسعة. أيَّاً كان ما ربَّما قالته الأساطير الشّعبيَّة حول كُلِّ فَرْدٍ من مُلُوك إسرائيل، أدان الكتاب المُقدَّس كُلَّ واحدٍ منهم إدانة واضحة. لم تستحقّ فترة حُكْم كُلِّ واحدٍ منهم أكثر من بضعة كلمات مُلخَّصة: هذا أو ذاك الملك: [. . عَمِلَ الشَّرَّ في عَيْنَي الرَّبِّ، وَسَارَ وَرَاءَ خَطَايَا يَرُبْعَامَ بْن نَبَاطَ، الذي جَعَلَ إسْرَائيلَ يُخْطِئُ. لَمْ يَحِدْ عَنْهَا.]. وممَّا يجدر ذكْره، أنَّ بعض أولئك المُلُوك - مثل "يَرُبْعام الأوَّل" و"العُمْريِّين" - أُدينوا بعباراتٍ وقَصَص أقسى، ولكنْ؛ حتَّى أفضل المُلُوك الشّماليِّين بقوا مُعْتَبَرين مُذنبين: لقد أُثْنيَ على "يورام بن آخآب"، لإزالة "مَصيبَه" **Massebah**، أو نصب عبادة بَعْل، كما مُدحَ "ياهو" لإزالته عبادته كُلِّيّاً، لكنْ؛ في الوقت نفسه، كلاهما أُدين لسَيْره في خُطوات "يَرُبْعَامَ بن نَبَاط"، حتَّى هوشع، الملك الأخير لإسرائيل، الذي حاول - بشَكْل مُتأخِّر - أنْ يُحرِّر إسرائيل من القبضة الحديديَّة للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، أُدين - بنَحْو أكثر اعتدالاً، وبشكْل هامشي فقط - بالعبارات التّالية: [وَعَمِلَ الشَّرَّ في عَيْنَي الرَّبِّ، وَلَكنْ؛ لَيْسَ كَمُلُوك إسْرَائيلَ الذينَ كَانُوا قَبْلَهُ.] (سفْر المُلُوك الثّاني 17/ 2). لذلك، في بدئه بذكْر ذُنُوب "يَرُبْعام"، يُقدِّم الكتاب المُقدَّس قصَّة إدانة مُتوقَّعة تمَّ التَّنبُّؤ بها من قبلُ.

شكَّلت فترات الازدهار التي تمتَّعت بها مَمْلَكَة إسرائيل، والتي ظلَّت ذكراها - احتمالاً - لقُرُون عديدة، من خلال البقايا الأثريَّة التّذكاريَّة التي ماتزال تُشاهَد في المُدُن الشّماليَّة،

شكَّلت مُشكلة لاهُوتيَّة جدِّيَّة للمُراقبين اليَهْوَذَوِيِّين، الذين ألَّفوا سفْرَيْ المُلوك. إذا كانت المَمْلَكَة الشّماليَّة آثمة إلى هذا الحَدِّ، فلماذا لم يُدْها "يَهْوَه" عندما كان "يَرُبْعام الأوَّل" مايزال في سُدَّة الحُكْم، أو بعد عهده مُباشرة؛ أيْ في عهد حُكْم أُسْرَته؟ أو على الأقلِّ؛ في عهد حُكْم "العُمْرِيِّين" مُحبِّي الإله "بَعَل"؟ إذا كانوا خُطاةً آثمين إلى ذلك الحَدِّ؛ فلماذا سَمَحَ لهم "يَهْوَه" بالازدهار؟ لقد وَجَدَ المُؤرِّخ التّثنوي طريقة رائعة لتبرير حياة إسرائيل الشّماليَّة لِمُدَّة قرنَيْن تقريباً، وذلك باقتراحه أنَّ الحُكْم عليها بالهلاك إنَّما أجَّله "يَهْوَه"؛ لأنَّه وَجَدَ بعض الحسنات حتَّى لدى المُلوك الخُطاة للملكة الشّماليَّة. عندما رأى "مأساة إسرائيل"، "لم يستَطعْ أنْ يُقاوم رغبته في إنقاذها من كوارث عظيمة في عدَّة مُناسبات".

لا شكَّ أنَّ رجال الكَهَنُوت الرَّسميِّين لمراكز العبادة الشّماليَّة في "دان" و"بيت إيل" قدَّموا تفسيرات مُتقنة ومُنافسة لمصير المَمْلَكَة الشّماليَّة في صُعُودها وسُقُوطها. إنَّه من الطّبيعي أنْ نفترض أنَّ هُناك أنبياءً شماليِّين - "الذين تنبَّؤوا كذباً" كما ربَّما يكون الكتاب المُقدَّس العبْريّ قد قال عنهم - كانوا أقرب للمُؤسَّسة الملكيَّة في "السّامرة". لم يكن مُمكناً لمثل هذا النّوع من المادَّة أنْ يجد طريقه - احتمالاً - إلى الكتاب المُقدَّس كما نعرفه اليوم. ربَّما لو أنَّ إسرائيل بقيت لكُنَّا حَصَلْنا على تاريخ مُوازٍ ومُنافس ومُختلف كثيراً لما نقرؤه اليوم، لكنَّ الدّمار الآشُوري للسّامرة وتفكيك مُؤسَّسات سُلطتها المَلكيَّة أسْكَتَ أيّاً من مثل تلك التّواريخ المُنافسة. رغم أنَّ الأنبياء والكَهَنَة الشّماليِّين قد انضمُّوا - في الغالب - إلى اللاَّجئين، الذين تدفَّقوا إلى مُدُن وبلدات يهُوذا بحثاً عن ملاذٍ آمن، إلاَّ أنَّ التّاريخ التّوراتي - مُنْذُ الآن - سيكتبه الفائزون - أو على الأقلِّ؛ الباقون على قَيْد الحياة - وسيتمُّ تصميمه - بشكْلٍ خاصٍّ - طبقاً للعقائد اليَهْوَذَوِيَّة التّثنوية المُتأخِّرة.

من وجهة نَظَر يهُوذا في القرن السّابع، مع الوعي الكامل للدّمار الفظيع الذي حلَّ بالمَمْلَكَة الشّماليَّة، كان معنى تاريخ إسرائيل قد أصبح واضحاً. لقد تمَّ وَصْفه باختصار مُفيد، وبشكْل بليغ في قصيدة مَدْح إسرائيل بعد وَصْف سُقُوط السّامرة. من وجهة نَظَر المُؤرِّخ التّثنوي، ذروة قصَّة المَمْلَكَة الشّماليَّة ليست أيَّام "آخاب"، أو "يَرُبْعام الثّاني"، كما أنَّها ليست نهايتها المأساويَّة، بل ذروة قصَّتها هي الخُلاصة التي تُخبرنا عن قصَّة ذُنُوب إسرائيل، وعُقُوبة الله. هذه الذّروة اللاَّهُوتيَّة تمَّ إقحامها في مُنتصف المسرحيَّة العظيمة، بَيْن الكارثتَيْن؛ أيْ

مُباشرة بعد وَصْف احتلال السّامرة، وإبعاد الإسـرائيليِّين، وقبـل ذكْر إعـادة توطـين الشُّعُوب الأجنبيَّة في أرض إسرائيل:

[[7 وكَانَ أَنَّ بَني إسْرَائيلَ أخطَأُوا إلَى الرَّبِّ إلَههم، الذي أصْعَدَهُـمْ مـنْ أرْض مصْـرَ مـنْ تَحْت يَـد فرْعَـوْنَ مَلك مصْرَ، وَاتَّقُـوا آلهَـةً أخـرى، 8 وَسَـلكُوا حَسَـبَ فَرَائـض الأُمَـم الذيـنَ طَرَدَهُمُ الرَّبُّ منْ أمَام بَني إسْرَائيلَ وَمُلُوك إسْرَائيلَ الذينَ أقَامُوهُمْ. 9 وَعَملَ بَنُو إسْـرَائيلَ سـراً ضدَّ الرَّبِّ إلَههمْ أُمُوراً لَيْسَتْ بمُسْتَقيمَة، وَبَنُوا لأنْفُسـهمْ مُرتفعـات فـي جَميـع مُدُنـهمْ مـنْ بُـرْج النَّوَاطير إلَـى الْمَدينَـة الْمُحَصَّنَـة. 10 وَأقَـامُوا لأنْفُسـهمْ أنْصَابـاً وَسَـوَاريَ عَلَـى كُـلِّ تَـلٍّ عَـال، وَتَحْتَ كُلِّ شَجَرَة خَضْرَاءَ. 11 وَأوْقَدُوا هُنَاكَ عَلَى جَميع الْمُرتفعات مثْلَ الأُمَم الذيـنَ سَـاقَهُمُ الرَّبُّ منْ أمَامهمْ، وَعَملُوا أُموراً قَبيحَةً لإغَاظَة الرَّبِّ. 12 وَعَبَدُوا الأصْنَامَ التي قَالَ الرَّبُّ لَـهُمْ عَنْهَا: [لاَ تَعْمَلُوا هَـذَا الأمْـرَ]. 13 وَأشْـهَدَ الـرَّبُّ عَلَـى إسْـرَائيلَ وَعَلَـى يـهُوذا عَـنْ يَـد جَميـع الأنْبيَاء وكُلِّ رَاء قَائلاً:

[ارْجعُـوا عَـنْ طُرُقكُـمُ الرَّديئَـة، وَاحْفَظُـوا وَصَايَـايَ فَرَائضـي حَسَـبَ كُـلِّ الشَّـريعَة التـي أوْصَيْتُ بهَا آبَاءكُمْ، وَالتي أرْسَلْتُهَا إلَيْكُمْ عَنْ يَد عَبيدي الأنْبيَاء]. 14 فَلَمْ يَسْمَعُوا، بَلْ صَلَّبُوا أقْفيَتَهُمْ كَأقْفيَة آبَائهم الذينَ لَمْ يُؤْمنُوا بالرَّبِّ إلَههمْ. 15 وَرَفَضُـوا فَرَائضَـهُ وَعَـهْدَهُ الـذي قَطَعَـهُ مَعَ آبَائهمْ وَشَهَادَاته التي شَهدَ بهَا عَلَيْـهمْ، وَسَـارُوا وَرَاءَ الْبَـاطل، وَصَـارُوا بَـاطلاً وَرَاءَ الأُمَـم الذينَ حَولَهُمُ، الذينَ أمَرَهُمُ الرَّبُّ أنْ لاَ يَعْمَلُوا مثْلَهُمْ. 16 وَتَرَكُوا جَميعَ وَصَايَا الرَّبِّ إلَههمْ، وَعَملُوا لأنْفُسهمْ مَسْبُوكَات عجْلَيْن، وَعَملُوا سَوَاريَ، وَسَجَدُوا لجَميع جُنْد السَّمَاء، وَعَبَدُوا الْبَعْلَ. 17 وَعَبَّرُوا بَنيهمْ وَبَنَاتهمْ في النَّار، وَعَرَفُوا عرَافَةً وَتَفَاءلُوا، وَبَاعُوا أنْفُسَهُمْ لعَمَل الشَّرِّ في عَيْنَي الرَّبِّ لإغَاظَته. 18 فَغَضبَ الرَّبُّ جداً عَلَى إسْرَائيلَ، وَنَحَّاهُمْ مـنْ أمَامه، وَلَـمْ يَبْـقَ إلاَّ سبْطُ يهُوذا وَحْدَهُ. 19 وَيـهُوذا ـ أيْضـاً ـ لَـمْ يَحْفَظُـوا وَصَايَـا الـرَّبِّ إلَـهـهمْ، بَـلْ سَـلكُوا فـي فَرَائض إسْرَائيلَ التي عَملُوهَا. 20 فَرَذَلَ الرَّبُّ كُلَّ نَسْل إسْرَائيلَ، وَأذَلَّهُمْ، وَدَفَعَهُمْ ليَد نَاهبينَ حتَّى طَرَحَهُمْ منْ أمَامه، 21 لأنَّهُ شَقَّ إسْرَائيلَ عَنْ بَيْت دَاوُدَ، فَمَلَّكُوا يرُبْعَـامَ بْـنَ نَبَـاطَ، فَـأبْعَدَ يرُبْعَامُ إسْرَائيلَ منْ وَرَاء الرَّبِّ، وَجَعَلَهُمْ يُخْطئُونَ خَطيَّةً عَظيمَةً. 22 وَسَـلَكَ بَنُـو إسْـرَائيلَ فـي جَميع خَطَايَا يرُبْعَامَ التي عَملَ. لَمْ يَحيدُوا عَنْهَا. 23 حتَّى نَحَّى الرَّبُّ إسْـرَائيلَ مـنْ أمَامه كَمَـا

تَكَلَّمَ عَنْ يَدِ جَمِيعِ عَبِيدِهِ الأَنْبِيَاءِ ، فَسُبِيَ إِسْرَائِيلُ مِنْ أَرْضِهِ إِلَى أَشُّورَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ .]] (سفر الملُوك الثّاني 17/ 7 ـ 23) .

نستطيع اليوم ـ بالطّبع ، بمُساعدة التّنقيبات والتّحقيقات الآثاريّة ، والدّراسات البيئيّة ـ أنْ نرى أنّ تلك النّهاية كانت نهاية حتميّة لا يُمكن اجتنابها . لقد دُمّرت إسرائيل ، وبقيت يهُوذا على قَيْد الحياة ، لأنّه في المُخَطّط الكلّي لطمُوحات الإمبراطُوريّة الآشُوريّة ، كانت إسرائيل ـ بثرواتها الغنيّة وبعدد سكّانها المُنتج ـ دولةً مُغْرِيَةً بنَحْوٍ لا يُقَارَن مع يهُوذا الفقيرة التي يصعب الوُصُول إليها . ومع ذلك ؛ بالنّسبة لجُمهُور المُستمعين في يهُوذا ، في السّنوات المُتجهّمة التي تَلَتْ فَتْح الإمبراطُوريّة الآشُوريّة لإسرائيل ، الذين أصبحوا يُواجهون فيها تهديد إمبراطُوريّة ، واشتباكات أجنبيّة ، خَدَمَتْ قصّة إسرائيل في الكتاب المُقدّس العبْريّ كتلميح وتحذير لما يُمكن أنْ يحصل لهم أنفسهم . لقد فَقَدَتْ مَمْلَكَة إسرائيل الأقدم ، والتي كانت ـ يوماً ما ـ قويّة جداً ، ميراثها ، رغم أنّ الله كان قد حَبَاها بأراضٍ خصبة ، وشعبٍ مُنْتِج . والآن ؛ ستلعب مَمْلَكَة يهُوذا دور الأخ الأصغر الأكثر حظوةً عند الله ـ مثل إسحق ويعقُوب والملك داود الذي من نسلهم وذُرّيّتهم ـ الذي سيسعى ـ بشدّة ـ إلى انتزاع الحقّ الطّبيعي ، وترميم وإعادة أرض إسرائيل وشعبها .

[القسم الثّالث]

يهُوذا وصناعة التّاريخ التّوراتي

الفَصْل (9):

تحوُّل يهُوذا (930 ـ 705 ق.م)

مفتاح فَهْم السّبب في قُوَّة عاطفة القصَّة التّاريخيَّة الكُبْرَى التي يرويها الكتاب المُقدَّس العبْريّ، يكمن في إدراك الزّمان والمكان الفريدَيْن اللّذَيْن أُلِّفت فيهما تلك القصَّة للمرَّة الأُولى. تقترب قصَّتنا ـ الآن ـ من تلك اللّحظة الحسَّاسة في التّاريخ الدِّيني والأدبي؛ لأنَّه بعد سقُوط إسرائيل فقط، نَمَتْ يهُوذا، وتطوَّرت إلى دولة مُتطوِّرة بالكامل، مع كُلِّ مُستلزماتها الضّروريَّة من وُجُود كَهَنَة مُحترفين، وكُتَّاب مُدَرَّبين قادرين على أنْ يأخذوا مثل هذه المهمَّة على عاتقهم. عندما واجهت يهُوذا العالَم غيرَ الإسرائيلي وحدها فجأةً، احتاجت إلى نصٍّ تعريفيٍّ وتحفيزيٍّ. ذلك النَّصُّ كان اللُّبَّ التّاريخيَّ للكتاب المُقدَّس، الذي أُعدَّ في أورشليم (القُدْس) أثناء القرن السّابع ق.م.. ولأنَّ يهُوذا كانت مسقط رأس الكتاب المُقدَّس المركزي لإسرائيل القديمة، لم يكن من المُستغرب أنْ نجد نُصُوصه تُؤكِّد على منزلة يهُوذا الخاصَّة مراراً وتكراراً من البدايات ذاتها لتاريخ إسرائيل.

نقرأ في سفْر التّكوين أنَّه في كهف "المَكْفيلَة" في "حبرون" (الخليل) ـ العاصمة القديمة ليهُوذا ـ دُفِنَ الآباء والأُمَّهات العظام المُبجَّلين. ونقرأ أنَّ من بَيْن جميع أبناء يعقُوب، كان يهُوذا ـ بالذّات، هُو ـ الذي كان قَدَرُهُ أنْ يحكم على سائر قبائل إسرائيل الأُخرى (تكوين 49/ 8). كان وفاء اليَهُوَذَوِيِّين لأوامر الله فريداً لا نظير له بَيْن المُحاربين الإسرائيليِّين الآخرين؛ وفي وقت غزو واحتلال كَنْعَان، رُوِيَ أنَّ اليَهُوَذَوِيِّين ـ فقط ـ هُم الذين استأصلوا ـ بالكامل ـ الحُضُور الكَنْعَاني الوَثَني من ميراثهم العشائري. ومن بيت لحم ـ القرية الرِّيفيَّة في يهُوذا ـ خَرَجَ داود، أعظم ملك وقائد عسكري لإسرائيل، ليبرز على مسرح التّاريخ التّوراتي. لقد

أصبحت مآثره البُطُوليَّة التي يرويها الكتاب المُقدَّس العبْريّ وعلاقته الخاصَّة والوثيقة بـالله من المواضيع الدِّينيَّة الأساسيَّة. في الحقيقة؛ مثَّل فَتْح داود لأُورشليم (القُدْس) المشهد النِّهائي في المسرحيَّة الدِّراميَّة لفَتْح كَنْعَان. لقد تحوَّلت أُورشليم (القُدْس) - الآن - إلى مدينة مَلَكيَّة، وأصبحت موقع المعبد (الهيكل)، والعاصمة السِّياسيَّة للأُسرة الدَّاوديَّة الحاكمة، ومركزاً مُقدَّساً لشعب إسرائيل عبْر الزّمن، وإلى الأبد[1].

إلاَّ أنَّه على الرّغم من أهميَّة يهُوذا في الكتاب المُقدَّس العبْريّ، ليس هُناك إشارة آثاريَّة حتَّى القرن الثّامن ق. م، على أنَّ منطقة المُرتفعات المعزولة والصّغيرة تلك، المُحاطة بأرض سهليَّة قاحلة في الشّرق والجنوب، كان لها أيّ أهميَّة تُذْكَر. كما رأينا، كان عدد سُكَّانها ضئيلاً؛ كما كانت مُدُنها - حتَّى أُورشليم (القُدْس) - صغيرة وقليلة العدد. كانت إسرائيل، وليست يهُوذا، هي التي بدأت الحُرُوب في المنطقة. كانت إسرائيل، وليست يهُوذا، هي التي قادت حَرَكَة دبلُوماسيَّة وتجارة واسعة النّطاق. عندما تنازعت المَمْلَكَتان، كانت يهُوذا - عادةً - في موقع الدّفاع، وأُجبرت على الاتّصال مع القوى المُجاورة؛ ليهبُّوا لمُساعدتها. ولا يُوجد - حتَّى أواخر القرن الثّامن - أيّ إشارة على أنَّ يهُوذا كانت أيَّ شيءٍ أكثر من عاملٍ هامشيٍّ في الشُّؤُون الإقليميَّة. في لحظة صراحة؛ يقتبس المُؤرِّخ التّوراتي خُرافة يُقلِّل فيها من شأن يهُوذا؛ ليُوصلها إلى منزلة "العَوْسَجُ الذي في لُبْنَانَ" مُقارنةً مع إسرائيل، التي هي "الأَرْز الذي في لُبْنَانَ" (سفْر المُلُوك الثّاني 14/ 9). في السّاحة الدّوليَّة، تبدو يهُوذا كمَمْلَكَة صغيرة ومعزولة، كما وَصَفَهَا الفاتح الكبير الملك الآشُوري "سرجون الثّاني" بقوله السّاخر: "تقع بعيداً جداً".

و لكنْ؛ ابتداء من أواخر القرن الثّامن ق. م، حَدَثَ شيء استثنائي. غَيَّرت سلسلة من التّغيُّرات التّاريخيَّة، التي بدأت بسُقُوط إسرائيل - فجأةً - المشهد السّياسي والدِّيني ليهُوذا. ازداد عدد سكَّان يهُوذا؛ ليصل إلى مُستويات ليس لها نظير في السّابق. أصبحت عاصمتها مركزاً دينياً وَطَنياً وعاصمةً إقليميَّة نشطةً لأوّل مرَّة. بدأت فيها تجارةٌ مركَّزةٌ مع الأُمم المُجاورة. وأخيراً؛ بدأت حَرَكَة إصلاح ديني كبيرة - ركَّزت على العبادة الحصريَّة ليَهْوَه في هيكل أُورشليم

(1) الكلام هُنا بيان لما هو مذكور في الكتاب المُقدَّس العبْريّ، حسب طريقة المُؤلِّف، الذي يبدأ - عادةً - بسَرْد موقف الكتاب المُقدَّس، ثُمَّ يعقب بنَقْد ذلك الموقف، بناءً على المُكتشفات الآثاريَّة. (المُترجم).

(القُدْس) ـ بدأت بزراعة فَـهْم جديـد ثـوري لإلـه إسـرائيل . إنَّ تحليـل التَّطـوُّرات التّاريخيَّـة والاجتماعيَّة في القرنَيْن التّاسع والثّامن ق . م ، في الشّرق الأدنى ، يُوضِّح بعضَ تلك التَّغيُّرات ، ويُقدِّم علمُ آثارَ الفترة المُتأخِّرة من الحُكْم المَلكي في يهُوذا دلائلَ ومُؤشِّرات أكثر أهميَّة .

مُلُوك جيِّدُون ومُلُوك سيِّئُون:

ليس هُناك سببٌ يدعو للشَّكِّ الكبير فـي ثقـة القائمـة التّوراتيَّة للمُلُـوك الدّاوديِّيْـن الذيـن حَكَمُوا في أُورشليم (القُدْس) على مدى القرنَيْن اللَّذَيْن تليا عهد داود وسُلَيْمَان . يَدْمُجُ سِـفْرا المُلُوك الأوَّل والثّـاني تـاريخَ المَمْلَكَتَيْـن الجنوبيَّـة والشّماليَّة ـ بنَحْـو مُتشـابك ـ فـي تـاريخٍ وَطَنـيٍّ مُركَّب واحدٍ ، يرجع في كثير من المـوارد إلـى سـجلَّيْن مَلكيَّيْـن مفقودَيْـن الآن ، يُطْلَـق عليـهما اسم : "سفْر أخبار أيَّام مُلُوك يهُوذا" ، و"سفْر أخبـار أيَّـام مُلُـوك إسـرائيل" . لقـد تمَّ رَبْـط تواريـخ ارتقاء مُلُوك يهُوذا ـ بنَحْو مُحدَّد ـ بتواريخ ارتقاء مُلُوك إسرائيل ، كما في هذا المقطع النّموذجـي من سفْر المُلُوك الأوَّل 15/ 9 ، القائل : [وَفِي السَّنَةِ الْعِشْرِينَ لِيَرُبْعَامَ مَلِـكِ إِسْـرَائِيلَ مَلَـكَ "آسـا" عَلَى يهُوذا .] . لقد أمكن فَحْـص نظـام التّقـاطع التّـاريخي هـذا ، والتَّـأكُّد منه بواسـطة مراجـع بيانات خارجيَّة حول مُلُوك إسرائيل ويهُوذا الفَرْديِّيْن ، ممَّا أثبت وثُوقيَّـة واتِّسـاق تلـك التّواريـخ ـ بشكْلٍ عامٍّ ـ سوى الحاجة لبضعة تنقيحات زمنيَّة طفيفة لمُدَد حُكْم بعض المُلُوك ، وإضافـة فـترات تزامن وتَشَارُك مُحتملة لحُكْم أكثر من وصيٍّ على العرش في وقت واحد (انظُرْ الشَّكْل 3) .

وهكـذا نتعلَّـم أنَّ أحـد عشـر ملكـاً (كُلّـهم من سُـلالة داود ، عـدا واحـداً) حَكَمُـوا فـي أُورشليم (القُدْس) بَيْن أواخر القرن العاشر ومُنتصف القـرن الثّـامن ق . م . . إنَّ التّقريـر المُتوفِّر عن كُلِّ عهد تقريرٌ مُوجزٌ ومُختصرٌ . ولا يُرى ـ أبداً ـ ذلك الوَصْف الإداني المُثير الـذي نـراه فـي تقديم الكتاب المُقدَّس العبْريّ للملك الشّـمالي "يربعـام" أو بيـت عُمْـري الوَثَنيِّيـن ، ولكـنَّ هـذا ليس معناه أنَّ علْم اللاَّهُوت لم يلعب دوراً في وَصْف الكتاب المُقـدَّس لتاريخ مَمْلَكَـة يـهُوذا . كانت عُقُوبـة الله سريعة وواضحـة جداً . عندمـا حَكَـمَ فـي أُورشـليم (القُـدْس) مُلُـوك أشـرارٌ خاطئون ، وكـانت عبـادة الأصنـام مُنتشرةً ، فإننا نتعلَّـم أنَّـهم عُوقبـوا ، وأنَّ "يـهُوذا" تعرَّضـت لنكسات عسكريَّة . أمَّا عندما حَكَـمَ فـي يـهُوذا مُلُـوك صـالحون ، وكـان الشّـعبُ مُخلصـاً لإلـه

إسرائيل؛ فقد ازدهرت المَمْلَكَة، واتّسعت أرضُها. خلافا للمَمْلَكَة الشّماليَّة، التي وُصفَت في جميع أنحاء الكتاب المُقدَّس العبْريّ بعبارات سلبيَّة، فإنَّ يهُوذا كانت صالحةً عُمُوماً. على الرّغم من أنَّ عددَ مُلُوك يهُوذا الصّالحين مُساوٍ - تقريباً - لعدد مُلُوكها الطّالحين، إلاَّ أنَّ طول مُدَّة حُكْمهم ليست مُتساوية؛ إذْ يُغطّي المُلُوك الصّالحون أغلب تاريخ الملكة الجنوبيَّة.

وهكذا؛ ومُنْذُ البداية، أيْ مُنْذُ أيّام "رَحُبْعَام"، ابن سُلَيْمَان وخليفته: [عَمِلَ يهُوذا الشَّرَّ في عَيْنَي الرَّبِّ . . وَبَنُوا هُم - أيْضاً - لأنْفُسهمْ مُرتفعات وأنْصَاباً وَسَوَارِيَ عَلَى كُلِّ تَلٍّ مُرتفع . . . وَفَعَلُوا حَسَبَ كُلِّ أرْجَاس الأُمَم الذينَ طَرَدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ أمَام بَنِي إسْرَائيلَ .] (سفْر المُلُوك الأوَّل 14/ 22 - 24). كان العقاب على هذا الكُفْر والارتداد سريعاً ومُؤلماً. في السّنة الخامسة لحُكم "رَحُبْعَام"، عام 926 ق. م، زَحَفَ فرعون مصر "شيشانق" **Shishak** على أُورشليم (القُدْس): [وَأخَذَ خَزَائنَ بَيْت الرَّبِّ، وَخَزَائنَ بَيْت المَلك، وَأخَذَ كُلَّ شَيْءٍ. وَأخَذَ جَميعَ أتْرَاس الذَّهَب التي عَملَهَا سُلَيْمَان] (سفر المُلُوك الأوَّل 14/ 25 - 26). لم يتعلَّم "أبيَام بن رَحُبْعَام" الدّرسَ، بل: [سَارَ في جَميع خَطَايَا أبيه التي عَملَهَا قَبْلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَاملاً مَعَ الرَّبِّ إلَهه.] (سفْر المُلُوك الأوَّل 15/ 3). فاستمرَّ شقاء دولة "يهُوذا" باستمرار صراعاتها المُتقطّعة مع جُيُوش مَمْلَكَة إسرائيل.

تبدَّلت الأُمُور نحو الأفضل، أثناء عهد "آسا" - الذي حَكَمَ في أُورشليم (القُدْس) لمُدَّة إحدى وأربعين سنةً، ابتداءً من أواخر القرن العاشر. "آسا" على ما يُقال: [عَمِلَ "آسا" مَا هُو مُسْتَقيمٌ في عَيْنَي الرَّبِّ كَدَاوُدَ أبيه] (سفْر المُلُوك الأوَّل 15/ 11). ليس مُفاجئاً، إذنْ، إنَّ أُورشليم (القُدْس) في عهده، أُنقذَت من هُجُوم "بَعْشَا"، ملك إسرائيل. دعا "آسا" ملك آرام - دمشق لمُساعدته، فهاجم حُدُود إسرائيل الشّماليَّة البعيدة، ممَّا أجبر "بَعْشَا" على سَحْب قُوَّات احتلاله من الأطراف الشّماليَّة للقُدْس.

مُدحَ الملك التّالي: "ياهوشافاط" (أو يوشافاط) - (الملك العبْري الأوَّل الذي يحمل اسماً مُركَّباً من اسمٍ مُحَوَّرٍ ليَهْوَه هُو "ياهو" + كلمة "شافاط" العبْريَّة التي تعني قَضَى أو حَكَمَ، ليُصبح المعنى: يَهْوَه قضى، أو حَكَمَ) -، لسَيْره على طريق أبيه المُستقيم "آسا". حَكَمَ "يوشافاط" في أُورشليم (القُدْس) لخمس وعشرين سنة في النّصف الأوَّل من القرن التّاسع

ق.م، وتوصَّل إلى سلام مع مَمْلَكَة إسرائيل، وانضمَّ إليها في عمليَّاتها الهُجُوميَّة النَّاجحة ضدَّ آرام ومُوآب.

واجهت مَمْلَكَة يهُوذا تقلُّبات مُتعدِّدة خلال القُرُون التَّالية؛ حيثُ وَصَلَتْ لأدنى مُستواها عندما تزوَّج "يورام" بن "يوشافاط" من العائلة الشِّرِّيرة لآخاب و"إيزابَل". ونَتَجَ عن ذلك البلاءُ المُتَوَقَّعُ: انتفضت أدوم (التي كانت مُنْذُ مُدَّة طويلة تابعة ليهُوذا) ثائرةً على يهُوذا، وأفقدت يهُوذا أراضٍ زراعيَّة غنيَّة، لصالح الفلسطينيِّين، في غرب منطقة "شَفلة". وكان الأمر الأكثر خُطُورة هُو التَّبعات الدَّامية لسُقُوط "العُمْرِيِّين"، الذي هزَّ القَصْر المَلَكي في أُورشليم (القُدْس). لقد قُتِلَ "أحازيا" - بن "يورام" وابن الأميرة العُمْرِيَّة "عَثَلْيَا" - أثناء انقلاب "ياهو". ولدى سماع "عَثَلْيَا" في أُورشليم (القُدْس)، أخبار مَقْتل ابنها وكُلّ أقربائها على يدَيْ "ياهو"، طَلَبَتْ تصفية كُلّ الوَرَثَة المَلَكيِّين لبيت داود، واستولت على العرش بنفسها. لمُدَّة ستّ سنوات؛ كان أحد كَهَنَة الهيكل (المعبد) المُسمَّى "يهوياداع" يُراقب الأوضاع، وينتظر. وعندما حان الوقت، أعلن أنَّ أحد وارثي عرش داود كان قد نجا من مَجْزَرَة "عَثَلْيَا"، إنَّه "يوآش" بن "أحازيا" من زوجته الأُخرى. مع مسح "يوآش" بالدّهن المُقدَّس كَمَلك داودي شَرْعي، تمَّ ذَبْح "عَثَلْيَا". وهكذا انتهت فترة تأثير المَمْلَكَة الشَّماليَّة "العُمْرِيَّة" في المَمْلَكَة الجنوبيَّة، - والتي عبَدَ أثناءها الإله "بَعْل" في أُورشليم (القُدْس) - انتهت نهاية دمويَّة. (سفْر المُلُوك الثَّاني 11/ 18).

حكَمَ "يوآش" في أُورشليم (القُدْس) لأربعين سنة: [وعَمِلَ يَهُوآشُ مَا هُو مُسْتَقِيمٌ في عَيْنَي الرَّبِّ كُلَّ أيَّامه.] (سفْر المُلُوك الثَّاني 12/ 2). كان أهمّ أعماله ترميم وتجديد المعبد (الهيكل). في عهده هدَّدَ "حَزَائيلُ" ملكُ آرام - دمشقَ، أُورشليم (القُدْس)؛ ولم يترك المدينة بسلام إلاَّ بعد مُطالبته وتحصيله ضرائبَ وأموالاً باهظةً من ملك يهُوذا[1]، ولكنَّ هذا لم يكن بفظاعة الدّمار الذي نَشَرَهُ "حَزَائيل" في المَمْلَكَة الشّماليَّة.

---

(1) ونصُّ العبارة كما جاءت في سفْر المُلُوك الثَّاني: [فَأَخَذَ يَهُوآشُ مَلِكُ يَهُوذَا جَمِيعَ الأَقْدَاسِ الَّتِي قَدَّسَهَا يَهُوشَافَاطُ وَيَهُورَامُ وَأَخَزْيَا آبَاؤُهُ مُلُوكُ يَهُوذَا، وَأَقْدَاسَهُ وَكُلَّ الذَّهَبِ المَوْجُودِ فِي خَزَائِنِ بَيْتِ الرَّبِّ وَبَيْتِ المَلِك، وَأَرْسَلَهَا إِلَى حَزَائِيلَ مَلِكِ أَرَامَ فَصَعِدَ عَنْ أُورُشَلِيمَ. 19 وَبَقِيَّةُ أُمُورِ يَهُوآشَ وَكُلُّ مَا عَمِلَ مَكْتُوبَةٌ فِي سِفْرِ أَخْبَارِ الأَيَّامِ لِمُلُوكِ يَهُوذَا.] (سفْر المُلُوك الثَّاني 12/ 18 - 19).

واستمرَّ تقلُّب الحُكْم في يهُوذا، بَيْن المُلوك الصّالحين والمُلوك السَّيِّئين ـ وأحياناً؛ اختلطا مع بعضهما بالوقت نفسه ـ . جاء "أمَصْيَا" الملك المُستقيم الصّالح: [وَعَملَ مَا هُو مُستَقيمٌ في عَيْنَي الرَّبِّ، وَلكنْ؛ لَيْسَ كَدَاوُدَ أَبيه . . .] (سفر المُلوك الثّاني 14/ 3)، وشَنَّ حرباً ناجحةً ضدَّ أدوم، لكنَّه هُزمَ وأُسرَ من قِبَل جيُوش مَمْلَكَة إسرائيل الشّماليَّة، التي غَزَتْ أرض يهُوذا وحطَّم أسوار أورشليم (القُدْس). وهكذا استمرَّت القصَّة، خلال عهد "عَزَرْيَا" المُستقيم (المعروف ـ أيضاً ـ باسم عُزِّيًا)، الذي وسَّع حُدُود يهُوذا في الجنوب، وابنه "يوتام".

وتبدَّلت الأُمُور نحو الأسوأ ـ بشَكْل مُفاجئ ومُثير ـ عند موت "يوتام" وتتويج "آحاز" (743 ـ727 ق . م). لقد أُدين "آحاز" بقسوة استثنائيَّة في الكتاب المُقدَّس، ذَهَبَتْ أبعد من وَصْفه بالكُفْر والارتداد العادي:

[وَلَمْ يَعْمَل المُسْتَقيمَ في عَيْنَي الرَّبِّ إلَهه كَدَاوُدَ أَبيه، 3 بَلْ سَارَ في طَريق مُلُوك إسْرَائيلَ حتَّى إنَّهُ أَجَازَ ابْنَهُ في النّار (أيْ أحرقه حتَّى الموت بالنّار) حَسَبَ أَرْجَاس الأُمَم الذينَ طَرَدَهُمُ الرَّبُّ منْ أَمَام بَني إسْرَائيلَ. 4 وَذَبَحَ وَأَوْقَدَ للأوثَان عَلَى المُرتفعات وَعَلَى التّلاَل وَتَحْتَ كُلِّ شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ.] (سفر المُلوك الثّاني 16/ 2 ـ 4).

وكانت النّتيجة كارثيَّة. أخذ الأدوميُّون المُتململون إيلاتَ على خليج العقبة، وَدَخَلَ "رصين" ملك دمشق القوي، وحليفه "فَقْح"، ملك إسرائيل، في حرب ضدَّ يهُوذا، وحاصرا أُورشليم (القُدْس). ولمَّا رأى الملك "آحاز" أنْ لا ظَهْرَ له ولا مُعين، ناشد "تَغْلات بيلاصَّر الثّالث"، ملك الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، لمُساعدته، واعداً إيَّاه في المُقابل بهدايا من الهيكل (المعبد): [فَسَمعَ لَهُ مَلكُ أَشُّورَ، وَصَعدَ مَلكُ أَشُّورَ إلَى دمَشْقَ، وَأَخَذَهَا، وَسَبَاهَا إلَى قيرَ، وَقَتَلَ رَصينَ.] (سفر المُلوك الثّاني 16/ 9). وَنَجَتْ "يهُوذا" ـ مُؤقَّتاً، على الأقلِّ ـ بهذه الحيلة الذكيَّة التي قام بها ملك فاسق، سَمَحَ لنفسه أنْ يستعين بالإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة العظيمة.

لكنَّ الوقت كان قد حان لتغيير دينيٍّ بعيد المدى. كان الدّوران في الحلقة المُفرغة للكُفْر والارتداد، ثُمَّ العقاب والتّوبة على وشك أنْ يُكسَر. بدأ "آحاز بن حَزَقيًّا"، الذي حَكَمَ أُورشليم (القُدْس) تسعاً وعشرين سنةً، حَمْلَة إصلاح ديني شامل، ليُعيد النّقاوة الإخلاص والطّاعة ليَهْوَه، التي فُقدَت مُنْذُ أيَّام الملك داود. إحدى أقوى مظاهر العبادة التي كان

يُمارسها أهالي الأرياف في ريف يهُوذا، كان شعبيَّة الأماكن العالية - أو مذابح الهواء الطَّلْق - التي نادرا ما تجرأ أحد على المساس بها، حتَّى أكثر مُلُوك يهُوذا استقامةً. كتعليقة ختاميَّة مُتكرِّرة يذكر الكتاب المُقدَّس صيغةً يُلخِّصُ بها أفعال كُلِّ ملك عادل فيقول: (لَمْ تُهْدَم المُرتفعات، بَلْ ظَلَّ الشَّعْبُ يَذْبَحُونَ عَلَيْهَا وَيُوْقِدُونَ.)، لكنَّ "حزَقيًّا" كان الأوَّل في إزالة تلك المُرتفعات، بالإضافة إلى الأنصاب الأُخرى للعبادة الوثنيَّة:

[[3 وَعَمِلَ الْمُسْتَقِيمَ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ حَسَبَ كُلِّ مَا عَمِلَ دَاوُدُ أَبُوهُ. 4 هُوَ أَزَالَ المُرتفعات، وكَسَّرَ التَّمَاثِيلَ، وَقَطَّعَ السَّوَارِيَ، وَسَحَقَ حَيَّةَ النُّحَاس التي عَمِلَهَا مُوسى؛ لأنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا إِلَى تِلْكَ الأَيَّامِ يُوقِدُونَ لَهَ،ا وَدَعُوهَا [نَحُشْتَانَ]. 5 عَلَى الرَّبِّ إِلَهِ إِسْرَائِيلَ اتَّكَلَ، وَبَعْدَهُ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ فِي جَمِيعِ مُلُوكِ يهُوذا، وَلاَ فِي الذِينَ كَانُوا قَبْلَهُ. 6 وَالْتَصَقَ بالرَّبِّ، وَلَمْ يَحِدْ عَنْهُ، بَلْ حَفِظَ وَصَايَاهُ التي أَمَرَ بِهَا الرَّبُّ مُوسى. 7 وَكَانَ الرَّبُّ مَعَهُ، وَحَيْثُمَا كَانَ يَخْرُجُ كَانَ يَنْجَحُ. .]] (سفر المُلُوك الثَّاني 18/ 3 - 7).

ولذلك؛ فإنَّ الصُّورة التي يُقدِّمها الكتاب المُقدَّس لتاريخ يهُوذا واضحة لا تترك إبهاماً في أنَّ المَمْلَكَة كانت فعلاً، يوماً ما، مُقدَّسة جداً، لكنَّها ابتعدت عن إيمانها أحياناً. وَصَلَ "حزَقيًّا" للحكْم؛ هُو - فقط - مكَّن يهُوذا من استعادة قداستها.

أمَّا علْم الآثار؛ فإنَّه يقترح وَضْعَاً مُختلفاً تماماً - وَضْعٌ كان فيه العصر الذَّهبي للإخلاص القبائلي والدَّاودي ليَهْوَه مثالاً دينياً مثالياً مُتأخِّراً، وليس حقيقة تاريخيَّة -. وبَدَلاً من إعادة إحياء الدِّين، يقترح الدَّليل الآثاري بأنَّ المَلكيَّة المركزيَّة والدِّين الوطَني الذي تركَّز في أُورشليم (القُدْس) إنَّما أخذ قُرُوناً ليتطوَّر ويتبلور، وكان جديداً تماماً في عهد "حزَقيًّا". لم تكن وَثَنيَّة شعب يهُوذا ابتعاداً عن توحيدهم الأصلي السَّابق، بل كانت - بَدَلاً من ذلك - نفس طريقة العبادة التي كان يُمارسها شعب يهُوذا مُنْذُ مئات السِّنين.

الوجه المَخْفي ليهُوذا القديمة:

إلى بضع سنواتٍ سابقة؛ اعتقدَ كُلُّ عُلماء آثار الكتاب المُقدَّس - عَمَليَّاً - بالمعنى الحقيقي للوَصْف الدِّيني للدَّولتَيْن الشَّقيقتَيْن "يهُوذا" و"إسرائيل". فقد صوَّروا يهُوذا كَدَولة مُتطوِّرة

بشكل كامل مُنذُ عهد مُبكّر بقدَم عهد سُلَيْمَان، وحاولوا - بكُلّ ما استطاعوا من قُوَّة - أنْ يُقَدِّموا براهين آثاريَّة على النّشاطات العُمرانيَّة والإدارة الإقليميَّة الفعَّالة لِمُلُوك يهُوذا الأوائل.
ولكنْ؛ كما بيَّنَّا، لم يكن الدّليل الآثاري المُفترض على الحُكْم المَلكي المُتّحد أكثر من مُجرَّد أُمنيَّات ذهنيَّة. وكذلك الشّأن بالنّسبة للأبنية الآثاريَّة التي نُسبت لخلفاء سُلَيْمَان. لقد ثَبت أنَّ تهديد هُويَّة الحُصُون التي قيل إنَّ "رَحُبْعام بن سُلَيْمَان" بناها في كافَّة أنحاء يهُوذا (طبقاً لسفر أخبار الأيَّام الثّاني 11/ 5 - 12) وربط التّحصينات المُكثَّفة في موقع "تلّ النّصبَة" شمال أُورشليم (القُدْس) بالأعمال الدّفاعيَّة التي قام بها الملك اليَهُوذَوي "آسا" في مدينة "المصْفاة" التّوراتيَّة (سفر المُلُوك الأوّل 15/ 22). ثَبت أنَّ كُلّ ذلك كان وَهْماً خادعاً. تماماً مثل بوّابات سُلَيْمَان وقُصُوره، لقد ثَبت - اليوم - أنَّ عمليَّات البناء المَلَكيَّة إنّما حَدَثَتْ بعد مئتَيْ عام تقريباً من حُكْم أولئك المُلُوك المُعيَّنين.

يُظهر علم الآثار أنَّ المُلُوك الأوائل ليهُوذا لم يكونوا مُساوين لنُظرائهم الشّماليّين في الحُكْم، أو في القُدرة الإداريَّة، على الرّغم من حقيقة أنَّ فترات حُكْمهم والتّواريخ المُتساوية لاعتلائهم العرش مُتشابكة في سفرَي المُلُوك. كانت إسرائيل ويهُوذا عالَمَين مُختلفَيْن. باستثناء مدينة "لَخيش" في تلال "شَفَلة"، ليس هُناك - احتمالاً - أيّ علامات على وُجُود مراكز إقليميَّة مُتطوِّرة في يهُوذا بمُستوى المواقع الشّماليَّة لـ"جازَر"، و"مَجدُّو"، و"حَاصُوْر". وكذلك، كان تخطيط المُدُن وهندستها المعماريَّة في يهُوذا أكثر بساطة بكثير. لم تظهر تقنيَّات الأبنية التّذكاريَّة - مثل استخدام الأحجار المنحوتة في البناء، أو استخدام رُؤُوس العواميد الصّخريَّة من النّمَط العولسي - الأوّلي اللّذَيْن مثّلا النّمَطَ التّقليدي لأُسلُوب البناء "العُمْري" المُتطوِّر في المَمْلَكَة الشّماليَّة - في الجنوب قبل القرن السّابع ق.م.. وحتّى إذا كانت الأبنية المَلكيَّة لبيت داود في أُورشليم (القُدْس) (الذي افتُرِضَ أنَّه تمَّت إزالتها بواسطة البنايات اللاّحقة التي قامت مكانها) قد أُنجزت بنَحْو مُثير للإعجاب، إنْ لم يكن عظيماً، إلاَّ أنَّه ليس هُناك دليل على وُجُود أبنية ونُصُب كبيرة تذكاريَّة في أيّ مكان آخر في البلدات والقُرَى القليلة في التّلال الجنوبيَّة.

الجدول 6 مُلُوك 'يهُوذا' من 'رَحبْعام' إلى 'آحاز'

الملك	التّواريخ(*)	تقييم الكتاب المُقدّس	شهادة الكتاب المُقدّس	شهادة من خارج الكتاب المُقدّس
"رَحبْعام"	931 914 ق.م	سَيِّئ	أوّل ملك ليهُوذا؛ يقوم بتحصينات للمُدُن	حَمْلَة شيشانق
"أبيَّام"	914 ـ 911 ق.م	سَيِّئ	حارب "يَرُبْعام" في إسرائيل	
"آسا"	911 ـ 870 ق.م	جَيِّدٌ	طهَّر يهُوذا من الطُّقُوس الوَثَنيَّة الأجنبيَّة، حارب "بعشا" ملك إسرائيل بدعم من ملك دمشق، بنى قلعتَيْن (حصنين) على الحُدُود الشّماليَّة ليهُوذا.	
"يوشافاط"	870 ـ 846 ق.م(**)	جَيِّدٌ	حارب الآراميِّين مع "أخآب" كما حارب المُوآبيِّين مع "يورام"، زوج ابنه لأميرة "عُمْريَّة.	
"يورام"	851 ـ 843	سَيِّئ	أدوم تنتفض ضدَّ "يهُوذا"	مذكور في نقش وُجد في تلّ دان؟
"أحَزْيا"	843 ـ 842	سَيِّئ	من سلالة العمريِّين، يقتل أثناء الانقلاب العسكري لـ"ياهو" في إسرائيل.	مذكور في نقش وجد في تل دان؟

(*) طبقاً لقاموس: Anchor Bible Dictionary "قاموس مُرتَكَز الكتاب المُقدّس"، وكتاب: "الجدول الزّمني لمُلُوك إسرائيل ويهُوذا"، لـ" غاليل".

(**) تشتمل على سنوات حَكَمَ فيها بنَحْو مُشارك ومُتزامن كَوَصيّ على العرش.

"عَثَلْيا"	842 ـ 836	سَيِّئ	تقتل كثيراً من أُسرة داود المَلكيَّة ، ولكنَّها تُقتَل في انقلاب دموي .	
"يوآش"	836 ـ 798	جَيِّدٌ	يُعيد تجديد الهيكل (المعبد) ، ينقذ أورشليم (القُدْس) من حزائيل ، يتقل خلال انقلاب ضدَّه .	
" أمَصْيا "	798 ـ 769	جَيِّدٌ	يهزم أدوم ؛ يهاجمه يوآش ملك إسرائيل	
" عَزَرْيا "	785 ـ 733	جَيِّدٌ	يُعزَل في بيت للمصابين بالجزام ؛ أيَّام النَّبي "إشعيا"	ختمان يحملان اسمه
" يوتام "	743 ـ 729	جَيِّدٌ	يضغط عليه ملكا إسرائيل وآرام ؛ أيَّام النَّبي "إشعيا"	
" آحاز "	743 ـ 727	سَيِّئ	يهاجمه ملكا إسرائيل وآرام ، يستنجد بالملك "تغلات بيلاصَّر الثَّالث" ، أيَّام النَّبي "إشعيا"	يدفع أتاوة لـ "تغلات بيلاصَّر الثَّالث" ؛ يبدأ الازدهار في منطقة المُرتفعات في يهُوذا .

على الرّغم من الزّعم ـ لُمدَّة طويلة ـ بأنَّ بلاط سُلَيْمَان الغنيّ كان مسرحاً لرسائل جميلة مُزدهرة ، وأفكارٍ دينيَّة وتدوينٍ للتّاريخ ؛ إلاَّ أنّنا نفتقر إلى وُجُود شاهد واحد على انتشار واسع للقراءة والكتابة في يهُوذا في عهد الحُكْم المَلكي المُنقسم . لم يُكتشَف ـ إلى الآن ـ حتَّى أثرٌ واحدٌ للنّشاط الأدبيّ في يهُوذا في القرن العاشر .

في الواقع ؛ لا تظهر النُّقُوش التّذكاريَّة والأختام الشّخصيَّة ـ وهي العلامات الأساسيَّة على وُجُود دولة مُتطوِّرة بشَكْل كامل ـ في يهُوذا إلاَّ بعد متَيْ سنة من عهد سُلَيْمَان ، في أواخر

القرن الثّامن ق. م. . لم تظهر أغلب ال Ostraca "الرّقائق الفخّاريّة المكتوب عليها"[1] المعروفة وأحجار الوزن المكتوب عليها ـ وهي شواهد أُخرى على الأعمال الإداريّة الرُّوتينيّة في حفظ السِّجلاّت وتنظيم المعايير القياسيَّة للتّجارة ـ إلاّ في القرن السّابع فقط. كما أنّه لا يُوجد أيٌّ دليل على إنتاج واسع الانتشار للفخّاريّات في ورشات عمل مركزيَّة، أو إنتاج صناعي للزّيت لأجل تصديره، إلاّ في تلك الفترة المُتأخِّرة. تُظهرُ الأرقام المُقدَّرة لعدد السُّكّان مدى الفَرْق الذي كان بَيْن "يهُوذا" و"إسرائيل".

في ضوء النّتائج المذكورة، أصبح من الواضح ـ الآن ـ أنَّ "يهُوذا" العصر الحديدي لم تَتَمَتَّع بأيِّ عصر ذهبي مُبكِّر. لقد حَكَمَ داود وابنه سُلَيْمَان والأفراد التّالون من السُّلالة الدّاوديَّة على منطقة ريفيَّة هامشيَّة معزولة، بدُون وُجُود أيِّ علامات على ثراءٍ كبير، أو إدارة مركزيَّة. لم تنحدر "يهُوذا" ـ فُجأةً ـ إلى الضّعف وسُوء الحال من فترة ازدهار فريدة، بل على العكس، لقد مَرَّت بفترة تطوُّرٍ تدريجيٍّ وطويلٍ خلال مئات السّنين. كانت أُورشليم داود وسُلَيْمَان واحدة من المراكز الدِّينيَّة القليلة داخل أرض إسرائيل؛ وبالتّأكيد؛ لم يكن مُعترفاً بها ـ في البداية ـ كَمَركزٍ رُوحيٍّ لكامل شعب إسرائيل بأجمعه.

حتّى الآن؛ قدَّمنا أدلَّة سلبيَّة فقط على ما لم تكنه "يهُوذا". إلاّ أنّنا نملك صُورة عن ما ينبغي أنْ تكون عليه حالة أُورشليم (القُدْس) وما يُجاورُها في عهد داود وسُلَيْمَان وخُلَفائهما الأوائل. تلك الصُّورة لم تأت من الكتاب المُقدَّس، بل أتَتْنا من أرشيفات تلِّ العمارنة في مصر، في العصر البرُونزيِّ المُتأخِّر.

دولة المدينة البعيدة في التّلال:

من بَيْن أكثر من 350 قُرصاً مسماريّاً من القرن الرّابع عشر ق. م، التي اكْتُشِفَتْ في العاصمة المصريَّة القديمة أختاتين Akhetaten، والتي أصبحت تلّ العمارنة في عصرنا الحديث،

---

(1) القطع أو الرّقائق الفخّاريَّة المكتوب عليها: ostraca جمع ostracon: قطع مكسورة من الفخّاريّات أو الرّقائق الكلسيَّة كانت تُستخدم كرقائق للكتابة عليها أو الرّسم أو إجراء حسابات في العصر القديم. استخدمها المصريُّون واليُونانيُّون والعبرانيُّون القُدماء، واكتُشف عدد كبير منها في شمال فلسطين في عزبت سرتاح وقنتلة عجرود وفي أراد في الجنوب وحول بئر سبع، وغيرها منَ المواقع، ومنها ما كُتب عليه باللُّغة العبريَّة القديمة، ومنها باللُّغة اليُونانيَّة. (المُترجم نقلاً عن الموسوعة البريطانيَّة، وموسوعة إنكارتا الأمريكيَّة).

والتي تضمَّنت المُراسلات بَيْن فرعون مصر ومُلُوك الدُّول الآسيويَّة والحُكَّام ضئيلي الشَّأن لكَنْعَان، تُقَدِّمُ مجموعة من ستَّة أقراص رُؤية فريدة عن الحُكْم المَلكي والإمكانيَّات الاقتصاديَّة في المُرتفعات الجنوبيَّة - أيْ بالضَّبط في المكان الذي ظهرت فيه مَمْلَكَة "يهُوذا" لاحقاً -. تَكشفُ الرَّسائل التي كَتَبَهَا "عَبْدي حبا"، ملك أورُوساليم (اسم أُورشليم (القُدْس) في أواخر العصر البرُونزي)، عن وَصْفٍ لمملكته بأنَّها منطقة مُرتفعة صغيرة مأهولة بالسُّكَّان بشَكْل ضئيل، يتمُّ الإشراف عليها - بشَكْل ضعيف ورخو - من الحصن المَلكي في أُورشليم (القُدْس).

كما نعرف - الآن - من الاستطلاعات، ومن الاعتراف بالدَّورات المُتكرِّرة للاحتلال على مدى الألف عام، كان مُجتمع "يهُوذا" المُتميِّز يتَحدَّد - إلى حَدٍّ كبير - بواسطة موقعها الجَغرافيّ البعيد، وأمطارها المُتقلِّبة. بعكس منطقة المُرتفعات (التِّلال) الشَّماليَّة بوُديانها الواسعة وطُرُقها البرِّيَّة الطَّبيعيَّة المُؤدِّية إلى المناطق المُجاورة، كانت "يهُوذا" - دائماً - هامشيَّة زراعياً، ومعزولة عن طُرُق التِّجارة الرَّئيسيَّة، ممَّا يجعلُها لا تُقدِّمُ لأيِّ حاكم مُنتظَر إلاَّ فُرصَةً ضئيلة فقط للثَّروة. لقد تركَّز اقتصادها حول الإنتاج المُكتفي ذاتياً لمُجتمعات الزِّراعة الفَرْديَّة، أو المجموعات الرَّعويَّة.

وتَبْرُزُ صُورة مُماثلة من مُراسلات "عَبْدي حبا". لقد كان يُسيطر على المُرتفعات، بدءاً من منطقة "بيت إيل" في الشَّمال إلى منطقة "حبرون" (الخليل) في الجنوب - وهي منطقة تَبلُغُ مساحتها حوالي تسعمئة ميل مُربَّع -، وكان على نزاعٍ مع الحُكَّام المُجاورين في المُرتفعات الشَّماليَّة (شكيم) و"شَفَلة". كانت أرضه مأهولة بالسُّكَّان بشَكْل مُتناثر جداً، لم يُكْتَشَف فيها - حتَّى الآن - إلاَّ ثمان مُستوطنات صغيرة. احتمالاً؛ لم يتجاوز عدد السُّكَّان المُقيمين في أرض "عَبْدي حبا"، بمَنْ في ذلك أُولئك الذين يعيشون في أورشليم (القُدْس)، لم يتجاوز ألف وخمسمئة نسمة؛ أيْ أنَّها كانت أقلّ المناطق المأهولة بالسُّكَّان في كَنْعَان، ولكنْ؛ كان هُناك العديد من المجموعات الرَّعويَّة في منطقة المُرتفعات الحُدُوديَّة البعيدة هذه - ربَّما يفوق عددها عدد سُكَّان القُرَى المُستقرَّة -. ربَّما نستطيع أنْ نفترض أنَّ السُّلْطَة في تلك الأجزاء النَّائية من أراضي "عَبْدي حبا" كانت في أيدي المُجرمين المعروفين بأبيرو، والشُّوصيِّين شبه البدويِّين، والعشائر المُستقلَّة.

كانت أورُوساليم عاصمة "عَبْدي حبا" مَعْقل مُرتفعاتٍ صغيراً، يقع في الحافَّة الجنوبيَّة الشَّرقيَّة للقُدْس القديمة، والتي عُرِفَت - لاحقاً - بمدينة داود. لم تُوجد - هُناك - أيُّ بنايات أو

تحصينات تذكاريَّة من القرن الرّابع عشر ق. م، وكما يقترح المُؤرِّخ "نداَّف نُعمان"، كانت عاصمة "عَبْدي حبا" مُستوطنة بسيطة للنُّخبة، التي حَكَمَتْ بضعة قُرَى زراعيَّة في المنطقة المُحيطة، وعدداً كبيراً من المجموعات الرّعويَّة.

لا نعرف مصير أُسرة "عَبْدي حبا"، كما أنَّنا لا نملك أدلَّة آثاريَّة كافيةً لفَهْم التَّغيُّرات التي حَدَثَتْ في أُورشليم (القُدْس) أثناء الانتقال من العصر البرُونزي المُتأخِّر إلى العصر الحديدي المُبكِّر. إلاَّ أنَّه من المنظور البيئيّ الأوسع، ونماذج الاستيطان والاقتصاد، يبدو أنَّه لا يُوجد تغيُّر مُثير حَدَثَ خلال القُرُون التّالية. كانت تُوجد بضعة قُرَى زراعيَّة (لا شكَّ أنَّ عددها كان يتزايد بنَحْو قليل) على الهضبة المركزيَّة، كما واصلت المجموعات الرّعويَّة تعقُّب الدّورات الموسميَّة بقطعانها، ومارست نُخبة صغيرة جداًّ الحُكْم عليهم جميعاً من أُورشليم (القُدْس).

لا يُمكن أنْ نقول شيئاً - تقريباً - عن داود التّاريخيّ، عدا عن مُلاحظة التّشابه الغريب بَيْن فرَقْ أبيرو الضّعيفة التي كانت تُهَدِّدُ "عَبْدي حبا" والحكايات التّوراتيَّة عن الزّعيم الخارج على القانُون داود وعصابته من الرّجال الأقوياء، الذين يتجوَّلون في تلال "حبرون" (الخليل) وصحراء "يهُوذا"، لكنْ؛ سواءً فَتَحَ داودُ أُورشليم (القُدْس) في هُجُوم مُشابه لطريقة الأبيرو الجريئة، كما يَصِفُ ذلك سفْر صموئيل، أو لم يفتحها بذلك النَّحْو، فإنَّه من الواضح أنَّ السُّلالة الحاكمة التي أسَّسها مثَّلت تغيُّراً في الحُكَّام، لكنَّها - بالكاد - عدلَّت الطّريقة الأساسيَّة التي كانت تُحكَم بها المُرتفعات الجنوبيَّة.

كُلُّ هذا يقترح بأنَّ مُؤسَّسات أُورشليم (القُدْس) - الهيكل (المعبد) والقَصْر - لم تُسيطر على حياة سُكَّان أرياف يهُوذا في أيِّ شيءٍ مُقارِبٍ للمدى الذي تقترحه النُّصُوص التّوراتيَّة. كانت الصِّفة الأبرز والأوضح ليهُوذا في القُرُون الأُولى من العصر الحديدي هي الاستمراريَّة، وليس التّجديد الدِّيني والسّياسي المُفاجئ.

في الحقيقة؛ يُمكن أنْ نُشاهد هذا الأمر بشَكْل واضح، حتَّى فيما يتعلَّق بالمُمارسات الدِّينيَّة، التي يبدو المُؤرِّخون المُتأخِّرون لمَمْلَكَة يهُوذا مهووسون بها إلى هذا الحَدِّ الكبير.

الدِّين التّقليدي ليهُوذا:

إنَّ سفْرَيْ المُلُوك واضحان تماماً في وَصْفهما للكُفْر والارتداد، اللَّذَيْن جَلَبا كثيراً من البلاء على مَمْلَكَة "يهُوذا". إنَّه يعرض ذلك في تفصيل نَمَطي في التّقرير الذي يُورده عن عهد "رَحُبْعَام":

[22 وَعَملَ يهُوذا الشَّرَّ في عَيْنَي الرَّبِّ، وَأَغَارُوهُ أَكْثَرَ من جَميع مَا عَمل آبَاؤُهُمْ بخَطَايَاهُمُ التي أَخْطَأُوا بهَا. 23 وَبَنُوا هُم - أَيْضاً - لأَنْفُسهمْ مُرتفعات وَأَنْصَاباً وَسَوَاريَ عَلَى كُلِّ تَلٍّ مُرتفع وَتَحْتَ كُلِّ شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ. 24 وكَانَ - أَيْضاً - مَأْبُونُونَ في الأَرْض. فَعَلُوا حَسَبَ كُلِّ أَرْجَاس الأُمَم الذينَ طَرَدَهُمُ الرَّبُّ منْ أَمَام بَني إسْرَائيلَ.] (سفر المُلُوك الثّاني 14/ 22 - 24).

وعلى المنوال نفسه؛ بعد حوالي مئتَيْ سنة، في عهد "آحاز"، تبدو طبيعة الذُّنُوب هي نفسها جوهرياً. لقد كان "آحاز" ملكاً كافراً رديء السُّمعة "سَارَ في طَريق مُلُوك إسْرَائيلَ، حتَّى إنَّهُ قدَّم ابْنَهُ أُضحيَّة في النّار. . وَذَبَحَ وَأَوْقَدَ للأَوثَان عَلَى المُرتفعات، وَعَلَى التِّلاَل، وَتَحْتَ كُلِّ شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ." (سفر المُلُوك الثّاني 16/ 2 - 4).

لقد برهن عُلماء الكتاب المُقدَّس أنَّ تلك لم تكن مُمارسات وَثَنيَّة مُنعزلة اعتباطيَّة، بل كانت جُزءاً من طُقُوس مُعقَّدة تهدف لُمناشدة القوى السَّماويَّة لأجل خُصُوبة الأرض وتَحَسُّن أوضاع الشَّعب. لقد شابهت - في شكلها الخارجيّ - المُمارسات التي تستخدمها الشُّعُوب المُجاورة لتبجيل آلهتها، وكَسْب بَرَكَاتها.

في الواقع؛ تدلُّ الاكتشافات الأثريَّة للتّماثيل الطِّينيَّة ومذابح البخور، وظُرُوف إراقة الدّم، ونُصُب، أو أماكن تقديم القرابين الموجودة في كُلِّ أنحاء "يهُوذا"، أنَّ مُمارسة الدِّين كانت تختلف كثيراً من مكان لآخر، وكانت غير مركزيَّة جَغرافياً، وبالتّأكيد لم تكن مُنحصرة بعبادة يَهْوَه وحده في معبد أُورشليم (القُدْس).

في الحقيقة؛ بالنّسبة ليهُوذا، ببيرُوقراطيَّتها الرَّسْميَّة ومُؤسَّساتها الوَطَنيَّة المُتخلِّفة نسبياً، كان يتمُّ إجراء الطُّقُوس الدِّينيَّة في نوعَيْن مُتميِّزَيْن من الصّالات أو الجوِّ - أحياناً يتمُّ تقديمها 1 الهيكل (المعبد) في أُورشليم (القُدْس) والذي يُوجد بشأنه وَصْف وافر في الكتاب المُقدَّس العبْريّ في فترات زمنيَّة مُختلفة، ولكنْ؛ (بسبب إزالته نهائيّاً خلال عمليَّات البناء التّالية) لم يَعُد يُوجد عليه - في الواقع - أيُّ شاهد آثاريّ. أمَّا البُؤرة الثّانية للمُمارسة الدِّينيَّة؛ فقد كانت بَيْن العشائر المُبعثرة في كافَّة أنحاء الرِّيف. لقد سيطرت هُنالك شبكة مُعقَّدة من علاقات القرابة على كُلِّ مراحل الحياة، بما في ذلك الدِّين. كان أداء الطُّقُوس لأجل خُصُوبة الأرض وبَرَكَات الأسلاف، يُعطي أملاً للشّعب بازدهار أُسَرهم وتقديس مُمتلكاتهم من الحُقُول في القُرَى وأراضي الرّعي.

قارن المؤرِّخ التّوراتي "باروخ هالبرن" Baruch Halpern وعالم الآثار "لُورانس ستاجر" Laurence Stager أوصاف الكتاب المُقدَّس لبناء العشيرة، مع بقايا المُستوطنات في منطقة المُرتفعات في العصر الحديدي، وميَّزا نَمَطاً معمارياً مُتميِّزاً لمُجمَّعات الأُسرة الواسعة، التي كان يُمارس سكَّانها - احتمالاً - طُقُوساً مُختلفة - أحياناً - بنَحْو كبير عن تلك التي تُمارَس في هيكل (معبد) أُورشليم (القُدْس). كانت التّقاليد والرُّسُوم المحلِّيَّة تُصرُّ على أنَّ أهالي يهُوذا ورثوا بيتهم، وأرضهم، وحتَّى قُبُورهم من الله، ومن أسلافهم. كانت تُقدَّم القرابين في أضرحة ضمن المُجمَّعات المنزليَّة المحلِّيَّة، وعند مقابر الأُسرة، وفي مذابح في الهواء الطَّلْق في كافَّة أنحاء الرِّيف. لم يتعرَّض أحد لأماكن العبادة هذه إلاَّ نادراً، حتَّى منْ قِبَل أكثر المُلُوك تقوىً وعُدوانيَّةً، لذا؛ لا عجب أنْ نرى الكتاب المُقدَّس يُلاحظ - مراراً وتكراراً - بأنَّ "الأماكن العالية لم تتمَّ إزالتهَا".

إنَّ وُجُود الأماكن المُرتفعة والأشكال الأُخرى لعبادة الأسلاف والآلهة الأُسريَّة لم يكن - كما يُفيده سفر المُلُوك - كُفْراً وارتداداً عن إيمانٍ نقيٍّ سابقٍ؛ إنَّما كان جُزءاً من تقليد قديم لسكَّان ريف مُرتفعات يهُوذا، الذين عبدوا "يَهْوَه" إلى جانب عدد مُختلف من الآلهة الذُّكُور والإناث التي عرفوها أو تبنّوها من طُقُوس الشُّعُوب المُجاورة، وباختصار؛ عُبِدَ "يَهْوَه" بطُرُق مُختلفة جداً، وصُوِّرَ - أحياناً - مُمتلكاً لحاشية سماويَّة. نعلم من الدّليل غير المُباشر (و السّلبي بشكْل واضح) في سفْرَيْ المُلُوك أنَّ الكَهَنَة في الرّيف كانوا يحرقون البخور في المُرتفعات للشّمس والقمر والنُّجُوم بنَحْو مُنتظم.

بما أنَّ الأماكن العالية كانت - من المُفترض - مناطق مفتوحة، أو قِمَماً طبيعيَّة للمُرتفعات، فإنَّه لم يتمَّ - حتَّى الآن - التَّعرُّف على أيِّ بقايا أثريَّة مُحدَّدة لها، لذا؛ فإنَّ الدّليل الآثاري الأوضح على شعبيَّة هذا النّوع من العبادة في كافَّة أنحاء المَملَكَة؛ هُو اكتشاف مئات التّماثيل لآلهة الخُصُوبة، العارية، في كُلِّ موقع من مواقع الأزمنة المُتأخِّرة للحكْم المَلكي في يهُوذا. والأكثر دلالة على ما نقول هُو النُّقُوش التي اكتُشفَت في موقع يعود لأوائل القرن الثّامن يُدعى "قُنْتلَة عَجْرُود" Kuntillet Ajrud في شمال شرق سيناء، وهُو موقع يُظهر وُجُود روابط ثقافيَّة مع المَملَكَة الشّماليَّة. يبدو أنَّ تلك النُّقُوش تُحيل إلى "الإلَـهة سارية"، كقَرينة ليَهْوَه. وحتَّى لا يفترض أحد

أنَّ حالة يَهْوَه المُتزوِّج كانت مُجرَّد هَلْوَسَة شماليَّة وَثَنِيَّة آثمة، تُظْهِرُ صيغةٌ مُماثلةٌ جداً، تتكلَّم عن يَهْوَه وخاصتَّه "سارية"، في نَقْش مَلَكي مُتأخِّر وُجد في منطقة "شَفْلة" في يهُوذا.

ولم يكن طَقْس العبادة المُتجذِّر هذا مُقتصراً على المناطق الرِّيفيَّة. هُناك معلومات توراتيَّة وآثاريَّة كافية تُبيِّن أنَّ طَقْس العبادة "التَّوفيقيَّة"[1] Syncretistic ليَهْوَه، ازدهر في أُورشليم (القُدْس) حتَّى في الأوقات المَلَكيَّة المُتأخِّرة. إنَّ إدانات أنبياء يَهْوَذويِّين مُتعدِّدين تُوضح ـ تماماً ـ أنَّ يَهْوَه كان يُعبَدُ في أورشليم (القُدْس) جنباً إلى جنب آلهة أُخرى مثل "بَعْل"، و"سارية"، و"مُضيفو السَّماء"، وحتَّى الآلهة الوَطَنيَّة للأراضي المُجاورة. نعلم مثلاً من نَقْد الكتاب المُقدَّس العبْريّ لسُلَيْمَان (والذي يعكسُ ـ احتمالاً ـ حقائقَ مَلَكيَّة مُتأخِّرة)، أنَّه كانت تتمُّ في "يهُوذا" عبادة الآلهة "مَلْكُومَ" من عمُّون، و"كَمُوش" من مُوآب، و"عَشْتُورَثَ" من صيدا (سفْر المُلُوك الأوَّل 11/ 5؛ سفْر المُلُوك الثَّاني 23/ 13). بل يُخبرنا أرميا أنَّه: [بعَدَد مُدُنِكَ صَارَتْ آلِهَتُكَ يَا يهُوذا، وَبِعَدَد شَوَارِع أُورشليم وَضَعْتُمْ مَذَابِحَ لِلْخزْي مَذَابِحَ للتَّبْخير للبَعْل.] (أرميا 11/ 13). علاوةً على ذلك؛ تمَّ نَصْبُ تماثيل لعبادة "بَعْل"، و"سارية"، و"مُضيفو السَّماء" في نَفْس معبد يَهْوَه في أُورشليم (القُدْس). يصف سفْر حزقيال/ 8 بالتَّفصيل كُلَّ الفظاعة التي كانت تُمارس في الهيكل (المعبد) في أُورشليم (القُدْس)، بما في ذلك عبادة الإله بَيْن النَّهرَيْن "تمُّوز".

و هكذا يجب أنْ لا يُنْظَرْ إلى الذُّنُوب العظيمة لـ"آحاز" ومُلُوك يهُوذا الآثمين الآخرين كَحَالة استثنائيَّة، بأيَّة حال؛ لأنَّ كُلَّ ما فَعَلَهُ أُولئك الحُكَّام كان أنَّهم سَمَحوا للتَّقاليد الرِّيفيَّة بالاستمرار دُون عقاب. لقد أظهروا، هُم والعديد من رعيَّتهم، ولاءهم الأساسي ليَهْوَه في مناسكهم التي كانوا يؤدُّونها في القُبُور التي لا تُحْصَى، وفي المقامات المُقدَّسة، وفي المُرتفعات في كافَّة أنحاء المَمْلَكَة، جنباً إلى جنب العبادة العَرَضيَّة والثَّانويَّة للآلهة الأُخرى.

بُلُوغ مُفاجئ لعصر الرُّشد والكمال:

خلال أغلب المِئَتَيْ سنة من الحُكْم المَلكي المُنقسم، بقيت "يهُوذا" في الظِّلِّ. طاقتها الاقتصاديَّة المحدودة، وعُزلتها الجغرافيَّة النِّسبيَّة، والمُحافظة المُتعصِّبة للتَّقليد، لدى عشائرها،

(1) التَّوفيقيَّة: حَرَكَة وجهد للتَّوفيق بين المُعتقدات الدِّينيَّة المُتعارضة. (المُترجم نقلاً عن قاموس المورد).

جَعَلَتْها أقلَّ جاذبيَّة بكثير للاستغلال الإمبرياليّ (التّوسُّعيّ) منْ قبَل الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، من مَمْلَكَة إسرائيل الأغنى والأوسع، ولكنْ؛ مع صعُود الملك الآشُوري "تَغْلات بيلاصَّر الثّالث" وتصميم "آحاز" أنْ يُصبح تابعاً له، دخلت "يهُوذا" في لُعبَة ذات نتائج عظيمة. بعد عام 720 ق.م، وفَتْح "السّامرة" وسقُوط إسرائيل، أصبحت "يهُوذا" مُحاطة إمَّا بولايات آشُوريَّة، أو دُول تابعة للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة. وكان لهذا الوَضْع الجديد آثارٌ على مُستقبلها، لا يُمكن تصورٌ وُسْعَتها. لقد تحوَّلت العاصمة المَلَكيَّة أُورشليم من مركز أُسرةٍ مالكةٍ محلّيَّةٍ لا يُؤبَه لها، إلى المركز العصبيّ السّياسيّ والدِّينيّ لقُوَّة إقليميَّة، بسبب التَّطوُّرات الدّاخليَّة الفُجائيَّة الحادَّة، وبسبب هُرُوب آلاف اللاَّجئين من مَمْلَكَة إسرائيل المُحتلَّة إلى الجنوب.

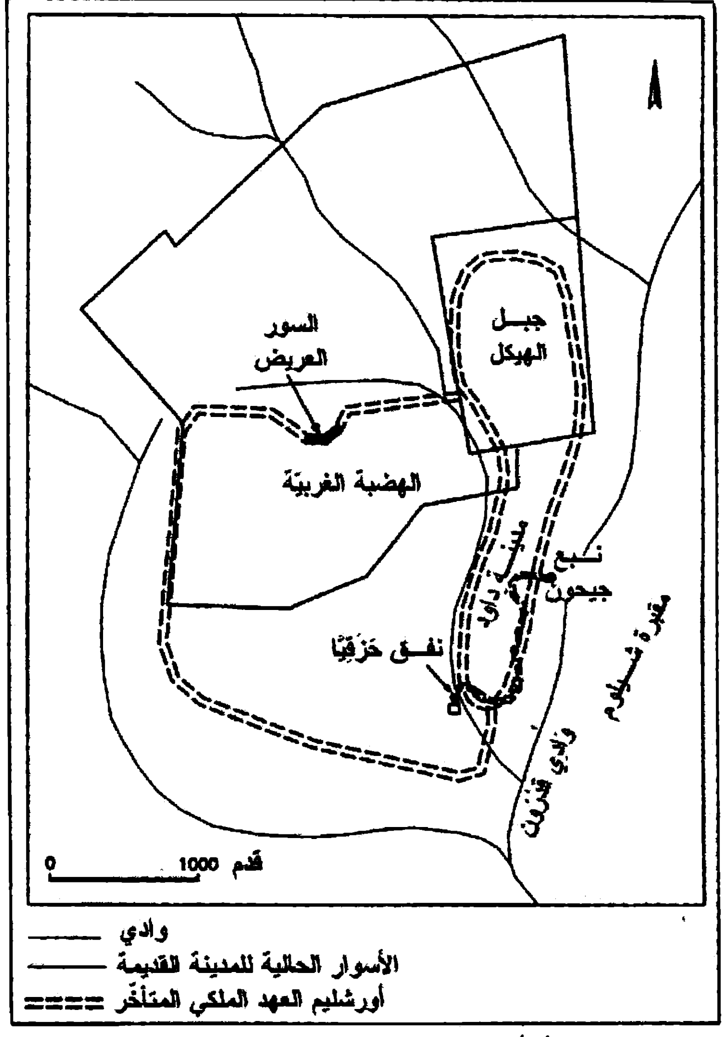
هُنا؛ قدَّم علْم الآثار خدمةً عظيمةً لا تُقَدَّرُ بثمنٍ في رَسْم مُخطَّط لسُرعة ومقياس ذلك التَّوسُّع المُفاجئ لأُورشليم (القُدْس). كما اقترح - لأوَّل مرَّة - عالم الآثار الإسرائيلي "ماجن بروشي" أظهرت التّنقيبات التي أُجريت هُناك في العقُود الأخيرة أنَّ أورشيلم (القُدْس) مرَّت فجأةً، في نهاية القرن الثّامن ق.م، بانفجار سُكَّاني لم يسبق له مثيل، توسَّعت - خلاله - المناطق السَّكَنيَّة، من حافَّتها الضَّيِّقة السّابقة - مدينة داود - لتُغطّي كامل التَّلّ (شَكْل 26). وتمَّ بناءُ سُورٍ دفاعيٍّ رائعٍ يضمُّ داخله الضّواحي الجديدة للمدينة.

خلال بضعة عقُود - وبالتّأكيد؛ خلال جيل واحد - تحوَّلت أُورشليم من مدينة مُرتفعات مُتواضعة لا تزيد مساحتها عن 10 إلى 12 هكتاراً إلى منطقة حَضَريَّة ضخمة تبلغ مساحتها 150 هكتاراً من البُيُوت المُكتظَّة المُتلاصقة وورشات العمل والأبنية العامَّة.

ومن النّاحية الدِّيمُوغرافيَّة (السُّكَّانيَّة) ربَّما يكون عدد سُكَّان المدينة قد تضاعف خمس عشرة ضعفاً؛ أيْ قَفَزَ من حوالي ألف نسمة فقط إلى خمسة عشر ألف نسمة.

تُظْهرُ الاستطلاعات الآثاريَّة - التي تمَّت في المنطقة الزّراعيَّة الدّاخليَّة لأُورشليم - صُورةً مُماثلةً للنُّمُوِّ السُّكَّانيّ الهائل. لم تُبْنَ العديد من المزارع ومبانيها المُلحَقَة في هذا الوقت في الضّواحي المُباشرة للمدينة فحسب، بل امتلأت الأحياء الجنوبيَّة للعاصمة، والمنطقة الرّيفيَّة المُجاورة التي كانت من قبلُ خالية نسبيّاً، بالمُستوطنات الزّراعيَّة الجديدة الكبيرة والصّغيرة. نَمَتْ القُرَى القديمة التي كانت في حالة سُبات، في حجمها، وأصبحت - لأوَّل مرَّة - بلدات

حقيقيَّة. في "شَفلة" أيضاً، جاءت القفزة الكبيرة إلى الأمام في القرن الثّامن، بنُمُوٍّ مُفاجئ في عدد المُدُن وحجمها.



الشَّكْل 26: توسُّع أُورشليم (القُدْس) من مدينة داود نحو الهضبة الغربيَّة.

تُزوِّدنا "لَخيش"، المدينة الأكثر أهميَّة في المنطقة، بمثال جيِّد. حتَّى القرن الثَّامن كانت مُجرَّدة بلدة بسيطة؛ ثُمَّ تمَّت إحاطتها بسُور رائع كبير، وتحوَّلت إلى مركز إداري رئيسي. على النَّمَط نفسه؛ شهد وادي بئر سبع في أقصى الجنوب تأسيس عدد من البلدات الجديدة في أواخر القرن الثَّامن. في الكُلّ، كان التَّوسُّع مُدهشاً؛ في أواخر القرن الثَّامن كان هُناك حوالي ثلاثمئة مُستوطنة من كُلّ الأحجام في يهُوذا، بدءاً من العاصمة الإقليميَّة أورشليم (القُدْس)، وانتهاءً بالمزارع الصَّغيرة؛ حيثُ كانت تُوجد قديماً بضعة قُرَى وبلدات صغيرة بسيطة. عدد السُّكَّان الذي كان يحوم لُمدَّة طويلة حول بضعة عشرات الآلاف، نَمَا الآن الـ 000 . 120 .

في أعقاب حملات الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة في الشَّمال، لم تعد يهُوذا تُواجه نُمُوّاً سُكَّانياً مُفاجئاً فحسب، ولكنَّها مرَّت - أيضاً - بتطوُّر اجتماعي حقيقي. وباختصار؛ أصبحت دُول تامَّة. ظهرت دلائل آثاريَّة تدلُّ على تشكُّل دولة ناضجة في المَمْلَكَة الجنوبيَّة بدءاً من أواخر القرن الثَّامن: النُّقُوش التّذكاريَّة، الأختام، وطبعات الختم، والرَّقائق الفخَّاريَّة، أو الكلسيَّة للإدارة الملكيَّة؛ الاستعمال المُتقطِّع في البناء للحجر المنحوت، وللصُّخُور كَرُؤُوس للعواميد في البنايات العامَّة؛ الإنتاج المُكثَّف أو الغزير للأواني الفخَّاريَّة والمصنوعات الأُخرى في الورشات المركزيَّة، وتوزيعها في كافَّة أنحاء الرِّيف. ولا يقلُّ أهميَّة عمَّا سَبَقَ ظُهُور بلدات مُتوسِّطة الحجم تعمل كَعَواصم إقليميَّة، وتُطوُّر صناعات عصر الزّيت والخمر على نطاق واسع، انتقل من إنتاجٍ محلّيٍّ خاصٍّ إلى مُستوى الصّناعة الحُكُوميَّة.

تُفيد شواهد عادات الدَّفْن الجديدة - والتي أغلبها وليس كُلّها في أُورشليم (القُدْس) - أنَّ هُناك نُخبة وَطَنيَّة بَرَزَتْ في هذه الفترة. بدأ بعض سكَّان أُورشليم (القُدْس)، في القرن الثَّامن، بقَطْع وحَفْر قُبُور مُتطوِّرة في صُخُور الحافَّات المُحيطة بالمدينة. كان الكثير من تلك القُبُور مُتقناً جداً ومُزيَّناً بسُقُوف جملونيَّة، وعناصر معماريَّة؛ مثل الكُورنيشات والأهرامات المرفوعة المحفورة بمهارة في الفرش الصّخري. لا شكَّ أنَّ تلك القُبُور كانت تُستخدَم لدَفْن النُّبلاء والمُوظَّفين الحُكُوميّين رفيعي المُستوى، كما يُشير إليه نَقْشٌ مُجَزّاً وُجدَ على أحد تلك القُبُور في قرية "سيلوم" من توابع أُورشليم (القُدْس) (شرق مدينة داود)، خُصِّصَ لـ " . . . ياهو المسؤول عن البيت". ليس مُستبعداً أنْ يكون هذا هُو نفس قبر "شبْنا" (الذي ربَّما يكون اسمه رُكِّبَ مع اسم الإله ليُصبح شبْنَاياهو)، المُضيف المَلكي الذي يُدينه إشعيا (22/ 15 - 16) لتكبُّره في شقِّ القبر في

الصّخر. تُوجد القبُور المُتقنة ـ أيضاً ـ في بضعة أماكن في "شَفلة"، في إشارة إلى التّراكم المُفاجئ للثروة، والتّفاضل في المركز الاجتماعي في أُورشليم (القُدْس) وفي الرّيف في القرن الثّامن.

والسُّؤال هُو: منْ أينَ جَاءتْ هذه الثّروة والحَركَة الظّاهرة نحو تشكيل دولة كاملة؟ الاستنتاج الذي لا مفرَّ منه أنَّ يهُوذا تعاونت ـ فجأةً ـ لا، بل دَمَجَتْ اقتصادها باقتصاد الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة. وعلى الرّغم من أنَّ الملك "آحاز"، عاهل يهُوذا، بدأ بالتّعاون مع الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة حتَّى قبل سقُوط "السّامرة"، إلاَّ أنَّ التّغيُّرات الأكثر أهمِّيَّة إنَّما حَصَلَتْ ـ بلا شكٍّ ـ بعد انهيار إسرائيل. قد يُشير النُّمُوُّ المُفاجئ للمُستوطنات بعيداً إلى الجنوب في وادي بئر سبع إلى أنَّ مَمْلكَة يهُوذا شاركت في تقوية التّجارة العَرَبيَّة في أواخر القرن الثّامن تحت الهيمنة الآشُوريَّة. هُناك سبب جيِّد للاعتقاد بأنَّ أسواقاً جديدةً فُتحت أمام السِّلَع اليَهُوذَويَّة، مُحفِّزةً الإنتاج المُكثَّف لزيت الزّيتون والخمر.

وكَنتيجة لما سَبَقَ؛ مرَّت يهُوذا بثورة اقتصاديَّة، انتقلت فيها من نظام تقليدي يرتكز على القرية والعشيرة إلى تربية المحاصيل وتصنيعها تحت مركزيَّة الدّولة. بدأت الثّروة تتجمَّع في يهُوذا، خُصُوصاً في أُورشليم (القُدْس)؛ حيثُ كان يتمُّ تحديد السّياسات الدّبلُوماسيَّة والاقتصاديَّة للمَمْلكَة؛ وحيثُ كانت تتمُّ السّيْطرَة والتّحكُّم في مُؤسَّسات الأُمَّة.

ولادة دين وَطَني جديد:

جَنْباً إلى جَنْب؛ التّحوُّل الاجتماعي الاستثنائي في أواخر القرن الثّامن ق.م، حَصَلَ كفاح دينيّ حادٌّ، له ارتباطٌ مُباشر بظُهُور الكتاب المُقدَّس العبْريّ كما نعرفه اليوم. قبل تبلور مَمْلكَة يهُوذا كَدَولة ذات نظام إداري كامل؛ كانت الأفكار الدِّينيَّة مُتفرِّقة ومُتنوِّعة. فكما ذكرنا؛ كانت هُناك الطُّقُوس الملَكيَّة في هيكل (معبد) أُورشليم (القُدْس)، كما كانت هُناك طُقُوس لا حصر لها لعبادة الأسلاف وآلهة الخُصُوبة في الرّيف، وكان هُناك إشراك واسع الانتشار لعبادة يَهْوَه مع عبادة تلك الآلهة الأُخرى.

بقدر ما نستطيع أنْ نُخبر ـ انطلاقاً من الأدلَّة الآثاريَّة للمَمْلكَة الشّماليَّة ـ كان هُناك تنويع مُماثل في المُمارسات الدِّينيَّة في إسرائيل؛ باستثناء ذكريات التّوصيات الشّديد التي كانت تقوم بها شخصيَّات مثل "إيليَّا" و"أليشَع"، والتّطهُّريَّة ضدّ "العُمْريَّة" التي قادها "ياهو"، والكلمات

القاسية لأنبياء مثل "عاموس" و"هُوشع"، لم يحصل في حكُومة إسرائيل الشّماليَّة أيُّ جهد مُنسَّق، أو بعيد المدى لإقرار عبادة يَهْوَه وحده.

لكنْ؛ بعد سقُوط السّامرة، والمركزيَّة المُتزايدة لمَمْلكَة يهُوذا، بدأ يقوى اتّجاه أكثر تركيزاً نحو الشّريعة والتّمسُّك بها. كان تأثير أورشليم (القُدْس) - السُّكّاني والسّياسي والاقتصادي - قد أصبح عظيماً الآن، وارتبط بأجنْدَة (جدول أعمال أو مهامّ) إقليميَّة وسياسيَّة جديدة: توحيد كُلّ إسرائيل. واشتدَّ - تبعاً لذلك - تصميم مُؤسَّستها الكَهَنُوتيَّة والنَّبويَّة على تعريف الطُّرُق "الصّحيحة" للعبادة لكُلّ شعب يهُوذا، وفي الحقيقة؛ كُلّ أُولئك الإسرائيليّين الذين يعيشون تحت الحُكْم الآشُوري في الشّمال.

دَفَعَتْ هذه التّغيُّرات المُثيرة في القيادة الدِّينيَّة عُلماء توراتيِّين مثل "باروخ هالبرن" لاقتراح أنَّه خلال فترة لا تزيد على بضعة عقُود في الفترة الأخيرة من القرن الثّامن والأُولى من القرن السّابع ق. م، وُلدَ (لأوَّل مرَّة) التّقليد التّوحيدي للحضارة اليهُوديَّة - المسيحيَّة.

هذا ادِّعاء كبير؛ أنْ يستطيع الإنسان أنْ يُحدِّد - بدقَّة - ولادة وعيٍ دينيّ حديث، خاصَّة عندما يضع كتابه المُقدَّس: التّوراة، ولادة التّوحيد قبل مئات السّنين، لكنْ؛ هُنا - أيضاً - يعرض الكتاب المُقدَّس العبْريّ تفسيراً ذا أثر رجعيّ بَدَلاً من أنْ يُقدِّم وَصْفاً دقيقاً للماضي.

في الحقيقة؛ لقد وفَّر التّطوُّر الاجتماعيّ المُتواصل في يهُوذا، في العقُود التي تَلَتْ سُقُوط السّامرة، رُؤية جديدة حول كيف خَدَمَتْ الحكايات التّقليديَّة لتيه الآباء، والتّحرُّر القومي العظيم من مصر، قضيَّة الإحياء الدِّيني - ظُهُور الأفكار التّوحيديَّة - ضمن دولة يهُوذا المُتبَلْورَة حديثاً.

في وقت ما في أواخر القرن الثّامن ق. م؛ بَرَزَتْ - بشكْل مُتزايد - مدرسة عالية الصّوت ذات تفكير يُصرُّ على أنَّ أنواع العبادة التي كانت تُمارَس بالرّيف، كانت وثَنيَّة آثمة، وأنَّ يَهْوَه وحده هُو المُستحقُّ للعبادة. لا يُمكن أنْ نُحدِّد - على وجه اليقين - أين نشأت هذه الفكرة. لقد تمَّ التّعبير عنها في دورات قَصَص "إيليَّا" و"أليشَع" (و التي تمَّ تدوينها بعد فترة طويلة من سُقُوط "العُمْريِّين")، والأهمُّ، في مُؤلَّفات النَّبيِّين "عاموس" و"هُوشع"، واللذين كان كُلٌّ منهما نَشطاً وفعَّالاً في القرن الثّامن في الشّمال.

كَنَتيجة لما ذُكر؛ اقترح بعض عُلماء الكتاب المُقدَّس بأنَّ هذه الحَركَة نشأت بَيْن الكَهَنَة والأنبياء المُعارضين في الأيَّام الأخيرة للمَمْلَكَة الشّماليَّة الذين كانوا مرعوبين من عبادة الأوثان

والظُّلم الاجتماعي في الفترة الآشُوريَّة. بعد دمار مَمْلَكَة إسرائيل، هربوا جنوباً لإعلان أفكارهم. أشار عُلماء آخرون إلى دوائر مُرتبطة بمعبد أورشليم (القُدْس) تنوي مُمارسة تحكُّم ديني واقتصادي على الرّيف المُتطوِّر بسُرعة. ربَّما لعب كلا العاملَيْن دوراً في الجوِّ المُغلَق لأُورشليم (القُدْس) بعد سُقُوط السّامرة، عندما عمل لاجئون من الشّمال مع كَهَنَة يَهُوَذَويِّين ومسؤولين مَلَكيِّين في يهُوذا مع بعضهم البعض.

أيّاً كان صانعو ذلك التّيّار الجديد؛ شنَّت تلك الحَركَة الدِّينيَّة الجديدة (التي لقَّبها المُورِّخ المُهاجم للمُعتقدات الدِّينيَّة والمُؤسَّسات التَّقليديَّة: "مُورتن سميث" بحَركَة "يَهْوَه - وحده") صراعاً مريراً ومُتواصلاً ضدَّ مُؤيِّدي العادات والطُّقُوس اليَهُوَذَويَّة القديمة الأكثر تقليديَّةً. من الصّعب تقييم قُوَّتهم النّسبيَّة ضمن مَمْلَكَة يهُوذا، لكنْ؛ رغم أنَّهم يبدُون - لأوَّل وهلة - أقلِّيَّة صغيرة؛ إلاَّ أنَّهم كانوا هُم الذين أنتجوا - لاحقاً - أو أثَّروا على مُعظم الكتابة التّاريخيَّة للكتاب المُقدَّس، التي بقيت، واستمرَّت. كان الوقت مُناسباً جداً لهذا الأمر؛ فقد أدّى توسُّع الإدارة البيرُوقراطيَّة لانتشار معرفة القراءة والكتابة. للمرَّة الأُولى؛ أصبح لسُلْطَة النُّصُوص المكتوبة، بَدَلاً من الملاحم المقروءة أو الأغاني الشّعبيَّة، تأثيراً هائلاً.

يجب أنْ يكون قد أصبح من الواضح - الآن - أنَّ مقاطع سفرَيْ المُلُوك التي تتحدَّث عن صلاح أو طلاح مُلُوك "يهُوذا" السّابقين، إنَّما تعكس عقيدة حَرَكَة "يَهْوَه وحده". لو أنَّ مُؤيِّدي الأنماط التّقليديَّة للعبادة التَّوْفيقيَّة (أيْ التي تجمع بَيْن عبادة يَهْوَه وعبادة آلهة أُخرى ثانويَّة) فازوا - في النّهاية - لربَّما امتلكنا كتاباً مُقدَّساً مُختلفاً كُلّيّاً، أو ربَّما لم نمتلك كتاباً مُقدَّساً أصلاً. ذلك لأنَّه كان في نيَّة حَرَكَة يَهْوَه - وحده - إيجاد أرثُوذُوكسيَّة صارمة في العبادة، وتاريخاً وَطَنياً فَرْداً مركزه أُورشليم (القُدْس). وقد نَجَحَتْ - بشَكْل بارز - في هذا المسعى، وأَوْجَدَتْ ما أصبح يُعْرَف باسم شرائع وقوانين "سفر التَّثْنِيَة" و"التّاريخ التَّثَنَوي"[1].

يُؤكِّد العُلماء بالكتاب المُقدَّس - عادةً - السّمات الدِّينيَّة - تماماً - للصّراع بَيْن أحزاب أو فئات أُورشليم (القُدْس)، لكنْ؛ ليس هُناك شكٌّ أنَّ مواقفهم اشتملت - أيضاً - على وجهات

(1) لابُدَّ من أنْ نُشدِّد على أنَّه بينما قد تكون بعض الأفكار الأساسيَّة التي ميَّزت - لاحقاً - "سفر التّثنية" (وربَّما حتّى نُسخة مُبكِّرة من التّاريخ "الوطني") قد صيغت في أواخر القرن الثّامن ق.م.، إلاَّ أنَّ تلك الأفكار لم تصل إلى مرحلة النُّضُوج إلاَّ في أواخر القرن السّابع ق.م.، عندما تمَّ جَمْعُ وتأليف نُصُوص "سفر التّثنية" و"التّاريخ التّثنوي" بالشكل الأخير، الذي تمَّ الاعتراف به.

نَظَر قويَّة حول السِّياسة المحلِّيَّة والخارجيَّة. في العالم القديم؛ كما هُو اليوم، لم يكن من المُمكن فَصْل مجال الدِّين عن سائر مجالات الاقتصاد، والسِّياسة، والثَّقافة. كان لأفكار جماعة "يَهْوَه ـ وحده" جوانبها الإقليميَّة أيضاً، والتي تسعى لإعادة إحياء حُكْم آل داود على كُلّ إسرائيل، بما في ذلك أراضي المَمْلَكَة الشَّماليَّة المقهورة؛ حيثُ ـ كما رأينا ـ واصل العديد من الإسرائيليِّين العيش بعد سُقُوط السَّامرة. هذا سيُحقِّق توحيد كُلّ إسرائيل تحت حُكْم ملك واحد من أُورشليم (القُدْس)، ودمار مراكز الطُّقُوس والعبادة في الشَّمال، ومركزيَّة العبادة الإسرائيليَّة في أُورشليم (القُدْس).

من السَّهل رُؤية السَّبب الذي كان يجعل مُؤلِّفي الكتاب المُقدَّس مُنزعجين جداً من عبادة الأصنام؛ لأنَّها كانت رمزاً للتَّشَتُّت الاجتماعي والفوضويَّة؛ حيثُ كان زُعماء العشائر في المناطق البعيدة يُسيِّرون أنظمتهم الخاصَّة في الاقتصاد، والسِّياسة، والعلاقات الاجتماعيَّة دُون إدارة أو سيطرة البلاط في أُورشليم (القُدْس). استقلال الرِّيف ذلك، رغم أنَّه كان أصيلاً لدى أهالي يهُوذا، أصبح مُداناً، على اعتبار أنَّه عودة وردَّة إلى الفترة الهَمَجيَّة الجاهليَّة قبل الإسرائيليَّة. هكذا، من سُخرية القدر، الشَّيء الذي كان يَهْوَذوياً أصيلاً أصبح يُنْبَذُ كَبدعة وهَرْطَقَة كَنْعَانيَّة. في حمأة الجَدَل الدِّيني والمُناظرات الانفعاليَّة، صار القديم يُنْظَرُ إليه ـ فجأةً ـ على أنَّه أجنبي وباطل، والجديد يُنْظَرُ إليه على أنَّه حقٌّ. وفي ما لا يُمكن إلاَّ أنْ نُسمِّيه طَرْحاً غريباً للاهُوت ذي أثر رجعي، مَمْلَكَة يهُوذا الجديدة التي أصبحت مركزيَّة، وعبادة يَهْوَه المَركزة في أُورشليم (القُدْس)، أُسْقطا على الماضي، وقُرئا على أنَّ الحال هكذا كان في الماضي الأصيل، أو أنَّ الأُمُور لابُدَّ أنَّها كانت دائماً بهذا النَّحْو.

إصلاحات الملك 'حَزَقيَّا'؟

من الصَّعب أنْ نُحدِّد ـ بالضَّبط ـ متى بدأ اللاَّهُوت الحصري (التَّوحيدي) يُمارسُ تأثيرَه العمليّ على سَيْر الأُمُور في يهُوذا؛ يذكر سفْرا المُلُوك الأوَّل والثَّاني إصلاحات مُختلفة في اتِّجاه عبادة يَهْوَه ـ وحده تعود لعهد مُبكِّر بحُدُود وقت الملك "آسا" في أوَّل القرن التَّاسع ق.م، لكنَّ ثقتها التَّاريخيَّة مشكوك فيها. هُناك شيء واحد يبدو واضحاً فعلاً: يُشير مُؤلِّفو سفرَيْ المُلُوك إلى صُعُود الملك "حَزَقيَّا" إلى عرش يهُوذا، في أواخر القرن الثَّامن ق.م، كَحَدَث جديد، لا سابقة له.

كان الهَدَف النّهائي لإصلاح "حَزَقيًا" - كما يُبَيِّنُهُ سفر المُلُوك الثّاني 18/ 3 - 7 - هُو تأسيس العبادة الخالصة والحَصْريَّة ليَهْوَه، في المكان الشَّرْعي الوحيد لها: معبد أُورشليم (القُدْس)، ولكنْ؛ من الصّعب كَشْف إصلاحات "حَزَقيًا" الدِّينيَّة في السّجلاّت الآثاريَّة. والأدلَّة التي وُجدَت عليها، خُصُوصاً في موقعَي نَفْي الجنوب هُما "أراد"، و"بئر سبع"، أدلَّة مشكوكة، وموضع سُؤال[1].

لذا؛ اقترح "باروخ هالبرن" بأنّ "حَزَقيًا" مَنَعَ العبادات والطُّقُوس الرّيفيَّة، لكنَّه لم يُغلق المعابد الرَّسْميَّة في مراكز المَمْلَكَة الإداريَّة. إلاَّ أنَّه ليس هُناك من شكٍّ أنَّه في عهد الملك "حَزَقيًا" حَصَلَ تغيير عميق - فعلاً - في أرض يهُوذا. لقد أصبحت يهُوذا - الآن - مركز شعب إسرائيل. وكانت أُورشليم (القُدْس) مركز عبادة يَهْوَه. وكان أعضاء الأُسرة الدّاوديَّة المالكة، المُمثِّلين الشَّرْعيِّين الوحيدين ليَهْوَه ووكلائه في الحُكْم في الأرض. لقد انتخب المسيرُ غيرُ المتَوَقَّع للتّاريخ يهُوذا لمنزلة خاصَّة في لحظة حاسمة جداً.

الأحداث الأكثر إثارة لم تأت بعدُ. في عام 705 ق. م، مات الملك الآشُوري المُوقَّر "سرجون" الثّاني، ليترك لابنه - الذي لم تُحنّكه التّجارب بعدُ - وراثة عرش الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة. أعقبت ذلك مشاكل واضطرابات في شرق الإمبراطُوريَّة، التي كانت - يوماً ما - تُمثِّل الواجهة المنيعة للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، والتي بدت - الآن - في خَطَر السُّقُوط. وبدا للعديدين في أُورشليم (القُدْس) أنَّه لابُدَّ وأنَّ يَهْوَه أعَدَّ "يهُوذا" بشَكْل مُعْجز - في اللحظة الحاسمة تماماً - ليُحقِّق، ويُنجز قَدَرَهَا التّاريخيّ.

---

(1) تعرّف عالم الآثار الإسرائيلي "يوهانان آهاروني" الذي قام بتنقيب كلا الموقعين، على معبد صغير في "أراد"، اعتقد أنه شُيِّدَ في القرن التاسع ق. م. ، واقترح بأنّ مذبحه - إن لم يكن المعبد نفسه - فُكِّك في أواخر القرن الثامن. وقد ربط هذا التغيير بإصلاح "حَزَقيًا". لكن علماء آخرين جادلوا بأنّ "آهاروني" أخطأ في تحديد تاريخ معبد "أراد"، مؤكّدين أنّه إنما بُني فقط في القرن السابع ق. م. ؛ بكلمة أخرى، إنه ينتمي لفترة ما بعد "حَزَقيًا" بوقت طويل. في بئر سبع، وجد أن بعض قطع كتل الصخر التي كانت تستخدم كمذبح قرباني كبير، وجدَت مفككة ومستعملة ثانية في مستودعات تعود لأواخر القرن الثامن، بينما استُخدمَ بعضها الآخر في ملء سورَ التحصين الطيني لتلك المدينة. اقترح "أهاروني" بأنّ المذبح المفكّك كان في الأصل جزءاً من معبد في المدينة، وبأنّه أزيل وفكّك خلال إصلاحات "حَزَقيًا". ولأجل تعقيد الأمور فحسب، يجب أن نلاحظ بأنّ كتيّبة الإغاثة الآشوريَّة المشهورة، التي وجّهها الملك "سَنْحَاريب" سنة 701 ق. م. ، لغزو وفتح "لَخيش" ق. م. ، ألقت ظلالاً من الشك على نجاح سياسة "حَزَقيًا" لترسيخ المركزيَّة الدينيَّة؛ إذ تصف تلك الكتيبة ما يبدو أنه مواد (تماثيل أو أشياء) للعبادة أزالتها القوّات الآشوريَّة من المدينة المفتوحة، مما يشير إلى الوجود المستمر، احتمالاً، لمكان عبادة هناك حتى وقت متاخرٍ من أيَّام "حَزَقيًا". (المؤلف)

الفَصْل (10):

بَيْن الحرب والبقاء (705 ـ 639 ق.م)

كان قرار الملك "حَزَقيَّا" بالثّورة ضدَّ الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة ـ بالتّأكيد ـ أحد أكثر القرارات الحاسمة التي اتُّخذَت في مَمْلَكَة يهُوذا.

إنَّ إعلام الاستقلال عن سيِّد المنطقة الأعلى الوحشيّ التَّوسُّعيّ ـ الذي لم يَمرّ على تفكيكه وإزالته لمَمْلَكَة إسرائيل سوى عقدَيْن من الزّمن ـ كان يتطلّب القُوَّة السّياسيَّة والتّنظيم الحُكُوميّ الكفيلَيْن بالقيام باستعدادات اقتصاديَّة وعسكريَّة بعيدة المدى. كما كان يتطلّب ـ أيضاً ـ طمأنة دينيَّة واضحة بأنَّه على الرّغم من القُوَّة الرّهيبة للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، فإنَّ يَهْوَه يَضمَنُ الانتصار العسكريّ النّهائيّ ليهُوذا. طبقاً للكتاب المُقدَّس؛ كُلُّ البلاء والشّقاء الذي حلَّ بمَمْلَكَة إسرائيل سببه الطُّرُق الوَثَنيَّة التي كان يُمارسها شعبها. والآن؛ أصبح تطهير وتنقية عبادة يَهْوَه الطّريق الأوحد لضمان نصر "يهُوذا"، وإنقاذ شعبها من مصير الدّمار والنَّفْي اللَّذَيْن حلاَّ بشعب الشّمال الآثم.

ولهذا؛ بعد موت "سَرْجون" عام 705 ق. م، عندما بَدَتْ قُدرة الإمبراطُوريَّة على السَّيْطَرَة على أراضيها البعيدة ضعيفة ومشكوك فيها، دَخَلَتْ "يهُوذا" في تحالف ضدَّ ـ آشُوريّ، كانت تدعمه مصر (سِفْر المُلُوك الثّاني 18/ 21، 19/ 9)، ورَفَعَتْ راية العصيان ضدَّ الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، الأمر الذي كان له آثاره البعيدة وغير المُتوقَّعة. بعد أربع سنوات في 701 ق. م، قَدمَ الملك الآشُوريّ الجديد: "سَنْحاريب" إلى يهُوذا بجيش هائل. يضع سفْرا المُلُوك وجهاً بُطُوليّاً في حصيلة هذه المُواجهة: كان "حَزَقيَّا" بطلاً عظيماً وملكاً مثاليّاً لا يُقارنُ إلاَّ بداود فقط. لقد سار على خُطَى مُوسى، وطهَّر يهُوذا من كُلِّ تجاوزات الماضي. وبفضل

تقواه؛ تراجع الآشُوريُّون عن يهُوذا، دُون أنْ يتمكّنُوا من فَتْح أُورشليم (القُدْس). كما سنرى؛ ليست هذه هي القصَّة بكاملها، كما أنَّ رواية الكتاب المُقدَّس التّالية حول حُكْم "مَنَسَّى" بن "حَزَقيّا" لِمُدَّة 55 عاماً لم تُزوِّدْنا بالقصَّة الكاملة أيضاً. يَصفُ سفْرا المُلُوك "مَنَسَّى" أنَّه - على عكس الملك المثالي "حَزَقيّا" - كان مُرتداً كامل الارتداد، أمضى كُلَّ فترة حُكْمه في إعادة كُلِّ فواحش وشُرُور الماضي الفظيعة.

لو لم يكن لدينا من مادَّة نعتمد عليها سوى رواية الكتاب المُقدَّس العبْريّ، لما كان لدينا أيُّ سببٍ للشكِّ في صُورة الأبيض والأسْوَد تلك، حول صلاح "حَزَقيّا" وكُفْر "مَنَسَّى"، ولكنَّ المصادر الآشُوريَّة المُعاصرة وعلْم الآثار الحديث يُظْهران أنْ أنَّ التّفسير اللاّهُوتيّ للكتاب المُقدَّس لثورة وعصيان "يهُوذا" ضدَّ الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة يُخفي خلفه حقيقة تاريخيَّة مُختلفة تماماً.

مُعجزة عظيمة وخيانتها:

يروي سفْر المُلُوك الثّاني قصَّة مُغامرة "حَزَقيّا" العظيمة في قطعةٍ مسرحيَّة رائعة، يخطب فيها فريقٌ صغيرٌ من المُمثِّلين خطاباتٍ مُعَدَّةً مُسْبَقاً عن مواضيع لاهُوتيَّة سهلة التّمييز. يُمثِّل هذا الأُسلُوب المسرحي من "التّحدُّث مع النَّفْس" الذي يتمُّ أداؤه لإفادة قارئ الكتاب المُقدَّس العبْريّ أحد علامات التّاريخ التّثنوي المُميَّزة. إنَّ استعمال البلاغة الدِّينيَّة شفّاف:

إنَّ نُقطة قصَّة الكتاب المُقدَّس هي أنْ تُظْهر كيف أنَّ مُجرَّد قُوَّة السّلاح أو ميزان القوى ليس لهما أيُّ تأثير على نتيجة الحرب بيْن الأُمم؛ لأنَّ خلف ذلك كُلّه تُوجد قُوَّة توجيه يَهْوَه، الذي يستخدم الجُيُوش والمعارك ليُجازي أُولئك الذين يعبدُونه - وحده - بإخلاص وغَيْرَة، ويُعاقب أُولئك الذين لا يفعلون ذلك[1].

بعد وَصْف سلُوك "حَزَقيّا" الدِّيني، يُدرج سفْر المُلُوك الثّاني استطراداً - وفي الحقيقة تكراراً - عن سُقُوط المَمْلَكَة الشّماليَّة ونَفْي شعبها بسبب ذُنُوبه. ويُقْصَدُ من ذلك تذكير القارئ بالتّباين

---

(1) من الواضح أنَّ المُؤلِّف لا ينطلق في استنكاره للتَّدخُّل الإلهي لمُعاقبة الأشرار الآثمين وإثابة المُطيعين الأخيار من دليل ملموس مُعيَّن، سوى الانسياق وراء نزعته المادّيَّة التي تُنكر عالم الغيب وما وراء الطّبيعة جُملةً. و إلاَّ فإنَّ سُوء عاقبة الظُّلم و الشَّرّ من سُنَن الله الكونيَّة الواضحة، التي يراها كُلُّ صاحب بصيرة في كُلِّ تاريخ البشريَّة. (المُترجم).

بَيْن مصير إسرائيل العاصية الآثمة ويهُوذا المُستقيمة الصّالحة. الأوضاع مُتماثلة والنّتائج مُتعارضة: إسرائيل ثارت، "شلمانصرّ" حاصرَ السّامرة، المَمْلَكَة الشّماليَّة حُطِّمَتْ، وشعبها نُفي؛ بسبب ذُنُوبه، ولم يكن "يَهْوَه" هُناك ليُساعدهم. ثارت يهُوذا أيضاً، حاصرَ "سَنْحاريب" أورشليم (القُدْس)، لكنَّ "حَزَقيًّا" كان ملكاً مُستقيماً، لذا؛ سلمت أُورشليم (القُدْس)، ودُمِّرَ جيش "سَنْحاريب". المغزى الأخلاقي واضح، حتَّى عندما تغزو القُوَّات الآشُوريَّة المُفزعة المَمْلَكَة، وتفتح كُلّ مُدُنها المُحصَّنة البعيدة. الاعتماد على قُوَّة "يَهْوَه" هُو المفتاح الوحيد للنّجاة.

يتحدَّى القادة الآشُوريُّون الذين يُحاصرون أُورشليم (القُدْس) المُدافعين الحائرين على أسوار المدينة؛ ويُعنِّفون المُواطنين، ويُحاولون أنْ يُحطِّموا معنويَّاتهم بوَضْع علامات سُؤال حول حكْمَة الملك "حَزَقيًّا" والسُّخرية من إيمانه: [اسْمَعُوا كَلاَمَ الْمَلك الْعَظيم مَلك أشُّورَ. 29 هَكَذَا يَقُولُ الْمَلكُ: لاَ يَخْدَعْكُمْ حَزَقيَّا لأَنَّهُ لاَ يَقْدرُ أَنْ يُنْقذَكُمْ منْ يَده. 30 وَلاَ يَجْعَلْكُمْ حَزَقيَّا تَتَّكلُونَ عَلَى الرَّبِّ قَائلاً: إنْقَاذاً يُنْقذُنَا الرَّبُّ، وَلاَ تُدْفَعُ هَذه الْمَدينَةُ إلَى يَد مَلك أَشُّورَ. 31 لاَ تَسْمَعُوا لحَزَقيَّا؛ لأَنَّهُ هَكَذَا يَقُولُ مَلكُ أَشُّورَ: اعْقدُوا مَعي صُلْحاً، وَاخْرُجُوا إلَيَّ، وَكُلُوا كُلُّ وَاحد منْ جَفْنَته، وَكُلُّ وَاحد منْ تينَته، وَاشْرَبُوا كُلُّ وَاحد مَاءَ بئْره، 32 حَتَّى آتيَ، وَآخُذَكُمْ إلَى أَرْضٍ كَأَرْضكُمْ، أَرْضَ حنْطَة وَخَمْرٍ، أَرْضَ خُبْزٍ وَكُرُوم، أَرْضَ زَيْتُونٍ وَعَسَلٍ وَاحْيُوا وَلاَ تَمُوتُوا. وَلاَ تَسْمَعُوا لحَزَقيَّا؛ لأَنَّهُ يَغُرُّكُمْ قَائلاً: الرَّبُّ يُنْقذُنَا. 33 هَلْ أَنْقَذَ آلهَةُ الأُمَم كُلُّ وَاحد أَرْضَهُ منْ يَد مَلك أَشُّورَ؟ 34 أَيْنَ آلهَةُ حَمَاةَ وَأَرْفَادَ؟ أَيْنَ آلهَةُ سفَرْوَايمَ وَهَيْنَعَ وَعوَّا. هَلْ أَنْقَذُوا السَّامرَةَ منْ يَدي؟ 35 مَنْ منْ كُلِّ آلهَة الأَرَاضي أَنْقَذَ أَرْضَهُمْ منْ يَدي حَتَّى يُنْقذَ الرَّبُّ أُورشليم منْ يَدي؟]. (سفر المُلُوك الثّاني 18/ 28 ـ 35).

يهتَزُّ "حَزَقيًّا" بعُمق؛ لكنَّ النّبي "إشَعْيا" يُطمئنه بالوحي القُدْسي:

[هَكَذَا تَقُولُونَ لسَيِّدكُمْ: هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: لاَ تَخَفْ بسَبَب الْكَلاَم الذي سَمعْتَهُ، الذي جَدَّفَ عَلَيَّ به غلْمَانُ مَلك أَشُّورَ. 7 هَئَنَذَا أَجْعَلُ فيه رُوحاً، فَيَسْمَعُ خَبَراً، وَيَرْجعُ إلَى أَرْضه، وَأُسْقطُهُ بالسَّيْف في أَرْضه... لذَلكَ؛ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ عَنْ مَلك أَشُّورَ: لاَ يَدْخُلُ هَذه الْمَدينَةَ، وَلاَ يَرْمي هُنَاكَ سَهْماً، وَلاَ يَتَقَدَّمُ عَلَيْهَا بتُرْسٍ، وَلاَ يُقيمُ عَلَيْهَا مترَسَةً. 33 في الطَّريق الذي جَاءَ فيه يَرْجعُ، وَإلَى هَذه الْمَدينَة لاَ يَدْخُلُ، يَقُولُ الرَّبُّ.] (سفر المُلُوك الثّاني 19/ 6 ـ 7، 32 ـ 34).

و في الواقع ؛ يأتي الإنقاذ الإعجازي في تلك الليلة نفسها :

[وكَانَ في تلْكَ اللَّيْلَة أنَّ مَلاَكَ الرَّبِّ خَرَجَ، وَضَرَبَ مِنْ جَيْش أشُّورَ مئَةَ ألْف وَخَمْسَةً وَثَمَانينَ ألْفاً. وَلَمَّا بَكَّرُوا صَبَاحاً، إذَا هُمْ جَميعاً جُثَثٌ مَيِّتَةٌ. 36 فَانْصَرَفَ سَنْحَاريبُ مَلكُ أشُّورَ، وَذَهَبَ رَاجعاً، وَأقَامَ في نينَوَى. 37 وَفيمَا هُوَ سَاجدٌ في بَيْت نسْرُوخَ إلَهه ضَرَبَهُ أدْرَمَّلكُ وَشَرَاصَرُ ابْنَاهُ بالسَّيْف. . .] (سفر المُلُوك الثاني 19/ 35 ـ 37).

و هكذا تمَّ الحفاظ على استقلال "يهُوذا" ـ واعتقادها الحادّ في قُوَّة "يَـهْوَه" المُنقـذة ضـدّ كُـلّ الأعداء ـ بنَحْو مُعجز.

لكنْ؛ مُباشرة بعد ذلك، تأخذ القصَّة تحوُّلاً فُجائيّاً غريباً مع اعتلاء "مَنَسَّى بن حَزَقيّا" العرش الدّاودي. في الوقت الذي كان يجب أنْ تكون قُوَّة "يَهْوَه" فيه واضحة لشعب "يهُوذا"، يقوم الملك الجديد "مَنَسَّى" بتغيير حادٍّ في الاتِّجاه اللاَّهُوتي :

[[وَعَملَ الشَّرَّ في عَيْنَي الرَّبِّ حَسَبَ رَجَاسَات الأُمَم الذينَ طَرَدَهُمُ الرَّبُّ منْ أمَام بَني إسْرَائيلَ. 3 وَعَادَ، فَبَنَى المُرتفعات التي أبَادَهَا حَزَقيَّا أبُوهُ، وَأقَامَ مَذَابحَ للْبَعْل، وَعَملَ سَاريَةً كَمَا عَملَ أخْآبُ مَلكُ إسْرَائيلَ، وَسَجَدَ لكُلِّ جُنْد السَّمَاء وَعَبَدَهَا. 4 وَبَنَى مَذَابحَ في بَيْت الرَّبِّ الذي قَالَ الرَّبُّ عَنْهُ: [في أورشليم أضَعُ اسْمي]. 5 وَبَنَى مَذَابحَ لكُلِّ جُنْد السَّمَاء في دَارَيْ بَيْت الرَّبِّ. 6 وَعَبَّرَ ابْنَهُ في النَّار، وَعَافَ وَتَفَاءلَ وَاسْتَخْدَمَ جَانّاً وَتَوَابعَ، وَأكْثَرَ عَمَلَ الشَّرِّ في عَيْنَي الرَّبِّ لإغَاظَته.]] (سفر المُلُوك الثّاني 21/ 2 ـ 6).

على الرّغم من الاعتقاد بأنَّ أُورشليم (القُدْس) كانت الآن ـ بل كانت دائماً ضمناً ـ كُرسي "يَهْوَه" على الأرض، وأنَّ نقاوتها ضمنت ازدهار شعب إسرائيل؛ أغوى "مَنَسَّى" رعاياه ـ حسبما يرويه الكتاب المُقدَّس ـ : [فَلَمْ يَسْمَعُوا، بَلْ أضَلَّهُمْ مَنَسَّى ليَعْمَلُوا مَا هُوَ أقْبَحُ منَ الأُمَم الذينَ طَرَدَهُمُ الرَّبُّ منْ أمَام بَني إسْرَائيلَ.] (سفر المُلُوك الثّاني 21/ 9).

ماذا كان يجري هُنا؟ ما سبب تلك التَّقلُّبات الفجائيَّة؟ هل كان "حَزَقيّا" مُستقيماً جدّاً إلى تلك الدّرجة، و "مَنَسَّى" سيِّئاً جدّاً إلى تلك الدّرجة؟

الاستعداد لتحدّي إمبراطوريّة عالميّة:

يُعطينا سفرا المُلوك خلفيّة مُختصرة جداً ـ فقط ـ لتمرُّد "حَزَقيّا"؛ حيثُ تذكر أنّه: [وَعَصَى عَلَى مَلك أَشُّورَ، وَلَمْ يَخْضَعْ لَهُ.] (سفر المُلوك الثّاني 18/ 7). إلاّ أنّ سفرا أخبار الأيّام ـ اللّذان أُلّفا بعد بضعة قُرُون، وعُدّا ـ عُمُوماً ـ مصدراً أقلّ ثقة من النّاحية التّاريخيّة من سفرَيْ المُلوك ـ يعرضان معلومات أكثر تفصيلاً عن الاستعدادات التي أمر بها "حَزَقيّا" في الأشهر والأسابيع التي سَبَقَتْ الهُجُوم الآشُوري. في هذه الحالة؛ كما سنرى لاحقاً، يقترح علْم الآثار أنّ سفرَيْ أخبار الأيّام ربّما يكونان قد حافظا على معلومات تاريخيّة موثوقة لم تُدْرَج في سفرَيْ المُلوك. علاوةً على بنائه مُستودعات لتخزين الحُبُوب، والزّيت، والخمر، وبناء أكشاك، أو إسطبلات للقطعان والماشية في كافّة أنحاء المَمْلَكَة (سفر أخبار الأيّام الثّاني 32/ 27 ـ 29)[1]، بَذَلَ "حَزَقيّا" جهداً عظيماً لضمان إمداد أورشليم (القُدْس) بالمياه أثناء فترة الحصار:

[[وَلَمَّا رَأَى حَزَقِيَّا أَنَّ سَنْحَارِيبَ قَدْ أَتَى وَوَجْهُهُ عَلَى مُحَارَبَةِ أُورشليم. 3 تَشَاوَرَ هُوَ وَرُؤَسَاؤُهُ وَجَبَابِرَتُهُ عَلَى طَمِّ مِيَاه الْعُيُون التي هِيَ خَارِجَ الْمَدِينَةِ فَسَاعَدُوهُ. 4 فَتَجَمَّعَ شَعْبٌ كَثِيرٌ، وَطَمُّوا جَمِيعَ الْيَنَابِيعِ وَالنَّهْرَ الْجَارِيَ فِي وَسَطِ الأَرْضِ قَائِلِينَ: [لِمَاذَا يَأْتِي مُلُوك أَشُّورَ، وَيَجِدُونَ مِيَاهاً غَزِيرَةً؟] 5 وَتَشَدَّدَ، وَبَنَى كُلَّ السُّورِ الْمُنْهَدِم، وَأَعْلاَهُ إِلَى الأَبْرَاجِ، وَسُوراً آخَرَ خَارِجاً، وَحَصَّنَ الْقَلْعَةَ مَدِينَةَ دَاوُدَ، وَعَمِلَ سِلاَحاً بِكَثْرَةٍ وَأَتْرَاساً. 6 وَجَعَلَ رُؤَسَاءَ قِتَالٍ عَلَى الشَّعْبِ، وَجَمَعَهُمْ إِلَيْهِ إِلَى سَاحَةِ بَابِ الْمَدِينَةِ، وَطَيَّبَ قُلُوبَهُمْ قَائِلاً: 7 [تَشَدَّدُوا، وَتَشَجَّعُوا. لاَ تَخَافُوا، وَلاَ تَرْتَاعُوا مِنْ مَلِك أَشُّورَ، وَمِنْ كُلِّ الْجُمْهُورِ الَّذِي مَعَهُ؛ لأَنَّ مَعَنَا أَكْثَرَ مِمَّا مَعَهُ. 8 مَعَهُ ذِرَاعُ بَشَرٍ، وَمَعَنَا الرَّبُّ إِلَهُنَا لِيُسَاعِدَنَا، وَيُحَارِبَ حُرُوبَنَا]. فَاسْتَنَدَ الشَّعْبُ عَلَى كَلاَمِ حَزَقِيَّا مَلِك يَهُوذا.]] (سفر أخبار الأيّام الثّاني 32/ 2 ـ 8).

في حين لا تُوجد إلاّ إشارات آثاريّة ضئيلة ومُتنازع بشأنها حول إصلاحات "حَزَقيّا" الدِّينيّة في كافّة أنحاء مَمْلَكته؛ هُناك أدلّة وافرة على التّخطيط والنّتيجة الفظيعة لثورته ضدّ

(1) نصُّ عبارة سفر أخبار الأيّام الثّاني في الكتاب المُقدّس: [27 وَكَانَ لِحَزَقِيَّا غِنًى وَكَرَامَةٌ كَثِيرَةٌ جِدّاً وَعَمِلَ لِنَفْسِهِ خَزَائِنَ لِلْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَالْحِجَارَةِ الْكَرِيمَةِ وَالأَطْيَابِ وَالأَتْرَاسِ وَكُلِّ آنِيَةٍ ثَمِينَةٍ 28 وَمَخَازِنَ لِغَلَّةِ الْحِنْطَةِ وَالْمِسْطَارِ وَالزَّيْتِ وَإِسْطَبْلاَتٍ لِكُلِّ أَنْوَاعِ الْبَهَائِمِ وَلِلْقُطْعَانِ. 29 وَعَمِلَ لِنَفْسِهِ أَبْرَاجاً وَمَوَاشِيَ غَنَمٍ وَبَقَرٍ بِكَثْرَةٍ لأَنَّ اللهَ أَعْطَاهُ أَمْوَالاً كَثِيرَةً جِدّاً.] (المُترجم).

الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة. كانت أُورشليم (القُدْس) - بشَكْل طبيعي - بُؤرة العمليَّات. لقد شُوهِدَت التّحضيرات الدّفاعيَّة - بشَكْل واضح جداً - في أعمال التّنقيب في الحيّ اليهُودي للقُدْس؛ حيثُ بُني سُور تحصين، بسمْك أكثر من عشرين قَدَم، لحماية القُرَى المُجاورة التي نشأت حديثاً على التّلّ الغربي. لقد تمّ بناء هذا السُّور - على ما يبدو - في وقت الطّوارئ الوَطَنيَّة؛ وقد كان التّلّ الغربي قد أصبح - سابقاً - مسكوناً بشَكْل كثيف، وكان لابُدَّ من هَدْم البُيُوت الخاصَّة التي تقع على طُول المسير الذي خطَّط له لبناء تحصينات المدينة. إنَّ بناء هذا السُّور مذكور ظاهراً في الكتاب المُقدَّس العبْريّ، في احتجاج "إشَعْيا" على الملك لأنَّه - بقساوة - "حطَّم البُيُوت لتحصين الحائط" ("إشَعْيا" 22/ 10).

كانت المهمَّة الأُخرى إمداد المدينة بتزويد آمن للماء في حالة الحصار. كان النّبْع الدّائم الوحيد في أُورشليم (القُدْس) - جيحون Gihon - يقع أسفل وادي "قَدْرُون"، على ما يبدو؛ خارج خطّ سُور المدينة (الشّكْل 26). كانت هذه مُشكلة قديمة في أُورشليم (القُدْس)، وكانت هُناك مُحاولات سابقة لحلّها بحَفْر نَفَق في الصّخر يُؤمّن الوُصُول إلى النّبْع من داخل البلدة المُحصَّنة. كان لدى "حزَقيَّا" فكرة طموحة أكثر بكثير: بَدَلاً من أنْ يُوفّر وسائل الهُبُوط إلى الماء، خطَّط لجلب الماء إلى الدّاخل. في الحقيقة؛ عندنا وَصْف مُعاصر قيّمٌ لهذا المشروع الهندسي الاستثنائي، نُحتَ (أيْ نُقشَ) في الأصل على جُدران نفق الماء نفسها. يروي هذا النَّقْش التّذكاري الفريد في اللُّغة العبْريَّة، الذي اُكْتُشفَ - لأوَّل مرَّة - في أواخر القرن التّاسع عشر، قُرْب النّهاية الجنوبيَّة للنَّفَق، كيف تمّ حَفْر نَفَق طويل تحت الأرض في الفرش الصّخري لجَلْب الماء من نَبْع "جيحون" إلى بركة أو حوض كبير مَحْميّ داخل أسوار المدينة.

حُفر هذا النَّفَق - الذي بَلَغَ طُوله حوالي الثُّلث ميل، وكان عرضه وارتفاعه كافيَيْن لسَيْر شخص بداخله - بطريقة دقيقة جداً؛ بحيثُ كان فرق الارتفاع بَيْن النّبْع والحوض لا يزيد عن قَدَم واحدة. في الحقيقة؛ النَّصُّ القديم الذي يُحيي ذكرى هذا العمل، والمعروف اليوم بنَقْش سيلوم، يلتقط صُورة عن مسرح المشروع حينما كان يُقارب على الانتهاء، واصفاً كيف قام فريقان بحَفْر النَّفَق من جهتَيْه؛ حيثُ قَطَعَا طريقهما نحو بعضهما البعض انطلاقاً من نهايتَيْ النَّفَق المُتعاكستَيْن:

عندما كان النَّفَق يُحفَر؛ كانت تلك هي الطّريقة التي يتمّ حَفْرهُ بها: بَيْنما [ ] مازال [ ] الفأس [الفؤوس]، كُلّ رجل نحو زميله، وبَيْنما كان لم يزل هُناك ثلاثة أذرع لحَفْرها، [سُمعَ]

صوت رجلٍ يدعو زميله؛ لأنَّه كان هُناك تداخل في الصّخرة على اليمين [وعلى اليسار]. عندما كان النَّفَق يُحفَر، كان عُمَّال المحجر يشقُّون [الصّخرة]، كُلُّ رجل نحو زميله، فأس ضدَّ فأس؛ والماء تدفَّق من النَّبع نحو خزَّان بـ 1.200 ذراع، وكان ارتفاع الصّخرة فوق رُؤُوس عُمَّال المحجر 100 ذراع.

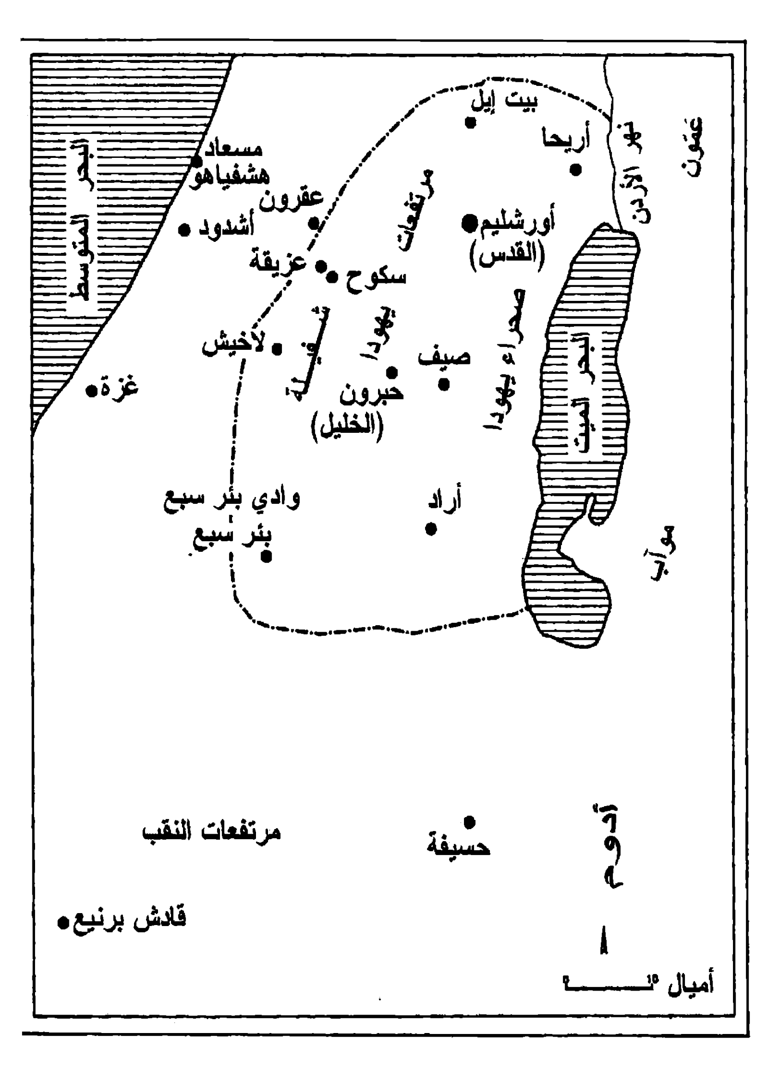
قضيَّة كيف أنَّهم استطاعوا الاجتماع على الرّغم من حقيقة أنَّ النَّفَق مُقوَّس هي موضع نقاش. من المُحتمل أنَّها كانت جَمْعًا بَيْن المهارات التّقنيَّة والمعرفة العميقة بعلْم طبقات أرض التَّلّ. مثل هذا الإنجاز الاستثنائي لم يفُتْ انتباه المُؤرِّخين التّوراتيّين، ويُمثِّل إحدى الحالات النّادرة التي أمكن فيها التَّعرُّف الآثاري - بنَحْو مُطمئن - على مشروع مُعيَّن قام به ملك عبْري: [وَبَقِيَّةُ أُمُور حَزَقِيًّا وكُلُّ جَبَرُوته، وكَيْفَ عَمِلَ الْبِرْكَةَ وَالْقَنَاةَ، وَأَدْخَلَ الْمَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ مَكْتُوبَةٌ في سفْر أَخْبَار الأَيَّام لمُلُوك يهُوذا.] (سفْر المُلُوك الثّاني 20/ 20).

أمَّا خارج أُورشليم (القُدْس)؛ فيبدو أنَّ "حَزَقيًّا" استفاد - بشَكْل جيِّد - من كُلّ المُؤسَّسات؛ للتَّأكُّد بأنَّ مَمْلَكته بالكامل أصبحت مُستعدَّة للحرب (الشَّكْل 27). أُحيطت مدينة "لَخيش" في "شَفَلة" بنظام تحصين هائل، يتكَّون من تلبيس صخري مُنحدر، يهبط إلى نصف انحدار التَّلّ، وجدار سميك من الطّابوق في قمَّته. وكان هُناك حصنٌ ضخمٌ حمَى بوَّابة ذات ستَّة غُرف، تُؤدِّي إلى المدينة، ومنصَّة مُرتفعة كبيرة داخل الأسوار، من المُحتمل أنَّها بُنيت لدَعْم القَصْر، أو لإقامة القائد المَلَكي للمدينة. بالإضافة إلى ذلك، تمَّ بناء مُجمَّع أبنية مُشابه لإسطبلات "مَجدُّو"، قُرْب القَصْر، لتعمل كإسطبلات أو مخازن. وهُناك عمود كبير حُفر في صخرة، ربَّما عُمل كالجُزء الأعلى في شبكة الماء. على الرّغم من أنَّ بعض تلك العناصر ربَّما يكون قد بُنيَ قبل "حَزَقيًّا"، إلاَّ أنَّها - على كُلّ حال - كانت كُلُّ تلك العناصر هُناك، وتمَّ - في وقته - تعزيزها لتكون جاهزةً لمُواجهة جيش "سَنْحاريب".

لم يسبق أنْ قام أيُّ ملك من مُلُوك "يهُوذا" بصَرْف كُلّ هذا الجهد والطّاقة والخبرة والمصادر العديدة في الإعداد للحرب[1].

---

(1) إذا كان لقائمة القلاع التي بناها "رَحُبْعَام" (سفر أخبار الأيّام الثّاني 11/ 5 - 12) أيُّ أساس تاريخي، فإنَّها تُؤرِّخ بالأحرى إلى وقت "حَزَقيًّا"، كما يُحاول بعض المُؤرِّخين إثبات ذلك، لتشهد على الإعدادات للحرب في مراكز أخرى في الرّيف. (المُؤلِّف).



الشّكل 27: أهمُّ مواقع يهوذا في أواخر العهد المَلَكي. يُشير الخطُّ إلى قَلْب المَمْلَكَة في أواخر القرن السّابع ق.م. أيّام 'يُوشيًّا'.

تقترح الاكتشافات الأثريَّة بأنَّ تنظيم المُؤَن في يهُوذا قد جُعلَ مركزيَّاً للمرَّة الأُولى. أوضح دليل على هذا الأمر وُجُود صنف مشهور من جرار المخازن الكبيرة في كافَّة أنحاء أراضي مَمْلَكَة "حَزَقيَّا"، تمَّ إنتاجها بشَكْل وقياس واحد؛ أهمُّ مُميِّزاتها الفريدة هي أثر الختم الذي خُتمت به عندما كانت ماتزال طيناً مُبلَّلاً، قبل أنْ يتمَّ حَرْقُهَا بالنَّار. يحمل أثر ذلك الختم شعاراً على شكل قرص شمس مُجنَّح، أو خُنفساء جُعْل، اعتقد المُؤرِّخون أنَّهما كانا شعارَيْن للعائلة المالكة في يهُوذا، ومعه نَقْش عبْري قصير هُو "للملك" **lmlk** ("يعود إلى الملك"). تندمج الإشارة الملَكيَّة مع اسم إحدى المُدُن الأربع: "حبرون" (الخليل)، سُوكُوه **Socoh**، زيف (أو صيف) **Ziph**، ومكان رابع مايزال غير معروف، وأُشير إليه بالحُرُوف م م س ت **MMST**. المُدُن الثّلاث الأُولى معروفة من المصادر الأُخرى، بَيْنما المدينة الأخيرة موقعٌ مُبهَم، ربَّما كان عُنواناً لأُورشليم، أو بلدة يَهُوذَويَّة مجهولة.

اقترح العُلماء عدَّة تفسيرات بديلة لوظيفة تلك الجرَار: أنَّها كانت تحتوي على مُنتجات العقارات الملَكيَّة؛ أو أنَّها استُعْملَت كَحَاويات رَسْميَّة لجَمْع الضرّائب وتوزيع السِّلع؛ أو أنْ أثر الختم عليها كان مُجرَّد علامة تميز للورشات الفخَّاريَّة التي كانت تُصنَع فيها جرار المخازن الملَكيَّة الرَّسْميَّة. على أيِّ حال، من الواضح جداً أنَّها ترتبط بتنظيم يهُوذا قبل إعلان التَّمرُّد على الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة.

لا يُمكننا أنْ نتأكَّد من المدى الجَغرافي لاستعدادات "حَزَقيَّا" لهذا التَّمرُّد. يذكر سفْر أخبار الأيَّام الثّاني أنَّه أرْسَلَ مبعوثَيْن إلى "أفرايم" و"مَنَسَّى"؛ أيْ إلى أراضي مُرتفعات المَمْلَكَة الشّماليَّة المقهورة، لدعوة الإسرائيليِّين هُناك للانضمام إليه في الاحتفال بعيد الفصْح أورشليم (القُدْس) (سفْر أخبار الأيَّام الثّاني 30/ 1و10و18). أغلب هذه الرّواية غير موثوق به تاريخياً، لقد كُتبت من وجهة نَظَر كاتب مجهول في القرن الخامس أو الرّابع ق. م، أراد تقديم "حَزَقيَّا" كَسُلَيْمَان ثانٍ يُوحِّدُ كُلَّ شعب إسرائيل حول الهيكل (المعبد) في أُورشليم (القُدْس). وقد لا يكون التّلميح إلى اهتمام "حَزَقيَّا" بأراضي مَمْلَكَة إسرائيل السّابقة اختراعاً تامَّاً، لأنَّ "يهُوذا" أصبحت - الآن - قادرة على المُطالبة بالزّعامة على كُلِّ أرض إسرائيل، ولكنْ؛ حتَّى لو كان الأمر كذلك، فإنَّ المُطالبة شيءٌ، وتحقيق الأهداف شيءٌ آخر تماماً. من ناحية الأحداث، تُبيِّن

أنَّ ثورة "حَزَقيَّا" ضدَّ الإمبراطوريَّة الآشُوريَّة كانت قراراً كارثيَّاً. رغم عدم خبرته، أثبتَ "سَنْحاريب" ـ بقيادته لقُوَّة غَزْوٍ آشُوريَّة هائلة ـ مهاراته في أرض المعركة بشَكْل أكثر من كافٍ. لم يكن الملك "حَزَقيَّا" ملك "يهُوذا" نداً له أبداً.

ما الذي حَدَثَ حقيقةً؟ انتقام 'سَنْحاريب' العنيف:

على الرّغم من تقارير الكتاب المُقدَّس حول الإنقاذ المُعجز لأُورشليم (القُدْس)، تُزوِّدنا السِّجلاَّت الآشُوريَّة المُعاصرة لصُورة مُختلفة جداً عن حصيلة ثورة "حَزَقيَّا". لقد قُدِّمت الرّواية الآشُوريَّة عن تخريب "سَنْحاريب" لكُلِّ ريف "يهُوذا" بشَكْل مُختصرٍ، ودمٍ باردٍ:

بالنِّسبة إلى "حَزَقيَّا"، اليَهُوذَويّ، لم يُذعن لنيري. لقد حاصرتُ 46 مدينةً من مُدُنه القويَّة، والحُصُون المُحاطة بالأسوار والقُرَى الصّغيرة التي لا تُحْصَى في جوارها، وفتحتُها بواسطة سلالم الصُّعُود التُّرابيَّة المكبوسة بشَكْل جيِّد، ومَنْجَنيقات الرّمي التي جُلِبَت إلى جوار الأسوار بالتّشارك مع الهُجُوم الذي قام به جُنُود المُشاة الذين استخدموا الممرَّات تحت الأرضيَّة (التي تُحْفَر تحت أسوار الحُصُون المُحاصَرَة)، والدُّرُوع بالإضافة إلى عمل المُهندسين العسكريِّين. أخرجتُ منهم 150 . 200 شخصاً من بُيُوتهم، صغاراً وكباراً، ذُكُوراً وإناثاً، خُيُولاً، وبغالاً، وحميراً، وجمالاً، وماشيةً كبيرةً وصغيرةً لا تُحْصَى، واعتبرتُها غنائم. جَعَلْتُه هُو نفسه سجيناً في أُورشليم (القُدْس)، في سَكَنه الملكي، مثل الطّير في القفص. أَحَطْتُهُ بالموانع الأرضيَّة لإيذاء أُولئك الذين كانوا يتركون باب مدينته. أخذتُ منه بلداته التي سلبتُهَا، وأعطيتُها لـ "ميتينتي" Mitinti ملك "أشدود"، و"بادي" Padi ملك عقْرُون، و"سليبيل" Sillibel ملك غزَّة. هكذا قلَّصتُ بلاده؛ ولكنْ؛ زدتُ الجزية عليه مع ذلك.

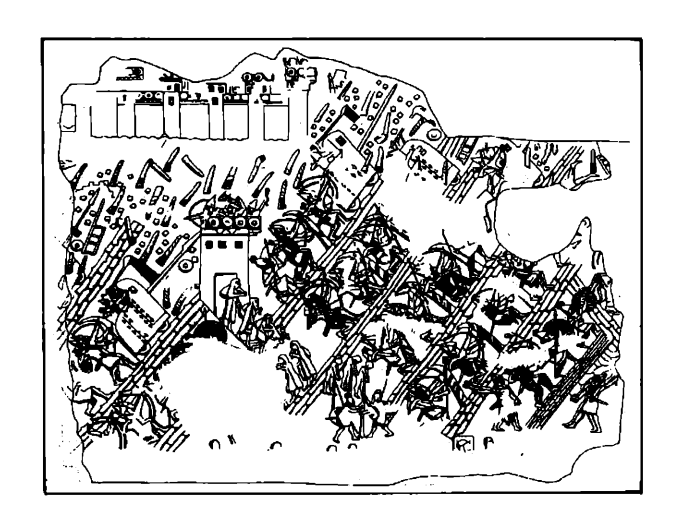
مع أنَّ العدد المذكور للأسرى قد تكون فيه مُبالغة كبيرة، إلاَّ أنَّ المعلومات المُشتركة من السِّجلاَّت الآشُوريَّة والتّنقيبات الآثاريَّة في يهُوذا تُؤكِّدان ـ بشَكْل كافٍ ـ كثافة الحَمْلَة المُنظَّمة من حصار وسَلْب، أوّلاً؛ خلال أراضي يهُوذا الزّراعيَّة الغنيَّة في تلال "شَفَلة"، ثُمَّ إلى الأعلى نحو العاصمة المُرتفعة. يُمكن رُؤية خراب مُدُن "يهُوذا" في كُلِّ تلٍّ ـ تقريباً ـ تمَّ تنقيبه في مناطق "يهُوذا" الدّاخليَّة. تتطابق البقايا الآثاريَّة المُروعة ـ بشَكْل مثالي ـ مع قَصَص النُّصُوص

الآشُوريَّة، وكَمثال على ذلك غزو المدينة اليَهْوَذَويَّة البـارزة "عَزيقَـة"، التـي وُصفـت أنَّـها "تقـع على حافَّة جبل، مثل الخناجر الحديديَّة المُدبَّبة بدُون عدد، وتصل إلى عُلُوِّ السّماء. "هُوجمَتْ، وسُلِبَتْ، وبعد ذلك؛ دُمِّرَتْ".

لـم يكـن هـذا عُنفـاً عشـوائيّاً، قُصـدَ منـه مُجـرَّد إرهـاب اليَـهْوَذَويِّين لإجبـارهم علـى الاستسلام، بل كان ـ أيضاً ـ حَمْلَة محسوبةً من التّدمير الاقتصـادي، لحرمـان المَمْلَكَـة العاصيـة من مصادر الثّروة. كانت مدينة "لَخيـش"، الواقعة فـي أكثر أراضـي يـهُوذا الزّراعيَّـة خُصُوبـة، المركز الإقليمي الوحيد والأهمّ للحُكْم المَلكي في يهُوذا. كـانت ثـاني مدينـة مُهمَّـة فـي المَمْلَكَة بعد أُورشليم (القُدْس). وقـد ألمـح نـصُّ الكتـاب المُقـدَّس ـ (سفْر المُلُوك الثّاني 18/ 14و 17؛ 19/ 8)[1] ـ إلى الدّور المحوري الذي لعبتْهُ في أحـداث عـام 701 ق. م.. لقـد استـهدف هُجُـوم "سَنْحاريب" عليها دمارها المُطلق. هُنَاك رَسْم توضيحي مُفعم بالحَيَويَّة للحصار الآشُوري لهذه المدينة حُفظَ ـ بتفصيل استثنائي ـ على شكل نَقْش نـافر (بـارز) وواسـع نُحـت علـى حـائط كبـير كان في يوم مـن الأيَّـام يُزيِّـن قَصْـر "سَنْحاريب" فـي نينـوى، فـي شـمال العـراق (شَكْل 28). اكْتُشف هذا الشّكْل المنحوت البارز (النّـافر)، والـذي يبلـغ طُولـه حوالـي ستِّين قَـدَم وارتفاعـه تسعة أقدام، في الأربعينات مـن القـرن التّاسـع عشـر، منْ قبَـل المُستكشـف البريطـاني أوسـتن هنري لايارد Austen Henry Layard، وشُحنَ ـ بعد ذلك ـ إلى لندن؛ حيـثُ بقـي معروضـاً في المتحف البريطاني. يُشير موقعه الأصلي على حائط غُرفة داخليَّة من قَصْر "سَنْحاريب" إلـى أهميَّة الأحداث التي يُصوِّرهـا. يكشـف نَقْشٌ قصيرٌ موضوعـه: ["سَنْحاريب"، ملـك المُلُـوك وملك الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، يجلس على عرشه، بَيْنما الغنائم من مدينة "لَخيش" تمرُّ أمامه].

---

(1) نصُّ العبارة في الكتاب المُقدّس: [وَأَرْسَلَ حَزَقِيَّا مَلكُ يَهُوذَا يَقُولُ لمَلـك أَشُورَ في لَخيشَ: "أَخْطَـأْتُ، فَـارْتَحلْ عَنّي، وَأَنَا أَدْفَعُ مَا تَفرضُهُ عَلَيَّ منْ جزيَة". فَفَرَضَ مَلـكُ أَشُّورَ عَلَى حَزَقِيَّا مَلك يَـهُوذَا ثَـلاَثَ مئَة وَزنَـة (نَحْـوَ أَلْفَ وَثَمَاني كيلُوجْراماً منَ الفضَّة)، وَثَلاَثينَ وَزنَةً (نَحوَ مَائَة وَثَمَانيَة كيلُوجْرامَات مَنَ الذَّهَب). 15 فَجَمَـعَ حَزَقيَّا كُلَّ مَا في بَيْت الرَّبِّ وَخَزَائن قَصْر المَلك منْ فضَّة وَذَهَب وَدَفَعَهَا لَهُ. 16 كَمَـا قَشَـرَ الذَّهَـبَ الَّـذي كَـانَ قَدْ غَشَّـى بـه أَبْوَابَ هَيْكَل الرَّبِّ وَالدَّعَائمَ، وَبَعَثَ به إلَى مَلَك أَشُورَ. 17 وَرَغْمَ ذَلـكَ أَرْسَـلَ مَلـكُ أَشُورَ إلَـى حَزَقيَّـا قَـائدَ جَيْشـه وَوَزِيرَ خَزَائنه وَرَئيسَ أَرْكَانَ قُوَّاته منْ لَخيشَ، عَلَى رَأس جَيْش جَرَّار لمُحَاصَرَة أُورُشَـليمَ. فَزَحَفُـوا عَلَيْهَـا، وَأَحَـاطُوا بـهَا وَعَسْكَرُوا عنْدَ قَنَاة البرْكَة العَلْيَا في طَريق حَقْل القَصَّار.] سفْر المُلُوك الثّاني 18/ 14 ـ 17. (المُترجم).



الشّكْل 28: نحتٌ نافرٌ (بارزٌ) آشُوريٌّ من قَصْر 'سَنْحاريب' في نينوى ، يُصوِّر غزو مدينة 'لَخيش'، رَسَمَهُ 'جُوديث ديكل' Judith Dekel؛ بتفضُّل من الأُستاذ ديفيد أُوسَيشكين ، من جامعة تلّ أبيب.

يروي هذا الشّكْل المنحوت النّافر، الرّائع، لـ "لَخيش"، سَيْرَ الأحداث المُروِّع بأكمله، ضمن إطار واحد. يُظْهر "لَخيش" كَمدينة مُحصَّنة بنَحْو جيِّد جداً. وأنّ هُناك معركة شرسة تقع عند أسوارها. بنى الآشُوريُّون سلالم أو جسُور الصُّعُود التي تستخدم في الحصار، التي يُقدِّمون فيها مَنْجَنيقاتهم التي ترمي القنابل بشدَّة نحو أسوار التّحصين. يُقاوم مُدافعو "لَخيش" للغاية، يُحاولون منع المَنْجَنيقات التي ترمي القنابل من فَتْح السُّور. يقذفون المصابيح في مُحاولة لإشعال النّار في مكائن الحرب، في حين يصبُّ الآشُوريُّون الماءَ على مَنْجَنيقات الرّمي. يقف النّبّالون الآشُوريُّون وراء مَنْجَنيقات الرّمي يُهاجمون الأسوار باستمرار، بالأسهم، بَيْنما يردُّ المُدافعون اليَهُوَذويُّون على رَمْي السّهام برَمْي سهام مُقابل، لكنَّ كُلَّ تحضيرات المدينة الدّفاعيّة وكُلَّ قتال مُدافعيها البُطُولي يبقيان دُون جدوى. يُؤخذ الأسرى

خارج باب المدينة، البعض منهم أمواتٌ رُفعَتْ جُثَثُهم على الرّماح. تُؤخذ الغنائم من المدينة، بما في ذلك الأواني المُقدَّسة الخاصَّة بطُقُوسها الدِّينيَّة. طوال ذلك يجلس "سَنْحاريب" بفخامة، غير مُنفعلٍ على العرش، أمام خيمته المَلكيَّة، ليس بعيداً عن المُعسكر الآشُوري، مُشرفاً على موكب الأسرى والنَّهْب الذي أُخذَ من البُيُوت والبنايات العامَّة من الجالية المُتمرِّدة.

أبرز بعض العُلماء شُكُوكاً حول دقَّة تفاصيل هذا النَّحْت النّافر، وجادلوا بأنَّه ليس أكثر من دعاية إمبراطُوريَّة تفاخريَّة، ولا يُمكن اعتبارها سجلاً موثوقاً لما حَدَثَ فعلاً في "لَخيش"، لكنْ؛ بالكاد هُناك شكٌّ في أنَّ هذا النَّحْت النّافر يُعالج مدينة "لَخيش" تحديداً، ويحكي الأحداث المُعيَّنة في عام 701 ق.م. . يُبرز هذا النَّحْت النّافر تضاريس المدينة ونباتاتها المحلِّيَّة بدقَّة تامَّة، وليس هذا فحسب؛ بل حتَّى من المُمكن التَّعرُّف على النُّقطة المُفضَّلة بالضّبط للفنَّان الذي عمل مُخطَّط هذا النَّحْت النّافر. علاوةً على ذلك، تُزَوِّدنا التّنقيبات الآثاريَّة في "لَخيش" بتفاصيل حول موقع الباب وطبيعة التّحصينات ونظام الحصار، وكُلُّها تُؤكِّد دقَّة النَّحْت النّافر.

كَشَفَتْ التّنقيبات البريطانيَّة في "لَخيش" في الثّلاثينات، والحَفْر المُجدَّد لديفيد أُوسّيشكين ـ نيابة عن جامعة تلّ أبيب في السّبعينات ـ النّقاب عن دليل مُثير مُستقلٍّ حول السّاعات الأخيرة لهذه القلعة اليَهُوذَويَّة العظيمة. لقد تمَّ التَّعرُّف على سلالم صُعُود الحصار الآشُوريَّة، التي يُصوِّرها النَّحْت، ونُقِّبت. إنَّه المثال الوحيد الباقي لمثل بناء الحصار هذا، في أيِّ مكان آخر في أراضي الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة السّابقة. ليس من المُفاجئ بأنَّه بُنيَ على الجانب الأكثر ضعفاً من التَّلّ؛ حيثُ يتَّصل بحافَّة؛ أمَّا في سائر الجوانب الأُخرى؛ فإنَّ حدَّة الانحدار تحول دُون السّماح ببناء سلالم الصُّعُود وانتشار المَنْجَنيقات التي ترمي القنابل.

تُعطي الاكتشافات الأثريَّة من داخل المدينة دليلاً على الأعمال المُستميتة للمُدافعين. لقد نصبوا سلالم صُعُود مُضادَّة ضخمة، مُواجهة مُباشرة لسلالم الصُّعُود الآشُوريَّة، لكنَّ هذه المُحاولة الأخيرة من قبَل المُدافعين لمَنْع الآشُوريُّون من خَرْق الحائط كانت فاشلة. احترقت المدينة كُلِّيّاً. تُزوِّدنا اكتشافات أُخرى بأدلَّة على شراسة المعركة.

وُجدت مئات الأنصال في أسفل حائط المدينة. تمَّ اكتشاف صُخُور مثقوبة، بعضها مايزال عليه آثار الحبال المُحترقة في الفَتْحَات ـ التي رُميت ـ على ما يبدو ـ من الأسوار منْ قبَل

المُدافعين في مُحاولة لتحطيم مكائن الحصار - قُرْب نُقطة الـهُجُوم على السُّور. كما اكتُشِفَت مقبرة جماعيَّة لحوالي 1500 شخصٍ من الرِّجال، والنّساء، والأطفال، في الكُهُوف التي على المُنحدرات الغربيَّة للتَّلّ، خُلطت بفخَّاريَّات تعود لأواخر القرن الثّامن ق. م. .

منظور توراتي آخر:

مع أنَّ سفر المُلُوك الثّاني يُركّز على قُوَّة إنقاذ يَهْـوَه المُخيِّمة على أورشليم (القُدْس) ويذكر - بشكْل مُوجز فقط - الاستيلاء على "كُلّ المُدُن المُحصَّنة ليهُوذا" (سفر المُلُوك الثّاني 18/ 13)، تكشف نُصُوص أُخرى في الكتاب المُقدَّس العبْريّ عن إرهاب الحَمْلَة الآشُوريَّة الذي عانى منه أولئك اليَهْوَذُويُّون سيِّئو الحظّ بما فيه الكفاية؛ كونهم كانوا ضحايا هَيَجَان "سَنْحاريب" في الرّيف. لا تُوجد هذه الفقرات في أسفار التّاريخ التّثنوي، لكنْ؛ في الأعمال النَّبويَّة. يتحدَّث شاهدان مُعاصران - النَّبيَّان "إشَعْيا" و"ميخا" - عن الخوف والحُزن اللَّذَيْن شلاَّ يهُوذا في أعقاب التَّقدُّم الآشُوري. يصف "إشَعْيا"، الذي كان في أورشليم (القُدْس) أثناء الحصار - بشَكْل واضح - الحَمْلَة العسكريَّة التي ضَرَبَتْ المنطقة شمال أورشليم (القُدْس) (10/ 28 - 32)[1]. ويصف "ميخا"، الذي كان من مُواطني "شَفلة"، من بلدةٍ ليست بعيدةً عن "لَخيش"، الصّدمة المُذهبَة للوعي للّذين بقوا على قَيْد الحياة من المُشرَّدين الذين لا مأوى لهم، لائماً عبادتهم للأوثان، التي جَلَبَتْ عليهم سُوء مصيرهم هذا:

[10 لاَ تُخْبِرُوا فِي جَتَّ، لاَ تَبْكُوا فِي عكَّاءَ. تَمَرَّغِي فِي التُّراب فِي بَيْت عَفْرَةَ. 11 أُعْبُرِي يَا سَاكِنَةَ شَافِيرَ عُرْيَانَةً وَخَجِلَةً. السَّاكِنَةُ فِي صَانَانَ لاَ تَخْرُجُ. نَوْحُ بَيْت هَأَيْصل يَأْخُذُ عِنْدَكُمْ مَقَامَهُ 12 لأَنَّ السَّاكِنَةَ فِي مَارُوثَ اغْتَمَّتْ لأَجْل خَيْرَاتِهَا؛ لأَنَّ شَرّاً قَدْ نَزَلَ مِنْ عِنْد الرَّبِّ إِلَى بَاب أُورشليم. 13 شُدِّي الْمَرْكَبَةَ بِالْجَوَاد يَا سَاكِنَةَ لاَخِيشَ. (هِيَ أَوَّلُ خَطِيَّةٍ لابْنَة صِهْيَوْنَ) لأَنَّهُ فيك وُجِدَتْ ذُنُوبُ إِسْرَائِيلَ.] (سفر ميخا 1/ 10 - 13).

---

(1) نصُّ العبارة كما في سفر إشعيا في الكتاب المُقدَّس: [28 قَدْ جَاءَ إِلَى عَيَّاثَ. عَبَرَ بِمِجْرُونَ. وَضَعَ فِي مِخْمَاشَ أَمْتِعَتَهُ. 29 عَبَرُوا الْمَعْبَرَ. بَاتُوا فِي جَبْعَ. ارْتَعَدَتِ الرَّامَةُ. هَرَبَتْ جِبْعَةُ شَاوُلَ. 30 اِصْهَلِي بِصَوْتِكِ يَا بِنْتَ جَلِّيمَ. اسْمَعِي يَا لَيْشَةُ. مِسْكِينَةٌ هِيَ عَنَاثُوثُ. 31 هَرَبَتْ مَدْمِينَةُ. احْتَمَى سُكَّانُ جِيبِيمَ. 32 الْيَوْمَ يَقِفُ فِي نُوبَ. يَهُزُّ يَدَهُ عَلَى جَبَلِ بِنْتِ صِهْيَوْنَ أَكَمَةِ أُورُشَلِيمَ.]. (المُترجم).

تُظهر نتائج الاستطلاعات الآثاريَّة - بشَكْل واضح جداً - الضّربة التي عانت منها "شَـفلة" ؛ إذْ تُظهر بأنَّ المنطقة لم تتعافَ بعد ذلك - أبداً - من حَمْلَة "سَنْحاريب" . حتَّى فـي العُقُـود التّاليـة ، بعد الإحياء الجُزئي ليهُوذا ، بقيت "شَفلة" مأهولة بشَكْل مُتناثر .

لقد تقلَّص عدد المواقع والمناطق المبنيَّة - والتي على أساسها تتمُّ كُلُّ تقديرات عدد السُّكَّان - إلى الثُّلث تقريباً ، عمَّا كانت عليه في أواخر القـرن الثّامن ق . م . . بعـض البلـدات الرّئيسـيَّة أُعيد بناؤه ، لكنَّ العديـد مـن البلـدات الصّغـيرة ، والقُرَى ، والبُيُـوت الرّيفيَّـة تُركَـت فـي حالـة الخراب . هذه الحقيقة لها أهميَّتها الخاصَّة جداً ، عندما نتذكَّر أنَّ عدد سُـكَّان "شَفلة" فـي القـرن الثّامن ، قبل الهُجُوم الآشُوري ، يُقَدَّرُ بحوالي خمسين ألف نسمة ؛ أيْ - تقريبـاً - نصـف سُـكَّان كامل المَمْلَكَة .

لم يُنقذ الإيمان بيَـهْـوَه وحده أراضـي "حَزَقـيًّا" مـن غَضَـب الآشُـوريّين . لقـد دُمِّـرت أجـزاء كبيرة من يهُوذا ، وأعطى الآشُوريُّون المُنتصرون الكثيرَ من الأراضـي الزّراعيَّـة الثّمينـة فـي "شَـفلة" لدُوَل مُدُن فلسْطيا . انكمشت أرض يهُوذا بشكْل مُثير ، وأُجْبِرَ "حَزَقـيًّا" على دَفْـع أتـاوة وجزْيَة باهظة إلى الإمبراطُوريَّـة الآشُـوريَّة ، وتمَّ إبعـادُ عـددٍ هـامٍّ مـن أهـالي "يـهُوذا" إلــى الإمبراطُوريَّـة الآشُوريَّة . نَجَتْ أُورشليم (القُدْس) وتلال يهُوذا التي تقع - مُباشرة - إلى جنوب العاصمة فقط .

مع كُلِّ كلام الكتاب المُقدَّس العبْريّ عن تقوى "حَزَقيًّا" وتدخُّل يَـهْـوَه الإنقـاذي ، كـانت الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة المُنتصـر الوحيـد . لقـد حقَّـق "سَـنْحاريب" أهدافه بالكـامل : لقـد كَسَـرَ مُقاومة يهُوذا ، وأَخْضَعَهَا . ورثَ "حَزَقـيًّا" دولةً مُزدهرةً ، فقام "سَنْحاريب" بتدميرها .

لَمُّ القطَع المُتناثرة:

في أعقاب التَّمرُّد الفاشل ضدَّ الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة ، لابُـدَّ أنْ تكـون سياسـة "حَزَقـيًّا" فـي التّطهير الدّيني ومُجابهة الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة قد بَدَتْ للكثيرين خطأ مُتـهوِّراً فظيعـاً . قـد يكـون بعض الكَهَنَة الرِّيفيُّون قد جادل في أنَّه - في الحقيقة - كان تدمير "حَزَقـيًّا" الكفـري للأمـاكن العاليـة المُبجَّلة ، ومَنْعَـهُ عبـادة "سـارية" ، والنُّجُـوم ، والقمـر ، والآلهـة الأُخـرى ، جنبـاً إلـى جنـب عبـادة يَـهْـوَه ؛ السّبب في جَلْب مثل ذلك المصير السّيِّئ على الأرض . كوننـا لا نملـك إلاَّ أدبيَّـات حـزب

يَهْوَه - وحده ، يجعلنا نجهل ما ربَّما ادَّعاه مُعارضوهم . الذي نعرفه هُو أنَّه في عام 698 ق . م ، بعد ثلاث سنوات من احتلال "سَنْحاريب" ، عندما مات "حَزَقِيَّا" ، وجاء ابنه "مَنَسَّى" - الذي كان في الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ منْ عُمْره - إلى العرش ، أُعيدت التَّعدُّديَّة الدِّينيَّة في ريف يهُوذا (الذي تقلَّص إلى حَدٍّ كبير الآن) . يحكي سفْر المُلُوك الثَّاني هذا الأمر بشَجْب وإدانة شديدة . بالنِّسبة للمُؤرِّخ التَّثنوي ، كان "مَنَسَّى" كافرا مُرتداً من العيار الثَّقيل . لقد وُصِفَ كأكثر المُلُوك شراً الذي رأته مَمْلَكَة يهُوذا في عُمرها (سفْر المُلُوك الثَّاني 21/ 3 - 7) . في الحقيقة ؛ يُلْقي كتاب المُلُوك باللائمة ، في الدَّمار "المُستقبلي" لأُورشليم (القُدْس) ، على "مَنَسَّى" (سفْر المُلُوك الثَّاني 21/ 11 - 15) .

من الواضح أنَّه كان هُناك شيء أكثر من اعتبارات لاهُوتيَّة وراء هذا التَّبدُّل التَّامِّ في السِّياسة الدِّينيَّة الرَّسْميَّة . لقد كان بقاء المَمْلَكَة واستمرارها في الحياة مرهوناً بتصرُّف "مَنَسَّى" ومُستشاريه المُقرَّبين ، الذين صمَّموا على إنعاش يهُوذا . لقد استدعى هذا إعادة نوع من الاستقلاليَّة واللاَّمركزيَّة الاقتصاديَّة إلى الرِّيف ، الذي كان مايزال المصدر الكامن الأعظم لثروة المَمْلَكَة . ولم يكن إحياء المناطق الرِّيفيَّة البعيدة المُدمَّرة مُمكناً من دُون تعاون شبكات الشُّيُوخ وعشائر القُرَى ، وكان هذا يعني السَّماح باستئناف العبادة في المُرتفعات العالية المحلِّيَّة التي كانت مُبجَّلة مُنْذُ مُدَّة طويلة . وباختصار ؛ أُعيدت عبادة "بَعْل" ، و"سارية" ، و"مُضيفو السَّماء" .

حتَّى مع إجباره أنْ يكون تابعاً مُطيعاً للدَّولة الآشُوريَّة ، يبدو أنَّ "مَنَسَّى" قد حَسَبَ جيِّداً أنَّ التَّعافي الاقتصادي لـ "يهُوذا" قد يكون في مصلحة الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة . إنَّ "يهُوذا" مُزدهرة ستكون مُوالية للإمبراطُوريَّة ، وتعمل كَحَاجز فعَّال ضدَّ العدو اللَّدود للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة في الجنوب : مصْر . وقد يَمْنَح الآشُوريُّون "يهُوذا" منزلة التَّابع التَّائب الأكثر رعايةً ، وفي هذا يُشير نَصٌّ يعود للقرن السَّابع يتحدَّث عن الجزية التي كانت تدفعها الدُّول المشرقيَّة الجنوبيَّة ، للملك الآشُوريّ ، إلى أنَّ جزية "يهُوذا" كانت أقلّ - بنَحْو كثير - ممَّا كان يدفعه جيرانها من توابع الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة الأفقر : عمُّون ومُوآب .

يبدو أنَّ "مَنَسَّى" قد أثبت أنَّه عند حُسن ظَنِّ سادته الآشُوريِّين الكبار فيه . تَذْكُرُ وثيقةٌ من عهد "أَسَرحدُّون" الذي خَلَف "سنْحاريب" على عرش الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة ، أنَّ "مَنَسَّى" كان واحداً من بَيْن مجموعة اثْنَيْن وعشرين ملكاً أُمروا بإرسال موادّ بناء إلى مشروعٍ مَلَكيٍّ في

"نينوى". وأدْرَجَ الملك الآشُوريُّ التّالي "آشُور بنيبال" "مَنَسَّى" بَيْن المُلُوك الذين أعطوه هدايا، وساعدوه على فَتْح مصْر. ورغم أنَّ سفْر أخبار الأيَّام الثّاني يُخبرُنا أنّه في فترةٍ ما منْ حُكْم "مَنَسَّى" قام الآشُوريُّون بسَجْنه في بابل (سفْر أخبار الأيَّام الثّاني 33/ 11)، فإنَّ مُلابَسات هذا الاعتقال وَثقَته التّاريخيَّة ماتزالان موضع نقاش. والأمر الواضح هُو أنَّ فترة الحُكْم الطّويلة ـ خمسٌ وخمسون سنة ـ كانت فترة سلْم لـ "يهُوذا"، وأنَّ المُدُن والمُستوطنات التي أُسِّسَتْ في عهده بقيت واستمرَّت حتَّى زمن الدّمار النّهائيّ لـ "يهُوذا" في القرن التّالي.

ليس من السّهل ـ من ناحية علْم الآثار ـ تمييز مُكْتَشَفَات أوائل القرن السّابع عن تلك التي تعود إلى الصَّفّ الثّاني من ذلك القرن (أُنظُرْ المُلحق "هـ"). إلاّ أنّنا نعلم ما فيه الكفاية للمُجادلة بأنَّه ـ بعد ذلك الخراب الواسع الانتشار في "شَفَلة" (وإلحاق مناطق كبيرة بالمُدُن الفلسطينيَّة) ـ نما سكّان مُرتفعات "يهُوذا"، وتَكاثرُوا. ويكاد يكون من المُؤكَّد أنَّ سببَ هـذا هُو وُصُول لاجئين يَهُوَذَويِّين نازحين فرُّوا منن مناطق "شَفَلة" المُقفرة. لقد اشتدَّ الإنتاج الزّراعي حول العاصمة. وتمَّ بناء شبكةٍ كثيفةٍ من المزارع ومبانيها حول أُورشليم (القُدْس) وجنوبها، قُرْب بيت لحم، في القرن السّابع ق. م.. ولكنَّ التّطوُّر الأكثر سحْراً في "يهُوذا" أثناء القرن السّابع، هُو التَّوسُّع السُّكّانيّ للمُستوطنات اليَهُوَذَويَّة باتِّجاه المناطق القاحلة إلى الشّرق والجنوب (الشّكْل 27). في العُقُود التّالية حَدَثَ شيءٌ استثنائيٌّ في صحراء "يهُوذا" ـ التي كانت فارغة من المُستوطنات الدّائمة أثناء القرن الثّامن ـ. في القرن السّابع، تأسَّسَتْ مجموعة مواقع صغيرة في كُلّ موقع بيئيٍّ مُلائم كان أفضل قليلاً بالنّسبة للزّراعة من بقيَّة الصّحراء: في وادي (بوقية) **Buqeah** في مُنتصف الطّريق بَيْن أُورشليم (القُدْس) والبحر الميِّت، قُرْب أريحا، وعلى طُول السّاحل الغربيّ للبحر الميِّت في وادي بئر سبع، نما عدد المواقع إلى حَدٍّ أبعد بكثير ممّا بَلَغَه في الفترة السّابقة بَيْن القرنَيْن الثّامن والسّابع، وتضخَّمت رُقعة المنطقة المبنيَّة، وبالتّالي؛ عدد سُكّان المنطقة، إلى عشرة أضعاف. هل من المُمكن أنْ يكون هذا التَّطوُّر مُرتبطاً بسياسات "مَنَسَّى"؟

يبدو هذا مُحتملاً جداً. من الواضح أنّه حتَّى حَمْلَة "سَنْحاريب"، كان اقتصاد مَمْلَكَة "يهُوذا" مُتوازناً بسبب البيئات المُلائمة المُختلفة في أرضها: كانت بساتين الزّيتون وكُرُوم العنب تُزْرَعُ ـ بشَكْل رئيسيٍّ ـ في مناطق المُرتفعات، وكانت تُزرع الحُبُوب ـ بشَكْل أوَّلي ـ في "شَفلة"،

وتُزاول تربية الحَيَوانات - في الغالب - في حافَّة الصّحراء في الجنوب والشّرق. عندما سُلِّمَتْ "شَفلة" إلى دُول المُدُن الفلسطينيَّة، فَقَدَتْ "يهُوذا" أراضيها الغنيَّة المُنتجة للحُبُوب في الغرب. في الوقت نفسه؛ نَما السُّكَّان - بشَكْلٍ ملحوظ - في الأجزاء الباقية للمَمْلَكَة، الذي كان لزاماً عليها أنْ تُغذِّيهم. من المُحتمل أنْ تكون هذه الضُّغُوط قد أجبرت جُزءاً من سُكَّان "يهُوذا" على الانتقال إلى المناطق الهامشيَّة للمَمْلَكَة، في مُحاولةٍ مُستميتةٍ لتعويض خسارتهم للأراضي الزّراعيَّة الغنيَّة في "شَفلة".

في الواقع؛ استغلال المناطق القاحلة كان يُمكن أنْ يحلَّ المُشكلة. تقترح تخمينات الطّاقة الزّراعيَّة لوادي بئر سبع في العصر القديم أنَّه إذا تمَّ تنظيم الإنتاج الزّراعي هُنالك بنَحْوٍ جيِّد؛ فإنَّه يستطيع أنْ يُزوِّد - وحده - رُبع حاجة يهُوذا من الحُبُوب العامَّة بأكملها، ولكنَّ مثل هذا لم يكن من المُمكن فعلُهُ على مثل هذا النّطاق الواسع دُون دَعْمٍ من الدّولة. لذلك؛ فإنَّه من المنطقيِّ الافتراض أنَّ التّوسُّع نحو المناطق القاحلة إنَّما تمَّ بإلهام من "مَنَسَّى" إنْ لم يكن بتوجيه مُباشر من سياساته الاقتصاديَّة والسّياسيَّة الجديدة.

القوافل العَرَبيَّة وزيت الزّيتون:

ذَهَبَ برنامج "مَنَسَّى" أبعد بكثير من مُجرَّد تأمين قوام العيش والاستمرار. كان مُصمَّماً على دَمْج يهُوذا في الاقتصاد الآشُوري العالمي. كان النّشاطان الاقتصاديَّان الرّئيسيَّان للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة في منطقة يهُوذا وحولها، تجارة السِّلَع الكماليَّة الغريبة والبخُّور من بلاد العَرَب، والإنتاج الشّامل لزيت الزّيتون، وتوزيعه.

كانت التّجارة العَرَبيَّة إحدى المصالح الاقتصاديَّة الرّئيسيَّة للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، ولا يكاد يُوجد شكٌّ في أنَّها - في أواخر القرن الثّامن - زوَّدت الإمبراطُوريَّة بعائدات هامَّة. كان لدى الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة - وُفقاً لذلك - اهتمام قويّ في أمن طُرُق الصّحراء التي تنطلق من شبه الجزيرة العَرَبيَّة، وتُؤدِّي شمالاً إلى نهاياتها على ساحل البحر الأبيض المُتوسِّط. في إحدى نُقُوش انتصاراته، اعتبر الملك الآشُوري "تَغلات بيلاصَّر الثّالث" غزَّةَ النّهاية التّقليديَّة لطُرُق الصّحراء، "كَجُمرك الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة"، وَوَضَعَ مُوظَّفيه المسؤولين هُناك لجَمْع

الضّرائب والرُّسُوم من الميناء، الذي كان يعمل كَمخرج إلى البحر لطُرُق القوافل البرِّيَّة. أعلـن "سرجون الثّاني" أنَّه فَتَحَ حُدُود مصر للتّجارة، ولامـتزاج الآشُـوريِّين والمصريِّـين. لقـد تمَّ ـ في الحقيقة ـ اكتشاف عدد من الحُصُون الآشُوريَّة، ومراكزها الإداريَّة في أماكن مُختلفة في السّـهل السّـاحلي الجنوبي، وتمَّ تنقيـب موقـع مُحصَّـن كبيـر، مـع آثـار مُستودعات (مخـازن)، علـى السّاحل جنوب غزَّة. يُظهر تجميع العظام الحَيَوَانيَّة التـي نُقِّبـت مـن تـلّ جمَّـة Jemmeh ـ موقـعٌ آخرُ قُرْب غزَّة ـ زيادةً مُثيرةً في عدد الجمال في القرن السّابع. تقترح دراسة العظام التي قام بـها عالم الآثار الحَيَوَانيَّة Archaeozoologist "باولا وابنيش" Paula Wapnish بـأنَّ هـذه الجمـال ـ كُلّها في سنِّ البُلُوغ والنُّضْج، لذا؛ ليست جُزءاً طبيعياً من قطعان تتمُّ تربيتها محلّيّاً ـ استُعملَت ـ احتمالاً ـ في تجارة القوافل.

اشتملت الأراضي التي تقع في أقصى الجنـوب ـ والتي كـانت مـاتزال تحت سيطرة مَمْلَكَة يهُوذا ـ في وادي بئر سبع، ومُرتفعات الأدوميِّين، والسّهل السّاحلي الجنوبـي، علـى بعض أهـمِّ طُرُق القوافل. كانت مناطق مرَّت بحالة نُمُوٍّ سكَّانيٍّ لم يسبق له مثيل، في القرن السّابع. حَـدَثَ أوَّل احتلال سُكَّاني، واسع الانتشار، لهضبة الأدوميِّين، في هذا الوقت بـالذّات، تحت الهيمنة الآشُوريَّة. في الحقيقة، لم تظهر أدوم كَدولة مُتطوِّرة بالكامل، إلاَّ كنتيجة لهذه التَّطوُّرات.

تُشير الاكتشافات الأثريَّة الغنيَّة والمُختلفة في المنطقة الواسعة بَيْن أدوم وفلسْـطيا، إلـى أنَّ آشُوريِّين، وعَرَباً، فينيقيِّين، وأدوميِّين، اشتركوا فـي ذلـك النّشـاط التّجـاري المُزدهـر. كـانت يهُوذا، تحت "مَنَسَّى"، مُشاركاً بارزاً أيضاً. يجب فَهْم موجة الاستيطان السُّكَّاني في وادي بئر سبع على هذه الخلفيَّة، بل حتَّى ربَّما تكـون يـهُوذا قـد توسَّـعت أبعـد جنوبـاً علـى طُـول طُرُق التّجارة. لقد تمَّ تنقيب حصنَيْن كبيرَيْن يعـودان للقـرن السّـابع فـي عُمـق الصّحـراء؛ الأوَّل هُـو "قادش برنيع" Kadesh barnea على الهامش الغربي لمُرتفعـات النَّقَـب، حوالـي خمسـين ميـلاً جنوب غرب بئر سبع. يُسيطر الموقع على أكبر واحة تقع على الطّريق التّجاري المُهمِّ الذي يبدأ من جنوب فلسطين إلى رأس خليج العقبـة، و يستمرُّ إلـى الأمـام نحـو بـلاد العَـرَب. الحصـن الثّاني تمَّ تنقيبه مُؤخَّراً في "حسيفة": موقعٌ يقع حوالي عشـرين ميـلاً جنـوب البحـر الميِّـت علـى الطّريق الآخر إلى الجنوب. قـادت الاكتشـافات فـي الحصنَيْـن المُؤرِّخ التّوراتـي "نـدَّاف نُعمـان"

لاقتراح أنَّ كلا الحصنَيْن بُنِيَ في القرن السّابع الأوّل ق. م، تحت الرّعاية الآشُوريَّة، بمُساعدة الدُّول المحلِّيَّة التّابعة، وأُديرا بقُوَّات من يهُوذا وأدوم.

تُزَوِّدُنا النُّقُوش العَرَبِيَّة الجنوبيَّة التي وُجدَت في عدَّة مواقع في يهُوذا بدليل قاطع على الصّلات القويَّة مع بلاد العَرَب في ذلك الوقت. يأتي مثل هذا النّوع من الدّليل - أيضاً - من أُورشليم (القُدْس)؛ اكْتُشفَتْ ثلاثة رقائق فخّاريَّة مكتوب عليها بالخطّ العَرَبي الجنوبي في مدينة داود. وبما أنَّها نُحتَت على أوان فخّاريَّة يَهُوذَوي" نَمَطيَّة - وليس على أنواع مُستوردة - فإنَّ هذا يشهد على إقامة مُحتملة لسُكَّان عَرَب في يهُوذا. هُناك ختمٌ عبْريٌّ من نَمَط القرن السّابع يبدو أنَّه يحمل اسماً عَرَبِياً جنوبياً. في هذا الصَّدَد؛ حاول عدَّة عُلماء أنْ يُبرهنوا أنَّ زوجة "مَنَسَّى" "مَشُلَّمَةُ بِنْتُ حَارُوصَ" Meshullemeth كانت امرأة عَرَبِيَّة. هل من المُمكن أنْ يكون هذا زواجاً دبلُوماسياً استهدف دَعْمَ مصالح يهُوذا التّجاريَّة في الجنوب؟ هل من المُمكن أنْ تكون حكاية سفْر التّثنية عن ملكة شيبا (سبأ) التي تزور سُلَيْمَان في أُورشليم (القُدْس) اسْتُلْهمَت من الاتِّصالات الثّقافيَّة والطُّمُوحات الاقتصاديَّة لملك داوديٍّ آخر في القرن السّابع؟

لم يكن الاتِّصال العَرَبي أُفُقَ التَّوسُّع الاقتصادي الوحيد. لقد احتكر الآشُوريُّون - أيضاً - وطوَّروا إنتاج زيت الزّيتون الشّرقي.

هُناك دليل على هذا الأمر من "تَلّ ميقنة" Miqne : موقعٌ في غرب "شَفلة"، وهُو موقع عقرُون القديمة، إحدى المُدُن الرّئيسيَّة لفلسْطيا. لقد نَمَتْ "عقرُون" - التي كانت لقُرُون سابقة مُجرَّد موقع بسيط قبل الاحتلال الآشُوري للمنطقة - لتُصبح مركزاً ضخماً لإنتاج زيت الزّيتون في أوائل القرن السّابع. لقد اكْتُشفَتْ مئة معصرة زيت زيتون في تلك المنطقة، وهُو عدد يفوق ما وُجد في أيِّ موقع آخر في كُلِّ تاريخ البلاد. في الحقيقة؛ كان هذا أكبر مركز عظيم لإنتاج زيت الزّيتون عُرفَ في كُلِّ تاريخ الشّرق الأدنى القديم. غَطَّتْ المنطقة الصّناعيَّة حوالي خُمْس رُقعة المدينة. خُمِّنَتْ قُدرة الإنتاج السّنويَّة بحوالي ألف طن.

كان زيت عقرُون يُنقل - على ما يبدو - إلى الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة ومصر، الأرضَيْن اللّتَيْن تفتقران إلى البيئة المُناسبة لنُمُوِّ البساتين الزّيتونيَّة، ولإنتاج زيتها الخاص، لكنَّ عقرُون نفسها ليست واقعة في المناطق التّقليديَّة لزراعة وإنتاج الزّيتون في التّلال. في الحقيقة؛ إنَّها تقع

في أرض مُستوية مثاليَّة لإنتاج الحُبُوب. لكنْ؛ يبدو أنَّه تمَّ اختيارها كَمَركَز للإنتاج؛ بسبب موقعها على شبكة الطُّرُق الرّئيسيَّة للسّهل السّاحلي الجنوبي، على نصف الطّريق بَيْن حُقُول الزّيتون في المُرتفعات (التّلال) ومناطق التّوزيع الرّئيسيَّة في ساحل الغرب.

لابُدَّ أنَّ البساتين التي كانت تُزوِّد الصّناعة العقْرُونيَّة بالزّيتون كانت تقع في منطقة المُرتفعات في يهُوذا، ومن المُحتمل أنْ تكون - أيضاً - في مُحافظة السّامرة الآشُوريَّة في الشّمال. كما ذكَرْنا سابقاً؛ سجَّل القرن السّابع التّصنيع الحقيقي للإنتاج الزّيتوني في يهُوذا التي ربَّما كانت المُزوِّد الرّئيسيّ بالزّيتون للصّناعة العقْرُونيَّة. لقد اقترح مُنقِّبا موقع عقْرُون - "ترود دوثان" Trude Dothan، من الجامعة العبْريَّة في القُدْس، و"سيمور جتّين" Seymour Gitin من معهد أولبرايت Albright - انطلاقاً من الأعداد الهامَّة لمذابح البخور الإسرائيليَّة النَّمَطيَّة التي وَجَدَاهَا في أبنية مُعاصر الزّيت، اقترحا أنْ تكون أعداد كبيرة من أهالي يهُوذا قد أُعيد توطينهم قَسْراً في فلسْطيا منْ قبَل "سَنْحاريب"؛ ليكونوا عُمَّالاً مُسخَّرين. وهكذا تمَّ كَسْر حاجز آخر - وإنْ كان بطريقة قاسية وبدم بارد - بَيْن يهُوذا والعالم الخارجي.

لقد تطلَّبت كُلُّ هذه المُبادرات الاقتصاديَّة النّشطة - التي تمَّ التّخطيط لها مركزيّاً - مركزيَّة أكثرَ للدّولة اليَهُوذَويَّة. تطلَّبت زراعة أشجار الزّيتون وكُرُوم العنب على نطاق واسع ومُنتجاتها الصّناعيَّة توفير تسهيلات لأجل تخزينها، ونَقْلها، وتوزيعها بشَكْل فعَّال. علاوةً على ذلك، تطلَّب الاستيطان المُكثَّف وزراعة المناطق القاحلة تخطيطاً بعيد المدى. كان من الضّروريّ تخزين الكمِّيَّات الكبيرة من فائض الحُبُوب في السّنوات الجيِّدة، وتوزيعها من المراكز في سنوات الجفاف الحادّ. يدعم الدّليل الآثاريّ فَرَضيَّة التَّدخُّل الحُكُوميّ المُتزايد في كُلّ مراحل الحياة في "يهُوذا"، إلى حَدّ أنَّ عدد الأختام، وطبعات (دَمْغَات) الختم، والرّقائق الفخَّاريَّة الإداريَّة المكتوب عليها، والأوزان الرّسميَّة في "يهُوذا" القرن السّابع، تجاوز - بكثيرٍ - الكمِّيَّات التي كانت تُوجَد من قَبْل.

الأقدار المُتغيِّرة:

يُعَدُّ القرن الآشُوري - من السّنوات الأخيرة لحُكْم "آحاز" إلى أيَّام "حَزَقيَّا" و"مَنَسَّى" - حالة فاتنة من التّأرجحات السّياسيَّة المُثيرة في يهُوذا. تقلَّب المُلُوك الثّلاثة - الجدُّ، والأب،

والابن - بَيْن المُواجهة والارتباط بالسُّلطات الآشُوريَّة وبَيْن التّوفيقيَّة الدِّينيَّة (إشراك عبادة يَهْوَه مع عبادة آلهة أُخرى)، والسّياسات الدِّينيَّة التَّطهُّريَّة. مُعالجة المُؤرِّخ التّوراتي لها تَعكسُ - أيضاً - هذه التّغيُّرات، ولكنْ؛ من منظور مُختلف تماماً. لقد وُصف "آحاز" كَوَثَنيٍّ تعاون من الآشُوريّين. أمَّا "حَزَقيًّا"؛ فكان عكس ذلك تماماً. لم يكن هُناك في عهده أيَّةُ أخطاء، بل حَسَنَاتٌ فقط. لقد كان ملكاً مثاليّاً طهَّر "يهُوذا" من كُلِّ تجاوزات الماضي. وخلافاً لأبيه الآثم، الذي أخضع "يهُوذا" - بكُلِّ إرادته - إلى الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، قاتل "حَزَقيًّا" ببسالة، ونَزَعَ عنه نير الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة. هدَّدَ الآشُوريُّون أُورشليم (القُدْس)، لكنَّ يَهْوَه أنْقَذَ المدينة بنَحْوٍ مُعجز. وتنتهي القصَّة دُون تلميح إلى الخُضُوع المُستقبليِّ للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، وباستثناء آيةٍ واحدة؛ لا تُوجد كلمة واحدة عن النّتائج الكارثيَّة المُريعة لحَمْلَة الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة على ريف "يهُوذا". كان "مَنَسَّى" - أيضاً - صُورة مُطابقة لأبيه، ولكنْ؛ بشَكْل سلبي هذه المرَّة. إنَّه المُرتدُّ الكامل، الذي قضى على الإصلاحات، وأعاد كُلَّ مُوبقات الماضي.

ما نحصل عليه من المصادر الخارجيَّة ومن علم الآثار يختلف جداً عن ذلك. لقد أيقظَ انهيار المَمْلكَة الشّماليَّة أحلام توحيد كُلِّ الشّعب الإسرائيليِّ تحت عاصمة واحدة في: أُورشليم (القُدْس)، وهيكل (معبد) واحد، وأُسرة واحدة حاكمة، ولكنْ؛ في مُواجهة الآشُوريّين الأقوياء لم يكن هُناك إلاَّ خياران اثنان: نسيان الحُلم، والتّعاون مع الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، أو المُضيّ قُدُماً في السّياسة الوَطَنيَّة، وانتظار اللّحظة المُناسبة لنَزْع نير الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة. إنَّ المُخاطرات الكبيرة تتطلَّب إجراءات قُصوى؛ وقد شَهدَ القرن الآشُوريّ انتقالاتٍ فُجائيَّةً مُثيرةً بَيْن هذَيْن الخيارَيْن.

لقد كان "آحاز" ملكاً حذراً ومصلحيّاً (براغماتيّاً) أنقذ "يهُوذا" من مصير إسرائيل الرّهيب، وقادها نحو الازدهار. لقد أدرك أنَّ الطّريق الوحيد للبقاء والاستمرار كان التّحالُف مع الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، وقد كَسبَ - كَتَابِعٍ مُوالٍ - بعض التّنازلات والتّخفيفات الاقتصاديَّة من أسياده الكبار، وأدمَجَ "يهُوذا" في اقتصاد الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة الإقليميَّة. لقد حَكَمَ "آحاز" فترةً من الازدهار لا سابقة له في "يهُوذا"، عندما وَصَلَتْ يهُوذا - لأوَّل مرَّة - إلى مرحلة الدّولة المُتطوِّرة بشَكْل كامل. ولكنَّه لسماحه بازدهار المُمارسات الدِّينيَّة التّقليديَّة، نالَ سَخَطَ وغَضَبَ المُؤرِّخ التّثنويّ.

في سنواته الأولى في الحُكْم؛ لم يكن لدى "حَزَقيًا" أيُّ خيار سوى مُواصلة السّير على خُطى أبيه، ولكنْ؛ عندما مات "سرجون" العظيم في ساحة المعركة، وجاء "سَنْحاريب" إلى السُّلْطَة، واجهت الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة تمرُّداً في أجزاء مُختلفة من الإمبراطُوريَّة. فُجأةً، بَدَت فكرة "إحياء" الدّولة الإسرائيليَّة القوميَّة الشّاملة، واقعيَّةً، خاصَّةً مع المُساندة والدَّعْم والمُتوقَّع من مصْر. شنَّ "حَزَقيًا" حَمْلَة إصلاحٍ دينيّ، أفادت في تبرير الانتفاضة، وأيقظت السُّكَّان لدَعْمها، ولكنَّ الثّورة ضدَّ الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة كانت قراراً مُتهوِّراً، أدَّى إلى الكارثة.

عندما جاء "مَنَسَّى" إلى العرش؛ عادت السُّلْطَة في أُورشليم (القُدْس) إلى المُعسكر المُعتدل. ولمَّا لم يكن له من العُمر سوى اثنَيْ عشر عاماً فقط، لا يكاد يُوجد شكٌّ بأنَّ الانقلاب في أُورشليم (القُدْس) تمَّ التّخطيط له من قَبْل. قَلَب "مَنَسَّى" حَرَكَة العَجَلَة إلى الوراء نحو أيَّام "آحاز". إنَّ فترة حُكْمه الطّويلة تُؤشّرُ إلى الانتصار الكامل للمُعسكر البراغماتيّ (المصلحي)، والتّوفيقيّ الدِّينيّ. لقد اختار التّعاون مع الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، وأعاد دَمْج "يهُوذا" في الاقتصاد الإقليميّ الآشُوريّ. ومثل العنقاء التي ترتفع من الرّماد[1]، بدأت "يهُوذا" بالتّعافي من صدمة حَمْلَة "سَنْحاريب".

لابُدَّ أنَّ أنبياء وحُكَماء حَرَكَة يَهْوَه - وحده - أُصيبوا بالإحباط بشدَّة لهذا التَّحوُّل في مجرى الأحداث. لقد تمَّ إزالة كُلِّ الإنجازات السّابقة لبَطَلهم "حَزَقيًا" في قضائه على إثم عبادة الأوثان وتحدِّيه للإمبراطُوريَّة الأجنبيَّة، أوَّلاً؛ من قِبَل جُيُوش "سَنْحاريب" الوحشيَّة، وبعد ذلك؛ بواسطة ابن "حَزَقيًا" نفسه. إذا كان من المُمكن اعتبار "حَزَقيًا" مُنقذ إسرائيل المُحتمل، فإنَّ ابنه "مَنَسَّى" كان - بالنّسبة إليهم - الشّيطان. هُناك إشارات في القصَّة التّوراتيَّة إلى اندلاع قلاقل واضطرابات أهليَّة من حين لآخر في "يهُوذا". ماتزال الحوادث الخاصَّة وراء ما نُقلَ من أنَّ "مَنَسَّى" [سَفَكَ - أَيْضاً - مَنَسَّى دَماً بَرِيئاً كَثِيراً جداً، حتَّى مَلأ أُورشليم منَ الْجَانب إِلَى الْجَانب، فَضْلاً عَنْ خَطيَّته التي بهَا جَعَلَ يهُوذا يُخْطئُ بعَمَل الشَّرِّ في عَيْنَي الرَّبِّ.] (سفر المُلُوك الثّاني: 21/ 16)، مجهولة الأسباب، ولكنَّنا يُمكن أنْ نتخيَّل أنَّ مُعارضي الملك لربَّما حاولوا الاستيلاء على السُّلْطَة. فلا عجب - بعد ذلك - أنْ نرى التّثنويّين الذين استولوا على

(1) الفُونيكْس: العنقاء: طائر خُرافي زعمَ قُدماء المصريّين أنّه يُعمِّر خمسة قُرُون أو ستَّة، وبعد أنْ يحرق نفسه ينبعث من رماده وهُو أتمُّ ما يكون شباباً وجمالاً. (المُترجم).

الحُكْم في "يهُوذا" بعد فترة قصيرة من موت "مَنَسًّى"، ويدؤوا كتابة تاريخ المَمْلَكَة، وضعو القصَّة. لقد صوَّروا "مَنَسًّى" كَأَفْسَق المُلُوك، وأب لكُلِّ المُرتدِّين الكَفَرة.

الجدول 7 مُلُوك "يهُوذا" من "حَزَقِيًا" إلى "يُوشِيًا"

الملك	التَّواريخ(*)	تقييم الكتاب المُقدَّس	شهادة الكتاب المُقدَّس	شهادة من خارج الكتاب المُقدَّس	الدّلائل والشَّواهد الآثاريَّة
"حَزَقِيًا"	727 ـ 698	مُستقيم صالحٌ	إصلاح ديني؛ القيام ضدَّ آشُوريا؛ خلاص أُورشليم (القُدْس)	"سنحاريب"، يجتاح "يهُوذا"، السّجلاَّت ولوحة النّحت النّافر في نينوا	تنمو أُورشليم (القُدْس) بشَكْل مُفاجئ حادٍّ؛ سُور جديد في أُورشليم (القُدْس)؛ نفق سيلوم؛ مقبرة سيلوم؛ التّحصينات في لخيش؛ ازدهار في وادي بئر سبع؛ دمار في لخيش ومواقع أُخرى؛ شواهد على معرفة القراءة والكتابة.
"مَنَسًّى"	698 ـ 642	الأكثر فُسقاً وكُفْراً	مرتد كافر كبير؛ يريق الكثير من الدّماء البريئة.	يدفع الجزية في للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة	نُمُوٌّ سُكَّانيّ في وادي بئر سبع وصحراء "يهُوذا"؛ بناء حصن قادش بَرنيع؟ "يهُوذا" تُشارك في إنتاج زيت الزّيتون في "عقرُون"؛ شواهد مُتزايدة على معرفة القراءة والكتابة.

(*) طبقاً لـ Anchor Bible Dictionary أيْ: قاموس مُرتَكز (أو سَنَد) الكتاب المُقدَّس.

"آمون"	641 ـ 640	سيِّئ	قُتل في انقلاب عسكري.		
"يُوشيًّا"	639 ـ 609	الأكثر استقامةً وصلاحاً	مُصلح ديني كبير؛ يأخذ بيت إيل؛ يقتله الفرعون نكا (نخاو)		ازدهار مُتواصل في وادي بئر سبع؛ تعافي في "شَفلَة"؛ ضدّ الأيقونات في الأختام ودمغات الأختام

الاقتراب من الذّروة:

إنّ نجاح "مَنَسَّى" في تحويل "يهُوذا" من الأرض المُقْفرَة، التي تَركَهَا "سَنْحاريب" إلى دولة مُتطوِّرة جداً في الإمبراطوريّة الآشُوريّة، جَلَبَ ثروة عظيمة إلى البعض، وإزاحةً اجتماعيّةً وحَيْرَةً إلى الكثيرين. كما أشار إلى ذلك "باروخ هالبرن" لأوّل مرّة، مع تدفُّق اللاّجئين من الشّمال بعد سقُوط "السّامرة"، وإعادة تنظيم الرّيف تحت "حزَقيًا"، والسّيل الثّاني للأجئين النّازحين من خرابات "شَفلة" التي سبَّبها "سَنْحاريب"، تحطّم جُزء كبيرٌ من الارتباطات العشائريّة التّقليديّة بأراضٍ مُعيَّنة إلى الأبد. أمّا في الرّيف؛ فقد أفادت الاقتصاديّات المُتوسّعة ـ المطلوبة لإنتاج كميّات هائلة من الزّيتون لأجل العصر والحُبُوب لأجل التّوزيع ـ أُولئك الذين أمْكَنَهُم تنظيم آليّة التّجارة والإنتاج الزّراعي أكثر بكثير ممّا أفادت أُولئك الذين كانوا يعملون في الحُقُول. إلى المدى الذي كان يُمكن للعشائر التي بَقيَت على قَيْد الحياة أنْ تَدَّعي فيه وُجُود سلسلة مُتّصلة من ميراثها لحُقُولها وقُراها ورُؤُوس مُرتفعاتها، فإنّ آثار الحرب، والتّغيُّر السُّكّاني، والتّخطيط الاقتصادي المَلَكيّ المُكثّف، قد يكون شجّع الكثيرين منهم على أنْ يحلمُوا بالماضي الذّهبيّ الفائت ـ سواءً الواقعيّ أو المُتخيَّل ـ عندما حلّ أجدادهم، وسكنوا بأمانٍ في أراضٍ محدَّدةٍ واضحَة المعالم، وتمتَّعوا بالسّلام والازدهار الأبديَّين في أرضهم التي وَعَدَهُم إيّاها الله.

ستأتي قريباً ذروة القصَّة. مات "مَنَسَّى" عام 642 ق.م، وَخَلَفَهُ ابنه "آمُون". طبقاً لسفر المُلُوك الثّاني، "آمُون" [عَملَ الشَّرَّ في عَيْنَي الرَّبِّ، كَمَا عَملَ مَنَسَّى أَبُوهُ.] (سفر المُلُوك الثّاني 21/ 20).

خلال سنتَيْن؛ وَقَعَ انقلاب عسكري في أُورشليم (القُدْس)، اغتيلَ "آمُون" على أثره. وقام "شعب الأرض" - ويُقصدُ بهم - على ما يبدو - النُّخبة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في "يهُوذا" - بذَبْح المُتآمرين بشَكْل مُروعٍ، وَوُضع "يُوشيًّا" ابن "آمُون"، الذي كان له من العُمر ثماني سنوات - فقط - على العرش. حَكَمَ "يُوشيًّا" أُورشليم (القُدْس) لُمدَّة واحد وثلاثين عاماً، ومُدحَ كأكثر المُلُوك استقامة في تاريخ "يهُوذا"، مُنافساً حتَّى سُمعَة داود نفسه. وفي عهده؛ رَجَعَ مُعسكر "يَهْوَه - وحده" - إلى السُّلْطَة مرَّة ثانية.

هذه المرَّة - أيضاً - تَصْطَدمُ اعتقادات تلك الجماعة الدِّينيَّة العاطفيَّة، ورُؤيتهم ضيِّقة النَّظَر العنيدة لقُوَّة يَهْوَه وقُدرته على حماية "يهُوذا" والأُسرة الدّاوديَّة من كُلِّ أعدائها الأرضيِّين، مع الحقائق القاسية للتّاريخ، ولكنْ؛ هذه المرَّة سيتركون وراءهم عهداً ووصيَّةً رائعةً، تُبقي أفكارهم حيَّةً. إنَّ نَصبَهُم التّذكاريّ الكبير سيكون جَمْعَاً للنُّصُوص العبْريَّة التي تُعبِّر عن رُؤيتهم للتّاريخ وآمالهم المُستَقبليَّة. تلك القصَّة الجماعيَّة هي الأساس الثّابت للكتاب المُقدَّس العبْريّ كما نعرفه اليوم.

الفَصْل (11):

إصلاحٌ كبير (639 . 586 ق.م)

يُشكِّل عهد الملك "يُوشيًّا" - ملك يـهُوذا - ذروة تـاريخ إسرائيل المَلكي، أو - علـى الأقـلّ - يجب أنْ يكون قد بدا كذلك في ذلك الوقت. بالنّسـبة لمُؤلّف التّاريخ التّثنوي؛ شـكّلت فـترة حُكْم "يُوشيًّا" لحظة وراء طبيعيَّة (ميتافيزيقيَّـة) لا تكـاد تقـلُّ أهمّيّتها عـن لحظـات ميثـاق الله مـع إبراهيم، والخُرُوج (الجماعي) من مصر، والوعد الإلـهي للملـك داود. ليس الأمـر مُجرَّد أنَّ الملك "يُوشيًّا" يُنْظَرُ إليـه فـي الكتـاب المُقـدَّس العـبْريّ كَـوَارِثٍ نبيـلٍ وشـريفٍ لمُوسى، ويشُـوع وداود: بل يبدو أنَّه عندما تمَّ رَسْم الخُطُوط العامَّة ذاتها لأُولئك الأشخاص العُظماء فـي القصَّـة التّوراتيَّة، كانت صُورةُ "يُوشيًّا" الفعلي هي التي في الذّهن. "يُوشيًّا" هُو الصُّورة المثاليَّة التي بـدا أنَّ كُلَّ تاريخ إسرائيل يتّجه نحوها: [25 وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ مَلِكٌ مِثْلُهُ قَدْ رَجَعَ إِلَى الرَّبِّ بِكُلِّ قَلْبه، وكُلِّ نَفْسه وكُلِّ قُوَّته حَسَبَ كُـلِّ شَـرِيعَةِ مُوسـى، وَبَعْـدَهُ لَـمْ يَقُـمْ مِثْلُـهُ.] (سفْر المُلُـوك الثّـاني 23/ 25)، وهُو مُستوى من الثّناء والمديح لم يظهر لأيّ ملك توراتيٍّ آخر.

جاء "يُوشيًّا" - الحفيد المُباشـر مـن الطّبقـة السّادسـة عشـرة للملـك داود - إلـى العـرش وعُمـره ثماني سنوات، على أثر حادثة عُنْف تمَّ خلالها اغتيال أبيه في أُورشـليم (القُدْس). لا نعـرف إلاَّ القليل جداًّ عن حياته المُبكِّرة. نكاد نقطع بأنَّ قَصَص يقظته الدِّينيَّة في سنِّ المُراهقة، المذكـورة في سفْر أخبار الأيَّام الثّاني 34/ 3 هي من نوع إعطاء صُورة مثاليَّة لسيرة شـخص ذاتيَّـة، بعـد عـهده، ولكنْ؛ أثناء فترة الإحدى وثلاثين سنة من حكْمه لمَملَكَة يهُوذا، عُرِفَ "يُوشيًّا" مـنْ قِبَـل الكثـيرين على أنَّه الأمل الأعظم للإصلاح والسَّدَاد الوَطَني، المسيح المُنتظَـر الأصيـل الـذي جـاء بـه القَـدَر لإعادة الأمجاد الذّاهبة لبيت إسرائيل. إمَّا بسبب، أو بالتّوافق مع عقائد "سـفْر شـريعة" "اكْتُشِـفَ"

ـ بشكْل إعجازي (أعجوبي) ـ فـي الـهيكل (المعبـد) في أُورشـليم (القُـدْس)، بـدأ "يُوشـيًّا" حَمْلَـة لاستئصال كُلّ أثر لعبادة أو طَقْسٍ أجنبي أو توْفيقيّ (شِرْكي)، بما في ذلك الأماكن القديمة العاليـة في الرِّيف. لم يتوقَّـف هُـو وقُوَّاته التَّطهُّريَّة (البيُوريتانيَّـة) حتَّـى عنـد الحُـدُود الشَّماليَّة التَّقليديَّة لمَمْلكَته، بل واصل شمالاً حتَّى "بيت إيل"؛ حيثُ كان "يَرُبْعَام" المكـروه قـد أسَّس معبـداً مُنافساً لذلك الذي في أُورشليم (القُدْس)؛ وحيثُ (كما تروي نُبُـوءة سفْر المُلُـوك الأوَّل 13/ 2) سيقوم وارثُ لداود اسمه "يُوشيًّا" بحَرْق عظام كَهَنَة الشَّمال الوَثَنيِّين يوماً ما.

نَبَعَ الدَّور المسيحاني ليُوشيًّا من علْـم لاهُـوت حَرَكَـة دينيَّـة جديـدة غيَّرت ـ بشَكْل مُثير ـ معنى أنْ يكون الشَّخص إسرائيليّاً، وَوَضَعَتْ أساس اليهُوديَّـة المُستقبليَّة، والمسيحيَّة. أنتجـت تلك الحَرَكَة ـ في النِّهاية ـ الوثائق الرَّئيسيَّة للكتاب المُقدَّس، والتـي أهمّـها هُـو "سفْر الشَّريعة"، الذي اكْتُشفَ أثناء ترميمات معبد أُورشليم (القُدْس) سـنة 622 ق. م؛ أيْ السَّـنة الثَّامنـة عشـرة من حُكْم "يُوشيًّا". أطلقَ ذلك الكتاب، الذي حدَّد أكثر العُلماء هُويَّته بأنَّه شكلٌ أصليٌّ لكتـاب "سفْر التَّثنية"، ثـورةً فـي الطُّقُـوس، وَدَفَـعَ إلـى إعـادة صياغـة كاملـة للهُويَّـة الإسـرائيليَّة. لقـد احتوى على الخصائص الأساسيَّة والمركزيَّة للتَّوحيد التَّوراتـي: العبـادة المُخلصـة الخاصَّـة للإلـه الواحد في مكان واحد؛ المُحافظة الوَطَنيَّة المركزيَّـة علـى المراسـم والمهرجانات الرَّئيسيَّة للسَّنَة اليهُوديَّة (عيـد الفصـح، وعـاء خُبز القُربـان)؛ ومجموعـة مـن التَّشريعات التي تتعلَّـق بـالخير والصَّالح الاجتماعيّ، والعدالة، والمبادىء الأخلاقيَّة الشَّخصيَّة.

كانت تلك هي اللَّحظة التَّشكيليَّة في تبلور التَّقاليد التَّوراتيَّة كما نعرفها الآن. ومع هـذا؛ فقد ركَّزت قصَّة عهد "يُوشيًّا" ـ كُلّيّاً تقريباً ـ على طبيعة إصلاحاته الدِّينيَّة، وما رُويَ عـن مداهـا الجَغرافي. لم يتـمّ تسـجيل إلاَّ القليـل عـن الأحـداث التَّاريخيَّـة الأكـبر التـي كـانت تحـدث فـي المناطق المُحيطة بيهُوذا، وكيف يُمكن أنْ تكون قد أثَّرت في ظُهُور وبُرُوز العقيـدة التَّنويَّـة. قـد يُساعدنا فَحْصُ المصادر التَّاريخيَّة المُعاصرة والمُكتَشفَات الأثريَّة على فَهْم كيـف أصبـح "يُوشـيًّا" ـ الملك الذي كان يجب أنْ يكون منسياً لكونه مُجرَّد حاكم لمَمْلكَـة صغـيرة جـداً تحـت ظـلٍّ قُـوَّة عالميَّة عُظْمَى ـ سواء شُعُوريّاً أو بشَكْل غير مُتعمَّد، راعياً لحَرَكَة ثقافيَّة ورُوحيَّة، أنتجت بعـض تعليمات الكتاب المُقدَّس العبْريّ الرَّئيسيَّة الأخلاقيَّة، ورُؤيته الفريدة لتاريخ إسرائيل.

اكتشاف غير مُتوقَّع في الهيكل (المعبد):

يبدأ هذا الفَصْل البالغ الأهمِّيَّة من تاريخ الحياة السّياسيَّة والرُّوحيَّة ليهُوذا بصُعُود الأمير الشَّابّ "يُوشيَّا" إلى العرش، وتتويجه ملكاً عام 639 ق. م. . لقد بَدَتْ تلك اللَّحظة نُقطة تحوُّل في رُؤية الكتاب المُقدَّس العبْريّ لصُرُوف الزّمان وسُعُود الحياة ونُحُوسها للمُلُوك "الأشرار الآثمين" و"الأخيار المُستقيمين" في تاريخ يهُوذا. كان "يُوشيَّا" وريثاً مُخلصاً لداود؛ حيثُ: [عَمِلَ الْمُسْتَقِيمَ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَسَارَ فِي جَمِيعِ طَرِيقِ دَاوُدَ أَبِيهِ. وَلَمْ يَحِدْ يَمِيناً وَلاَ شِمَالاً.] (سفر المُلُوك الثّاني 22/ 2).

طبقاً للكتاب المُقدَّس، ذلك الصّلاح والاستقامة قادت "يُوشيَّا" إلى عمل حاسم. في السّنة الثّامنة عشرة لحُكْمه ـ أيْ سنة 622 ق. م ـ أمر "يُوشيَّا" الكاهن الأكبر "حلقياه" باستعمال الأموال العامَّة لترميم وتجديد بيت إله إسرائيل. أدَّت التّجديدات إلى ظُهُور مُثير لنصٍّ وَجَدَهُ الكاهن الأكبر في الهيكل (المعبد)، وقرأه سكرتيره "شافان" **Shaphan** على الملك. كان تأثيره هائلاً، لأنَّه ـ فجأةً، وبشكْل مُريع ـ مُسبّب لصدمة، كَشَفَ أنَّ المُمارسة التّقليديَّة لعبادة يَهْوَه في يهُوذا كانت خاطئة.

جَمَعَ "يُوشيَّا" كُلَّ شعب يهُوذا ليأخذ عليهم عهداً جدِّيّاً أنْ يكرِّسوا أنفسهم كُلِّيّاً لطاعة واتِّباع الوصايا الإلهيَّة المُفصَّلة في الكتاب المُكتَشَف حديثاً: [وَصَعِدَ الْمَلِكُ إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ وَجَمِيعُ رِجَالِ يَهُوذَا وَكُلُّ سُكَّانِ أُورُشَلِيمَ مَعَهُ، وَالْكَهَنَةُ وَالأَنْبِيَاءُ وَكُلُّ الشَّعْبِ مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ، وَقَرَأَ فِي آذَانِهِمْ كُلَّ كَلاَمِ سِفْرِ الشَّرِيعَةِ الَّذِي وُجِدَ فِي بَيْتِ الرَّبِّ. 3 وَوَقَفَ الْمَلِكُ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَقَطَعَ عَهْداً أَمَامَ الرَّبِّ لِلذَّهَابِ وَرَاءَ الرَّبِّ وَلِحِفْظِ وَصَايَاهُ وَشَهَادَاتِهِ وَفَرَائِضِهِ بِكُلِّ الْقَلْبِ وَكُلِّ النَّفْسِ، لإِقَامَةِ كَلاَمِ هَذَا الْعَهْدِ الْمَكْتُوبِ فِي هَذَا السِّفْرِ. وَوَقَفَ جَمِيعُ الشَّعْبِ عِنْدَ الْعَهْدِ.] (سفر المُلُوك الثّاني 23/ 2 ـ 3).

ثُمَّ، لأجل القيام بتطهيرٍ شاملٍ لعبادة يَهْوَه، أطلق "يُوشيَّا" حمْلَة إصلاح تَطَهُّريَّة كانت الأكثر حدَّةً في تاريخ يهُوذا. كان هدفه الأوَّل: القضاء على المناسك الوثَنيَّة التي تُمارَس في أُورشليم (القُدْس)، حتَّى ضمن الهيكل (المعبد) بنفسه: [وَأَمَرَ الْمَلِكُ حِلْقِيَّا الْكَاهِنَ الْعَظِيمَ وَكَهَنَةَ الْفِرْقَةِ الثَّانِيَةِ وَحُرَّاسَ الْبَابِ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ هَيْكَلِ الرَّبِّ جَمِيعَ الآنِيَةِ الْمَصْنُوعَةِ لِلْبَعْلِ وَلِلسَّارِيَةِ

وَلِكُلِّ أَجْنَادِ السَّمَاءِ، وَأَحْرَقَهَا خَارِجَ أُورشليم في حُقُول قَدْرُونَ، وَحَمَلَ رَمَادَهَا إِلَى بَيْتِ إِيلَ. 5 وَلاَشَى كَهَنَةَ الأَصنَامِ الذينَ جَعَلَهُمْ مُلُوكُ يهُوذا ليُوقدُوا عَلَى الْمُرتفعات في مُدُنِ يهُوذا وَمَا يُحيطُ بأورشليم، وَالذينَ يُوقدُونَ للبَعْلِ: للشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْمَنَازِلِ، وَلِكُلِّ أَجْنَادِ السَّمَاءِ. 6 وَأَخْرَجَ السَّارِيَةَ منْ بَيْتِ الرَّبِّ خَارِجَ أُورشليم إِلَى وَادي قَدْرُونَ، وَأَحْرَقَهَا في وَادي قَدْرُونَ، وَدَقَّهَا إِلَى أَنْ صَارَتْ غُبَاراً، وَذَرَّى الْغُبَارَ عَلَى قُبُورِ عَامَّةِ الشَّعْبِ. 7 وَهَدَمَ بُيُوتَ الْمَأْبُونِينَ التي عنْدَ بَيْتِ الرَّبِّ؛ حَيْثُ كَانَت النِّسَاءُ يَنْسجْنَ بُيُوتاً للسَّارِيَة] (سفر المُلُوك الثَّاني 23/ 4 ـ 7).

استأصل مراكز العبادة الأجنبيَّة، وبشَكْلٍ خَاصٍّ؛ مراكز العبادة التي كانت قد أُنْشئَتْ ـ على ما يُقال ـ تحت الرّعاية المَلَكيَّة في أُورشليم (القُدْس) مُنْذُ عهدٍ مُبكِّرٍ بقدَم عهد سُلَيْمَان:

[10 وَنَجَّسَ تُوفَةَ التي في وَادي بَني هنُّومَ لكَيْ لاَ يُعَبِّرَ أَحَدٌ ابْنَهُ أو ابْنَتَهُ في النَّار لمُولَكَ. 11 وَأَبَادَ الْخَيْلَ التي أَعْطَاهَا مُلُوك يهُوذا للشَّمْس عنْدَ مَدْخَل بَيْت الرَّبِّ عنْدَ مخْدَع نَثْمَلَكَ الْخَصيِّ الذي في الأَرْوقَة، وَمَرْكَبَات الشَّمْس أَحْرَقَهَا بالنَّار. 12 وَالْمَذَابحُ التي عَلَى سَطْح عُلِّيَّة آحَازَ التي عَملَهَا مُلُوك يهُوذا، وَالْمَذَابحُ التي عَملَهَا مَنَسَّى في دَارَيْ بَيْت الرَّبِّ، هَدَمَهَا الْمَلكُ. وَرَكَضَ منْ هُنَاكَ وَذَرَّى غُبَارَهَا في وَادي قَدْرُونَ. 13 وَالْمُرتفعاتُ التي قُبَالَةَ أُورشليم التي عَنْ يَمين جَبَل الْهَلاَك التي بَنَاهَا سُلَيْمَان مَلكُ إِسْرَائيلَ لعَشْتُورَثَ رَجَاسَة الصِّيدُونيِّينَ، وَلكَمُوشَ رَجَاسَة الْمُوآبيِّينَ، وَلمَلْكُومَ كَرَاهَة بَني عَمُّونَ، نَجَّسَهَا الْمَلكُ. 14 وكَسَّرَ التَّمَاثيلَ، وَقَطَّعَ السَّوَاريَ، وَمَلأَ مَكَانَهَا منْ عظَام النَّاس.] (سفر المُلُوك الثَّاني 23/ 10 ـ 14).

وَضَعَ "يُوشيَّا" حَدّاً ـ أيضاً ـ للطُّقُوس القُربانيَّة التي كان يقودها الكَهَنَة الرِّيفيُّون الذين كانوا يُؤدُّون مناسكهم وطُقُوسهم في المُرتفعات المُتفرِّقة، وفي المذابح المُتوزِّعة في كافَّة أنحاء الرِّيف، [وَجَاءَ بجَميع الكَهَنَة منْ مُدُن يهُوذا، وَنَجَّسَ الْمُرتفعات؛ حَيْثُ كَانَ الْكَهَنَةُ يُوقدُونَ منْ جَبْعَ إِلَى بئْر سَبْعٍ] (سفر المُلُوك الثَّاني 23/ 8).

وهكذا كان يتمُّ القضاء على كُلِّ أماكن العبادة الوَثَنيَّة القديمة واحداً تلو الآخر، حتَّى جاء دور خطيئة "يَرُبْعَام" الكبيرة في المذبح الوثَني في "بيت إيل"؛ حيثُ أَنجز النُّبوءة التّوراتيَّة القائلة بأنَّه في يومٍ من الأيَّام سيأتي ملك مُستقيم يُسَمَّى "يُوشيَّا" سيقوم بتحطيمه:

[[15 وكَذَلكَ الْمَذْبَحُ الذي في بَيْت إيلَ في الْمُرتفعـة التي عَملَهَا يَرُبْعَامُ بْنُ نَبَاطَ الذي جَعَلَ إسْرَائيلَ يُخْطئُ، فَذَانكَ الْمَذْبَحُ وَالْمُرتفعةُ هَدَمَهُمَا، وَأَحْرَقَ الْمُرتفعةَ، وَسَحَقَهَا، حتَّى صَارَتْ غُبَاراً، وَأَحْرَقَ السَّاريَةَ. 16 وَالتفَتَ يُوشيَّا فَرَأَى الْقُبُورَ التي هُنَاكَ في الْجَبَل، فَأَرْسَلَ وَأَخَذَ الْعظَامَ منَ الْقُبُور وَأَحْرَقَهَا عَلَى الْمَذْبَح، وَنَجَّسَهُ حَسَبَ كَلاَم الرَّبِّ الذي نَادَى به رَجُلُ اللَّه الذي نَادَى بهَذَا الْكَلاَم. 17 وَقَالَ: [مَا هَذه الصَّوَّةُ التي أَرَى؟] فَقَالَ لَهُ رجَالُ الْمَدينَة: [هيَ قَبْرُ رَجُل اللَّه الذي جَاءَ منْ يهُوذا، وَنَادَى بهَذه الأُمُور التي عَملْتَ عَلَى مَذْبَح بَيْت إيلَ]. 18 فَقَالَ: [دَعُوهُ. لاَ يُحَرِّكَنَّ أَحَدٌ عظَامَهُ]. فَتَرَكُوا عظَامَهُ وَعظَامَ النَّبيِّ الذي جَاءَ منَ السَّامرَة.]] (سفر المُلُوك الثَّاني 23/ 15 ـ 18).

ولم يتوقَّف "يُوشيَّا" في "بيت إيل"، بل استمرَّت حَمْلَة التَّطهير مسافة أبعد إلى الشَّمال: [19 وكَذَا جَميعُ بُيُوت الْمُرتفعات التي في مُدُن السَّامرَة التي عَملَهَا مُلُوك إسْرَائيلَ للإغَاظَة أَزَالَهَا يُوشيَّا، وَعَملَ بهَا حَسَبَ جَميع الأَعْمَال التي عَملَهَا في بَيْت إيلَ. 20 وَذَبَحَ جَميعَ كَهَنَة الْمُرتفعات التي هُنَاكَ عَلَى الْمَذَابح، وَأَحْرَقَ عظَامَ النَّاس عَلَيْهَا، ثُمَّ رَجَعَ إلَى أُورشليم.] (سفر المُلُوك الثَّاني 23/ 19 ـ 20).

وحتَّى أثناء مُحاربته للوَثَنيَّة؛ كان "يُوشيَّا" يُقيم الاحتفالات الدِّينيَّة الوَطَنيَّة: [[21 وَأَمَرَ الْمَلكُ جَميعَ الشَّعْب: [اعْمَلُوا فصْحاً للرَّبِّ إلَهكُمْ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ في سفْر الْعَهْد هَذَا]. 22 إنَّهُ لَمْ يُعْمَلْ مثْلُ هَذَا الْفصْح مُنْذُ أَيَّام الْقُضَاة الذينَ حَكَمُوا عَلَى إسْرَائيلَ، وَلاَ في كُلِّ أَيَّام مُلُوك إسْرَائيلَ وَمُلُوك يهُوذا. 23 وَلكنْ؛ في السَّنَة الثَّامنَةَ عَشَرَةَ للْمَلك يُوشيَّا عُملَ هَذَا الْفصْحُ للرَّبِّ في أُورشليم.]] (سفر المُلُوك الثَّاني 23/ 21 ـ 23).

عند التَّفكير بما حَدَثَ في السَّابق، نُلاحظ أنَّ وَصْفَ الكتاب المُقدَّس العبْريّ للإصلاح الدِّيني لـ"يُوشيَّا" في سفْر المُلُوك الثَّاني/ 23، لم يكن مُجرَّد تسجيلٍ بسيطٍ للأحداث. لقد كان صياغة قصَّة محبوكة بعناية تحتوي تلميحات إلى كُلِّ الشَّخصيَّات العظيمة والأحداث في تاريخ إسرائيل. هُناك مُقارنة ضمنيَّة لـ"يُوشيَّا" بمُوسى، المُحرِّر العظيم وزعيم عيد الفصْح الأوَّل. كما تتمُّ قَوْلَبته وتشكيله حسب شخصيَّتَيْ يشُوع وداود، الفاتحَيْن العظيمَيْن، كما أنَّه يحذو حذوَ سُلَيْمَان، راعي الهيكل (المعبد) في أُورشليم (القُدْس). تُصلح قصَّة إصلاحات "يُوشيَّا" شُرُور الماضي أيضاً. يتمُّ التَّذكير بذُنُوب المَمْلَكَة الشَّماليَّة عندما ينجح "يُوشيَّا" في تحطيم مذبح

"يَرُبْعَام" في "بيت إيل"، مركز العبادة في مَمْلَكَة إسرائيل، الذي نافس الهيكل (المعبد) في أورشليم (القُدْس) لُمدَّة طويلة. وكانت السَّامرة هُناك، واستُدْعيت إلى الذّهن أماكنها الوَثَنيَّة العالية، والذّكريات المُرَّة لدمارها. لقد وَصَلَ كُلُّ تاريخ إسرائيل ـ الآن ـ إلى نُقطة تحوُّل. بعد قُرُون من الظُّلم والخطأ، ظَهَرَ "يُوشيَّا" ـ الآن ـ لتغيير ذُنُوب الماضي وقيادة شعب إسرائيل نحو البرّ والسّداد عبْر الاتّباع الدّقيق والصّادق للشّريعة.

ماذا كان "سفْر الشّريعة"؟

كان اكتشاف سفْر الشّريعة حَدَثًا ذا أهمّيَّة أساسيَّة في التّاريخ اللاَّحق لشعب إسرائيل. لقد اعْتُبِرَ قانُون الشّريعة المُحدَّد الذي أعطاه اللّه لمُوسى في سيناء، والذي تضمَّن مُراعاة أحكامه بقاء شعب إسرائيل.

بحُدُود القرن الثّامن عشر؛ لاحظ عُلماء الكتاب المُقدَّس التّشابهات الواضحة بَيْن وَصْف "سفْر الشّريعة" الذي اكْتُشفَ في الهيكل (المعبد) وكتاب "سفْر التّثنية". تُبيِّن التّشابهات الخاصَّة والمُباشرة بَيْن مُحتويات سفْر التّثنية والأفكار التي تُبيِّنها قصَّة إصلاحات "يُوشيًّا" في الكتاب المُقدَّس العبْريّ ـ بشكْل واضح ـ أنَّ كلاهما يشترك في العقيدةنفسها. سفْر التّثنية هُو الكتاب الوحيد في التّوراة الذي يُصرِّح بأنَّه يحتوي على "كلمات العهد" التي يجب على كُلّ شعب إسرائيل أنْ يتّبعها (29/ 9)[1]. وهُو الكتاب الوحيد الذي يمنع التّضحية خارج [المَكَانُ الذي يَخْتَارُهُ الرَّبُّ إلهُكُمْ] (12/ 5)، بَيْنما تُحيل أسفار التّوراة الأُخرى، مراراً وتكراراً، وبدُون اعتراض، إلى العبادة في المذابح الأُخرى في كافَّة أنحاء الأرض. سفْر التّثنية هُو الكتاب الوحيد الذي يصف تضحية عيد الفصْح الوَطَنيَّة في ضريح وَطَني (16/ 1 ـ 8)[2]. وفي حين

(1) نصُّ العبارة: [9 فَاحْفَظُوا كَلِمَاتِ هَذَا العَهْدِ وَاعْمَلُوا بهَا لتَفْلحُوا في كُلِّ مَا تَفْعَلُونَ.]. (المُترجم)

(2) ونصُّ العبارة: [احْتَفلُوا دَائماً بفَصْح الرَّبِّ إلَهكُمْ فِي شَهْر أبِيبَ (أيْ شَهْر نيسَانَ ـ آبْريلَ)، فَفِي هَذَا الشَّهْر أخْرَجكُمُ الرَّبُّ إلَهكُمْ منْ مصرَ لَيْلاً. 2 وَاذْبَحُوا للرَّبِّ إلَهكُمْ غَنَماً أوْ بَقَراً في المَوْضع الّذي يَخْتَارُهُ الرَّبُّ ليُحلَّ اسْمَهُ فيه. 3 لاَ تَأكُلُوهُ مَعَ خُبْز مُخْتَمر، بَلْ كُلُوهُ مَعَ فَطير طَوَالَ سَبْعَة أيَّام، لأنَّ هَذَا هُوَ خُبْزُ المَشَقَّة، إذْ إنَّكُمْ عَلَى عَجَل غَادَرْتُمْ ديَارَ مصرَ، وَبذَلكَ تَتَذكَّرُونَ يَوْمَ خُرُوجكُمْ منْ ديَار مصْرَ كُلَّ أيَّام حَيَاتكُمْ. 4 لاَ تُبْقُوا خَميراً في أرْضكُمْ طَوَالَ سَبْعَة أيَّام، وَلاَ يَبتْ شَيْءٌ منْ لَحْم حَمَل الفصْح المَذْبُوح في مَسَاء اليَوْم الأوَّل إلَى الغَد. 5 يُحْظَرُ عَلَيْكُمْ ذَبْحُ الفصْح في أيٍّ منْ مُدُنكُمُ الّتي يُورِّثُهَا لَكُمُ الرَّبُّ إلَهُكُمْ، 6 بَلْ فِي المَكَانَ الّذي يَخْتَارُهُ الرَّبُّ إلَهكُمْ ليُحلَّ اسْمَهُ فيه تَذْبَحُونَ الفصْحَ في المَسَاء، عنْدَ غُرُوب الشَّمْس، في نَفْس ميعَاد خُرُوجكُمْ منْ مصْرَ. 7 فَتَشْوُونَهُ وَتَأكُلُونَهُ فَي المَوْضع الّذي يَخْتَارُهُ الرَّبُّ، ثُمَّ تَنْصَرفُونَ في الغَد كُلٌّ إلَى خَيْمَته. 8 ستَّةَ أيَّام تَأكُلُونَ فَطيراً، وَفي اليَوْم السَّابع تَتَوَقَّفُونَ عَنْ كُلِّ عَمَل، وَتَحْتَفلُونَ مُعْتَكفينَ للرَّبِّ.] سفْرَ التّثنية 16/ 1 ـ 8. (المُترجم).

من الواضح أنَّ هُناك إضافات تالية ضُمَّت إلى النَّصِّ الحالي لكتاب سفْر التّثنية ، فإنَّ خُطُوطه العامَّة الرّئيسيَّة هي - بالضّبط - نفس تلك التي حافظ عليها "يُوشيًا" سنة 622 ق . م ، في أُورشليم (القُدْس) للمرَّة الأُولى .

تتطابق حقيقة أنَّ هُناك قانُوناً شرعيّاً مدوَّناً ظَهَرَ - فجأةً - في هذا الوقت ، بنَحْو جيِّد ، مع السِّجلِّ الآثاري الذي يُبيِّن انتشار معرفة القراءة والكتابة في يهُوذا . بالرّغم من أنَّ النّبي هوشع والملك "حَزَقيًّا" رُبطا بأفكار مُشابهة لتلك التي تضمنَّها سفْر التّثنية ، فإنَّ رواية ظُهُور نصٍّ مكتوب مُحدَّد وقراءته في العَلَن أمام جُمهُور النّاس منْ قبَل الملك ، يتوافقان مع الدّليل الذي يدلُّ على الانتشار الشّديد والمُفاجئ لمعرفة القراءة والكتابة في يهُوذا القرن السّابع . إنَّ اكتشاف مئات الأختام الشّخصيَّة والدّمْغات (آثار الأختام) التي كُتبت باللُّغة العبْريَّة التي تعود لهذا العصر يشهد على الاستعمال الزّائد للكتابة والوثائق المكتوبة . كما ذكرنا ، يُعَدُّ مثل هذا الدّليل على الانتشار الواسع نسبيّاً لمعرفة القراءة والكتابة مُؤشّراً هامّاً على وُصُول "يهُوذا" إلى مُستوى الدّولة المُتطوِّرة بالكامل في هذه الفترة . أمَّا قبل ذلك ؛ فكان من غير المُحتمل أنْ تمتلك القُدرة على إنتاج النُّصُوص التّوراتيَّة الواسعة .

بالإضافة إلى ذلك ؛ أشار العُلماء إلى أنَّ الشّكْل الأدبي للميثاق بيْن يَهْوَه وشعب إسرائيل في سفْر التّثنية يُشابه - بنَحْو مُدهش - مُعاهدات الدُّول التّابعة للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة في أوائل القرن السّابع ، والتي كانت تُحدِّدُ حُقُوق وواجبات الشّعب تجاه ملكهم (في هذه الحالة ، بيْن شعب إسرائيل ويَهْوَه) . علاوةً على ذلك ؛ كما أشار المُؤرِّخ التّوراتي "موشي وينْفيلْد" Moshe Weinfeld ، يُظهر سفْر التّثْنية تشابُهات مع الأدب اليُوناني المُبكِّر ، سواءً في التّعبيرات عن العقيدة ضمن خطابات مُبرمجة ، أو في نوع البركة واللّعْنَة ، أو في الاحتفالات بتأسيس مُستوطنات جديدة . والخُلاصة ؛ لا يُوجد شكٌّ يُذكَر في أنَّ النُّسخة الأصليَّة لسفْر التّثْنية هي سفْر الشّريعة المُشار إليه في سفرَيْ المُلوك . بدَلاً من أنْ يكون "سفْر الشّريعة" كتاباً قديماً اكتُشفَ فُجأةً ، يبدو أنَّ الأسْلَمَ الاستنتاجُ أنَّه كُتبَ في القرن السّابع ق . م ، إمَّا قبل عهد "يُوشيًا" مُباشرةً ، أو أثناء حكْمه .

فرعون صاعد وإمبراطُوريَّة آيلة للسُّقُوط:

لكي نفهم لماذا أخَذَ سفر التّثْنية الشّكْل الذي هُو عليه الآن ـ ولماذا كان له كُلّ تلك القُوَّة العاطفيَّة الواضحة ـ علينا ـ أوّلاً ـ أنْ ننظُرَ إلى المشهد العالميّ في العقُود الأخيرة من تاريخ "يهُوذا" . إنَّ مُراجعةً للمصادر التّاريخيَّة والآثاريَّة تُظهرُ أنَّ شدَّة التَّغيُّرات في ميزان القوى في كافَّة أنحاء المنطقة ، كانت عاملاً مركزيّاً في تشكيل تاريخ الكتاب المُقدّس العبْريّ .

عند اعتلاء الأمير "يُوشيَّا" ، الذي كان له من العُمر ثماني سنوات ، عرش "يهُوذا" عام 639 ق . م ، كانت مصر تمُرُّ بعصر نهضة سياسيَّة عظيمة ، كانت تُستَخدم فيه صُور الماضي البعيد ـ وصُور مُؤسّسيها الفاتحين العُظَماء ـ كَرُمُوز قويَّة لدَعْم وتحسين قُوَّة مصر ومركزها المُؤثّر في كافَّة أنحاء المنطَقة . ابتداءً من عام 656 ق . م ، رمى "بَسْناتيك الأوّل" مُؤسّس السُّلالة السّادسة والعشرين ، السّيادة المُطلقة والتّوسُّعيَّة للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة بعيداً ، ثُمَّ وسَّع حُكمَه ـ لاحقاً ـ على أغلب مناطق الشّرق التي كان الفرعون رمسيس الثّاني يُسيطرُ عليها في القرن الثّالث عشر ق . م . .

كان مفتاح هذه النّهضة المصريَّة ـ قبل كُلّ شيء ـ الهبُوط المُفاجئ والحادّ للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة في العقُود الأخيرة من القرن السّابع ق . م ، ماتزال أسباب انهيار القُوَّة الآشُوريَّة وتاريخه الدّقيق ، بعد أكثر من مائة عام من الهيمنة العالميَّة بلا مُنازع ، موضع نقاشٍ منْ قبَل العُلماء .

على كُلّ حال ؛ من الواضح أنَّ القُوَّة الآشُوريَّة بدأت بالهُبُوط قُرْب نهاية عهد الملك الآشُوريّ العظيم الأخير : "آشُور بنيبال" (669 ـ 627 ق . م) ، بسبب ضغط القبائل السّكيثيَّة scythian البَدَويَّة الصّاعدة على الحُدُود الشّماليَّة للإمبراطُوريَّة ، وبسبب النّزاعات المُستمرَّة مع رعاياها في بابل وعَيلام في الشّرق . بعد موت "آشُور بنيبال" تعرّض الحُكْم الآشُوريّ لتحدٍّ آخر تمثَّل بانتفاضةٍ في بابل سنة 626 وفي نُشوب حربٍ أهليَّةٍ في الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة نفسها بعد ثلاث سَنوات ، عام 623 ق . م . .

كانت مصرُ المُستفيد المُباشر من الضّعف الآشُوريّ . نَجَحَ الفرعون "بَسْناتيك الأوّل" ، مُؤسّس السُّلالة السّادسة والعشرين ، الذي كان يحكمُ من مدينة "سَايس" Sais في دلتا النّيل ، في توحيد طبقة الأشراف والنُّبلاء المصريَّة المحلّيَّة تحت قيادته . خلال فترة حُكْمه من عام 664

إلى 610 ق . م ، انسحبت القُوَّات الآشُوريَّة من مصْر ، وتركت مُعظم المشرق ؛ ليقوم المصريُّون بالسَّيْطَرَة عليه . يحكي المُؤرِّخ الإغريقي "هيرُودُوتس" Herodotus ، الذي يُعَدُّ مصدراً هامَّاً لمعرفة أحداث تلك الفترة ، (في قصَّة زُيِّنَت بالعديد من التّفاصيل الأُسطُوريَّة) ، كيف زَحَفَ "بَسْناتيك" شمالاً ، وأقام حصاراً طويلاً لُمدَّة تسعةٍ وعشرين عاماً على مدينة "أشْدُود" على ساحل البحر الأبيض المُتوسِّط . مهما كانت حقيقة ذلك التّقرير ، تبدو المُكتَشَفَات الآثاريَّة في مواقع على طُول السّهل السّاحليّ - في الحقيقة - مُشيرَةً إلى تأثيرٍ مصريٍّ مُتزايدٍ في أواخر القرن السّابع . بالإضافة إلى ذلك ؛ يَفتَخرُ "بَسْناتيك" في نَقْشٍ مُعاصرٍ بأنَّه سيطر على ساحل البحر الأبيض المُتوسِّط حتَّى فينيقيا شمالاً .

يبدو أنَّ انسحاب الآشُوريِّين من أملاكهم السّابقة في السّهل السّاحليّ وفي أراضي مَمْلَكَة إسرائيل الشّماليَّة السّابقة ، تمَّ بشَكْل سلْميّ . بل حتَّى من المُمكن أنْ تكون مصر والإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة قد تَوصَّلتا إلى نوع من التّفاهم ، ترثُ مصْر - طبقاً له - المُحافظات الآشُوريَّة في غرب الفُرات ، في مُقَابل التزامها بتقديم الدَّعْم العسكريّ للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة . وأيَّاً كان الأمر ؛ فقد تحقَّق الحُلم المصريّ القديم والمُستمرّ لخمسة قُرُون بإعادة تأسيس إمبراطوريَّتهم الكَنْعَانيَّة . لقد استعاد المصريُّون السَّيْطَرَة على الثّروة الزّراعيَّة وطُرُق التّجارة الدّوليَّة في السُّهُول الخصبة الغنيَّة . ومع ذلك ؛ وكما كان الأمر في عهد الفراعنة الفاتحين الكبار للمَمْلَكَة الجديدة ، كان السُّكَّان المُنعَزلون نسبيَّاً في المُرتفعات - الذين كانوا قد تنظَّموا حينذاك ، وأصبحوا مَمْلَكَة "يهُوذا" - غير هامِّين - نسبيَّاً - بالنّسبة للمصريِّين . وبناءً عليه ؛ تُركَ الكثير لهم ، على الأقلّ في البداية .

غزوٌ جديدٌ للأرض الموعودة:

خَلَقَ انسحاب الآشُوريِّين من المناطق الشّماليَّة لأرض إسرائيل حالةً لابُدَّ وأنَّها بَدَتْ في العُيُون اليَهُوذَويَّة كَمُعجزة مُتوقَّعة مُنْذُ زمن طويل . لقد وَصَلَ قرنٌ من الهيمنة الآشُوريَّة إلى نهايته ؛ وكانت مصر مُهتمَّةً - بشَكْل رئيسيّ - بالسّاحل ؛ ولم يكن هُناك وُجُودٌ لمَمْلَكَة إسرائيل الشّماليَّة الأثيمة . بدا الطّريق مفتوحاً أمام التّحقيق النّهائيّ لطُمُوحات "يهُوذا" . أخيراً ؛ بدا

مُمكناً ليهُوذا أنْ تَتوسّع نحو الشّمال، وأنْ تستولي على أراضي المَمْلَكَة الشّماليَّة المقهورة في المُرتفعات، وأنْ تُمَركز العبادة الإسرائيليَّة، وتؤسِّس دولة إسرائيليَّة قوميَّة عظيمة.

مثل هذه الخُطَّة الطَّمُوحة تتطلَّب دعايَةً نشطةً وقويَّة. أسَّس كتاب سفْر التّثنية وحدة شعب إسرائيل، ومركزيَّة مَوْقع عبادتهم القوميَّة، إلاَّ أنَّ التّاريخ التّثنوي وأجزاءً من التّوراة هُما اللّذَان أوجدا القصَّة الملحميَّة التي تُعبِّر عن عاطفة وقُوَّة أحلام "يهُوذا" النّاهضة. من المُفترض أنَّ السّبَب الذي دعا مُؤلِّفي ومُحرِّري التّاريخ التّثنوي وأجزاء من التّوراة إلى الاجتماع، وإعادة كتابة أغلب التّقليد الثّمين لشعب إسرائيل: هُو تجميع الأُمَّة لأجل الكفاح الوَطَنيّ العظيم الذي ينتظرها. لقد قاموا - عبْر تزيين وإسهاب القَصَص المُحتواة في الأسفار الأربعة الأُولى للتّوراة - بَنسْج وتَجْميع اختلافاتٍ إقليميَّة، مع قَصَص الآباء، واضعين مُغامرات إبراهيم وإسحق ويعقُوب في عالمٍ يُشابه - بنَحْو غريبٍ - القرن السّابع ق.م، ويُؤكِّد هيمنة "يهُوذا" على كُلّ إسرائيل. لقد صمَّموا مَلْحَمَة وَطَنيَّة عظيمة من التّحرير لكُلّ قبائل إسرائيل، ضدَّ فرعونٍ عظيم ومُسيطرٍ، كان عالَمُه مُماثلاً - في تفاصيله الجغرافيَّة، بنَحْو مُمتاز - لعالَم "بَسْناتيك".

من خلال التّاريخ التّثنوي؛ خلقوا مَلْحَمَة وحيدةً لغزو كَنْعَان، مع مشاهد لمعارك عنيفة - في وادي الأُردُن، وفي منطقة "بيت إيل"، وفي تلال "شَفلة"، ومراكز الإدارة الإسرائيليَّة السّابقة (والآشُوريَّة اللاَّحقة) في الشّمال - أيْ - بالضّبط - حيثُ يجب أنْ يُشَنَّ غزوهم الجديد لكَنْعَان. وأُدينَت المَمْلَكَة الشّماليَّة النّاجحة والقويَّة، التي عاشت "يهُوذا" في ظلّها لأكثر من قَرْنَيْن، كانحرافٍ تاريخيٍّ وانفصالٍ آثمٍ عن الميراث الإسرائيلي الحقيقي. كان الحُكَّام الشّرعيُّون الوحيدُون لكُلّ الأراضي الإسرائيليَّة، هُم المُلُوك من ذُرِّيَّة داود، خُصُوصاً "يُوشيَّا" التّقيّ. وأُدينَ بقُوَّة "بيتُ إيل"، مركزُ العبادَة الكبير في المَمْلَكَة الشّماليَّة، الذي سيطر "يُوشيَّا" عليه. وحُطَّ من قَدْر "الكَنْعَانيّين"؛ أيْ كُلّ السُّكَّان غير الإسرائيليّين، مع مَنْع صارمٍ لزواج الإسرائيليّين من النّساء الأجنبيَّات، اللّواتي، طبقاً للتّاريخ التّثنوي والتّوراة، سيُغْرينَ النّاس - فقط - بعبادة الأوثان. كلا السّياسَتَيْن كانا على ارتباطٍ - احتمالاً - بالتَّحدِّي العمليّ الذي سيُواجهه التّوسُّع نحو أجزاء أرض إسرائيل؛ حيثُ كانت تُوجد أعداد كبيرة من غير الإسرائيليّين الذي كان الآشُوريُّون قد وطّنوهم، خُصُوصاً؛ في المناطق الجنوبيَّة للمَمْلَكَة الشّماليَّة السّابقة، حول "بيت إيل".

إنَّه من المُستحيل معرفة ما إذا كانت هُناك نُسَخٌ سابقةٌ لتاريخ إسرائيل أُعدَّت في عهد "حَزَقيًّا" أو منْ قبَل فئات مُعارضة أثناءَ العهد الطّويل لـ"مَنَسَّى"، أو إذا كانت المَلْحَمَة العظيمة قد أُعدَّت - كُلّيّاً - أثناء عهد "يُوشيًّا". رغم ذلك؛ من الواضح أنَّ العديد من الأشخاص الموصوفين في التّاريخ التّثنوي - مثل "يشُوع" التّقي، و"داود"، و"حَزَقيًّا"، والكافر المُرتدّ "آحاز" و"مَنَسَّى" - إنّما صُوِّروا كانعكاسٍ في المرآة - إيجابيّاً وسلبيّاً - لشخصيّة "يُوشيًّا". لم يكن التّاريخ التّثنوي تاريخاً بالمعنى العصري للكلمة. كان تأليفاً عقائديّاً (أيديُولُوجيّاً) ولاهُوتيّاً بالوقت نفسه.

في القرن السّابع ق.م؛ للمرَّة الأُولى في تاريخ إسرائيل القديمة، كان هُناك جُمهُور شعبي من المُستمعين والقارئين لمثل ذلك التّأليف. كانت يهُوذا قد أصبحت دولة مركزيَّة جداً انتشرت فيها معرفة القراءة والكتابة من العاصمة والبلدات الرّئيسيَّة إلى الرّيف. كانت عَمَليَّة بدأت - على ما يبدو - في القرن الثّامن، لكنَّها لم تصل إلى ذروتها إلاَّ في عهد "يُوشيًّا". انضمَّت الكتابة إلى الوعظ كَوَسيلتَيْن لتقديم مجموعة من الأفكار الاجتماعيَّة والدِّينيَّة والسّياسيَّة الثّوريَّة جداً. على الرّغم من حكاياتها عن الكُفْر والارتداد وخيانة إسرائيل ومُلُوكها، وعلى الرّغم من دورات الذّنب، والعقُوبة، والتّسديد، بكُلِّ ما كان يحمله من كوارث الماضي، عَرَضَ الكتاب المُقدَّس العبْريّ تاريخاً مُتفائلاً بشَكْل كبير. لقد وعد قُرَّاءه ومُستمعيه بأنَّهم سيكونُون مُشاركين في النّهاية السّعيدة للقصَّة - عندما يقوم ملكهم "يُوشيًّا" بتطهير إسرائيل من مُوبقات جيرانها، ويُصلح آثامها، ويفرض التّطبيق العامّ للشّريعة الحقيقيَّة ليَهْوَه، ويتَّخذ الخُطوات الأُولى لجَعْل مَمْلَكَة داود الأُسطُوريَّة حقيقة واقعة.

ثورة في الرّيف:

كانت أوقات "يُوشيًّا" أوقاتاً مسيحانيَّة جداً. كان المُعسكر التّثنوي يكسب، والجوّ في أُورشليم (القُدْس) لابُدَّ وأنَّه كان جوّاً من الابتهاج الاستثنائي. لكنَّ دَرْسَ الانتقال من "حَزَقيًّا" المُستقيم إلى "مَنَسَّى" الأثيم لم يكن قد نُسيَ بعدُ. واجه مُصلحو "يُوشيًّا" - بالتّأكيد - مُعارضةً. لذا؛ كان الوقت - أيضاً - وقت تعليم وإصلاح اجتماعي. حول هذا الموضوع، من المُهمّ أنْ نُلاحظ أنَّ كتاب سفر التّثنية يحتوي على قوانين أخلاقيَّة وقواعد لتحسين الوَضْع الاجتماعي

لا نجد لها مُوازياً في أيِّ مكان آخر في الكتاب المُقدَّس. يدعو سفْر التّثنية إلى حماية الفَرْد، والدّفاع عمَّا نُسمِّيه اليوم حُقُوق الإنسان والكرامة الإنسانيَّة. تُولي تشريعاته اهتماماً لم يسبق له مثيل بالضُّعفاء والعاجزين في المُجتمع اليَهْوَذَويّ:

[7 إنْ كَانَ فيكَ فَقيرٌ أَحَدٌ منْ إخْوَتكَ في أَحَد أَبْوَابكَ في أَرْضكَ التي يُعْطيكَ الرَّبُّ إلهُكَ، فَلا تُقَسِّ قَلبَكَ، وَلا تَقْبضْ يَدَكَ عَنْ أَخيكَ الفَقير، 8 بَل افْتَحْ يَدَكَ لهُ، وَأَقْرضْهُ مقْدَارَ مَا يَحْتَاجُ إليْه.] (سفْر تثنية 15/ 7ـ8).

[17 لا تُعَوِّجْ حُكْمَ الغَريب وَاليَتيم، وَلا تَسْتَرْهنْ ثَوْبَ الأَرْمَلة. 18 وَاذْكُرْ أَنَّكَ كُنْتَ عَبْداً في مصْرَ فَفَدَاكَ الرَّبُّ إلهُكَ منْ هُنَاكَ. لذَلكَ أَنَا أُوصيكَ أَنْ تَعْمَل هَذَا الأَمْرَ.] (سفْر تثنية 24/ 17ـ18).

لم يكن ذلك مُجرَّد مُصادفة، لكنَّه وعيٌ نَتَجَ عن الفَهْم المُشترَك للأُمَّة، والذي أصبح ـ الآن ـ مدعوماً بقُوَّة بالقصَّة التّاريخيَّة لإسرائيل، التي تمَّ تحويلها لقوانين نصيَّة. حُقُوق الأرض العائليَّة يجب أنْ تُحترَم وتتمَّ حمايتها بمَنْع تحريك الأحجار الحُدُوديَّة من مكانها القديم (19/ 14)، كما تمَّ تأمين حُقُوق الزّوجات في الإرث، والذي كان الأزواج يرفضونه من قَبْل (21/ 15ـ17). وفُرضَ على المُزارعين إعطاء العُشر إلى الفُقراء كُلّ ثُلث سنة (14/ 28ـ29)؛ وتمَّت حماية الأجانب المُقيمين من التّمييز (24/ 14ـ15). وأُمر بتحرير العبيد بعد ستِّ سنوات من العُبُوديَّة (15/ 12ـ15).

هذه بضعة أمثلة فقط، من تشكيلة واسعة من التّشريعات الشّخصيَّة التي قُصدَ منها القضاء على الظُّلم التّقليدي، وفُقدان المُساواة في الحياة اليوميَّة.

تمَّ مُخاطبة الأداء الحُكُومي أيضاً، مع نيَّة واضحة لتحديد سُلْطَة زُعماء المُجتمع اليَهْوَذَويّ، وَمَنْعهم من استغلال مواقعهم لمصالحهم الخاصَّة، أو اضطهاد السُّكَّان بشكل عامٍّ:

[قُضَاةً وَعُرَفَاءَ تَجْعَلُ لكَ في جَميع أَبْوَابكَ التي يُعْطيكَ الرَّبُّ إلهُكَ حَسَبَ أَسْبَاطكَ، فَيَقْضُونَ للشَّعْب قَضَاءً عَادلاً. 19 لا تُحَرِّف القَضَاءَ، وَلا تَنْظُرْ إلى الوُجُوه، وَلا تَأْخُذْ رَشْوَةً؛ لأَنَّ الرَّشْوَةَ تُعْمي أَعْيُنَ الحُكَمَاء، وَتُعَوِّجُ كَلامَ الصِّدِّيقينَ.] (16/ 18 - 19).

حتّى الملك كان يجب أنْ يخضع لقوانين الميثاق، ومن الواضح أنَّ مُؤلّفي سفر التّثنية كان في ذهنهم ذُنُوب مُلُوك إسرائيل، وصلاح "يُوشيًّا" وتقواه:

[15 فَإِنَّكَ تَجْعَلُ عَلَيْكَ مَلكاً الذي يَخْتَارُهُ الرَّبُّ إلهُكَ. منْ وَسَط إخْوَتكَ تَجْعَلُ عَلَيْكَ مَلكاً. لا يَحلُّ لكَ أَنْ تَجْعَل عَلَيْكَ رَجُلاً أجْنَبيّاً ليْسَ هُوَ أخَاكَ. 16 وَلكنْ؛ لا يُكَثِّرْ لهُ الخَيْل، وَلا يَرُدُّ الشَّعْبَ إلى مصرَ لكَيْ يُكَثِّرَ الخَيْل وَالرَّبُّ قَدْ قَال لكُمْ: لا تَعُودُوا تَرْجعُونَ في هَذه الطَّريق أيْضاً. 17 وَلا يُكَثِّرْ لهُ نسَاءً لئَلا يَزيغَ قَلبُهُ. وَفضَّةً وَذَهَباً لا يُكَثِّرْ لهُ كَثيراً. 18 وَعنْدَمَا يَجْلسُ عَلى كُرْسيِّ مَمْلَكَته يَكْتُبُ لنَفْسه نُسْخَةً منْ هَذه الشَّريعَة في كتَاب منْ عنْد الكَهَنَة اللاَّوِيِّين. 19 فَتَكُونُ مَعَهُ، وَيَقْرَأُ فيهَا كُلَّ أيَّام حَيَاته؛ ليَتَعَلمَ أنْ يَتَّقيَ الرَّبَّ إلهَهُ، وَيَحْفَظَ جَميعَ كَلمَات هَذه الشَّريعَة وَهَذه الفَرَائضَ ليَعْمَل بهَا. 20 لئَلاَّ يَرْتَفعَ قَلبُهُ عَلى إخْوَته، وَلئَلا يَحيدَ عَن الوَصيَّة يَميناً أو شمَالاً؛ لكَيْ يُطيل الأيَّام عَلى مَمْلَكَته هُوَ وَبَنُوهُ في وَسَط إسْرَائيل.]
(17/ 15 ـ 20).

لَعَلَّ المصنوعة اليدويَّة الآثاريَّة الأكثر تذكيراً، والوحيدة، التي تبدو مثالاً مُصدِّقاً لهذا الوعي الجديد ـ على ما يبدو ـ بالحُقُوق الفَرْديَّة، هي التي اكْتُشفَتْ عام 1960، في قلعة تعود لأواخر القرن السّابع ق. م، تُعْرَف لدى عُلَماء الآثار بـ "ميساد هشافياهو" Mesad Hashavyahu، تقع على ساحل البحر الأبيض المُتوسِّط جنوب تلّ أبيب الحديثة (الشّكْل 27). وُجدَت داخل خرابات هذه القلعة أجزاء فخّاريّات يونانيَّة مُستوردة تشهد على حُضُور مُحتمل لجُنُود مُرتزقة يُونانيِّين هُناك. واستناداً لأسماء يَهْويَّة تظهر على رقائق فخّاريَّة مكتوبٌ عليها، وُجدَتْ في الموقع، كان هُناك ـ أيضاً ـ يَهُوذَويِّين في القلعة، يعمل بعضهم في الحُقُول والبعض الآخر يعملون كجُنُود وضُبّاط. أعَدَّ أحد العُمَّال نداءً غاضباً لقائد الحامية، كُتب بقلم حبر على كسرة شقفة فخّاريَّة. ربَّما كان هذا النَّقْش العبْري الثَّمين الدّليل الآثاري الأسبق الذي نمتلكه عن الموقف الجديد والحُقُوق الجديدة التي تُقدِّمها الشّريعة التّثْنَويَّة:

أرجو من المسؤول، سيِّدي، أنْ يسمع التماس خادمه. خادمكَ يعمل في الحصاد. خادمكَ كان في حصر ـ آسام Hasar-asam. خادمكَ عمل حصاده، أنهى وَخَزَنَ [الحُبُوب] قبل أيّام قليلة من التَّوقُّف. عندما أنهى خادمكَ الحصاد، وَخَزَنَهُ، قبل أيّام قليلة، جاء

"هوشاياهو بن شاباي" Hoshayahu son of Shabay ، وأخذ كساء خادمكَ. عندما أنهيت الحصاد، في ذلك الوقت، قبل أيَّام قليلة، أخذ كساء خادمكَ. كُلُّ رفاقي سيشهدُون لي، كُلُّ الذين كانوا يحصدُون معي في حرارة الشّمس سيشهدُون لي بأنَّ هذا صدْق. أنا بريء من أيِّ إخلال. (لذا؛) رجاءً أرْجِعْ كسائي. إذا لم يعتبر المسؤول أنَّ من مسؤوليَّته إعادة كساء خادمك، فاشفقْ عليه، وأعدْ كساء خادمكَ. يجب أنْ لا تبقى صامتاً عندما يكون خادمكَ بدُون كسائه.

كان هذا مُطالبة شخصيَّة بمُلاحظة الشّريعة، على الرّغم من الاختلاف في الطّبقة الاجتماعيَّة بَيْن المُرسَل إليه، والمُلتَمس. إنَّ قيام فَرْد واحد بالمُطالبة بحقِّه ضدَّ آخر، يُعَدُّ خُطوة ثوريَّة، بعيدةً عن الاعتماد التّقليدي - في الشّرق الأدنى القديم - على قُوَّة العشيرة فقط لضمان الحُقُوق العامَّة لأعضائها.

هذا مثال وحيد، بقيَ بالمُصادفة، في خرابات موقعٍ بعيدٍ عن مركز يهُوذا. ورغم ذلك؛ أهميَّته واضحة. تُعَدُّ تشريعات سفر التّثنية قانُوناً جديداً للحقُوق والالتزامات الفَرْديَّة لشعب إسرائيل. وقد خَدَمَتْ - أيضاً - كتأسيسٍ لمجموعة قواعدَ وقوانينَ شاملةٍ ونظام من القيم الاجتماعيَّة استمرَّ وبقيَ حتَّى يومنا هذا.

علْم الآثار والإصلاحات اليُوشيَّة:

بالرّغم من أنَّ علْم الآثار قدَّم خدماتٍ لا تُقدَّر بثمن في كَشْف النّقاب عن التَّطوُّر الاجتماعي طويل المدى الذي يكمن خلف التَّطوُّر التّاريخي ليهُوذا، وولادة حَرَكَة التّثنويِّين، إلاَّ أنَّه كان أقلَّ نجاحاً بكثير في التّزويد بأدلَّة على إنجازات خاصَّة ومُعيَّنة ليُوشيَّا. لحدِّ الآن؛ لم يُمكن تحديد موقع معبد "بيت إيل" - هدف "يُوشيَّا" الأساسي في حملته ضدَّ عبادة الأوثان، ولم يتمَّ - إلى الآن - إلاَّ اكتشاف معبد يَهُوَذَويّ مُعاصر واحد خارج أُورشليم (القُدْس)، وليس من الواضح ماذا كان مصيره خلال برنامج "يُوشيَّا" لتكريس المركزيَّة الدِّينيَّة[1].

---

(1) نُقِّب هذا المعبد في قلعة أراد في الجنوب. طبقاً للمُنقِّب "يُوهانان أهاروني"، خرج المعبد عن الاستعمال في أواخر القرن السّابع / وأوائل القرن السّادس ق.م.، عندما بُنيَ فوقه حائط تحصين جديد. لعلَّ هذا يُشير إلى إغلاق المعبد أو تركه، قرب من وقت إصلاحات "يُوشيَّا". على أيَّة حالٍ؛ يُشكِّك عُلماء آخرون بهذا التاريخ، وهُم ليسوا أكيدين جداً من توقُّف معبد أراد عن العمل في هذه الفترة، كما كان يتمنَّى "يُوشيَّا" على ما يبدو.

على النَّمَط نفسه، لا تُزوِّدنا أختام ودمغات ختم المسؤولين والوُجهاء اليَهْوَذَويِّين في الفترة المَلَكيَّة الأخيرة إلاَّ بدليلٍ مُحتمل - فقط - على إصلاحات "يُوشيًّا". رغم أنَّ الأختام اليَهْوَذَويَّة السّابقة كانت تتضمَّن أيقونات تتعلَّق بطَقْس عبادة النُّجُوم - مثل صُور لنُجُوم، وصُورة للقمر التي يبدو أنَّها كانت رُمُوزاً مُقدَّسةً - إلاَّ أنَّه في أواخر القرن السّابع كانت أغلب الأختام تتضمَّن أسماء فقط، (وزينة زهريَّة أحياناً)، وتفتقر إلى الزِّينة الأيقونيَّة بشَكْل واضح. تُثبت الأساليب الفنِّيَّة في المناطق الأُخرى؛ مثل عمُّون ومُوآب تغيُّراً مُماثلاً، قد يتعلَّق بالانتشار العامِّ لمعرفة القراءة والكتابة في كافَّة أنحاء المنطقة، لكنْ؛ لا شيء واضحاً كَوُضُوح الأختام في يهُوذا، التي قد تعكس تأثير إصلاحات "يُوشيًّا" في الإصرار - احتمالاً - على أنَّ يَهْوَه الذي لا شكل له، يجب أنْ يكون البُؤرة الشَّرْعيَّة الوحيدة للتَّعظيم، وفي مَنْع عبادة القوى السَّماويَّة في شكلها المرئي.

إلاَّ أنَّ ثمَّةَ دليلاً آخرَ، يبدو أنَّه يقترح أنَّ "يُوشيًّا" أخفق في إيقاف تبجيل الصُّور المحفورة؛ لأنَّ الكثير من تماثيل امرأة واقفة تحمل صدرها بيدَيْهَا (وهي صُورة تُعرَف - عُمُوماً - على أنَّها نفس الإلَهة "سارية") وُجِدَ ضمن مُجَمَّعات سَكَنيَّة خاصَّة في كُلِّ المواقع الهامَّة التي تعود لأواخر القرن السّابع في يهُوذا. وبالتَّالي؛ على الأقلِّ على المُستوى المنزلي الخاصّ، يبدو أنَّ هذه العبادة الشَّعبيَّة استمرَّت على الرّغم من السِّياسة الدِّينيَّة الصّادرة من أُورشليم (القُدْس).

إلى أيِّ حَدٍّ ذهبت ثورة "يُوشيًّا" بعيداً؟

حتَّى الآن لم يتمّ تحديد مدى فُتُوحات "يُوشيًّا" الإقليميَّة بواسطة المعايير الآثاريَّة والتّاريخيَّة إلاَّ بنَحْو تقريبيٍّ (انظُرْ المُلحق و). بالرّغم من أنَّ الحَرَم في "بيت إيل" لم يُكْتَشَف، إلاَّ أنَّ مصنوعات يدويَّة يَهْوَذَويَّة من نَمَط القرن السّابع وُجِدَت في المنطقة المُحيطة. من المُحتمل أنْ يكون "يُوشيًّا" قد توسَّع أكثر باتِّجاه الشّمال نحو "السّامرة" (كما يقترحه سفر المُلُوك الثّاني 23/ 19)، لكنْ؛ لحَدِّ الآن؛ لم يُوجد دليلٌ آثاري واضح على ذلك.

في الغرب؛ حقيقةَ أنَّ "لَخيش" قد أُعيد تحصينها ثانية، وأنَّها عملت - من جديد - كَحصن يَهْوَذَويٍّ رئيسيٍّ، هي - احتمالاً - أفضل دليلٍ على أنَّ "يُوشيًّا" واصلَ السَّيْطَرَة على مناطق "شَفلة" التي كان جدُّه "مَنَسَّى" قد أنعشها من قبلُ، لكنْ؛ من البعيد جداً أنْ يكون "يُوشيًّا" قد توسَّع أكثر

نحو الغرب باتِّجاه المناطق التي كانت مُهمَّةً للمصالح المصريَّة. جنوباً؛ يقترح الاحتلال اليَهْوَذَويّ المُستمرّ بأنَّ "يُوشيًّا" سيطر على وادي بئر سبع، واحتمالاً؛ على الحصن، الموجود في موقع أبعد في الجنوب، والذي كان "مَنَسَّى" قد أسَّسَه قبل عقُود قليلة، تحت الهيمنة الآشُوريَّة.

بشَكْل أساسيٍّ؛ كانت المَمْلَكَة تحت "يُوشيًّا" استمراراً مُباشراً ليهُوذا تحت حُكْم "مَنَسَّى". لم يتجاوز عددُ سُكَّانها ـ احتمالاً ـ خمسةً وسبعين ألفاً، بالإضافة إلى إشغالٍ كثيفٍ ـ نسبيّاً ـ للمناطق الرِّيفيَّة البعيدة في ريف المُرتفعات اليَهْوَذَويَّة، وشبكة المُستوطنات في المناطق القاحلة للشّرق والجنوب، وسكَّاناً مُتناثرين ـ نسبيّاً ـ في "شَفلة". لقد كانت ـ من عدَّة جهات ـ دولةً مدينة، مأهولةً بشَكْل كثيف؛ حيثُ ضمَّت العاصمة حوالي 20 ٪ من مجموع السُّكَّان. وَصَلَتْ الحياة الحَضَريَّة في أورشليم (القُدْس) إلى قمَّة لم يُوازيها إلاَّ ما صارت عليه في الأوقات الرُّومانيَّة. كانت الدّولة مُنظَّمةً بشَكْل جيِّد ومركزيٍ جداً، مثلما كانت في عهد "مَنَسَّى"، لكنْ؛ من ناحية التَّطوُّر الدِّيني والتّعبير الأدبي عن الهُويَّة القوميَّة، أشَّرَ عصر "يُوشيًّا" إلى مرحلةٍ جديدةٍ دراماتيكيَّةٍ مُثيرةٍ في تاريخ يهُوذا.

مُواجهة في "مَجدُّو":

اختُرِمت حياة "يُوشيًّا" بسرُعةٍ بشكْل مُفاجئ. في سنة 610 ق.م، مات "بَسْناتيك الأوّل"، مُؤسِّس السُّلالة السّادسة والعشرين المصريَّة، وَخَلَفَهُ على العرش ابنه "نَكا" (أو نخاو) الثّاني. أثناء بعثةٍ عسكريَّة شمالاً، لمُساعدة الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة المُنهارة في مُكافحة البابليِّين، حَدَثَتْ مُجابهةٌ حاسمةٌ. يصف السِّفْر الثّاني للمُلُوك الحدثَ بإيجاز، يكاد يُشبه الكلمات التي تُكتَب في برقيَّة: [في أيَّامه؛ صَعدَ فرْعَوْنُ نَخُو مَلكُ مصرَ عَلَى مَلك أشُّورَ إلَى نَهْر الفُرَات. فَصَعدَ المَلكُ يُوشيًّا للقَائه، فَقَتَلَهُ في مَجدُّو حينَ رَآهُ.] (سفْر المُلُوك الثّاني 23/ 29). يُضيف سفْر أخبار الأيَّام الثّاني بعض التّفصيل؛ إذْ يُحوِّل قصَّة موت "يُوشيًّا" إلى مأساةٍ في ساحة معركة:

[[20 بَعْدَ كُلِّ هَذَا حينَ هَيَّأ يُوشيًّا البَيْتَ صَعدَ نَخُو مَلكُ مصرَ إلَى كَرْكَميشَ؛ ليُحَاربَ عنْدَ الفُرَات. فَخَرَجَ يُوشيًّا للقَائه. 21 فَأرْسَلَ إلَيْه رُسُلاً يَقُولُ: [مَا لي وَلَكَ يَا مَلكَ يهُوذا! لَسْتُ عَلَيْكَ أنْتَ اليَوْمَ، وَلكنْ؛ عَلَى بَيْتِ آخَرَ أُحَاربُهُ، وَاللّهُ أمَرَ بإسْرَاعي. فَكُفَّ عَن اللّه الذي مَعي فَلاَ يُهْلكَكَ]. 22 وَلَمْ يُحَوِّلْ يُوشيًّا وَجْهَهُ عَنْهُ، بَلْ تَنَكَّرَ لمُقَاتَلَته، وَلَمْ يَسْمَعْ لكَلاَم نَخُو منْ فَم

اللّه، بَلْ جَاءَ لِيُحَارِبَ في بُقْعَة مَجدُّو. 23 وَأَصَابَ الرُّمَاةُ الْمَلِكَ يُوشِيًّا، فَقَالَ الْمَلِكُ لِعَبِيده: [انْقُلُوني لأَنِّي جُرِحْتُ جِداً]. 24 فَنَقَلَهُ عَبِيدُهُ مِنَ الْمَرْكَبَة، وَأَرْكَبُوهُ عَلَى الْمَرْكَبَة الثَّانِيَة التي لَهُ، وَسَارُوا به إِلَى أُورشليم، فَمَاتَ، وَدُفِنَ في قُبُور آبَائه.]] (سفر أخبار الأيَّام الثَّاني 35/ 20 ـ 24).

أيٌّ من هـذه الرّوايات هُو الأكثر دقَّةً؟ ماذا تقول بشأن نجاح أو إخفاقات إصلاحات "يُوشيًّا"؟ وما أهمِّيَّة أحداث "مَجدُّو" في تطوُّر عقيدة الكتاب المُقدَّس العبْري؟ تكمن الإجابة ـ مرَّةً ثانيةً ـ في الوَضْع السّياسي الذي تكشَّف في المنطقة. لقد واصلت قُوَّة الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة في التّضاؤل، وهدَّدت الضُّغُوطات البابليَّة المُستمرَّة المُوجَّهة ضدَّ قلب الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة التي كانت في حالة الاحتضار بقلب الموازين في العالم القديم، وتعريض المصالح المصريَّة في آسيا للخطر. لذا؛ قرَّرت مصر التَّدخُّل إلى جانب الآشُوريِّيْن، وفي عام 616، تحرَّك جيشها نحو الشّمال، ولكنَّ هـذه الحَركَة لم تَحُلْ دُون انهيار الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة. وَسَقَطَتْ العاصمة الآشُوريَّة الكبيرة "نِيْنَوى" عام 612، وَهَرَبَتْ العائلة المالكة الآشُوريَّة إلى "حاران" في الغرب، وهُو حَدَثٌ سَجَّله النّبي "صَفَنْيا" (2/ 13 ـ 15). بعد سَنَتَيْن، عندما مات "بَسْنَاتيك" سنة 610، وَخَلَفَهُ ابنه "نَكَا" (أو نَخَاو) على العرش، أُجبرَت القُوَّات المصريَّة في الشّمال على الانسحاب، واستولى البابليُّون على "حاران". في السّنة التّالية، قرَّر "نَكَا" (أو نخاو) التَّحرُّكَ، وانطلق نحو الشّمال.

فضَّل العديد من المُؤرِّخين التّوراتيِّيْن رواية سفر أخبار الأيَّام الثّاني، التي تصف وُقُوعَ معركةٍ حقيقيَّةٍ بَيْن "نَكَا" (أو نخاو) و"يُوشيًّا" في "مَجدُّو" سنة 609. طبقاً لرأيهم، تَوَسَّع "يُوشيًّا" إلى كامل أراضي ريف المُرتفعات والتّلال في المَمْلَكَة الشّماليَّة السّابقة، أيْ، ضَمَّ مُحافظة السّامرة الآشُوريَّة السّابقَة، ثُمَّ وسَّع حُكْمَهُ أَبْعَد نحو الشّمال إلى "مَجدُّو"؛ حيثُ بنى حصْناً عظيماً على شرق التَّلِّ، وَجَعَلَ "مَجدُّو" مخفراً أماميَّاً استراتيجيَّاً شماليَّاً للدّولة اليَهُوَذَويَّة المُتنامية في حَجمها. اقترح بعض العُلماء أنَّ هَدَفَه كان تَأْييد البابليِّيْن ضدَّ الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة بمَنْع تقدُّم "نَكَا" (أو نخاو) في الممرِّ الضَّيِّق الذي يُؤدِّي إلى "مَجدُّو". وقد جادل البعض حتَّى بأنَّ المقطع في سفر أخبار الأيَّام الثّاني 34/ 6 كان موثوقاً، وأنَّ "يُوشيًّا" استطاع أنْ يتوسَّع ـ على نحوٍ إضافيٍّ ـ إلى الشّمال، باتِّجاه الأراضي الإسرائيليَّة السّابقة في الجليل.

رغم ذلك؛ فإنَّ الفكرة التي تقول إنَّ "يُوشيَّا" وَصَلَ إلى "مَجدُّو" بقُوَّة عسكريَّة فعَّالة لُمحاولة إيقاف "نَكا" (أو نخاو)، وَمَنَعَهُ من السَّيْر نحو الشّمال مُتكلِّفَةٌ نوعاً ما. إنَّه من المُستبعد جداً أنْ يكون لـ "يُوشيَّا" جيشٌ كبيرٌ لدرجة تكفي للمُخاطرة بالدُّخُول في معركةٍ مع المصريِّين. حتَّى حوالي 630 ق. م، كانت مَمْلَكَته ماتزال تحت الهيمنة الآشُوريَّة، ولاحقاً؛ لا يُمكن أنْ نُصدِّق أنْ يَسْمَح "بَسْناتيك"، الذي كان قوياً بما فيه الكفاية للسَّيْطَرَة على كامل ساحل شرقي البحر الأبيض المُتوسِّط حتَّى فينيقيَة، أنْ يسمح ليهُوذا بتطوير قُوَّة عَسكريَّةٍ قويَّةٍ. وعلى أيَّة حال؛ كانت ستكون مُقامَرَة عظيمة لـ "يُوشيَّا" أنْ يُخاطر بجيشه في معركة ضدَّ المصريِّين بعيداً عن وسط عالَمه. لذا؛ فإنَّ رواية سفْر المُلُوك ـ احتمالاً ـ موثوقةٌ أكثر.

قدَّم "ندَّاف نُعمان" تفسيراً مُختلفاً جداً. لقد اقترح أنَّ أحد أسباب زَحْف "نَكا" (أو نخاو) عبْر فلسطين سنة 609، بعد سنة واحدة فقط من موت "بَسْناتيك" وصُعُوده إلى عرش مصر، كان الحُصُول على قَسَمٍ جديدٍ بالولاء من تَوابعه. طبقاً للعادة؛ كان قَسَمهم السَّابق لـ "بَسْناتيك" قد أصبح لاغياً بموته. وُفْقاً لذلك، لابُدَّ أنْ يكون "يُوشيَّا"، قد استُدعيَ إلى الحصن المصري في "مَجدُّو" لُمقابلة "نَكا" (أو نخاو)، وأَدَاء يمين ولاءٍ جديدٍ. رغم ذلك؛ ولسببٍ ما، قَرَّر "نَكا" (أو نخاو) إعدامه.

ماذا فعل "يُوشيَّا" حتَّى أَغْضَبَ الملك المصري؟ إنَّ تقدُّم "يُوشيَّا" نحو الشّمال، إلى ريف مُرتفعات "السّامرة"، يُمكن أنْ يكون قد هدَّد المصالح المصريَّة في وادي "يَزْرَعيل". أو ربَّما تكون مُحاولة "يُوشيَّا" التَّوسُّع نحو الغرب، إلى ما وراء أراضيه في "شَفَلَة"، قد عَرَّض للخطر المصالح المصريَّة في "فلسْطيا". وليس أقَلَّ معقوليَّةً ما اقترحه "باروخ هالبرن" من أنَّ "نَكا" (أو نخاو) قد يكون غَضبَ من السِّياسات المُستقلَّة لـ "يُوشيَّا" في الجنوب، على طُول الطُّرُق الحسَّاسة للتِّجارة العَرَبيَّة.

ثَمَّةَ شيءٌ واحدٌ واضحٌ. لقد كان المُؤرِّخ التّثنويّ، الذي رأى في "يُوشيَّا" مسيحاً مُنتظَراً أرسلته العناية الإلهيَّة لإعادة مجد "يهُوذا" وقيادتها نحو الفخر، مُرتبكاً جداً في تفسير كيف أَمْكَنَ لمثل هذه الكارثة التّاريخيَّة أنْ تقع، لذا؛ ترك مُجرَّد إشارة مُبهَمة ومُقتَضبة على موت "يُوشيَّا". لقد تَبخَّرت أحلام هذا الملك والمسيح المُنْتَظَر بكُلِّ قسوة على تلِّ "مَجدُّو". وهكذا

بَيْن عشيَّةٍ وضُحاها، انهارت عشرات السّنين من الإحيَاء الرُّوحي والآمال التَّنَبُّئِيَّة. لقد أصبح "يُوشيًّا" في عداد الموتى، وعاد شعب إسرائيل من جديد مُسْتَعبَداً لمصر.

آخر المُلُوك الدّاوديِّيْن:

إذا لم يكن ما حَدَثَ مُدمِّراً بما فيه الكفاية، فقد جَلَبَتْ السّنوات التّالية كوارث أعظم. بعد موت "يُوشيًّا"؛ انهارت حَرَكَة الإصلاح العظيمة على ما يبدو. المُلُوك الأخيرون الأربعة ليهُوذا - ثلاثة منهم أبناء "يُوشيًّا" - أُدينوا - سلبيّاً - في الكتاب المُقدَّس العبْريّ، باعتبارهم فَسَقَةً مُرتدِّين. في الحقيقة؛ يصف التّاريخ التّثنوي العَقْدَيْن الأخيرَيْن من تاريخ يهُوذا بأنّهما فترة هُبُوط مُستمرّ، أدَّيا - في النّهاية - إلى دمار الدّولة اليَهُوذَويَّة.

حَكَمَ "يوآحازُ"، خليفةُ "يُوشيًّا"، الذي كان على ما يبدو مُعادياً لمصر، ثلاثةَ أشهر فقط، وَرَجعَ إلى الطُّرُق الوَثَنيَّة لمُلُوك يهُوذا السّابقين. ثُمَّ خَلَعَهُ، وَنَفَاه الفرعون "نَكا" (أو نخاو)، واستبدله بأخيه "يوياقيم"، الذي أيضاً: (عَملَ الشَّرَّ في عَيْنَي الرَّبّ)، مُضيفاً إثما آخر إلى معاصيه هُوَ فَرْضُهُ أتاوةً على شعب الأرض؛ لكي يُسلِّمها إلى الفرعون "نَكا" (أو نخاو)، سيِّده الأعلى.

هُناك توثيقٌ واضحٌ في الكتاب المُقدَّس العبْريّ (بما في ذلك الأعمال النَّبويَّة المُعاصرة)، أكَّدته مصادر من خارج الكتاب المُقدَّس، يصف النّزاع الصّاخب بَيْن القوى العُظْمَى المُتنافسة الذي حَدَثَ في السّنوات التّالية لموت "يُوشيًّا". احتفظت مصر - على ما يبدو - بسيطرتها على الأراضي الغربيَّة للإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة السّابقة، لعدَّة سنوات أُخرى؛ مُقَوِّيَةً أحلام بعث المجد الفرعوني القديم، لكنْ؛ في بلاد ما بَيْن النَّهرَيْن، نَمَتْ قُوَّة البابليِّيْن بشَكْل مُتواصل. وفي عام 605 ق. م؛ سَحَقَ وليُّ العهد البابلي - المعروف لاحقاً بـ "نبوخَذْ نصَّر" - الجيشَ المصريَّ في "كَرْكَميش" في سُوريا (حَدَثٌ سُجل في سفْر إرميا 46/ 2)، مُجبراً الجيش المصري على الهُرُوب مذعوراً نحو النّيل. بتلك الهزيمة؛ انحلّت الإمبراطُوريَّة الآشُوريَّة، وانقرضت نهائيّاً إلى غير رجعة، وسعى "نبوخَذْ نصَّر"، الذي كان قد أصبح - الآن - ملك بابل، إلى السَّيْطَرَة الكاملة على كُلِّ الأراضي التي باتِّجاه الغرب.

سُرعان ما زحفت القُوَّات البابليَّة أسفل السّهل السّاحلي للبحر الأبيض المُتوسِّط، موقعَةً الدّمار في المُدُن الفلسطينيَّة الغنيَّة. في يهُوذا، وَقَعَ الذُّعْر في قلب الحزب المُؤيِّد لمصر، والذي

كان قد استولى على الحُكْم بعد عدَّة شهُور من وفاة "يُوشيًّا"، ولم تفدهم نداءاتهم المُستميتة لـ "نَكا" (أو نخاو) لإمدادهم بالمُساعدة العسكريَّة ضدَّ البابليِّين سوى إضعافهم سياسياً في الأيَّام الفظيعة التي كانت تنتظرهم.

وهكذا بدأت الحلقة البابليَّة تضيق حول أُورشليم (القُدْس). كان البابليُّون مُصمِّمين ـ الآن ـ على نَهْب الدّولة اليَهُوذويَّة وتخريبها بالكامل. بعد الموت المُفاجئ لـ "يوياقيم"، واجه ابنه "يوياكين" قُوَّة الجيش البابلي المُرعب:

[10 في ذَلكَ الزَّمَان؛ صَعدَ عَبيدُ نَبُوخَذْنَصَّرَ مَلك بَابلَ إلَى أُورشليم، فَدَخَلَت المَدينَةُ تَحْتَ الْحصَار. 11 وَجَاءَ نَبُوخَذْنَصَّرُ مَلكُ بَابلَ عَلَى الْمَدينَة، وكَانَ عَبيدُهُ يُحَاصرُونَهَا. 12 فَخَرَجَ يَهُويَاكينُ مَلكُ يهُوذا إلَى مَلك بَابلَ هُو وأُمُّهُ وَعَبيدُهُ وَرُؤَسَاؤُهُ وَخصيَانُهُ، وَأَخَذَهُ مَلكُ بَابلَ في السَّنَة الثَّامنَة منْ مُلْكه. 13 وَأَخْرَجَ منْ هُنَاكَ جَميعَ خَزَائن بَيْت الرَّبِّ وَخَزَائن بَيْت الْمَلك، وكَسَّرَ كُلَّ آنيَة الذَّهَب التي عَملَهَا سُلَيْمَان مَلكُ إسْرَائيلَ في هَيْكَل الرَّبِّ، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ. 14 وَسَبَى كُلَّ أُورشليم وكُلَّ الرُّؤَسَاء وَجَميعَ جَبَابرَة الْبَأْس، عَشَرَةَ آلاَف مَسْبيٍّ، وَجَميعَ الصُّنَّاع وَالأَقْيَان. لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إلاَّ مَسَاكينُ شَعْب الأَرْض. 15 وَسَبَى يَهُويَاكينَ إلَى بَابلَ. وَأُمَّ المَلك وَنسَاءَ الْمَلك وَخصيَانَهُ وَأَقْويَاءَ الأَرْض سَبَاهُمْ منْ أُورشليم إلَى بَابلَ. 16 وَجَميعُ أَصْحَاب الْبَأْس، سَبْعَةُ آلاَف، وَالصُّنَّاعُ وَالأَقْيَانُ أَلْفٌ، وَجَميعُ الأَبْطَال أَهْل الْحَرْب، سَبَاهُمْ مَلكُ بَابلَ إلَى بَابلَ.] (سفْر المُلُوك الثَّاني 24/ 10 ـ 16).

وَقَعَتْ تلك الأحداث سنة 597 ق. م، وتمَّ توثيقها ـ أيضاً ـ في السِّجلاَّت البابليَّة:

في السَّنة السَّابعة، في شهر كيسليف Kislev، حشد ملك أكَّاد قُوَّاته، وسار إلى أرض حَتِّي، وَعَسْكَرَ ضدَّ مدينة يهُوذا، وفي اليوم الثَّاني من شهر آذار؛ استولى على المدينة، وأسر الملك. عيَّن هُناك ملكاً من اختياره الخاصِّ، وأخذ جزية باهظة ثقيلة، عاد بها إلى بابل.

نُفيَت طبقة النُّبلاء والكَهَنَة في أُورشليم (القُدْس) ـ الذين احترقت بَيْنهم العقيدة التَّنويَّة بشَكْل مُؤثِّر ـ ليتركوا وراءهم صراعات مُتزايدة بَيْن أحزاب بيت داود المَلكي وأعضاء البلاط الذين وقعوا في حَيْرَة من أمرهم، ولم يكن لديهم فكرة واضحة عمَّا يُمكنهم أنْ يفعلوه.

لكنْ؛ تلك كانت الخُطوة الأُولى ـ فقط ـ في تفكيك يـهُوذا القَـهْريّ. استَـبْدَل "نبوخَذْنصَّر" فوراً "يوياكين" المَنْفيّ بعمِّه "صدْقيَّا"، الذي كان ـ على ما يبدو ـ تابعاً أكثر انقيـاداً، لكـنَّ ذلـك كـان خطأ؛ لأنَّه بعد سنوات قليلة، خطَّط "صدْقـيَّا" بالاتِّفاق مع مُلُوك الجوار، للثورة ثانيـةً، ومثْـلُ شخصيَّة في مسرحيَّة إغريقيَّة تراجيديَّة، حكَمَ على نفسه وعلى مدينته بالهلاك. عام 587 ق. م، وَصَلَ "نبوخَذْنصَّر" بجيشه الهائل، وحاصر أُورشليم (القُدْس). كانت تلك بداية النّهاية.

وأخذت القُوَّات البابليَّة تعيث فساداً في الرّيف، وأخذت المُدُن البعيدة ليهُوذا تسقط الواحدة تلْو الأُخرى. لقد جاءت أدلَّة آثاريَّة واضحة على سنوات المَمْلَكَة الجنوبيَّة الأخيرة، من كُلّ موقعٍ تقريباً، نُقِّب فـي يهُوذا يعـود للعـهد المَلكي المُتـأخِّر: في وادي بئر سبع، وفـي "شَفلة"، وفي المُرتفعات اليَهْوَذويَّة. في قلعة أراد، مركزُ تحكُّم يهُوذا وعمليَّاتها العسـكريَّة فـي الجنوب، وُجدَت، في أنقاض الدّمار، مجموعةُ رقائق فخَّاريَّة مكتوب عليها، أو قطـع خـزف مكتوبة، دوِّنت عليها أوامـر مسعورة بتحريك القُـوَّات ونقـل التّموينـات الغذائيَّـة. فـي مدينـة "لَخيـش" في منطقة "شَفلة" وُجدَت في أنقاض البوَّابة الأخيرة للمدينة، رقائق فخَّاريَّـة مكتوبـة تُقَدِّمُ لمحةً مُحزنةً إلى اللحظات الأخيرة لاستقلال يهُوذا عندما كانت إشارات النّار مـن البلـدات المُجاورة تتبدَّد، واحداً بعدَ الآخر. من المُحتمل أنَّها كُتبَت إلى قائد "لَخيـش" مـن مخفرٍ أماميٍّ قريبٍ، فهي تكشف إحساساً وشيكاً بالموت:

وقُلْ لسـيِّدي يعـرف بأنَّنـا نـترقَّب إشـارات "لَخيـش" طبقـاً لكُـلِّ الإشـارات التـي أعطاهـا سيِّدي. لأنَّنا لا نرى "عَزيقَة"...

هـذا التّقريـر المُتجـهِّم يُؤكِّده وَصْـفٌ جـاء فـي سفْر إرميـا (34/ 7)، ذكـر بـأنَّ "لَخيــش" و"عَزيقَة" كانتا ـ في الحقيقة ـ آخر مدينتَيْن في يهُوذا استطاعتا الصُّمُود أمام الهُجُوم البابلي.

أخيراً؛ كان كُلُّ ما تبقَّى هُو أُورشليم (القُدْس) فقط. إنَّ وَصْفَ الكتاب المُقـدَّس العبْريّ لساعاتها الأخيرة مُروِّعٌ حقّاً:

[3 في تَاسع الشَّهْر؛ اشتَدَّ الجُوعُ في المَدينَة، ولَـمْ يكُـنْ خُبْزٌ لشَعْب الأرْض. 4 فَثُـغرَت المَدينَةُ، وَهَرَبَ جَميعُ رجَال القتَال ليْلاً منْ طريق البَاب بيْنَ السُّورَيْن اللّذَيْن نَحْـوَ جَنَّـة المَلـك. وكَانَ الكلْدَانيُّونَ حَوْلَ المَدينَة مُستَديرينَ. فَذَهَبُوا في طَريق البَرِّيَّة. 5 فَتَبعَتْ جيُـوشُ الكلْدَانيِّيـن

الْمَلِكَ، فَأَدْرَكُوهُ في بَرِّيَّةِ أَرِيحَا، وَتَفَرَّقَتْ جَمِيعُ جُيُوشه عَنْهُ. 6 فَأَخَذُوا الْمَلِكَ، وَأَصْعَدُوهُ إِلَى مَلك بَابلَ إِلَى رِبْلَةَ، وكَلَّمُوهُ بالْقَضَاء عَلَيْه. 7 وَقَتَلُوا بَني صدْقيَّا أَمَامَ عَيْنَيْه، وَقَلَعُوا عَيْنَيْ صدْقيَّا، وَقَيَّدُوهُ بسلْسلَتَيْن منْ نُحَاسٍ، وَجَاءوا به إِلَى بَابلَ.] (سفر الْمُلُوك الثاني 25/ 3 ـ 7).

وَوَقَعَ المشهد الأخير في تلك المأساة بعد حوالي شهر:

[8 وَفي الشَّهْر الْخَامس، في سَابع الشَّهْر، وَهيَ السَّنَةُ التَّاسعَةَ عَشَرَةَ للْمَلك نَبُوخَذْنَصَّرَ مَلك بَابلَ، جَاءَ نَبُوزَرَادَانُ رَئيسُ الشُّرَط عَبْدُ مَلك بَابلَ إِلَى أُورشليم، 9 وَأَحْرَقَ بَيْتَ الرَّبِّ وَبَيْتَ الْمَلك. وكُلَّ بُيُوت أُورشليم وكُلَّ بُيُوت الْعُظَمَاء أَحْرَقَهَا بالنَّار، 10 وَجَميعُ أَسْوَار أُورشليم مُسْتَديراً هَدَمَهَا كُلُّ جُيُوش الْكَلْدَانيِّينَ الذينَ مَعَ رَئيس الشُّرَط. 11 وَبَقيَّةُ الشَّعْب الذينَ بَقُوا في الْمَدينَة وَالْهَاربُونَ الذينَ هَرَبُوا إِلَى مَلك بَابلَ وَبَقيَّةُ الْجُمْهُور سَبَاهُمْ نَبُوزَرَادَانُ رَئيسُ الشُّرَط.] (أيْ ساقهم إلى حياة النَّفْي) (سفر الْمُلُوك الثاني 25/ 8 ـ 11).

تنقل الاكتشافات الأثريَّة اللَّحظات المُروِّعة الأخيرة للعُنْف فقط. لقد تمَّ العُثُور على علامات تدلُّ على حريقٍ عظيمٍ في كُلِّ مكانٍ تقريباً داخل أسوار المدينة. تشهد الأنصال التي اكْتُشفَتْ في البُيُوت وقُرْب التّحصينات الشّماليَّة على كثافة المعركة الأخيرة للقُدْس. البُيُوت الخاصَّة، التي أُحْرقَت بالنّيران، وانهارت، ودَفَنَتْ كُلَّ مَنْ كان فيها، خَلَقَتْ أكواماً مُفحَّمةً من الأنقاض التي وَقَفَتْ شاهداً على عُمْق وشُمُول دمار أُورشليم (القُدْس) منْ قبَل البابليِّين، الذي بقي لمُدَّة قرنٍ ونصفٍ تالٍ. (نحميا 2/ 13)[1].

وهكذا انتهى كُلُّ شيء. انتهت أربعمئة سنة من تاريخ يهُوذا بالنَّار والدّم. دُمِّرَت مَمْلَكَة يهُوذا الفخورة تدميراً كاملاً، وخُرِّب اقتصادها، ومُزِّقَ مُجتمعها إرباً إرباً. وعُذِّب الملكُ الأخير، من السُّلالة التي حكَمَت عدَّة قُرُون، وسُجن في بابل. وقُتلَ جميع أبنائه. ودُمِّر هيكل (معبد) أُورشليم (القُدْس)، المكان الشَّرْعي الوحيد لعبادة يَهْوَه.

كان ينبغي لدين شعب إسرائيل ووُجُوده القومي أنْ ينتهيا بتلك الكارثة العظيمة؛ لكنَّ كلَيْهما بقي واستمرَّ ـ بنَحْوٍ مُعجز ـ في الحياة.

---

(1) نصُّ العبارة كما في سفر نحميا في الكتاب المُقدَّس: [13 وَخَرَجْتُ منْ بَاب الْوَادي لَيْلاً أَمَامَ عَيْن التِّنِّين إِلَى بَاب الدِّمْن وَصرْتُ أَتَفَرَّسُ في أَسْوَار أُورُشَليمَ الْمُنْهَدمَة وَأَبْوَابهَا الَّتي أَكَلَتْهَا النَّارُ.] (نحميا: 2/ 13).

الفَصْل (12):

النَّفْي والعَوْدَةُ (586 ـ 440 ق.م)

إذا أردْنا أنْ نَفْهمَ القصَّة الكاملَة لإسرائيل القديمة، وكيف صُنع التّاريخ التّوراتي، فلا يُمكننا التّوَقُّف عند موت "يُوشيًا"، ولا عند دمار أُورشليم (القُدْس) والهيكل (المعبد) وسُقُوط السُّلالة الدّاوديَّة، بل من الضّروري أنْ نقوم بدراسة ما حَدثَ في يهُوذا في العُقُود التّالية للغزو البابلي، وبمَسْح التَّطوُّرات التي حَدثَت بَيْن المَنْفيِّين في بابل، وبإعادة رواية الأحداث التي حَدثَت في أُورشليم (القُدْس) في فترة ما بَعْدَ النَّفْي. في هذه الأزْمنَة والأمْكنَة، تعرَّضَتْ نُصُوص أسفار التّوراة وأسفار التّاريخ التّثنوي إلى إضافاتٍ وتنقيحات بعيدة المدى، حتَّى وَصَلَتْ إلى ما يُشكِّل ـ جوهرياً ـ شكلَها النّهائي. في أثناء ذلك؛ طوَّرَ شعب إسرائيلُ أنماطاً جديدةً منَ التّنظيم والعبادة العُمُوميَّة في بابل وأُورشليم (القُدْس) أثناء القرنَيْن السّادس والخامس ق.م، التي شكَّلت أساس الهيكل الثّاني في أُورشليم (القُدْس)، وبالتّالي؛ أساس المسيحيَّة المُبكِّرة. وبناءً عليه؛ فإنَّ الأحداث والعمليّات التي حَدثتْ في القرن والنّصْف التّالي لغزو وفَتح مَمْلَكَة "يهُوذا" ـ طبقاً لما يُمكننا أنْ نُعيد بناءه انطلاقاً من المصادر التّاريخيَّة والشّواهد الآثاريَّة ـ ذات أهميَّة حاسمة لفَهْم كيف ظَهَر التّقليد اليهُودي ـ المسيحي.

قبل الاستْمرار بالقصَّة التّوراتيَّة يَجبُ أنْ نُسجِّلَ مُلاحظةً حول التّغيير ذي المغزى في المصادر التّوراتيَّة التي بَيْن أيدينا. التّاريخ التّثنوي، الذي رَوى تاريخ إسرائيل من نهاية التّيه في البرِّيَّة إلى الغزو البابلي لأُورشليم (القُدْس)، يَنتهي فُجأةً. وهُنا؛ يأخذ زمام القصَّة مُؤلِّفون آخرون للكتاب المُقدَّس. يروي سفْر إرْميا حالة "يهُوذا" بعد الدّمار، في حين يُزوِّدنا سفْر حزْقيَال (الذي كَتبَهُ أحد المَنفيِّين) بمعلومات عن حياة وتوقُّعات المُبْعَدين اليَهُوَذيِّين في بلاد بابل. أمَّا الأحداث التي وَقَعت لدى عودة الموجاتَ المُتعاقبةَ من المَنْفيِّين إلى أُورشليم

(القُدْس)؛ فهي مرويَّة في سفرَيْ "عَزْرا" و"نَحَمْيَا"، ومن قبَل الأنبياء "حَجَّي" و"زَكَريَّا". هُنا - أيضاً - حانت اللّحظةُ، في قصتّنا، التي يجبُ أنْ نُغيِّرَ فيها مُصطلحَنا: مَمْلَكَةُ يهُوذا تُصبح "يهُودا" - الاسم الآراميّ لتلك المُحافظة ضمن الإمبراطُوريَّة الفارسيَّة -، وشعب يهُوذا، أيْ اليَهُوْذَويِّين، سيُطلَق عليهم - من الآن فَصاعداً - اليهُوديم، أو اليهُود.

من الدّمار إلى الإحياء:

تَبْدأ مرحلة الذّروة من تاريخ إسرائيل، هذه، بمشهد الكارثة واليأس المُطلَق. أُورشليم (القُدْس) مُدَمَّرة، الهيكل (المعبد) خرابٌ، آخر المُلُوك الدّاوديِّين الحاكمين: "صدْقيَّا"، سُملَتْ عيناه، فأُعميَ، ونُفيَ، وذُبحَ جميعُ أبنائه. العديدُ من أعضاء النُّخبة اليَهُوْذَويَّة مُبْعَدُون. لقد وَصَلَتْ الأوضاع إلى أسوأ حالة، وبدا كما لو أنَّ تاريخ شعب إسرائيل وَصَلَ إلى نهاية مُرَّة، لا رجعة عنها.

ليس الأمر هكذا بالضّبط تماماً، لأنّنا نعلم من الفَصْل الختاميّ لسفْر المُلُوك الثّاني وسفْر "إرْميَا" أنَّ هُناك جُزءاً من سُكّان "يهُوذا" بقوا، ولم يُبعَدوا، بل سَمَحَت السُّلطات البابليَّة لهم بنوع من الحُكْم الذّاتي، وعيَّنت عليهم مسؤولاً اسمه "جَدَلْيَا بْنَ أخيقَامَ"، ليحكم النّاس الذين بَقوا في يهُوذا، التي أصبحت أفقر بقاع الأرض. وأصبحت "مصْفاة" - بلدة بسيطة شمال أُورشليم (القُدْس)، مركزَ إدارة "جَدَلْيَا" وملجأً ليَهُوَذَويِّين آخرين، مثل النّبي "إرْميَا"، الذي عارضَ الانتفاضة المشؤومةَ ضدَّ الدّولة البابليَّة. حاولَ "جَدَلْيَا" إقْناع شعب يهُوذا بالتّعَاوُن مَع البابليِّين وإعادة بناء حياتهم ومُسْتقبلهم، على الرّغم من دمار الهيكل ودمار مدينة أُورشليم (القُدْس). لكنْ؛ سُرعان ما اغتيلَ "جَدَلْيَا" من قبَل "إسماعيل بن نَثَنْيَا"، أحد أعضاء "العائلة المالكة" - احتمالاً - لكون "جَدَلْيَا" تعاونَ مَع البابليِّين الذين عَدُّوا أنَّهم يُشكّلون تهديداً للآمال المُستقبليَّة لآل بيت داود. وقُتل في تلك الحادثة - أيضاً - مسؤولون يَهُوَذَويُّون آخرون ومُمثلون إمبراطوريُّون بابليُّون كانوا حاضرين في "مصْفاة". وقرَّر الأفراد الباقون على قَيْد الحياة من السُّكّان المحلِّيِّين الفرار بجلدهم (خوفاً من انتقام الدّولة الكلدانيَّة)، تاركين يهُوذا التي أصبحت مُقفرة من السُّكّان عمليّاً. [فَقَامَ جَميعُ الشّعْب منَ الصّغير إلَى الْكَبير وَرُؤَسَاءُ الْجُيُوش،

وَجَاءوا إِلَى مصرَ؛ لأَنَّهُمْ خَافُوا منَ الْكَلْدَانِيِّين] (عُرفوا ـ أيضاً ـ بالبابليِّين). هَربَ النَّبيُّ إرْمِيَا مَعهم، مُنهياً ـ بذلك، ظاهراً ـ عدَّةَ قُرُون من الاحتلال الإسرائيلي للأرض الموعودَة (سفر المُلُوك الثَّاني 25/ 22 ـ 26[1]، إرْمِيَا 40/ 7 ـ 43/ 7).

يُعطي الكتاب المُقدَّس العبْريّ بضْعَة تفاصيل حول حياة المَنْفيِّين أثناء السَّنَوات الخمسين التَّالية. مصدرنا الوحيد لهذه المعلومات هُو التَّلميحاتَ غير المُباشرةَ، والغامضةَ في أغلب الأحيان، التي نجدها في التَّأليفات النَّبويَّة المُختلفة. يُخبرُنا حزْقيَال وإشَعْياء الثَّاني (الفُصُول 40 ـ 55 من سفْر إشَعْياء) أنَّ المَنْفيِّين اليَهْوَذويِّين عاشوا في العاصمة بابل وفي الرِّيف. وأسَّسَ المُبْعَدُون من الكَهَنَة والأُسرة المالكة حياةً جديدةً لأنفسهم، احتفظ فيها الملك الدَّاوديّ "يَهُويَاكين" المَنْفيّ ـ بَدَلاً من "صدْقيَّا" المُهان، والذي سُملَتْ عيناه، وأُعميَ ـ بنوعٍ من السُّلْطَة على الجالية. يبدو من إشارات مُتفرِّقة في سفْر حزْقيَال؛ أنَّ المُستوطَنات اليَهْوَذويَّة وُضعَتْ في مناطق مُتخلِّفة من المَمْلكَة البابليَّة، قُرْبَ قنَوَاتٍ حُفرَت حديثاً. وعاش حزْقيَال نفسه، الذي كان كاهُنا مَنْفياً من هيكل أُورشليم (القُدْس)، لفترةٍ، في مُستوطنة تَقَعَ على تلٍّ قديمٍ اسمه تلّ أبيب، (في العبْريَّة، تلّ أفيف؛ حزْقيَال 3/ 15).

لا تكشف النُّصُوص إلاَّ قليلاً عن طبيعة حياتهم، باستثناء أنَّ المَنْفيِّين استقرُّوا هُناك لُمدَّة طويلةٍ، مُتَّبعين نصيحة "إرْمِيَا": [5 ابْنُوا بُيُوتاً، وَاسْكُنُوا، وَاغْرِسُوا جَنَّاتٍ، وكُلُوا ثَمَرَهَا. 6 خُذُوا نسَاءً وَلِدُوا بَنينَ وَبَنَات، وَخُذُوا لبَنيكُمْ نسَاءً، وَأَعْطُوا بَنَاتكُمْ لرجَال، فَيَلدْنَ بَنينَ وَبَنَاتٍ، وَاكْثُرُوا هُنَاكَ، وَلاَ تَقلُّوا.] (إرْمِيَا 29/ 5 ـ 6)، ولكنَّ التَّاريخ يَدْخلُ بسُرعة في مُنعطفٍ مُفَاجئٍ ومُثير يجعلُ العديد من المَنْفيِّين يعودُون إلى أُورشليم (القُدْس).

---

(1) ونصُّ عبارة سفْر المُلُوك2: [[22 وَأَمَّا الشَّعْبُ الَّذي بَقيَ في أَرْض يَهُوذَا الَّذينَ أَبْقَاهُمْ نَبُوخَذْنَصَّرُ مَلكُ بَابلَ، فَوَكَّلَ عَلَيْهمْ جَدَلْيَا بْنَ أَخيقَامَ بْن شَافَانَ. 23 وَلَمَّا سَمعَ جَميعُ رُؤَسَاء الْجُيُوش هُمْ وَرجَالُهُمْ أَنَّ مَلكَ بَابلَ قَدْ وَكَّلَ جَدَلْيَا أَتَوْا إلَى جَدَلْيَا إلَى الْمصْفَاة، وَهُمْ إسْمَاعيلُ بْنُ نَثَنْيَا وَيُوحَنَانُ بْنُ قَاريحَ وَسَرَايَا بْنُ تَنْحُومَثَ النَّطُوفَاتيُّ وَيَازَنْيَا ابْنُ الْمَعْكيِّ هُمْ وَرجَالُهُمْ. 24 وَحَلَفَ جَدَلْيَا لَهُمْ وَلرجَالهمْ وَقَالَ لَهُمْ: [لاَ تَخَافُوا منْ عَبيد الْكَلْدَانيِّينَ. اسْكُنُوا الأَرْضَ وَتَعَبَّدُوا لمَلك بَابلَ فَيَكُونَ لَكُمْ خَيْرٌ]. 25 وَفي الشَّهْر السَّابع جَاءَ إسْمَاعيلُ بْنُ نَثَنْيَا بْن أَليشَمَعَ منَ النَّسْل الْمَلكيِّ وَعَشَرَةُ رجَال مَعَهُ وَضَرَبُوا جَدَلْيَا فَمَاتَ، وَأَيْضاً الْيَهُودَ وَالْكَلْدَانيِّينَ الَّذينَ مَعَهُ في الْمصْفَاة. 26 فَقَامَ جَميعُ الشَّعْب منَ الصَّغير إلَى الْكَبير وَرُؤَسَاءُ الْجُيُوش وَجَاءُوا إلَى مصْرَ، لأَنَّهُمْ خَافُوا منَ الْكَلْدَانيِّينَ.]] سفْر المُلُوك الثَّاني 25/ 22 ـ 26. (المُترجم).

تنهار الإمبراطُوريَّة البابليَّة الجديدة على أيدي الفُرْس عام 539 ق . م . . في السّنة الأُولى من عهده، يُصدر "كُورَش"، مُؤسِّس الإمبراطُوريَّة الفارسيَّة مرسوماً مَلَكيّاً يقضي بإعادة "يهُوذا" والهيكل: [هكَذَا قَالَ كُورَشُ مَلِكُ فَارِسَ: جَمِيعُ مَمَالك الأَرْض دَفَعَهَا لي الرَّبُّ إِلَهُ السَّمَاء، وهُو أَوْصَاني أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتاً في أُورشليم التي في يهُوذا. 3 مَنْ منكُمْ من كُلِّ شَعْبه ليَكُنْ إِلَهُهُ مَعَهُ، وَيَصْعَدْ إلى أُورشليم التي في يهُوذا، فَيَبْني بَيْتَ الرَّبِّ إِلَه إسْرَائيلَ. هُو الإلَهُ الذي في أُورشليم.] (عَزْرا 1/ 2 - 3).

قاد زعيمٌ للمَنْفيِّين اسمه "شيشْبَصَّر"، وُصِفَ في سفر عَزْرا 1/ 8 كـ "أمير يهُوذا"، (ممَّا يُشيرُ - احتمالاً - إلى أنَّه كان ابن الملك الدّاودي المَنْفي "يَهُويَاكين")، المجموعةَ الأُولى من العائدين إلى صهيون. وحَملوا معهم - على ما يُرْوى - ذخائر وكُنُوز الهيكل التي أخذَها "نبوخَذْنَصَّر" من أورشليم (القُدْس) قبل نصْف قرن. هُناك قائمةٌ للعائدين حسب بلدة الأصل، والعائلة، والعدد الذي تلى هُو حوالي خمسين ألف، جُمْلَةً. استقرُّوا في وَطَنهم القديم، ووضعوا الأساس للهيكل الجديد. بعد سَنَواتٍ قليلة؛ تجمَّعتْ موجةٌ أُخرى من العائدين في أورشليم (القُدْس). وقاموا - تحت قيادة "يشُوع بن يُوصَادَاقَ"، وشخصٌ آخرُ يبدو أنَّه حفيدٌ ليَهُوياكين، اسمه "زَرُبَّابل" - ببناء مذبحٍ، واحتفلوا بعيد الخيام. وبدؤوا بإعادة بناء الهيكل في مشهدٍ مُؤثِّر:

[. . وكُلُّ الشَّعْب هَتَفُوا هُتَافاً عَظيماً بالتَّسْبيح للرَّبِّ لأَجْل تَأْسيس بَيْت الرَّبِّ. 12 وكَثيرُونَ منَ الْكَهَنَة وَاللاَّويِّين وَرُؤُوس الآبَاء الشُّيُوخ الذينَ رَأَوُا الْبَيْتَ الأَوَّلَ بَكَوا بصَوْتٍ عَظيمٍ عنْدَ تَأْسيس هَذَا الْبَيْت أَمَامَ أَعْيُنهمْ. وكَثيرُونَ كَانُوا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بالْهُتَاف بفَرَحٍ. 13 وَلَمْ يَكُن الشَّعْبُ يُمَيِّزُ هُتَافَ الْفَرَح من صَوْت بُكَاء الشَّعْب؛ لأَنَّ الشَّعْبَ كَانَ يَهْتفُ هُتَافاً عَظيماً حتَّى أَنَّ الصَّوْتَ سُمعَ من بُعْدٍ.] (عَزْرا 3/ 11 - 13).

ولَمَّا سَمعَ شعب السَّامرة - سواء المُواطنُون الأصليُّون السَّابقون للمَمْلَكَة الشَّماليَّة أو المُوَطَّنون المُبْعَدُون من ديارهم الذين جَلَبَهُم الآشُوريُّون إلى هُناك - عن بَدْء بناء هيكلٍ ثانٍ، جاؤوا إلى "زَرُبَّابل"، وطَلبوا الانْضمامَ إلى العمل، لكنَّ "يشُوع" الكاهن و"زَرُبَّابل" طردا

الشّماليّين قائلين لهم بصراحة: [لَيْسَ لَكُمْ وَلَنَا أَنْ نَبْنِيَ بَيْتاً لإِلَهِنَا، وَلَكِنَّنَا نَحْنُ وَحْدَنَا نَبْني للرَّبِّ إِلَهِ إِسْرَائِيلَ] (عَزْرا 4/ 3). إنَّ الفئة التي حافظت على نفسها في المَنْفى أصبحت تعتقد - الآن - أنّها تملك الحقَّ الإلهي بتحديد صفة الأرثُوذُوكسيَّة اليَهُوَذَويَّة.

قام "شعب الأرض"، مُستائين ممّا يحدث، بإعاقة العمل، بل حتّى كَتَبوا إلى ملك فَارس، يَتَّهِمُون اليهُود بإعادة بناء تلك المدينة "العاصية والشِّرِّيرة"، ويَتوقَّعُون: [بِأَنَّه إِذَا بُنِيَتْ هَذِه الْمَدِينَةُ، وَأُكْمِلَتْ أَسْوَارُهَا لاَ يُؤَدُّونَ جِزْيَةً وَلاَ خَرَاجاً وَلاَ خِفَارَةً، فَأَخِيراً تَضُرُّ الْمُلُوك]، وأنَّ الدَّخْل المَلَكي سَيَكُونُ ضعيفاً. وأنْتَ بعد ذلك: [لاَ يَكُونُ لَكَ عِنْدَ ذَلِكَ نَصِيبٌ فِي عَبْرِ النَّهْرِ] (عَزْرا 4/ 12 - 16)[1]. ولدى استلامه لهذه الرّسالة؛ أمر ملك فَارس بالتّوقُّف عن بناء أُورشليم (القُدْس).

لكنَّ "زَرُبَّابل" و"يشُوع" واصلا العملَ على الرّغم من ذلك. وعندما علم الحاكم الفارسي للمُحافظة بذلك، وجاءَ لتَفتيش الموقع، طَلَبَ أَنْ يَعْرِفَ مَنْ سَمَحَ بِبَدْء إعادة البناء. فأُحيلَ إلى المرسوم الأصلي لكورَش. طبقاً لكتاب عَزْرا، كَتَبَ الحاكم - عندئذٍ - إلى الملك الجديد، داريوس، طالباً منه قراراً مَلَكيّاً بهذا الشّأن. لم يأمر داريوس بالسّماح بمُواصلة عمل البناء فحسب، بل أمر - أيضاً - بدَفْع كُلِّ تكاليف إعادة الإعمار من دَخْل الدّولة، وبتجهيز الهيكل بالحَيَوانات لأجل التّضحية، وبمُعَاقَبَة مَنْ يُحاولُ مَنْعَ تطبيق المرسوم المَلَكي. وأُنْهي بناء المعبد سَنَة 516 ق. م.. وهكذا بَدأ عصرَ يهُوديَّة الهيكل الثّاني.

مرّتْ فترةُ نصْف قرنٍ آخر غير واضحة المعالم حتّى جاء الكاتب "عَزْرا"، من عائلة الكاهن الرّئيسي هارون، إلى أُورشليم (القُدْس)، من بلاد بابل (من المُحتمل سنة 458

---

(1) ونص عبارة الكتاب المُقدَّس العبْريّ: [12 لِيُعْلَمِ الْمَلِكُ أَنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ صَعِدُوا مِنْ عِنْدِكَ إِلَيْنَا قَدْ أَتَوْا إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيَبْنُونَ الْمَدِينَةَ الْعَاصِيَةَ الرَّدِيئَةَ وَقَدْ أَكْمَلُوا أَسْوَارَهَا وَرَمَّمُوا أُسُسَهَا. 13 لِيَكُنِ الآنَ مَعْلُوماً لَدَى الْمَلِكِ أَنَّهُ إِذَا بُنِيَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ وَأُكْمِلَتْ أَسْوَارُهَا لاَ يُؤَدُّونَ جِزْيَةً وَلاَ خَرَاجاً وَلاَ خِفَارَةً فَأَخِيراً تَضُرُّ الْمُلُوكَ. 14 وَالآنَ بِمَا إِنَّنَا نَأْكُلُ مِلْحَ دَارِ الْمَلِكِ وَلاَ يَلِيقُ بِنَا أَنْ نَرَى ضَرَرَ الْمَلِكِ لِذَلِكَ أَرْسَلْنَا فَأَعْلَمْنَا الْمَلِكَ 15 لِيُفَتَّشْ فِي سِفْرِ أَخْبَارِ آبَائِكَ فَتَجِدَ فِي سِفْرِ الأَخْبَارِ وَتَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الْمَدِينَةَ مَدِينَةٌ عَاصِيَةٌ وَمُضِرَّةٌ لِلْمُلُوكِ وَالْبِلاَدِ وَقَدْ عَمِلُوا عِصْيَاناً فِي وَسَطِهَا مُنْذُ الأَيَّامِ الْقَدِيمَةِ لِذَلِكَ أُخْرِبَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ. 16 وَنَحْنُ نُعْلِمُ الْمَلِكَ أَنَّهُ إِذَا بُنِيَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ وَأُكْمِلَتْ أَسْوَارُهَا لاَ يَكُونُ لَكَ عِنْدَ ذَلِكَ نَصِيبٌ فِي عَبْرِ النَّهْرِ]. (عَزْرا 4/ 12 - 16). (المُترجم).

ق . م) . [وهُو كَاتبٌ مَاهرٌ في شَريعَة مُوسى التي أعْطَاهَا الـرَّبُّ إلَـهُ إسْـرَائيلَ . وَأَعْطَاهُ الْمَلكُ حَسَبَ يَد الرَّبِّ إلَهه عَلَيْـه كُـلَّ سُؤْله] (عَزْرا 7/ 6 و10) . أُرسـلَ عَـزْرا للقيـام بتحقيـق "حـول يهُوذا والقُدْس" من قبل "أَرْتَحْشَـسْتَا" ملك بـلاد فـارس ، الـذي خوَّلَـه أنْ يـأخذَ مَعه مجموعةً إضافيَّةً منَ المَنْفيِّين اليـهُود مـن بـابل ممَّنْ يرغـب بـالعودة إلى هُنـاك . وزوَّدَ ملـكُ فـارس عَـزْرا بالأموال وبسُلْطَةٍ قضائيَّة . لدى وُصُوله إلى أُورشليم (القُدْس) مع آخـر موجـةٍ مـن العـائدين ، صُدمَ عَزْرا باكتشافه أنَّ شعب إسرائيل ـ بمَنْ في ذلك الكَهَنَة واللاَّويُّويـن ـ لَـمْ يَفْصلـوا أنفسـهم عن مُوبقات وفواحش جيرانهم . كما تَزوَّجوا واختلطوا بحُرِّيَّة مَع شُعُوب الأرض .

أمرَ "عَـزْرا" كُلَّ العائدين للتَّجَمُّع فوراً في أُورشليم (القُدْس) :

[9 فَاجْتَمَعَ كُلُّ رجَال يهُوذا وَبَنْيَامينَ إلَى أُورشليم . . وَجَلَـسَ جَميعُ الشَّعْب في سَاحَة بَيْت اللَّه مُرْتَعدينَ منَ الأَمْر وَمنَ الأَمْطَار . 10 فَقَامَ عَزْرَا الْكَاهنُ ، وَقَالَ لَهُمْ : (إنَّكُمْ قَـدْ خُنْتُـمْ وَاتَّخَذْتُمْ نسَاءً غَريبَةً لتَزيدُوا عَلَى إثْم إسْرَائيلَ . 11 فَاعْتَرفُوا ـ الآنَ ـ للرَّبِّ إلَه آبَائكُمْ ، وَاعْمَلُوا مَرْضَاتَهُ ، وَانْفَصلُوا عَنْ شُعُوب الأَرْض وَعَن النِّسَاء الْغَريبَة) . 12 فَأَجَابَ كُلُّ الْجَمَاعَة بصَوْتٍ عَظيمٍ : (كَمَا كَلَّمْتَنَا كَذَلكَ نَعْمَلُ .) . . . . . وَفَعَلَ هَكَذَا بَنُو السَّبْي .] (عَزْرا 10/ 9 ـ 16) .

ثُـمَّ اختفـى "عَـزْرا" ـ أحـد أكـثر الشَّخصيَّات الْمؤثِّـرة فـي الأزمنـة التَّوراتيَّـة ـ مـن مسـرح الأحداث .

كَانَ البطل الآخر فـي ذلـك الوقـت : "نَحَمْـيَا" ، السَّاقي ، أو المسؤول فـي مَحْكَمَـة ملـك فارس العُلْيا . سَمعَ "نَحَمْيَا" عن الحالة السيِّئة لسُكَّان يهُوذا ، وعن ظُرُوف الإهمال الفظيـع فـي أُورشليم (القُدْس) . تأثَّر جداً لهذه الأخبار ، فَطَلَبَ من ملك فـارس "أَرْتَحْشَـسْتَا" السَّماح لـه بالذَّهاب إلى أُورشليم (القُدْس) لإعادة بناء مدينة آبائه . مَنَحَ الملـكُ "نَحَمْـيَا" السَّماحَ ، وعَيَّنَـه في منصب الحاكم . فور وُصُوله إلى أُورشليم (القُدْس) (حوالي سنة 445 ق . م) ؛ بَدأ "نَحَمْيَا" جولةَ تفتيشٍ ليليَّة في المدينة ، ثُمَّ استدعى النَّاسَ للانضمام إلى جهاد عُمُومي عظيم لإعادة بناء أسوار أُورشليم (القُدْس) ، لأجل أنْ "لا نُعاني من الخزي بعد ذلك" ، لكنْ ؛ عندما سَمع جيرانُ يهُودا ـ أيْ زُعماء السَّامرة وعَمُّون ، وعَـرَب الجنـوب ـ عـن خُطَـط "نَحَمْـيَا" لتَحصيـن أُورشـليم

(القُدْس)، اتَّهموا اليهُود بالتّخطيط لانتفاضة ضدّ السُّلطات الفارسيَّة، وخطَّطوا لمُهَاجَمَة المدينة. إلاَّ أنَّ عمل بناء السُّور استمرَّ - مع ذلك - حتَّى الإكمال. كَانَ "نَحَمْيَا" نشيطاً - أيضاً - في تَطبيق التّشريع الاجتماعي، يُدينُ أُولئك الذين يأكلون الرِّبا، ويَحُثُّ على مَنْح الأرض إلى الفُقَراء. وفي الوقت نفسه، مَنَعَ زواج اليهُودي - أيضاً - من الزّوجات الأجنبيَّات.

وَضَعَت هذه القراراتُ - التي أصدرها "عَزْرا" و"نَحَمْيَا" في أُورشليم (القُدْس) في القرن الخامس ق.م - أساسَ يهُوديَّة الهيكل الثّاني واضعةً حُدُوداً واضحةً بَيْن الشّعب اليهُودي وجيرانهم، وداعيةً إلى الالتزام الصّارم والدّقيق بالقانُون التّثنوي (أيْ بشرائع سفْر التّثنية). أدّت جُهُودهم - وجُهُود كَهَنَة وكُتَّاب يهُوديّين آخرين التي بُذِلَتْ خلال المئة وخمسين سنة من النَّفْي، والمُعاناة، والبحث عن الذّات، وإعادة التّأهيل السّياسي - إلى ولادة الكتاب المُقدَّس العبْريّ The Hebrew Bible في جوهر شكله النّهائي.

من الكارثة إلى التّصحيحيَّة التّاريخيَّة:

كانت القصَّة الدِّينيَّةُ العظيمةُ التي حُبِكَت فُصُولها إلى بعضها البعض أثناء عهد "يُوشيَّا"، والتي أخبرتْ عن قصَّة إسرائيل مُنْذُ وعد الله للآباء، ومُرُوراً بالخُرُوج الجماعي (من مصر)، ثُمَّ غزو كَنْعَان، والحُكْم المَلكي المُتَّحد، ثُمَّ الدّولتَيْن المُنقسمتَيْن، وفي النّهاية؛ اكتشاف سفْر الشّريعة في هيكل أُورشليم (القُدْس)، تأليفاً رائعاً وعاطفيَّاً استهدفَ تَوضيح لماذا تُوحي أحداث الماضي بانتصارات مُستقبليَّة، وتَبرير الحاجة للإصلاحات الدِّينيَّة لسفْر التّثنية، واستهدف - من النّاحية العَمَليَّة المحضة - دَعْم وتأييد الطُّمُوحات الإقليميَّة للأُسرة الدّاوديَّة المالكة، لكنْ؛ في اللَّحظة ذاتها التي كان "يُوشيَّا" عَلى وَشَك أَنْ يُعيد مجد يهُوذا، تمَّ القضاء على "يُوشيَّا" من قبَل فرعون. وارتدَّ وَرَثَة "يُوشيَّا" إلى عبادة الأوثان والتّفكير الضّيِّق الأُفُق. استردَّتْ مصر امتلاك السّاحل، وَوَصَلَ البابليُّون سريعاً ليضعوا حَدّاً للوُجُود الوَطَني ليهُوذا. أين كَانَ الله الذي وعد بإصلاح حال يهُوذا؟! بَيْنما كان مُمكناً لأكثر الأُمم الأُخرى في الشّرق الأدنى القديم أَنْ تَكُونَ راضيةً بقَبُول حكْم التّاريخ، وأنْ تهزَّ أكتافها غير مُبالية بما حَدَثَ، ومُلْقيةً بذلك على عاتق إله النّصر، عادَ المُحرِّرون التّالون للتّاريخ التّثنوي إلى لوحة الرَّسْم.

كانَ يُمكن لـ "يَهُويَاكين"، الملك المَنفيّ من أورشليم (القُدْس) عام 597 ق.م، وزعيم الجالية اليَهُوذَويَّة في بابل أنْ يُمثِّل أفضل أملٍ بالإحياء الأخير للسُّلالة الدّاوديَّة. لكنَّ الاعتقاد، الذي لم يكن يقبل الشَّكَّ سابقاً، بأنَّ وريثاً داوديّاً سوف يُحقِّق الوُعُود الإلهيَّة، لَمْ يَعُدْ مضموناً وموثوقاً في ضوء الكارثة التي حلَّت حديثاً. في الحقيقة؛ الحاجة المُستميتة لإعادة ترجمة الأحداث التّاريخيَّة للعُقُود السّابقة أدَّتْ إلى تَجديد التّاريخ التّثنوي الأصلي؛ لكي يُوضِّحَ كَيفَ أخفقت اللّحظةَ المُنتظَرة طويلاً لإصلاح الشّأن وإعادة العزَّة، والتي طُبِّقَت على عهد جَدّ "يَهُويَاكين": "يُوشيَّا"، في التَّحقُّق.

ميَّزَ العالم التّوراتي الأمريكي "فرانك مُور كْرُوس" Frank Moore Cross - مُنْذُ عهد بعيد - ما اعتقده بأنَّه عمليَّتا تنقيح أو تحرير تمَّتا للتّاريخ التّثنوي، تعكسان الاختلافَ في الوعي التّاريخي قَبلَ وبَعد النَّفْي. من المُفترض أنَّ النُّسخةَ السّابقةَ، المعروفةَ في الدّراسات التّوراتيَّة كَسفر التّثنية، كُتبتْ في عهد "يُوشيَّا"، وكَانتْ - كما حاولنا إثباته - مُكرَّسة - كُلِّيّاً - لدَعْم وتحقيق أهداف ذلك الملك الدِّينيَّة والسّياسيَّة. طبقاً لـ "كْرُوس" والعديد منَ العُلماء الذين تَلُوه، ينتهي التّاريخ التّثنوي الأوّل، بالمقاطع التي تصف الدّمارَ العظيمَ للأماكن العالية الوَثَنيَّة في كافَّة أنحاء البلاد والاحتفال بعيد الفصْح الوَطَني الأوّل في أورشليم (القُدْس). كَانَ ذلك الاحتفال إعادةً رمزيَّة لعيد الفصْح العظيم لموسى العيد الذي يُحيي النّجاة منَ العُبُوديَّة إلى الحُرِّيَّة تحت قيادة يَهْوَه، ويتوقَّعُ تَحريرَ يهُوذا من النّير الجديد لمصر تحت الفرعون نكا (أو نخاو). في الحقيقة؛ يُعيدُ التّاريخ التّثنوي الأصلي رواية قصَّة إسرائيل مُنْذُ الخطاب الأخير لموسى إلى غزو كَنْعَان تحت قيادة يشُوع إلى إعْطاء الشّريعة الجديدة وتجديد غزو "يُوشيَّا" للأرض المَوْعُودة. كَانَتْ قصَّة تنتهي بالإصلاح الإلهي، والنّعمة الأبديَّة.

لكنَّ الكارثةَ وَقَعَتْ. تُبيِّن أنَّ قُرُوناً من الجُهُود والآمال كانت كُلُّها دُون جدوى. استُعْبِدَت يهُوذا ثانيةً منْ قِبَل مصر، نفس مصر التي كان الإسرائيليُّون قد حُرِّرُوا منها، ثُمَّ جاءَ دمارَ أُورشليم (القُدْس)، ومَعه ضربةً لاهُوتيَّة فظيعة: الوعد غير المشروط ليَهْوَه إلى داود بحُكْم سُلالته الأبدي والمركزي في أورشليم (القُدْس) - أيْ أساس العقيدة التّثنَويَّة - لم يتحقَّق. لابُدَّ أنَّ موت "يُوشيَّا" ودمار أُورشليم (القُدْس) أحبط مُؤلِّفي التّاريخ التّثنوي،

وأوقعهم في اليأس. كَيْفَ يُمكن الحفاظ على التّاريخ المُقدّس في مثل هذا الزّمن المُظلم؟ ماذا يُمكن أنْ يَكُونُ المعنى المُحتمل لكُلّ ذلك؟

مع الزّمن، بدأت تظهر تفسيرات جديدة. طبقة النُّبلاء والنُّخبة في يهُودا - بمَنْ في ذلك - ربّما - الأشخاص ذاتهم الذين أعدّوا التّاريخ التّثنوي الأصلي - أُسكنوا في بابل البعيدة. لمّا بدأ وَقْعُ الصّدمة يخفُّ، كان هُناك حاجة - في الحقيقة - لتاريخٍ لإسرائيل، أكثرَ إلحاحاً وفوريّة. لقد فَقَدَ اليَهْوَذَويُّون في المَنْفى كُلّ شيء، بما في ذلك كُلّ ما كان غالياً في الأفكار التّثنَويَّة. فَقَدُوا بُيُوتَهُم، وقُراهم، وأرضهم، وقُبُورهم السُّلاليّة، وعاصمتهم، وهيكلهم (معبدهم)، وحتّى الاستقلال السّياسي للسُّلالة الدّاوديّة القديمة الحاكمة، التي يبلغ عمرها أربعة قُرُون. كَانَت إعادَةُ كتابة تاريخ إسرائيل أفضلَ طريقٍ للمَنْفيّين لإعادة تأكيد هُويّتهم. إنّه يُمكن أنْ يُزوّدَهم بصلةٍ تربطهم بأرض أسلافهم، بعاصمتهم المُدمّرة، بهيكلهم المحروق، بالتّاريخ العظيم لسُلالتهم الحاكمة.

لذا؛ كَانَ لابُدَّ من تجديد التّاريخ التّثنوي. وقد استندت هذه النُّسخةُ الثّانيةُ - جوهرياً - إلى الأُولى، لكنْ؛ مع هدفَيْن جديدَيْن في الذّهن: الأوّل؛ كَانَ يجب أنْ يتمَّ الإخبار بنهايةَ القصّة، من موت "يُوشيّا" إلى الدّمار والنّفي، بشكْلٍ مُقتضبٍ وسريعٍ، الثّاني؛ كان لابُدَّ من إيجاد معنى لكُلّ القصّة، يُمكن من خلاله تفسير كيف أمكن التّوفيق بَيْن وَعْد الله الأبدي وغير المشروط لداود، ودمار أُورشليم (القُدْس) والهيكل، وإنهاء حُكْم المُلُوك الدّاوديّين، بل؛ لقد كان هُناك مُشكلة لاهُوتيّة خاصّة أكبر: كيف أمكن لاستقامة "يُوشيّا" وتقواه الشّديدَيْن أنْ يكونا بلا تأثير، ويقفا عاجزين عن الحيلولة دُون تجنيب أُورشليم (القُدْس) ذلك الدّمار والغزو الدّموي العنيف؟

هكذا برز الإصدار الجديد المُتميِّز الذي عُرف عند العُلماء باسم سفْر التّثنية 2، الذي تروي آياته الختاميّة (سفْر المُلُوك الثّاني 25/ 27 - 30) إطلاق سراح "يَهُويَاكين" من السّجن في بابل سنة 560 ق. م، (و هذا يعني - بالطّبع - أنَّ تاريخ 560 ق. م، هُو أبكر تاريخ مُحتمل لتأليف النُّسخة الجديدة من سفْر التّثنية). تُشبه مُعالجة هذه النُّسخة الجديدة لسفْر التّثنية، لمَوْت

"يُوشيًّا"، ولحُكْم آخر أربعة مُلُوك داوديِّين، ودمار أُورشليم (القُدْس)، والنَّفْي، رسائل البرقيَّات في اختصارها واقتضابها (سفْر المُلُوك الثّاني 23/ 26ـ 25/ 21). إنَّ التَّغيُّرات الأكثر وُضُوحاً هي تلك التي تُوضِّح لماذا كان دمار أُورشليم (القُدْس) حتميًّاً، على الرّغم من أنَّ الآمال العظيمة التي وُضعَتْ في الملك "يُوشيًّا". لقد قام مُؤلِّف النُّسخة الثّانية من سفْر التّثنية بإقحام وإضافة شرطٍ إلى الوعد، الذي كان في النُّسخة الأُولى لسفْر التّثنية وَعْداً غير مشروط، لداود (سفْر المُلُوك الأوَّل 2/ 4، 8/ 25، 9/ 4ـ 9)، وأدخلَ إشارات تشاؤميَّة إلى حتميَّة الدّمار والنَّفْي في كافَّة أنحاء النَّصِّ السّابق (على سبيل المثال؛ سفْر المُلُوك الثّاني 20/ 17ـ 18). والأكثر أهميَّة، أنَّه أنحى باللائمة على "مَنَسَّى"، العدوّ اللّدود للحَرَكَة التّثْنَويَّة، الذي حَكمَ بَيْن الملكَيْن المُسْتَقيمَيْن "حَزَقيًّا" و"يُوشيًّا"، والذي صُوِّرَ كأكثر مُلُوك يهُوذا فُسْقاً وكُفْراً:

[10 وَقَالَ الرَّبُّ عَنْ يَد عَبيده الأَنْبيَاء: 11 (من أَجْل أَنَّ مَنَسَّى مَلكَ يهُوذا قَدْ عَملَ هَذه الأَرْجَاسَ، وَأَسَاءَ أَكْثَرَ من جَميع الذي عَملَهُ الأَمُوريُّونَ الذينَ قَبْلَهُ، وَجَعَلَ ـ أَيْضاً ـ يهُوذا يُخْطئُ بأَصْنَامه، 12 لذَلكَ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إلَهُ إسْرَائيلَ: هَتَنَذَا جَالبٌ شَرّاً عَلَى أُورشليم وَيهُوذا، حتَّى أَنَّ كُلَّ مَنْ يَسْمَعُ به تَطنُّ أُذُنَاهُ، 13 وَأَمُدُّ عَلَى أُورشليم خَيْطَ السّامرَة وَمطْمَارَ بَيْت أَخْآبَ، وَأَمْسَحُ أُورشليم كَمَا يَمْسَحُ وَاحدٌ الصَّحْنَ. يَمْسَحُهُ وَيَقْلبُهُ عَلَى وَجْهه. 14 وَأَرْفُضُ بَقيَّةَ ميرَاثي، وَأَدْفَعُهُمْ إلَى أَيْدي أَعْدَائهمْ، فَيَكُونُونَ غَنيمَةً وَنَهْباً لجَميع أَعْدَائهمْ، 15 لأَنَّهُمْ عَملُوا الشَّرَّ في عَيْنَيَّ، وَصَارُوا يُغيظُونَني منَ اليَوْم الذي فيه خَرَجَ آبَاؤُهُمْ من مصْرَ إلَى هَذَا اليَوْم).] (سفْر المُلُوك الثّاني 21/ 10ـ 15).

بالإضافة إلى ذلك؛ تطرح النُّسخة الجديدة لسفْر التّثنية تبدُّلاً لاهُوتيّاً شديداً. لقد وُصفَتْ استقامة "يُوشيًّا" أنَّها أفادت في تأخير الدّمار الحتمي لأُورشليم (القُدْس)، بَدَلاً من جَلْب الصّلاح الأخير والنّهائي لإسرائيل. وُضعَتْ نُبُوءةٌ نبويَّةٌ مُخيفةٌ على فَم "خَلْدَة"، النَّبيَّة، التي بَعثَ إليها "يُوشيًّا" بعض خَدَمه للاسْتفْسَار:

[18 وَأَمَّا مَلكُ يهُوذا الذي أَرْسَلَكُمْ لتَسْأَلُوا الرَّبَّ فَهكَذَا تَقُولُونَ لَهُ: هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إلَهُ إسْرَائيلَ من جهَة الكَلاَم الذي سَمعْتَ: 19 من أَجْل أَنَّهُ قَدْ رَقَّ قَلْبُكَ وَتَوَاضَعْتَ أَمَامَ الرَّبِّ حينَ سَمعْتَ مَا تَكَلَّمْتُ به عَلَى هَذَا المَوْضع وَعَلَى سُكَّانه أَنَّهُمْ يَصيرُونَ دَهَشاً وَلَعْنَةً، وَمَزَّقْتَ

ثِيَابَكَ وَبَكَيْتَ أَمَامِي. قَدْ سَمِعْتُ أَنَا - أَيْضاً - يَقُولُ الرَّبُّ. 20 لِذَلِكَ هَئَنَذَا أَضُمُّكَ إِلَى آبَائِكَ، فَتُضَمُّ إِلَى قَبْرِكَ بِسَلاَمٍ، وَلاَ تَرَى عَيْنَاكَ كُلَّ الشَّرِّ الذي أَنَا جَالِبُهُ عَلَى هَذَا الْمَوْضِعِ.] (سفر المُلُوك الثّاني 22/ 18 - 20).

إنَّ استقامةَ وصلاحَ ملكٍ داوديٍّ واحد لم تعد كافية لضمان قَدَرِ إسرائيل. لقد كان "يُوشيّا" تقيّاً، ولذلك أنقذه الله من رُؤية سُقُوط أُورشليم القُدْس، ولكنَّ استقامة كُلِّ الشّعب - الذي بيَّن سفر التّثنية حُقُوقَهُ الفَرْديَّة وواجباته - أصبحت - الآن - هي العامل الحاسم في مُستقبل شعب إسرائيل. وهكذا ربَطَ سفر التّثنية - الذي أُعيدَتْ كتابَتُهُ بنَحْوٍ بارعٍ - تنفيذ العهد مع داود، بإنجاز شعب إسرائيل للعهد بَيْنه وبَيْن الله في سيناء[1]. وهكذا سيُصبح لإسرائيل - من الآن فصاعداً - هدف وهُويَّة حتَّى في غياب ملك.

ولكنْ؛ مع كُلِّ تلك التّبدُّلات والتّفسيرات، لم يكن باستطاعة النُّسخة الثّانية من سفر التّثنية أنْ تُنهي القصَّة بمُستقبل يائس. لذلك؛ فإنَّه أنهى تأليف الكُتُب (الأسفار) السّبعة التي تحكي تاريخ إسرائيل بسجلٍّ مُوجز لإطلاق سراح "يَهُويَاكِين" من سجن بابل:

[وَفِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ وَالثَّلاَثِينَ لِسَبْيِ يَهُويَاكِينَ مَلِك يَهُوذا، فِي الشَّهْرِ الثَّانِي عَشَرَ فِي السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ، رَفَعَ أَوِيلُ مَرُودَخُ مَلِكُ بَابِلَ فِي سَنَةِ تَمَلُّكِهِ رَأْسَ يَهُويَاكِينَ مَلِك يَهُوذا مِنَ السِّجْنِ، 28 وكَلَّمَهُ بِخَيْرٍ، وَجَعَلَ كُرْسِيَّهُ فَوْقَ كَرَاسِيِّ الْمُلُوك الذينَ مَعَهُ فِي بَابِلَ. 29 وَغَيَّرَ ثِيَابَ سِجْنِهِ. وكَانَ يَأْكُلُ دَائِماً الْخُبْزَ أَمَامَهُ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِهِ. 30 وَوَظِيفَتُهُ وَظِيفَةٌ دَائِمَةٌ تُعْطَى لَهُ مِن عِنْدِ الْمَلِكِ أَمْرُ كُلِّ يَوْمٍ بِيَوْمِهِ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِهِ.] (سفر المُلُوك الثّاني 25/ 27 - 30).

الملك الأخير من نَسَب داود، من السُّلالة التي صَنَعَتْ الصّلة مع الأرض، العاصمة والهيكل، ماتزال حيَّة. إذا التزمَ شعب إسرائيلُ بيَهْوَه، فإنَّ الوعد المُعطَى لداود يُمكن إحياؤه من جديد.

---

(1) بل هذا هو النّصُّ القويم والصّحيح، لأنَّ وُعُود الله لا يُمكن أنْ تكون مُطلقةً بلا قيد و لا شرط، وإلاَّ لكان الله - تنزَّه عن ذلك - مُحابياً لأمَّة دُون أمَّة، وبناءً عليه؛ وبما أنَّ شعب إسرائيل أخلف وعده مع الله فكذَّب أنبيائه، وقتل بعضهم، وحاول قَتْلَ آخرين، وحرَّف كتابه، وشوَّه تعاليمه، فجعلها تعاليم عُنصُريَّة لا إنسانيَّة، فلم يعد شعباً مُختاراً مُفضَّلاً، ولم يعد مُستحقّاً لتطبيق أيّ وعد من وُعُود الله القديمة، اللّهمَّ سوى الوعد بالغضب الإلهي عليه على تحريفه وتكذيبه!. (المُترجم).

أُولئك الذين بقوا:

في الأيَّام الأُولى للبحث الآثاري كان هُناك ظنٌّ بأنَّ عَمَليَّة النَّفْي كانت شاملة تقريباً، وأنَّ أغلب سُكَّان "يهُوذا" تمَّ إبعادهم. لقد اعتُقدَ أنَّ يهُوذا أُفرغَت من سُكَّانها، وتُركَ الرِّيفُ خاوياً مُقفراً. لقد قَبلَ العديد من العُلماء رواية الكتاب المُقدَّس العبْريّ بأنَّ كامل الطَّبقة العُليَة ليهُوذا - العائلة المالكة، كَهَنَة الهيكل، الوُزراء، والتُّجَّار البارزون - نُفُوا، وأنَّ الذين بَقوا في يهُوذا كَانوا طبقةَ الفلاَّحين الأشدّ فَقْراً فقط.

اليوم؛ بعد أنْ ازدادت معرفتنا كثيراً عن سُكَّان "يهُوذا"، تُبيِّن أنَّ إعادة بناء التَّاريخ هذه خاطئة. دَعْنَا - في البداية - ندرس الأعداد المذكورة. يذكر سفْر المُلُوك الثَّاني 24/ 14 أنَّ عدد المَنْفيِّين في الحَمْلَة البابليَّة الأُولى (عام 597 ق. م، في أيَّام "يَهُويَاكين") كان عشرة آلاف، في حين تذكر الآية 16 في الإصحاح نفسه أنَّ العدد ثمانية آلاف مَنْفي. وعلى الرّغم من أنَّ رواية سفْر المُلُوك لا تُزودنا بعدد دقيق للمَنْفيِّين الذين تمَّ إبعادهم من "يهُوذا" في زمن دمار أُورشليم (القُدْس) عام 586 ق. م، إلاَّ أنَّها تذكر أنَّه بعد قَتْل "جَدَلْيَا" ومذبحة الحامية البابليَّة في "مصْفاة"، هَرَبَ "كُلُّ النَّاس" إلى مصر (سفْر المُلُوك الثَّاني 25/ 26)، تاركين - افتراضاً - ريفَ يهُوذا مهجوراً ومُقفراً كُلِّياً.

هُناك تخمين مُختلف تماماً عن عدد المَنْفيِّين يُنْسَبُ إلى النَّبيّ إرْمِيَا - الذي رُويَ أنَّه بَقيَ مع "جَدَلْيَا" في "مصْفاة" حتَّى هُرُوب النَّاس إلى مصر، وبالتَّالي؛ كان شاهدَ عيانٍ على الأحداث -. يروي سفْر إرْمِيَا 52/ 28 - 30 تقارير تُفيد أنَّ مجموع الإبعادات البابليَّة بَلَغَ 4600 مُبْعَداً. على الرّغم من أنَّ هذا الرَّقْم تقريبيٌّ جداً أيضاً، يعتقد أكثر العُلماء أنَّه - بشَكْل أساسي - معقولٌ؛ لأنَّ مجاميعه الفرعيَّة مُحدَّدةٌ تماماً، وهُوَ - احتمالاً - أكثر دقَّةً من الأعداد التَّقريبيَّة المذكورة في سفْر المُلُوك الثَّاني.

إلاَّ أنَّنا لا نجد لا في سفْر المُلُوك ولا في سفْر إرْمِيَا ما يُبَيِّن لنا فيما إذا كانت تلك الأرقام تُمثِّل العدد الكُلِّيّ لجميع المُبْعَدين، أو تُمثِّل عدد الرُّؤساء الذُّكُور للأُسَر (و هُوَ نظام للعَدِّ كان شائعاً جداً في العالم القديم). إذا أخذنا هذه الشُّكُوك المُتراكبة بعين الاعتبار، فأكثر ما يُمكن

أنْ نقوله ـ بنَحْو معقـول ـ أنَّنا بصـدد عـددٍ إجمـالي للمَنْفيِّيـن يتراوح بَيْن بضعـة آلاف ، وربَّمـا خمسة عشر ، أو عشرين ألفاً ، على أقصى تقدير .

إذا قارنَّا هذا العدد مع مجموع سُكَّان "يهُوذا" في أواخر القرن السَّابع ، قبل دمار أُورشليم (القُدْس) ، يُمكننا أنْ نأخذ فكرة عن حجم عمليَّات الإبعاد . يُمكن تقدير عـدد سُكَّان "يـهُوذا" بنَحْو دقيقٍ تماماً من خلال البيانات التي يتمُّ تجميعها أثناء عمليَّات البحـث والتّنقيبـات المُكثَّفـة ، بنَحْو خمسةٍ وسبعين ألفاً (تمتلك أُورشليم (القُدْس) عشرين بالمئة علـى الأقـلِّ مـن ذلـك العـدد ـ أيْ خمسة عشر ألفاً ـ مع حوالي خمسة عشر ألفاً آخرين يسكنُون ـ احتمالاً ـ المنـاطق الزّراعيَّة المُجاورة) . وعليه ؛ فحتَّى لو قُلنا بأعلى رَقْم مُمكـن لعـدد المَنْفيِّيـن (عشـرون ألفـاً) ، فإنَّـه يبـدو أنَّهم لا يشملون ـ على أقصى تقدير ـ سوى ربع سُكَّان الدّولة اليَهْوَذويَّة . وهذا يعني أنَّ حوالي خمساً وسبعين بالمئة ـ على الأقلِّ ـ من السُّكَّان بقوا في البلاد .

ماذا نعرف عن هذه الأكثريَّة الواسعة من اليَهْوَذويِّين الذين لم يذهبوا إلـى المَنْفـى؟ تقـترح إشارات مُتناثرة في نُصُوص نبويَّة ، أنَّهم استمروا في طريقـة عيشـهم الزّراعيَّة تماماً كمـا كـانوا عليه من قبلُ . كانت مدينة "مصفاة" شمال أُورشليم (القُدْس) إحدى المُدُن المُتعدِّدة التي بَقيتْ . كان هُناك تردُّدٌ على خرابات الهيكل (المعبد) في أُورشليم (القُدْس) أيضاً ؛ حيثُ تواصل هُناك نوعٌ من النّشاط العباديّ (إرْمِيَا 41/ 5) . ويجب مُلاحظة أنَّ هذه الجالية تَضمَّنـتْ ليس ـ فقـط ـ قرويِّين فُقراء ، ولكنْ ؛ أيضاً صُنَّاع ، وكُتَّاب ، وكَهَنَة ، وأنبياء . جُزء مُهمٌّ مـن التّـأليف النّبـويّ الخاصّ بذلك الزّمن ، خُصُوصاً سفْرَيْ "حَجَّي" و"زَكَرِيَّا" ، أُلِّفَ في يهُودا .

أظهَرَت التّنقيبات المُركَّزة في كافَّة أنحاء أُورشليم (القُدْس) أنَّ المدينةَ ـ في الحقيقة ـ دُمِّرَت ـ بشَكْل مُنظَّم ـ من قِبَل البابليِّين . يَبْدو أنَّ الحريقَ كان عاماً . عندما اسـتُؤْنفَ النّشاط على حافَّة مدينة داود في الفترة الفارسيَّة ، فإنَّ الضّواحـي الجديـدة على التَّـلِّ الغربي التـي ازدهـرَتْ مُنْذُ وقت "حَزَقيَّا" على الأقلِّ ، لَمْ تُسْكَن من جديد . ربَّما يُمثِّل غارٌ للدَّفْـن ، وحيـدٌ ، يعـود للقـرن السّادس ق.م ، وُجدَ غربَ المدينة ، عائلةً انتقلتْ إلى مكـان اسـتيطان قريـبٍ ، لكنَّـها واصلـتْ دَفْن موتاها في مقبرة أسلافها .

رغم ذلك؛ هُناك دليل على استمرار سَكَن النّاس شمال أُورشليم (القُدْس) وجنوبها على حدٍّ سواء. ويبدو أنَّ نوعاً من الحُكْم الذّاتي تواصل في "مصفاة" على هضبة بنيامين، حوالي ثمانية أميال شمال أُورشليم (القُدْس). ويبدو أنَّ الحاكم "جَدَلْيَا"، الذي اغتيل بعد فترة قصيرة جداً، كان ـ احتمالاً ـ مسؤولاً رفيع المُستوى في الإدارة اليَهْوَذَويَّة قبل الدّمار. هُناك عدَّة مُؤشِّرات (إرْميَا 37 / 12 ـ 13؛ 38/ 19) أنَّ المنطقة شمال أُورشليم (القُدْس) استسلمت للبابليِّين دُون قتال، والشّواهد الآثاريَّة تُؤيِّد هذه النَّظَريَّة.

أظهر البحث الأكثر شُمُولاً الذي أجراه "عُديد ليبشيتس" **Oded Lipschits** من جامعة تلّ أبيب، عن موضوع التّواجد السُّكّاني في يهُوذا في الفترة البابليَّة، أنَّ موقع "تلّ النّصبة" قُرْب رام الله الحديثة ـ والذي طابقه العُلماء على مدينة "مصْفاة" التّوراتيَّة ـ لَمْ يُدَمَّر في الحَمْلَة البابليَّة، وبأنَّه كَانَ ـ في الحقيقة ـ المُستوطنة الأكثر أهميَّة في المنطقة في القرن السّادس ق.م.. والمواقع الأُخرى شمال أُورشليم (القُدْس) مثل "بيت إيل" و"جبعون" استمرَّتْ في كونها مَسْكُونة، في العصر نفسه. في المنطقة إلى جنوب أُورشليم (القُدْس)، حول بيت لحم، يَبْدو بأنَّه كان هُناك استمراريَّة هامَّة من العصر المَلكي المُتأخِّر إلى الفترة البابليَّة. وهكذا، في كلا شمال وجنوب أُورشليم (القُدْس)، استمرَّت الحياة دُون انقطاعٍ تقريباً.

يُناقض كُلٌّ من النَّصّ والمُكتَشَفَات الآثاريَّة الفكرة القائلة بأنَّه بَيْن دمار أُورشليم (القُدْس) سنة 586 ق.م، وعودة المَنْفيِّين بعد إعلان كُورَش سنة 538 ق.م، كَانَت يهُوذا في حالة خراب كامل وغير مأهولة بالسُّكّان. ثُمَّ غيَّرتْ السَّيْطَرَة الفارسيَّة وعودة عدد مُعيَّن من المَنْفيِّين الذين كَانوا مدعومين من قبل الحُكُومة الفارسيَّة، حالةَ الاستيطان هُناك.

بَدأتْ الحياة الحَضَريَّة في أُورشليم (القُدْس) بالانتعاش، واستقرَّ العديد من العائدين في التِّلال اليَهْوَذَويَّة. تبلغ قوائم العائدين للوَطَن في "عَزْرا" / 2، و"نَحَمْيَا" / 7، خمسين ألف شخصٍ تقريباً. من غير الواضح فيما إذا كان هذا العدد الهامُّ يُمثِّل العددَ المُتراكمَ من الموجات المُتعاقبة للمَنْفيِّين الذي رَجعوا على مدار أكثر من مئة سنة، أو العدد الكُلّيّ لسُكّان مُحافظة يهُودا، بِمَنْ في ذلك أُولئك الذين بَقوا. وأيّاً كان الأمر، فقد أظهر البحثَ الآثاريَ أنَّ هذا

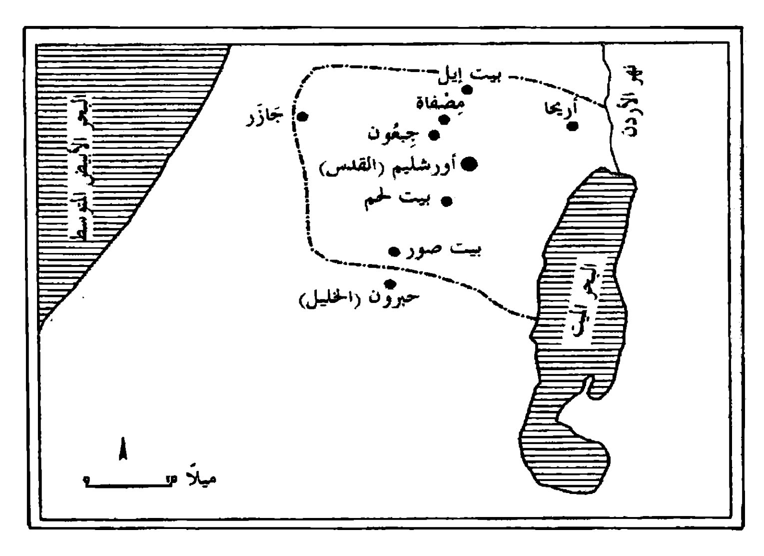
الرَّقْم مُبالغٌ به جداً. تُعطينا البيانات النَّاتجة عن مسح كُلّ مراكز الاستيطان السُّكَّاني في يهُودا في القرنَيْن الخامس والرَّابع ق. م، عدداً يُقارب الثَّلاثين ألف نسمة. (انظُرْ بالنّسبة لحُدُود دولة يهُودا المُلحق "ز" والشَّكْل 29). شَكَّلَ هذا العدد الصَّغير جالية ما بَعْدَ النَّفْي في زمن "عَزْرا" و"نَحَمْيَا"، وهي جالية ذات تأثير هامٌ جداً في تَشكيل الدّيانة اليهُوديَّة التَّالية.

من المُلُوك إلى الكَهَنَة:

من الصَّعب تصوُّر أنَّ مرسوم كُورَش الكبير بالسَّماح لمجموعةٍ من اليَهُوَذويّين المَنْفيّين بالعَودة إلى أُورشليم (القُدْس) كان دافعه العطف على الأهالي الذين بقوا في يهُوذا، أو التَّعاطف مع مُعاناة المَنْفيّين. يَجبُ - بالأحرى - أنْ يُنظَر إلى ذلك القرار كَسياسة مَحْسُوبة بشَكْل جيِّد، هَدَفَتْ لخدْمَة مصالح الإمبراطُوريَّة الفارسيَّة. لقد تسامح الفُرْس، بل روَّجوا للطَّوائف المحلّيَّة كَطَريق لضمان ولاء المجموعات المحلّيَّة للإمبراطُوريَّة الأوسع؛ وَدَعمَ كُلٌّ من "كُورَش" وابنه "قَمْبيز" بناء المعابد المحلّيَّة، وشجَّعوا عودةَ السُّكَّان المُرَحَّلين في الأماكن الأُخرى من إمبراطُوريَّتهم الواسعة. كَانتْ سياستهم تقوم على مَنْحَ حكْم ذاتي للنُّخَب المحلّيَّة المُوالية.

يتَّفق العديد من العُلماء على فكرة أنَّ مُلُوك فارس شجَّعوا صُعُود نُخبة مُوالية في يهُودا، بسبب موقع المُحافظة الإستراتيجي والحسَّاس على حُدُود مصر. وقد جُنِّدَتْ تلك النُّخبة المُوالية من الجالية اليهُوديَّة المَنْفيَّة في بلاد بابل، وكَانتْ تحت قيادة وُجهاءٍ كانوا على صلة وثيقة بالإدارة الفارسيَّة. وكَانوا - بشَكْل رئيسي - أفراداً ذوي منزلةٍ اجتماعيَّة واقتصاديَّة عاليةٍ، من العائلات التي قاومتْ الاستيعابَ، والتي كَانتْ - في الاحتمال الغالب - قريبة من الأفكار التّثْنَويَّة. ورغم أنَّ العائدين كانوا أقلّيَّة في دولة "يهُودا"، إلاَّ أنَّ منزلتهم السّياسيَّة والاجتماعيَّة الاقتصاديَّة والدِّينيَّة، وَتَركُّزهم في أُورشليم (القُدْس) وحولها، أعطاهم قُوَّة أكبر بكَثيرٍ من عددهم. كَانوا - احتمالاً - مدعومين - أيضاً - منْ قبَل النَّاس المحلّيّين، الذين كَانوا يتعاطفون مع أحكام الشّريعة التّثْنويَّة، التي كانت تُنشَر ويُدْعَى إليها مُنْذُ قرنٍ قبل ذلك. تمكَّن العائدُون - بمُساعدة مجموعة غنيَّة من التّأليفات التّاريخيَّة الأدبيَّة والأعمال النَّبويَّة وشعبيَّة الهيكل الذي سيطروا عليه - من تَأسيس سُلطتهم على سكَّان مُحافظة يهُودا. في الواقع؛ كَان الشّيء الذي حفظ لهم هذا اليوم، وَمَكَّنَهُم من التّطوير المُستقبلي للدّيانة اليهُوديَّة أنَّه (على

خلاف سياسة الآشوريّين في المَلَكَة الشّمالية قبل قَرْن من الزّمن) لم يقُم البابليُّون بإعادة توطين يهُودا المَقْهُورة بأُناس أجانب.



الشَّكْل 29 : مُحافظةَ 'يهُودا' في الفترة الفارسيَّة.

لكنْ؛ كيف اختفت السُّلالة الدّاوديَّة من المشهد فجأةً؟ لماذا لم تتمّ إعادة تأسيس الحُكْم المَلكي من جديد، بشخصيَّة من العائلة المالكة يحكم كَملك؟ طبقاً لسفر "عَزْرا"، الشّخصيَّتان الأوليَّتان اللّتان قادتَا العائدين للوَطَن كَانتا "شيشبَصَّر" و"زَرُبَّابل"، وكلاهما وُصفَ كَـ"حاكم" يهُودا (عَزْرا 5/ 14، حَجّي 1/ 1). "شيشبَصَّر"، الشّخص الذي أعادَ الكنوزَ القديمة للهيكل، والذي وَضعَ أساس الهيكل الجديد، شخصيَّة مُبهَم. وقد دُعيَ "أمير يهُودا" (عَزْرا 1/ 8)، ولذلك رَبَطَهُ العديد من العُلماء بـ"شنأصَّر" المذكور في سفر أخبار الأيَّام الأوَّل 3/ 18، الذي كَانَ أحد وَرَثَة العرش الدّاودي، ولَربَّمَا حتَّى كان ابن "يَهُويَاكين". أمَّا "زَرُبَّابل"، الذي أكملَ بناءَ الهيكل عام 516 ق. م؛ فقد جاءَ ـ أيضاً، على ما يبدو ـ من نَسَبٍ داوديٍّ، إلاَّ أنَّهُ لَمْ يعمل وحده، بل بالتّعاون مَع الكاهن يشُوع. وإنَّه لذو مغزى ودلالة هامَّة أنْ يَختفي "زَرُبَّابل" من الرّواية التّوراتيَّة

بعد إكمال بناء الهيكل. من المُحتمل أنَّ نَسَبَهُ الدّاودي حرّكَ آمالاً مسيحانيَّة في يهُودا ("حَجَّي" 2/ 20 ـ 23) ممَّا حدا بالسُّلطاتَ الفارسيَّة أنْ يستدعوه إلى طَرَفهم على خلفيَّات سياسيَّة.

من هذه النُّقطة فصاعداً، لم تَعُدْ العائلة الدّاوديَّة تلعبُ أيَّ دورٍ في تاريخ يهُودا. في الوقت نفسه، احتفظ رجال الدِّين (الكَهَنَة)، الذين ارتقوا لموقع القيادة في المَنْفى، والذين لعبوا دوراً مُهمّاً ـ أيضاً ـ بَيْن أُولئك الذين بَقوا في يهُودا، بأهميَّتهم؛ بسبب قُدرتهم على حفْظ هُويَّة الجماعة، لذا؛ أصبح شعب "يهُودا" في العُقُود التّالية، تحت قيادة نظام ثُنائي: سياسيٌّ، يُديرُه الحُكّام الذين كانت تُعيِّنهم السُّلطَة الفارسيَّة، والذين لم يكن عنْدَهُمْ اتِّصال بالعائلة الدّاودي المالكة؛ ودينيٌّ، يُديرُه الكَهَنَة (رجال الدِّين). ولفقدان المُؤسَّسة المَلَكيَّة، تحوَّل الهيكل (المعبد) إلى مركز هُويَّة شعب "يهُودا". كَانتْ هذه نُقطة التَّحوُّل الأكثر أهميَّة وحَسْماً في التّاريخ اليهُودي.

إعادة تشكيل تاريخ إسرائيل:

كَانَت إحدى الوظائف الرَّئيسيَّة للنُّخبة الكَهَنُوتيَّة في أُورشليم (القُدْس) ما بَعْدَ النَّفْي ـ علاوةً على إدارة عبادات تقديم القرابين المُجدَّدة وطُقُوس التّطهير ـ الإنتاجَ المُستمرَّ للأدب والكتاب المُقدَّس للحفاظ على وحدة الجماعة اليهُوديَّة وتماسكها، ولتحديد نُظُمها وقوانينها في مُقابل كُلِّ النّاس الغُرَبَاء الذين من حولها.

لاحظَ العُلماء لمُدَّة طويلة بأنَّ المصدر الكَهَنُوتي في التّوراة، هُو ـ في مُعظمه ـ مُدَوَّنٌ بَعْدَ النَّفْي. وهُو يتعلَّقُ ببُرُوز الكَهَنَة وعُلُوّ شأنهم في جالية الهيكل (المعبد) في أُورشليم (القُدْس). ولا يقلُّ أهميَّة عن ذلك، أنَّ التّنقيح النّهائي للتّوراة يُؤرَّخُ ـ أيضاً ـ إلى هذه الفترة، بل ذهب العالمُ التّوراتيُ ريتشارد فريدمان **Richard Friedman** أبعد من ذلك، حين اقترحَ أنَّ المُنَقِّح الذي أعطىَ الشَّكْلَ النّهائيَ لـ "شريعة مُوسى" كَانَ "عَـزْرا"، الذي يُوْصَفُ ـ بشَكْل مُحدَّد ـ كـ "كَاتب شَريعَة إلَه السَّمَاء" (عَزْرا 7/ 12).

عندما عاد كُتّاب ما بَعْدَ النَّفْي، إلى أُورشليم (القُدْس)، لم يكونوا في حاجةٍ لتوضيح سبب الدّمار البابلي لأُورشليم (القُدْس) فحسب، بل ـ أيضاً ـ لإعادة توحيد جالية "يهُودا"

حول الهيكل (المعبد) الجديد. كانوا في حاجةٍ لإعْطاء النّاس أملاً بالأفضل، أملاً بمُستقبل أكثر نجاحاً؛ ولمُعالجة مُشكلة العلاقة مع المجموعات المُجاورة، خُصُوصاً في الشّمال والجنوب؛ ولمُعالجة الأسئلة المُتعلّقة بالمشاكل المحلّيَّة للجماعة. من تلك الجهات، كَانتْ حاجات جماعة "يهُودا" بَعْدَ النَّفْي مُشابهة لضرورات دولة يهُوذا المَلَكيَّة المُتأخِّرة. كلتاهما كانتا جماعتَيْن صغيرتَيْن، سَكَنَتَا أرضاً محدودةً لا تُشكِّل إلاَّ جُزءاً ـ فقط ـ من الأرض المَوْعُودة، لكنَّها ذات أهمِّيَّة كبيرة كَمَركَز رُوحي وسياسي للإسرائيليِّين.

كلتا الجماعتَيْن أُحيطتا بجيرانٍ مُعادينَ أجانب. كلتاهما تدعيان مَلَكيَّتهما لأراضٍ كَانتْ خارج مَمْلَكَتهما. كلتاهما واجهَتَا مشاكلَ مَع الأجانب في الدّاخل والخارج، وكَانتا مُهتمَّتَيْن بمشاكل الحفاظ على هُويَّة الجماعة ومَنْعها من الاستيعاب والذّوبان. لذلك، لم تكن العديد من تعليمات يهُوذا في الفترة المَلَكيَّة المُتأخِّرة غريبةً على آذان النّاس في أُورشليم (القُدْس) في فترة ما بَعْدَ النَّفْي. فكرة مركزيَّة يهُوذا وتفوُّقها على جيرانها كانتا تجدان صداهما ـ بالتّأكيد ـ في وعي جالية أُورشليم (القُدْس) في أواخر القرن السّادس والقرن الخامس ق. م.. لكنَّ الظُّرُوف الأُخرى ـ مثل سُقُوط بيت داود والحياة تحت حُكْم دولة إمبراطُوريَّة ـ أجبرت كُتَّاب ما بَعْدَ النَّفْي، الأوائل، على القيام بإعادة صياغة مُجدَّدة للأفكار القديمة.

واجهتْ قصَّة الخُرُوج الجماعيّ أهمِّيَّة بالغةً في فترة النَّفْي وفترة ما بَعْدَ النَّفْي. قصَّة التّحرير العظيم من العُبُوديَّة لابُدَّ وأنْ كَانَ لها أثرها القوي لدى المَنْفيِّين في بابل. كما أشار العالم التّوراتي ديفيد كلاين David Clines قائلاً: "العُبُوديَّة في مصر هي عُبُوديَّتهم الخاصَّة في بابل، والخُرُوج الجماعي الماضي أصبح خُرُوجهم الخاصّ الذي ينتظرون حُصُوله". في الحقيقة؛ التّشابه المُميَّز بَيْن مواضيع قصَّة الخُرُوج الجماعي من مصر وذكريات العودة من المَنْفى لَربَّما أثَّرَ على تَشكيل كلا القصَّتَيْن. لدى قراءتهم لقصَّة الخُرُوج الجماعي، وَجد العائدُون من النَّفْي مرآة لمحنتهم أنفسهم. طبقاً للعالم التّوراتي "يائير هوفمان" Yair Hoffman، من جامعة تلّ أبيب، كلتا القصَّتَيْن تُخبراننا كيف تَرك الإسرائيليُّون أرضَهم إلى بلاد أجنبيَّة؛ وكيف أنَّ أرض إسرائيل عُدَّت أنَّها ملكٌ لأُولئك الذين غادروها، وكَان يُنْتَظَر منهم أنْ يعودوا إليها بناءً على وعدٍ إلهي؛ وكيف أنَّه بعد فترة صعبة في المَنْفى، عاد النّاس الذين كانوا غادروا الأرض

إلى وَطَنهم؛ وكيف أنَّهم في طريق عودتهم كان على العائدين أنْ يعبروا صحراء خطرة؛ وكيف أنَّ العودة إلى الوَطَن استدعت نزاعاتٍ مَع السُّكَّان المحلِّيِّين؛ وكيف استطاع العائدُون أنْ يحتلُّوا جُزءاً ـ فقط ـ من وَطَنهم المَوْعُود؛ وكيف اتَّخذ زُعماء العائدين تدابير مُعيَّنة للحيلولة دُون ذوبان الإسرائيليِّين واستيعابهم ضمن سُكَّان الأرض.

على النَّمط نفسه، ممَّا لا ريب فيه أنَّ قصَّة هجْرة إبراهيم من بلاد ما بَيْن النَّهرَيْن إلى الأرض المَوْعُودة في كَنْعَان، وصيرورته رجلاً عظيماً، وتأسيسه لأُمَّة ناجحة هُناك، لقيت صدىً كبيراً في نُفُوس اليَهُوذَويِّين؛ سواء أثناء النَّفْي أو في فترة ما بَعْدَ النَّفْي. الرِّسالة القويَّة حول افتراق الإسرائيليِّين وانفصالهم عن الكَنْعَانيِّين في قَصَص الآباء لاءمت ـ أيضاً ـ مواقفَ يهُودا ما بعد النَّفْي.

رغم ذلك، من الزَّاوية السِّياسيَّة والعرْقيَّة، كانت مُشكلة جماعة ما بَعْدَ النَّفْي الأكثر حدَّةً تكمن في الجنوب. بعد دمار يهُوذا، استقرَّ الأدوميُّون في الأجزاء الجنوبيَّة للمَمْلَكَة المَقْهُورة، في وادي بئر سبع وفي تلال حبرون (الخليل)، منطقة سُرعان ما عُرفَت بإيدوميا **Idumea**؛ أيْ أرض الأدوميِّين. كان لرَسْم الحَدِّ الفَصْل "بَيْننا" (جالية ما بَعْدَ النَّفْي في مُحافظة "يهُودا") و"بَيْنهم" (الأدوميِّين في منطقة التِّلال الجنوبيَّة) أهميَّة بالغة. لذا؛ كان لابُدَّ من إظهار أنَّ يهُودا كَانَت المركزَ المُتفوِّق، وأنَّ "أدوم" كَانَت ثانويَّة وغير مُتحضِّرة ـ تماماً كما تُفيده قصَّة يعقُوب وعيسُو..

يَجبُ أنْ يُفْهَمَ التَّقليد النَّصِّي القائل أنَّ قُبُور الآباء في كهفٍ في حبرون (الخليل)ـ والذي ينتمي لمصدر كَهَنُوتي على ضوء هذه الخلفيَّة أيضاً. سيطرتْ جماعة "يهُودا" على الجُزء الوحيد من أراضي المَمْلَكَة اليَهُوذَويَّة المُدَمَّرة، والآن؛ كانت الحُدُود الجنوبيَّة ليهُودا تمرُّ بَيْن بلدات بيت صُور وحبرون (الخليل)، والأخيرة منهما كانت خارج حُدُودها. بتذكُّرهم لأهميَّة حبرون (الخليل) أثناء الحُكْم المَلَكي، لابُدَّ يكون شعب "يهُودا" قد أسف أسفاً مُرّاً لحقيقة أنَّ تلك المدينة ـ في عهدهم الحالي ـ لَمْ تَعُدْ ملكاً لهم. لا شكَّ أنَّ تقليداً يَضعُ قُبُور الآباء، مُؤسِّسي الأُمَّة، في حبرون (الخليل)، سيُعمِّقُ ارتباطهم القويّ بمنطقة التِّلال الجنوبيَّة. سواء كَانَتْ القصَّة قديمةً أو لم تكُنْ، وكان التَّقليد حقيقياً أو لم يكن، فإنَّه كان مُغرياً جداً لمُؤلفي المصدر الكَهَنُوتي، ولذلك أُكِّدَ هذا الموضوع منْ قبَلهم في قَصَص الآباء.

على أيَّة حال؛ لم يكتف المُحرِّرون الأخيرون لسفر التّكوين بالاستعارة المُجرَّدة. لقد أرادوا أنْ يُظهروا كَيفَ أنَّ أُصُول شعب إسرائيل تُوجد في قلب العالم المُتحضِّر ذاته. وعليه؛ على خلاف الشُّعُوب الأقلِّ شأناً، والتي برزت في مناطق جاهلة مُتخلِّفة حولهم، لَمَّح مُحرِّرو سفْر التّكوين إلى أنَّ الأب العظيمَ لشعب إسرائيل جاءَ من المدينة المشهورة العالميَّة "أور". لقد ذُكرَتْ أُصُول إبراهيم في مدينة "أور" في آيتَيْن مُنعزلتَيْن (تكوين 11/ 28 و31، وثيقة كَهَنُوتيَّة)، بَيْنما تَبْدو قصَّته مُتمركزة أكثر بكثير حول مدينة حاران السُّوريَّة الشّماليَّة الآراميَّة، لكنْ؛ حتَّى تلك الإشارةُ القصيرةُ كَانتْ كافيةً. كَانَت "أور" - كَمَسقط رأس إبراهيم - سَتَمْنحُ سُمعةً كبيرةً عن الوَطَن الأصلي لسَلَفٍ قوميٍّ مشهورٍ. لم تكن "أور" مشهورة كَمَوقع عريق وعلْمي حضاري جداً فحسب، بل اكْتَسبَت - كذلك - سُمعةً ونُفُوذاً عظيمَيْن في كافَّة أنحاء المنطقة أثناء فترة إعادة تأسيسها كَمركَز دينـي مـن قِبَـل ملـك البـابليِّيْن، أو الكلدانيِّيْن: "نابونيدوس" Nabonidus في مُنتصف القرن السّادس ق. م.. وهكذا؛ فإنَّ الإشارة إلى أصل إبراهيم في "أور" كَانتْ ستُقدِّم لليهُود نَسَباً وأصالةً ثقافيَّة بارزةً وقديمةً.

باختصار؛ إنَّ مرحلة ما بعد النَّفْي، في تحرير الكتاب المُقدَّس العبْريّ أعادت تلخيص العديد من المواضيع المفتاحيَّة لفترة القرن السّابع السّابقة التي سَبَقَ وناقشناها في مُعظم هذا الكتاب. وهذا يعود للحقائق المُتشَابهة والحاجات المُتشَابهة لكلا الفترتَيْن الزّمنيَّتَيْن. مرَّة ثانية؛ تَركَّز الإسرائيليُّون في أُورشليم (القُدْس)، وسط حَيْرَة وعدم اطمئنانٍ كبيرَيْن، دُون السَّيْطرَة على مُعظم الأرض التي عدُّوها مُلكهم طبقاً لوعد إلهيّ. مرَّة ثانية؛ احتاجت السُّلطَة مركزيَّة إلى لَمِّ شَمْل السُّكَّان وتوحيدهم. ومرَّة ثانية؛ فَعَلَتْ ذلك عن طريق إعادة صياغة بارعة للقلب التّاريخيّ للكتاب المُقدَّس العبْريّ بنَحْو كان يُمكنه أنْ يَخْدُم كَمَصدرٍ أساسيٍّ للهُويَّة، ومرسىً رُوحيّاً لشعب إسرائيل وهُو يواجهُ الكوارث العديدة، والتَّحدِّيات الدِّينيَّة، والتَّحوُّلات السّياسيَّة للقدَر الذي كان ينتظره.

الخاتمة

مُستقبل إسرائيل التّوراتيَّة

بقيت يهُودا بأيدي الفُرْس لُمدَّة قرنَيْن، حتَّى فَتَحَهَا الإسكندر الأكبر عام 332 ق. م. . ثُمَّ ضُمَّت - بعد ذلك - إلى الإمبراطُوريَّات التي أنشأها خُلفاء الإسكندر: أوَّلاً مَمْلَكَة "البَطالمة" في مصر، ثُمَّ مَمْلَكَة "السّلوقيِّين" في سُوريا. لأكثر من مئة وخمسين عاماً بعد فَتْح الإسكندر، حافظ الزُّعماء الكَهَنُوتيُّون للمُقاطعة (أو الولاية)، التي أصبحت - الآن - تُعرَف باسم "اليهُوديَّة"، على طُقُوسهم، واتَّبعوا التّشريعات التي صيغَت لأوَّل مرَّة في عهد الملك "يُوشيَّا"، ثُمَّ أُعيدت صياغتها وهُذِّبت في فترَتَيْ النَّفْي وما بعد النَّفْي.

في الواقع؛ نَحْصَلُ على أوَّل وَصْفٍ مُوسَّع لتشريعات الكتاب المُقدَّس العِبْريّ وطُقُوسه من مُراقب خارجيّ، لأوَّل مرَّة في الفترة الهيلينيَّة عام 330 ق. م، يُزوِّدُنا الكاتب الإغريقيّ "هيكاتَاوُس العَبديري" HECATAEUS OF ABDERA، الذي سافر إلى الشّرق الأدنى بعد فترة ليست طويلة من موت الإسكندر، بلمحةٍ عن مرحلةٍ من التّقليد اليهُوديّ، تغلّبَ فيها نُفوذ وتأثير طبقة رجال الدِّين وسُلْطَة التّشريعات الاجتماعيَّة لسفْر التّثنية - بنَحْوٍ كاملٍ - على التّقاليد المَلَكيَّة. يقول "هيكاتاوس"، مُتحدِّثاً عن تشريعات وَضَعَهَا [رجل اسمه "مُوسى" بارزٌ في حكمته وشجاعته]: ((لقد اختار رجالاً من أكثر النّاس نقاءً وقُوَّة لرئاسة كُلِّ أُمَّته، وَعَيَّنهم كَهَنَةً؛ وأمرهم أنْ يُكرِّسوا أنفسهم للعمل بالهيكل (المعبد)، والقيام على التّعظيمات والقرابين التي تُقدَّمُ إلى إلههم. وعيَّن هؤلاء الرّجال أنفسهم كي يكونوا قُضاةً في كُلِّ النّزاعات الرّئيسيَّة، وائتمنهم على حراسة التّشريعات والتّقاليد، لذا؛ لم يكن لدى اليهُود ملكٌ أبداً)).

أصبح اليهُوديُّون، أو اليهُود، معروفين في كافَّة أنحاء البحر الأبيض المُتوسِّط كَجَالية ذات ولاء فريد لإلَهِهَا. لم يكن في قلبها مُجرَّد أحكام شريعة مُشتركة وقواعد تقديم القرابين، بل - أيضاً - قصَّة تاريخٍ قوميٍّ تبدأ بدعوة إبراهيم في أور البعيدة، وتنتهي بإعادة

إحياء جماعة الهيكل منْ قبَل "عَزْرا" و"نَحَمْيَا" في فترة ما بعد النَّفْي. بعـد التَّخلِّي عـن الحُكْم المَلَكيّ وتَبَعثُر اليهُود في كافَّة أنحاء العالم الإغريقي ـ الرُّوماني، أخذ النَّصُّ المُقـدَّس للتَّوراة أو الكتاب المُقدَّس العبْريّ، في القرنَيْن الثَّالث والثَّاني ق.م، يُتَرْجَمُ ـ تدريجيّاً ـ إلى اللُّغة اليُونانيَّة، ليُصبح المصدرَ الرَّئيسيَ لهُويَّة الطَّائفة، ومُرشداً هادياً لكُلّ أُولئك الأعضاء من بني إسرائيل الذين عاشوا بعيداً عن الجوار المُباشر لهيكل أُورشليم (القُدْس). لقد قدَّمت قصَّة الخُرُوج العظيمة، وقصَّة فَتْح أرض الميعاد، رُؤيا مُشتركة من التَّضامن والأمل لكُلّ فرد في الطَّائفة، بنَحْو لم يكن مُمكناً لأيّ أساطير مَلَكيَّة أو بُطُوليَّة أنْ تفعله.

وَحَدَثَتْ تغيُّرات فجائيَّة في المُواجهة بَيْن الزّعامة الكَهَنُوتيَّة ليهُودا والدِّين والثّقافة الهيلينيَّة في القرن الثّاني ق.م، ونَجَحَتْ حَرَكَة المُقاومة المكّابيَّة الرّاديكاليَّة (الجَذْريَّة) ـ التي تُعَدُّ وريثاً في العقيدة من عدَّة نواح للحَرَكَة التّثنويَّة أيّام الملك "يُوشيًّا" ـ في فَتْح جُزء عظيم من أرض إسرائيل وتطبيق الشّريعة التّوراتيَّة على سكّانها. إلاَّ أنَّ التّأثير الأعظم للكتاب المُقدَّس العبْريّ ليس مُنحصراً بكونه مُرشداً للفُتُوحات العسكريَّة أو الانتصارات السّياسيَّة، التي يُقصد منها زيادة ثروة حاكم مُعيَّن، أو أُسرة حاكمة خاصَّة.

في القرن الأوَّل ق.م، عندما هَبَطَ المُلُوك الحشمونيُّون، ذوو النَّسَب المكّابي ـ في النّهاية ـ إلى مُستوى التّشاجر بَيْن أفراد الأُسرة الحاكمة، واستلم السُّلْطَة في "اليهُوديَّة" الملك هيرُود عميل الرُّومان، بَرَزَ الكتاب المُقدَّس العبْريّ كَقُوَّة توحيد وكَقَلْب ديني للطّائفة التي كانت تمرُّ بصُعُوبات شديدة. لقد أعطت قَصَص التّحرير وفُتُوحات "يُوشيًّا" دَفْعاً عاطفيّاً خاصّاً لحَرَكَات المُقاومة الشّعبيَّة ضدَّ الطُّغاة المحلِّيِّين والأسياد الرُّومان طوال مُدَّة القرن الأوَّل ق.م، والقرنَيْن الميلاديَّيْن الأوَّل والثّاني. لم يحدث أنْ تمَّت صياغة مثل هذه القصَّة العظيمة المُشتركة: فالملاحم والأساطير اليُونانيَّة لا تتكلَّم إلاَّ بلُغة الاستعارة والمثال؛ في حين تُقدِّم الملاحم الدِّينيَّة ما بَيْن النّهرَيْنيَّة والفارسيَّة أسراراً كَونيَّة، ولكنْ؛ لا تُقدِّم لا تاريخاً دُنيويّاً ولا دليلاً عمليّاً للحياة. أمّا الكتاب المُقدَّس العبْري؛ فإنّه قدَّم الأمرَيْن كلَيْهما؛ حيثُ قدَّم إطاراً قَصَصيّاً يُمكن لكُلّ يهُودي أنْ يُميِّز فيه تاريخ أُسرته وتاريخه القومي. وباختصار؛ أصبحت قصَّة إسرائيل التي تبلورت أوَّل مرَّة في عهد "يُوشيًّا"، أوَّل ميثاق مُفصَّل كامل اجتماعيّ وقوميّ في العالم، يشمل الرّجال، والنّساء، والأطفال، والأغنياء، والفُقراء، وكُلّ المحرومين والمُعدمين في الطّائفة كُلّها.

ومع دمار الهيكل الثّاني عام 70م، وبُرُوز المسيحيَّة، أثبتت القُوَّة المُستقلَّة للكتاب المُقدَّس العبْريّ نفسها كَدُستُور مُشكّل، وليس كمُجرَّد عمل أدبي بارع، أو مجموعة تشريعاتٍ وحكَمٍ قديمة.

لقد كان ذلك الكتابُ أساسَ كُلِّ الشُّرُوحات دائمة التَّوسُّع في الـ"ميشنا" Mishnah و"التّلمود" الخاصَّين بيهُوديَّة الربّيّين[1]، ونُظِّمَ ذلك الكتاب المُقدَّس وعُرِفَ باسم "العهد القديم" في المسيحيَّة المُتشكّلة. لقد أصبح الوعي بالتَّحدُّر الرُّوحي من إبراهيم والتّجربة المُشتركة للخُرُوج الجماعي من العُبُوديَّة تفكيراً مُشتركاً لدى شبكات الجماعات المُتزايدة على الدّوام في كافَّة أنحاء الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة وعالم البحر الأبيض المُتوسِّط. لقد تمَّ الحفاظ على الأمل بالإصلاح والتّسديد المُستقبلي حيَّاً، رغم أنَّه لم يعد يُربَط بسُلالة داود المَلَكيَّة المُنقرضة؛ حيثُ ظلَّ هذا الأمل موجوداً في التَّوقُّعات النَّبويَّة والمسيحانيَّة لليهُوديَّة، وفي اعتقاد المسيحيَّة أنَّ يسوع ينتمي للخطِّ الدّاودي. إنَّ الموت المُحزن لـ"يُوشيَّا" الذي كان سيُعَدُّ المسيحَ المُنتظَرَ، قبل قُرُون عديدة، وضع النّموذج الذي سيبقى طوال التّاريخ. إنَّ الكتاب المُقدَّس العبْريّ يُقدِّم منبعاً فريداً للتّضامن والهُويَّة لأعداد لا تُحْصَى من الجاليات والجماعات في القُرُون التي تَلَتْ. تمتلك تفاصيل قَصَصه، التي أُخذت من كنزٍ من الذّكريات القديمة، والتّواريخ المُتجزِّئة وأساطير أُعيدت كتابتها، قُوَّة وتأثيراً ليس كَسجلٍّ موضوعيٍّ لأحداثٍ وَقَعَتْ في أرضٍ صغيرةٍ على الشّاطئ الشّرقي للبحر الأبيض المُتوسِّط، بل كَتعبيرٍ خالد يتجاوز حُدُود الزّمان والمكان عمَّا يُمكن أنْ يكون عليه المصير المُقدَّس لشعب. مثلما كان أتباع شارلمان يُقدِّمون له فُرُوض الولاء كَداودٍ فاتحٍ جديدٍ ـ وأتباع السُّلطان سُلَيْمَان العُثماني رأوا فيه حكْمَة سُلَيْمَان ـ فإنَّ الكثير من الجماعات الأُخرى في بيئات ثقافيَّة مُختلفة جداً، رَبَطَتْ كفاحها الخاصّ بكفاح إسرائيل التّوراتيَّة.

نَهَضَتْ وبَرَزَتْ جماعات من الفلاَّحين الأُورُوبيِّين في القُرُون الوُسْطَى، في انتفاضات إيحائيَّة تحمل صُور وأبطال الكتاب المُقدَّس العبْريّ شعاراً وراياتٍ لمعاركها، بل؛ لقد ذهب المُستوطنُون التَّطهُّريُّون (البيُوريتانيُّون) الذين استقرُّوا في نيو إنغلند (في العالم الجديد) إلى حَدٍّ

(1) يُطلق اليهُود على أحبارهم اسم "رابّي"، و استخدم القُرآن الكريم هذا التّعبير في تسمية أحبارهم "ربِّيِّين" أو "ربّانيِّين". (المُترجم).

تخيَّل أنفسهم إسرائيليِّين تائهين في البريَّة وجـدوا أرض الميعـاد ـ بمُدُنها مثـل سـالم، حبرون، غوشيم، وكَنْعَان الجديدة ـ في المُرُوج والغابات الجديدة التي وجدوها، ولـم يشكُّ أحد منهم بأنَّ القصَّة التّوراتيَّة كانت حقيقيَّة.

ولكنْ؛ عندما بدأ الكتاب المُقدَّس العبْريّ يُشرَّح ويُدْرَس بمعزلٍ عن وظيفـة تـأثيره القـوي في حياة الجماعة، بدأ عُلماء اللاَّهُوت وعُلماء الكتاب المُقدَّس يطلبون منه ما ليس فيه. ومُنْذُ القرن الثّامن عشر، في المسعى التّنويري للبحث عن التّاريخ الدّقيق والقابل للإثبات، أصبحت الحقيقة الواقعيَّة التّاريخيَّة للكتاب المُقدَّس ـ كما بقيت إلى اليوم ـ موضـع نقـاش مرير. وعندما أدرك العُلماء أنَّ الخَلْقَ في سبعة أيّام والمُعجزات التّلقائيَّة لا يُمكن أنْ تُفَسَّر بنَحْوٍ مُـرضٍ تفسيراً علْمياً وعَقْلياً، بدؤوا في انتقاء ما وجدوه تاريخياً في الكتاب المُقدَّس العبْريّ، ومـا لـم يجـدوه كذلك. وظهرت نَظَريَّات وَفَرَضيَّات حول المصادر المُختلفة المُتضمَّنة فـي نـصِّ الكتـاب المُقـدَّس العبْريّ، وجادل عُلماء الآثار حول الدّليل الذي يُثبـت ـ أو ينفـي ـ الثّقـة التّاريخيَّـة لـهذا المقطـع المُعيَّن من الكتاب المُقدَّس، أو ذاك.

ومع ذلك؛ فإنَّ سلامة الكتاب المُقدَّس ـ وفي الواقع؛ تاريخيَّته ـ لا تعتمد علـى "البُرهـان" التّاريخي الطّيِّع لأيٍّ من أحداثه المُعيَّنة، أو شخصيَّاته، مثل انفلاق البحر الأحمر، أو أصوات الأبواق التي أسقطت أسوار أريحا، أو قَتْل داود لجالوت بضربة واحدة من مقلاعه، بـل تنجـم قُوَّة القصَّة التّوراتيَّة من كونها تعبيراً قَصَصياً مُقنعـاً ومُتماسـكاً عـن موضوعـات خـالدة تتجـاوز حُدُود الزّمان، تتحدَّث عن تحرُّر شـعبٍ، وعـن المُقاومـة المُتواصلـة ضـدَّ الظُّلـم، وعـن السّـعي لأجل المُساواة الاجتماعيَّة. إنَّه يُعبِّر ـ بشَكْلٍ بليغ ـ عن الإحساس المُتجذِّر بالأُصُول والتّجـارب المُشتركة، والمصير الذي تحتاجه كُلُّ جماعة بشريَّة لتبقى وتُواصل حياتها.

و إذا استخدمنا المُصطلحات التّاريخيَّة الخاصَّـة نقـول: إنَّنـا نعرف اليوم أنَّ قصَّة الكتـاب المُقدَّس العظيمة الملحميَّة، ظهرت أوَّلاً، كَردِّ فعْلٍ على الضُّغُوطات والصُّعُوبـات، والتَّحدِّيات، والآمال، التي واجهها شعب مَمْلَكَة يهُوذا الصّغيرة جداً في العُقُـود التي سَبَقَتْ دمارهـا، والتي واجهتها الجماعة الأصغر للهيكل الجديد في أورشليم (القُدْس) في فترة ما بعد النَّفْي.

في الواقع؛ إنَّ أعظم مُساهمة قدَّمها علم الآثار لفَهْمنا للكتاب المُقدَّس، قد تكون إدراكنا أنَّ مثل تلك المُجتمعات الصّغيرة، والفقيرة نسبيّاً، كَيهُوذا في الفترة المَلَكيَّة المُتأخِّرة، ومُحافظة "يهُودا" في فترة ما بعد النَّفْي، كان يُمكنها أنْ تُنتج الخُطُوط العريضة الرّئيسيَّة لهذه المَلْحَمَة الخالدة في مثل هذه الفترة الزّمنيَّة القصيرة. مثل هذا الإدراك يُعَدُّ أمراً حاسماً، لأنَّنا فقط عندما نعترف ونُدرك أنَّه متى ولماذا تمَّ حَبْكُ وتأليف الأفكار والصُّور والأحداث التي يصفها الكتاب المُقدَّس العبْريّ بنَحْو بارعٍ مع بعضها البعض؛ يُمكننا أنْ نبدأ - أخيراً - بتقدير العبقريَّة الحقيقيَّة والقُوَّة المُستمرَّة لهذا النَّصِّ الأدبي والخَلْق الرُّوحي الأكثر تأثيراً في تاريخ البشريَّة.

المُلحق أ:

نَظَريَّات تاريخيَّة عهد الآباء

الفَرَضيَّة العموريَّة:

أصبح من الواضح ـ اليوم ـ بفَضْل تطوُّر علْم الآثار الحديث في أرض الكتاب المُقدَّس العبْريّ، أنَّ كَنْعَان الألفيَّة الثَّالثة ق. م ـ العصر البرُونزيّ المُبكِّر ـ كانت تتمتَّع بحياة حَضَريَّة مُتطوِّرة بشَكْل كامل. كان من البديهيّ أنَّ هذه الحقيقة لا تتلاءم مع الخلفيَّة التَّاريخيَّة لقَصَص رحلات الآباء التي لم يكن فيها إلاَّ بضعة لقاءات حَضَريَّة. في هذه الفترة الحَضَريَّة الأُولى للعصر البرُونزيّ تطوَّرت مُدُن كبيرةٌ، وَصَلَتْ مساحة بعضها إلى خمسين هكتاراً، وضمَّت عدَّة آلاف من السُّكَّان، في السُّهُول السُّفلى. وكانت مُحاطةً بتحصينات رائعة قويَّة، واحتوت على قُصُور ومعابد. على الرّغم من أنَّه ليس لدينا نُصُوص تعود لتلك الحقْبة، تقترح مُقارنةُ الوضع في الألفيَّة الثَّالثة ق. م، بالوضع في الفترة الحَضَريَّة الثَّانية (في الألفيَّة الثَّانية ق. م، التي تمتلك نُصُوصاً عنها) أنَّ المُدُن الكُبْرَى كانت عواصم لدُول مُدُن، وأنَّ السُّكَّان الرّيفيِّين كانوا تابعين لتلك المراكز. كانت الحضارة المادِّيَّة حضارة مُنظَّمة ـ بنَحْو كبير ـ لأُناسٍ يعيشون بنَحْو مُقيم دائم، ولكنْ؛ في نهاية الألفيَّة الثَّالثة؛ انهار ذلك النّظام الحَضَريّ المُزدهر. دُمِّرَت المُدُن، وأصبح الكثير منها أنقاضاً خَربة، ولم تتعافَ ـ بعد ذلك ـ من الصّدمة أبداً. كما هُجرت الكثير من مراكز الاستيطان الرّيفيّ حول تلك المُدُن. والذي تلا كان فترة من عدَّة قُرُون في أواخر الألفيَّة الثَّالثة، وربَّما أوائل الألفيَّة الثَّانية لثقافة مُختلفة جداً، ليس فيها مُدُن كبيرة؛ أيْ ليس فيها حياة حَضَريَّة. كان أغلب سكَّان فلسطين ـ كما اعتقد عُلماء الآثار في الخمسينات والسِّتِّينات (من القرن الماضي) ـ يُمارسون نَمَط حياةٍ بدويٍّ رعويٍّ قبل أنْ تتعافى الحياة

الحَضَريَّة من جديد، وتدخل كَنْعَان الفترة الحَضَريَّة الثّانية؛ أيْ العصر البرُونزيّ الأوسط، في أوائل الألفيَّة الثّانية ق.م..

اعتقد العالم الأمريكي "وليام إف. أولبرايْت" William F. Albright أنّه ميَّز الخلفيَّة التّاريخيَّة للآباء في الفاصل البدوي بَيْن فترتَيْ الحياة الحَضَريَّة المُتطوِّرة في كَنْعَان، وهُو فاصل يقعُ في الفترة بَيْن 2100 ـ 1800 ق.م، قريباً من عهد الآباء، كما يُشيرُ إليه التّاريخ الزّمني للأحداث في الكتاب المُقدَّس العبْريّ. دَعا "أولبرايْت" هذه الفترةَ بالعهد البرُونزيّ المُتوسِّط الأوَّل (في حين دعاه عُلماء آخرون ـ بشَكْلٍ أصحّ ـ بالعهد البرُونزي الوسيط؛ لأنَّه كَانَ فترةً بَيْن عصرَيْن حَضَريَّيْن). جادلَ "أولبرايْت" وعُلماء آخرون مُعاصرون أنَّ انهيار الحضارة الحَضَريَّة للعصر البرُونزيّ الباكر كان انهياراً مُفاجئاً وكان نتيجة لغزو، أو هجرة بدو رُعاة من المنطقة الشّماليَّة الشّرقيَّة. وقد طابقَ الغُزاةَ على شعبٍ يُدعى Amurru، العَمُوريُّون (حرفيّاً، "الغربيُّون") الذين تتحدَّث عنهم نُصُوص ما بَيْن نهرَيْنيَّة. وذَهَبَ "أولبرايْت" وأتباعَه خُطوة إلى الأمام، وطابقوا الآباء على العَمُوريِّين، وأرَّخوا حادثةَ إبراهيم في قَصَص التّكوين إلى هذه المرحلة من تاريخ كَنْعَان. طبقاً لإعادة البناء هذه؛ كَانَ إبراهيم عَمُوريّاً، تاجراً، هاجرَ من الشّمال، وتَجولَ في كافَّة أنحاء مُرتفعات كَنْعَان الوُسْطى، وكذلك في النَّقَب.

وماذا كَانَ السَّبب التّاريخي لهجرة إبراهيم؟ اقترح "أولبرايْت" أنَّ إبراهيم، "تاجر قافلة ذائع الصّيت" شارك في الشّبكة التّجاريَّة العظيمة للقرن التّاسع عشر ق.م.. وتشهد نُصُوص تعود لذلك الزّمن وُجدَت قُرْب "قيصري" Kayseri في وسط تُركيا على علاقة تجاريَّة ناجحة بَيْن بلاد ما بَيْن النّهرَيْن وشمال سُوريا (وهذا يتَّفق مع حَرَكَة إبراهيم في سفْر التّكوين من أور إلى حاران)، وتُزوِّدُنا رَسْمَةٌ على قبرٍ في مصر، تعود لنفس الفترة الزّمنيَّة بشاهد على تجارة قوافل بَيْن عبْر الأُردُن ومصر (كما تَصفُه قصَّة يُوسُف في سفْر التّكوين). في الحالتَيْن؛ استُعْملَت الحمير كَدواب لحَمْل الأثقال. وهكذا× أوجد "أولبرايْت" صلَةً بَيْن ظاهرتَيْن ـ الطّبيعة الرّعويَّة لعصر الآباء وتجارة قوافل الحمير في القرن التّاسع عشر ـ باستدلاله على أنَّ العصر البرُونزي المُتوسِّط استمرَّ حتَّى حوالي 1800 ق.م.. وقد قدَّم عالمُ الآثار الأمريكيُّ نيلسون غلوييك "Nilson Glueck" إثباتاً يدعم ظاهراً هذه النَّظَريَّة. لقد كَشَفَتْ استطلاعاته في جنوب عبْر

الأُردُن وصحراء النَّقَب عن مئاتَ المواقع التي تعود لنفس الفترة الزّمنيَّة. اعتَقَدَ "أُولبرايْت" أنَّ هذه المواقع تُزوِّدُنا بالخلفيَّة التّاريخيَّة لقَصَص نشاط إبراهيم في النَّقَب ودمار مُدُن البحر الميِّت.

رغم ذلك؛ لَمْ تَدُمْ الفَرَضيَّة العَمُوريَّة طويلاً. على أثر المزيد من التّنقيبات في مواقع مُتعدِّدة في كافَّة أنحاء البلاد، استَنْتَجَ مُعظم العُلماء أنَّ النّظام الحَضَريّ للعصر البرُونزيّ الباكر لم ينهار بَيْن عشيَّة وضُحاها، بل أَخَذَ بالانحطاط - بنَحْو تدريجيّ - خلال عدَّة عُقُود، لأسباب تعود لتقلُّبات اقتصاديَّة واجتماعيَّة محلّيَّة ضمن كَنْعَان أكثر من عودتها لغُزاة خارجيِّيْن. وفي هذه الأثناء؛ تلقَّت النَّظَريَّة العَمُوريَّة ضربة من جهة أُخرى؛ إذْ تبيَّن أنَّ اصطلاح العموريِّيْن لم يكن مُقتصراً على الشُّعُوب الرّعويَّة، فلقد سُمِّيَت مُجتمعات قُرويَّة في شمال سُوريا في أوائل الألفيَّة الثّانية بالعَمُوريِّيْن أيضاً. وبالتَّالي؛ لم يعد من المُحتمل أنْ يكون إبراهيمُ قد أتى إلى البلاد كَجزُء من موجة غَزْوٍ قادم من الخارج.

علاوةً على ذلك؛ لقد ثبت أنَّ التّشابه الظّاهريّ بَيْن طريقة الحياة الرّعويَّة في المرحلة التّالية من تاريخ البلاد وأوصاف أُسلُوب حياة إبراهيم البَدَويَّة لم يكن سوى وَهْم. فقد أصبح - الآن - واضحاً أنَّ العصر البرُونزيّ الوسيط لم يكن فترةً بَدَويَّة بشَكْل كاملٍ. صحيحٌ أنَّه لم تكن هُناك مُدُن كبيرة في ذلك الوقت، وأنَّ نسبةَ البدو الرُّعاة إلى عامَّة السُّكَّان كانت تنمو بشَكْل ملحوظ، لكنَّ مُعظمَ السُّكَّان بَقوا مُقيمين، يعيشون في قُرَى ومُدُن. وفي تناقض حادٍّ مع نَظَريَّة الهجرة العظيمة لجماعات من البدو من الشّمال، تَقْتَرِحُ استمراريَّةُ النَّمَط المعماريِّ، والأساليب الفخَّاريَّة، ونماذج الاستيطان، أنَّ سُكَّان كَنْعَان - في تلك المرحلة بَيْن الفترتَيْن الحَضَريَّتَيْن - كَانوا - بالدّرجة الأُولى - سُكَّاناً أصليِّيْن. كان السُّكَّان يتحدَّرون من الشّعب الذي كان قد عاش في المُدُن الكبيرة قبل بضعة أجيال. ونفس هؤلاء النّاس هُم الذين أعادوا تأسيس حياة حَضَريَّة في كَنْعَان في مُدُن العصر البرُونزي المُتوسِّط.

ولا يَقلُّ أهميَّة عن ذلك، حقيقة أنَّ بعض المواقع الرّئيسيَّة المذكورة في قَصَص الآباء - مثل شكيم (نابلس)، بئر سبع، وحَبْرُونْ (الخليل) - لَمْ تُقدِّم لنا أيَّ اكتشافات من العصر البرُونزي الوسيط؛ لأنَّها - ببساطة - لم تكن مسكونة في ذلك الوقت.

الآباء في العصر البرُونزي الأوسَط:

رَبَطَت نَظَرِيَّة أُخرى عصر الآباء بالعصر البرُونزيّ الأوسط، الذي يُمثّل قمَّة الحياة الحَضَرِيَّة في النّصف الأوّل من الألفيَّة الثّانية ق.م.. لقد استدلّ العُلماء المُدافعون عن هذا الرّأي، كالعالم الفرنسيّ المُتخصّص بالكتاب المُقدّس "رُولاند دي فُو"، بأنّ طبيعة العصر البرُونزيّ الأوسط، طبقاً لما يترشّح من النُّصُوص وعلم الآثار ينطبق - بنَحْو أفضل - على الوصف التّوراتيّ، خاصَّة لكون الآباء وُصفوا - أحياناً - على أنّهم يعيشون في خيامٍ قُرْب المُدُن. من ناحية علم الآثار؛ كُلُّ المُدُن الكُبْرَى المذكورة في سفر التّكوين - شكيم (نابلس)، بيت إيل، حبرون (الخليل)، وجَرَار - كانت قلاعاً مُحصَّنةً في العصر البرُونزيّ الأوسط. ونصِّيّاً؛ هُناك تصديقٌ قويٌّ لتلك العلاقة بَيْن المدينة والخيمة في الأرشيفات المُكتَشَفة في خرابات مدينة ماري الشّهيرة التي تعود إلى أوائل الألفيَّة الثّانية، على نهر الفُرات في سُوريا. بالإضافة إلى ذلك؛ استدلّ مُؤيّدو تاريخ العصر البرُونزيّ الأوسط لفترة الآباء بأنّ أسماء الآباء الشّخصيَّة تُشابه الأسماء العموريَّة في أوائل الألفيَّة الثّانية ق.م، بَيْنما هي بعيدة عن الأسماء الشّائع استخدامُها في الفترات الزّمنيَّة اللاّحقة، عندما تمَّت كتابة مادَّة الكتاب المُقدّس. أفضلُ مثالٍ تمّ تقديمه كان مثال يعقُوب، وهُو اسمٌ ظَهَرَ عدَّة مرَّات في أوائل الألفيَّة الثّانية ق.م..

أشار العالمان الأمريكيَّان سايروس جوردن **Cyrus Gordon** وأفرايم سْبايزر **Ephraim Speiser** - أيضاً - إلى التّشابهات بَيْن المُمارسات الاجتماعيَّة والقانُونيَّة في الوصف التّوراتي للفترة الأبويَّة والمُمارسات الاجتماعيَّة والقانُونيَّة في نُصُوص الألفيَّة الثّانية ق.م، للشّرق الأدنى. وقالوا إنّ مثل هذه التّشابُهات لا يُمكن أنْ تُوجد في الفترات اللاّحقة من تاريخ الشّرق الأدنى القديم. أهمُّ هذه النُّصُوص ألواح "نوزي" من شمال العراق، التي تُؤرِّخُ إلى القرن الخامس عشر ق.م.. تُصوِّر مُعظم ألواح "نوزي" - التي يأتي مُعظمها من أرشيفات عائليَّة - عادات الهُورِيِّين، وهُو شعبٌ غير ساميّ أسَّس دولة الميتانيِّين القويَّة في شمال بلاد ما بَيْن النّهرَيْن في مُنتصف الألفيَّة الثّانية ق.م.. ونذكر للاستشهاد بضعة أمثلة، ففي "نوزي" كان

يُطلَبُ من المرأة العقيم أنْ تُقدِّم أَمَةً لزوجها لتحمل له الأولاد، وهُو أمرٌ مُشابه - بشَكْل واضح - لقصَّة سارة وهاجر التّوراتيَّة في سفْر التّكوين/ 26. في "نوزي" كان الزّوجان اللّذان لا يملكان أولاداً يتبنُّون عبيداً، وهذا يُشابه تبنِّي إبراهيم لـ "أليعازَرَ" كَوريثٍ له (التّكوين 15/ 2-3). قصَّة تدبير يعقُوب مع (خاله لابان) في مُقابل زواجه من راحيل و"ليئة" تجدُ - أيضاً - مُوازياً لها في ألواح "نُوزي". لقد فُهِمَتْ التّشابُهات بَيْن النُّصُوص النّوزيَّة والموادّ التّوراتيَّة المُتعلِّقة بعصر الآباء، على خلفيَّة التّأثير الثّقافيّ القويّ للهُوريِّين الذين انتشروا بعيداً نحو الجنوب حتَّى بلاد كَنْعَان. ولأجل رَدْم الفجوة بَيْن "نُوزي" والعصر البرُونزيّ الأوسط، تمَّ تفسير العادات النّوزيَّة على أنَّها تعكس مُمارسات هُوريَّة أقدم تعود لأوائل الألفيَّة الثّانية.

ولكنْ؛ سرُعان ما انهار - أيضاً - الحلُّ العصر البرُونزيّ/ "النّوزيّ". جاءت الصُّعُوبة، من وُجهة نَظَر علْم آثار فلسطين، بشكْل رئيسيّ، ممَّا لا نراه أو نسمعه في النَّصّ التّوراتيّ. كان العصر البرُونزيّ فترة حياة حَضَريَّة مُتقدِّمة. كانت هُناك مجموعة من دُول المُدُن القويَّة تُهَيْمن على كَنْعَان وتُحكَم من عواصم مثل "حاصُور" و"مَجدُّو". كانت تلك المدينتان مُحَصَّنَتَيْن بقُوَّة بأسوارٍ طينيَّة ضخمة ذات بوَّابات هائلة، كان فيها قُصُور عظيمةٌ ومعابدُ شاهقةٌ. ولكنَّنا لا نرى في نصِّ الكتاب المُقدَّس العبْريّ أيَّ ذكْرٍ لذلك. صحيحٌ أنَّ هُناك ذكْرٌ لبضعة مُدُن، ولكنَّه ليس بالضّرورة للمُدُن الهامَّة. فلا يُوجد ذكْرٌ لشكيم (كَمدينة)، ولا لبيت إيل، ولا لأُورشليم، وكُلُّ الثّلاثة كانت معاقل قويَّة في العصر البرُونزيّ الأوسط. وفي السُّهُول كان يجب أنْ نسمع عن "حاصُور" و"مَجدُّو"، و"جازَرَ"، وليس عن "جَرَار". من الواضح أنَّ القصَّة التّوراتيَّة للآباء ليست قصَّة كَنْعَان العصر البرُونزيّ الأوسط. كما أنَّ ظاهرة البدو الذين يعيشون قُرْب المُدُن ليست خاصَّة بذلك العصر. وأمَّا بالنّسبة لأسماء الآباء؛ فإنَّها وُجدَت - بنَحْو مُتكرِّرٍ - في فتراتٍ لاحقة أيضاً، في العصر البرُونزيّ المُتأخِّر والعصر الحديدي، فاسم يعقُوب - مثلاً - الشّائع فعلاً في العصر البرُونزيّ الأوسط، يُوجد - أيضاً - في العصر البرُونزيّ المُتأخِّر، وفي القرن الخامس ق.م، وما بعده.

أمَّا بالنّسبة لنُصُوص "نوزي"؛ فقد أثبتت الدّراسات اللاَّحقة أنَّ المُمارسات الاجتماعيَّة والقانُونيَّة، التي تُظهر تشابهات مع القَصَص التّوراتيَّة، لا يُمكن حَصْرها بفترة زمنيَّة واحدة،

بل هي شائعة في الشّرق الأدنى القديم في كافّة أزمنة الألفيّة الثّانية والأُولى ق. م. . بل في الواقع، في بعض الحالات، قد تُعطينا موادّ من الألفيّة الأُولى تشابُهات أفضل. على سبيل المثال؛ تظهَر مسؤوليَّة الزّوجة العقيم في تقديم أَمَة لزوجها لتُنجب له الولد، في فترات لاحقة، مثل عُقُود الزّواج في آشُوريا في القرن السّابع.

الآباء في العصر الحديدي المُبكِّر:

عندما بدا حَلُّ الألفيَّة الثّانية مرفوضاً، اتَّخذ العالم التّوراتي الإسرائيلي "بنيامين مازَر" Benjamin Mazar مساراً مُختلفاً، مُستخدماً بيانات علْم الآثار ليقترح أنَّ وَصْفَ عصر الآباء يَجبُ أَنْ يُدْرَسَ على خلفيَّة العصر الحديدي المُبكِّر. أشار "مازَر" - بشكْل رئيسي - إلى المُفارقات التّاريخيَّة في النَّصِّ، مثل ذكْر الملك الفلسطيني (الجَرَار) والآراميِّين. وغنيٌّ عن القول إنَّه لم يكن هُناك فلسطينيُّون في كَنْعَان لا في العصر البرُونزي الأوسط ولا المُتأخِّر. كلتا النُّصُوص المصريَّة وعلْم الآثار أثبتا - بدُون شكٍّ - أنَّهم استقرُّوا في السّاحل الجنوبي لفلسطين في القرن الثّاني عشر ق. م. . بَدَلاً من أنْ يَرى ظُهُورَهم هُنا كإقحامٍ مُتأخِّر (أثناء التّأليف) في تقليدٍ سابقٍ، استدلَّ مزار بأنَّ النَّصَّ يَعْكسُ معرفةً عميقةً بالممالك الفلسطينيَّة في فترة سابقة بنَحْو مُباشر لتأسيس الحُكْم الملكي في إسرائيل. يظهر الآراميُّون - أيضاً، بوُضُوح - في قَصَص الآباء، لكنَّهم - أيضاً - لَمْ يَظْهرُوا في ساحة الشّرق الأدنى القديم قبل العصر الحديدي المُبكِّر، وظهرت ممالكهم في وقت مُتأخِّر - بشكْل رئيسي - في القرن التّاسع ق. م. . اعتقد مزار بأنَّ وَصْفَ الآراميِّين كأُناس رعويِّين إنَّما يَعْكسُ مرحلةً مُبكِّرةً في تاريخهم، قَبْلَ أنْ يُنظِّموا دُولهم الأُولى. وبالتّالي؛ استنتجَ أنَّ تَجَوُّل الآباء في منطقة التّلال المركزيَّة بَيْن شكيم (نابلس) وحبرون (الخليل) يُلائمُ الإطارَ الجَغرافيَّ للاستيطان الإسرائيلي المُبكِّر في العصر الحديدي الأوَّل. بعض هذه التّقاليد، مثل ذلك الذي يتحدَّث عن بناء يعقُوب مذبحاً في بيت إيل، يُمكن أنْ يُفْهَمَ على خلفيَّة فترة القُضَاة، بَيْنما تُلائم تقاليد أُخرى، مثل مركزيَّة حبرون (الخليل)، الأيَّام الأُولى من الحُكْم الملكي، تحت حُكْم داود. تبنَّى العالم التّوراتي الأمريكي "كايل مك كارتر" Kyle McCarter وُجهة نَظَر مُماثلة جداً، رغم أنَّهُ كَانَ أكثرَ حذراً قليلاً.

لقد رأى في قَصَص الآباء عدَّة طبقات مُختلفة من التّأليف، ورأى أنَّ البعض منها قَدْ يَعُود إلى العصر البرُونزي، ولكنْ؛ بالنّسبة للموضوعات التي تتعلّق بالذِّكْر الخاصّ لأماكن في يهُوذا في قَصَص الآباء - كالأهمِّيَّة التي أُعطيت لشخصيَّة إبراهيم وإلى قُبُور الآباء في حبرون (الخليل) - تبنّى "ملك كارتر" McCarter وُجهة نَظَر مُشابهة لتلك التي اقترحها "مازَر"، لقد رأى بأنَّ أهمِّيَّة حبرون (الخليل) في قَصَص الآباء يُمكن أنْ تُفْهَم - بنَحْو أفضل - على خلفيَّة تأسيس الحُكْم الملكي تحت حُكْم داود.

لقد كان "مازَر" مُحقّاً في ادّعائه أنَّ الحقيقة وراء القَصَص في سفْر التّكوين لا يُمكن أنْ تُفْهَمَ على خلفيَّة العصر البرُونزي الأوسط، بل يَجبُ - بالأحرى - تتبُّع مسارها على طُول حقائق العصر الحديدي، إلاَّ أنَّه كان مُخطئاً من ناحية أنَّ تاريخه المُفَضَّلَ في العصر الحديدي كَانَ مُبكّراً جداً. لقد أظهر البحثُ الآثاريُّ الحديثُ أنَّ يهُوذا؛ حيثُ كُتبَ - ظاهراً - المصدر اليَهَويّ للتّوراة، كانت مأهولةً بشَكْل مُتناثر جداً حتّى أواخر القرن الثّامن ق.م.. على المنوال نفسه، أشارَ قرنٌ من التّنقيبات الآثاريّة في أُورشليم (القُدْس) إلى أنَّ عاصمةَ يهُوذا نَمَتْ لتُصبحَ مدينة هامَّة في حوالي الوقت نفسه؛ في القرن العاشر ق.م، ولم تكن أُورشليم (القُدْس) أكثر من قرية صغيرة. وأظهرت نَتائجُ عُقُود من التّنقيبات أنَّ يهُوذا لَمْ تصل إلى مُستوى هامٍّ من معرفة القراءة والكتابة قبل أواخر القرن الثّامن ق.م.. أخيراً؛ ولي بأقلّ أهمِّيَّة عمَّا ذُكر، إنَّ قَصَص الآباء مَمْلُوءة بإشارات إلى حقائق مَلَكيَّة مُتأخِّرة، وبشَكْل رئيسي؛ حقائق وُجدَت في القرن السّابع ق.م..

المُلحق 'ب':

بَحْثٌ عَن سيناء

على الأقلِّ؛ على أساس الخرائط السّياحيَّة الحديثة لشبه جزيرة سيناء، يبدو وكأنَّه لا تُوجد هُناك صُعُوبةٌ خاصَّة في تَمييز أهمِّ الأماكن التي ذُكرَت في القَصَص التّوراتيَّة عن التّيه والتّجوال وإعْطاء الشّريعة. لقد مُيِّز جبل سيناء والأماكن التّوراتيَّة الأُخرى بسُهُولة، وكانت تُزار مُنْذُ العُصُور الوُسْطَى، بل حتَّى في وقت أسبق، في الفترة البيزنطيَّة.

في الحقيقة؛ نَظَريَّة علْم الآثار المُتكاملة الأُولى حول طريق التّجوال في الصّحراء وموقع جبل سيناء تعود لحوالي ألف وخمسمئة عام تقريباً. إنَّها تَعُودُ إلى التّقاليد المسيحيَّة القديمة المُتعلِّقة بالحَرَكَة الرّهبانيَّة، والحَجِّ إلى الأماكن المُقدَّسة في الصّحراء، في القُرُون من الرّابع إلى السّادس الميلاديَّة. ومازال هذه التّقاليد تُبجَّلُ حتَّى هذا اليوم من قبَل السُّيَّاح والحُجّاج الذين يأتون إلى جبل سيناء وموقع الأجمة المُحترقة.

في قلب المنطقة الجبليَّة جنوب سيناء، يقف دير القدِّيسةَ كاثرين، الذي بُنيَ في القرن السّادس الميلادي منْ قبَل الإمبراطُور البيزنطي جُوستينيان، مُحاطاً بقمَمٍ غرانيتيَّة مُثيرة للرّهبة، مُحْيياً ومُذَكِّراً بالموقع المُفتَرَض للأجمة المُحترقة (الذي مازال يُرَى للزُّوَّار حتَّى اليوم)، وقد أخذ الدّيرُ اسمَه الحالي في العُصُور الوُسْطَى. يَستدعى الدّيرُ ـ الذي أُحيط بأسوارٍ عاليةٍ لحمايته من اللُّصُوص ـ صُوَرَ الأزمنة الغابرة. تنتمي كَنيسته الرّائعة ومُعظم تحصيناتها إلى بناء القرن السّادس الأصلي نفسه. تُطلُّ قمَّة 'جبل مُوسى' كَبُرج مُشرف على الدّير، وهي قمَّةٌ مُيِّزتْ، مُنْذُ حوالي الفترة البيزنطيَّة، على أنَّها جبل سيناء[1] نفسه. مايزال مُمكناً لكُلِّ شخص أنْ يُميِّز على هذه القمَّة التي تُشرف على إحدى أكثر المناظر الرّائعة المُدهشة للصّحراء آثارَ كنيسة صلاة القرن السّادس. وتُوجد في الجبال المُحيطة بجبل مُوسى ودير القدِّيسةَ كاثرين آثار أُخرى، من الأديرة المُنعزلة القديمة التي تضمُّ كَنائس، وخلايا نُسَّاك، وتجهيزات ماء.

(1) يقصد جبل الطّور الذي كلَّم الله ـ تعالى ـ فيه مُوسى عليه السلام. (المُترجم).

يُمكن أنْ نجد إشارات إلى بعض هذه المواقع في النُّصُوص المُعاصرة. تصف أعـدادٌ كبيرةٌ نسبياً من المصادر البيزنطيَّة حياةَ رُهبان سـيناء وبناء دير الأجمة المُحترقة. ولا يقلُّ إثارة عن ذلك، النُّصُوص التي تتعلَّق بالحَجِّ إلى جبل الله. الأكثر تفصيلاً من هذه النُّصُوص وَصْفٌ مُتأخِّر يعود للقرن الرَّابع يتحدَّث عن حاجَّة تُدْعى "إيجيريا" Egeria، تروي كيف تسلَّقت هي ورفاقها جبلَ الله، وكيف أراها الرُّهبان الذين يَعيشونَ هُناك كُلَّ الأماكن المذكورة في الرِّوايات التَّوراتيَّة عن جبل سيناء.

ومع ذلك؛ فإنَّ الثِّقةَ التَّاريخيَّة لهذه التَّقاليد موضع شَكٍّ. إذا كان من المُحتمل أنْ يكون الرُّهبان البيزنطيُّون قد حافظوا وبنوا على تقاليدَ أقدم، فإنَّه ليس لدينا أيُّ سبيل لتَحقيق تلك التَّقاليد القديمة؛ لأنَّه لا تُوجد هُناك - بكُلِّ تأكيد - أيُّ آثار أو بقايا قديمة من الأزمنة التَّوراتيَّة في هذه المنطقة. إنَّ التَّفسيرَ الأكثر معقوليَّة لأُصُول التَّقاليد المسيحيَّة القديمة في جنوب سيناء، هُو موقعُها العامُّ وخصائصُها البيئيَّة. إنَّ ديرَ الأجمة المُحترقة وجبل سيناء للرُّهبان البيزنطيِّين يقع في منطقة ذات روعةٍ وجَمال استثنائيَّين، في وسط منظر الجبل العظيم الذي يُمكن أنْ يُثير الهيبة والتَّعظيم بسُهُولة لدى الرُّهبان والحُجَّاج. علاوةً على ذلك؛ من المُحتمل أنَّه كان هُناك سَكَنٌ مُتواصلٌ في هذه المواقع. قدَّمتْ المنطقة المُحيطة بالدَّير فوائد فريدة للرُّهبان، بسبب الجَمْع الخاصِّ للطَّقْس النَّاعم والتَّشكيلات الجيُولُوجيَّة. تتلقَّى الجبالُ العاليةُ في جنوب سيناء مَطَراً أكثر بكثير ممَّا تتلقَّاه المناطقُ المُحيطةُ، والصُّوَّان (الغرانيت) الأحمر للمنطقة غير نفَّاذٌ، ولذلك؛ يُمكن لسَيَلان مياه الأمطار أنْ يتمَّ تجميعها في بركات وصهاريج. بالإضافة؛ تحتوي الوُديان على كَمِّيَّة كبيرة من الماء في تُربتها السُّفلى، التي يُمكن أنْ يُوصَل إليها بواسطة آبارٍ غير عميقة. كَنَتيجة لذلك؛ كَان الرُّهبان البيزنطيُّون قادرين على زراعَة الحُقُول والبساتين في الوُديان الصَّغيرة بَيْن الجبال (كما استمرَّت مجموعات بَدَويَّة بمثل ذلك العمل حتَّى أوقاتنا الحاليَّة).

ولذلك؛ فالظَّاهر أنَّ اجتماع المناظر المهيبة مع الظُّرُوف البيئيَّة المُواتية، شجَّع الحجَّ والتَّقديس المُستمرَّان لهذه المواقع في هذا الجُزء من شبه جزيرة سيناء. لقد شجَّعتْ قُوَّة القصَّة التَّوراتيَّة عن جبل سيناء - دائماً - المُحاولات الرَّامية لتَمييز مواقع مُعيَّنة. إلاَّ أنَّ هذا يَبْقى في عالم الفُولُوكلُور والتَّخمين الجَغرافي، لا عالَمَ علْم الآثار.

المُلحق 'ج':

النَّظَريَّات البديلة للغزو والفَتْح الإسرائيلي

التَّسرُّب السِّلْمي:

في العشرينات والثّلاثينات، عندما أخذ "أُولبرايْت" Albright وطُلاَّبه يقتنعون - بشَكْل مُتزايد - بأنَّهم قد وَجدوا دليلاً آثاريَّاً على غزو يشُوع، طوَّرَ عالمٌ توراتيٌّ ألمانيٌّ يُدْعى "ألبريخت الت" Albrecht Alt فَرَضيَّةً مُختلفةً جداً. كَانَ لدى "الت"، الأُستاذ في جامعة "لايبْزيغ" Leipzig، شكٌّ كبير في أنَّ سفْر يشُوع يُمكن أنْ يُقْرَأ كَتاريخ واقعي؛ وكَانَ - كالعديد من زُملائه الأكاديميِّين الألمان - من مُؤيِّدي التَعامل النَّقْدي مع الكتاب المُقدَّس العبْريّ. كان مُقتنعاً أنَّ قصَّة الكتاب المُقدَّس جُمعَت بعد قُرُون من وُقُوع الأحداث المزعومة، وأنَّها يجب أنْ تُعَدَّ أُسطُورة وَطَنيَّة بُطُوليَّة. إلاَّ أنَّ "الت" لم يكن مُستعداً لاستنتاج أنَّه لا يُمكن الوُصُول لتفسير تاريخي لأُصُول الإسرائيليِّين. في حين قلَّل من مصداقيَّة قصَّة الرِّواية القَصَصيَّة في سفْر يشُوع، كان مُستعداً لقبول إمكانيَّة تاريخيَّة الحقائق المذكورة في مصدر مُنافس: الفَصْل الأوَّل من سفْر القُضَاة.

خلال جولاته في أنحاء فلسطين في السّنوات الأُولى من القرن العشرين، سُحر "الت" بطُرُق العيش ونماذج استيطان البدو في المناطق السّهميَّة في النَّقَب وصحراء يهُوذا. واستناداً على معرفته بالنُّصُوص القديمة ومُلاحظاته العرْقيَّة الشّاملة للحياة البَدَويَّة، لاسيما علاقة البدو بالمُجتمعات الرِّيفيَّة، صاغ نَظَريَّة مُثيرة عن أُصُول الإسرائيليِّين.

كان في صميم هذه النَّظَريَّة الجديدة الإدراك بأنَّ البدو الرُّعاة في الشّرق الأوسط لا يتجوَّلون بدُون هدف، لكنَّهم يتحرَّكون بقطعانهم حَرَكَة رُوتينيَّة موسميَّة مُنتظمة. تستند تحرُّكاتهم المُعقَّدة على فَهْم دقيقٍ للتَّغيُّر المناخيِّ الموسميِّ. فبما أنَّ المطر لا يهطل إلاَّ في الشّتاء،

والمراعي الخضراء مصدر نادر خلال الصّيف الطّويل الجافّ، فإنَّ البَدْوَ الرُّعاة يُجْبَرون على إدارة قطعانهم بنَحْو حذرٍ جداً. لاحظ "الت" أنَّه خلال فُصُول الشّتاء المُمطرة، عندما تكون هُناك مراعٍ كثيرةٌ حتَّى في المناطق القاحلة نسبياً للسُّهُول والصّحراء، يتحرَّك البَدْو بعيداً عن مناطق سَكَنهم، مُنشئين مُخيَّمات في حافَّة الصّحراء. وعندما يأتي فصل الجفاف، وتنتهي مراعي الشّتاء، تتحرَّك مجموعات البدو بقطعانها إلى مناطق أقرب للمناطق الزّراعيَّة الأكثر خُضرة في البلاد؛ حيثُ يُمكن أنْ تُوجد أراضٍ للرّعي. وكان البدو على أُلفة ومعرفة بتلك المنطقة، لقد أسَّسوا - عبْر السّنوات - مُجتمعات مزارع. لقد كان يُسْمَحُ لهم أنْ يتركوا حَيَوَاناتهم تتجوَّل في حُقُول القُرَى الدّائمة التي حُصدَتْ محاصيلُها حديثاً، ليرعوا فيما تبقى من الزّرع بعد الحصاد، ويُسَمِّدُوا الأرض، ولكنْ؛ حتَّى هذا المصدر للرّعي كان يُستنزَف في ذروة الصّيف، وتبقى عدَّة أشهر حتَّى يحين هُطُول أمطار الشّتاء. وكانت هذه الفترة هي الأكثر حَسْماً لبقاء المواشي حيَّة. وفي هذه النُّقطة يتَّجه البدوي إلى المراعي الخضراء في المُرتفعات؛ حيثُ ينتقلوا بقطعانهم بَيْن القُرَى المُستقرَّة وحواليها إلى حين مجيء فصل الأمطار في النّهاية؛ حيثُ ينتقلون خارجاً من جديد نحو حافَّة الصّحراء.

كان هذا الرُّوتين السّنوي يعتمد على التَّقلُّبات في أوقات وكَمِّيَّات منسوب الأمطار، ولاحظ "الت" - أيضاً - كيف أَمْكَنَ للتَّغيُّرات الصّارمة في المناخ أو الظُّرُوف السّياسيَّة أنْ تُؤثِّر على البدو، وتجعلهم يتخلُّون عن طريقة عيشهم القديمة ليستقرُّوا بشَكْل دائم. أخذ هذا التَّغيُّر في نَمَط الحياة وقتاً طويلاً ليبلغ شكْله النّهائي. إنَّ طريقة العيش الرّعويَّة بعاداتها وإيقاعاتها ومُرُونتها الهائلة هي - من عدَّة جهات إستراتيجيَّة - أكثر أمناً للبقاء من مُجرَّد زراعة قطعة واحدة من الأرض، ولكنَّ العَمَليَّة لم تكن قابلة للمُلاحظة أبداً، وذلك لأنَّ قطعاً صغيرة وموسميَّة بدأت بالظُّهُور في مناطق مُحدَّدة من المراعي الصّيفيَّة؛ حيثُ اعتادت مجموعات البدو العودة سنة بعد سنة. بعد بَذْر الحنطة أو الشّعير في قطع الأرض الصّغيرة، كانوا يُغادرون الأرض برفقة قطعانهم، ليعودوا في وقت لاحق في الرّبيع التّالي، في الزّمن المُناسب لحصاد المحصول.

في البداية؛ زَرَعَتْ مجموعات صغيرة قطعاً منعزلةً من الأرض، بَيْنما واصل أصحابها تربية ورعي قطعانهم. كان مُمكناً لقسم من العائلة أنْ يتخلَّف ويبقى قُرْب الحُقُول بَيْنما تُواصل

البقيَّة تحرِّكُها بقطعان الحَيَوَانات. مع الزّمن؛ أخذت هذه القطع المزروعة الموسميَّة تكبر أكثر شيئاً فشيئاً، وأصبح البدو المُزارعين يعتمدُون عليها أكثر فأكثر؛ لأجل الحُبُوب التي كانوا في السّابق يُضطَرُّون لشرائها من القرويِّين. ومع تكريس المزيد من الوقت والجهد، بشَكْل تدريجي، للفلاحة، أخذ عدد مواشي القطعان يتناقص؛ لأنَّ الرُّعاة كانوا يُضطَرُّون للبقاء قُرْب حُقُولهم، ولم يعودوا قادرين على القيام برحلات بعيدة المدى. وكانت المرحلة الأخيرة في هذه العَمَليَّة هي التَّوطُّن الدّائم، مع بناء مساكن دائمة والتَّخلِّي عن تربية المواشي إلاَّ في الجوار المُباشر للحُقُول. أشار "الت" إلى أنَّ هذه العَمَليَّة كانت تدريجيَّة وسلْميَّة، بشَكْل واسع ـ على الأقلّ في بدايتها ـ لأنَّ البدو استقرُّوا ابتداءاً في المناطق المأهولة بالسُّكَّان بشَكْل مُتناثر؛ حيثُ كانت تُوجد المياه والأراضي بوفرة نسبيَّاً، كما أنَّ ملكيَّة الأرض لم تكن تحت رقابة قويَّة، ولم يحصل إلاَّ في مرحلة لاحقة، أنْ بدأ البدو المُستقرُّون جديداً بالتّنافس والتّنازع على الأرض والماء مع سُكَّان القُرَى المُجاورة.

في مُلاحظاته لعَمَليَّة الاستقرار هذه، أو إقامة البدو الرُّعاة، اعتقد "الت" بأنَّه فَهِمَ الحالةَ الموصوفة في سفر القُضَاة. بمُرُور الوقت؛ صاغَ ما أصبح يُعْرَفُ بنَظَريَّة التَّسرُّب السِّلْمي لأُصُول الإسرائيليِّين. طبقاً لـ" الت"، كَان الإسرائيليُّون بدواً رُعاةً أصلاً تَجولُوا بشَكْل دوري بقطْعانهم بَيْن مناطق السّهل في الشّرق في الشّتاء، وفي مُرتفعات غرب كَنْعَان في الصّيف. كلتا المناطق وُصفتْ في مصادر مصريَّة قديمة بأنَّها مأهولة بشَكْل مُتناثر. رغم أنَّه كان من الصّعب تنظيف ومسح الأرض المُشجَّرة بشدَّة، وأنَّ التّضاريس كانت وعرة، كانت هُناك أرضٌ حُرَّة كثيرةٌ للزّراعة. لذلك اعتقد "الت" بأنَّه في نهاية العصر البرُونزي المُتأخِّر، بَدأَتْ بَعْض مجموعات البدو الرُّعاة بمُزَاوَلَة زراعةٍ موسميَّة قُرْب مراعيها الصّيفيَّة في مُرتفعات كَنْعَان. وبَدأتْ عَمَليَّة التَّوَطُّن الدّائم.

كما في الأزمنة الحديثة، كَانتْ هذه العَمَليَّة تدريجيَّة وسلْميَّة في البداية. رغم ذلك؛ اقترح "الت" بأنَّه عندما نَمت أعداد المُستوطنين الجُدُد، وزادت حاجتهم للمزيد من الأرض والماء، بَدأت المشاكل مَع جيرانهم الكَنْعَانيِّين، خُصُوصاً أُولئك الذين يعيشون في البلدات البعيدة والمَعْزُولة في المُرتفعات، مثل أُورشليم (القُدْس) ولوز (بيت إيل). أدَّت هذه النّزاعات على

الأرض وحقوق الماء - حسبما افترض "الت" - إلى المناوشات المحلِّيَّة في النِّهاية، ونزاع مُطوَّل كَان خلفيَّة الكفاح بَيْن الإسرائيليِّين وجيرانهم الكَنْعَانيِّين والفلسطينيِّين المذكور في سفر القُضَاة.

رغم أنَّ فَرَضيَّة التَّسرُّب السِّلميَّة كَانتْ فَرَضيَّة نَظَريَّة جداً، كَانَت اقتراحاً مُغرياً. إنَّها كَانَت منطقيَّةً، وتُلائمَ الخلفيَّة السُّكَّانيَّة والاقتصاديَّة للبلاد، وتُلائم القَصَص في سفر القُضَاة، التي - على أيِّ حال - عُدَّتْ أكثر تاريخيَّة من روايات المعارك الملحميَّة لكتاب يشُوع. كانت تمتلك نُقطة إيجابيَّة أُخرى؛ وهي أنَّها بَدَتْ مدعومَة ومُؤيَّدة بالنُّصُوص المصريَّة القديمة. وَصفَتْ ورقة بردى مصريَّة من أيَّام رمسيس الثَّاني في القرن الثَّالث عشر ق.م، الذي كانت تُسجِّل مُسابقة بَيْن كاتبَيْن على جَغرافيَّة كَنْعَان، وَصَفَتْ مناطق التِّلال كَمنطقة مُشجَّرة وعرة، وفارغة تقريباً، مُستوطنة من قبَل البدو "الشُّوصيِّين". لذا؛ اعتقد "الت" أنَّ الإسرائيليِّين يُمْكنُهم أنْ يَكُونُوا - في الحقيقة - نفس أُولئك "الشُّوصيِّين". مراحلهم الأوَّليَّة من الإقامة وترك التَّرحال في المُرتفعات لَمْ تَجْذبْ عداوة المصريِّين؛ لأنَّ مصر كانت مُهتمَّة - بشَكْل رئيسي - بالمناطق الخصبة على طُول السَّاحل وفي الوُديان الشَّماليَّة، القريبة من الطُّرُق الإستراتيجيَّة البريَّة للتِّجارة الدّوليَّة.

في أوائل الخمسينات؛ اعتقد "يُوهانان آهاروني"، أحد أكثر المُؤيِّدين الحارِّين لـ "الت" بَيْن عُلماء الآثار الإسرائيليِّين، أنَّه وَجدَ دليلاً قاطعاً في منطقة الجليل العُليا. اسكتشفَ "آهاروني" هذه المنطقة ذات المُرتفعات، والمُشجَّرة بشدَّة في شمال البلاد، ليجد أنَّ تلك المنطقة كانت - في العصر البرُونزي المُتأخِّر - فارغةً - تقريباً - من المُستوطنات الكَنْعَانيَّة. في فترة العصر الحديدي الأوَّل التَّالية، أُسِّسَت هُناك أعدادٌ كبيرةٌ - نسبيّاً - من المُستوطنات الفقيرة المَعْزُولة الصَّغيرة. رَبطَ "آهاروني" المُستوطنين بالإسرائيليِّين الأوائل، وتحديداً شعبَيْ قبيلَتَيْ نَفْتالي وأشير، الذين روت الفُصُول الجَغرافيَّة لسفر يشُوع أنَّهم استقرُّوا في المناطق الجبليَّة للجليل.

لَيسَ مُفاجئاً أنْ تتعرض استنتاجات "آهاروني" لتشكيك مرير من قبَل "ييغائيل يادين" Yigael Yadin، الذي اعتقد أنَّ دليلَ الحرائق الهائلة لمدينة "حاصُور" البرُونزيَّة المُتأخِّرة، التي وَصَفَهَا سفر يشُوع بأنَّها "رئيس كُلّ تلك الممالك"، يمنع أيَّ نَظَريَّة تسرُّبٍ سلميٍ من أيِّ نوع.

"يادين" الذي التزم بنَظَريَّة الغزو المُوحَّدة، جادلَ بأنَّه طالما كانت مدينة "حاصُور" ماتزال قويَّة، لَمْ يَكنْ مُمكناً للإسرائيليِّين أنْ يَستقرُّوا في الجليل. في رأيه؛ المهمَّة الأُولى في هذه القصَّة لابُدَّ وأنَّها كَانتْ دمارَ "حاصُور" من قبَل الإسرائيليِّين في أواخر القرن الثّالث عشر ق.م.. فقط عندما أصبحت "حاصُور" أنقاضا مُهدَّمةً فُتحَ الباب أمام الإسرائيليِّين للتَّوطُّن والاستقرار في الجليل الأعلى، وفي الحقيقة؛ في خرابات "حاصُور" نفسها أيضاً.

كَانتْ إعادةُ بناء "أهاروني" للأحداث أقلَّ بُطُوليَّة، ولو أنَّها ليست بأقلّ رُومانسيَّة. في رأيه؛ ظَهرَ الإسرائيليُّون في المنطقة عندما كانت "حاصُور" ماتزال مدينة قويَّة، وأنَّهم لم يختاروا الدُّخُول في مُجابهة. بَدَلاً من الاستقرار على مقربة من "حاصُور" واستجلاب عداوةَ سكَّانها، وَصَلَ الإسرائيليُّون ـ بشكْل تدريجي ـ واستقرُّوا ـ بسلام ـ في مناطق مَعْزُولة فارغة ومُشجَّرة في الجليل الأعلى. وهُناك اختاروا الكفاح ضدَّ بيئة قاسية، وضدَّ أخطار الزّراعة في المناطق المُرتفعة، بَدَلاً من الدُّخُول في صراعٍ مَع "حاصُور" القويَّة/ لكنَّ المُواجهة ـ في النّهاية ـ حَصَلَتْ لاحقاً، عندما ـ حَسَبَ رأي "أهاروني" ـ اكتسب الإسرائيليُّون القُوَّة الكافيةَ لشَنِّ هُجُوم على "حاصُور". بعد تدمير المدينة فقط، قام الإسرائيليُّون بالتَّوسُّع نحو المناطق الشّماليَّة الأغنى والأكثر خُصُوبةً، بما في ذلك الرّأس الشّمالي لوادي الأُردُن.

بَدأتْ نَظَريَّة التَّسرُّب السِّلْميَّة بالسَّيْطَرَة في العقدَيْن التّاليَيْن، كَنتيجة لاستكشافات "أهاروني" في وادي بئر سبع، المنطقة القاحلة جنوب منطقة المُرتفعات والتّلال اليَهُوَذَويَّة. في السِّتّينات والسّبعينات نقَّبَ "أهاروني" بعض المواقع الهامَّة في الوادي: قلعة "أراد"، البلدة القديمة لبئر سبع، وموقع العصر الحديدي المُبكِّر الكبير جداً لتَلّ ماسوس Masos، الذي يقع قُرْب آبار الماء العذب في مُنتصف الوادي. اكتشف "أهاروني" أنَّ تاريخ مُستوطنة وادي بئر سبع كَانَ مُشابهاً لتاريخ الجليل الأعلى. في حين لم تكن هُناك مراكز استيطان دائمة في الوادي في العصر البرُونزي المُتأخِّر، أُسِّستْ عدد من المُستوطنات الصّغيرة هُناك في العصر الحديدي الأوَّل. رَبط "أهاروني" مُستوطني العصر الحديدي الأوَّل بأبناء قبيلة "شمعون". رغم أنَّ تلك القبيلة كانت مُختلفة، إلاَّ أنَّ "أهاروني" كانت مُقتنعاً أنَّ القصَّة كانت نفسها: استيطان الإسرائيليِّين السِّلْميّ في الأراضي الحُدُوديَّة التي كَانتْ فارغة من المُدُن الكَنْعَانيَّة.

ثورة فلاّحين:

على الرّغم من خلفيّاتهم المُتباعدة، ومُعتقداتهم الدِّينيَّة وآرائهم المُتعارضة، كان هُناك اعتقادٌ حارٌّ واحدٌ مُشترَك لدى كُلٍّ من "أولبرايْت"، و"الت"، و"يادين"، و"أهاروني". افترضَت كلا نظريَّتيْ الغزو العسكري والتَّسرُّب السِّلْمي" أنَّ الإسرائيليِّين كَانوا مجموعةً جديدةً دَخلتْ البلادَ في نهاية العصر البرُونزي المُتأخِّر. وبغَضِّ النَّظَر عن اختلافاتهم بخُصُوص فَهْم النَّصِّ التّوراتي، اعتقدوا كُلُّهم أنَّ هذه المجموعة العرْقيَّة عاشتْ في مُستوى حضاري أدنى بكثير من الكَنْعَانيِّين المحلّيِّين. وَصَفَ كلا "يادين" و"أهاروني" هؤلاء الإسرائيليِّين الأوائل بأنَّهم أنصافُ بَدْوٍ، واعتقدَا كلاهما أنَّ غزو كَنْعَان، سواء بالاحتلال أو بالتَّسرُّب، كَانَ فصلاً في النّزاع الخالد بَيْن المُزارعين والبدو، بَيْن الصّحراء والمناطق الزّراعيَّة، في الشّرق الأوسط.

اهتزَّ هذا الاعتقاد الضّمني - بشكْل كبير - في السِّتِّينات والسّبعينات، عندما أدركَ عُلماء الإنسانيَّات وعُلماء الآثار الذين يَعْملونَ في أجزاء أُخرى من الشّرق الأوسط بأنَّ الفَرَضيَّات القديمة البالية حول التّمايزات الواضحة المعالم بَيْن عالَمَي البدو الرُّحَّل الرُّعاة، والقرويِّين المُستقرِّين، كَانت خاطئة وساذجة ورُومانسيَّة وتبسيطيَّة.

كَان أوَّل وأهمّ هذه الافتراضات الاعتقاد السّائد في القرن التّاسع عشر أنَّه في كافَّة فترات العصر القديم، ضمَّت الصّحاري السُّوريَّة والعَرَبيَّة أعداداً واسعةً من البدو المُثيرين للاضطرابات، الذين كانوا يغزون الأرضَ المُستقرَّة بشكْل دوريّ. قُلبَتْ هذه الفَرَضيَّةُ بإجماع مُتزايد بَيْن عُلماء الإنسانيَّات في السِّتِّينات الذين رأوا أنَّ الصّحاري العظيمة لم يسبق لها أنْ كَانتْ قادرة على دَعْم أكثر من حفنة من البدو "الخُلَّص" قبل التّدجين الواسع الانتشار للجَمَل، كَحَيَوَان يُمكن تربيته، في آخر الألفيَّة الثّانية ق.م، إنْ لمْ يكن في وقتٍ مُتأخِّرٍ أكثر. مُنْذُ أنْ حَدثَ هذا التَّطورُ بَعْدَ أنْ ظَهرَ الإسرائيليُّون في كَنْعَان، كَانَ من البعيد للغاية أنْ يتمَّ تطبيق نَمَط الغزو البدوي عليهم. وُفقاً لذلك؛ استنتجَ بَعْض العُلماء أنَّ الإسرائيليِّين لم يكونوا بدواً رُعاةَ جمالٍ، خُلَّصاً، بل كانوا - بشكْل أساسي - مربِّي خرافٍ وماعزٍ، من النّوع المعروف بتجوُّله بقطعانه، لَيسَ في الصّحراء، لكنْ؛ على حافَّات الأرض الصّالحة للزّراعة.

كما لاحظَ "الت ألبريخت"، تزامنُ حصادَ الحُبُوب الصّيفي مع جفاف أراضي الرّعي على حافَّات الصّحراء، الأمر الذي يُشجِّعُ حَرَكَة العودة الطّبيعيَّة للرُّعاة وقطْعانهم نحو المناطق

الزّراعيَّة المَسْقيَّة بشَكْل جيِّد، بل يَستوجبُ، التّعاونَ بَيْن المجموعتَيْن. أو على الأقلّ، قَدْ يُستَأجرُ الرُّعاة كَعُمَّال زراعيِّين موسميِّين، وقد يُسْمَح لقطعانهم بالرّعْي في ما يبقى من الزّرع بعد حصاد الحُقُول، لكنْ؛ في الكثير من الحالات قَدْ يكُون الرُّعاة والمُزارعون أعضاءَ جماعة واحدةٍ، يَبتعدُ أعضاؤها البدويُّون إلى السُّهُول الصّحراويَّة في الشّتاء، بَيْنما يَتخلَّفُ الأعضاءُ المُقيمون لتحضير وزراعَة حُقُول القرية.

يقترح البحث في طبيعة البداوة الرّعويَّة أنَّ الافتراضات القديمة حول تحوُّل الإسرائيليِّين القُدماء التّدريجي من بدوٍ إلى مُزارعين يَجبُ قَلبُها رأساً على عقب. من وجهة نَظَر أنثرُوبُولُوجيَّة (علم إنسانيَّة)، ينتمي الإسرائيليُّون الرُّعاة والمُزارعون الكَنْعَانيُّون إلى نفس النّظام الاقتصادي. إذا كَانَ هُناك أيُّ تحرُّكات سُكَّانيَّة هامَّة، كان يُمكن أنْ يكون مصدرها المناطق المُستقرَّة فقط، وكانت ستكون ـ كما تصفها كلمات المُؤرِّخ "جُون لُوك" **John Luke** ـ نحو السّهل والصّحراء، ولَيسَ خارج الصّحراء نحو الأراضي المبذورة."

ثُمَّ جاءَ "جُورج ميندينهال" **George Mendenhall**، العالم التّوراتي ذُو المعنويَّات العالية من جامعة مشيغان **Michigan**، ليرفض كلتا نظرتَيْ غزو وهجرة المُستوطنين الإسرائيليِّين بنفس درجة الازدراء. كَان "ميندينهال" ـ لسَنَوات عديدة ـ صوتاً فريداً في وادي الثّقافة التّوراتيَّة، مُدَّعياً أنَّ بُرُوز الدِّين الإسرائيلي والاتِّحاد العشائري يُمكن أنْ يُوضِّحَا فقط على أساس التّنمية الاجتماعيَّة الدّاخليَّة في كَنْعَان خلال العصر البرُونزي المُتأخِّر. مُنْذُ عهد مُبكِّر في عام 1947، راجعَ دليل رسائل تلّ العمارنة، وكان أحد أوَّل مَنْ استنتج أنَّ "الأبيرو"، الذين اعتبرهم بعض العُلماء عبْرانيِّين **Hebrews**، لم يكونوا مجموعة عرْقيَّة مُطلقاً، بل طبقةً اجتماعيَّة واضحةَ المعالم.

أثبت "ميندينهال" أنَّ دُولَ مُدُن العصر البرُونزي المُتأخِّر في كَنْعَان نُظِّمتْ كَمُجتمعات طَبَقيَّة لحَدٍّ كبير، يتربَّع الملك أو رئيس البلديَّة على قمَّة الهَرَم، ويأتي تحته مُباشرة كبارُ المسؤولين، والأُمراء، وحاشيةُ الملك وبطانته، وقادةُ العَرَبَات الحربيَّة، ثُمَّ يأتي الفلاَّحون الرِّيفيُّون في القاعدة. كَان "الأبيرو" ـ على ما يبدو ـ خارج هذا المُخطَّط التّنظيمي، ويَبْدو أنَّهم هدَّدوا النّظام الاجتماعي في عدد من الطُّرُق. أشار "ميندينهال" وآخرون إلى أنَّ "الأبيرو"،

رغم أنَّهم كانوا ـ في الأصل ـ مُقيمين ، انسحبوا من النّظام الحَضَري ـ الرّيفي ، للعَمَـل ـ أحياناً ـ كَمُرتزقة لِمَنْ يُقدِّم لهم أجراً أعلى ، وعندما كـان ذلـك العمـل لا يتوفَّـر ، كـان بعـض "الأبيرو" يُشجِّعون الفلاَّحين ـ بنشاط ـ على الثّورة .

ويُؤكِّد "ميندينهال" أنَّ سياق هذا الاضطراب الاجتماعي لم يكن نزاعاً بَيْـن البـدو والسُّكَّان المُقيمين ، بـل بَيْـن سُكَّان الأرياف وحُكَّام دُول المُدُن . تُزوِّدنا رسـائل تـلّ العمارنـة بدليـل علـى المشقَّات والمصاعب والفُرُوض الثّقيلة جداً ، التي كان يفرضها المُلُـوك والسّـادة الكبـار المصريُّون ، على الإنتـاج الزّراعـي والرّعـوي . فلـم يكـن عجيباً أنْ ينجـح "الأبيرو" نجاحاً عظيماً في إثـارة الفلاَّحين ، وأنْ تُخَرَّب العديد من المُدُن الكَنْعَانيَّة في ذَلك الوَقت . لم تكن مُدُن العصـر البـرُونزي المُتأخِّر لكَنْعَان تزيد على مراكزَ إداريَّة من النُّظُم الإقطاعيَّة الإقليميَّة . وبالتَّـالي ؛ لـم يكـن دمارهـا نَصراً عسكرياً فقط ، إنَّه كَانَ ـ أيضاً ـ إنهاءً فعَّالاً للنّظام الاقتصادي الذي حافظت عليه المدينة .

(تُمثِّل كلا موادّ العمارنة والأحداث التّوراتيَّة نفس العَمَليَّة السّياسيَّة) ، كَتَـبَ "ميندينـهال" عام 1970 :

أقصـد ، الانسـحاب ، لَيسَ جسـدياً وجَغرافيَّاً ، ولكـنْ ؛ سياسـيَّاً وشـخصيَّاً ، لمجموعـات سُكَّانيَّة كبيرةٍ من أيّ التزامٍ تجاه النُّظُم السّياسيَّة الحاليَّة ، وبالتَّـالي ؛ التّنـازل عـن أيّ حمايـةٍ مـنْ قِبَل هذه المصادر . وبعبارةٍ أُخرى ؛ لم يكن هُناك ـ إحصائيَّاً ـ غزوٌ مُهمٌّ لفلسطين في بدايـة نظـام قبائل إسـرائيل الاثنَـيْ عشـر . لـم تحصـل هُنـاك إزاحـةٌ جَذْريَّـة للسُّكَّان ، لـم تكـن هُنـاك إبـادة جماعيَّة ، لم يكن هُناك طَرْدٌ واسعُ النّطاق للسُّكَّان ، فقـط للإدرايّيْـن المَلَكيّيْـن (بالضّرورة !) . والخُلاصة ؛ ما كان هُناك غزوٌ حقيقيٌّ لفلسطين ، بالمعنى المفهوم عادةً ؛ بل الذي حَدثَ بَدَلاً من ذلك يُمكن تسـميته ، مـن وُجهـة نَظَـر المُؤرِّخ العلمـاني الـذي يـهتمٌّ فقـط بالعمليَّـات السّياسـيَّة الاجتماعيَّة ، ثورة فلاَّحين ضدَّ شبكة دُول المُدُن الكَنْعَانيَّة المُتشَابكة .

في قلب نَظَريَّة ثورة الفلاَّحين كَانَ هُنَاك تفسيرٌ مُبتكرٌ لكيفيَّة بدء الدِّين الإسرائيلي . زَعـمَ "ميندينهال" أنَّ "الأبيرو" والفلاَّحين المُؤيِّدين لهم لـم يكونـوا ـ أبـداً ـ ليتمكَّنـوا مـن التَّغلُّـب علـى الهيمنة الإقطاعيَّة الكَنْعَانيَّة بـدُون عقيـدة مُهمَّـة مُقنعـة . وقـد اعتقـد أنَّ عقيدتَـهم ـ عبـادةُ الإلـه الواحد المُتعال "يَـهْوَه" ـ كَانَت رَدَّاً رائعاً علـى ديـن المُلُـوك الكَنْعَـانيِّين . بَـدَلاً مـن الاعتمـاد علـى

هيكلٍ مُكـرَّسٍ لجميـع الآلهـة، وعلـى طُقُـوس الخُصُوبـة المُفصَّلـة (التـي لا يُمكـن أنْ تُـؤدَّى إلاَّ بواسطة الملك وكَهَانته الرَّسْميَّة فقط)، وَضعـتْ الحَرَكَـة الدِّينيَّـة الجديـدةَ إيمانَـها فـي الله الواحـد الـذي أسَّـسَ قوانـين مُسـاواة عادلـة للسُّلُوك الاجتمـاعي، وأبلغـها - مُباشـرة - لكُـلِّ عُضْـو فـي الجماعة. وهكذا؛ فإنَّ قبضة المُلُوك على النّاس انكسرت عَمَليّاً بانتشـار هـذا الإيمـان الجديـد. وبالنّسبة لمُؤيِّدي نَظَريَّة ثورة الفلاَّحين، أُنجِزَ الغزو الإسرائيلي الحقيقي بـدُون احتـلال أو هجـرة عندما أسْقَطَتْ الأعداد الكبيرة من الفلاَّحين الكَنْعَانيِّين، سادَتَـهم، وأصبحوا "إسرائيليِّين".

في عـام 1979، تبنَّـى "نُورمـان ك. غُوتْوَالـد" **Norman K. Gottwald**، عـالم توراتـي أمريكي آخر، نَظَريَّات ميندينهال، ووسَّعَها في كتابه: "قبائل يَـهْوَه"، لكنَّه ذَهـبَ خُطوة للأمـام أيضاً؛ وهاجمَ الدّليلَ الآثاريَ مُباشرةً. بَيْنما رَفضَ "ميندينهال" كُلّ كلامٍ حول توطُّن واستقرار أنصاف البدو في منطقة التّلال والمُرتفعات وعلى حافَّات الصّحـراء، اعتقـد "غُوتْوَالـد" أنَّ هـذه المواقع كَانتْ - في الحقيقة - إسرائيليَّة، لكنَّه أتى بهذا التّعريف لأسبابٍ مُختلفةٍ جـداً. لقـد فسَّر الحالة بأنَّ الحُدُود البعيدةَ ومناطقَ الغابات كَانت ذاتَ جَذْبٍ طبيعيٍّ لأعضـاء حَرَكَـة الاسـتقلال الذين هربوا من السُّهُول والوُديـان المأهولـة بشَكْل كثيـف بالسُّكَّان، (والمُسَيْطَر عليـها بشَكْل مُباشر أكثر)، ليُؤسِّسوا لأنفسهم طريقة حياة جديدة. اقترح "غُوتْوَالد" أنَّ اسـتيطانهم فـي هـذه المنـاطق الصّخريَّـة والفقـيرة بالمـاء كَـانَ مُمكنـاً - بشَكْل رئيسـيٍّ - بسـبب التَّطـوُّر التّكنُولُوجــي: الأدوات الحديديَّة لحَفْر الصّهاريج في قلب الصّخر، واللُّصاق ضدَّ الماء لسَدِّ جُدران الصّـهاريج وإنشاء مصاطب وشُرفات مُسطَّحة على مُنحدرات المُرتفعات.

وعلـى الصّعيـد الاجتمـاعي؛ أضـافَ "غُوتْوَالـد" أنَّ الإسـرائيليِّين أسَّسـوا فــي مواطنــهم الجديدة، مُجتمعاً أكثر مُساواةً؛ حيثُ وسائل الإنتاج مُتاحةً للكُلِّ. وعلـى المُسـتوى الفكـري؛ اقترح بأنَّ الأفكارَ الجديدةَ للمُساواة استُوردَت إلى كَنْعَان بواسطة مجموعة صغـيرة مـن النّـاس جاؤوا من مصر، واستقرُّوا في المُرتفعات. قد تكون هذه المجموعة تأثَّرتْ بالأفكار المصريَّة غـير التّقليديَّة عن الدِّين، كتلك التي حفَّزَتْ ثورةَ "أخناتين" **Akhenaten** التي طرحت أفكـار القـرن الرّابع عشر، التي كَانتْ أقرب إلى المفهوم الذي ظـهر بعـد زمـن طويـل للتّوحيـد. لـذا؛ كَـانتْ هذه المجموعة الجديدة النُّواةَ التي تبلوَرَ حولها المُستوطنُون الجُدُد في المُرتفعات.

قدَّم عالمُ الآثار الأمريكي "وليام ديفر" William Dever سياقاً آثاريّاً واضحاً تماماً لنَظَريَّة ثورة الفلاَّحين مُقْتَرحاً تفسيراً جديداً للاكتشافات التي ظهرت في التّنقيبات السّابقة، لقد استدلَّ بأنَّ الفخَّاريَّات والهندسة المعماريَّة للمُستوطنات الجديدة في المُرتفعات في العصر الحديدي الأوَّل كانت مُشابهة لتقاليد البناء والخَزَف لسكَّان السُّهُول في العصر البرُونزي المُتأخِّر مُقترحاً - بناء على ذلك - أنَّ الإسرائيليِّين الأوائلَ جاؤوا من جاليات كَنْعَانيَّة مُقيمة. اقترح "ديفر" Dever، مُوافقاً "غُوتوالد" Gottwald، أنَّ العصر الحديدي الأوَّل كان المرَّة الأُولى التي أصبحت فيها مناطق التّلال والمُرتفعات مُكتظَّة بالسُّكَّان، وهذا يعود - في جُزء كبير منه - إلى إبداعيّين تقنيّين جديدين. كان الأوَّل منهما معرفةَ حفر وتَجصيص صهاريج خزن الماء في سرير الصّخر (التي مكَّنت السُّكَّان الجُدُد من تَأسيس مُستوطناتٍ بعيداً عن الينابيع والآبار الدّائمة)، والثّاني تقنيَّات بناء شُرفات (مصطبات) زراعيَّة على سفُوح التّلال الحادَّة (التي فَتحتْ الطّريق أمام استغلالٍ أكثر كثافةً لمنطقة التّلال والمُرتفعات، بما في ذلك التَّخصُّص في الكُرُوم وبساتين الزّيتون، التي أدَّت تباعاً إلى الإنتاج الشّامل للخمر وزيت الزّيتون). طبقاً لـ "ديفير" Dever كلا "الاختراعَيْن" لابُدَّ وأنَّه نَشأ في مُجتمع مُعقَّد مُتطوِّر تقنياً، أيْ السُّكَّان المُقيمون في كَنْعَان.

كَانَت نَظَريَّة ثورة الفلاَّحين أو فَرَضيَّة "الثّورة الاجتماعيَّة" جذَّابةً جداً، وحازت على دَعْم عددٍ كبيرٍ من العُلماء التّوراتيّين وعُلماء الآثار. بَدت مُلائمةً للحقائق الاجتماعيَّة للعصر البرُونزي المُتأخِّر لكَنْعَان، كما بَدَتْ مُوضّحةً لانحطاط نظام الاستيطان البرُونزي المُتأخِّر في السُّهُول وبرُوز نظام المُرتفعات في العصر الحديدي الأوَّل، وهُو أمرٌ كَانَ مُتناغمَاً جداً مع الاتِّجاه السِّياسي الجَذْري للحياة الأكاديميَّة الأمريكيَّة والأُورُوبيَّة في ذلك الوقت. كما تطابق - أيضاً - مع مذهب الشَّكِّ المُتزايد في البحث التّوراتي بخُصُوص القيمة التّاريخيَّة لكلَيْ سفْر يشُوع وسفْر القُضَاة، لكنَّها كَانَت نَظَريَّة خاطئةً. في الواقع؛ لقد تمَّ التَّخلِّي عنها بنفس سُرعة تبنِّيها سابقاً تقريباً، ما السّبب؟ السّبب أنَّها كَانَت فَرَضيَّة تخمينيَّة ونَظَريَّة لحدٍّ بعيدٍ، ولم يكن لديها إلاَّ دَعْمٌ ضئيل من علْم الآثار، بل؛ في الواقع، لقد شَهدَ علْم الآثار ضدَّها.

كما جاءت - أيضاً - في الوقت الخطأ. في الثّمانينات كَان عُلماء الإنسانيَّات وعُلماء الآثار قد أصبحوا شكَّاكين أكثر فأكثر بشأن احتمال كون الفخَّاريَّات وأنماط الفنِّ المعماري يُمكن أنْ

تَكْشف الانتماء العرْقـي أو الأصـلَ الجَغرافـي للشُّعُوب القديمـة. مثـل عنـاصر الحضـارة المادِّيَّـة هذه، يُمكن أنْ تَكُونَ مُقَلَّدَةً بسُهُولةٍ، أو مُستعارةً لُمجتمع من مُجتمع آخر. في الواقع؛ أغلـب الاكتشافات التي ذَكَرَهَا "ديفر" Dever إنَّما اكْتُشفَتْ في قُرَى تُمثِّـلُ المرحلةَ الثّانيـةَ للتَّوطُّـن فـي المُرتفعات، لذا؛ قَدْ تُشيرُ التّشابهات مع مُكتَشَفَات العصر البرُونزي المُتـأخِّر، إلـى الارتباطـات التّجاريَّة أو الاقتصاديَّة لُمستوطني العصر الحديدي الأوَّل مَع شعُوب السُّهُول بَدَلاً مـن أنْ تكـون تلك الشُّعُوب هي أصلها، وذلك لأنَّه كانت هُناك اسـتمراريَّة ثقافيَّة واضحـةٌ فـي السُّـهُول مـن العصر البرُونزي المُتأخِّر إلى العصر الحديـدي الأوَّل. والأكثر أهمِّيَّـة، فـي السّبعينات وأوائـل الثّمانينات، بَدأتْ تصبُّ من الحقل بياناتٌ صلبةٌ عن قُرَى العصر الحديد الأوَّل، وناقضَت هـذه الأدلَّة الجديدة نَظَريَّة الثّورة الاجتماعيَّة بشَكْل واضح.

أوَّلاً، وقبل كُلِّ شيء، أظهَرَت البيانات الجديدة أنَّ العصر الحديدي الأوَّل لم يكن الفترة الأُولى لنشاط الاسـتيطان المُركَّز فـي المُرتفعـات، وأنَّ الإبداعَيْـن التّقنيَّيْـن الجديدَيْـن إنَّمـا عُرفـا ـ واستُخْدما ـ قبل قُرُون من بُرُوز إسرائيل المُبكِّرة. بكلمة أُخرى؛ كان استخدام شقِّ الصُّخُور، وتجصيص الصّهاريج، وبنـاءَ المصـاطب المُسطَّحة في سُفُوح التّـلال نتـائج مُمـيَّزة للنّشـاط الاستيطاني القوي في منطقة التّلال والمُرتفعات، ولَيسَ المُحـرِّك الأساسي خلـف حُـدُوث هـذا الاستيطان. وكذلك لا يدعمُ الدّليل الآثاري من السُّـهُول ـ أيضـاً ـ نَظَريَّـة الثّـورة الاجتماعيَّـة. أصْبَـحَ واضحـاً فـي السّنَوات الأخـيرة أنّـه مـع نهايـة العصـر البرُونزي، كَـانَ القطَّـاع الرّيفـي للمُجتمع الكَنْعَاني قد سَبَقَ وأصبح مُسْتَنْفَذاً، ولَـمْ يَكـنْ مُمكنـاً لـه أنْ يُزوِّد لا القُـوَّة البشـريَّة ولا الطّاقة اللاّزمة لموجةَ الاستيطان الجديـدةَ فـي المُرتفعـات. عـلاوةً علـى ذلـك؛ أنتـجَ العمـل الآثاري فـي المُرتفعـات فـي الثّمانينـات والتّسـعينات بَعْض الإشـارات المُميَّزة على أنَّ أغلـب المُستوطنين في العصر الحديدي هُناك إنَّما جاؤوا من خلفيَّة رعويَّة بَدَلاً من خلفيَّة مُقيمة.

كُلُّ النَّظَريَّات الثّلاثة ـ الغزو الإسرائيلي المُوحَّـد، التّسـرُّب السِّـلْمي، والثّورة الاجتماعيَّـة ـ يُصادق على الفكرة التّوراتيَّة المحوريَّة التي تُؤكِّد أنَّ بُرُوز إسرائيل المُبكِّرة كَانَ ظـاهرة مُفـردة فريـدة في تاريخ البلاد، لكنَّ الاكتشافات الآثاريَّة الجديدة في العُقُود الأخيرة حطَّمتْ تلك الفكرة.

المُلحق 'د':

لمَ كان علْم الآثار التّقليدي حول الفترة الدّاوديَّة والسُّلَيْمَانيَّة خاطئاً؟

الفتُوحات الدّاوديَّة: سرابٌ خَزَفيٌّ

كَانَ الدّليلُ الآثاريُّ الأهمُّ الذي استُخْدِمَ لربْط طبقات الدّمار بفتُوحات داود، هُو الفخّاريَّات الفلسطينيَّة المُزَيَّنةُ، التي أرَّخَها عُلماء الآثار إلى الفترة من بداية القرن الثّاني عشر حتّى حوالي القرن العاشر ق.م.. و أُرِّخَت أوّلُ طبقةٍ لَمْ تتضمَّن هذا الأُسلُوبَ المُتميِّز (للفخّاريَّات) إلى القرن العاشر، أيْ إلى وقت الحُكْم الملكي المُتّحد، لكنَّ هذا التّأريخ استند كُلّيّاً على التّسلسل التّاريخي التّوراتي للأحداث، ولذلك كَانَ استدلالاً دوريّاً[1]؛ لأنَّ التّاريخ الأدنى لهذه الطّبقات ذات الفخّاريّات، إنَّما تمَّ تحديده طبقاً للفترة المُفترضة لفتُوحات داود حوالي 1000 ق.م.. في الواقع؛ لم يكن هُناك دليل واضح على التّاريخ الدّقيق للانتقال من النَّمَط الفلسطينيّ إلى الأنماط الأُخرى.

علاوةً على ذلك؛ لقد أحدثت الدّراسات الأخيرة ثورةً في تأريخ الفخّاريّات الفلسطينيَّة. في العقُود الأخيرة، تمَّ تنقيب العديد من المُدُن الكبيرة في السّهل السّاحلي الجنوبيّ لإسرائيل، أيْ منطقة الحُضُور المصريّ القويّ في القرن الثّاني عشر ق.م، ومنطقة استقرار واستيطان الفلسطينيِّين. شملت هذه المناطق ثلاث مُدُن مذكورة في الكتاب المُقدَّس كَمحور الحياة الفلسطينيَّة: أشدود Ashdod، عشقلون Ashkelon، و عقْرُون Ekron (تَلّ ميقنة Miqne)، بالإضافة إلى عدّة مواقع عَملتْ كَحُصُون مصريّة. كَشَفَتْ تلك التّنقيبات عن

---

(1) البُرهان الدّوري أو "الدّور" هُو أنْ يستخدم الإنسان القضيَّة "أ" في استدلاله لإثبات القضيَّة "أ" ذاتها، أو لإثبات قضيَّة يتوقَّف وُجُودها على "أ"، وهُو استدلال باطل؛ إذْ كيف يستخدم "أ" في استدلاله، مع أنّها لم تثبُتْ بعد، بل هي التي يُراد منه إثباتها؟. (المُترجم).

معلومات عن الحضارة المادِّيَّة المصريَّة ـ الكَنْعَانيَّة في العُقُود الأخيرة للهَيْمَنَة المصريَّة في كَنْعَـان . فقـد تَضمَّنـتْ اكتشـافاتهم نُقُوشاً مصريَّـة تتعلَّـق بـالإدارة الإمبراطُوريَّـة لكَنْعَـان بالإضافـة إلـى كمِّيَّات كبيرةٍ من الأواني المصريَّة المُصنَّعة محلِّيّاً . تُؤرِّخُ بعض النُّقُوش إلى عهد حُكْم رمسيس الثَّالث ، الفرعون الذي قاتل الفلسطينيِّين ، ومن المُفترض أنَّـه وَطَّنهم فـي حُصُونـه فـي جنـوب كَنْعَان .

كَانتْ المُفاجأة أنَّ تلك الطَّبقات التي تُمثِّلُ المراحـلَ الأخيـرةَ للهَيْمَنَـة المصريَّـة علـى كَنْعَـان تحت حُكْم رمسيس الثَّالث لَمْ تَكْشفْ الأنواعَ المُبكِّرَةَ للأواني الفلسطينيَّة المُزيَّنة ، و لَـمْ تَكْشـفْ الطَّبقات الفلسطينيَّة السَّابقة أيَّ إشارةٍ لحُضُور مصريٍ ، ولا حتَّى إناءٍ مصريٍ واحـدٍ . بَـدَلاً مـن ذلك ، كانت الطَّبقات مُنْفَصلة تماماً . علاوةً على ذلك ؛ في بضعة مواقـع ، اسْتُبْدلت الحُصُـون المصريَّة لعهد رمسيس الثَّالث بالمُستوطنات الفلسطينيَّة الأُولـى . مـن ناحيـة التَّسلسـل التَّـاريخي للأحداث ، لَمْ يَكنْ من المُمكن حُدُوث هذا قبل انهيار الهَيْمَنَة المصريَّـة فـي كَنْعَـان فـي مُنتصـف القرن الثَّاني عشر ق . م . . نتائج هذا الإيحاء لعلْم الآثـار المُتعلِّـق بـالحُكْم المَلكـي المُتَّحـد يَخْلـقُ نوعاً من تأثير لُعبة "الدُّومينُو" : إنَّ المجموعةَ الكاملةَ للأساليب الفخَّاريَّـة دُفعَـت للأمـام بحوالـي نصْف قرن ؛ وهذا يَتضمَّنُ الانتقال من الأساليب الفلسطينيَّة إلى الأساليب ما بَعْدَ الفلسطينيَّة .

يَجيءُ نوعٌ آخرٌ من الأدلَّة مـن الطَّبقـة السَّـابعة فـي "مَجدُّو" ، التـي تُمثِّـلُ المرحلـةَ الأخيـرةَ للحضارة المادِّيَّة الكَنْعَانيَّة في الشَّمال . أُرِّختْ هذه الطَّبقة دائماً إلى القرن الحـادي عشـر ق . م ، واعتُقدَ بأنَّها كَانتْ قَدْ حُطِّمـتْ مـن قبَـل الملك داود . لاءمـتْ هـذه الفَرَضيَّـة العقيـدةَ التَّوراتيَّـة بشَكْل مثالي : أبادَ الملكُ التَّقيُ داودُ المعقلَ الأخيـرَ البـاقي للحضـارة الكَنْعَانيَّـة . لَمَّا كـانت تلـك الطَّبقة قد حُطِّمتْ بقسوة بالنَّار ، فقد سُحقتْ مئاتُ الأوانـي الفخَّاريَّـة الكاملـة بانـهيار الحيطـان والسُّقُوف . في الحقيقـة ؛ اكْتُشـفَ عـددٌ كبيرٌ مـن الأوانـي عـبْر التَّنقيبـات التـي قـام بـها المعـهد الشَّرقي ، والحفريَّات التي قامت بها ـ أخيراً ـ جامعة تلّ أبيب في "مَجدُّو" . رغم ذلك لـم تُوجـد أيُّ أمثلة للأُسلُوب الفلسطيني المُزيَّن . إنَّـه ـ بنـاء علـى ذلـك ـ مـن المُستحيل تحديـد تـاريخ هـذه المدينة إلى القرن الحادي عشر ، وهي فترة زمنيَّة وُجدت فيها الفخَّاريَّات الفلسطينيَّة المُزيَّنة بنَحْو مُشترَك و شائع في جميع أنحاء البلاد ، بما فـي ذلـك المواقـع المُجـاورة فـي وادي يزرعيـل . فـي

الحقيقة؛ هُناك أواني فلسطينيَّة في "مَجدُّو" نفسها، لكنَّها تـأتي كُلُّها من الطَّبقـة السّابقة. هـذا يَعْني أنَّ المدينةَ الأخيرةَ في "مَجدُّو" التـي تَعْرضُ بقايا الحضـارة المادِّيَّة الكَنْعَانيَّـة، لا يُمكـن أنْ تكون قـد حُطِّمـتْ مـن قبَـل الملـك داود حوالي عـام 1000 ق. م.. كـلا دليـل الخَزَف ودليـل الكربون ـ14 يَقترحان بأنَّ تلك الحضارة المادِّيَّة كانت ماتزال موجودة حتَّى بعد بضعة عُقُـود مـن القرن العاشر ق. م..

إعادة النَّظَر بشأن 'مَجدُّو': التّواريخ، الفخَّاريَّات، وأنماط الفنّ المعماري

حـاوَل "يِيغـائيل يـادين" Yigael Yadin أنْ يُثْبـتَ أنَّ تحديـدَ هُويَّـة المُدُن السُّلَيْمَانيَّة كَـانَ مُستنداً إلى علْم رَسْم الطّبقات Stratigraphy، والفخَّاريَّات، والكتاب المُقدَّس، ولكنَّ علـم الطَّبقات والفخَّاريَّـات لا يُـزوِّدُ إلاَّ بتـاريخ نسبيٍّ للأحـداث التّاريخيَّـة. وبنـاءً عليـه؛ فإنَّـه مـن الواضح أنَّ كُلَّ فكرة علْم آثـار المَمْلَكَة المُتَّحـدة، ومُسَـوَّدة تخطيـط المدينـة لمعمـاريِّ سُلَيْمَان، وَعَظَمَة القُصُور السُّلَيْمَانيَّة، تعتمد كُلُّها على آية واحدة في الكتاب المُقـدَّس، فـي سـفْر المُلُـوك الأوَّل: 9/ 15[1]. علينا أنْ نُكرِّر هـذا مـرَّةً ثانيـةً: إنَّ كُـلَّ إعـادة البنـاء التّقليديَّـة لطبيعـة الحُكْـم المَلَكيّ المُتَّحد لإسرائيل ـ توسُّعها الإقليميّ، حضارتُها المادِّيَّة، علاقتُها مـع دُول الجـوار ـ تَعْتَمـد على تفسير آية واحدة في الكتاب المُقدَّس! وهذه الآية من الآيات المُشكلة جداً، لأنَّنـا لا نعـرف ما إذا كانت مُسْتَندةً إلى مصادرَ أصليَّة من وقت سُلَيْمَان، أو إلى حقائق حَدَثَتْ في زمـنٍ تـالٍ. كما أنَّنا لا نعرف بالضّبط معناها الدّقيق: هل تعني كلمة "بَنَى" أنَّ سُلَيْمَان أسَّس مُدُناً جديـدة؟ أم أنَّه قام بتحصين مُدُن موجودة مـن الأصـل فقـط؟ هـل أنَّ المُدُن الثّلاثـة المذكـورة ـ "حـاصُور" و"مَجدُّو" و"جازَرَ" ـ هي ـ بالنّسبة لكاتب سفْر المُلُوك ـ مُجرَّد رمز للمُدُن الإداريَّة الرّئيسيَّة الثّلاثـة لإسرائيل الشّماليَّة؟ هل يُسْقطُ مُؤلِّف سفْر المُلُوك البناء العظيم في السّنوات اللاَّحقـة فـي تلـك المُدُن على الأيَّام القديمة السّابقة الخاصَّة بعهد سُلَيْمَان.

دعنا نَبْدأُ بالبوَّابة ذات الغُرف السِّتَّة؛ أوَّلاً، لقـد تمَّ التّشكيك بفكـرة أنَّ بوَّابـة "مَجـدُّو" يعـود تاريخها لزمن القُصُور المبنيَّة مـن الحجـر المنحوت، وذلـك، بشَكْل رئيسـي، لأنَّ البوَّابـة مُرتبطـة

(1) ونصُّ الآية هو: [أَمَّا خدمَةُ التَّسْخيرِ الَّتي فَرَضَهَا سُـلَيْمَانُ، فَكَـانَتْ بِدَاعِي بِنَـاءِ هَيْكَـلِ الـرَّبِّ، وَقَصْرِ سُلَيْمَانَ، وَالْقَلْعَةِ، وَسُورِ أُورُشَليمَ، وَحَاصُورَ وَمَجدُّو وَجَازَرَ.]. (المُترجم).

بالجدار أو السُّور الهائل الذي يُحيط بالقَصْرَيْن. وبعبارة أُخرى؛ هُنـاك سبب جيِّد للاعتقـاد بأنَّ البوَّابة هي - أيضاً - مُتأخِّرة عن القُصُور. علاوةً على ذلك، أظهَرَت التّنقيبات الأخيرة بأنَّ هذا النّوع من البوَّابات كان يُستخدم خارج حُدُود المَمْلَكَة المُتَّحدة وأنَّ بوَّابات مُشابهة كانت قد بُنِيَت في مراحل لاحقة في العصر الحديدي، وحتَّى القرن السّابع ق.م. . لذا؛ الأساس الوحيد الذي يعتمد عليه كُلُّ البناء تبيَّن أنَّه أساس مهزوز أيضاً. ولكنْ؛ ليس هذا كُلُّ ما في الأمر.

يأتي الدّليل الآخر من موقع "يزرعيل" القريب، الذي يقع على أقلّ من عشرة أميال شرق "مَجدُّو". قام ديفيد أوسِّيشكين David Ussishkin من جامعة تلّ أبيب و"جون وودهيد" John Woodhead من المدرسة البريطانيَّة لعلم الآثار في أورشليم (القُدْس)، بتنقيب الموقع في التّسعينات. لقد اكتشفوا منطقة مُغلقةً ومُحصَّنةً طابقوها على القَصْر الذي بناه "آخَاب" في النّصف الأوّل من القرن التّاسع ق.م. . لقد دُمِّرَ هذا الأكروبوليس acropolis (القلعة المُرتفعة) الواسعة بعد فترة قصيرة من بنائه. من المُفترض أنَّ هذا الحَادث تمَّ إمَّا أثناء الثّورة ضدَّ أُسرة العُمْرِيِّين تحت قيادة الملك الإسرائيلي المُستقبلي "ياهو" أو كَنتيجة للحَمْلَة العسكريَّة لـ"حَزائيل"، ملك دمشق، في شمال إسرائيل. في كلتا الحالتَيْن، سيقع تاريخ ترك المنطقة المُسَوَّرَة في "يزرعيل" في زمنٍ يقع في حوالي مُنتصف القرن التّاسع ق.م. . كانت المُفاجأة أنَّ الفخّاريَّات التي وُجدَت في المنطقة المُسَوَّرَة في "يزرعيل" كانت مُتطابقة مع الفخّاريَّات الموجودة في مدينة القُصُور في "مَجدُّو"، ولكنَّ الأخيرة كان المُفترض أنَّها دُمِّرَت منْ قبَل الفرعون "شيشَانَق" قبل حوالي قرن! كيف نردم هذه الفجوة؟ هُناك إمكانيَّتان وحيدتان: إمَّا أنْ نسحب بناء "يزرعيل" إلى الوراء ونعود به إلى زمن سُلَيْمَان، أو أنْ ندفع قُصُور "مَجدُّو" إلى الأمام إلى زمن حُكم أُسرة "آخَاب". من البديهي أنْ في هذه الحالة، هُناك حلٌّ واحد فقط، وذلك لأنَّه ليس هُناك سجلٌّ لاحتلالٍ سُلَيْمَاني لـ"يزرعيل"، ولأنَّ مُجَمَّع "يزرعيل" يُماثل في تخطيطه الأكروبوليس acropolis (القلعة المُرتفعة) في السّامرة، عاصمة المَمْلَكَة الشّماليَّة، التي لا شَكَّ أنَّها كانت قد بُنِيَت من قبَل الـ"عُمْرِيِّين". لقد دُمِّرت مدينة القُصُور المبنيَّة من الصّخر المنحوت في "مَجدُّو" في مُنتصف القرن التّاسع - احتمال أ - منْ قبَل "حزائيل"، وليس في عام 926 ق.م، من قبَل "شيشانق".

ولكنْ؛ هَلْ هُناك أيُّ دليل مُباشر آخر حول تاريخ مدينة القُصُور في "مَجدُّو" بالإضافة إلى تأثير الدُّومينُو الذي أشرنا إليه أعلاه؟ وبعبارة أُخرى؛ هل مازال من المُحتمل أنْ تكون قد بُنَيَت في زمن سُلَيْمَان في القرن العاشر ق. م، ولم تُدمَّر إلاَّ في القرن التّاسع؟ إنَّ الجوابَ سلبيٌّ على ما يبدو، لسببَيْن؛ يأتي الدّليل الأوّل من السّامرة، عاصمة المَمْلَكَة الشّماليَّة لإسرائيل، التي بُنيتْ في أوائل القرن التّاسع. هُناك تشابهات واضحة في طُرُق بناء قَصْر السّامرة وقُصُور "مَجدُّو" ذات الصفّين، وبالتّالي؛ يبدو، أنَّها بُنيَت في نفس الزّمن. هُنا - أيضاً - نُواجهُ خيارَيْن: إمَّا أنْ نُثبت أنَّ قَصْر السّامرة والأكروبوليس acropolis (القلعة المُرتفعة) المَلَكيّ كلاهما بُنِيَ من قبَل سُلَيْمَان، أو أنْ نُثبت أنَّ قُصُور "مَجدُّو" بُنيتْ في فترة لاحقة لعهد سُلَيْمَان. لا يُمكن أنْ نَقْبَلَ الخيار الأوَّل، لأنَّه بالكاد هُناك شَكٌّ في أنَّ قَصْر السّامرة وكامل الأكروبوليس acropolis (القلعة المُرتفعة) إنَّما بُنيا من قبَل "عُمْري" و"آخاب" في أوائل القرن التّاسع.

ولابُدَّ من كلمة تُقال هُنا حول مُعالجة الموادّ التّوراتيَّة. يتساءل البعض من زُملائنا كيف يُمكنُنا أنْ نَرفُضَ الصفَة التّاريخيَّة لآيةٍ واحدةٍ في الكتاب المُقدَّس العبْريّ (سفْر المُلُوك الأوَّل 9/ 15)، ونَقْبلَ الصفَة التّاريخيَّة لآيات أُخرى، التي تتعلَّق ببناء "آخاب" للقَصْر في "يزرعيل" (سفْر المُلُوك الأوَّل 21/ 1) وببناء "عُمْري" لقَصْر السّامرة (سفْر المُلُوك الأوَّل 16/ 24). إنَّ الإجابة لها علاقة بعلْم المنهج. لا يُمكن اعتبار المادَّة التّوراتيَّة كُتلة واحدة مُتراصَّة ذات انسجام كُلّيّ. ولذلك؛ فهي لا تتطلَّب موقفاً يعتمد إمَّا أخْذ الكُلّ أو تَرْك الكُلّ. لقد أظهر لنا قرنان من الدّراسات الحديثة للكتاب المُقدَّس العبْريّ أنَّ المادَّة التّوراتيَّة يجب أنْ تُقيَّمَ فصلاً فصلاً، وأحياناً؛ آيةً آيةً. إنَّ الكتاب المُقدَّس يتضمَّن موادَّ تاريخيَّة، وغير تاريخيَّة، وشبه تاريخيَّة، تَظهرُ أحياناً قريبةً جداً من أحدها الآخر في النَّصّ. إنَّ أساس جوهر العلْم بالكتاب المُقدَّس العبْريّ هُو أنْ نَفْصلَ الأجزاءَ التّاريخيَّة عن بقيَّة النَّصّ طبقاً لاعتبارات أدبيَّة، ولُغويَّة، ومعلومات تاريخيَّة من خارج الكتاب المُقدَّس، لذا؛ نعم، يُمكن أنْ نُشكّكَ في الصفَة التّاريخيَّة لآيَة، وأنْ نقبل بصحَّة آية أُخرى، خاصَّة في حالة "عُمْري" و"آخاب"، التي وُصفت مَمْلَكتهما في النُّصُوص الآشُوريَّة، والمُوآبيَّة، والآراميَّة المُعاصرة.

المُلحق 'هـ':

تَمييز عصر 'مَنَسَّى' في السِّجلِّ الآثاري

ليس من السّهل أنْ نُحدِّد "مَنَسَّى" من النّاحية الآثاريَّة، بدقَّة، أيْ أنْ نُميِّز الطّبقات الخاصَّة لأيِّ مدينةٍ مُحدَّدةٍ بُنِيَت في عهده في مواقع مُختلفة في كافَّة أنحاء يهُوذا. بالرّغم من أنَّ فخّاريَّات أواخر العصر الحديدي الثّاني في يهُوذا تُعْرَفُ - بشَكْل أفضل - من تلك التي تنتمي لأيِّ مرحلة أُخرى من العصر الحديدي، إلاَّ أنَّ تاريخها ليسَ دقيقاً بما فيه الكفاية لتَمييز أساليب جيلٍ مُعيَّن. إنَّ السّببَ الرّئيسيَ لهذه الحالة التي هي أقلّ من المطلوبة، هُو أنَّه لكي نستطيع أنْ نُحدِّد تاريخ مجموعات فخّاريَّة عَلى نَحوٍ دقيق، نَحتاجُ لكَشْف طبقات الدّمار التي يُمكن تخصيصها باطمئنان بحَدَث تاريخي مُعيَّن، لذا؛ فإنَّ كامل التّسلسل الزّمني التّاريخي الفخّاري للمرحلة الأخيرة من تاريخ يهُوذا بعد سُقُوط إسرائيل إنَّما يستند إلى موقع واحد: هُو "لَخيْش" في "شَفلَة"، الذي يُزوِّدنا مرَّتَين بهذا الجَمع بَيْن طبقة دمار آثاريَّة واضحة ذات مُكتَشَفَات غنيَّة وبَيْن المصدر التّاريخي الموثوق. أوّلاً، لا تترك السِّجلاَّت الآشُوريَّة، و لوحة النَّقْش النّافرة في نينوى، و الكتاب المُقدَّس أيَّ شَكٍّ في أنَّ المدينةَ دُمِّرتْ من قبَل "سَنَحاريب" في 701 ق.م.. ثانياً، تُزوِّدنا إشارة الكتاب المُقدَّس إلى "عَزيقَة" و"لَخيْش" كآخر معقل لمُقاومة الهُجُوم البابلي (إرْميا 34/ 7)، والتي تُؤكِّدها رقائق فخّاريَّة مكتوبة وُجِدَت في الموقع بدليلٍ واضحٍ على أنَّ "لَخيْش" أُبيدَت - أيضاً - من قبَل البابليِّيْن في 587/ 586 ق.م..

رُبط هذان الدّماران لـ"لَخيْش" بنهاية الطّبقة الثّالثة والطّبقة الثّانية في الموقع. بالمُقارنة بَيْن مجموعات (الفخّاريَّات) التي تعود إلى أواخر العصر الحديدي الثّاني والتي كُشفَت في مواقع أُخرى في "يهُوذا" وبَيْن مجموعتَيْ الفخّاريَّات الغنيَّتَيْن والمُؤرَّختَيْن بشَكْل جيِّد في "لَخيْش"، تمكَّن العُلماء من تميِيز أُفقَيْن في يهُوذا في القرنَيْن الثّامن والسّابع ق.م،: المواقع التي

دُمِّرَتْ من قِبَل الآشُورِيِّين في آخر القرن الثّـامن ق. م، وتلـك التـي دمَّرهـا البـابليُّون فـي بدايـة القرن السّادس.

يقع عهدُ "مَنَسَّى" بَيْن هذه الأُفقَيْن. لَمَّا كان "مَنَسَّى" تابعاً مُوالياً للإمبراطُوريَّة الآشُـوريَّة، لم تكن هُنَاك حُرُوب في عهده؛ ولم يحدث دمارٌ عظيمٌ. كانت أيَّامه فترةً سلْميَّة في "يـهُوذا". رغم ذلك؛ فإنَّ ما كانَ جيِّداً لشـعب يـهُوذا، كـان، مـن سُـخرية القَـدَر، سيِّئاً لعُلمـاء الآثـار. فنحنُ لا نملكُ حتَّى طبقةً واحدةً يُمكن تأريخها - باطمئنانٍ - إلى أيَّامه. بَقيت المُدُن التي أسَّسَـها "مَنَسَّى" حتَّى السُّقُوط النّهائي ليهُوذا، ولذا؛ فإنَّ طبقات دمارهـا إنَّمـا تعكـس الحضـارة الماديَّة لسنواتها الأخيرة بَدَلاً من أيَّامها الباكرة الأُولى. لذلك؛ فإنَّ الطَّريـق الوحيـد لتَحديـد "مَنَسَّـى" بدقَّة، هي أنْ يتمَّ رَسْم المُخطَّط العامّ للاستيطان والاتِّجاهات الدِّيمُوغرافيَّة (السُّكَّانيَّة الجغرافيَّة) في يـهُوذا بَيْـن 701 ق. م، وأواخـر القـرن السّـابع. مـع الأخْـذ بعـين الاعتبـار أنَّ عـهدَ حُكْـم "مَنَسَّى" يأتي مُباشرةً بعد حَمْلَـة "سَنَحاريب"، ويُمثِّل فـترة مُهمَّـة مـن الانتعـاش الاقتصـادي، وهذه المعلومات ولو كانت عامَّة جداً إلاَّ أنَّها ذاتُ قيمةٍ كبيرةٍ.

المُلحق 'و':

كَمْ كَانتْ سعَةُ مَمْلَكَةَ 'يُوشيًا'؟

يَقترحُ سفر أخبار الأيّام أنَّ حَمْلَة يُوشيًّا لتطهير العبادة والغـزو الإقليمـي وَصَلَتْ بعيـداً إلى الشّمال والجنوب، إلى (مُدُن مَنَسَّى وَأَفْرَايِمَ وَشَمْعُونَ إِلَى نَفْتَالِي مَعَ خَرَائِبهَا حَوْلَهَا) (سفر أخبار الأيّام الثّاني 34/ 6). وَفقاً لذلك، أخذ العديد من علماء الآثـار التّوراتيّين، لمُدَّة طويلة، بظاهر تقرير سفر أخبار الأيّام، واعتقدوا بأنَّ مَمْلَكَة يُوشيًّا امتدَّت إلى أغلب أرض فلسطين الغربيَّة، من مُرتفعات النَّقَب في الجنوب إلى الجليل في الشّمال. طبقاً لوُجهة النَّظَر هذه، سيطرَ يُوشيًّا على أجزاء كبيرة من أراضي المَمْلَكَة الشّماليَّة السّابقة، كما توسَّع - أيضاً - إلى الجنوب والغرب، إلى المناطق التي لم يسبق أنْ كانت تَحْتَ سَيْطَرَة أُورشليم (القُدْس). رغم ذلك؛ فإنَّ التّحليل الآثاري الجديد يَقترحُ أنَّ التَّقدُّمَ الإقليمي ليُوشيًّا كَانت محدوداً أكثر بكثير.

استندت وجهة النَّظَر التَّوسُّعيَّة الأقدم، بخُصُوص الحُدُود الشّماليَّة ليهُوذا أثناء يُوشيًّا، على الاكتشافات في "مَجدُّو". بسقُوط المَمْلَكَة الشّماليَّة، جَعَلَ الآشُوريُّون "مَجدُّو" عاصمة مُحافظتهم في الوُديان الشّماليَّة والجليل. أعادوا بناء المدينة في تخطيط جديد جداً، بقَصْرَيْن آشُوريَّيْن نَمَطيَّيْن، ومفهومٍ جديدٍ لمدينةٍ مُتعامدة ذات مجموعاتٍ من الشّوارع المُتوازية يقطع أحدها الآخر بزاوية قائمة. الطّبقة الثّالثة لهذه المدينة أفضل مثالٍ آثاري لمركزٍ حكُومي آشُوري في المُحافظات الغربيَّة من إمبراطُوريّتهم. وبقيت تعمل حتَّى الانسحاب الآشُوري من فلسطين نحو نهاية القرن السّابع ق.م..

إنَّ الطّبقةَ التّاليةَ في "مَجدُّو"؛ أيْ الطّبقة الثّانية، هي - في العديد من أجزاء التَّلّ، ببساطة - استمرارٌ للمدينة السّابقة، مع إعادة بناءٍ وإضافاتٍ قليلةٍ جداً، لكنْ؛ هُناك اختلافان رئيسيَّان بَيْن مُدُن الطّبقة الثّالثة والطّبقة الثّانية: في المُستوى التّالي، خَرجَ سُور المدينة عن الاستعمال،

وأنْشئَت بناية هائلة، ميَّزها فريق جامعة شيكاغو أنَّها حصن، على الجانب الشّرقي للتَّلّ. كان يُسيطر من هُناك على الوادي وعلى الطَّريق الدّولي السّريع من مصر إلى بلاد ما بَيْن النّهرَيْن. نُسبتْ الطَّبقة الثَّانية منَ قبَل نفس المُنقّبين إلى "يُوشيًا" (في جُهوده لتَوحيد المَمْلَكَتَيْن)، كما نُسب دمارُها الجُزئي إلى المُواجهة التي أودت بحياة يُوشيًا في النّهاية.

من المُفترض ـ بناء عليه ـ أنْ يكون حصن "مَجدُّو" قد زوَّدنا بالحلقة المفقودة لتفسير المُواجهة مع نكا (نخاو). لقد اقتُرِحَ أنَّ "يُوشيًا" استولى على كامل أراضي ريف المُرتفعات للمَمْلَكَة الشّماليَّة السّابقة، ثُمَّ توسَّع أكثر، شمالاً، حتَّى "مَجدُّو"، ليجعلها مخفره الشّمالي الاستراتيجي. لقد مكَّن التَّحكُّم بكُلّ المنطقة: من أُورشليم القُدْس إلى وادي يزرعيل، مكَّن "يُوشيًا" من التَّقدُّم بجيشه نحو "مَجدُّو" في مُحاولة ـ احتمالاً ـ لَمنْع نكا (نخاو) من دَعْم ومُساعدة الجيش الآشُوري ضدَّ البابليِّيْن. أمَّا بالنّسبة للحُدُود الغربيَّة المُفترضة لمَمْلَكَة يهُوذا زَمَنَ "يُوشيًا"؛ فإنَّ الاكتشاف السَّارَّ لفريق التَّوسُّعيِّيْن كان "مسْعاد هَشَفْياهو" Mesad Hashavyahu: موقعٌ صغيرٌ على السّاحل، حوالي خمسة عشرَ ميلاً جنوب تل أبيب. قدَّم هذا البناء البسيط، الذي ميُّزَ كحصن (حيثُ كلمة ميساعيا في العبْريَّة مُرادف لـ "حصن")، اكتشافَيْن مُثيرَيْن: أوَّلاً؛ مجموعة فخَّاريَّات، تُؤرَّخ ـ بنَحْو جيِّد ـ إلى القرن السّابع ق.م، وتضمَّنت فخَّاريَّات يُونانيَّة مُستوردة، الثّاني؛ وجد في الموقع عدداً من الرّقائق الفخَّاريَّة كُتب عليها باللُّغة العبْريَّة التّوراتيَّة، تذكر الكتابة أسماء يَهْويَّة Yahwistic تنتهي بكلمة ياهو: مثل هوشاياهو Hoshayahu، عُبادياهو Obadjahu، هَشَفْياهو Hashavyahu. ولذلك؛ فُسِّر الموقع على أنَّه حصنٌ بناه "يُوشيًا" على السّاحل بهدف إعطاء "يهُوذا" مَنْفذاً إلى البحر. كان الحصنُ مُجهَّزاً بقائد يَهْوَذَويٌّ ومُرتزقة يُونانيِّيْن كانوا يخدمون في الجيش اليَهْوَذَويّ، في حجم مُشابه لدورهم في الجيش المصري في ذلك الوقت. وتبدو الرّقائق الفخَّاريَّة المكتوبة المُعاصرة التي اكْتُشفَتْ في حصن "أراد" اليَهْوَذَويّ في وادي بئر سبع مُؤيِّدةً لهذه الفكرة. تَذكُر هذه الرّقائق تخصيص مُؤنة الغذاء لشعب يُسمَّى "قتِّيم"، وهُو اصطلاح تُرجمَ بـ "اليُونانيِّيْن"؛ أيْ كَتيبةُ مُرتزقة يُونانيِّيْن في الجيش اليَهْوَذَويّ.

ركَّزت مُناقشة حُدُود مَمْلَكَة "يُوشيًا" في الجنوب على حصنَيْن كبيرَيْن للقرن السّابع ـ "قادش بَرْنيعا" و "حَسيفَا" ـ اللّذَيْن نقَّبهُما عالم الآثار الإسرائيلي "رُودُولف كُوهين" في الصّحراء بعيداً إلى

جنوب الخطِّ الجنوبيِّ لُمدُن "يهُوذا" في وادي بئر سبع. يُشرفُ حصن "قادشْ بَرْنيعا" على أكبر واحةٍ تقعُ على الطّريق التّجاريّ المُهمّ من جنوب فلسطين على رأس خليج العقبة، ونحو الجنـوب أكـثر حتّى بلاد العَرَب. طبقاً للمُنقّب، لقد تمَّ بناء سلسلة من الحُصُون اليَهُوَذَويَّة في هذا الموقـع. بُنِيَت السّلسلة الأخـيرة فـي عـهد "يُوشيّا"، ودمَّرهـا البـابليُّون عـام 586 ق. م، وقـد تمَّ تمييز هـذا البنـاء الأخير على أنّه حصنٌ يَـهُوَذَويٌّ، بسـبب بعـض التّشـابُهات مـع الحصـن اليَـهُوَذَويّ فـي وادي بـئر سبع، وبسبب بضعـة ألـواح فخّاريَّة مكتوبـة باللُّغـة العبْريَّة اكْتُشـفَتْ هُنـاك، وبسـبب التّقيـم التّاريخيّ العامّ لحُكْم "يُوشـيَّا" الـذي يَقتَرحُ احتمـال توسُّـع دولـة "يـهُوذا" حتّى هـذه المنطقـة. فـي "حسيفا"، حوالي عشرين ميلاً جنوب البحر الميِّـت، أُرِّخَ بنـاء ملجأ مُربَّع قـويٍ، حجمـه حوالـي هكتاران ونصف، مُزوَّد ببوَّابة ذات أربع غُرف مُتقنة، إلى القرنَيْـن التّاسـع والثّامن ق. م. . وقـد حلَّ محلّه حصنٌ أصغرُ - لحَدٍّ ما - في أواخر القرن السّابع ق. م، مُرتبط بنشـاطات "يُوشـيًّا". كمـا أُرِّخت ذخيرةٌ من أواني العبادة الأدوميَّة المُحطَّمة التي وُجدت مدفونةً في حفرةٍ قُرْب الحصـن إلـى القرن السّابع أيضاً، ورُبطَت بمشروع إصلاح العبادة الذي قام به "يُوشيًّا".

على الرّغم من هذه الإشارات الآثاريَّة الظّاهرة للتّوسُّع اليوشيّ، كان هُناك بعض العُلماء ممَّنْ اعتقد أنَّ بعض الموادّ الجَغرافيَّة في الكتـاب المُقـدَّس العبْريّ تُشيرُ - بشَـكْل واضـح - إلـى أنَّ مكاسبَ يُوشيًّا الإقليميَّة كَانتْ ضئيلة. إنَّ المصدرَ الأهمَّ هُو قوائمُ البلدات القبائليَّـة فـي يشُـوع 15 - 19، التي اقترح العـالم التّوراتـي الألمـاني "ألـبريخت الـت" أنَّ بعضـها يَجـبُ أنْ يُـؤرَّخَ إلـى القرن السّابع. واقترح - بشَكْل خَاصٍّ - أنَّ قوائمَ بلـدات "يـهُوذا": بنيـامين، ودان، وشـمعون، تعكس القسم الإداري ليهُوذا في عهد "يُوشيًّا". في ذَلـك الوَقـت؛ كـانت المَمْلَكَة مُقسَّـمة إلـى اثنَتَيْ عشْرة منطقـة، شـملت المنطقـةَ مـن وادي بـئر سـبع فـي الجنـوب إلـى هضبـة بنيـامين فـي الشّمال، بما في ذلك شرق "شَـفلَة". جاءتْ الإشـارة الأُخرى فـي قوائـم العـائدين مـن المَنْفـى البابلي، التي تَظْهرُ في سفرَيْ عَزْرا ونَحَمْيا. تَتضمَّنُ هذه القوائم - على ما يبدو - الأماكنَ التـي كَانتْ ضمن حُدُود "يهُوذا" قبل دمار عام 586 ق. م. .

أضافَ المُؤرِّخ التّوراتيُّ الإسرائيليُّ "بنيامين مـازَر" أنَّ وصـفَ الحُـدُود الجَغرافيَّة للإصـلاح الدّيني ليُوشيًّا في سفر المُلُوك الثّاني 23/ 8 يَكْشفُ حُدُود دولته أيضاً: [8 وَجَـاءَ بجَميـع الْكَهَنَـة

من مُدُن يهُوذا ، وَتَجَسَ الْمُرتفعات حَيْثُ كَانَ الْكَهَنَةُ يُوقدُونَ من جَبْعَ إلَى بئر سَبْعٍ]. طابق "مازَرُ" "جَبْع" هذه على موقعٍ يقع حوالي خمسة عشرَ ميلاً شمال أُورشليم (القُدْس) . إنَّ معنى كُلِّ ما سَبَقَ ، أنَّه يبدو أنَّ توسُّع يُوشيًّا في الشّمال كَانَ ضئيلاً ، ويشمل منطقةَ مركز العبادة المَكْرُوه جداً في "بيت إيل" فحسب .

في الواقع ؛ يُمكن أنْ تُفَسَّر المُكتَشَفَات الآثاريَّة التي استخدمها التَّوسُّعيُّون بطُرُق مُختلفة جداً . دَعنَا نبدأ من "مَجدُّو" في الشّمال ؛ حيثُ لا يُوجد أيُّ دليل على نسبة حصن الطّبقة الثّانية إلى "يُوشيًّا" . لم يتمَّ اكتشاف حتَّى مادَّة يَهُوذَويَّة واحدة تعود للقرن السّابع (الذي سنصفه أدناه) في "مَجدُّو" . يُمكننا - باطمئنان - أنْ نقبل وجهة النَّظَر البديلة ، التي ترى أنَّ الطّبقة الثّانية في "مَجدُّو" تُمثِّل احتلالاً سلْمياً منْ قِبَل المصريِّين . واصلت القُصُور الآشُوريَّة - احتمالاً - عملها في خدمة الإدارة المصريَّة ، كما تمَّ بناء حصن في الحافَّة الشّرقيَّة من التَّلِّ ، لكنَّ هذا التّفسير يُثير - نوعاً ما - مُشكلة مُشابهة ، وهي أنَّ الطّبقة الثّانية في "مَجدُّو" لا تُقدِّم لنا أيَّ مُكتَشَفَات مصريَّة ، ولكنَّ الحُكْم المصري في فلسطين في القرن السّابع كان قصيراً جداً ، تراوحت مُدَّته بَيْن عشرة وعشرين سنة ، لذا ؛ لم يترك العديد من المُكتَشَفَات حتَّى في السّهل السّاحلي الجنوبي .

أمَّا بالنِّسبة إلى "مسْعاد هَشَفْياهو" في الغرب ؛ فإنَّ الفخَّاريَّات اليُونانيَّة التي وُجدتْ هُناك أصبحت - الآن - معروفة في عدد من المواقع في السّهل السّاحلي الجنوبي ووادي بئر سبع . إنَّ السُّؤال هُو : هَلْ يجب أنْ تُفهم هذه الفخَّاريَّات كَتَمْثيل للحُضُور الجسمي الفعلي للتُّجَّار أو المُرتزقة اليُونانيِّين ، أو أنَّها تُمثِّل - فقط - علاقات تجاريَّة مع الغرب؟ عُمُوماً ؛ تَعتمدُ الإجابة على مثل هذا السُّؤال ، من بَيْن عدَّة عوامل ، على كمِّيَّة الفخَّاريَّات الموجودة في موقع مُحدَّد . إنَّ النِّسبة العالية نسبياً لهذه الفخَّاريَّات في "مسْعاد هَشَفْياهو" قَدْ تُشير - فعلاً - لحُضُور فعْليٍّ لليُونانيِّين . وإذا كان الموقع حصناً فعلاً ؛ فإنَّنا نتعامل مع مُرتزقة . السُّؤال التّالي سَيَكُونُ : في أيِّ جيش خَدموا؟ يُخبرُنا المُؤرِّخ اليُوناني "هيرُودُوتس" أنَّ المُرتزقةَ اليُونانيِّين خَدموا في جيش "بَسْماتيك الأوَّل" ، ملك مصر ، وبأنَّهم وُضعُوا في قلاعه الحُدُوديَّة . هذا الأمر أكَّدتْه التّنقيبات في مصر ، بما في ذلك حَفْر إحدى الأماكن التي ذَكَرَهَا "هيرُودُوتس" بشَكْل مُحدَّد . لذلك ؛ يُمكننا أنْ نَقْبلَ - باطمئنان كامل - النَّظَريَّة التي تقول : إنَّ "مسْعاد هَشَفْياهو" كَانتْ مخفراً أمامياً ساحلياً مصرياً ، يقوم بشأنه فريق من النّاس ، من جُملتهم مُرتزقة يُونانيُّون .

ولكنْ؛ ألا يُمكن أنْ يكون المُرتزقة اليُونانيُّون قد خَدَموا - أيضاً - في جيشٍ يَهْوَذَوِيّ؟ من الجدير أنْ نذكر ثانيةً في هذا الصَّدَد: الـ "قتِّيم" المَذْكُورين في بعض الرّقائق الفخَّاريَّة المكتوبة العائدة لأواخر القرن السّابع، والتي اكْتُشِفَتْ في حصن "أراد" جنوب "يهُوذا". أُمِرَ قائد الحصن بتَجهيزهم بمؤونة الطّعام. اقترح "آهاروني" الذي نقَّب "أراد"، مُستنداً إلى الكتاب المُقدَّس العبْري، الذي يُعرِّف "القتِّيم" بأنَّهم يُونانيِّين أو قبارصة، وإلى الفخَّاريَّات اليُونانيَّة التي وُجدت في "مسْعاد هَشَفْياهو" (المُفْتَرَض أنَّه قلعةٌ يَهْوَذَوِيَّة من عهد يُوشيَّا)، أنَّ "القتِّيم" كانوا مُرتزقةً يُونانيِّين أو قبارصة خَدَموا في جيشٍ يَهْوَذَوِيّ، ولكنْ؛ هُناك تفسيرات أُخرى ليست بأقلّ معقوليَّة. اقترح "نداف نُعمان" أنَّ الرّقائق الفخَّاريَّة في "أراد" يجب أنْ تُفهَم على أنَّها أوامر أُعطيت لقادة يَهْوَذَوِيِّين تأمرهم بتزويد مؤونة الطّعام لمُرتزقة يُونانيِّين يعملون في الجيش المصري، الذي كان - في ذلك الوقت - يُسيطر على "يهُوذا". اقترح مُؤرِّخ توراتي آخر هُو "أنسون ريني" Rainey بأنَّ "القتِّيم" لم يكونوا مُرتزقةً، بل تُجَّاراً نشؤوا في بلدة قِتْيُون Kition في قُبرص.

على أيِّ حال؛ بالنِّسبة إلى "مسْعاد هَشَفْياهو" لا يكاد يُوجد شكٌّ في أنَّ مصر، التي توسَّعت في آخر القرن السّابع على طُول ساحل المشرق، كانتْ قويَّة بما فيه الكفايةَ لمَنْع "يُوشيَّا" من بناء حصنٍ مَعْزُولٍ وسط المنطقة التي كان لمصر فيها مصالح استراتيجيَّة قويَّة.

إذا كانت "مسْعاد هَشَفْياهو" حصناً مصرياً، فيجب أنْ نسأل، ماذا كان يفعل يَهْوَذَوِيُّون - أيْ أشخاص يحملون أسماء يَهْوِيَّة - هُناك؟ يُخبرنا سفْر إرميا (44 / 1، 46/ 14) أنَّه في زمنه كان يَهْوَذَوِيُّون يعيشون في عدَّة أماكن في مصر، فإذا جمعنا الاكتشافات في جزيرة فيلي في النِّيل، في مصر العُليا، إلى الإشارات المذكورة في الكتاب المُقدَّس العبْريّ عن "سيانا" (أسوان)، أمكننا أنْ نفترض أنَّ يَهْوَذَوِيِّين عملوا كَمُرتزقة في الجيش المصري في حُدُود الفترة المَلكيَّة المُتأخِّرة. وبناءً عليه؛ فإنَّه من المنطقي جداً أنْ تتضمَّن الوحدة العسكرة المصريَّة المُتمركزة في حصن "مسْعاد هَشَفْياهو" المصري مُرتزقةً يَهْوَذَوِيِّين. اقترح "نُعمان" أنَّ بعض أولئك اليَهْوَذَوِيِّين ربَّما كانوا عُمَّال سُخرة أُرسلوا إلى هُنالك كَجُزء من التزام يهُوذا التّابعة لمصر. وهكذا لا يُوجد سبب مُقنع لمطِّ وتوسعة أرض "يُوشيَّا" غرباً حتَّى السّاحل.

الآن؛ إلى الجنوب. لقد تمَّ اعتبار حصنَيْ القرن السّابع في الجنوب البعيد - قادش بَرْنيعا في الغرب و"حسيفا" في الشّرق - حصنَيْن يَهْوَذَوِيِّين طبقاً لبَعْض أنماط الفخَّاريَّات و(بالنِّسبة للحصن

الأوَّل) بعض الرّقائق الفخّاريَّة المكتوبة بالعبْريَّة، ولكنْ؛ بشَكْل أساسي، استند هذا الاعتبار على فكرة توسُّع دولة "يهُوذا" الكبير في عهد "يُوشيًّا"، ولكنْ؛ هُناك بديل ليس بأقلّ جَذَابةً، وهُو الذي اقترحه "نُعمان" قائلاً إنَّ الحصنَيْن بُنيا في أوائل القرن السّابع تحت الرّعاية الآشُوريَّة بمُساعدة الدّولتَيْن المحلّيَّتَيْن التّابعتَيْن للآشُوريّين ـ يهُوذا (تحت حكْم "مَنَسّى") و"أدوم" ـ وأنَّهما كانا يُداران بواسطة قُوّات تابعة محلّيَّة. كما اقترح ـ أيضاً ـ أنَّ الرّقائق الفخّاريَّة المكتوبة باللُّغة الهيريَّة المصريَّة، والتي اكتُشفت في قادش برنيعا، تُشير إلى أنَّه في أواخر القرن السّابع تمَّ تسليم الموقع للمصريّين. في الواقع؛ يبدو الحصنان، خاصَّة حصن حسيفا الضّخم (و الذي يعود زمنه ـ احتمالاً ـ إلى القرن السّابع) مُختلفاً ـ نوعاً ما ـ عن الحُصُون اليَهْوَذَويَّة في وادي بئر سبع.

حتَّى الآن استخدمنا دليلاً سلبيّاً، لكنْ؛ هَلْ نملك أدلَّة إيجابيَّة؟ أيْ هل تُوجد اكتشافات أثريَّة يُمكن أنْ تُساعدنا على تحديد حُدُود دولة "يهُوذا" في عهد "يُوشيًّا"؟ كان للحضارة المادّيَّة ليهُوذا في أواخر القرن السّابع عدَّة خصائص واضحة، يَسْهُلُ ـ نسبيّاً ـ تَتَبُّعُها في السِّجلِّ الآثاري. إنَّها تتمثَّل في سمات مُختلفة للحياة في "يهُوذا" في القرن السّابع ـ التّجارة، العبادة، الإدارة، والحياة اليوميَّة.. إذا خطَّطنا توزيعَ تلك السّمات على خريطة أمْكَنَنا تَميزُ حُدُود "يهُوذا". رغم أنَّ بعض تلك السّمات بدأت بالظُّهُور لأوَّل مرَّة قبل عُقُود قَليلة من عهد "يُوشيًّا"، إلاَّ أنَّها لابُدَّ وأنْ تكون قد استمرَّت ساريةً ومُستخدمةً، حتَّى بَلَغَت ذروة شعبيَّتها في أواخر القرن السّابع. بعبارة أُخرى؛ يُمكننا أنْ نُخمِّنَ أنَّه إذا وسَّع يُوشيًّا حُدُود "يهُوذا"، فلابُدَّ أنْ تتوسَّعَ اكتشافاتٌ يَهْوَذَويَّة نَمَطيَّة أيضاً ـ بشَكْل تدريجي ـ إلى الأراضي الجديدة.

إنَّ المُميِّزات الأُولى لآثار "يهُوذا" في القرن السّابع أوزانٌ مَكْتُوبةٌ صغيرةٌ صُنعتْ من أحجارٍ كلْسيَّة (جيريَّة). يبدو أنَّها كانت تُسْتَخْدَمُ ضمن نشاط تجاريٍّ خاصٍّ يوميٍّ. تظهر هذه الأوزان ـ بشَكْل رئيسي ـ في وسط "يهُوذا"، من وادي بئر سبع في الجنوب إلى المنطقة الواقعة شمال أُورشليم (القُدْس) فحسب. كما وُجدَت ـ أيضاً ـ بكمّيّات كبيرةٍ في شرق "شَفلَة". أمَّا خارج هذه الحُدُود التّقليديَّة ليهُوذا؛ فلا تُوجد تلك الأوزان بكمّيّات ذات أهمّيَّة إلاَّ في الغرب فقط، أيْ في "شَفلَة" السُّفلى والسّهل السّاحلي، لكنْ؛ هذا يُمكن أنْ يَكُونَ نتيجةً للنّشاط التّجاري القوي بيْن يهُوذا وهذه المنطقة.

أحد المُكتَشَفَات المُميَّزة النَّمَطيَّة الأُخرى لآخر القرن السّابع في "يهُوذا" هُو دَمْغَاتُ ختمٍ على شكل وَرْدَة، وُجدَت على مَقابض جرَّات الخَزْن. لَعبتْ هذه الأختامُ - احتمالاً - دوراً ما، لَمْ يُفْهَمْ - لحَدِّ الآن، بشَكْل كامل - في إدارة يهُوذا في ذلك الوَقت. يشمل توزُّعها مُرتفعات يهُوذا، من وادي بئرسبع في الجنوب إلى المنطقة التي تقع إلى الشّمال قليلاً من أُورشليم (القُدْس)، مع تركيزٍ رئيسيٍّ في منطقة العاصمة.

تُوجد - أيضاً - في يهُوذا العصر المَلكي المُتأخِّر، وبكميَّات كبيرة، تماثيلُ امرأة واقفة تحمل صدرَها بيدَيْها. ويُمكن تمييزها عن تماثيل مُشابهة تَظهرُ في المناطق المُجَاورَة. وُجدَت كُلُّها - تقريباً - في وسط يهُوذا، بَيْن بئر سبع و"بيت إيل". وتظهر في الغرب بأعداد كبيرة حتَّى خط "لَخيْش" و"بيت شمش" غرباً. هُناك تمثال من نوع آخر، يُصوِّر حصاناً وفارساً، كانت له شعبيَّة - أيضاً - في العصر الحديديِّ المُتأخِّر الثّاني في المنطقة. في هذه الحالة - أيضاً - يُمكن للنُّسخة اليَهُوذَويَّة لهذا التّمثال أنْ تُعْزَلَ. وُجدَتْ كُلُّ تماثيل هذا النّوع الأخير - تقريباً - ضمن حُدُود يهُوذا الأصليَّة.

وهكذا في جميع الحالات، نجد هذه التّماثيل وأنواع الفخَّاريَّات اليَهُوذَويَّة النَّمَطيَّة التي تعود لأواخر القرن السّابع - بشَكْل رئيسي - في وسط المَمْلَكَة الجنوبيَّة. وتَهْبطُ أعدادُها كُلَّمَا ذهبنا غرباً وشمالاً، وهي مازالت بكميَّة ذات أهميَّة على هضبة بيت إيل، لكنْ؛ إذا بَعُدْنَا شمالاً فإنَّها تشترك جميعاً بانحدار عدد مجموعاتها.

عندما تُخَطَّطُ كُلُّ هذه الموادِّ بشَكْل مُنفرد على الخريطة، نُلاحظ أنَّ توزيعَها مُتماثلٌ جداً. إنَّه يمتدُّ من وادي "بئرسبع" إلى هضبة "بيت إيل" شمال أورشليم (القُدْس)، ومن البحر الميِّت ووادي الأُردُن إلى "شَفلَة" العُليا. إنَّ السُّؤال هُو: هَلْ كانت هذه هي حُدُود يهُوذا الحقيقيَّة؛ بحيثُ تُشير إلى أنَّه لم يكن هُناك توسُّعٌ بنَحْو إضافيٌّ شمالاً؟ أم أنَّها تُمثِّلُ فقط الأرضَ الرّئيسيَّة للمَمْلَكَة؟ في هذه الحالة - أيضاً - يَجبُ أنْ نتذكَّر أنَّه إذا كان الاندفاعُ نحو الشّمال قصيرَ الأجل، فإنَّ هذا يُفسِّر لماذا لم ينعكس - بنَحْو كاف - في السِّجلِّ الآثاري، لكنَّ الضَّمَّ والإلحاق الدّائم والبعيد المدى لأراضٍ جديدةٍ إلى مَمْلَكَة "يهُوذا"، لا تُفيده - ببساطة - المُكتَشَفَات الأثريَّة.

المُلحق 'ز':

حُدُود مُحافظة 'يهُودا' Yehud

احتفظَ مُلُوك فارس بالتقسيم الإداري العامّ للشّرق الأدنى، الـذي كـانت قـدْ أسَّسَتْه الإمبراطوريّتان السّابقتان الآشُوريَّة والبابليَّة. قُسِّمَتْ الأراضي الواسعة للمنطقة - تحت حكْم الفُرْس - إلى ولاياتٍ فارسيَّة، وقُسِّمَتْ كُلُّ ولايةٍ فارسيَّة إلى مُحافظاتٍ يُديرُها حكّامٌ. تَبعَتْ فلسطين لولايةٍ فارسيَّة دُعيَت "ما وراء النّهْر" (أيْ: غرب الفُرات)، التي - طبقاً لهيرُودُوتس Herodotus - المُؤرِّخ اليُوناني العظيم - تضمَّنت مناطقَ: سُوريا، وفينيقية، وقُبرُص، وفلسطين.

تأتي بيانات أراضي مُحافظة "يهُودا" في فترة ما بعد النّفْي، الأكثر تفصيلاً، من نَصٍّ الكتاب المُقدَّس العبْريّ، من قائمة المَنْفيِّين الذي عادوا من بلاد بابل (عـزرا 2؛ نَحَمْيا 7) ومن قائمة بُناة أسوار أُورشليم (القُدْس) (نَحَمْيا 3). في الجنوب، كان الحَدُّ بَيْن مُحافظة "يهُودا" وأرض الأدوميِّين يمرُّ من جنوب "بيت صُور" تماماً، تاركاً حبرون (الخليل) - البلدة الثّانية الأكثر أهميَّة في المُرتفعات في الأوقات المَلَكيَّة المُتأخِّرة، وموقع قُبُور الآباء - خارج أرض العائدين إلى الوَطَن. في الشّمال، تَوافقتْ حُدُود مُحافظة "يهُودا" مع حُدُود الفترة الأخيرة للحكْم المَلَكي في "يهُوذا" أواخر القرن السّابع، مارَّةً من شمال "مصْفاة" و"بيت إيل". في الشّرق، ضُمَّتْ أريحا إلى "يهُودا". في الغرب، ذُكرَت منطقة اللُّدّ Lod، شمال "شَفلَة" في قائمة المَنْفيِّين العائدين من بابل، ولكنْ؛ ليس هُناك إجماع بَيْن العُلماء حول ما إذا كانت - فعلاً - مشمولة ضمن المُحافظة. وبناءً عليه؛ كانت "يهُوداً" مُحافظة صغيرة تُغطِّي - بشَكْل رئيسي - مُرتفعات "يهُوذا" التي تقع حوالي 15 ميلاً شمال وجنوب أُورشليم (القُدْس)، وهي رُقعة لا تزيد مساحتها على ثمانمئة ميلٍ مُربَّع، وهذه المساحة من الأرض أصغر حتَّى من المساحة المحدودة لدولة "يهُوذا" في أواخر القرن السّابع ق.م، فهي (أيْ مُحافظة يهُودا) لم تتضمَّن مُرتفعات

حبرون (الخليل) الجنوبيَّة ، ولا وادي بئر سبع ، ولا جُزءاً كبيراً من منطقة "شَفلَة" . ويبدو أنَّ المُحافظة قسِّمَت أقساماً فرعيَّة إلى مناطق ؛ تذكر قائمة بنَّائي السُّور (نَحَمْيا 3) بضعة بلدات من بَيْنها بلدة "مصْفاة" في الشّمال و"بيت صُور" في الجنوب ، اللَّتان عملتا كَمراكز إداريَّة ضمن مُحافظة "يهُودا" .

إعادة البناء النَّصيَّة هذه لحُدُود مُحافظة "يهُودا" أكَّدتْها الاكتشافات الأثريَّة . أكثر تلك الاكتشافات دلالةً ، طبعات (دمغات) ختم مُختلفة ، وُجِدَتْ على الأواني الفخَّاريَّة للفترة الفارسيَّة ، تحمل حرُوفاً آراميَّةً أو عبْريَّة ، تُوضِّح الاسم الآراميَّ لمُحافظة "يهُودا" . وقد وُجِدَتْ عدَّةُ مئاتٍ من هذه النّماذج حتَّى الآن . ويتطابق توزُّعها - على الأقلّ - بالكمِّيَّات ذات الأهمِّيَّة ، مع حُدُود مُحافظة "يهُودا" كما بُيِّنَت أعلاه : من منطقة "مصْفاة" في الشّمال إلى "بيت صُور" في الجنوب ، ومن "أريحا" في الشّرق إلى "جازَر" (قُرْب اللُّدّ) في الغرب .

في الواقع ، وُجِدَت جميع آثار الختم (الدّمغات) - تقريباً - في أُورشليم (القُدْس) ، وفي المواقع التي تقع في شمالها وجنوبها مُباشرة . أحد أنواع هذه الدّمغات يحمل - علاوةً على اسم المُحافظة - اسماً شخصيّاً ولقب : "الحاكم" . ميَّزَ أغلبُ العُلماء مثلَ هذه الأسماء الشّخصيَّة على أنَّها أسماءٌ لحُكَّام مجهولينَ حَكَمُوا مُحافظة "يهُودا" ؛ أيْ بمعنى آخر ، هي أسماءٌ لمسؤولين كان لهم نفس مركز نَحَمْيا .

ثَبْتُ المَرَاجع والمَصَادر

مُلاحظة من المؤلّف: على الرّغم من أنّ هُناك مجموعة غنيّة من المؤلّفات والإنتاج العلمي، باللُّغات العبْريّة والألمانيّة والفرنسيّة ولُغاتٍ أورُوبيّة أُخرى، حول الموضوعات التي يُغطّيها هذا الكتاب، إلاّ أنّنا اخترنا المصادر الرّئيسيّة في هذه "البيبلُوغرافيا" (مراجع ومصادر فُصُول الكتاب) من المؤلّفات المكتوبة باللُّغة الإنجليزيّة فقط. ومع ذلك؛ فقد ذكرنا ـ في حالات نادرة ـ مصادر ألمانيّة وفرنسيّة؛ حيثُ كانت هي المصدر الوحيد للفصل أو الفقرة قيْد البحث.

المُقدِّمة: علْم الآثار والتّوراة

الموسوعات المرجعيّة

I. المواقع الآثاريّة الرّئيسيّة في إسرائيل والأُردُن

Stern, E. (editor). The New Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land. Jerusalem.

II. مداخل التّوراة (الكتاب المُقدّس)

Freedman, D. N. (editor). 1992. The Anchor Bible Dictionary. New York.

III. الشّرق الأدنى القديم

Meyers, E. M. (editor). 1997. The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East. New York.

Sasson, J. M. (editor . (Civilizations of the Ancient Near East. London.

حول الجغرافيا السّياسيّة لكَنْعان/ إسرائيل

Orni, E. and Efrat, E. 1971. Geography of Israel. Jerusalem.

حول منهج علْم الآثار

Renfrew, C. and Bahn, P. 1991. Archaeology: Theories, Methods and Practice. London.

حول تاريخ أبحاث علم الآثار في فلسطين

Silberman, N. A. 1982. Digging for God and Country: Exploration in the Holy Land 1799 - 1917.New York.

كُتُب مُقدِّمَة لعلم الآثار في المشرق

Ben-Tor, A. (editor). 1992. The Archaeology of Ancient Israel. New Haven.

Levy, T. E. (editor). 1995. The Archaeology of Society in the Holy Land. London.

Mazar, A. 1990. Archaeology of the Land of the Bible 10.000 - 586 B. CE. New York.

Stern, E. 2001, Archaeology of the Land of the Bible, Vol. II: The Assyrian, Babylonian, and Persian Periods 732-332 BCE. New York.

حول الجَغرافيا التّاريخيّة لأرض إسرائيل

Aharoni, Y. 1979. The Land of the Bible: A Historical Geography Philadelphia. Translation of ancient Near Eastern texts.

Pritchard, J. B. 1969. Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament. Princeton.

حول أسفار مُوسى الخمسة (التّوراة)

Blenkinsopp, J. 1992. The Pentateuch: An introduction to the First Five Books of the Bible. New York.

Friedman, R E. 1987. Who Wrote the Bible? New York.

Gunkel, H. 1964. The Legends of Genesis. New York.

Noth, M. 1981. A History of Pentateuchal Traditions. Sheffield.

Van Seters, J. 1999. The Pentateuch: A Social-Science Commentary. Sheffield.

Welihausen, J. 1957. Prolegomena to the History of Ancient Israel. New York.

Whybray, RN. 1987. The Making of the Pentateuch. Sheffield.

حول التّاريخ التّثنوي

I . عامّ

McKenzie, S. L. and Graham, M. P. (editors). 1994. The History of Israel's Traditions: The Heritage ofMartin Noth. Sheffield.

Knoppers, G.N. and Mc Conville, J. G. (editors). 2000. Reconsidering Israel and Judah: Recent Studies on the Deuteronomistic History. Winona Lake.

Rofe, A. 1991. Ephraimite versus Deuteronomistic History. In: Garrone, D. and Felice, I. (editors). Storia e tradizioni di Israele.

II . المدرسة الألمانيَّة (مارتن نوث)

Noth, M. 1981. The Deuteronomistic History Sheffield.

III . مدرسة هارفرد (فرانك م. كروس)

Cross, F.M. 1973. Canaanite Myth and Hebrew Epic. Cambridge, Mass.: 274 288.

Halpern, B. and Vanderhooft, D. 1991. The Editions of Kings in the 7th-6th Centuries B.C.E. Hebrew Union College Annual 62: 179 244.

McKenzie. S. L. 1991. The Trouble with King's: The Composition of the Book of Kings in the Deuteronomistic History. Leiden.

Nelson, R D. 1981. The Double Redaction of the Deuteronomistic History. Sheffield.

حول سفرَيْ أخبار الأيَّام

Japhet, S. 5993. 1 & 2 Chronicles: A Commentary. London.

Noth, M. 1987

Williamson, H. G. M. 5982.1 and2 Chronicles. London.

حول التّصوير التّاريخي في الكتاب المُقدّس

Brettler, M. Z. The Creation of History in Ancient Israel London.

Halpern, B. 1988. The First Historians: The Hebrew Bible and History. San Francisco.

Ancient Israelite Historiography. Winona Lake.

Van Seters, J. 1983. In Search of History: Historiography in the Ancient World and the Origins of Biblical History New Haven.

حول جدول التّسلسل الزّمني التّوراتي للأحداث التّاريخيَّة

Cogan, M. 0992. Chronology Anchor Bible Dictionary. New York

Galil, G. 1996. The Chronology of the Kings of Israel and Judah. Leiden.

حول تاريخ إسرائيل

I . الدّراسات العامَّة :

Alt, A. 1966. Essays on Old Testament History and Religion. Oxford.

Noth, M. 1965. The History of Israel. London.

Hayes, J. H. and Miller, M. J. Israelite and Judaean History. London.

Miller, M. J. and Hayes, J. H. 0986. A History of Ancient Israel and Judah. London.

De Vaux, R. 1978. The Early History of Israel. Philadelphia.

II . المُقاربة التّقليصيَّة :

Davies, P. 0992. In Search of Ancient Israel. Sheffield.

Lemche, N. P. 0994. Is it Still Possible to Write a History of Ancient Israel? Scandinavian Journal of Old Testament 8/ 165-190.

Thompson, T. L. 0992. Early History of the Israelite People. Leiden.

Thompson, T. L. 1999. The Mythic Past. New York.

مدرسة سرد الأحدث سرداً عاماً

Braudel, F. 0980. On History London.

Febvre, L. 1973. A New Kind of History and Other Studies. New York.

الفَصْل الأوَّل: البحث عن الآباء

حول سفْر التّكوين

See items in the Pentateuch bibliography to the Introduction.

Sarna, N. M. 1966. Understanding Genesis. New York.

Speiser, E. A. 0964. Genesis: Introduction, Translation, and Notes. Garden City.

حول المصدر اليَهْوي

See items in the Pentateuch bibliography to the Introduction.

Friedman, R. E. The Hidden Book in the Bible. San Francisco.

Van Seters, J. 1992. Prologue to History: The Yahwist as Historian in Genesis. Louisville.

حول المصدر الإيلوهي

Jenks, A. W. 0977. The Elohist and North Israelite Traditions. Missoula.

حول المصدر الكَهَنُوتي

Haran, M. 1981. Behind the Scenes of History: Determining the Date of the Priestly Source.

Journal of Biblical Literature 100: 321 333.

Hurvitz, A. 1988. Dating the Priestly Source in Light of the Historical Study of Biblical Hebrew a Century after Welihausen. Beihefte zur Zeitschrsfi fur die alitestamentliche Wissenschaft 100: 88-99.

المُراجعات العامّة للتّقاليد الأبويّة

Dever, W. G. and Clark, M. W. 1977. The Patriarchal Traditions. In: Hayes and Miller in the bibliography to the introduction: 70 148.

Hendel, R. S. 1995. Finding Historical Memories in the Patriarchal Narratives. Biblical Archaeology Review 21/4: 52 - 59, 70 71.

McCarter, P. K. i999. The Patriarchal Age: Abraham, Isaac and Jacob. In: Shanks, H. (editor).

Ancient Israel From Abraham to the Roman Destruction of the Temple. Washington, D.C.: 1 31.

النّظريّات القديمة حول تاريخيّة التّقاليد (أيْ النُّصوص التّقليديّة) الأبويّة

Albright, W. F. 1961. Abraham the Hebrew. A New Archaeological Interpretation. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 163: 36 54.

Gordon, C. H. 1964. Biblical Customs and the Nuzi Tablets. In: Campbell, E. F. and Freedman, D. N. (editors). The Biblical Archaeology. ct Reader. Volume II. Garden City: 21 33.

Mazar, B. 1986. The Early Biblical Period: Histo rical Studies. Jerusalem: 49 62.

De Vaux, R. 161 - 187. See the bibliography to the Introduction.

الدّراسات النّقْديّة للتّقاليد (أيْ النُّصوص التّقليديّة) الأبويّة

Thompson, T. L. 1974. The Historicity of the Patriarchal Narrati yes: The quests for the Historical Abraham. Berlin.

Van Seters, J. 1975. Abraham in History and Tradition. New Haven.

Redford, D. B. 1970. A Study of the Biblical Joseph Story. Leiden.

حول علْم آثار عبْر الأُردُن

Bienkowski, P. (editor). 1992. Early Edom and Moab: The Beginning of the Iron Age in Southern Jordan. Sheffield.

McDonald, B. and Younker, R.W. (editors). 1999. Ancient Ammon. Leiden.

حول العَرَب الأوائل

Ephal, I. 1982. The Ancient Arabs. Jerusalem.

الفَصْلُ الثّاني: هل حَدَثَ الخُرُوج الجماعي؟

حول النّظريّة التّقليديّة للخُرُوج في العصر البرُونزي المُتأخّر

Frerichs, E. S. and Lesko, L. H. (editors). 1997. Exodus: The Egyptian Evidence. Winona Lake.

Sarna, N. M. 1999. Israel in Egypt: The Egyptian Sojourn and the Exodus. In: Shanks, H. (editor). Ancient hraeL From Abraham to the Roman Destruction of the Temple. Washington: 33 54.

حول كَنْعَان في العصر البرُونزي المُتأخّر

Leonard, A. 1989. The Lace Bronze Age. Biblical Archaeologist 52: 4 39.

Singer, I. Egyptians, Canaanites and Philistines in the Period of the Emergence of Israel. In: Finkelstein, I. and Naaman, N. (editors). From Nomadism to Monarchy: Archaeological and Historical Aspects of Early Israel. Jerusalem: 282 338.

Weinstein, J. M. 1981. The Egyptian Empire In Palestine: A Reassessment. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 241 1 28.

حول الاستطلاعات على طُول الطّريق الدّولي شمال سيناء

Oren, E. D. 1987 (editor). Egypt, Israel, Sinai: Archaeological and Historical Relationships in the Biblical Period. Tel Aviv: 69-119.

حول دلتا النّيل، وعهد الهكسُوس، والخُرُوج

Bietak, M. 1996. Avaris the Capital of the Hyksos: Recent Excavations at Tell el-Daba. London.

Redford, D. B. 1987. An Egyptological Perspective on the Exodus Narrative. In: Raincyc A. F. (editor). Egypt, Israel Sinai: Archaeological and Historical Relationships in the Biblical Period Tel Aviv: 137 161.

Redford, D. B. 1992. Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times. Princeton: 98 - 122.

حول الدّلتا في عهد "السّيتيّين" وقصّة الخُرُوج التّقليديّة

See Redford, above: 408 469.

تعليقات وتفسيرات على حادثة الخُرُوج

Propp, W. H. C. 1999. Exodus 1-18. New York.

Sarna, N.M. 1986, Exploring Exodus. New York.

الفَصْل الثّالث: غزو كَنْعَان

حول نَظَريّة الغزو العسكري

Albright, W. F. 1939. The Israelite Conquest of Canaan in the Light of Archaeology Bulletin of the American Schools of Oriental Research 74: 11 23.

Kaufman, Y. 1953. The Biblical Account of the Conquest of Palestine. Jerusalem.

Malamat, A: 1976. Conquest of Canaan: Israelite Conduct of War according to Biblical Tradition. Encyclopedia Judaica Year Book 1975/6: 166 182.

Wright, G. E. 1940. Epic of Conquest. Biblical Archaeologist 3: 25 40.

Yadin, Y. 1979 The Transition from a Semi-Nomadic to a Sedentary Society in the Twelfth Century BCE. In: Cross, EM. (editor). Symposia Celebrating the Seventy-Fifth Anniversary of the Foundation of the American Schools of Oriental Research (1900-1975) Cambridge: 57 68.

Yadin, Y. 1982. Is the Biblical Account of the Israelite Conquest of Canaan Historically Reliable? Biblical Archaeology Review 8:16-23.

حول التّنقيبات الآثاريّة الحاليّة في "حاصُوْر"

Ben-Tor, A. 1998
Questions.

In: Gitin, S., Mazar, A. and Stern, E. 1998. Mediterranean Peoples in Transition: Thirteenth to Early Tenth Centuries BCE. Jerusalem: 456 467.

نَقْد نَظَريّة الغزو العسكري

Finkeistein, I. 1988. The Archaeology of the Israelite Settlement. Jerusalem: 295 302.

حول القَصَص التّفسيريّة لأُمُور مُشاهَدَة في سفْر يشُوع

Noth, M. 1935. Bethel und Al. Paldstinajahrbuch 31: 7 29.

Noth, M. Die funf Konige in der Htihle von Makkeda. Paldstinajahrbuch 33: 22 36.

عَقْلَنَةُ الدّليل السّلبي حول غزو وفَتْح كَنْعَان

Albright, above: 16.

Glueck, N.1995. Rivers in the Desert. New York: 114.

حول الرّواية التّوراتيّة للغزو والفَتْح

Nelson, R. D. 1997.Joshua:A Commentary. Louisville.

Nelson, R. D. 1981. Josiah in the Book of Joshua. Journal of Biblical literature 100: 531 540.

حول شُعُوب الأرض

Dothan, T. 1982. The Philistines and Their Material Culture. Jerusalem.

Dothan, T. and Dothan, M. 0992. People of the Sea. New York.

Oren, E. D. (editor). 2000. The Sea Peoples and Their World: A Reassessment. Philadelphia.

Singer, in the bibliography to Chapter 2.

Stager, L. E. 1995. The Impact of the Sea Peoples (1185-1050 BCE). In: Levy, T. E. The Archaeology of Society in the holy Land. London: 332 - 348.

حول تاريخ انتهاء العصر البرُونزي المُتأخِّر

Ussishkin, D. 1985. Levels VII and VI at Tel Lachish and the End of the Late Bronze Age in Canaan. In: Tubb, J. N. (editor). Palestine in the Bronze and Iron Ages: Papers in Honour of Olga Tufnell. London: 213 228.

Ussishkin, D. 1995
Bronze Age and Its Historical Significance. Tel Aviv 22: 240 267.

حول سنوات الأزمة في نهاية العصر البرُونزي المُتأخِّر

Gitin, S., Mazar, A. and Stern, E. 1998. Mediterranean Peoples in Transition: Thirteenth to Early Tenth Centuries BCE. Jerusalem.

Ward, W. A. and Sharp Joukowsky, M. (editors). 1992. The Crisis Years: The 12th Century B.C. From Beyond the Danube to the Tigris. Dubuque.

حول كَنْعَان وفترة "العمارنة" بشَكْل خَاصٌ والعصر البرُونزي المُتأخِّر بشَكْل عامٌ

See above, in the bibliography to Chapter 2.

Finkelstein, I. 1996. The Territorio-Political System of Canaan in the Late Bronze Age, Ugarit Forschungen 28: 221 255.

Naaman, N. The Network of Canaanite Late Bronze Kingdoms and the City of Ashdod. Ugarit-Forschungen 29: 599 626.

Singer in the bibliography to Chapter 2.

الفَصْل الرَّابع: مَنْ كان الإسرائيليُّون؟

حول نَظَريَّة التَّسرُّب السِّلْمي

Alt, A. 1966. Essays on Old Testament History and Religion. Oxford:

Alt, A. Kleine Schrfien zur Geschichte des Volkes Israel, I. Munchen: 256 273.

Aharoni, Y. 1976. Nothing Early and Nothing Late. Re-writing Israel Conquest. Biblical Archaeologist 39: 55 76.

حول نَظَريَّة ثورة الفلاَّحين

Mendenhall, G. E. 1962. The Hebrew Conquest of Palestine. Biblical Archaeologist 25: 66 - 87.

Gottwald, N. K. 1979. The Tribes of Yahweh. New York.

الآراء المُعاصرة حول صُعُود إسرائيل المُبكِّرة

Coote, R. B. and Whitelam, K. W. 1987. The Emergence of Early Israel in Historical Perspective. Sheffield.

Dever, W. G. 1955

Origins. Biblical Archaeologist 58: 200 13.

Finkelstein in the bibliography to Chapter 3, The Archaeology.

Highlands Frontiers and the Rise of the Territorial States. In: Levy, T. E. (editor). The Archaeology of Society in the Holy Land. London: 349 365.

Finkelstein, I. 1996. Ethnicity and Origin of the Iron I Settlers in the Highlands of Canaan: Can the Real Israel Stand Up? Biblical Archaeologist 59: 198 212.

Finkelstein, I. and Naaman, N. (editors). 1994. From Nomadism to Monarchy: Archaeological and Historical Aspects of Early Israel. Jerusalem.

Lemche, N. P. 1985. Early Israel. Leiden.

Stager, L. E. 1985. The Archaeology of the Family in Ancient Israel. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 260: 1- 35.

حول الأبيرو والشُّوصيِّين

Giveon, R. 1971

Greenberg, M. 1955. The Hab/piru. New Haven.

Rowton, M. B. 1976. Dimorphic Structure and the Problem of the Apiru-Ibrim. Journal of Near Eastern Studies 35:13 20.

Naaman, N. 1986. Habiru and Hebrews: The Transfer of a Social Term to the Literary Sphere. Journal of Near Eastern Studies 24: 271 288.

Rainey, A. E 1995. Unruly Elements in Late Bronze Canaanite Society. In: Wright, D.P., Freedman, D.N. and Hurvitz, A. (editors). Pomegranates and Golden Bells. Winona Lake: 481 496.

Ward, W. A. 1972

Journal of the Economy and Social History of the Orient 15: 35 60.

تفسير وشَرْح سفْر القُضَاة

Boling, R. G. 1975. Judges. New York.

الفَصْل الخامس: ذكريات عصر ذهبي

شرُوح (تفسير) لسفْرَيْ صموئيل وسفْر المُلُوك الأوَّل

McCarter, K. P. 5980. I Samuel Garden City.

McCarter, K. P. 1984.II Samuel. Garden City.

Gray, J. 1970. I and II Kings, A Commentary. London.

حول الدّولة المَلكيَّة المُتَّحدة، داود وسُلَيْمَان

Fritz, V. and Davies, P. 1996. The Origins of the Ancient Israelite States. Sheffield.

King. Grand Rapids.

Handy, L. K. (editor) 5997. The Age of Solomon. Leiden.

Knauf, E. A. 1991

(editor). Phoenicia and the Bible. Leuven: 167 186.

Niemann, H. M. 2000. Megiddo and Solomon - A Biblical Investigation in Relation to Archaeology. Tel Aviv 27: 59 72.

الرّأي التّقليصي بشأن الدّولة المَلكيَّة المُتَّحدة

See in the bibliography to the Introduction.

النَّظريَّة التّقليديَّة حول علم آثار الدّولة المَلكيَّة المُتَّحدة

Dover, W. G. 5990. Recent Archaeological Discoveries and Biblical Research. Seattle: 85 117.

Kenyon, K. 1971. Royal Cities of the Old Testament. New York: 53 - 70.

Mazar, A. 1997. Iron Age Chronology: A Reply to I. Finkelstein. Levant 29: 155-165.

Ussishkin, D. 1973 36: 78 505.

Yadin, Y. 1970. Megiddo of the Kings of Israel. Biblical Archaeologist 33: 66 96.

Yadin, Y. 1972. Hazor. London: 147 164.

Yadin, Y. 1975 Hazor: The Discovery of a Great Citadel of the Bible. London: 147 248.

حول التّسلسل الزّمني الأدنى لطبقة العصر الحديدي

Finkelstein, I. 1996. The Archaeology of the United Monarchy: An Alternative View. Levant 28: 577 587.

Finkelstein, 1.1998. Bible Archaeology or Archaeology of Palestine in the Iron Age? A Rejoinder. Levant 30: 167 174.

حول نماذج الاستيطان في يهُودا

Ofer, A. 1994

a Prosperous Monarchy. In: Finkelstein, I. and Naaman, N; (editors). From

nomadism to Monarchy Archaeological and Historical Aspects of Early Israel. Jerusalem: 92 121.

حول أورشليم (القُدْس) في عصر المَمْلَكَة المُتَّحدة

Cahill, J. 1998
Archaeological Evidence Proves it. Biblical Archaeology Review 24/4:34 41.

Steiner, M. 1998
Archaeology Proves a Negative. Biblical Archacology Review 24/4: 26 - 33, 62.

on the Ground. Tel Aviv.

Knauf, E. A. 2000. Jerusalem in the Late Bronze and Early Iron Periods: A Proposal. Tel Aviv 27: 73 89.

حول نَقْش تلّ دان

Biran, A. and Naveh, J. The Tel Dan Inscription: A New Fragment. Israel Exploration Journal 45: 1 18.

Halpern, B. 1994. The Stela from Dan: Epigraphic and Historical Considerations. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 296: 63 80.

Lemaire, A. 1998. The Tel Dan Stela as a Piece of Royal Historiography. Journal for the Study of the Old Testament 81: 3 14.

Schniedewind, W. M. 1996. Tel Dan Stela: New Light on Aramaic and
f Oriental Research 302:75
90.

Yamada, S. 1995. Aram-Israel Relations as Reflected in the Aramaic Inscription from Tel Dan. Ugarit-Forschungen 27:611 625.

حول الفلسطينيّين

See bibliography on the Sea Peoples in Chapter 3 above.

الفَصْل السّادس: دولة واحدة وأُمَّة واحدة وشعب واحد!

حول الشّمال في مُقابل الجنوب في منطقة المُرتفعات المركزيّة خلال الألفيّة

See Finkelstein 1995 in the bibliography to Chapter 4.

حول منطقة المُرتفعات في فترة العمارنة

See Finkelstein 1996 and Naaman 1997 in the bibliography to Chapter 3 above.

Naaman, N. 1992. Canaanite Jerusalem and its Central Hill Country Neighbors in the Second Millennium B.C.E. Ugarit-Forschungen 24: 277 291.

حول تشكيل الدّولة في المشرق

Finkelstein, I. 1999. State Formation in Israel and Judah: A Contrast in Context, A Contrast in Trajectory. Near Eastern Archaeology 62: 35 52.

Marfoe, L. 1979. The Integrative Transformation: Patterns of Socio-political Organization in Southern Syria. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 234: 1 42.

حول حَمْلَة الفرعون شيشانق

Kitchen, K. A. 1973. The Third Intermediate Period in Egypt. Warminster: 293 300.

Mazar in the bibliography to Chapter 1: 139 150.

الفَصْل السّابع: مَمْلَكَة إسرائيل الأُولى المنسيَّة

شرح (تفسير) سفْر المُلُوك الثّاني

Cogan, M. and Tadmor, H. 1988. II Kings. Garden City.

حول مسَلَّة ميشا

Dearman, J. A. (editor). 1989. Studies in the Mesha Inscription and Moab. Atlanta.

Naanian, N. 1997. King Mesha and the Foundation of the Moabite Monarchy. Israel Exploration Journal 47: 83 92.

Smelik, K. A. D. 1992. Converting the Past, Studies in Ancient Israelite and Moabite Historiography. Leiden: 59 92.

حول نَقْش تلّ دان

See the bibliography to Chapters.

حول السّامرة

See Kenyon, Royal Cities, the bibliography to Chapters.

حول "مجدُّو" و"حاصُوْر" في القرن التّاسع

حول نظام المياه في العصر الحديدي الثّاني

Shioh, Y. 1992. Underground Water Systems in the Land of Israel in the Iron Age. In: Kempinski, A. and Reich, R. (editors). The Architecture of Ancient Israel from the Prehistoric to the Persian Periods. Jerusalem: 275 293.

حول قُصُور بيت حيلاني

See Ussishkin, King Solomon's Palaces, in the bibliography to Chapters.

حول يزرعيل

Naaman, N. 1997. Historical and Literary Notes on the Excavations of Tel Jezreel. TelAviv 24: 122 128.

Ussishkin, D. and Woodhead, J. 5992. Excavations at Tel Jezreel 1990 - 1991: Preliminary Report, Tel Aviv 19: 3 56.

Ussishkin, D. and Woodhead, J. Excavations at Tel Jezreel 1992 - 1993: Second Preliminary Report, Levant 26: 1 71.

Ussishkin, D. and Woodhead, J. 1997. Excavations at Tel Jezreel 1994 - 1996: Third Preliminary Report, Tel Aviv 24: 6-72.

Williamson, H. C. M. 1991. Jezreel in the Biblical Texts. Tel Aviv 18: 72 92.

Zimhoni, 0. 1997. Studies in the Iron Age Pottery of Israel Typological Archaeological and Chronological Aspects. Tel Aviv: 13 56.

حول رُؤُوس العواميد من النَّمَط ـ العولسي

Shiloh, Y. 1979. The Proto-Aeolic Capital and Israelite Ashlar Masonry (Qedem II). Jerusalem.

حول دولة العُمْرِيِّين

Olivier, H. 1983. In Search of a Capital for the Northern Kingdom, Journal of Northwest Semitic Languages II: 117 132.

Schulte, H. The End of the Omride Dynasty: Social-Ethical Observations on the Subject of Power and Violence. In: Knight, D. A. (editor). Ethics and Politics in the Hebrew Bible. Atlanta: 133 148.

Timm, S.1982. Die Dynastie Qmri. Gottingen.

Williamson, H. G. M. 1996. Tel Jezreel and the Dynasty of Omri, Palestine Exploration Quarterly 128: 41 51.

حول تمثيل العُمْرِيِّين في التّاريخ التّثنوي

Ishida, T The House of Ahab, Israel Exploration Journal 25: 135 - 137.

Whitley C. E 1952. The Deuteronomic Presentation of the House of Omri, Vetus Testamentum 2: 137 152.

الفَصلُ الثّامن: في ظلِّ إمبراطُوريَّة

حول آرام دمشق والآراميِّين

Dion, P.-E. 5997

Lipinski, E. 2000. The Arameans: Their Ancient History Culture, Religion. Leuven.

Pitard, W. T. 1987. Ancient Damascus. Winona Lake.

حول "حزائيل" وحربه ضدّ إسرائيل

Lemaire, A. 1991
Joannes, F. (editors). Marchands, diplomates etempereurs. Paris: 91 108.

See bibliography on the Dan Stele in Chapters.

حول "حاصُوْر" والشّمال في العصر الحديدي الثّاني

Finkelstein, I. 1999. Hazor and the North in the Iron Age: A Low Chronology Perspective. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 314: 55 70.

حول التّنقيبات في دان وبيت صيدا

Biran, A. 1994. Biblical Dan. Jerusalem.

Arav, R., Freund, R.A. and Shroder, J.F. 2000. Bethsaida Rediscovered: Long Lost City Found North of Galilee Shore. Biblical Archaeology Review 26/1: 45 56.

حول رقائق الفخّاريّات المكتوبة في السّامرة

Lemaire, A. 1977. Inscriptions hebraiques I : Les ostraca. Paris.

Rainey, A. F. 1967. The Samaria Ostraca in the Light of Fresh Evidence. Palestine Exploration Quarterly 99: 32 41.

Shea, WH. 1977. The Date and Significance of the Samaria Ostraca. Israel Exploration Journal 27: 16 27.

حول عدد سكّان يهودا وإسرائيل في العصر الحديدي الثّاني

Broshi, M. and Finkelstein, I. 1992. The Population of Palestine in Iron Age II. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 287: 47 60.

حول إسطبلات "مَجدُّو"

Davies, A. I. 1988. Solomonic Stables at Megiddo After All? Palestine Exploration Quarterly 120: 130-141.

Herr, L. G. 1988. Tripartite Pillared Buildings and the Market Place in Iron Age Palestine. Bulletin of the American Schools of Oriental Research 272: 47 67.

Herzog, Z. 0973. The Storehouses. In: Aharoni, Y. (editor). Beer-sheba I. Tel Aviv: 23 30.

Pritchard, J. B. 1970. The Megiddo Stables: A Reassessment. In: Sanders, J. A. (editor). Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century Garden City: 268 275.

Yadin, Y. 0976. The Megiddo Stables. Magnalia Dei: the Mighty Acts of God. Essays on the Bible and Archaeology in Memory of G.E. Wright. Garden City: 249-252.

حول قوائم الخُيُول الآشُوريَّة

Dalley, S. 1985. Foreign Chariotry and Cavalry in the Armies of Tiglath-pileser III and Sargon II. Iraq 47: 31 48.

حول قطع العاج في السّامرة

Crowfoot, J. W. and Crowfoot, G. M. 1938. Early Ivories from Samaria. London.

حول الحملات الآشُوريَّة

Tadmor, H. 1966. Philistia under Assyrian Rule. Biblical Archaeologist 29: 86 102.

حول سُقُوط السّامرة

Becking, B. 1992 The Fall of Samaria. Leiden.

Naainan, N. 1990. The Historical Background to the Conquest of Samaria (720 BC). Biblica 71: 206 225.

حول ترحيل الإسرائيليّين

Naaman, N. 1993. Population Changes in Palestine Following Assyrian Deportations. Tel Aviv 20: 104 124.

Oded, B. 1979. Mass Deportations and Deportees in the Neo-Assyrian Empire. Wiesbaden.

Younger, L. K. 1998. The Deportations of the Israelites. Journal of Biblical Literature 117: 201 227.

الفَصْل التّاسع : تحوُّل يهُودا

حول صُعُود يهُودا في القرن الثّامن

Jamieson-Drakc, D. W 1991. Scribes and Schools in Monarchic Judah: A Socio-Archaeolsgical Approach. Sheffield.

Finkelstein 1999 in the bibliography to Chapter 6.

Finkelstein, I. 2001. The Rise of Jerusalem and Judah: The Missing Link. Levant 33: 105 115.

حول "آحاز" في التّاريخ (الفعلي) والتّاريخ التّثنوي

Naaman, N. 1995. The Deuteronomist and Voluntary Servitude to Foreign Powers. Journal for the Study of the Old Testament 65: 37 53.

Nelson, R. D. 1986. The Altar of Ahaz: A Revisionist View. Hebrew Annual Review 10: 267 276.

Smelik, K. A. D. The New Altar of King Ahaz (a Kings 16); Deuteronomistic Reinterpretation of a Cult Reform. In: Vervenne, M. and Lust, J. (editors). Deuteronomy and Deuteronomic Literature. Leuven: 263 278.

Tadmor, H. and Cogan, M. 1979. Ahaz and Tiglath-Pileser in the Book of Kings: Historiographic Considerations. Biblica 60: 491 - 508.

حول قوائم المُدُن المُحَصَّنة منْ قَبَل رَحُبْعام

Naaman, N. 1986
Bulletin of the American Schools of Oriental Research 261: 5 21.

Fritz, V. 1981 2 Chr. II: 5-12 -A Document from the Time of Josiah. Eretz-Israel 15: 46 53.

حول نُقُوش العصر الحديدي الثّاني بما في ذلك الأختام

Avigad, N. and Sass, B. 1997. Corpus of West Semitic Stamp Seals. Jerusalem.

McCarter, K P 1996. Ancient Inscriptions: Voices from the Biblical world Washington.

Naveh, J. 1982. Early History of the Alpha bet. Leiden.

حول الإنتاج الشّامل للفخّاريّات في يهُودا في العصر الحديدي الثّاني

Zimhoni, Studies in Iron Age Pottery in the bibliography to Chapter 7 57 178.

حول تاريخ الاستيطان في يهُودا

Ofer in the bibliography to Chapters.

حول التّشابه بَيْن أُورشليم العصر البرُونزي المُتأخّر وأُورشليم العصر الحديدي الباكر

Naaman, N. 1996. The Contribution of the Amarna Letters to the Debate letin of the
American Schools of Oriental Research 304:17 27.

حول الدِّين في "يهُودا"

Ackerman, S. 1992. Under Every Green Tree: Popular Religion in Sixth Century Judah. Atlanta.

Albertz, R. 1994. A History of Israelite Religion in the Old Testament Period. Louisville.

Miller, P. D. 2000. Israelite Religion and Biblical Theology. Sheffield.

Smith, M. 1971. Palestinian Parties and Politics that Shaped the Old Testament. New York.

حول توسُّع أُورشليم (القُدْس) في القرن الثّامن

Avigad, N. 1984. Discovering Jerusalem. Oxford: 31 60.

Broshi, M. 1974. The Expansion of Jerusalem in the Reigns of Hezekiah and Manasseh. Israel Exploration Journal: 24: 21-26.

حول مقابر أُورشليم (القُدْس) في العصر الحديدي الثّاني

Barkay, G. and Kioner, A. 1986. Jerusalem Tombs from the Days of the First Temple. Biblical Archaeology Review 12/2: 22 39.

Ussishkin, D. 1993. The Village of Silwan: The Necropolis from the Period of the Judean Kingdom. Jerusalem.

حول الإصلاح الدِّيني لـ "حَزَقيًا"

Naaman, N. 1995. The Debated Historici
Light of Historical and Archaeological Research. Zeitschrift fur die alttestamentliche wissenschaft 107: 179 195.

Rosenbaum, J. 1979
Tradition. Harvard Theo logical Review 72: 23 43.

حول إمكانيَّة كتابة تاريخ تثنوي باكر في عهد "حَزَقيًا"

Halpern and Vanderhooft in the bibliography to the introduction.

Provan, I. W. 1988. Hezekiah and the Books of Kings: A Contribution to the Debate about the Composition of the Deuteronomistic History. Berlin.

الفَصْل العاشر: بَيْن الحرب والبقاء

حول ثورة "حَزَقيًا"

Halpern, B. 1991. Jerusalem and the Lineages in the Seventh Century Bce: Kinship and the Rise of Individual Moral Liability. In: Halpern, B. and
Monarchic Israel Sheffield: 11
107.

Naaman, N. 5994. Hezekiah and the Kings of Assyria. Tel Aviv 21: 235 254.

حول العلاقات الخارجيَّة ليهُودا في أيَّام "حَزَقيًا" و"مَنَسَّى"

Evans, C. D. 1980
Evans, C. D., Hallo, W. W. and White, J. B. (editors). Scripture in Context: Essays on the Comparative Method. Pittsburgh: 157 178.

Nelson, R. 1983. Realpolitik in Judah (687 - 609 B.C.E.). In: Hallo, W. W., Moyer, J. C. and Perdue, L. G. (editors). Scripture in Context II: More Essays on the Comparative Method. Winona Lake: 177 189.

حول توسُّع أُورشليم (القُدْس) غرباً

See Avigad and Broshi in the bibliography to Chapter 9.

حول "لَخيْش" وفَتْحها منْ قبَل "سنْحاريب"

Ussishkin, D. 1982. The Conquest of Lachish by Sennacherib. Tel Aviv.

حول جرّار التّخزين المدموغ عليه "الملك" وإدارة "حَزَقيّا"

Naaman,N. 1979
LMLK Stamps. Vetus Tejmentum 29: 61-86.

Ussishkin, D. 1977. The Destruction of Lachish by Sennacherib and the Dating of the Royal Judean Storage Jars. Tel Aviv 4: 28 60.

Vaughn, A. G. 1999. Theology History and Archaeology in the

حول أيّام "مَنَسّى"

Finkelstein, I. 1994. The Archaeology of the Days of Manasseh. In: Coogan, M.D., Exum, J. C. and Stager, L. E. (editors), Scripture and Other Artifacts: Essays on the Bible and Archaeology in Honor of Philip J. King. Louisville: 169 187.

حول التّقييم التّوراتي لـ "مَنَسّى"

Ben-Zvi, E. 1991. The Account of the Reign of Manasseh in II Reg 21: 1 - 18 and the Redactional History of the Book o
alttestamentliche Wissenschaft 103: 355 - 374.

Eynikel, E. 1997. The Portrait of Manasseh and the Deuteronomistic Histosy In: Vervene, M. and Lust, J. (editors). Deuteronomy and Deuteronomic Literature. Leuven: 233 261.

Halpern, B. 1998. Why Manasseh was Blamed for the Babylonian Exile: The Revolution of a Biblical Tradition. Vetus Testamentum 48: 473 - 514.

Schniedewind, W. M. 1991. The Source Citations of Manasseh: King Manasseh in History and Homily. Vents Testamentum 41: 450 461.

Van Keulen, P. 1996. Manasseh through the Eyes of the Deuteronomists. Leiden.

حول الازدهار في الجنوب في القرن السّابع

Finkelstein, I. Horvat Qitmit and the Southern Trade in the Late Iron Age II. Zeitschrift des Deutschen Palstina-Vereins 108: 156 170.

Bienkowski, in the bibliography to Chapter 1, various articles.

حول إنتاج زيت الزّيتون في تلّ ميقنة

Eitam, D. and Shomroni, A. 1987. Research of the Oil Industry during the Iron Age at Td Miqne. In: Heltzer, M. and Eitam, D. (editors). Olive Oil in Antiquity Haifa: 37 - 56.

Gitin, S. 1987. Tel Miqne-Ekron in the 7th C. BC: City Plan, Development and the Oil Industry In: Heltzer, M. and Eitam, D. (editors). Olive Oil in Antiquity. Haifa: 81 97.

حول تقييم مُلُوك بهودا في الأزمنة المَلَكيّة المُتأخِّرة

Naaman 1994 above.

Schniedewind, W. 1999. Society and the Promise to David Oxford.

الفَصل الحادي عشر: في أيّام الملك 'يُوشيّا'

حول "يُوشيّا" وإصلاحه في التّاريخ التّثنوي

Eynikel, E. 1996. The Reform of King Josiah and the Composition of the Deuteronomistic History. Leiden.

Laato, A. 1992. Josiah and David Redivivus: The Historical Josiah and the Messianic Expectations of Exilic and Postexilic Times. Stockholm.

Lohfink, N. 1987. The Cult Reform of Josiah: 2.Kings 22 - 23 as a Source for the History of Israelite Religion. In: Miller, P. D., Hanson, P. D. and McBride, S. D. (editors) Ancient Israelite Religion. Philadelphia: 459 475.

Naaman, N. The Kingdom of Judah under Josiah. Tel Aviv 18 :3 71.

Taishir, Z. 1996. The Three Deaths of Josiah and the Strata of Biblical Historiography (2 Kings XXIII 29 - 3o; a Chronicles XXXV 20 - 5; I Esdras I 23 - 31). Vetus Testamentum 46: 213 236.

حول سفر التّثنية

Tigay, J. 1996. Deuteronomy. Philadelphia.

Von Rad in the bibliography to the Introduction.

Von Rad, G. 1966. Deuteronomy: A Commentary. London.

Weinfeld, M. 1972. Deuteronomy and the Deuteronomic School. Oxford.

Malamat, A. 1973
Near Eastern Society. 5: 267 279.

Malamat, A. 1988. The Kingdom of Judah between Egypt and Babylon: A Small State within a Great Power Confrontation. In: Classen, W. (editor). Text and Context. Sheffield: 117 129.

حول مصر والمشرق في أيّام الأُسرة المالكة السّادسة والعشرين

Redford, Egypt and Canaan, in the bibliography to Chapter 2.

حول النُّسخة الأُولى من سفْر التّثنية

See bibliography to the Introduction.

حول الاهتمام بالأيقونات ومُعاداة الأيقونات في إسرائيل القديمة

Keel, 0. and Uehlinger, C. 1998. Gods, Goddesses, and Images of God in Ancient Israel. Edinburgh.

Mettinger, T. 1995. No Graven Image? Israelite Aniconisin in Its Ancient Near Eastern Context. Lund.

الفَصْل الثّاني عشر: النَّفْي والعَوْدَةُ

حول الجُزء الثّاني (أو النُّسخة الثّانية) من سفْر التّثنية

See bibliography on the Deuteronomistic History (the Harvard School) in the introduction, especially Halpern and Vanderhooft.

See the items on King Manasseh in the bibliography to Chapter so.

الفترة البابليّة

Lipschits O. Forthcoming. The Fall and Rise of Jerusalem.

Vanderhooft, D. S. 1999. The Neo-Babylonian Empire and Babylon in the Latter Prophets. Atlanta.

حول الآيات الأربعة الأخيرة من سفْر المُلُوك (إطلاق سراح يهُوياكين من السّجن)

Becking, B. 990
Kings 25, 27 - 30. In: Brekelmans, C. and Lust, J. (editors). Pentateuchal and Deuteronomistic Studies. Leuven: 283 293.

Levenson, J. D. 1984. The Last Four Verses in Kings. Journal of Biblical Literature. 103: 353 - 361. Von Rad in the bibliography to the introduction.

حول أُسطُورة الأرض الخالية والاستيطان والجَغرافيا السُّكّانيّة في مُحافظة "يهُود"

Barstad, H. M. 1996. The Myth of the Empty Land. Oslo.

Carter, C. E. 1999. The Emergence of Yehud in the Persian Period. Sheffield.

حول مُحافظة "يهُود" وبُرُوز يهُوديَّة الهيكل الثَّاني

Berquist, J. L. 1995

Davies, P. R. (editor). 1991 Second Temple Studies I. The Persian Period. Sheffield. Eskenazi, T. C. and Richards, K. H. (editors). Second Temple Studies 2. Temple and Community in the Persian Period. Sheffield.

Hanson, P. D. 1987. Israelite Religion in the Early Postexilic Period. In: Miller, P. D., Hanson, P. D. and McBride, S. D. (editors). Ancient Israelite Religion. Philadelphia: 485 - 508.

Williamson, H. 1998. Judah and the Jews. In: Brosius, M. and Kuhrt, A. (editors). Studies in Persian History: Essays in Memory of David M Lewis. Leiden: 145 - 163.

حول الحضارة الماديَّة للفترة الفارسيَّة بشَكْل عامٌ وفي مُحافظة "يهُود" بشَكْل خَاصٌ

Stern, E. 1982. Material Culture of the Land of the Bible in the Persian Period, 538 - 332 B. C Warminster.

حول حقائق "النَّفْي" و"ما بعد النَّفْي" خلف قَصَص أسفار مُوسى الخمسة (التَّوراة)

Clines, D. J. A. 1997. The Theme of the Pentateuch. Sheffield.

Hoffman, Y. 1998. The Exodus - Tradition and Reality. The Status of the Exodus Tradition in Ancient Israel. In: Shirun-Grumach, I. (editor). Jerusalem Studies in Egyptology. Wiesbaden: 193 - 202.

Van Seters 1975, in the bibliography for Chapter 1.

المُؤلِّفَان وَالمُتَرْجِمُ في سُطُور

- د. إزْرَايِل (إسرائيل) فنْكلْشْتَايْن: Israel Finkelstein

رئيس قسم علْم الآثار في جامعة تلّ أبيب في إسـرائيل (فلسطين المُحتَلّة)، وبرُوفسُور ـ حاليّاً ـ في ذلك القسم. إسرائيليٌّ من أصل ألماني، حائز على الماجستير (1978)، ثُمَّ الدُّكتُوراه (1983) في علْم الآثار من جامعة تلّ أبيب، بأُطرُوحةٍ عُنوانها [التّنقيبات في "عزبت سرتاح" Izbet Sartah والاستيطان الإسرائيلي في منطقة التّلال (المُرتفعات)]. شغل منصب مُدير أو مُدير مُشارك للعديد من أعمال التّنقيب الآثاريّة في مناطق مُختلفة من فلسطين مُنْذُ عام 1971، وحتّى اليوم، آخرها رئاسته المُشتركة ـ حاليّاً ـ لمشروع أعمال التّنقيب الآثاريّة في "مَجدُّو".

بالإضافة إلى كتابه الحالي، الذي هُو آخر تأليفاته، صَدَرَ له عدّة كُتُب بالتّعاون مع مُؤلّفين آخرين، أهمّها:

1 ـ "العيش على الحافّة: علْم الآثار وتاريخ النّقَب وسيناء و المناطق المُجاورة في العُصُور البرُونزيّة والحديديّة" (1995، شيفيلد).

2 ـ "من البَدَويّة إلى المَلَكيّة: الجوانب علْم الآثاريّة لإسرائيل القديمة" (1994، القُدْس).

3 ـ "مُرتفعات الحضارات المُتعدّدة: استطلاع السّامرة الجنوبيّة" (1993، تلّ أبيب).

4 ـ "المَسُوحات الآثاريّة في ريف التّلال و المُرتفعات في بنيامين" (1993، القُدْس).

5 ـ "علم آثار المواقع التّوراتيّة" (1993، شيلوح).

نَشَرَ، ومايزال ينشر، العديد من المقالات حول موضوعات علْم آثاريّة في العديد من المجلاّت والحوليّات المُهتمّة بعلْم الآثار والدّراسات التّاريخيّة؛ مثل: "مجلّة المعاهد الأمريكيّة للدّراسات الشّرقيّة"، و"المجلّة الأمريكيّة لعلْم الآثار".

بريده الإلكتروني : fink2@post.tau.ac.il

- نيل إشر سيلْبرمَان Neil Asher Silberman

مُؤلِّف ومُؤرِّخ (أمريكي يهُودي الأصل) ذُو اهتمام خاصٍّ بالتّاريخ، وعلم الآثار، والتّفسيرات العامّة. زميل سابق لـ "غوغنهايم" Guggenheim وخرِّيج جامعة "ويزليان" Wesleyan في الولايات المتّحدة، مُؤلِّف لتسعة كُتُب في مواضيع آثاريّة. ومُحرِّر مُساهم في مجلّة "علم الآثار" Archaeology Magazine الأمريكيّة، ومُساهم - بشَكْل مُتكرِّر - في عدّة نشرات ودوريّات علم آثاريّة وذات اهتمام عامٍّ، و لديه خبرة خاصّة في إيصال الاكتشافات الآثاريّة والرُّؤى النّاجمة عنها لعامّة النّاس. كُتُبُه (علاوةً على كتابه الحالي):

1 - "سُلُطات سماويّة" (بنجوان بوتنام، 1998)؛

2 - "وراثة المَمْلَكَة" (مع ريتشارد أي . هورسلي Horsley، بوتنام، 1997)؛

3 - "علم آثار إسرائيل" (مع ديفيد أ. سمول، شيفيلد، 1995)؛

4 - "أمريكا غير المرئيّة" (مع مارك ب. ليون، هولت، 1995)؛

5 - "اللّفائف المخفيّة" (بوتنام، 1994)؛

6 - "نبيٌّ من بَيْنكم: حياة ييغائيل يادين Yigael Yadin (أديسون ويزلي، 1993)؛

7 - "بَيْن الماضي و الحاضر" (هولت، 1989)؛

8 - "الحفريّات لأجل الله والبلاد" (نوف، 1982).

عُضْو هيئة "مركز إينيم" Ename Center مُنْذُ عام 1998، يعمل في مشاريع دوليّة مُختلفة في علم الآثار وتفسير التُّراث. يُمكن مُراسلته بالبريد الإلكتروني على العُنوان التّالي:

neil.silberman@ename974.org

المُتَرْجِم: سعد رُستُم:

باحث ومُترجم، من حلب، في سُوريا، مُتخصِّص بالدّراسات الإسلاميَّة ومُقارنة الأديان.

بدأ دراسته الجامعيَّة بدراسة الطِّبِّ البشري عام 1976، في جامعة حلب، لينتقل عام 1980، إلى دراسة العُلُوم الإسلاميَّة، مُبتدئاً بالدّراسة على الطّريقة التّقليديَّة في إيران/ قُم (1981 ـ 1985)؛ ليصل للمراحل الأخيرة من السُّطُوح، ثُمَّ ينتقل إلى الدّراسة الجامعيَّة الأكاديميَّة في باكستان من عام 1985، وحتَّى 1992؛ حيثُ نال البكالُوريُوس، ثُمَّ الماجستير في الدّراسات الإسلاميَّة من جامعة البنجاب/ لاهور (1987 و1989)، ثُمَّ ماجستير في التّفسير والحديث من الجامعة الإسلاميَّة العالميَّة / إسلام آباد (1990)، وأخيراً؛ ماجستير فلسفة (M. Phil.) بالدّراسات الإسلاميَّة وطُرُق البحث بدرجة مُمتاز مع الشّرف، من جامعة العلاَّمة إقبال المفتوحة في إسلام آباد (1992).

يُتقن أربع لُغات هي: الفرنسيَّة والإنجليزيَّة والفارسيَّة والأُرديَّة مع إلمام بسيط بالتُّركيَّة. عمل بالصّحافة فترة، ثُمَّ درَّس العُلُوم الدِّينيَّة لعقْد ونصف، ويُدرِّس ـ حاليَّاً ـ اللُّغةَ الفارسيَّةَ في معهد اللُّغات في جامعة حلب، وقد اتَّجه للتّأليف والتّرجمة مُنْذُ عدَّة سنوات، فَصَدَرَ له عدَّة مُؤلَّفات أو كُتُب مُترجمة عن الإنجليزيَّة و الفارسيَّة. من مُؤلَّفاته التي طُبِعَتْ:

1 ـ "الذّات الإلهيَّة والمجازات القُرآنيَّة والنَّبويَّة: إزالة شُبهة التّشبيه والتّجسيم من أساسها"، (دار الأوائل، دمشق، 2002).

2 ـ "التّوحيد في الأناجيل الأربعة وفي رسائل القدِّيسَيْن بُولُس و يُوحنَّا"، (دار الأوائل، دمشق، 2002).

3 ـ "المسيحيَّة وأساطير التَّجسُّد في الشّرق الأدنى القديم"، دانييل إ. باسُوك، (ترجمة عن الإنجليزيَّة)، (دار الأوائل، دمشق، 2002).

4 ـ "أمريكا ـ إسرائيل و11 أيلول 2001"، ديفيد ديوك، (ترجمة عن الإنجليزيَّة)، (دار الأوائل، دمشق، 2002).

5 ـ "حلُّ الاختلاف بَيْن الشّيعة والسُّنَّة في مسألة الإمامة"، (ترجمة عن الفارسيَّة)، (دار الأوائل، دمشق، 2002).

6 ـ "مناقب آل سيِّدنا مُحَمَّد (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم): عليّ وفاطمة والحَسَن والحُسَيْن"، (دار القلم العَرَبي/ حلب، 2003).

7 ـ "عليّ والخُلفاء دُرُوس وَعبَر"، (دار الكوثر/ دمشق، 2003).

8 ـ "الفرَق والمذاهب الإسلاميَّة مُنْذُ البدايات: النّشأة ـ التّاريخ ـ العقيدة ـ التّوزُّع الجَغرافي"، (دار الأوائل، دمشق، 2004).

9 ـ "الفرَق و المذاهب المسيحيَّة مُنْذُ ظُهُور الإسلام وحتَّى اليوم"، (دار الأوائل، دمشق، 2004).

يُمكن ـ لمَنْ أراد ـ مُراسلة المُترجم على بريده الإلكتروني: saadrstm@scs-net.org